طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

٥/٣

القداس الإلهي

سر ملكوت الله

الجزء الأول

الكتـــاب: القدّاس الإلهي - سرّ ملكوت الله (الجزء الأوّل)
الكـــاتب: الرّاهب القس أثناسيوس المقاري
(راهب من الكنيسة القبطيّة)
المطـــبعة: دار نوبار، ١٦أ شارع مدرسة المعلّمين، شبرا، القاهرة
الطّـــبعة: الأولى، يناير ٢٠٠٨م
رقم الإيداع بدار الكتب : ١٦٢١٧/ ٢٠٠٧
الترقيم الدولى : 977-17-4946-3

كافة حقوق الطّبع والنّشر محفوظة للمؤلّف

ثمن النسخة ٢٠ جنيهاً

قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

محتويات الجزأين الأوّل والثّاني من الكتاب

مقدّمة عامة ١٩

الجُزء الأوّل من الكتاب

القسم الأوّل: مدخل إلى القدّاس الإلهي

البّاب الأوّل: في اللّيتورجيّات

الفَصل الأوّل: أنواع اللّيتورجيّات وأقسامها ٣١
معنى كلمة ليتورجيًّا ٣٢
بداية تنوُّع الطُّقوس واللّيتورجيّات ٣٣
تقسيم اللّيتورجيّات ٣٥

الفَصل الثّاني: أساليب النّصوص اللّيتورجيّة وقوانين تطوُّرها ٣٧
أولاً: أساليب النُّصوص اللّيتورجيّة ٣٨
(أ) الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل اليهودي ٣٨
(ب) الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل الهليني ٤٣
ثانياً: القوانين التي تحكم تطوُّر النُّصوص اللّيتورجيّة ٥٠

الفَصل الثّالث: اللّيتورجيّة الأنطاكيّة وفروعها ٥٥
(أ) التّقليد السُّوري ذو الأصل اليهودي (الآشوري) ٥٦
(ب) التّقليد السُّوري ذو الأصل اليوناني (الأنطاكي) ٥٧
ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب ٥٨
تأثير الطّقس الأنطاكي على الطّقس البيزنطي ٦١
تأثير الطّقس البيزنطي على الغرب المسيحي ٦٣
تأثير الطّقس الأنطاكي على الطّقس الماروني والأرمني ٦٥

الفصل الرّابع: اللّيتورجيّة الإسكندرانيّة ٦٧
تمهيد ٦٨
أولاً: اللّيتورجيّات اليونانيّة لكنيسة الإسكندريّة ٧١
بردّيّة ستراسبورج وبردّيّة دير البلايزا ٧٣
بردّيّة ستراسبورج ٧٣
النّص ٧٣
بردّيّة دير البلايزا ٧٤
النّص ٧٤
المخطوطات اليونانيّة للقدّاسات القبطيّة ٧٦
مخطوط رقم (ط ١٥٥) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار ٧٧
مخطوط رقم (ط ١٥٦) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار ٧٩
نصّان يونانيّان منشوران نشرة علميّة لخولاجي القدّاس القبطي ٨٠
النّص الأوّل: مخطوط المكتبة الأهليّة بباريس رقم (٢٣٥) ٨١
النّص الثّاني: مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex ٨٢
ثانياً: اللّيتورجيّات القبطيّة لكنيسة الإسكندريّة ٩٠
(أ) مخطوطات الخولاجيّات التي تحوي النّص القبطي فقط ٩٠
مخطوط الدّير الأبيض بسوهاج ٩٠
النّص ٩٢
(ب) مخطوطات الخولاجيّات بالنّص القبطي مع التّرجمة إلى العربيّة ٩٤
دراسة لبعض المخطوطات القديمة للقدّاس الباسيلي ٩٨
مخطوط مكتبة بودليان بأكسفورد رقم (هنت،٣٦٠) ٩٩
مخطوط مكتبة الفاتيكان رقم (قبطيّات ١٧) ١٠٠
مخطوطات الخولاجيّات المحفوظة في مكتبة دير القدّيس أنبا مقار ١٠١
مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٣) ١٠٢
مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٤) ١٠٢
مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٦) ١٠٣
مخطوط خولاجي رقم (ط ١٤٧) ١٠٣
بعض الاستنتاجات من مقارنة نصوص المخطوطات ١٠٣

أقدم طبعات لخولاجي القدّاسات القبطيّة ١٠٨
ملحق حول ليتورجيّات الكنيسة الإثيوبيّة ١١٠

الباب الثّاني: حول سرّ الإفخارستيّا

الفصل الأوّل: معنى الإفخارستيّا ١١٥
مسمّيات السّرّ ١١٦
إفخارستيّا واحدة مسبوقة بصوم ١٢٠
الإفخارستيّا ذبيحة شُكر للآب بواسطة ابنه يسوع المسيح ١٣٢

الفصل الثّاني: متى تقام الإفخارستيّا ١٣٧
سؤال: في أي يوم من أيام الأسبوع تُقام الإفخارستيّا؟ ١٣٨
في القرنين الأوّل والثّاني للميلاد ١٣٩
في القرون الثّالث والرّابع والخامس للميلاد ١٤٣
في القرن السّادس للميلاد وما يليه ١٥٦

الفصل الثّالث: البنية الأوليّة لقدّاس الإفخارستيّا ١٦٧
تمهيد ١٦٨
الهيكل العام لقدّاس الإفخارستيّا في القرن الأوّل الميلادي ١٦٨
شكل قدّاس الإفخارستيّا قبل مجمع نيقية المسكوني سنة ٣٢٥م ١٧١

الباب الثّالث: الاستعداد للقدّاس الإلهي

الفصل الأوّل: المراحل التّمهيديّة للقدّاس ١٧٩
(١) خبز القربان وتجهيزه ١٨٠
(٢) فحص الكاهن لنفسه قبل التّقدُّم لخدمة القدّاس الإلهي ١٨٩
(٣) فحص الحَمَل ١٩٣
(٤) ارتداء الملابس الكهنوتيّة ١٩٦
طقس ارتداء الملابس الكهنوتيّة ٢١١

الخلاصة ٢١٥
ارتداء ملابس الخدمة في الطُّقس البيزنطي ٢١٧
(٥) رفع صلوات الاستعداد وفرش المذبح ٢١٨
ترتيب فرش المذبح عند البابا غبريال الخامس ٢١٩
تعقيب مطوَّل على طقس فرش المذبح ٢١٩
لا يبدأ فرش المذبح قبل إيقاد قنديل الشَّرقيَّة وشمعتي المذبح ٢٢٠
لا يفرش الكاهن المذبح إلاَّ وهو مرتدياً ثياب الخدمة ٢٢٠
مكان وقوف الشمَّاس عند المذبح أثناء فرشه وأثناء القدَّاس ٢٢١
لحن "اللّي القربان" وارتباطه بفرش المذبح ٢٢٤
متى يقال مرد "الليلويا فاي بي" ٢٣٠
نص صلوات الاستعداد لفرش المذبح ٢٣١
المفهوم اللاهوتي لصلوات الكاهن السِّريَّة عن نفسه ٢٣٥
فرش المذبح في التَّقليد البيزنطي ٢٣٨
(٦) التَّسبيح بمزامير السَّواعي ٢٣٩

الفَصل الثَّاني: التئام الجماعة في الكنيسة شرطٌ لبدء الصَّلاة فيها ٢٤٩

القسم الثَّاني: أقسام القدَّاس الإلهي

البَاب الأوَّل: تقديم الحمل

الفَصل الأوَّل: حول طقس تقديم الحمل ٢٦٧
تمهيد ٢٦٨
موضع طقس تقديم الحَمَل في القدَّاس الإلهي ٢٦٨
جانب من رسالة أنبا مقاره أسقف منوف العليا في القرن العاشر ٢٧٣
جدل لاهوتي حول الغاية من طقس تقديم الحَمَل ٢٧٥

الفَصل الثَّاني: العناصر اللّيتورجيَّة لطقس تقديم الحمل ٢٧٩
تمهيد ٢٨٠

طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة في القرن العاشر الميلادي ٢٨٢
العناصر اللِّيتورجيَّة لطقس تقديم الحَمَل في القرن الخامس عشر ٢٨٤
استبراء الحَمَل ومسح ظهره، ثم استبراء الخمر ٢٨٥
غسل الكاهن ليديه ٢٩٣
غسل اليدين بعد تقديم الحَمَل ٢٩٣
غسل اليدين قبل تقديم الحَمَل ٢٩٦
مسح الكاهن لخبز التَّقدمة بيديه فوق وأسفل، مع صلاة ٣٠٠
تذكارات الحَمَل ٣٠٨
دورة الحَمَل حول المذبح ٣٠٩
مرد "الليلويا فاي بي" ٣٢١
رشومات الحَمَل ٣٢٢
مزج الخمر بالماء في الكأس ٣٢٧
ترتيل الذُّكصا ٣٣٥
صلاة الشُّكر "فلنشكر صانع الخيرات والرَّحوم ..." ٣٣٧
أوشيَّة التَّقدمة، أو صلاة الغطاء ٣٤٣
لحن Ⲥⲱⲟⲓⲥ ⲁⲙⲏⲛ (سوتيس آمين) ٣٤٥
لحن Ⲛⲓⲥⲁⲃⲉⲩ (نيسافيف) "يا كل حكماء إسرائيل" ٣٤٩
صلوات التَّحليل ومرد "سوتيس آمين" ٣٥٢
تحليل الخدَّام ٣٥٣
لمحة عن طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة البيزنطيَّة ٣٥٩

البَاب الثَّاني: قدَّاس الموعوظين أي قدَّاس الكلمة

الفَصل الأوَّل: مقدِّمات حول قدَّاس الكَلمة ٣٦٣
تمهيد ٣٦٤
قدَّاس الكَلمة في العصور المبكِّرة ٣٦٥
الخلاصة ٣٧١
علاقة قدَّاس الكَلمة بقدَّاس الإفخارستيَّا ٣٧٢

ارتباط القراءات بالإفخارستيّا في التّاريخ الكنسي واللّيتورجي ٣٧٤
ارتباط القراءات بالإفخارستيّا في تعليم آباء الكنيسة ٣٧٧
تأثير كنيسة الإسكندريّة على اختيار القراءات في الكنائس الأخرى ٣٨٣
الكُتُب القانونيّة المسموح بقراءتها في الكنيسة ٣٨٥
مقارنة بين القراءات الكتابيّة في الطّقوس الشّرقيّة المختلفة ٣٨٨
استقلاليّة قراءات السُّبوت والآحاد عن باقي أيام الأسبوع ٣٩٠
شهادة مخطوطات القطمارسات والدّلالات ٣٩٦
استنتاجات فحص المخطوطات ٤٠١
التّقييم الختامي ٤٠٣
حول قطمارس أبو البركات ابن كبر ٤٠٣

الفَصل الثّاني: المراحل الطّقسيّة لقدّاس الكَلمة ٤٠٥

تمهيد ٤٠٦
أولاً: رفع البُخور ودورة البُخور في الكنيسة ٤٠٦
أوشيّة بخور البولس والأواشي الثّلاث الصّغار ٤٠٦
لمحة مؤثرة من تاريخ الكنيسة ٤١٦
دورة البُخور في الكنيسة ٤١٧
ثانياً: القراءات ٤٢٠
الدّورة السّنويّة لقراءة الفصول الكتابيّة ٤٢٥
المراحل التّاريخيّة التي عبرت عليها القراءات الكنسيّة ٤٢٧
طقس قراءة الفصول الكتابيّة في القدّاس القبطي ٤٣٧
(١) فصل البولس وأوشيّته ٤٣٨
(٢) فصل الكاثوليكون وأوشيّته ٤٤٥
مرد الإبركسيس ٤٤٧
(٣) فصل الإبركسيس وأوشيّته ٤٤٩
(٤) السّنكسار ٤٥٣
تأثير الشّرق المسيحي على الاحتفال بتذكارات القدّيسين ٤٦٠
حول السّنكسار في الكنيسة القبطيّة ٤٦٢

سحل بأقدم السنكسارات القبطيّة ٤٦٤
الموضع الطّقسي لقراءة السّنكسار في اللّيتورجيّة القبطيّة ٤٦٦
حول السّنكسار في الكنائس الشّرقيّة الأخرى ٤٦٩
(٥) تسبحة الثّلاثة تقديسات ٤٧١
طقس ترتيل تسبحة الثّلاثة تقديسات ٤٧٦
(٦) فصل الإنجيل المقدّس ٤٧٧
أوشيّة الإنجيل ٤٧٨
ترتيل مزمور الإنجيل بالقبطيّة ٤٨١
دورة الإنجيل حول المذبح وتقبيله قبل قراءته ٤٨٢
مرد المزمور القبطي ٤٨٦
قراءة فصل الإنجيل المقدّس ٤٨٩
ارتباط طقس رفع البخور بوقت قراءة الإنجيل المقدّس ٤٩٥
الوقوف أثناء قراءة فصل الإنجيل ٤٩٧
كشف الرأس عند قراءة الإنجيل ٤٩٨
تقبيل الإنجيل بعد قراءته ٤٩٩
لمحة عن الطّقس الحالي للقراءات الكتابيّة في بعض الكنائس الشّرقيّة ٥٠٢
ثالثاً: العظة ٥٠٦
رابعاً: أوشيّة "أيها الطّويل الأناة" وما يعقبها من أواشي ٥١٤
تمهيد ٥١٤
ابن سباع يشرح الطّقس القديم لهذه الأواشي ٥١٦
البابا غبريال الخامس يشرح طقس هذه الأواشي ٥١٧
من قول معلّمي البيعة عن هذه الأواشي ٥١٧
مخطوطات الخولاجيّات تشرح طقس هذه الأواشي ٥١٩
أسباب تحوُّل هذه الأواشي إلى صلوات سريّة ٥٢٠
خلاصة ما سبق ذكره ٥٢١
المفهوم اللّيتورجي لعبارة "اذكر يارب ..." ٥٢٢
طقس خروج الموعوظين من الكنيسة في الطّقوس المختلفة ٥٢٤

الجزء الثَّاني من الكتاب

البَاب الثَّالث: قدَّاس المؤمنين أي الأنافورا

الفَصل الأوَّل: صلاة الحجاب والأواشي الثَّلاث الكبار ٥٣٩

تمهيد ٥٤٠

أولاً: صلاة الحجاب ٥٤٢

ثانياً: الأواشي الثَّلاث الكبار ٥٥٠

الأواشي الثَّلاث الكبار في الطَّقس القبطي ٥٥٤

تعقيب على الأواشي الثَّلاث الكبار في الطَّقس القبطي ٥٦٠

أوشيَّة سلام الكنيسة ٥٦٠

أوشيَّة الآباء ٥٦٢

أوشيَّة الاجتماعات ٥٦٥

الخطوط العريضة للأواشي في الطُّقوس المختلفة ٥٦٨

الفَصل الثَّاني: قانون الإيمان وغسل اليدين ٥٧١

أولاً: قانون الإيمان ٥٧٢

تمهيد ٥٧٢

قوانين الإيمان وصيغها المختلفة ٥٧٤

قانون إيمان الرُّسُل ٥٧٦

(١) الصِّيغة الرُّومانيَّة (اللاتينيَّة) القديمة ٥٧٦

(٢) الصِّيغة الحاليَّة ٥٧٧

قانون إيمان نيقية ٥٧٨

الفروقات اللَّفظيَّة للقانون النِّيقاوي بين الطُّقوس المختلفة ٥٨٠

ترديد قانون الإيمان في داخل الإفخارستيَّا ٥٨٢

طقس ترديد قانون الإيمان في التَّقليد القبطي ٥٨٥

ثانياً: غسل الكاهن ليديه ٥٩١

تمهيد ٥٩١

غسل اليدين في الطُّقوس المختلفة ٥٩٢
غسل الكاهن ليديه في الطَّقس القبطي ٥٩٢

الفَصل الثَّالث: صلاة الصُّلح (ما قبل الأنافورا) والقُبلة المقدَّسة ٥٩٩

أولاً: صلاة الصُّلح ٦٠٠
تمهيد ٦٠٠
صلاة الصُّلح في الطَّقس القبطي ٦٠٢
صلوات الصُّلح في اللِّيتورجيَّات القبطيَّة ٦٠٣
تعقيب على بعض صلوات الصُّلح في اللِّيتورجيَّا القبطيَّة ٦٠٥
ثانياً: القُبلة المقدَّسة ٦١٠
تمهيد ٦١٠
المفهوم اللِّيتورجي للقُبلة المقدَّسة ٦١٢
قُبلة السَّلام في الطُّقوس المختلفة ٦١٦
القُبلة المقدَّسة في الطَّقس القبطي ٦٢١
شكل القُبلة المقدَّسة اليوم في الطُّقوس المختلفة ٦٢٤
الأسبَسموس الذي يرافق نداء الشمَّاس بالقُبلة المقدَّسة ٦٢٤
الأسبَسموس الآدام ٦٢٥
الأسبَسموس الواطس ٦٢٥
أصل الهيتنيَّات ومنشأها ٦٣٠
معنى قول الشمَّاس: قدِّموا على الرَّسم ٦٣٢

الفَصل الرَّابع: مقدِّمة الأنافورا أو صلاة الشُّكر الكبرى ٦٤١

تمهيد ٦٤٢
معنى الأنافورا ٦٤٣
الحوار اللِّيتورجي في مقدِّمة الأنافورا ٦٤٥
أصل الرُّشومات التي صاحبت الحوار اللِّيتورجي ٦٥٠
الرَّب مع جميعكم ٦٥١
ارفعوا قلوبكم ٦٥٥

فلنشكر الرَّب ٦٥٨
مستحق وعادل ٦٦٠
العناصر التي تحويها صلاة الشُّكر الكبرى ٦٦٢
واحدة من صلوات الشُّكر قبل نيقية ٦٦٥
مقدِّمة الأنافورا في قدّاس القدّيس سرابيون ٦٦٦
تطوُّر النّص اللّيتورجي لمقدِّمة الأنافورا ٦٦٨
أيها الجلوس قفوا ٦٧٣
وإلى الشَّرق انظروا ٦٧٣
ننصت ٦٧٤
مقدِّمة الأنافورا في القدَّاس المرقسي ٦٧٥

الفَصل الخامس: التَّسبحة الشَّاروبيميَّة ٦٨١

تمهيد ٦٨٢
كنيسة الإسكندريَّة هي منشأ التَّسبحة الشَّاروبيميَّة ٦٨٣
التَّطوُّر الذي لحق بالتَّسبحة الشَّاروبيميَّة في الكنائس المختلفة ٦٨٨
الأسبَسموس الذي يسبق التَّسبحة الشَّاروبيميَّة ٦٩١

الفَصل السَّادس: أجيوس، قدوسٌ ٦٩٧

توضيح ٦٩٨
شرح وتعقيب ٧٠٠
تأمُّل في الرُّشومات بلفافة الحَمَل ثم بلفافة الكأس ٧٠٤
دورة البُخور حول المذبح عند قول الكاهن: أجيوس ٧٠٦
مضمون الصَّلوات اللّيتورجيَّة بعد أجيوس ٧٠٦

الفَصل السَّابع: كلمات التَّأسيس ٧١٧

تمهيد ٧١٨
أقدم نص قبطي صعيدي لكلمات التَّأسيس في القدَّاس الباسيلي ٧١٨
أقدم نص يوناني لكلمات التَّأسيس في القدَّاس الباسيلي ٧١٩
أقدم نص يوناني لكلمات التَّأسيس في القدَّاس الغريغوري ٧٢١

أقدم نص يوناني لكلمات التأسيس في القدّاس المرقسي ٧٢٢
كلمات التأسيس في قدّاس القدّيس سرابيون ٧٢٢
شرح المضمون الليتورجي لكلمات التأسيس ٧٢٣
الطّقس العملي المصاحب لكلمات التأسيس ٧٢٦
المارسة الطّقسيّة على الخبز ٧٢٦
المارسة الطّقسيّة على الكأس ٧٣١
التّطوّر الذي لحق بكلمات التّأسيس ٧٣٤
أخذ خبزاً ٧٣٤
ونظر إلى فوق ٧٣٧
وشكر وبارك وقدس ٧٣٩
وقسّمه وأعطاه لتلاميذه ٧٤٣
خذوا كلوا هذا هو جسدي ... خذوا اشربوا هذا هو دمي ٧٤٤
يكسر عنكم وعن كثيرين ... يسفك عنكم وعن كثيرين ٧٤٦
يعطى لمغفرة الخطايا ٧٤٧
هذا اصنعوه لذكري ٧٤٨
هكذا الكأس أيضاً من بعد العشاء، مزجها من خمر وماء ٧٤٩
وذاق وأعطاها أيضاً لتلاميذه ٧٥٠
خذوا اشربوا ٧٥١
لأن كل مرّة تأكلون ... وتشربون ٧٥٣

الفَصل الثّامن: التّذكار ٧٥٥
معنى الذّكرى الإفخارستيّة ٧٥٦
العناصر الليتورجيّة للتّذكار ٧٦٢
(١) بادئة التّذكار ٧٦٢
(٢) مضمون أو موضوع التّذكار ٧٦٧
(٣) تقريب القرابين ٧٧٠
المفهوم اللاهوتي لتعبير "نقرّب لك مما لك" ٧٧٠

الفَصل التّاسع: الاستدعاء ٧٧٥
تمهيد ٧٧٦
الاستدعاء ٧٧٦
العلاقة بين السُّجود وحلول الرُّوح القُدُس علينا وعلى القرابين ٧٧٨
طقس استدعاء الرُّوح القُدُس ٧٨٤
الاستدعاءات في اللّيتورجيّات القبطيَّة ٧٩٥
حول مفهوم الاستحالة الجوهريَّة ٨٠٤
أسئلة يلزم التّعرُّف على إجاباتها ٨١٠

الفَصل العاشر: الأواشي والمجمع والتّرحيم ٨٢١
تمهيد ٨٢٢
بين الطّهارة والتّقديس في مقدّمة الأواشي ٨٢٤
أولاً: الأواشي ٨٢٧
الأواشي في القدّاس الغريغوري ٨٣٣
الأواشي في القدّاس الكيرلسي ٨٣٤
موقع الأواشي في اللّيتورجيّات المختلفة ومضمونها ٨٣٥
جانب من صلوات الأواشي في الطّقس البيزنطي ٨٣٧
ثانياً: المجمع ٨٣٩
المفهوم اللّيتورجي واللّاهوتي لصلاة المجمع ٨٣٩
التّطوُّر اللّيتورجي لصلاة المجمع ٨٤٧
ثالثاً: التّرحيم ٨٥٤
المرد الذي يقال بعد التّرحيم ٨٦٢
أولئك يارب الذين أخذت نفوسهم نيِّحهم ٨٦٣
مرد "كما كان هكذا يكون" ٨٦٦
تصحيح يلزم تداركه ٨٧١
تمجيد الآب بابنه في ختام الصّلاة الإفخارستيّة ٨٧٣
ممارسة طقسيَّة جديرة بالاهتمام ٨٧٤

الفصل الحادي عشر: القسمة ٨٧٧
تمهيد ٨٧٨
مقدّمة القسمة ٨٧٩
السُّجود الذي اعترض مقدِّمة القسمة ٨٨٠
صلوات القسمة ٨٨٣
أهم الصّفات التي وردت عن الله الآب في صلوات القسم ٨٨٧
طقس القسمة ٨٨٧
المراحل الطّقسيّة لقسمة الجسد المقدّس ٨٨٨
المرحلة الأولى: وتتم في التّأسيس عند قول الكاهن: "وقسّمه" ٨٨٨
المرحلة الثّانية: وتتم بعد حلول الرُّوح القُدُس ٨٩٠
القسمة المتّصلة ٨٩١
القسمة المنفصلة ٨٩٢
القسمة في الطُّقوس الأخرى ٨٩٤
صلاة أبانا الذي في السّموات ٨٩٦
طقس ترديد الصّلاة الرّبانيّة ٩٠١
الصّلوات التي تعقب الصّلاة الرّبانيّة ٩٠٣
صلاة بعد أبانا ٩٠٣
صلاة الخضوع للآب ٩٠٥
صلاة التّحليل للآب ٩٠٧

الفصل الثّاني عشر: القُدسات للقدّيسين والاعتراف الأخير ٩١١
تمهيد ٩١٢
الطّقس المصاحب للنّداء: القُدسات للقدّيسين ٩١٣
تعقيب على الرّشم المتبادل بين الجسد والدّم ٩١٦
رشم الجسد بالدّم في الطُّقوس المختلفة ٩١٨
عودة إلى الطّقس القبطي ٩١٨
الاعتراف الأخير ٩١٩
الطّقس المصاحب للاعتراف الأخير ٩٢١

مرد الشمَّاس عقب الاعتراف الأخير ٩٢٣

الفصل الثَّالث عشر: التَّناول والتَّرتيل ٩٢٧

تمهيد ٩٢٨

الطَّقس القبطي للتَّناول من الأسرار المقدَّسة ٩٢٩

ماء التَّغطية ٩٤٢

التَّناول في المصادر الآبائيَّة والطَّقسيَّة القديمة ٩٤٣

طقس التَّناول في الكنائس الأخرى ٩٤٧

التَّناول شركة في سرّ وحدة الكنيسة ٩٥١

التَّرتيل المصاحب لتوزيع الأسرار المقدَّسة ٩٥٤

التَّرتيل في الكنائس الأخرى ٩٥٩

غسل الأواني بعد توزيع الأسرار الإلهيَّة ٩٦٠

رش الماء والتَّسريح ٩٦١

وفي الختام ٩٧١

الملاحق

الملحق الأوَّل: نص خولاجي القدِّيس سرابيون أسقف تمويس ٩٧٥

الملحق الثَّاني: طقس تعمير الكأس إذا حدث له حادث ١٠٠٥

أقدم مصادر طقسيَّة قبطيَّة أوردت هذا الطَّقس ١٠٠٦

أسباب ممارسة طقس تعمير الكأس ١٠١٠

شرح طقس تعمير الكأس بمقارنة المخطوطات ١٠١٠

الملحق الثَّالث: فهرس مخطوطات خولاجيَّات القدَّاسات القبطيَّة في نصها اليوناني أو القبطي والمحفوظة في مكتبات العالم ١٠٢١

الملحق الرَّابع: حول كتاب سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت ١٠٣١

المراجع ١٠٣٧

مقدّمة عامة

سرّ الإفخارستيّا هو سرّ الأسرار في الكنيسة، بل هو نفسه سرّ المسيح والكنيسة، فهو سرّ حضور المسيح الدّائم فيها، ومن ثمّ حضور الآب والابن والرُّوح القدُس. لأنه حيث المسيح فهناك الآب والرُّوح القدُس. وقبولنا للمسيح هو كشف لمحبّة الآب لنا. فسر الإفخارستيّا هو بالضّبط سر وصولنا إلى الله، وهو الينبوع الحي والمحيي لمعرفة الكنيسة عن الثّالوث القدّوس. ليست معرفة مجرّدة، بل معرفة الخبرة والاتحاد بالمسيح والحياة الأبديّة «لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته» (فيلبي ٣: ١٠).

القدّاس الإلهي هو خروج من هذا العالم، وارتقاء إلى السّماء. والمذبح المقدّس هو رمز هذا الارتقاء ووسيلة تحقيقه، فالمسيح صعد إلى سماء الأسرار، وسماء الأسرار هي الكنيسة على حد قول القدّيس يعقوب السّروجي. والإفخارستيّا هي سرّ وحدة الكنيسة وبقائها، لأن القدّاس الإلهي هو علّة إيمان الكنيسة وحياتها وخبرتها.

والقدّاس الإلهي هو مركز العبادة ومحور الحياة اللّيتورجيّة في الشّرق المسيحي كله، وهو سر بقاء المسيحيّة الشّرقيّة حتى اليوم وسط محيط لم تهدأ أمواجه وأنواؤه منذ قرون طويلة خلت. إذ ظل القدّاس الإلهي سفينة نجاة لشعوب الشّرق احتمت فيها من طوفان هذا العالم الذي وُضع في الشّرير. بل كان وقت - امتد أحياناً لقرون بأكملها - لم تكن فيه كنيسة الإسكندريّة بالذّات تملك من مقوّمات بقائها سوى القدّاس الإلهي والتّسبحة اليوميّة، حتى أكاد أن أقطع بكل يقين أن كتابي الخولاجي المقدّس والأبصلموديّة السّنويّة المقدّسة - إلى جانب كتب الصّلوات الطّقسيّة واللّيتورجيّة الأخرى - هما الكتابان الأساسيّان اللّذان حفظا لنا

لاهوت كنيسة الإسكندريَّة وتعليمها في وجدان الشَّعب القبطي وفي بؤرة حياته اليوميَّة، لاهوت يرتِّلونه كل يوم، لأنه لاهوت عبادي ليتورجي حيٌّ، لا تحويه كلمات مرصوصة في كتب وحسب، بل مرتَّل ومنشود ومسبَّح من القلوب في كل صباح ومساء.

والقدَّاس الإلهي ليس معدوداً ضمن ساعات هذا الزَّمن. إنه لحظات من الأبديَّة، نعيشها ونحن ما زلنا في الجسد. ويمكننا أن نتصوَّر وقت القدَّاس وكأنما الحجاب القائم بين الزَّمن والأبديَّة قد ارتفع مؤقتاً لكي ينفتح الزَّمن على الأبديَّة، فنشترك ونحن داخل كنيسة مبنية من حجارة، ونحن ما نزال في الجسد، في ملكوت السَّموات. نشترك في اليوم الذي صنعه الرَّب، في أورشليم السَّمائيَّة، في الأبديَّة.

فالقدَّاس الإلهي طاقة تفتح على الأبديَّة مباشرة، نطل منها على اليوم الذي صنعه الرَّب، بل هو أكثر من إطلاله: فنحن نعيش أثناء القدَّاس ذلك اليوم نفسه الذي صنعه الرَّب، نخرج من حدود الزَّمن الفاني ونعيش حياتنا الأبديَّة.

والهيكل هو مكان انطلاق الأرض لتعيش في السَّماء. وهو دائماً يكون رباعي الشَّكل تعبيراً عن أربعة أقطار الأرض. ومن فوقه القبَّة تعبيراً عن السَّماء.

وسر الإفخارستيَّا هو سر تحوطه الهيبة والجلال، وتتباين طقوسه البديعة بين كنيسة وأخرى، إلاّ أنه يمارَس في كل منها وسط أجواء من القُدسيَّة، بأيقونات وشموع وبخور وألحان، وسجود وقيام، وركوع وبسط يدين، وإحناء رأس ورفع عينين إلى السَّماء، مصحوبة كلها بنصوص ليتورجيَّة تتَّفق كلها بغاية الإتقان في خطوطها الأساسيَّة الأوليَّة.

أما أبدع ما في القدّاس الإلهي فهو الحضور الشّعبي من الرِّجال والنّساء والفتيان والفتيات والشبّان والشابّات والأطفال والشّيوخ يلتفّون كلهم حول المسيح المخلّص الحبيب وفي معيّته وضيافته، فهو المضيف وصاحب البيت، وفي ذات الوقت هو طعام وشراب المدعوّين ونور وأصل حياتهم. فمنه وبه وله كل الأشياء، وهي كائنة بإرادته ومسرّة صلاحه.

لقد أسّس السيِّد المسيح سر الإفخارستيّا في ليلة العشاء الأخير، ولكن بعد أن مهّد هذا الحَدَث السِّري العظيم الذي افترق عنده الزّمن إلى عهدين، واحد قديم عبر وفات، وآخر جديد دائم لا يزول أبداً.

فقد سأل اليهود الرَّب قائلين: «أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك، ماذا تعمل؟. آباؤنا أكلوا المن في البريَّة كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السّماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم: ليس موسى أعطاكم الخبز من السّماء، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السّماء، لأن خبز الله هو النّازل من السّماء الواهب حياة للعالم. فقالوا له يا سيِّد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع **أنا هو خبز الحياة**. من يُقبل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً ... فكان اليهود يتذمَّرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السّماء. وقالوا: أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمّه. فكيف يقول هذا إني نزلت من السّماء؟ ... الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبديَّة. **أنا هو خبز الحياة** ... هذا هو الخبز النّازل من السّماء ... **أنا هو الخبز الحي** الذي نزل من السّماء ... **والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي** الذي أبذله من أجل حياة العالم. فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل».

ومرَّة ثالثة كرَّر يسوع قوله السّابق بشرح أوفر، وكان يعلّم في

مجمع كفر ناحوم، فقال: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبديَّة وأنا أقيمه في اليوم الأخير. لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه ... هذا هو الخبز الذي نزل من السَّماء ... فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا إن هذا الكلام صعب. من يقدر أن يسمعه؟. فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمَّرون على هذا، فقال لهم: أهذا يعثركم ... من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه. فقال يسوع للإثني عشر ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟ فأجابه سمعان بطرس يارب إلى من نذهب. كلام الحياة الأبديَّة عندك» (يوحنا أصحاح ٦).

هذا القول العجيب والمذهل سمعه التَّلاميذ غير مرَّة، وبرغم أنهم لم يستوعبوا قول الرَّب، ولم يعرفوا كيف يمكن أن يصير التَّطبيق، ساروا وراءه بالإيمان. ولما كانت السَّاعة، وفيما هم متَّكئون يأكلون الفصح، وبدون مقدِّمات وشرح هذه المرَّة «أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التَّلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا ... ثم سبَّحوا وخرجوا إلى جبل الزَّيتون» (متى ٢٦-٣٠).

وهكذا تأسَّس العهد الجديد بدم في كأس، هو دم المسيح المسفوك عن حياة العالم قبل أن يُرفع على الصَّليب، لا ليلغي فعل الدَّم المهرق على الصَّليب، بل ليربط فعل سر الإفخارستيَّا الذي أكمله بنفسه ككاهن بفعل سر الصَّليب الذي أتمَّه بإرادته ومسرَّة أبيه. لأنه لا يمكن أن يخضع

سر الحياة الأبديّة لوطأة الزّمن. فصار الخبز في يده جسده المكسور من أجل الكثيرين قبل أن يدقوا المسامير في جسده على الصّليب: والخمر في الكأس تحوّل سريا إلى دمه الكريم قبل أن تنفذ الحربة في جنبه على الصّليب ليسيل منه دم وماء غفراناً لكل العالم. ومن ذا الذي يستطيع أن يسبر بعقله سر الحياة الأبديّة؟ وإلاّ ما كان السّرّ سراً.

وهنا لا يمكننا أن نفصل بين جسد المسيح المكسور في سر الإفخارستيّا على المذبح، وجسده المكسور على الصّليب. ولا نستطيع أن نفرّق بين دم كأس العهد الجديد ودم الجنب المطعون على الصّليب، لأن المسيح له المجد قد أكمل على المستوى السّرّي ما كان سيتحقّق على المستوى العملي؛ حتى تصير ذبيحة المسيح ذبيحة واحدة، وفعلها واحد، وفي ذات الوقت لا يحدّها الزّمان أو يحصرها المكان.

وعند القدّيس أثناسيوس الرسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) الإفخارستيّا هي مأكل فائق سماوي، وطعام روحاني[١]، وطعام سماوي[٢]، والوليمة الإلهيّة غير الفاسدة[٣]، وطعام الحياة[٤]؛ والخبز الإلهي[٥]، والعشاء العظيم السّماوي الذي يفوق العالم[٦].

ويقول أيضاً:

يا إخوتي، إن هذا الخبز لا يكون ههنا فقط طعاماً للأبرار، فليس القدّيسون على الأرض فقط يتذوّقون هذا الخبز

١- الرسالة إلى سرابيون ٤: ١٩
٢- الرسالة الفصحيّة ٥: ٥
٣- الرسالة الفصحيّة ٢٨
٤- الرسالة الفصحيّة ٥: ١
٥- الرسالة الفصحيّة ٧: ١
٦- الرسالة الفصحيّة ٤٠

وهذا الدَّم. إننا سنتناولهما أيضاً في السَّماء حيث يكون الرَّب نفسه هو طعام الأرواح العُليا والملائكة. فهو الفرح الحقيقي لجميع الأرواح السَّمائيَّة ... فمنذ الآن قد أعطانا الرَّب «خبز الملائكة» (مزمور ٧٨:٢٥)].

وقد وعد الذين يصبرون معه في تجاربه قائلاً: «أنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ...» (لوقا ٢٢:٢٩، ٣٠). فيا لها من وليمة عظيمة يا إخوتي، وما أعظم توافق الذين يأكلون من المائدة السَّماويَّة. وما أعظم تهليلهم، لأنهم يتلذَّذون ليس بالطَّعام البائد الذي يندفع إلى الخارج، بل بالطَّعام الذي يمنح الحياة الأبديَّة. فمن يُحسب أهلاً لهذا المحفل؟ ومن يسعد بأن يُدعى ويُحسب مستحقاً لهذا العيد الإلهي؟ بالحق «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله» (لوقا ١٤:١٥)][٧].

والكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز إن كان يشير أحياناً إلى الجانب اللاهوتي أو الرُّوحي للقدَّاس الإلهي، إلاَّ أنه يركِّز أساساً على الجانب الطَّقسي العملي، أي التَّرتيب الطَّقسي للقدَّاس الإلهي، كيف كان شكله الأولي البسيط؟، وكيف تطوَّرت ممارساته الطَّقسيَّة حتى صارت إلى ما هي عليه الآن؟. ولستُ أبغي من عرض التَّاريخ الطَّقسي للقدَّاس الإلهي سوى تبيان أن الطَّقس الكنسي هو كأي كائن حي لا يتوقَّف على النُّمو والتَّطوُّر، وليس معنى نموه أو تطوُّره هو تحديثه، لأن طقس الكنيسة القبطيَّة بالذَّات هو طقس يشهد بأصالته وقِدَمه كل علماء الليتورجيَّا شرقاً وغرباً، ولكنني أحاول أن أتتبَّع المراحل التَّاريخيَّة التي عبرت عليها ممارساته الطَّقسيَّة، ولاسيَّما قبل بدء الأنافورا، أي قدَّاس المؤمنين. فهذا

---

٧ ـ الرسالة الفصحيَّة ٨:٩

في حد ذاته كفيل أن يربط ممارساتنا الطقسيَّة الحاضرة بتلك القديمة، ويُعلي فحواها، فيرتبط الحاضر بالماضي، فيزداد الطقس وضوحاً، لتصبح الممارسة الطقسيَّة معينة على الصَّلاة لا مكبِّلة لها.

إننا جيل يعيش بين عهدين؛ عهد المخطوطات، أي الكتابات المنسوخة باليد، وعهد الطِّباعة أي الكتابات المطبوعة بالوسائل التِّقنية الحديثة. وشتَّان بين العهدين؛ عهد المخطوطات الرَّتيب، البطيء جداً، المدقِّق في كل كلمة، وعهد المطبوعات السَّريع جداً، الملئ بأطنان الكُتُب التي تُطبع كل يوم في شتَّى صنوف المعرفة، ومن بينها كتب الكنيسة. وعلى قدر صعوبة كتابة مخطوط كانت صعوبة التَّعديل أو التَّبديل فيه أو ربما الخطأ أيضاً. وفي المقابل صارت سهولة طباعة كتاب، يوازيها سهولة في التَّغيير والتَّعديل والتَّأويل، وربما الخطأ أيضاً.

لقد بات المخطوط ضعيف التَّأثير، أما الكتاب فتأثيره طاغي عنيف، بل قد تعدى الأمر من كتاب تقليدي مطبوع إلى كتاب إلكتروني على شبكة المعلومات الدوليَّة، ما أن تُكتب حروفه حتى يقرأها للتو أي إنسان في أي مكان في شتَّى أرجاء المعمورة. من هنا قيَّد الرَّب أناساً أظنهم من قبيل الشُّهداء، شهداء حب الكنيسة الجامعة، يبذلون حياتهم من أجل توثيق المخطوطات ونقلها من مخطوطات محبوسة في رفوف المكتبات والمتاحف للفرجة وتنشيط السِّياحة، إلى كتابات ترى النُّور، وتُحفظ بالوسائل التِّقنية الحديثة، فتحميها من الضَّياع والاندثار. ولذلك فحين نعود إلى مخطوط أو إلى كتاب قديم لنستشهد به، فنحن نعود إلى أصولنا، وإلى تقليدنا، أي إلى أصل كياننا. وحين نستشهد بأقوال الآباء وكتاباتهم فنحن نشهد لأصولنا ونبني على أساسنا القديم الواحد، وليس على أساس آخر غير الذي وُضع أولاً.

فصدق كلامنا يعتمد على تصديق آبائنا له. وأصالة تعليمنا تعتمد على ما حوته كتب تراثنا من شواهد تأصّل هذا التّعليم.

والكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز هو باختصار بحث في التّاريخ الطّقسي للقدّاس القبطي، جاب بين أقدم مصادرنا الطّقسيّة للقدّاس الإلهي، سواء المخطوط منها أو المطبوع، ومع ذلك: وبرغم كونه دراسة علميّة أكاديميّة لليتورجيّة القدّاس الإلهي، فهو لا يرمي إلى تعديل أو تبديل في نصوص أو طقوس صلواتنا اللّيتورجيّة: مهما صغر هذا التّعديل أو التّبديل.

راجياً إلى الرّب أن يجعل منه سبباً لفهم أكثر عمقاً لقدّاسنا القبطي، أغلى ما تسلّمناه من الرّب نفسه، طريقاً حياً، مؤدّياً إلى الحياة: ونبعاً صافياً، ظل يروي النّفوس طيلة مسيرة الحياة، حتى أوصلهم إلى مساكن النّور، حيث إشراقة وجه يسوع، والذي معه لا تبغي النّفس شيئاً بعد.

وفي الختام أستودع هذه الدّراسة بين يدي الرّب، لتكون للبنيان، ولفهم أعمق للقدّاس الإلهي، ببركة شفاعة والدة الإله القدّيسة الطّاهرة مريم، وشفاعة كل مصاف السّمائيّين، والقدّيس يوحنا المعمدان، وصلوات سادتي الآباء الرُّسُل القدّيسين، وكل مصاف الشّهداء والأبرار والقدّيسين: وبركة صلوات أبينا الطّوباوي المكرّم بكل كرامة، قداسة البابا شنوده الثّالث، بابا الإسكندريّة وبطريرك الكرازة المرقسيّة، وصلوات سادتي الآباء المطارنة والأساقفة والقمامصة والقسوس، وإخوتي الشّمامسة والرّهبان، وكل طغمة العلمانيّين المباركين.

ولإلهنا المجد والبركة والسّجود الآن وكل أوان وإلى آباد الدّهور كلها آمين.

القسم الأوَّل

مدخل إلى القدَّاس الإلهي

البَاب الأوَّل

في اللِّيتورجيَّات

الفَصل الأوّل

أنواع اللّيتورجيّات وأقسامها

معنى كملة "ليتورجيّا" λειτουργία - liturgy

تتكوّن كلمة "ليتورجيّا" من مقطعين هما: λέως (ليؤس) أي "شعب"، و ἔργον (إرغون) أي "عمل"، فيكون معنى الكلمة "عمل شعبي". وهكذا استُخدمت الكلمة لتفيد أي عمل شعبي من أي نوع، وليس الدّيني فقط. ومنذ زمن التّرجمة السّبعينيّة للعهد القديم في القرن الثّالث قبل الميلاد، استُخدمت الكلمة خصيصاً لتحمل معنى "الخدمات الّتي كانت تُقدّم في الهيكل اليهودي". ويستخدم كتاب العهد الجديد كلمة "ليتورجيّا" مرّتين كمرادف للعبادة المسيحيّة[١]، وفي المرّات الأخرى الّتي وردت فيها الكلمة صارت تعني "خدمة" سواء كانت خدمة روحيّة أم جسديّة.

وحينما يتكلّم القدّيس بولس الرّسول عن «خدّام الله[٢]»، أو عن نفسه «كخادم ليسوع المسيح[٣]»، فهو يستخدم كلمة λειτουργός (ليتورجوس) ليشير بها تحديداً إلى الخدمة الكهنوتيّة[٤].

ولقد انحصر استخدام الكلمة في كنيسة العهد الجديد لتشير إلى صلاة الإفخارستيّا باعتبارها العمل الشّعبي الأساسي في الكنيسة، فصارت الكلمة بديلاً لكلمة "أنافورا" الّتي يستخدمها كل من كنيسة أورشليم وكنيسة أنطاكية السّريانيّة، للإشارة إلى "القدّاس". كما يمكن أن تُستخدم كلمة "ليتورجيّا" أيضاً لتشير إلى الصّلوات الطّقسيّة في

١- انظر: لوقا ١:٢٣؛ أعمال ٢:١٣

٢- رومية ٦:١٣

٣- رومية ١٦:١٥

٤- انظر أيضاً: فيلبي ٢٥:٢؛ عبرانيين ٢:٨

الكنيسة بكافة أنواعها، مثل صلاة السّواعي باعتبارها خدمة شعبيّة(٥).

بداية تنوّع الطّقوس والليتورجيّات(٦)

لقد نال سرّ الشّكر أي الاحتفال اللّيتورجي بسر الخلاص على مر العصور جُلّ اهتمام الكنيسة المسيحيّة. وكان العشاء الأخير الذي أكمله الرّب يسوع مع رسله القدّيسين هو نقطة البداية في ظهور العائلات الليتورجيّة المختلفة شرقاً وغرباً. وبالرّغم من بساطة ما تمّ في هذا العشاء الأخير كما ذكر الإنجيل المقدّس، إلاّ أن العُمق والغنى اللذين حملتهما هذه البساطة، واشتمل عليهما هذا السرّ، كانا سبباً في هذا التنوّع اللّيتورجي بين الكنائس المختلفة، مما أضفى على السّر المقدّس مع الزّمن رونقاً مبدعاً. وفي الحقيقة فإنه حتى القرن الرّابع الميلادي، لم تكن هناك لكل عائلة ليتورجيّة طقس ليتورجي خاص يستطيع أن يميّزها عن غيرها بطريقة واضحة.

فلقد نشأت اللّيتورجيّات وتطوّرت ولم تكتسب وجهها الثّابت إلاّ بعد زمن طويل. ففي البدء كانت هناك حريّة كبيرة في إقامة الشّعائر الدّينيّة، ولم يكن مشتركاً بين الكنائس سوى البنية الأساسيّة للصّلاة، وجوهر المعاني، كما توارثها المسيحيون عن الجماعة الأولى في أورشليم. ثم شيئاً فشيئاً نشأت في المدن أساليب عبادة ونصوص صلاة تداولها النّاس فشاعت حتى أصبحت سنناً وعوائد لم تلبث أن تحوّلت إلى شرائع وقوانين.

٥ـ للمؤلف، معجم المصطلحات الكنسيّة، الجزء الثالث.

٦ـ هذا الفصل منقول من الفصل الرّابع من كتاب "الكنائس الشّرقيّة وأوطانها، الجزء الأوّل، رؤية عامة – كنيسة المشرق الآشوريّة" للمؤلف، نظراً لأهميّته كتمهيد لدراسة القدّاس الإلهي.

وفي البداية كان لكل منطقة كنسيّة - أو إيبارشيّة كما نسميها اليوم - أنافورا خاصة بها، أي شكل ونص لصلاة الشُّكر خاصان بها. فالكنيسة الأولى التي لم تكن خاضعة لهاجس إضفاء النّمط الواحد على صلاة الشُكر، الذي ظهر فيما بعد في وقت متأخِّر، حيث لم تخلط قط بين مفهوم الوحدة ومفهوم توحيد نمط الخدمة. ولا تزال الكنيسة الأرثوذكسيَّة حتى اليوم تحتفل بأكثر من ليتورجيَّة تتميَّز كل منها بصلاة شُكر خاصة بها[٧].

إن الثّلاثة قرون الأولى لا تعطينا شواهد كافية نستدل منها على مراحل نمو الطّقس اللّيتورجي، لأن ندرة المصادر تضعنا أمام صعوبات جمَّة، ولكن كان القرن الثّالث هو الوقت الذي بدأت فيه اللّيتورجيَّات في النُمو رويداً رويداً لتأخذ كل منها، وعلى مدى الزّمن الطّويل، شكلها المحدَّد والمميَّز. ومع ازدياد أعداد المؤمنين بعد منشور التّسامح القسطنطيني سنة ٣١٢م كان من الضّروري أن يتوفّر تنظيم عام يشجّع على إقامة شكل ليتورجي موحَّد لكل جماعة مسيحيَّة. ولقد سبَّب ظهور البدعة الأريوسيَّة بالإضافة إلى ظهور كتابات الأبوكريفا، أن اتَّجهت الكنائس إلى تحديد شكل ليتورجي قويم يحميها من الانحراف. وتداخلت هذه العوامل بشدَّة مع عوامل أخرى ظهرت في القرن الرّابع الميلادي مثل ظهور مراكز كنسيَّة ذات سيادة، أصبحت هي الكنائس الأم التي التأمت حولها مجموعة من الكنائس، فأصبحت الكنيسة الأم بالنسبة لهذه الكنائس مصدراً للتّعليم والتّنظيم والتّشريع.

وهذه المراكز الكنسيَّة والتي أصبحت هي بذاتها الكنائس الكاتدرائيَّة

٧- الأب ألكسندر شميمان، الإفخارستيَّا سر الملكوت، ترجمة سامر عبُّود، منشورات النور، ١٩٩٣م، ص ٢٥٩

التي يقيم فيها كبير الأساقفة، أو البطريرك كما عُرف فيما بعد، سُمِّيت الإبارشيات البطريركيّة أو الأسقفيّة، وأضحت كل منها مركزاً لطقوس ليتورجيّة خاصة بها تميّزها عن غيرها من المراكز الأسقفيّة الأخرى. ثم صار الاتجاه إلى تجميع وتسجيل هذه الطّقوس، فظهرت الكُتُب اللّيتورجيّة، وحلّت النُّصوص اللّيتورجيّة المسجَّلة أو المكتوبة محل الصّلوات الليتورجيّة المرتجلة. فصار من السّهل استعارة هذه النُّصوص بين كنيسة وأخرى. وتمكّنت الكنيسة الأم بما لها من سيادة على الكنائس التابعة لها أن تفرض نصوص صلواتها عليها. وهكذا أصبحت كتب الصّلوات اللّيتورجيّة سبباً واضحاً لظهور التّشابه أو التّمايز الطّقسي بين الكنائس؛ التّشابه uniformity بين الكنائس التي استخدمت نفس الكُتُب اللّيتورجيّة، والتّمايز مع كنائس أخرى تبنّت نصوصاً أخرى.

وقد دلّ علم أصول الطّقس المقارَن على قاعدة لا نزاع عليها بين علماء اللّيتورجيّات، وهي أن جميع القدّاسات نشأت من أصل واحد، وساد هذا الأصل جميع الكنائس في بادئ الأمر، ثم أضافت كل كنيسة على مر الأيام أجزاء جديدة مختلفة، وصلوات متنوّعة، مع الحفاظ على العناصر اللّيتورجيّة الأصليّة. ومن جهة أخرى كان لبعض الكنائس تأثير على طقوس الكنائس الأخرى، فحدث التّبادل بين الطُّقوس والذي أفضى إلى أن تكوّنت أخيراً - وفي أوقات لا يمكن تحديدها بالضّبط - صورٌ ثابتة للقدّاسات، يختلف بعضها عن بعض.

تقسيم اللّيتورجيّات

برغم أنه لا يمكننا إغفال عوامل اللُّغة والعقيدة والقوميّة كعوامل ساعدت على ظهور العائلات اللّيتورجيّة المختلفة، إلاّ أنها لم تكن هي

العوامل الأساسيَّة في نشأة هذه العائلات اللّيتورجيَّة. وإنما كانت الأسباب الجغرافيَّة والسِّياسيَّة متداخلة معاً سبباً رئيسياً في ظهورها.

وحتى لو أخذنا تقسيم العائلات اللّيتورجيَّة من وجهة نظر تاريخيَّة بحتة، سنجد الأمر مختلفاً تماماً عما نراه في الوضع الحالي. ولكن مع ذلك فلا يمكننا إغفال العامل التَّاريخي في تقسيم العائلات اللّيتورجيَّة. فعلى سبيل المثال، إذا نظرنا إلى الطّقس البيزنطي من وجهة نظر تاريخيَّة، فلن نجده سوى أحد مظاهر تطوُّر الطّقس الأنطاكي، أو اللّيتورجيَّة الأنطاكيَّة. أما إذا نظرنا إليه بوضعه الرَّاهن بعد أن عبر على مراحل زمنيَّة طويلة تطوَّر خلالها كثيراً، فسوف نراه طقساً مستقلاً قائماً بذاته، بل ومن أكثر الطُّقوس الشَّرقيَّة تأثيراً على غيره من الطُّقوس.

وإن التَّقسيم العام للعائلات اللّيتورجيَّة هو نفس التَّقسيم الجغرافي للعالم القديم "الشَّرق والغرب".

ويرى العالم دوشسن Duchesne أن كل اللّيتورجيَّات المعروفة يمكن أن تندرج تحت واحد من أربعة أشكال أصليَّة:

(١) اللّيتورجيَّة الأنطاكيَّة.
(٢) اللّيتورجيَّة الإسكندرانيَّة.
(٣) اللّيتورجيَّة الرُّومانيَّة.
(٤) اللّيتورجيَّة الغاليَّة.

إذاً فاللّيتورجيَّات الشَّرقيَّة - وهو ما يعنينا هنا - تنقسم إلى مجموعتين رئيسيَّتين هما المجموعة الأنطاكيَّة، والمجموعة الإسكندرانيَّة. أما الفارق الرَّئيسي بين اللّيتورجيَّات الإسكندريَّة واللّيتورجيَّات الأنطاكيَّة فهو أن الأولى (الإسكندريَّة) تحوي أكثر من صلاة استدعاء، أما الثَّانية (الأنطاكيَّة) فتشمل استدعاءً واحداً للرُّوح القدُس قبل صلاة التَّقديس.

الفَصل الثّاني

أساليب النُّصوص اللّيتورجيَّة وقوانين تطوُّرها

أولاً: أساليب النُّصوص اللّيتورجيَّة(١)

إذا أخذنا في الاعتبار الشَّكل العام لنصوص الصَّلوات، ومادة إنشائها، أو تركيبها اللُّغوي، فإنّنا سنميِّز بوضوح بين ثلاثة أساليب لها هي:

- الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل اليهودي.
- الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل الهليني، حيث نشأت اللّيتورجيَّة المسيحيَّة وتطوَّرت.
- الأسلوب اللّيتورجي الذي تشكَّل بواسطة جماعات مسيحيَّة بعيداً عن أي تأثير يهودي أو يوناني قديم.

ونكتفي هنا بالحديث عن الأسلوبين الأوَّل والثّاني، فهما الأكثر انتشاراً في نصوص الصَّلوات اللّيتورجيَّة.

(أ) الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل اليهودي

تحدَّدت العبادة اليهوديَّة في أيام الآباء الرُّسُل تحديداً نهائياً، واتَّخذت شكلها الطّقسي المحدَّد. فصلاة البركة اليهوديَّة Barâkhâ تبدأ بصيغة "مباركٌ أنت أيها الرَّب إلهنا"، وهذه الصِّيغة التَّمهيديَّة يتبعها تسبيح مطوَّل لله، أما الخاتمة فهي طلبة تحوي فيها المقدَّمة، ومادة التَّسبيح نفسها في اختصار.

---

١ ـ هذا الفصل مأخوذ عن جانب من الفصل الرابع من كتاب "الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الأول: رؤية شاملة - كنيسة المشرق الأشوريَّة"، وهو فصل في غاية الأهميَّة من الوجهة اللّيتورجيَّة.

وفي شكل مقابل لهذه البركة اليهوديَّة وُجدت في النُّصوص المسيحيَّة صلوات تبدأ بالكلمة اليونانيَّة "مباركٌ – Εὐλογητός" ظهرت في كثير من المجتمعات المسيحيَّة. وظهرت مبكّرة جداً في كتاب العهد الجديد. ونحن نشير هنا إلى صلاة زكريا الكاهن Benedictus (لوقا ١:٦٨) التي تبدأ بنفس هذه الكلمة. وفي بعض أجزاء من الرَّسائل في العهد الجديد. وهنا تكون لغة الإنجيل هي رجع الصَّدى لليتورجيَّة قديمة. ولم تخلُ اللّيتورجيَّات الشَّرقيَّة أبداً من هذا الشَّكل من الصَّلوات، وكذلك النُّصوص المقدَّسة عموماً. ولقد ظهر هذا الأسلوب من الصَّلوات بوضوح في نصوص الصَّلوات الأرمينيَّة واليونانيَّة كما في صلاة الإكليل[٢]، حيث أن أوَّل كلمات هذا الطَّقس هي: "مباركٌ أنت أيها الرَّب إلهنا ..." وهي ترجمة حرفيَّة للصِّيغة اليهوديَّة. ونجد نفس الشَّئ أيضاً في طقس المعموديَّة.

وكمثال آخر لهذا الأسلوب الأوَّل من النُّصوص اللّيتورجيَّة ذات الأصل اليهودي، كلمة "فلنشكر" وهي الكلمة الافتتاحيَّة لكثير من الصَّلوات اليهوديَّة، والتي نجدها مثلاً في صلاة البركة الثَّامنة عشر الشَّهيرة والتي يرتّلها اليهود ثلاث مرَّات في اليوم. وهذا الفعل "يشكر" في العبريَّة لم يُترجم في السَّبعينيَّة إلى "يشكر - εὐχαριστεῖν" ولكنه كان يُترجم دائماً إلى "يعترف - ὁμολογεῖν". ولكنه ظهر فقط في صيغة الشُّكر في الأسفار القانونيَّة الثَّانية Deutero - Canonical Books.

وهذا الفعل العبري قد ظهر في الوسط المسيحي في صيغة "نشكر - εὐχαριστοῦμεν" حيث دخل في صلوات الدِّيداخي وأنافورا هيبوليتس. ودخل أيضاً في كثير من صيغ الصَّلوات المسيحيَّة، ليس في صلوات الإفخارستيَّا فحسب، بل وفي كثير من صلوات الخدمات الكنسيَّة على

٢- تُسمى في الكنيسة اليونانيَّة Ακολουθία τοῦ στεφανώματος

اختلاف أنواعها، حتى في صلاة التَّجنيز كما نــرى ذلــك واضــحاً في الطّقس القبطي، ومعه أيضاً الطّقس البيزنطي. وتخلغــل هــذا الفعــل "يشكر" في جميع صلوات الكنيسة القبطيَّة على اختلافها، وهو معروف ومألوف تماماً للقارئ القبطي.

ونورد أيضاً مثالاً ثالثاً لهذا الأسلوب الأوَّل من النُّصوص الليتورجيَّة ذات الأصل اليهودي. فهناك تراث يهودي ورثتــه صــيغ الصَّــلوات الإفخارستيَّة في الكنيسة المسيحيَّة. وهو مقتبس من الكتــاب المقــدَّس، حيث ثبت استخدامه بوضوح في هذه الصَّلوات. فقد أُدخلــت هــذه الاقتباسات الكتابيَّة في ليتورجيَّة المجمع اليهودي تحت صيغ "كما قيل" و"كما هو مكتوب".

فعلى سبيل المثال: يأتي في نهاية صــلاة تُســمى Jôzêr في المجمــع اليهودي اقتباس من المزمور (١٣٦:٧) «الصَّانع أنواراً عظيمــة، لأنَّ إلى الأبد رحمته» مسبوقاً بصيغة "كما قيل". ونجد حالات كثيرة مثل هذه في الصَّلوات البيزنطيَّة، وربما لا تخلو صفحة مــن صــفحات كتــاب الإفخولوجيون البيزنطي دون ذكر لهذه الصِّيغة. واخترتُ علــى ســبيل المثال "صلاة المسحة الكُبرى[٣]"، والتي تبدأ بعبارة "يا الله العظــيم المرتفع – Ὁ Θεὸς Ὁ μέγας καὶ ὕψιστος" حيث نجد ما لا يقل عن أربع مرَّات صيغة "أنت هو القائل – ὁ εἰπὼν σὺ εἶ" ثلاث منــها هي اقتباسات من العهد الجديد (من الأناجيل)، والاقتبــاس الرَّابــع عبارة لم يسبق ذكرها، تقول: "كلما سقط، أنهضه ليخلُص – Ὁσάκις ἂν πέσῃ ἔγειραι καὶ σωθᾶσῃ".

٣– هي صلاة مسحة المرضى في الطقس البيزنطي.

العلاقة بين النُّصوص اللِّيتورجيَّة الشِّعريَّة والنَّثريَّة ذات الأصل اليهودي

تتَّفق آراء جميع الباحثين عن وجود علاقة تربط بين النُّصوص الشِّعريَّة Poetry أي الموضوعة في قالب شعري، وتلك التي دُوِّنت في صيغة نثريَّة Prose ، وارتباط كل من هذين النَّوعين (الشِّعري والنَّثري) مع النُّصوص اليهوديَّة القديمة في المجمع اليهودي. فالكنيسة المسيحيَّة لم تأخذ فقط كل كتاب العهد القديم كميراث من المجمع اليهودي Synagogue ولكنها أيضاً جعلت من كتاب المزامير أهم وأكرم سفر للتَّرتيل والتَّسبيح في العهد الجديد.

على أننا نلاحظ أن هناك اختلافاً رئيسياً في ذلك بين الشَّرق والغرب. فالشَّرق المسيحي اعتمد في نصوص صلواته اللِّيتورجيَّة على الشَّكل الشِّعري المنظوم metrical form معتبراً إياه نصاً ليتورجياً ملزماً لا غنى عنه. أما الغرب المسيحي فقد اعتمد على النَّص الكتابي، أي النَّص كما ورد في الأسفار المقدَّسة في كلا العهدين القديم والجديد، جاعلاً منه مادة لترتيل الأنتيفونات والمردَّات.

وكان لاستخدام المزامير نموذجان متمايزان، ظهرا كلاهما في العصور المبكِّرة للمسيحيَّة.

النَّموذج الأوَّل: وفيه يحتوي النَّص اللِّيتورجي على عناصر شعريَّة منظومة، حيث يأتي المزمور أو جزء منه معبِّراً على واحد فقط من هذه العناصر الشِّعريَّة المنظومة Poetry .

النَّموذج الثَّاني: وفيه يحتوي النَّص اللِّيتورجي على عنصر شعري منظوم يحتل مكاناً أقل أهمِّيَّة في النَّص بالمقارنة مع نصوص آيات المزامير التي تُحفظ بكليتها في النَّص.

وعن النّموذج الأوّل نجد في التّقليد السّرياني نصاً ليتورجياً يُصلّى يوم الجمعة العظيمة منسوب للقدّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)، يحوي بيتاً شعرياً واحداً متبوعاً بآية واحدة من المزامير. وهناك نص ليتورجي آخر للقدّيس ساويرس الأنطاكي يُسمّى oktoichos أي "الثّامن" في شكل أنتيفونا Ἀντίφωνα وهو ما يُعرف في الطّقس الكلداني باسم 'onîthâ' (عونيثا).

وفي كتاب الأنتيفونات السّرياني نجد أن كل أنتيفونا يتبعها عادة آيتان من المزامير، ويتكرّر النّص الشّعري هو نفسه بعد كل آية منهما. ولكن بعد أن طرأ على هذه النّصوص تطوُّر شعري؛ أصبحت البنية أو الوحدة اللّيتورجيّة تتكوّن من مجموعة من الأبيات الشّعريّة المنظومة، يتبعها عدد مساوٍ لها من آيات من المزامير، حيث يُختم هذان القسمان بتمجيد للثّالوث على مردّين، "المجد للآب ..."، "الآن وكل أوان ...".

وإن مثل هذا التعاقب المنتظم بين النُّصوص اللّيتورجيّة الشّعريّة الموزونة، وبين ما يتبعها من آيات من سفر المزامير، لا نجده في طقس روما؛ حيث أن النّص اللّيتورجي في طقس روما هو عادة مقطوعة كاملة من نص كتابي من الأسفار المقدّسة. وفي العصور الوسطى سُمّي هذا النّص الكتابي باسم historia .

بالإضافة إلى ذلك، فهناك نقطة أخرى هامة تميّز نصوص الصّلوات اللّيتورجيّة ذات المرد response في الشّرق المسيحي عنها في طقس روما. فإن طقس روما لا يحوي تمجيداً للثّالوث في معظم نصوصه اللّيتورجيّة ذات المرد، على عكس الشّرق المسيحي الذي لا تخلو نصوص صلواته اللّيتورجيّة ذات المرد من تكرار لا يمل لتمجيد الثّالوث، الآب والابن والرُّوح القُدُس.

أما عن النّموذج الثّاني والّذي يأتي فيه العنصر الشّعري أقل شأناً من النّص المزموري، أو الكتابي بوجه عام، فهو ما نجده واسع الانتشار عند الأقباط والسّريان الأنطاكيين والبيزنطيين.

ويُسمّى هذا النّوع عند الأقباط "الهوسات" في تسبحة نصف اللّيل، أو "الهوس الكبير" في تسبحة الأعياد الكنسيّة الكبرى.

ويُسمى عند السّريان Eniânâ' (عينيانا).

ويُسمّى عند البيزنطيين "قوانين – Canons"، وهي التّسابيح التّسعة.

وهذا النّوع من النّصوص اللّيتورجيّة معروف أيضاً عند الأرمن والأحباش[٤]. أي أن الكنائس الشّرقيّة كلها تعرفه جيداً.

إلاّ أن ثمة ملاحظة جديرة بالاعتبار هنا؛ وهي أن هذا النّوع من النّصوص اللّيتورجيّة الكتابيّة، وعلى الرّغم من أنه استعار في بعض الأحيان نصوصاً من أسفار العهد الجديد، إلاّ أن الكم الأكبر فيه يعود إلى أسفار العهد القديم على وجه التّحديد، لذلك فقد أدرجناه تحت الأسلوب الأوّل من أساليب النّصوص اللّيتورجيّة المسيحيّة، وهي ذات الأصل اليهودي.

(ب) الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل الهليني

إن الصّلاة Barâkhâ اليهوديّة هي في أساسها صلاة "تسبيح وشكر"، أما ما يناظرها في الكنيسة المسيحيّة فهي صلاة Ευχή "طلبة وتوسُّل" كما يدل اسمها في اليونانيّة. وهذه الخاصيّة قد انحدرت إلينا بلا شك من الصّلاة الرّبيّة، فحتى التّسبيح نفسه يُعتبر شكلاً من أشكال الطّلبة والتّوسُّل.

4- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F. L. Cross, London, 1958, p. 107- 109.

ونستطيع هنا أن نرى تأثير الوسط الهليني الذي اعتاد أن يصيغ موضوع الصّلاة في شكل طلبة وتوسُّل. وعلى ذلك فإن اللّيتورجيّة المسيحيّة في صلواتها قد نشأت من مثل هذا التّوافق أو التّناسق بين تلك الصّيغة ذات الخاصيّة التّوسليّة، وتلك الصّيغة الأخرى ذات الشُّكر والتّسبيح التي ورثتها من المجمع اليهودي.

وبنية الصّلاة المسيحيّة ذات التأثير الهليني تتكوّن من أربعة أجزاء هي: المقدّمة، وهي الخطاب الموجّه إلى الله. والتّسبيح، وهو مطوّل أحياناً. والتّوسُّل. ثم الخاتمة أو الخلاصة. وسنكتفي بإلقاء بعض الضّوء على المقدّمة والخاتمة، أي الجزأين الأوّل والرّابع.

المقدّمة

من أشهر الصّيغ الشّائعة لهذه المقدّمة، والتي تطوّرت عنها جميع الصّيغ الأخرى صيغة "أيها الرّب إلهنا - Κύριε ὁ Θεὸς ἡμῶν" وهي ترجمة حرفيّة لصلاة البركة اليهوديّة. وهذه الصّيغة معروفة في كثير من الطّقوس الشّرقيّة، وهي شائعة الاستخدام جداً في الطّقس القبطي بعد أن تطوّرت عنها صيغ أخرى كثيرة:

- "أيها السيّد الرّب يسوع المسيح إلهنا".
- "يا الله العظيم الأبدي الذي بلا بداية ولا نهاية، العظيم في مشورته، والقوي في أفعاله ..."
- "أيها الطّويل الأناة ..."
- "أيها الكائن السيّد الرّب إله الحق ..."
- "أيها السيّد الرّب العظيم الأبدي ..."

"يا رئيس الحياة وملك الدُّهور، كلمة الله الآب، ربّنا وإلهنا ..."

ولكن من بين هذه الصّيغ الكثيرة نعرف قليلاً عن مصدرها، أو

الموطن الذي نشأت فيه مثل:

- ''أيها المسيح إلهنا القوَّة المخوفة، غير المفهومة التي لله الآب ...''، وهي مقدِّمة صلاة صُلح للأنبا ساويرس الأنطاكي (القرن السَّادس).

- ''يا إله المحبَّة، ومعطي وحدانيَّة القلب ...''، وهي صلاة صُلح للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (القرن الرَّابع) في بداية القدَّاس الكيرلسي القبطي ... الخ.

ولكن هذه الصِّيغ الشَّرقيَّة نادرة في طقس روما. ذلك لأن طقس روما يخاطب الله بالكلمة المفردة ''يا الله - Deus '' حيث يتبعها عادة بإحدى الصِّفات الإلهيَّة مثل: omnipotens أي: ''كُلي القدرة''، و aeternus أي: ''الأزلي''، و sempiternus أي: ''الأبدي''، و misericors أي: ''الرَّحوم أو الرَّحيم''.

وفي الغالب تكون هذه الصِّفات مزدوجة؛ أي مجموعة من الصِّفات، كل مجموعة من صفتين. وبحسب الأسلوب البلاغي المعروف جيداً، فإن طقس روما يستخدم جملة تتكوَّن من ثلاث شطرات Kola ، الشَّطرة الأولى من كلمة واحدة، والشَّطرة الثَّانية من كلمتين، والشَّطرة الثَّالثة من ثلاث كلمات كما في المثل الشَّائع:

أيها السيِّد	Domine
الآب القدُّوس	Sancte Pater
الله القادر الأزلي.	Omnipotens aeterne Deus

أما في الشَّرق المسيحي، فإنه تحت تأثير النَّماذج الهلينيَّة أو الفلسفيَّة اليونانيَّة، فقد حدث تطوُّر غزير في هذا المفهوم، أي مفهوم مخاطبة الله في الصَّلاة في شكل صفات عكسيَّة، أو ما يُعرف باسم ''اللاهوت السَّلبي -

Apophatic or negative theology "أي بوضع كلمة "غير" (والتي يقابلها الحرف اليوناني α) قبل الصِّفة، وذلك طبقاً لنظريات الفلسفة القديمة التي تميل إلى وصف أو تعريف من يتعذَّر وصفه بهذا الأسلوب العكسي.

ويُعد قدَّاس القدِّيس سرابيون في القرن الرَّابع الميلادي مثالاً واضحاً لذلك، حيث تصف هذه اللِّيتورجيَّة الله بالصِّفات الآتية:

"غير المخلوق" ἀγένητος — "غير المفحوص" ἀνεξιχνίαστος
"غير الموصوف" ἀνέκφρασις — "غير المدرَك" ἀκατανόησις

وهو الأسلوب اللِّيتورجي الذي نجده بوفرة في اللِّيتورجيَّة القبطيَّة، وصلوات الخدمات الكنسيَّة الأخرى، لاسيَّما التَّسبحة اليوميَّة.

وفي مستهل صلاة الإفخارستيَّا في الكتاب الثَّامن من المراسيم الرسوليَّة (٨:١٢:٦، ٧) نجد نفس الأسلوب أيضاً، والمثل هنا هو طبقاً للتَّقليد السُّوري الأنطاكي:

"مستحق وعادل بالحقيقة، أن نسبِّحك قبل كل شيء. أنت الإله الحقيقي الكائن قبل كل الكائنات، الذي منه تُسمَّى كل أبوَّة في السَّموات وعلى الأرض. غير المولود وحده، وغير المبتدئ. غير المملوك وغير المسود (الذي لا سيِّد له). غير المحتاج ... المعرفة التي لا بدء لها، والرؤيا السَّرمديَّة، والسَّمع غير المولود، والحكمة غير المكتسبة ... الخ".

وهناك نموذج آخر تنتهجه الفلسفة اليونانيَّة القديمة، وهو استخدامها للصِّفات في تضاهي وتناغم بينها. وكمثال لذلك هو ما نجده في صلاة مسحة المرضى في الطَّقس البيزنطي، حيث تبدأ الصَّلاة هكذا:

"الصَّالح، ومحب البشر،
الرَّءوف، والرَّب الكثير الرَّحمة،

العزيز في الرَّحمة، والغني في الصَّلاح،
أبو الرأفات، وإله كل عزاء".

وهذه العبارات الأربع السَّابقة والتي تتكوَّن كل منها من شطرتين، موضوعة في تناسق مدروس يخضع لأسلوب الفلسفة اليونانيَّة القديمة. فأوَّل شطرتين من الجملة الأولى تتكوَّن في بساطة من صفتين مفردتين هما "صالح - Ἀγαθός"، "محب البشر - φιλάνθρωπος". وكل شطرة من الجملة الثَّالثة تحوي صفتين ترتبطان بحرف العطف "في - ἐν". أما الشَّطرتان في الجملة الرَّابعة، فإن الاسم في كل منهما يأتي متبوعاً بصفة تتمُّه في حالة المُضاف إليه. وذلك طبقاً لنظام شائع الاستعمال جداً في الصّلوات اللّيتورجيَّة التي تستخدم الأسلوب الخطابي.

ونضيف هنا أيضاً مثالاً أخيراً لهذا التّوافق أو التّناسق اللُّغوي، وهو هذه المرَّة من طقس الزّواج.

"يا كاهن العُرس السِّري غير الدَّنس،	Ὁ τοῦ μυστικοῦ καὶ ἀχράντου γάμου ἱερουργός,
واضع النَّاموس الجسداني،	καὶ τοῦ σωματικοῦ νομοθέτης,
وحافظ عدم الفساد،	Ὁ τῆς ἀφθαρσίας φύλαξ,
والمدبِّر الصَّالح للأحياء".	καὶ τῶν βιωτικῶν ἀγαθὸς οἰκονόμος.

فنحن هنا أمام شطرتين مزدوجتين double kola كل منهما تتكوَّن من اسمين يسبق كل منهما تتمَّة في حالة المضاف إليه، وهناك وصلة ترقيميَّة بين الشَّطرتين الأولى والرَّابعة.

الخاتمة

وهي الجزء الرّابع والأخير من مكوّنات النّص اللّيتورجي ذات الأصل الهلّيني. وهذه الخاتمة هو ما نسميه دوماً بـ "الذّكصولوجيّة"، وهي تعريب الكلمة اليونانيّة δοξα أي "المجد"، أو ما يقابلها في اللّغات الأخرى. وبينما اختفت هذه الذّكصا من المجمع اليهودي في العصور الحديثة، فإن صيغة الذُّكصا في العبادة المسيحيّة أصبحت عنصراً سائداً. وبدلاً من الختام القديم لصلاة البركة اليهوديّة، وضعت الدّيداخي الصّيغة الختاميّة الثّانية في صلاة الإفخارستيّا: "لك المجد إلى الآباد"، أو مع صيغة تبادليّة أخرى: "لأن لك المجد والقوّة بالمسيح يسوع إلى الآباد". ولقد انتشرت صيغة الدّيداخي في الشّرق انتشاراً واسعاً، وتطوّرت كثيراً.

ويلاحظ القارئ أن الذُّكصا الختاميّة في التّقليد القبطي تضيف دائماً كلمة "**المُلك**" في عبارة "لأن لك **المُلك** والقوّة والمجد إلى الآباد". وتأتي أيضاً نفس هذه الصّفة في تسبحة الكنيسة في أسبوع الآلام "يا عمانوئيل إلهنا **وملكنا** ..." وهي صفة تميّز الطّقس القبطي على غيره من الطّقوس الشّرقيّة الأخرى.

وهناك صيغة ختاميّة مشابهة تماماً لصيغة الدّيداخي تأتي في ختام صلاة الإفخارستيّا الكبرى (صلاة الشُّكر الكبرى) في التّقليد الرّسولي هيبوليتس، وهي صيغة تقال أيضاً عند كل بركة.

وإلى عدّة قرون متأخّرة كانت صيغة: "لأن منه وبه وفيه (أي الابن) يا الله الآب القدير في وحدانيّة الرُّوح القُدُس، يليق بك كل كرامة ومجد إلى أبد الدُّهور"، هي خاتمة صلوات القدّاس في روما.

ومع مرور الزّمن وانتشار البدعة الأريوسيّة التي أقلقت الكنيسة يبدو

أن تعبير "الذي به (أي بالابن) لك المجد" قد أعطى انطباعاً مشوَّشاً لمفهوم تساوي الأقانيم، فتحوَّلت العبارة في بعض الطُّقوس الشَّرقيَّة إلى "ولك المجد **معه**" لتزيل كل غموض في معنى تساوي الأقانيم.

ومع ذلك فقد ظلَّت الصِّيغة القديمة "الذي به لك المجد" تُردَّد حتى اليوم في ختام نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة في الكنيسة القبطيَّة مع تعديل بسيط ينفي أي لبس في مفهوم تساوي الأقانيم: "... بالنِّعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لابنك الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، **هذا الذي من قِبَله** المجد والكرامة والعز والسُّجود، تليق بك: معه ومع الرُّوح القُدُس المحيي المساوي لك، الآن وكل أوان وإلى دهر الدُّهور كلها آمين".

وكما سبق أن ذكرتُ، فإن ختام صلاة البركة اليهوديَّة تحوي ملخَّصاً لصيغة المقدِّمة فيها، فيورد الختام ملخَّصاً لما احتوت عليه المقدِّمة من تسبيح، وهذا هو نفس ما نجده في كتاب الإفحولوجيون البيزنطي حتى اليوم تحت صيغة: "لأنك أنت هو ... وبك نرفع مجداً إلى الآب ...الخ".

وكأمثلة لذلك، ختام صلوات مسحة المرضى في الطَّقس البيزنطي حيث نقرأ: "لأنك أنت نبع الشِّفاء أيها المسيح إلهنا، ولك المجد ...". والصَّلاة القديمة التي تقال على المنتقلين "يا إله الأرواح وكل جسد ...".

وكذلك النَّص الذي حُفظ في كل المخطوطات القديمة التي تعود إلى بلاد النوبة المسيحيَّة قديماً "لأنك أنت هو قيامة وحياة وراحة عبدك الذي رقد، ولك المجد ...".

والصِّيغ الكثيرة التي وردت في اللِّيتورجيَّة القبطيَّة مثل ختام أوشيَّة الإنجيل "لأنك أنت هو حياتنا كلِّنا، وخلاصنا كلِّنا، ورجاؤنا كلِّنا، وشفاؤنا كلِّنا، وقيامتنا كلِّنا، وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد ...".

ثانياً: القوانين التي تحكم تطوُّر النُّصوص اللّيتورجيَّة

غالباً ما تكون مراحل تطوُّر النُّصوص اللّيتورجيَّة بطيئة، متتابعة، بالغة التّعقيد. ولكي نوضِّح هذه الانعطافات أو الاتجاهات التي تحكم تطوُّر هذه الوحدات اللّيتورجيَّة بدءاً من شكلها الأوَّلي، أو البدائي، والذي غالباً ما يتعذّر تداركه، ينبغي علينا أن نخوض مهمَّة دراسة تاريخ الطّقس المقارن بين الكنائس المختلفة. وأود هنا أن أعرض للقوانين التي تحكم تطوُّر النُّصوص اللّيتورجيَّة، وهي القوانين التي تساعدنا على تحديد العصور المختلفة التي ترتبط بهذا التّطوُّر.

(١) تطوُّر النّص اللّيتورجي ينتقل من التّركيب الأكثر بساطة إلى التّركيب الأكثر تعقيداً. والتّركيب اللّيتورجي الأكثر صرامة هو الأكثر بدائيّة.

والمثال الواضح لذلك هو نص الدّيداخي أي تعليم الرُّسُل(٥)، والذي لم يتعد نصُّه القرن الأوَّل الميلادي.

(٢) النُّصوص اللّيتورجيَّة ذات الأصول اليهوديَّة هي الأكثر قدماً من نظيرتها ذات الأصول الهلينيَّة:

فإن كانت النُّصوص اللّيتورجيَّة ذات أصول يهوديَّة، فإن ذلك يعني أنها نصوص قديمة حتى ولو انحصرت في بعض طقوس مسيحيَّة دون غيرها، أو حتى إن وُجدت في واحد منها فقط. وفي المقابل فإن أي نص أو تركيب ليتورجي لا مقابل له في أي نوع من صلوات المجمع اليهودي، يُعتبر أكثر حداثة من سابقه.

٥- هو الكتاب الأوَّل من السّلسلة الثّانية: "مصادر طقوس الكنيسة"، وقد تُرجم من اليونانيَّة مباشرة مع دراسة شاملة له. ونُشر في يناير سنة ٢٠٠٠م.

والنُّصوص اللّيتورجيّة للأنافورات المختلفة في كافة الطُّقوس الشّرقيّة هي خير مثال على ذلك. فالأنافورات لها أصول إما يهوديّة مسيحيّة Judeo - Christian Origins، أو أصول هلينيّة بحتة Hellenistic Origin.

فالأصل اليهودي المسيحي يبدأ نصه اللّيتورجي بالتّحيّة من الكاهن للشّعب، ويعقبه مباشرة فعل الشُّكر "نشكر – Εὐχαριστοῦμεν".

أما الأصل الهليني البحت، فهو أيضاً يبدأ بالتّحيّة، ولكن يعقبه مباشرة وبعد النّداء "القلوب إلى فوق" صيغة ليتورجيّة مرتبطة أساساً بالطّلبة "القلوب إلى فوق" بدون فعل "شُكر" يتبعها مباشرة. ومن هذين النّوعين أو الشّكلين لمقدّمة الأنافورا تقع كافة اللّيتورجيّات شرقاً وغرباً. فالأنافورات التي من أصل يهودي تُرتّب الصّلاة فيها على أفعال الشُّكر "فلنشكر"، وتلك التي من أصل يوناني بحت تُرتّب الصّلاة فيها على نداء "ارفعوا قلوبكم". ونموذج هذا الشّكل الأخير هو الصّيغة اللّيتورجيّة المارونيّة لتبريك المعمودية(٦).

(٣) النّص اللّيتورجي الأقدم هو الأقل تأثُّراً بنصوص الكتاب المقدّس، والأكثر حداثة هو الأكثر إقتداء بها، حيث ينسج على نسقها(٧).

وهذه العلاقة بين اللّيتورجيا والكتاب المقدّس ذات أهمّيّة جوهريّة. وهنا ينبغي توخّي الحذر في تطبيق هذا القانون، لأن اللّغة التي يستخدمها أحياناً كاتب أحد الأسفار الإلهيّة هي في الحقيقة صدى للغة ليتورجيّة

6- Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 90, 91.

٧- ولكن ينبغي ألاّ تُطبّق هذه النظريّة تطبيقاً عاماً بلا استثناءات، لأن الصّلوات التي وردت في الرّسالة الأولى إلى كليمندس الروماني (٥٩- ٦١م) ممتلئة بإشارات وتسبحات كتابيّة كثيرة. ولكن في حالة رواية التأسيس في الإفخارستيا، فإن روايات التأسيس المبكرة أو الأكثر قدماً هي بالفعل الأكثر تحرراً من النّصوص الكتابيّة.

استقرّت فعلاً في وجدان الجماعة المسيحيّة الأولى. بمعنى آخر؛ نصوص الكتاب المقدّس في بعض أجزاء منها هي ترديد لنصوص ليتورجيّة استقرّت بين الجماعات المسيحيّة المبكّرة قبل تسجيل هذه النّصوص في الأسفار المقدّسة.

ولنأخذ مثالاً لذلك، وهو الجزء الشّهير من رسالة القدّيس بولس الرّسول إلى أهل فيلبي: «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السّماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب».

فنفس هذه الصّيغة الكتابيّة جاءت في اللّيتورجيّة البيزنطيّة كمرد على قول الكاهن "القُدسات للقدّيسين"، هكذا: "واحد هو القدّوس الرّب يسوع المسيح لمجد الله الآب. آمين". ونفس هذا النّص يتكرّر مرّة ثانية في موضع آخر من اللّيتورجيّة البيزنطيّة، وذلك في الكلمات الأخيرة من المجدلة الكبرى Gloria in Excelsis "المجد لله في الأعالي ... لأنك أنت وحدك القدّوس، أنت وحدك الرب يسوع المسيح لمجد الله الآب".

ألا نتوقّع إذاً أن تكون هذه الآية التي ذكرها القدّيس بولس الرّسول في رسالته إلى أهل فيلبي جزءاً من مرد لنداء مشابه؟.

(٤) النّص اللّيتورجي الأكثر حداثة يُشحن غالباً بعناصر تحوي كثيراً من التّعاليم الإيمانيّة التي تشرح الإيمان شرحاً مستفيضاً. أما الصّيغ اللّيتورجيّة المبكّرة، والتي صيغت بفطرة الجماعة المسيحيّة الأولى فكانت غالباً خالية من مثل هذه العناصر. فإن عُدنا إلى الفترة المحصورة بين القرنين الرّابع والخامس الميلاديين، نجد أن النّصوص اللّيتورجيّة قد حملت كثيراً من العبارات اللاهوتيّة، إضافة إلى اللاهوت الجدلي أيضاً،

والمباحثات العقيديَّة.

هذه الرُّوح الجديدة يمكننا أن نشعر بها في أنافورا القدِّيس سرابيون أسقف تمويس، وصديق البابا أثناسيوس الرَّسولي.

(٥) النُّصوص اللِّيتورجيَّة المتأخِّرة (الأكثر حداثة) تتطوَّر في اتِّجاه اتِّخاذها لشكل خطابي حماسي، ثم تصبح شيئاً فشيئاً أسيرة فصاحة وبلاغة لغويَّة.

ومثل هذه العبارات البليغة والفصيحة تغيب تماماً في صلوات الدِّيداخي، وأنافورا التَّقليد الرَّسولي هيبوليتس.

وتحت تأثير العبارات اللاهوتيَّة البليغة الَّتي أكسبت النُّصوص اللِّيتورجيَّة خاصيتها الحماسيَّة، وشحنتها بالعقيدة واللاهوت، أصبحت نصوص الصَّلوات تحت تأثيرها، ذات بنية وتركيب رسمي مُتقن، خاضع لقوانين البلاغة، ومتوافقاً مع أصول نشأتها. هذا الميل إلى البلاغة والذي ازداد وضوحاً مع توالي الزَّمن في العبارات اللِّيتورجيَّة يقودنا لفحص أسلوبها فحصاً منهجيا، وهو واحد من أهم المهام وأكثرها إلحاحاً في دراسة الطَّقس المقارن.

إنَّها دراسة لا تخلو من صعوبة، حينما نبغي أن نتعرَّف على الموطن الذي نشأت فيه كل صيغة من الصِّيغ اللِّيتورجيَّة، سواء في مقدِّمتها أو في خاتمتها، وهذه مجرَّد خلفيَّة بسيطة عن أشكال النُّصوص اللِّيتورجيَّة، وطبيعة تكوينها، وقوانين تطوُّرها، وأهمِّيَّة دراستها دراسة مقارنة مع الطُّقوس المختلفة، وهي دراسة وإن كانت أوليَّة إلاَّ أنَّها تفيدنا في دراسة النَّص اللِّيتورجي للقدَّاس الإلهي.

الفَصل الثَّالث

اللِّيتورجيَّة الأنطاكيَّة وفروعها

تنقسم ليتورجيّات المجموعة الأنطاكيّة إلى فرعين:

(أ) الفرع الأوّل: ويشمل كنائس سوريا، ولبنان، وبلاد ما بين النّهرين. وهو ذو تقليد مسيحي نشأ من أصل يهودي.

(ب) الفرع الثّاني: يشمل كنائس آسيا الصُّغرى، وأرمينيا. وهو ذو تقليد مسيحي نشأ من أصل يوناني.

(أ) التّقليد السُّوري ذو الأصل اليهودي (الآشوري)

تركّز هذا التّقليد في إديسّا (الرُّها)، وعُرف باسم الطّقس السّرياني الشّرقي، وهو الطّقس الّذي يقع في بلاد مابين النّهرين في الإمبراطوريّة الفارسيّة. وذلك لأن الكنائس الّتي تبعت هذا الطّقس لم تكن خاضعة للإمبراطوريّة الرُّومانيّة. أمّا هذه اللّيتورجيّة الّتي نشأت في إديسّا، فقد ظلّت تفخر بعبرانيّها الذي احتفظت فيه بكثير من السّمات السّامية، مع تأثّرها قليلاً بالسّمات اليونانيّة أو الهلينيّة. ولقد ارتبط تقليد هذه اللّيتورجيّة ارتباطاً وثيقاً بحياة الشّركة الأولى الّتي عرفناها بين جماعة الرُّسُل والتّلاميذ في أورشليم. على أن الحروب الرُّومانيّة الفارسيّة قد محت كثيراً من الوثائق القديمة لهذه اللّيتورجيّة. وقد وصل إلينا جانبٌ كبيرٌ منها مترجماً عن اليونانيّة في عصور متأخّرة. وتمثّل اللّيتورجيّة السّريانيّة الشّرقيّة ثلاث مجموعات هي النّساطرة، والكلدان، والمالابار.

ولدى الطّقس السّرياني الشّرقي (الآشوري أو النّسطوري) ثلاث ليتورجيّات، الأولى يلقبونها بليتورجيّة الرُّسُل، وينسبونها إلى أدي وماري الرّسولَين. والثّانية ليتورجيّة ثاؤدوروس، والثّالثة ليتورجيّة نسطور. وقد

من الجاثليق آبا بنقل هاتين اللّيتورجيّتين الأخيرتين إلى السّريانيّة.

(ب) التّقليد السّوري ذو الأصل اليوناني (الأنطاكي)

ويتمثّل في الفرع السّرياني الغربي، وقد نشأ في أنطاكية؛ وهو الأكثر انتشاراً الآن. ومن المرجّح أن بعض النّصوص اللّيتورجيّة الموجودة ضمن كتابات العهد الجديد تمثّل بعض مقتطفات من هذه اللّيتورجيّة الأنطاكيّة. ولكن مع الأسف، ليس لدينا معلومات دقيقة عن هذه المرحلة المبكّرة لهذا الطّقس. وكتاب الدّسقوليّة (تعاليم الرُّسُل) يعطينا فكرة عن هذه اللّيتورجيّة كما كانت تُمارس في منتصف القرن الثّالث الميلادي. أما في القرن الرّابع فقد حدث تجديد في اللّيتورجيّا كان له أثر كبير في تطوُّرها، كما يؤكّد ذلك القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م). أمّا المواكب الاحتفاليّة المصاحبة للطّقس الأنطاكي؛ والسّهر اللّيلي مع ما يصاحبه من ترتيل، فقد أضفى عليه سمات ميّزته تماماً عن الطّقس السّرياني الشّرقي[١].

وجاء القرن الخامس حاملاً معه انقساماً لهذا الطّقس السّرياني الغربي، إذ بعد أن رفضت كنيسة أنطاكية مقرّرات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، نشأت عداوة بين سوريا وبيزنطة، وحدث انفصال بينهما، فتبنّت الكنيسة الأنطاكيّة اللّغة السّريانيّة لتكون هي لغة ليتورجيّتها، وتبع ذلك فترة طويلة من التّطوُّر اللّيتورجي لهذه الكنيسة حيث أُثريت بعدد كبير من الكتابات المترجمة أو المؤلّفة، فاكتسب الطّقس السّرياني الأنطاكي غنى وتنوُّع عظيمين، إذ احتوى على حوالي سبعين أنافورا[٢].

1- *New Catholic Encyclopedia*, vol. 8, p. 910.

٢- أورد إغناطيوس أفرام الثاني بطريرك السّريان الأنطاكيين الكاثوليك في كتابه: "المباحث الجليّة في الليترجيّات الشّرقيّة والغربيّة": باباً ضمّنه لنا بهذه الأنافورات،

ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب

وإن أقدم ليتورجيّة أنطاكيّة وهي المعروفة باسم ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب، هي نتاج امتزاج الطّقس الأنطاكي الأوّلي مع الطّقس الأورشليمي في القرن الرّابع الميلادي. فقد كانت ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب هي ليتورجيّة كنيسة أورشليم، وقد أخذتها عنها الكنيسة الأنطاكيّة.

وقد دُوِّنت ليتورجيّة القدّيس يعقوب في قسمها الأساسي وهو القسم المُسمى بصلاة الإفخارستيّا باللُّغة الآراميّة لأن الأساقفة الخمسة عشر الذين تولوا رئاسة كنيسة أورشليم بدءاً من يعقوب أخي الرّب كانوا من اليهود، وكانت لغتهم هي اللّغة الآراميّة[٣].

وقد ظلّت ليتورجيّة أورشليم خصوصاً، وفلسطين عموماً، قريبة الشّبه جداً من ليتورجيّة أنطاكية. ولكن مع تطوُّر السّياحة الدّينيّة إلى الأراضي المقدّسة في القرن الرّابع الميلادي - بعد تحوُّل الإمبراطوريّة الرُّومانيّة إلى المسيحيّة - قد أعطى لليتورجيّة أورشليم وضعاً خاصاً مميّزاً، مما جعل لها تأثيراً مباشراً على ليتورجيّات أخرى، خصوصاً ليتورجيّة أرمينيا، وليتورجيّة جورجيا.

ولدينا شهادات كثيرة غنيّة لليتورجيّة أورشليم تفوق مثيلاتها في أي ليتورجيّة أخرى. وهذه الشّهادات هي تعاليم القدّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) للموعوظين، وخليفته يوحنا، بالإضافة إلى مذكرات السّائحة الأسبانيّة إيجيريا (القرن الرّابع)، وكذلك القطمارس

وهو يحوي ٦٥ أنافورا.

٣- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة ٣:٣ ؛ ٤:٥

الأرمني القديم، وكُتُب السَّنة اللّيتورجيّة الجورجيّـــة Le Calendrier et le Kanonarion ، والشّذرات المتفرّقة الموجودة في وثائق الملكانيّين(٤).

فيورد القدّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) نُبذاً شتّى منـــها في العظة الثّالثة والعشرين الّتي ألقاها في نحو سـنة ٣٤٧م للمقـبلين إلى العموديّة، وهي مقتبسة من اللّيتورجيّة المذكورة. ثم إتّباعـه في شـرح القدّاس في العظة المذكورة نسق تلك اللّيتورجيّة ونظامها. فبعد الإشـارة إلى غسل اليدين وتحيّة السّلام، وقول الكاهن المقـرِّب للشّـعب بـأن يشكروا الرَّب وحوابحم له، يتبع الشَّرح بقوله:

"ثم إننا نذكر السّماء والأرض والبحر والشّمس والقمر والكواكب والخليقة بأجمعها النّاطقة وغير النّاطقة، والمنظورة وغير المنظورة، والملائكة ورؤساء الملائكة، والقوّات والرّئاسـات، والسّـيادات، والسّـلطات، والكراسي، والكاروبيم الكثيري الوجوه. ونذكر أيضاً السّارافيم الـذين رآهم إشعياء محتفين بعرش الله ويحجبون وجوههم بجناحين، وبجنـاحين أرجلهم، ويطيرون بجناحين هاتفين قدوسٌ ... ثم نطلب من الله الكريم أن يرسل الرُّوح القُدُس على القرابين الموضوعة ليجعل الخبز جسد المسـيح والخمر دم المسيح ... ثم بعد أن يُكمَّل القربان الرُّوحي نصلّي مبتـهلين إلى الله باستحقاق تلك الذّبيحة الغافرة من أجل سلام الكنائس قاطبـة، ومن أجل سلامة العالم وصلاحه، ومن أجل الملوك، ومن أجل الجنـد، ومن أجل المرضى والذين في الضّيقات. ثم نذكر الذين رقـدوا الآبـاء والأنبياء والرُّسُل والشُّهداء لكي يقبل الله طلبتنا بصلواتهم. ثم من أجـل الآباء والأساقفة وسائر المتقدّمين. ثم نصلّي الصّلاة التي علّمها المخلّـص لتلاميذه ... الخ".

4- A. G. Martimort, *L'Eglise en Prière, Introduction à la Liturgie*, Belgium, 1961, p. 18.

وظلّت كنيسة أورشليم تستعمل ليتورجيّة مار يعقوب وحدها إلى أن آلت رئاستها إلى البطاركة التّابعين لكنيسة القسطنطينيّة، فأبدلوها بليتورجيّتيها المنسوبتين إلى مار باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) القيصري، ومار يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م). وابقوا على ليتورجيّة مار يعقوب ليوم عيده فقط الذي يقع في ٢٣ تشرين الأوّل (أكتوبر).

وكان الملكيُّون في سوريا أيضاً يقدّسون بليتورجيّة مار يعقوب إلى أن تولى رئاسة الكرسي الأنطاكي عندهم ثاوذوروس بلسامون Balsamon († ١٢٠٤م) اليوناني الأصل، فأدخل ليتورجيَّتي القسطنطينيّة بدلاً منها[٥].

واليوم توجد ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب في نصّين، النّص اليوناني والنّص السّرياني. أمّا أقدم نص يوناني لهذه اللّيتورجيّة فهو محفوظ في مخطوط يعود إلى القرن العاشر الميلادي بمكتبة مسينه بجنوب إيطاليا. أما أقدم نسخه للنّص السّرياني فهي مخطوط مبعثر يعود تاريخه إلى القرن الثّامن أو التّاسع للميلاد، ومحفوظ في قسم المخطوطات السّريانيّة بمكتبة لندن.

والمخطوطات القديمة لهذه اللّيتورجيّة تحوي العنوان التّالي: "أنافورا مار يعقوب أخي الرّب طبقاً للنُّسخة التي صحّحها وأتقن ضبطها يعقوب الرّهاوي". لأنه لما انتبه القدّيس يعقوب الرّهاوي (٦٣٣-٧٠٨م) إلى الاختلافات التي طرأت على النّص السّرياني لهذه اللّيتورجيّة مع توالي الأزمان، جنى بمراجعة النّص السّرياني على النّص اليوناني، وكان خبيراً ماهراً في اللّغتين. وللقدّيس يعقوب الرّهاوي مقالات كثيرة بالسّريانيّة في شرح ليتورجيّة مار يعقوب.

٥- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ١٦٧

ولازالت التّصحيحات التي أجراها القدّيس يعقوب الرّهاوي هذه اللّيتورجيّة واضحة لدينا حتى اليوم، وكان تصحيح النّص السّرياني على اليوناني تصحيحاً حرفياً جاوز الحد أحياناً، بجعله النّص السّرياني منطبقاً على اليوناني من كل وجه حتى فيما يتعلّق بترتيب الألفاظ الواحدة بعد الأخرى خلافاً للنّسق السّرياني المأنوس. كما أهمل يعقوب الرّهاوي بعض العبارات في النّص السّرياني ليكون النّص مطابقاً لليوناني.

ومما يعد أصلياً في النّص اليوناني توجيه الابتهال الذي يلي كلام التقديس إلى الآب تبعاً لنسق صلاة الإفخارستيّا التي توجّه الخطاب إلى الآب من بدايتها إلى نهايتها. فيورد النّص اليوناني: "إننا نذكر موته (أي موت الابن) وقيامته ... وصعوده ... ولذلك فشعبك وميراثك يتضرّع إليك (أيها الآب) ...". فهذا النّص اليوناني الأصلي قد حُرّف في النّص السّرياني بتوجيهه إلى الابن هكذا: "إننا نذكر موتك ... وقيامتك ... وصعودك ... ولذلك فشعبك وميراثك يتضرّع إليك وبواسطتك ومعك إلى أبيك ...".

ثم نُقلت التّرجمة السّريانيّة هذه اللّيتورجيّة إلى اللغة العربيّة.

تأثير الطّقس الأنطاكي على الطّقس البيزنطي

إن الذين قبلوا مقرّرات مجمع خلقيدونية، وعُرفوا باسم "الملكانيّين" احتفظوا باللّغة اليونانيّة لغة طقسيّة في عبادتهم اللّيتورجيّة، ولكنهم ظلّوا يمارسون الطّقس السّرياني الغربي باللّغة اليونانيّة. وإذ خضعوا شيئاً فشيئاً تحت تأثير القسطنطينيّة، فقدوا نهائياً اللّيتورجيّة السّريانيّة الغربيّة في القرن الثاني عشر، وتبنّوا منذ ذلك الحين اللّيتورجيّة البيزنطيّة. وحاز الطّقس البيزنطي - الذي كان ذات يوم أحد فروع الطّقس السّرياني الغربي -

استقلاليَّة مضطَّردة، أعتُبر بموجبها طقساً قائماً بذاته ضمن الطُّقوس الشرقيَّة.

ومن الواضح أنه منذ أن تأسّست مدينة القسطنطينيَّة في القرن الرَّابع الميلادي على يد الإمبراطور قسطنطين، لم يكن لها أي أصول ليتورجيَّة تختص بها، ولذلك لم يكن أمامها سوى أن تستعير أو تؤلّف ليتورجيَّة تخصّها. ونتيجة الرَّوابط الوطيدة التي كانت تربط بين أنطاكية والقسطنطينيَّة، فقد تأثّرت ليتورجيَّة القسطنطينيَّة بالممارسات اللِّيتورجيَّة الأنطاكيَّة تأثُّراً مباشراً. وكان للقدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) - وهو المواطن الأنطاكي، وأسقف القسطنطينيَّة في نفس الوقت دور كبير في هذا التَّأثير.

وكما سبق أن ذكرتُ منذ قليل، فإن كنيسة القسطنطينيَّة تستخدم ليتورجيَّتين مشهورتين، الأولى باسم مار باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) القيصري، والثّانية باسم مار يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م). وقد دخلت هاتان اللِّيتورجيَّتان إلى كنائس الملكيين في فلسطين وسوريا ومصر بدلاً من ليتورجيّاتها الأصليَّة.

ولقد كان منتصف القرن التّاسع هو بداية الفترة التي فيها توحّد وتنظّم الطّقس البيزنطي في أرجاء الإمبراطوريَّة. أما أهم تطوُّرين حدثا له فهما:

- ترجمة هذا الطّقس إلى اللُّغة السّلافونيَّة بواسطة القدّيسَين كيرلس وميثوديوس، حيث صار هذا الطّقس هو الطّقس الرّسمي للكنيسة السّلافونيَّة التي نشأت حديثاً.

- تعميد أمير مدينة كييف (وهو القدّيس فيلاديمير) بعد ذلك بأكثر من قرن قد فتح لهذا الطّقس إقليماً جديداً صار فيما بعد هو إمبراطوريَّة روسيا على اتساعها.

وبعد ذلك حمل المبشّرون الرُّوس هذا الطّقس إلى منطقة آسيا الوسطى وحتى إلى منشوريا[٦] والصّين واليابان. وأصبحت اللّيتورجيّة البيزنطيّة هي أكثر اللّيتورجيّات الشّرقيّة التي تطوّرت تطوُّراً كلياً على مدى عشرة قرون، جاذبة إليها عناصر من جهات كثيرة، وسادت في كل أنحاء الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وحلّت محل اللّيتورجيّات الشّرقيّة في كل الكنائس التي قبلت مقرّرات مجمع خلقيدونية.

تأثير الطّقس البيزنطي على الغرب المسيحي

ثم حدث تطوُّر آخر عندما انضمت بعض الإيبارشيّات إلى كنيسة روما في نهاية القرن السّادس عشر، فاختلطت اللّيتورجيّة البيزنطيّة بعناصر لاتينيّة، وعُرف أصحاب هذه اللّيتورجيّة باسم "الرُّوثينيين الكاثوليك".

ولقد نقلت روما عن القسطنطينيّة أيضاً بعضاً من النُّصوص اللّيتورجيّة، ومن بينها نصاً يونانياً ذا أصل فلسطيني يعود تاريخه إلى حوالي القرن السّادس الميلادي، ونصُّه باليونانيّة هو:

Τῆς σαρκός σου Χριστέ μετελάβομεν καὶ τοῦ αἵματός σου ἠξιώθημεν.

أي: "تناولنا جسدك أيها المسيح، واستحققنا دمك".

٦- هو إقليم تزيد مساحته قليلاً عن مليون ونصف مليون كيلومتر مربع، ويسكنه ما يقرب من ٥٠ مليون نسمة، ويقع شمال شرق الصّين، ويفصله عن روسيا وعن كوريا مجموعة من الأنهار. بدأ التغلغل الرُّوسي في منشوريا سنة ١٩٠٠م، ولكن اليابان احتلت الإقليم بعد خروجها منتصرة في حربها مع روسيا سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥م. وبعد سنة ١٩١١م توالى على حكم منشوريا قواد عسكريُّون صينيون. وفي سنة ١٩٣١م احتلت اليابان الإقليم كله، وأقامت به دولة صوريّة تابعة لها. وفي سنة ١٩٤٥م عادت منشوريا عقب الحرب العالمية الثانية تحت سيطرة الشيوعيين آنئذ.

ونفس النّص اللاتيني لذلك الأصل اليوناني ظهر أيضاً في طقس ميلان في قدّاس القدّيس أمبروسيوس، ذاك الطّقس الذي يُعتبر مستودعاً لكثير من الطّقوس اللّيتورجيّة اليونانيّة في ترجمتها اللاتينيّة. فليتورجيّة ميلان نقلت لنا أيضاً ترجمة للحن يوناني يُقال في أثناء التّناول في يوم خميس العهد بدايته هي: Τοῦ δείπνου σου τοῦ μυστικοῦ أما نصُّه فهو كما يلي:

"اقبلني اليوم شريكاً في عشائك السّرّي يا ابن الله. لأني لستُ أقول سرّك لأعدائك، ولا أعطيك قُبلة مثل يهوذا، لكن كاللّص أعترف لك اذكرني يارب إذا أتيتَ في ملكوتك(٧)".

وهناك كثير من الألحان في الطّقس الأمبروزي (طقس ميلان) في ترجمتها اللاتينيّة ليس لها ما يقابلها اليوم من أصول يونانيّة. ويبدو أنها ترجمة لنصوص يونانيّة مفقودة الآن، تعود إلى موطنها الأصلي فلسطين، وتؤرّخ ببداية القرن السّادس الميلادي(٨).

كما يوجد عدد ضخم من الأنتيفونات Antiphons والمردّات Responses المستخدمة في الطُّقوس الغربيّة تطابق نصوصاً ليتورجيّة يونانيّة Greek Poetry واسعة الانتشار في الطُّقوس الشّرقيّة عموماً، والطّقس البيزنطي خصوصاً(٩).

٧- بهجة النفوس في الصّلوات إلى الرّب القدّوس، عني بجمعه وترتيبه الأرشيمندريت إلياس إسطفان معدني، الإسكندرية ١٩٤٠، ص ٥٣٣

8- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 106, 94- 98.

9- *Ibid*, p. 100.

تأثير الطّقس الأنطاكي على الطّقس الماروني والأرمني

وتفرع عن الطّقس السّرياني الغربي؛ الطّقس الماروني في لبنان، وهم الذين ارتبطوا مع روما بعلاقة وثيقة بدءاً من الحروب الصّليبيّة، فاصطبغت ليتورجيّتهم بالصّبغة اللاتينيّة، وخصوصاً منذ القرن الثّامن عشر[١٠].

أما اللّيتورجيّة الأرمينيّة فهي ليتورجيّة مركّبة من طقوس شرقيّة عديدة، ولكن اللّيتورجيّة الأنطاكيّة هي أكثرها تأثيراً. ومنذ العصور الوسطى حدث لها تطوّر كبير بدأ بتأثير بيزنطي؛ إذ تجد في اللّيتورجيّة الأرمينيّة عدّة صلوات منقولة عن ليتورجيّة القدّيس يوحنا ذهبي الفم البيزنطيّة، ثم أُلحق هذا التطوّر بتأثير لاتيني بعد الحروب الصليبيّة[١١].

١٠- وجدير بالذّكر أن أشير إلى أنه قد صدر كتاب "القدّاس بحسب طقس الكنيسة الأنطاكية السّريانيّة المارونيّة"، وأصبح ساري المفعول منذ سنة ١٩٩٢م مع مطلع السنة الطّقسيّة، في الأحد الأوّل من تشرين الثاني (سبتمبر)، وأصبح ممنوعاً بأمر البطريرك الماروني استعمال أي كتاب آخر للقدّاس الماروني.

وكان كتاب القدّاس الماروني الأوّل قد طُبع في روما سنة ١٥٩٢م، وبين هذا الكتاب الأوّل والكتاب الأخير أربعة قرون، طُبع في خلالها عشرة كتب قدّاسات، كان آخرها سنة ١٩٧٣م.

ويرتكز القدّاس الجديد على السنة الطّقسيّة، ويتضمن ثلاثاً وأربعين خدمة تبادليّة بحسب أزمنة السنة الطّقسيّة. ويمكن للكاهن أن يختار واحدة من ست أنافورات فقط هي أنافورا الاثني عشر، وأنافورا مار بطرس هامة الرُّسل، وأنافورا مار يعقوب أخي الرّب، وأنافورا مار يوحنا الرّسول، وأنافورا مار مرقس البشير، والأخيرة لواحد من باباوات روما.

واختار القدّاس الجديد نصاً واحداً لكلمات التقديس، هو نص أنافورا الاثني عشر. وأصبحت المناولة تُعطى للشّعب تحت شكلي الخبز والخمر مثل التّقليد الشّرقي؛ وليس الخبز فقط كالتّقليد الغربي لكنيسة روما.

11- *N.E.C.*, vol. 8, p. 910.

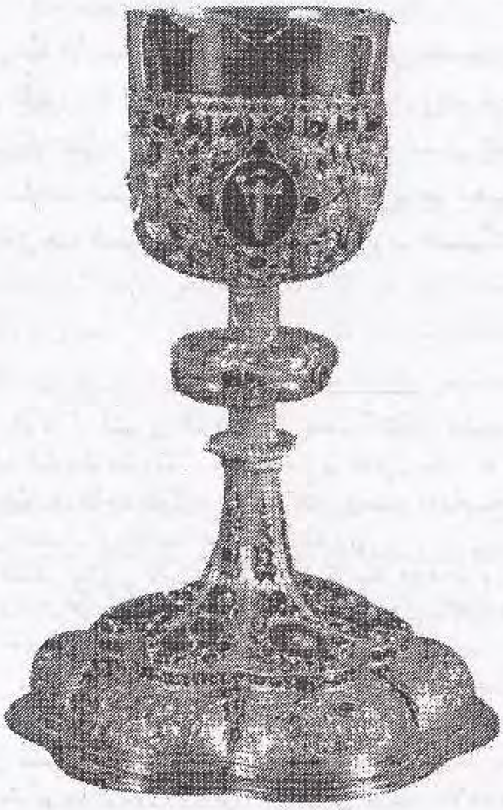

الفَصل الرّابع

اللِّيتورجيَّة الإسكندرانيَّة

تمهيد

يرى العالم برايتمان F.E. Brightman أن الفقرة التي تشير إلى الإطار العام للّيتورجيّا المصريّة، والتي وردت مرّتين في الدّسقوليّة العربيّة - في نصّها الأوّل - مرّة في الفصل الثّالث والعشرين، ومرّة أخرى في الفصل الثّامن والثّلاثين، وهي الممارسة القائمة بالفعل الآن في الكنيسة القبطيّة، هي فقرات ضمن فصول لا مقابل لها في كتاب المراسيم الرّسوليّة[١]. فهي إذاً من تدوين المترجم القبطي، بدون أن يشير إلى المصدر الذي نقل عنه. ويبدو أن هذه التّرجمة العربيّة لهذه الفقرات منقولة عن نص يوناني. وعلى ذلك فإن هذا الإطار العام للّيتورجيّا يُعتبر مرحلة ضمن مراحل تطوُّر اللّيتورجيّة المصريّة، سواء اليونانيّة أو القبطيّة[٢].

جزء من الفصل ٢٣ من الدّسقوليّة العربيّة

[... ثم بعد ذلك يبتدئ (الأسقف) بخدمة القدّاس، ويقول صلاة الشُّكر أولاً. وبعد ذلك يقول تفسير كلام الكُتُب والشّعب جلوس، ويعرف ثبات سيرتهم. وتُقال الأبصلموديّة. ثم يحمل الخبز والكأس اللّذين للشُّكر. ويحمل الأسقف البخور، ويدور حول المذبح ثلاث دورات، ويعطي البُخور للقس فيدور به وسط الشّعب. وإذا فرغوا من الأبصلموديّة يقرأ الشّمامسة فصولاً من الكلام الرّسولي، ويقولون تسابيحَ من المزامير].

١-هذه الفصول هي: ٢٣، ٣٥- ٣٩. وهي تتحدّث عن: الأساقفة الذين يُقامون (فصل ٢٣)؛ ولأجل ترتيب بناء الكنيسة المقدسة (فصل ٣٥)، ولأجل إقامة الأسقف (فصل ٣٦)، ولأجل أوقات صلاة الأسقف والكهنة (فصل ٣٧)، ولأجل صوم الأسقف من بعد إقامته (فصل ٣٨)، ولأجل الأمانة التي يقولها المؤمنون قبل القدّاس، والتي علمها الرّب لرسله الأطهار (فصل ٣٩).

2- F.E. Brightman, M.A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p. lxv.

جزء من الفصل ٣٨ من الدّسقوليَّة العربيَّة

[... ويبدأ (الأسقف) بخدمة القدّاس هكذا: يقول أولاً صلاة الشُّكر. وبعد ذلك يجلس الشَّعب ويقول لهم تأويل كلام الكُتُب المقدَّسة، ويعلّمهم إياه كما يصلح لثبات سيرتهم، ويعرِّفهم مذهب الصَّلاح. ثم يقول الأبصلموديَّة التي هي الترتيل من كتاب المزامير مع قوم ممتلئين من الفهم والحكمة والموهبة. ويكون الشَّعب كله جالسين سامعين لهم بفهم وخوف، ويتبعونهم بخزع. ويحمل القس الخبز وكأس الأوخارسديَّة، ويحمل الأسقف البُخور ويدور به حول المذبح ثلاث دفعات تمجيداً للثّالوث المقدَّس، ثم يدفع مجمرة البُخور للقس فيدور بها على الشَّعب كله.

فإذا أكملوا الأبصلموديَّة يقرأ الشَّمامسة فصولاً من الكلام الرَّسولي، وفصلاً من المزامير، ثم فصلاً من كلام الإنجيل. ويصلُّون عن المرضى والغرباء والمتضايقين، وعن الهواء والثّمار والملوك والرؤساء والموتى، وعن الذين يأتون ويعملون الخير للكنيسة، وعن الموعوظين، وسلامة الكنيسة الجامعة، وعن الأسقف. والسِّتارة مرخيَّة وداخلها معه القسوس والشَّمامسة والإيبودياقون والأغنسطسون والأرامل اللاتي هن النِّساء الشمَّاسات اللاتي لهن مواهب روحانيَّة. ويكون الأسقف قائماً على المذبح، وحوله شمامسة يروِّحون بمراوح واكمسار مثل أجنحة الكاروبيم. والقسوس معه قيام، وبقية الإكليروس أيضاً على الطَّقس. ولا يُقرِّب أحد من القربان إلاّ المؤمنون فقط].

وإن كثيراً من الوثائق اللّيتورجيَّة المبكّرة في كنيسة الإسكندريَّة قد حُفظت لنا على قصاصات من ورق البردي، ولكن مما يُؤسف له أن هذه النُّصوص اللّيتورجيَّة متهالكة للغاية بفعل طول الزَّمن. وبرغم ذلك فقد قام العالم الألماني تيودور شيرمان Theodor Scherman بدراسة مستفيضة لهذه الوثائق البرديَّة. ولا زالت الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم تمارس في خدماتها الكنسيَّة كثيراً من هذه النُّصوص اللّيتورجيَّة المبكّرة.

ومن بين هذه النُّصوص اللّيتورجيَّة عدد من الألحان والثيؤطوكيَّات

التي وُجد لها نظير في الطّقس البيزنطي، وخصوصاً في كتاب السّـواعي Horologion أي الأجبية. وهي الحقيقة التي تُرجع تاريخ هذه النُّصوص إلى ما قبل القرن الخامس أو السّادس الميلادي، وهي الفترة التي لم تتعـرّض بعدها كنيسة مصر لأية تأثيرات ليتورجيّة بيزنطيّة إلاّ في القرن التّاسع عشر.

وهذه النُّصوص السّابق ذكرها هي ذو أصل فلسطيني. ولازالـت وثائق البردي المصريّة مدوّن عليها لحن للعذراء مـريم يشـهد بقدمـه، وتاريخه المبكر. ولقد وُجدت ترجمة لهذا اللّحن عند الأقباط والأحبـاش، حيث نقله الأقباط عن الأحباش، ووُجد اللّحن أيضاً في ترجمة لاتينيّة في طقس ميلان. ولازال يُمارس في اللّيتورجيّة البيزنطيّة حتى اليوم. أما بداية كلمات اللّحن فتقول: Χαίρε Θεοτόκε, τὸ ἀγαλλίαμα τῶν ἀγγέλων أي: "افرحي يا والدة الإله، فرح الملائكة".

أمّا عن ليتورجيّات كنيسة الإسكندريّة، فهي ثلاث ليتورجيّـات؛ الأولى هي ليتورجيّة مار مرقس، والتي نُسبت إلى القدّيس كيرلس الكبير. والثّانية هي ليتورجيّة القدّيس باسيليوس الكبير، والثّالثة هي ليتورجيّـة القدّيس غريغوريوس الثيؤلوغوس.

أما القدّاس المرقسي أو الكيرلسي فهو ذات سمات مصريّة خاصة، إذ يختلف من حيث تسلسل أجزائه عن باقي القدّاسات الشّرقيّة الأخـرى، كما يختلف أيضاً عن القدّاسين الباسيلي والغريغوري القبطـيّين اللّـذين يأتيان في تسلسل أجزائهما على منوال اللّيتورجيّات السّريانيّة الأنطاكيّة، وبالتّحديد ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب.

وهناك فقرات كثيرة في القدّاس المرقسي متشابهة لفظاً مع ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب.

أما ليتورجيَّة القدِّيس غريغوريوس فهي تختلف عن سائر اللّيتورجيَّات الأخرى بتوجيهها الخطاب إلى الابن وليس الآب. ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن كل ليتورجيّات قدّاسات الماء في لقّانات عيد الغطاس ويوم خميس العهد وعيد الرُّسُل في الكنيسة القبطيّة موجّهة أيضاً إلى الابن.

أولاً: اللّيتورجيّات اليونانيّة لكنيسة الإسكندريّة

إنه من العجيب حقاً أن يتبقّى لدى الأقباط حتى اليوم خولاجيّات يونانيّة لقدّاساتهم القبطيّة، إذ أن الكنيسة القبطيّة قد انعزلت كليّة عن الثقافة اليونانيّة بعد دخول العرب مصر سنة ٦٤٢م. ومن ثمّ سرعان ما فقد الأقباط استخدام اللّغة اليونانيّة سواء في معاملاتهم اليوميّة أو المدنيّة، وحتى اللّيتورجيّة أيضاً، أي استخدام اللّغة اليونانيّة في صلواتهم[٣].

لقد كانت ليتورجيّة كنيسة الإسكندريّة في بدايتها يونانيّة، ثم انتقلت إلى القبطيّة في حدود القرن السّادس للميلاد على وجه التّقريب، وإن عدم تحديدنا هذا التّاريخ – كما يذكر العالم برايتمان F.E. Brightman – يرجع إلى أنه ليس لدينا تاريخ واضح عن ليتورجيّة القدّيس مرقس اليونانيّة[٤].

وكان من الطّبيعي – والحال هذه – ألاّ يتوفّر لدارسي اللّيتورجيّات أي مخطوط باليونانيّة يحوي صلوات ما قبل الأنافورا Ordinary of the

٣- فيما عدا مردّات الشمّاس والشّعب في القدّاس القبطي التي ظلّت حتى اليوم باليونانيّة ولم تُترجَم إلى القبطيّة كباقي النّصوص الأخرى، إلا أن نصوصها اليونانيّة أصبحت تُكتب بحروف قبطيّة. ثم تُرجمت هذه النّصوص اليونانيّة إلى العربيّة مباشرة، ولكن ظل الكثير منها حتى اليوم يُردَّد باليونانيّة.

4- F.E. Brightman, *op. cit.*, p. lxvi.

Mass أي بدءاً من صلوات الاستعداد لفرش المذبح(٥). ولقد ظلّ هذا الأمر سائداً حتى سنة ١٩٧٥م حين نشر العالم ماكومبر W.F. Macomber مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex الذي اكتشفه في ولاية مينيسوتا Minnesota بالولايات المتّحدة الأمريكيّة كما سأشرح فيما بعد.

فقد كان المخطوط اليوناني الوحيد لقدّاسات الكنيسة القبطيّة المعروف حتى القرن السّابع عشر هو المحفوظ في المكتبة الأهليّة بباريس تحت رقم (يونانيّات ٢٣٥). وهو مخطوط يعود إلى القرن الرّابع عشر الميلادي ويحوي القدّاسين الباسيلي والغريغوري فقط باليونانيّة والعربيّة. أما القدّاس الكيرلسي فلم يكن معروفاً باليونانيّة حتى تم نشره أواخر السّبعينيّات من القرن العشرين بعد اكتشاف مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex بواسطة العالم ماكومبر W.F. Macomber .

---

٥ - وعددها ١٣ صلاة. وهي: (١) صلاة الاستعداد للمذبح. (٢) صلاة بعد استعداد المذبح. (٣) صلاة الشكر. (٤) صلاة التّقدمة. (٥) تحليل الابن. (٦) صلاة أخرى (للتحليل). (٧) صلاة البخور. (٨) صلاة تقال بعد الأبسطلس. (٩) صلاة تقال بعد القتاليقون. (١٠) صلاة البخور للإبركسيس. (١١) صلاة الإنجيل على نص الإسكندرانيين. (١٢) صلاة الإنجيل ترتيب المصريين. (١٣) صلاة من بعد الإنجيل.

Cf. Samir Kh. *Le codex Kacmarcik et sa version arabe de la Liturgie alexandrine*, Cited by OCP 44 (1978), p. 346.

أما مخطوط رقم (ط ١٥٥) بمكتبة دير أنبا مقار فهو يحوي نصوص الصّلوات السّابق ذكرها باليونانيّة والعربيّة (من بند ١ إلى بند ١٠). ثم يورد "أوشيّة الإنجيل ترتيب المصريين"، ثم يعقبها مباشرة بالثلاث أواشي الصّغار (يقصد الكبار) السّلامة والآباء والاجتماعات. وبذلك لم يورد أوشيّة الإنجيل بحسب الإسكندرانيين، والصّلاة التي تقال بعد الإنجيل. ولم يرد به أيضاً أي صلوات تقال أمام الحجاب.

وكان مخطوط رقم (يوناني ٢٣٥) بالمكتبة الأهليّة بباريس يحوي ثلاثة صلوات من الصّلوات الـ ١٣ المذكورة سابقاً، في القدّاس الغريغوري اليوناني.

Cf. Macomber, W.F., *The Kacmarcik Codex. A 14 Century Greek-Arabic Manuscript Of The Coptic Mass*, Le Muséon 88 (1975).

وقبل أن أعرض للنشرتين العلميَّتين للنَّص اليوناني الكامل لقدَّاسات الكنيسة القبطيَّة، والتي نشرهما كل من العالم رينودوت E. Renaudot والعالم ماكومبر W.F. Macomber يلزمنا أن نشير إلى النَّص اليوناني للقدَّاسات القبطيَّة الذي حُفظ لنا سواء في برديَّات قديمة؛ أو في مخطوطات قديمة.

برديَّة ستراسبورج وبرديَّة دير البلايزا

أمَّا أقدم مخطوطتين يونانيَّتين لليتورجيَّة مار مرقس في نصها اليوناني كما كانت تمارسها الكنيسة القبطيَّة، فهما برديَّة ستراسبورج، وبرديَّة دير البلايزا، وفيما يلي الحديث عنهما.

برديَّة ستراسبورج

تم اكتشافها في سنة ١٩٢٨م. وهي باللُّغة اليونانيَّة على ورق البردي. وقد دُعيت بهذا الاسم لأنها صارت في حوزة جامعة ستراسبورج. وهي تشتمل على جانب من الجزء الأوَّل من ليتورجيَّة مار مرقس الرَّسول.

وقد استدل العلماء[٦] الذين فحصوا المخطوطة على أن زمن كتابتها يرجع إلى النِّصف الأوَّل من القرن الرَّابع الميلادي.

النَّص:

... لأنه بالحقيقة مستحق وعادل أن نسبِّحك ونرتِّل لك، ونباركك، ونخدمك ليلاً ونهاراً، ونشكرك أنت الذي خلقت السَّماء وكل ما فيها، والأرض وكل ما عليها، البحار والأنهار وكل ما فيها. أنت الذي خلقت الإنسان كصورتك وشبهك.

٦- العالم أندريو M. Andrieu والعالم كولومب P. Collomps .

وخلقت كل الأشياء بواسطة حكمتك، ابنك، النُّور الحقيقي، ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح، الذي من قبله نشكر ونقرّب لك معه ومع الرُّوح القدُس هذه الذبيحة النّاطقة، هذه الخدمة غير الدَّمويَّة، هذه التي تقدِّمها لك كل الأمم من مشارق الشَّمس إلى مغاربها، ومن الشَّمال إلى اليمين، لأن اسمك عظيم بين كل الأمم، وفي كل مكان يقدَّم بخور لاسمك القدُّوس، وذبيحة طاهرة وصعيدة.

ونحن نسأل ونطلب إليك اذكر الكنيسة المقدَّسة الواحدة الجامعة. كل الشُّعوب وكل القطعان. السَّلامة التي من السَّموات أنزلها على قلوبنا جميعاً، بل وسلامة هذا العمر، أنعم بها علينا. ملك الأرض، انظر أن يفكر بالسَّلامة نحونا ونحو اسمك القدُّوس ... (واحرس) القائد والجند والوزراء والمشيرين.

...

أعدَّها للزَّرع والحصاد ... من أجل فقراء شعبك، ومن أجل الأرملة واليتيم والغريب والضَّيف، ومن أجلنا كلنا نحن الذين نرجاك وندعو باسمك القدُّوس.

أولئك الذين رقدوا نيِّح نفوسهم. اذكر الذين قدّمنا تذكارهم في هذا اليوم، والذين ذكرنا أسماءهم والذين لم نذكرهم. واذكر أيضاً آباءنا الأرثوذكسيين والأساقفة في كل مكان، وأعطنا نصيباً وميراثاً مع كافة قديسيك الأنبياء والرُّسل والشُّهداء ...

...

هب لهم الآن بواسطة ربّنا ومخلّصنا الذي به المجد إلى الأبد.

(انتهى النَّص)

برديَّة دير البلايزا

تم اكتشافها بالقرب من أسيوط سنة ١٩٠٧م، وهي تعود إلى القرن السَّادس الميلادي، وتحوي النَّص اليوناني لليتورجيَّة القدِّيس مرقس الرَّسول الذي يكمِّل نص برديَّة ستراسبورج السَّابق ذكرها.

النص:

... الذين يبغضونك. أمَّا شعبك الذي يصنع إرادتك، فلتحل عليه بركتك. أقم السَّاقطين، رد الضَّالين إلى طريق الحق، عزِّي صغيري القلوب.

لأنك أنت فوق كل رياسة وسلطان وقوَّة وسيادة وفوق كل اسم، ليس في هذا الدَّهر فقط، بل وفي الدَّهر الآتي أيضاً.

ألوف الملائكة المقدَّسين، وأجناد رؤساء الملائكة التي بلا عدد يخدمونك مع الشَّاروبيم المملوئين أعيناً، والسِّيرافيم ذوي السِّتة أجنحة الذين بجناحين يغطون

وجوههم، وبجناحين يغطون أرجلهم، ويطيرون باثنين. والكل على الدّوام يقدّسونك. فمع هؤلاء الذين يقدّسونك، هكذا اقبل منّا نحن أيضاً تقديسنا قائلين: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ رب الصّباؤوت، السّماء والأرض مملوءتان من مجدك.

املأنا نحن أيضاً من مجدك، وتفضّل وأرسل روحك القدُّوس على خليقتك هذه أيضاً، واجعل هذا الخبز جسداً لربّنا ومخلصنا يسوع المسيح، والكأس دماً للعهد الجديد لربّنا أيضاً ومخلّصنا يسوع المسيح.

وكما كان هذا الخبز مرّةً مبعثراً فوق الجبال والتّلال والأودية، ثم اجتمع معاً ليكون جسداً واحداً. وأيضاً هذا الخمر الذي خرج من كرمة داود المقدّسة، وهذا الماء الذي خرج من الحَمَل الذي بلا عيب، امتزجا معاً صائرين سراً واحداً، هكذا أيضاً اجمع الكنيسة الجامعة التي للمسيح يسوع.

لأن ربّنا يسوع المسيح في اللّيلة التي أُسلم فيها، أخذ خبزاً على يديه المقدّستين وشكر، وباركه، وقدّسه، وقسّمه وأعطاه لتلاميذه ورسله قائلاً: خذوا كلوا منه كلكم، هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم لمغفرة الخطايا.

وهكذا أيضاً بعد العشاء أخذ الكأس، وبارك وشرب منها، وأعطاها لهم قائلاً: خذوا اشربوا منها كلّكم، هذا هو دمي المسفوك عنكم لمغفرة الخطايا. كل مرّة تأكلون من هذا الخبز، وتشربون من هذه الكأس، تبشّرون بموتي، تعترفون بقيامتي، تذكروني.

الشّعب: بموتك يارب نبشّر وبقيامتك نعترف ونتضرّع ...

... تفضّل علينا نحن عبيدك بقوّة روحك القدُّوس لتشديد ونمو إيماننا وليكون لنا رجاء الحياة الأبديّة بربّنا يسوع المسيح، الذي لك معه يا أبانا ومع الرُّوح القُدُس المجد إلى الأبد آمين.

الاعتراف بالإيمان(٧)

أؤمن بالله الآب ضابط الكل، وبابنه الوحيد يسوع المسيح، وبالرُّوح القُدُس، وبقيامة الأجساد في الكنيسة المقدّسة الجامعة.

(انتهى النّص)

٧- عنوان في المخطوطة.

المخطوطات اليونانيّة للقدّاسات القبطيّة

الجدول الموجود في نهاية هذا الكتاب ضمن الملحق الثّالث وهو بعنوان "فهرس مخطوطات خولاجيّات القدّاسات القبطيّة" يورد ستة عشر مخطوطاً يونانياً للقدّاسات القبطيّة المحفوظة في مكتبات العالم، ومن بينها أحد عشر مخطوطاً محفوظاً في مصر.

وأما مخطوطات الخولاجيّات اليونانيّة المحفوظة في مكتبة البطريركيّة فهي ثلاثة مخطوطات أرقام (ط ١٧٢)، و(ط ١٧٥)، و(ط ١٨٤).

فالمخطوط رقم (ط ١٧٢) يحوي القدّاسين الباسيلي والغريغوري باليونانيّة مع ترجمة عربيّة. بالإضافة إلى صلوات قسمة باليونانيّة فقط. أمّا المخطوط رقم (ط ١٧٥) فيرى العالم ماكومبر W.F. Macomber أنه يعود إلى القرن التّاسع عشر. وهو يحوي القدّاس الباسيلي باليونانيّة والعربيّة، مع بعض أجزاء بالقبطيّة. كما يحوي أيضاً صلاة القسمة الخاصة بالقدّاس الغريغوري بالقبطيّة واليونانيّة. وأما المخطوط رقم (ط ١٨٤) فهو يعود إلى القرن السّابع عشر بحسب رأي ماكومبر W.F. Macomber أيضاً[٨]، وهو يحوي القدّاس الباسيلي باليونانيّة والعربيّة، وبعض أجزاء من القدّاس الكيرلسي بالقبطيّة.

ولقد ورد ذكر المخطوطين (ط ١٧٢)، (ط ١٧٥) في كتالوج مكتبة البطريركيّة بالقاهرة، وهو الكتالوج الذي نشره مرقس سميكة باشا[٩]. ولكن لم يشر الكتالوج المذكور إلى تاريخ نساختهما. كما لم يشر جراف G. Graf إلى المخطوط رقم (ط ١٧٥).

8- Macomber, W.F., *The Greek Text of the Coptic Mass*, Cited by OCP 43, (1977), p. 308.

9- MSS. 797/Liturgical 175 ; 806/Liturgical 184.

وكان العالم وليام ماكومبر W.F. Macomber قد اطّلع على المخطوطين (ط ١٧٥)، (ط ١٨٤) في زيارته لمكتبة البطريركيّة بالقاهرة سنة ١٩٧٠م. أما نصاهما اليوناني فلم يُدرس حتى الآن[١٠].

وفيما يلي وصف لمخطوطين يونانيين محفوظين في مكتبة دير القدّيس أنبا مقار وهما (ط ١٥٥)، (ط ١٥٦).

مخطوط رقم (ط ١٥٥) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار

وهو مخطوط لم يشر إليه أحد حتى الآن في أي نشرة علميّة. ويضم ١٢٩ ورقة مقاس ١٥,٥ × ١١ سم. وترقيم أوراقه يكون لكل صفحتين متقابلتين، أي أن كل صفحتين متقابلتين لهما نفس الرّقم، حيث يوضع الرّقم المسلسل على الصّفحة اليسار دائماً.

وفي صفحة رقم (٣) نقرأ: ما يلي (بخطئه): "هذا الخولاجي ملك القمص ابراهيم الفيومي احد رهبان دير القديس العظيم ابو مقار ومن تعدا واخده ولا يرده ثاني فليكون محروم من فم التالوث المقدس الاب والابن والروح القدس ومن فم حقارتي انا المسكين بالاسم قمص بولس المقاري".

وفي هامش مقابل صفحة رقم (٣) نقرأ: "ومن تعدا ومزع ورقة الوقفيه الذي يمزع يده منه ويجعل نصيبه مع الغير مومنين في سنة ١٦١٠"[١١].

وفي مقابل ص (٣) نقرأ: "نبتدي بعون الله تعالى بنسخ خولاجي مقدس للقديس باسليوس باللفظه الرومي وذلك من ابتدى الاستعداد. ثم يقول صلاة الاستعداد".

10- Macomber, W.F., *op. cit.*, Le Muséon 88 (1975), p. 392, n. 7.

١١- أي أن نساخة المخطوط كانت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وبالتحديد سنة ١٨٩٤م.

وفي مقابل صفحة (٧٢) نقرأ: "كمل بسلام من الرب علينا نعمته ورحمته وبركته امين. اذكر يارب عبدك الناسخ الحقير فلتاووس القمص طالب من القارين في هذا ان يدعوا له بغفران خطاياه امين".

والمخطوط يحوي الآتي:

• مجموعة الصّلوات التي تسبق صلاة الصُّلح في القدّاس الباسيلي، باليونانيّة والعربيّة (ص مقابل ٣ – ص مقابل ٣٧). وهي:

- صلاة الاستعداد.
- صلاة بعد الاستعداد.
- ثم يشرع الكاهن ويقول صلاة الشُّكر.
- صلاة التّقدمة تقال سرا.
- ثم يقول بعده تحليل الابن[١٢].
- ثم يقول الكاهن تحليل الخدّام.
- صلاة بخور البولس يقول الكاهن.
- صلاة تقال من بعد البولس.
- صلاة تقال من بعد القتاليقون (الكاثوليكون).
- صلاة بخور الإبركسيس.
- أوشيّة الإنجيل ترتيب المصريين.
- ثم يقول الكاهن الثُلاثة أواشي الصّغار (يقصد الكبار).

• القدّاس الباسيلي يوناني عربي (ص ٣٨- مقابل ص ٧٢).

• مجموعة اختصارات للأسماء اليونانيّة تحت عنوان (بخطه): "هولاي الحروف الصوتية وترتيب معاني الفاظهم في القراه من ساداتنا معلمي البيعه المقدسه". (ص ٧٣- مقابل ص ٧٦).

• السبع أواشي الكبار باليونانيُة والعربيّة، وهي أواشي المرضـى، ثم

١٢- "أيها السيّد الرب يسوع المسيح الابن الوحيد الجنس وكلمة الأب ...".

أوشيّة المسافرين[١٣]، ثم القرابين، ثم الثّمار أو المياه أو الـزُّروع[١٤]، ثم أوشيّة الملك[١٥]، ثم الموعوظين[١٦]، ثم أوشيّة الأموات.

- أوشيّة الإنجيل من القدّاس الغريغوري باليونانيّة والعربيّة[١٧].
- قسمة من القدّاس الغريغوري باليونانيّة والعربيّة[١٨].

القدّاس الغريغوري بالقبطيّة والعربيّة بدءاً من صلاة الصُّلح (بدءاً من مقابل ص ٩٧).

مخطوط رقم (ط ١٥٦) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار

وهو مخطوط صغير يضم ٤٨ ورقة مقاس ١٤ × ١١ سم. ويبدأ بالعنوان التّالي: "بسم الله ⲤⲨⲚⲐⲈⲰ" قدّاس رومي للقدّيس باسيليوس.

ويذكر مباشرة نص الثّلاثة أواشي الكبار السّلامة والآباء والجماعة. ثمّ صلاة الصُّلح للقدّيس باسيليوس إلى آخر القدّاس.

وفي نهاية المخطوط (ص ٣٨) وما بعدها شرح لصوتيّات الحروف الرّوميّة. ثمّ يذكر ما يلي (ص ٤٢ وجه) (بخطّه): "تم وكمل بعون الله تعالى وكان الفراغ من هذا الخولاجي الرومي للقديس باسيليوس في يوم الاثنين المبارك ثلاثه في ابيب ١٨٥٢ مسيحية والناسخ المسكين القمص مرقس خادم كنيسة العدرى باسكر بضرب مطانوه وكلمن وجد غلطه واصلحها يصلح الله شانه".

١٣- وردت باليونانيّة فقط بدون ترجمة عربيّة.

١٤- وردت باليونانيّة فقط بدون ترجمة عربيّة.

١٥- وردت باليونانيّة فقط بدون ترجمة عربيّة.

١٦- وردت باليونانيّة فقط بدون ترجمة عربيّة.

١٧- وبدايتها: "السيّد الرب يسوع المسيح الذي أرسلت القدّيسين تلاميذك ورسلك في كل العالم ليناديوا ويعلموا بإنجيل ملكوتك ...".

١٨- بدايتها: "تباركت أيها المسيح الله ضابط الكل، مفقذ كنيسته ...".

وفي نهاية المخطوط صلاة قسمة قبطي للابن.

وفي الصَّفحة الأخيرة منه نقرأ: "والمهتم بهذا الخولاجي العريف ميلاد ابو منصور ال صرف عليه من ماله وصلب حاله الرب الاله يفهمه بما هو فيه وكلمن وجد غلطه اصلحها يصلح الله شانه ومن قال شي فله امثاله والشكر لله دايما ابديا امين".

هذا وكان الأب سمير خليل اليسوعي قد أعدَّ دراسة أكاديميَّة في المعهد البابوي للدِّراسات الشَّرقيَّة بروما، عن القدَّاسات القبطيَّة المحفوظة بالنَّص اليوناني، وقد ضمَّت الشَّذرات اليونانيَّة الَّتي كانت موجودة في دير أنبا مقار بوادي النَّطرون للقدَّاس الباسيلي، وانتقلت إلى المتحف القبطي بالقاهرة، والَّتي نشرها إيفلين وايت Evelyn-White وأعاد نشرها العالمان دوريس J. Doresse والأب عمانوئيل لان E. Lanne في لوفان (بلجيكا) سنة ١٩٦٠م[١٩]. إلى جانب شذرات يونانيَّة أخرى لم يكن إيفلين وايت Evelyn-White قد نشرها بعد. ولكن مع الأسف احترق هذا العمل كله نتيجة حريق شبَّ سنة ١٩٧١م في المعهد المذكور.

نصَّان يونانيَّان منشوران نشرة علميَّة لخولاجي القدَّاس القبطي

ينبغي أن أوضِّح للقارئ العزيز أن النَّص اليوناني للقدَّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي في الكنيسة القبطيَّة قد نشره عالمان؛ الأوَّل هو العالم رينودوت Renaudot وهو عالم ليتورجي فرنسي عاش في القرن السَّابع عشر. أما الثَّاني فهو العالم ماكومبر W.F. Macomber الذي نشر مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex في القرن العشرين.

19- J. Doresse and E. Lanne, *Un témoin archaïque de la liturgie copte de S. Basile*, Louvain 1960, p. 8-9.

وفيما يلي شرح هاتين النّشرتين العلميّتين:

النص الأوّل: مخطوط المكتبة الأهليّة بباريس رقم (يونانيّات ٣٢٥)

هذا المخطوط(٢٠) يعود إلى القرن الرّابع عشر، ويحوي القدّاسين الباسيلي والغريغوري فقط باليونانيّة مع التّرجمة إلى اللّغة العربيّة في نهرين متوازيين. وقد نشره العالم رنودوت E. Renaudot لأوّل مرّة في القرن السّابع عشر الميلادي ثم أُعيد نشره مرّة أخرى سنة ١٨٤٧م(٢١). أمّا القدّاس المرقسي (الكيرلسي) بحسب الطّقس القبطي فقد تم نشره باللاتينيّة فقط مترجماً من القبطيّة البحيريّة. وكان رنودوت E. Renaudot قد نشر أيضاً النّص اليوناني للقدّاس المرقسي كما تعرفه الكنيسة البيزنطيّة في مصر(٢٢).

وقد نقل ميني Migne إلى موسوعته "الباترولوجيا جريكا"(٢٣) ما أورده رنودوت E. Renaudot عن النّص اليوناني للقدّاسين الباسيلي والغريغوري.

وهذا النّص اليوناني مطابق — في كثير من أجزائه - لنص القدّاس

20- Paris, Biblioth. Nationale, Graec 325.

21- E. Renaudot, *Liturgiarum orientalium collectio*, 2nd ed., Frankfurt, 1847.

٢٢- جدير بالذّكر أنيّ قد ذكرتُ من قبل في كتاب "الكنائس الشّرقيّة وأوطانها، الجزء الأوّل" (ص ١٢٨ من الطّبعة الأولى، وص ١٢٥ من الطّبعة الثانية) العبارة التّالية: "وأوّل مرّة يُطبع فيها النّص اليوناني لليتورجيّة مار مرقس اليونانيّة، كان في باريس سنة ١٦٢٤م، تحت عنوان "الليتورجيّة الإلهيّة للقدّيس مرقس الرّسول والإنجيلي، تلميذ القدّيس بطرس". ثم طبعه ونشره رينودوت Renaudot في باريس أيضاً في سنة ١٧١٦م، وأعيدت طباعته مرّة أخرى سنة ١٨٤٧م".

Cf. Brightman, *op. cit.*, p. lxiii.

وما يذكره برايتمان F.E. Brightman في هذه الفقرة السّابقة يختص بالقدّاس المرقسي اليوناني كما تمارسه الكنيسة البيزنطيّة في مصر، وليس القدّاس المرقسي اليوناني كما كانت تمارسه الكنيسة القبطيّة في مصر. والفرق بين القدّاسين كبير.

23- PG 31, 1629-1656

الباسيلي اليوناني الموجود في مخطوط رقم (ط ١٥٥) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار.

أما النّص العربي كما ورد في مخطوط باريس رقم (٢٣٥) فهو تقريباً نفس النّص المنشور في الخولاجي العربي المعروف لدينا[٢٤].

النّص الثّاني: مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex

لم يكن النّص اليوناني للقدّاس المرقسي وهو القدّاس الأصلي لكنيسة الإسكندريّة معروفاً حتى السّبعينيّات من القرن العشرين. وكان كل ما لدينا هو النّص اليوناني للقدّاس المرقسي بحسب تقليد الكنيسة البيزنطيّة، وهو النّص الذي نشره العالم برايتمان F.E. Brightman في كتابه "اللّيتورجيّات الشّرقيّة والغربيّة"[٢٥]، باستثناء بعض الشّذرات البسيطة والقديمة جداً، التي كانت معروفة عن القدّاس المرقسي بحسب تقليد الكنيسة القبطيّة، وهذه الشّذرات هي:

(١) برديّة برشلونه Barcelona Papyrus وهي شذرة تعود إلى أوائل

٢٤- في حلقات دراسيّة امتدت لبضعة شهور، التأم فيها بعض رهبان دير القدّيس أنبا مقار، قمنا معاً بدراسة النّص اليوناني للقدّاسين الباسيلي والغريغوري في هذا المخطوط دراسة علميّة لاستيضاح معاني النّص، مع تحقيق التّرجمة العربيّة للنّص اليوناني، ومن ثمّ فقد أضفنا بعض الكلمات لتوضيح المعنى، حيث وضعناها بين قوسين. كما قمنا أيضاً بإضافة ترجمة عربيّة للصّلوات اليونانيّة غير المترجمة إلى العربيّة.

25- Brightman, F.E., M.A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967.

ويقول العالم اللّيتورجي برايتمان Brightman إن هذه اللّيتورجيّة اليونانيّة قد تمّ جمعها من كتابات الكتّاب المصريين غالباً في القرنين الرّابع والخامس للميلاد.

Cf. Brightman, F.E., M.A., *op. cit.*, p. LXV.

أما التّرجمة الإنجليزيّة للقدّاس المرقسي والتي نشرها برايتمان F.E. Brightman في نفس المرجع السابق ذكره فهي ترجمة عن القبطيّة البحيريّة كما وردت في مخطوط اكسفورد رقم (٣٦٠).

القرن الرّابع الميلادي طبقاً لما ذكره العالم بويج R. Roca-Puig سنة ١٩٦٦م في مجلّة "مصريّات"[٢٦].

(٢) شذرة من مخطوط ستراسبورج Strassburg وهو برقم (يوناني ٢٥٤)، وتعود إلى القرن الرّابع أو الخامس للميلاد.

(٣) برديّة منشستر، وهي محفوظة في مكتبة جون رينولدز John Rylands وهي برقم (٤٦٥)، وتعود إلى القرن السّادس الميلادي.

(٤) شذرة من مخطوط محفوظة في المتحف البريطاني تحت رقم (شرقيات ٢٠٣٧)[٢٧]، وهي تعود إلى القرن السّادس أو السّابع للميلاد.

أما نصوص الثّلاث شذرات الأخيرة السّابق الإشارة إليها فقد نشرها العالم الفرنسي الشّهير كوكان R.G. Coquin في مجلة "لوميزيون Le Muséon" سنة ١٩٦٩م[٢٨].

وفي سنة ١٩٧٥م أعلن العالم ماكومبر W.F. Macomber اكتشافه الذي أحدث رنّة فرح وابتهاج في الأوساط العلميّة العالميّة، وذلك بنشره خبر اكتشاف مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex ونشره هذا الخبر في مجلة "لوميزيون Le Muséon" في هذه السّنة المذكورة[٢٩]. ثم نشر جانباً من النّص اليوناني له سنة ١٩٧٧م في "دوريّة المسيحيّة الشّرقيّة OCP"[٣٠]. وبعد ذلك بسنة واحدة نشر الأب سمير خليل اليسوعي

26- R. Roca-Puig, *Sui papiri di Barcellona- Anofora greca secondo la liturgia di S. Marco*, in Aegyptus 46 (1966), p. 91f.

27- Oriental MS. 2037 E, F

28- R.G. Coquin, *L'Anaphora alexandrine de saint Marc*, dans Le Muséon, 82 (1969), p. 307-356.

29- Macomber, W.F., *op. cit.*, Le Muséon 88, (1975), p. 391-395.

30- Macomber, W.F., *op. cit.*, OCP 43, (1977), p. 308-335.

التّرجمة العربيّة للمخطوط سنة ١٩٧٨م على ضوء المخطوط اليوناني المحفوظ في المكتبة الأهليّة بباريس تحت رقم (٣٢٥)، وذلك في "دوريّة المسيحيّة الشّرقيّة OCP"(٣١).

أما مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex والذي يعود إلى سنة ١٣٤٥م فقد وجده ماكومبر W.F. Macomber حوزة رجل يُسمى فرانك كسمارسك F. Kacmarcik في ولاية مينيسوتا بالولايات المتّحدة الأمريكيّة(٣٢) يحوي نصاً يونانياً للثلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، مع ترجمة عربيّة للقدّاسين الباسيلي والغريغوري. أما التّرجمة العربيّة للقدّاس الغريغوري فهي غير مكتملة(٣٣). وهناك صلاة بركة مختصرة في نهاية القدّاس الباسيلي باليونانيّة فقط.

وفي حين أن القدّاس الغريغوري مكتمل تماماً باليونانيّة، فإن القدّاسين الباسيلي والكيرلسي ينقصهما بعض الصّلوات التي تكمل حوالي أربع إلى خمس ورقات من ورقات المخطوط. وهذه الأجزاء النّاقصة هي:

١- جزء من الصّلاة الطّويلة بعد الإنجيل.

٢- التّذكار وبداية الاستدعاء في القدّاس الباسيلي.

٣- بداية صلاة الحجاب في القدّاس الكيرلسي.

٤- نهاية الصّلاة الربيّة مع الصّلوات التي تعقبها في القدّاس الكيرلسي.

وعدد ورقات المخطوط ١٤٩ ورقة مقاسها ١٥,٧×١٢,٣ سم على نهرين يوناني وعربي. وهناك بعض الأجزاء البسيطة التي ليس لها ترجمة عربيّة

31- Samir Kh. *Le codex Kacmarcik et sa version arabe de la Liturgie alexandrine*, Cited by OCP 44 (1978), p. 74-106 ; 342-390.

32- 2065 Wildview Ave., St. Paul, Minnesota, 55119, U.S.A.

٣٣- النّهر العربي للورقة (٩٤ وجه) وحتى الورقة (٩٨ ظهر) لا يحوي ترجمة عربيّة للنّص اليوناني للقدّاس الغريغوري، والسّبب غير معروف.

فيسرد المخطوط النَّص اليوناني في نهر واحد فقط. وهناك بعض ورقات من المخطوط مضافة إليه فيما بعد، تعود إلى القرن السَّابع عشر. ويتَّضح من كتابة عربيَّة متأخِّرة على المخطوط تعود إلى حوالي القرن السَّادس عشر أو السَّابع عشر أنه وارد من دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر.

وبفحص المخطوط يظهر أن الأطراف السُّفليَّة لأركان المخطوط ذات لون داكن، بسبب كثرة تقليب الصَّفحات بأصابع اليد. أما نص المخطوط نفسه فهو بحالة جيِّدة.

ويتميَّز مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex بأنه أوَّل مخطوط يورد نصوص الصَّلوات التي تسبق الأنافورا، أي الصَّلوات التي تبدأ من استعداد فرش المذبح، حيث تحتل هذه الصَّلوات من صفحة (٦ظهر) إلى صفحة (٣٧ وجه) باليونانيَّة والعربيَّة. كما أنه يورد لأوَّل مرَّة النَّص اليوناني للقدَّاس الكيرلسي الذي لم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت.

وفي مقدِّمة المخطوط وفي الصَّفحة الأولى منه ترد ملحوظة نعرف منها أنه حينما جاء أنبا أثناسيوس الأسقف إلى القاهرة في سنة ١٥١٦ قبطيَّة /١٧٩٩-١٨٠٠م سأله كاتب هذه الملحوظة ويُدعى القس بشارة أن يقرضه المخطوط لنساخته، ثم يعيده إليه. وإليك النَّص(٣٤):

"ولما كان في سنة ألف وخمسمائة وستة عشر قبطيَّة(٣٥) حضر الأب المكرَّم الحَبرُ المعظَّم ذو العلم النفيس، صاحب العفَّة والقداسة، أبونا الأب

٣٤- النَّص مصحَّح لغوياً فقط. فمثلاً كلمة "سنت" كُتبت "سنة"، وكلمة "ابيا" كُتبت "أبونا" ... وهكذا.

٣٥- وهي تقابل الفترة المحصورة بين ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٩م، و٢٨ أغسطس سنة ١٨٠٠م.

الأسقف أنبا أثناسيوس(٣٦)، آتياً من الصَّعيد إلى مصر السَّعيدة. وأن العبد الحقير، صاحب هذه الأحرف، بشارة، اجتمع بالأب المشار إليه، وطلب منه هذا الكتاب على ذمَّة النقل. وإن هذا الأب أعطاه له على هذه الجهة لا غير. وإن شاء الله يردُّه له رداً جميلاً. آمين"(٣٧).

وبموجب هذه الإشارة السَّابق ذكرها يكون المخطوط قد تمَّت نساخته بواسطة القس بشارة سنة ١٥١٦ للشُّهداء، حاوياً النَّص اليوناني العربي للقدَّاسَين الباسيلي والغريغوري، والنَّص اليوناني فقط للقدَّاس الكيرلسي. فضلاً عن ذلك فإنه إن كانت هذه النُساخة قد تمَّت قبل فصل المخطوط الأصلي إلى مخطوطين بواسطة أنبا أثناسيوس، فإن هذه النُّسخة الأصليَّة ربما كانت تحوي أيضاً النَّص القبطي العربي للثلاثة قدَّاسات.

ولذلك نجد اسم أنبا أثناسيوس يرد مرَّتين في المخطوط.

الملاحظة الأولى: وترد في ورقة (٥ وجه)، وهي:

"بسم الله الرءوف الرَّحيم.

٣٦- هو أنبا أثناسيوس أسقف أبو تيج – حوالي ٢٠ كيلومتراً جنوب أسيوط – صار أسقفاً في أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التَّاسع عشر. وهو ليس أنبا أثناسيوس أسقف نفس الإيبارشيَّة (أبو تيج) الذي يرد اسمه في ثماني مخطوطات محفوظة في مكتبة البطريركيَّة بالقاهرة وتاريخ نساختها يقع ما بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٧٣م، وكان هذا الأسقف هو المهتم بها، أي الذي أنفق عليها.

أما أنبا أثناسيوس الذي نحن بصدده الآن فله ٣٩ مخطوطاً تحمل توقيعه، أقدمها منسوخ سنة ١٧٨٨م وأحدثها سنة ١٨١١م. ومن بينها ٣٧ مخطوطاً محفوظة في مكتبة البطريركيَّة بالقاهرة؛ واثنان في المتحف القبطي بالقاهرة؛ والباقي في المكتبة البريطانيَّة بلندن؛ ومكتبة دير أنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر، ومخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex الذي وجده ماكومبر W.F. Macomber في الولايات المتحدة الأمريكيَّة.

37- Samir Kh. *Le codex Kacmarcik et sa version arabe de la Liturgie alexandrine*, Citted by OCP 44 (1978), p. 83,84.

Ⲡⲓϩⲏⲕⲓ ⲁⲑⲁⲛⲁⲥⲓⲟⲥ ⲧⲁⲡⲟⲑⲏⲕⲏ[38]

المجد لله في العُلا.

وقفاً مؤبّداً وحبساً مخلّداً على دير القدّيس العظيم أبينا أنطونيـــوس بدير العربة بشرق أطفيح.

وكل من تعدى وأخرجه عن وقفه بوجه من وجوه الــتلاف (أي الإتلاف) يكون تحت عقد الصليب، طالما الدير عامر برهبانه. وذلك بعد عين واضع العلامة والاسم أعلاه.

وكل من وجده ضائعاً ويرده، يكون محاللاً مباركاً وعلى بني الطاعة تحل البركة".

وكان تاريخ نساخته للمرّة الأولى في سنة ١٠٠٠ قبطيّة للشُّهداء، بدير القدّيس أنطونيوس، بخط القس غبريال الدُرُنكي من الدير المذكور[٣٩].

الملاحظة الثّانية: وترد في ورقه (١٤٠ وجه)، وهي:

بسم الله الرءوف الرَّحيم.

ⲁⲑⲁⲛⲁⲥⲓⲟⲥ

المجد لله في العُلا.

وقفاً مؤبداً وحبساً مخلداً على دير القدّيس العظيم أبينا أنطونيـــوس ببرية العربة.

لا يباع ولا يُرهن ولا يخرج عن وقفيته بوجه من وجوه التلاف.

وكل من تعدّى وأخرجه، يكون محروماً من فم الله القدّوس. والذي يحفظه ويصونه، يكون محاللاً مباركاً.

٣٨- اي "الحقير أثناسيوس الأبوتيجي".

٣٩- ومن هنا يتّضح لنا أن مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex هو صورة طبق الأصل من مخطوط أقدم منه تعود نساخته إلى سنة ١٢٨٤م، بواســطة القــس الدُرُنكي اي أنه ربما يكون من قرية دُرُنكه أو من دير دُرُنكة بجبل أسيوط وترهَّب في دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر.

الأسقف أنبا أثناسيوس(٣٦)، آتياً من الصّعيد إلى مصر السّعيدة. وأن العبد الحقير، صاحب هذه الأحرف، بشارة، اجتمع بالأب المشار إليه، وطلب منه هذا الكتاب على ذمّة النقل. وإن هذا الأب أعطاه له على هذه الجهة لا غير. وإن شاء الله يردّه له رداً جميلاً. آمين"(٣٧).

وبموجب هذه الإشارة السّابق ذكرها يكون المخطوط قد تمّت نساخته بواسطة القس بشارة سنة ١٥١٦ للشُّهداء، حاوياً النّص اليوناني العربي للقدّاسَين الباسيلي والغريغوري، والنّص اليوناني فقط للقدّاس الكيرلسي. فضلاً عن ذلك فإنه إن كانت هذه النّساخة قد تمّت قبل فصل المخطوط الأصلي إلى مخطوطين بواسطة أنبا أثناسيوس، فإن هذه النُّسخة الأصليّة ربما كانت تحوي أيضاً النّص القبطي العربي للثّلاثة قدّاسات.

ولذلك نجد اسم أنبا أثناسيوس يرد مرّتين في المخطوط.

الملاحظة الأولى: وترد في ورقة (٥ وجه)، وهي:

"بسم الله الرءوف الرّحيم.

٣٦- هو أنبا أثناسيوس أسقف أبو تيج – حوالي ٢٠ كيلومتراً جنوب أسيوط – صار أسقفاً في أواخر القرن الثّامن عشر وحتى أوائل القرن التّاسع عشر. وهو ليس أنبا أثناسيوس أسقف نفس الإيبارشيّة (أبو تيج) الذي يرد اسمه في ثماني مخطوطات محفوظة في مكتبة البطريركيّة بالقاهرة وتاريخ نساختها يقع ما بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٧٣م، وكان هذا الأسقف هو المهتم بها، أي الذي أنفق عليها.

أما أنبا أثناسيوس الذي نحن بصدده الآن فله ٣٩ مخطوطاً تحمل توقيعه، أقدمها منسوخ سنة ١٧٨٨م وأحدثها سنة ١٨١١م. ومن بينها ٢٧ مخطوطاً محفوظة في مكتبة البطريركيّة بالقاهرة، واثنان في المتحف القبطي بالقاهرة، والباقي في المكتبة البريطانيّة بلندن، ومكتبة دير أنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر، ومخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex الذي وجده ماكومبر W.F. Macomber في الولايات المتحدة الأمريكيّة.

37- Samir Kh. *Le codex Kacmarcik et sa version arabe de la Liturgie alexandrine*, Citted by OCP 44 (1978), p. 83,84.

ⲡⲓϩⲏⲕⲓ ⲁⲑⲁⲛⲁⲥⲓⲟⲥ ⲧⲁⲡⲟⲑⲏⲕⲏ[38]

المجد لله في العُلا.

وقفاً مؤبّداً وحبساً مخلّداً على دير القدّيس العظيم أبينا أنطونيوس بدير العربة بشرق أطفيح.

وكل من تعدى وأخرجه عن وقفه بوجه من وجوه التلاف (أي الإتلاف) يكون تحت عقد الصليب، طالما الدير عامر برهبانه. وذلك بعد عين واضع العلامة والاسم أعلاه.

وكل من وجده ضائعاً ويرده، يكون محاللاً مباركاً وعلى بني الطاعة تحل البركة".

وكان تاريخ نساخته للمرّة الأولى في سنة ١٠٠٠ قبطيّة للشُهداء، بدير القدّيس أنطونيوس، بخط القس غبريال الدُرُنكي من الدير المذكور(٣٩).

الملاحظة الثّانية: وترد في ورقه (١٤٠ وجه)، وهي:

بسم الله الرءوف الرَّحيم.

ⲁⲑⲁⲛⲁⲥⲓⲟⲥ

المجد لله في العُلا.

وقفاً مؤبداً وحبساً مخلداً على دير القدّيس العظيم أبينا أنطونيوس ببرية العربة.

لا يباع ولا يُرهن ولا يخرج عن وقفيته بوجه من وجوه التلاف.

وكل من تعدّى وأخرجه، يكون محروماً من فم الله القدُّوس. والذي يحفظه ويصونه، يكون محاللاً مباركاً.

٣٨- أي "الحقير أثناسيوس الأبوتيجي".

٣٩- ومن هنا يتّضح لنا أن مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex هو صورة طبق الأصل من مخطوط أقدم منه تعود نساخته إلى سنة ١٢٨٤م، بواسطة القس الدُرُنكي أي أنه ربما يكون من قرية دُرُنكه أو من دير دُرُنكة بجبل أسيوط وترهّب في دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر.

وذلك من ملك الحقير، الواضع العلامة والاسم فيه.
والشكر لله دائماً. في سنة ١٥٢٩[٤٠].

وفي ورقة (١٤٠ وجه) من المخطوط نلاحظ وجود ختم مكتبة كمحاولة لطمس مصدره، وتحت الختم نقرأ رقم (٧١٣). ويُظن أن المخطوط صار ملكاً لمكتبة كبيرة في مصر وحُفظ فيها لبعض الوقت بعد الاحتلال الإنجليزي للبلاد سنة ١٨٨٢م.

وبمقارنة النّص اليوناني للقدّاس الكيرلسي في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex مع النّص اليوناني لنفس القدّاس في الكنيسة البيزنطيّة يتّضح لنا الفرق الواضح بينهما، إذ قد تطوّر النّصان مستقلان عن بعضهما تمام الاستقلال، وعلى مدى قرون طويلة. إلاّ أن هناك صلاة قسمة في القدّاس الكيرلسي اليوناني في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex تقابل نظيرها في القدّاس الكيرلسي البيزنطي كما أورده برايتمان F.E. Brightman [٤١].

وهناك تقارب كبير بين النّص اليوناني لمخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex مع النّص القبطي للقدّاسات الثّلاثة. أما عن التّرجمة العربيّة لنصوص الصّلوات اليونانيّة في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex فهي ليست مطابقة لنظيرها في نصوص الصّلوات القبطيّة، لأن التّرجمة العربيّة في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex مأخوذة عن اليونانيّة مباشرة. وهو نفس ما أشار إليه العالم رينودوت E. Renaudot بخصوص التّرجمة العربيّة في مخطوط باريس رقم (٢٣٥).

وبمقارنة نص مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex

٤٠- وهي تقع ما بين ٣٠ أغسطس ١٨٠٧ إلى ٣٠ أغسطس ١٨٠٨م.
41- Macomber, W.F., *op. cit.*, OCP 43, (1977), p. 310.

لمخطوط باريس رقم (٣٢٥) نكتشف أن ما ينقص أحدهما من صلوات يكمِّله الآخر. أما الاختلافات الأساسيَّة فهي في اختيار الصّلوات حين يكون استبدال واحدة بأخرى ممكناً، وكذلك في التّعليمات الطَّقسيَّة rubrics . وإن النَّص اليوناني لمخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex قد صحَّح كثيراً من الكلمات اليونانيَّة التي وردت في مخطوط باريس (٢٣٥) إذ جرى تدوين هذا الأخير بدون عناية كافية، ومن ثم فإن الاختلافات بينهما في النَّص اليوناني كان بسبب كثير من الأخطاء الإملائيَّة في نشرة رينودوت E. Renaudot . ومن ثمَّ يتفق مخطوط كسمارسك مع النَّص اللاتيني الذي أورده رينودوت E. Renaudot أكثر من اتفاقه مع النَّص اليوناني له(٤٢).

وعناوين الصّلوات في القدّاسين الباسيلي والغريغوري تجيء كلها باللُّغة العربيَّة، باستثناء ثلاث صلوات فقط ترد باليونانيَّة، أما التَّعليمات الطَّقسيَّة فهي في معظمها بالعربيَّة، والقليل منها باليونانيَّة. أما في القدَّاس الكيرلسي فكثير من العناوين تكون باللُّغتين معاً اليونانيَّة والعربيَّة، ولكن هناك بعض منها باللُّغة العربيَّة فقط، وواحد منها باليونانيَّة. أما المردَّات في القدَّاسين الباسيلي والغريغوري فهي باللُّغتين معاً، في حين أن المردَّات في القدَّاس الكيرلسي باليونانيَّة فقط.

وجدير بالذِّكر أنه يندر وجود مردَّات الشمَّاس والشَّعب في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex ، وذلك في القدَّاسين الباسيلي والغريغوري.

إن أهميَّة مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex تنبع من كونه

42- Macomber, W.F., *op. cit.*, OCP 43, (1977), p. 311.

أقدم مخطوط يوناني يورد نصوص الصّلوات السّابقة لصلاة الأنافورا[٤٣]، أي بدءاً من صلوات فرش المذبح، كما أنه أوّل مخطوط يورد النّص اليوناني للقدّاس الكيرلسي بحسب التّقليد القبطي.

ثانياً: اللّيتورجيّات القبطيّة لكنيسة الإسكندريّة

فيما يختص بمخطوطات اللّيتورجيّات في نصها القبطيّ، نعرض في السطور التالية أهم مخطوطات الخولاجيّات التي تحوي النص القبطي فقط. ثم بعد ذلك مخطوطات الخولاجيّات التي تحوي النص القبطي مترجماً إلى اللغة العربيّة.

(أ) مخطوطات الخولاجيّات التي تحوي النّص القبطي فقط

مخطوط الدّير الأبيض بسوهاج

عثر العالم دوريس Dorisse – وهو من العلماء المتخصّصين في دراسة المخطوطات القبطيّة – على مخطوطة باللّغة القبطيّة الصّعيديّة تحتوي على جزء من القدّاس الباسيلي مع بائعين للآثار في القاهرة، فاشتراها وقام بدراستها مع الأب عمانوئيل لان E. Lanne [٤٤] تحت

٤٣- يقول العالم ماكومبر W.F. Macomber إنه أوّل مخطوط يوناني يورد نصوص الصّلوات السّابقة لصلاة الأنافورا، ولكن بوجود مخطوط رقم (ط ١٥٥) بمكتبة دير القدّيس أبا مقار الذي يورد معظم هذه الصّلوات باليونانيّة، يكون مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex هو أقدم مخطوط يورد هذه الصّلوات، وليس المخطوط الوحيد.

٤٤- الأب عمانوئيل لان Dom Emmanuel Lanne هو من رهبان دير شيفتوني ببلجيكا، وقد تخصّص في دراسة اللّيتورجيّات القبطيّة. ونشر مخطوط الخولاجي القبطي الكبير الذي من الدّير الأبيض بسوهاج في مجموعة "الآباء الشّرقيين –

إرشاد الأب لوفور L.T. Lefort [٤٥] في جامعة لوفان ببلجيكا.

وتم نشر هذا المخطوط القبطي الصَّعيدي سنة ١٩٦٠م مع ترجمة النَّص القبطي إلى اللُّغتين اللاتينيَّة واليونانيَّة. ومقارنة النَّص بباقي النُّصوص الخاصة بالقدّاس الباسيلي باللغة اليونانيَّة والقبطيَّة الصَّعيديَّة والبحيريَّة والإثيوبيَّة والأرمينيَّة، مع نصوص اللِّيتورجيَّات الأخرى القديمة المقابلة.

ولقد بذل العالم دوريس Dorisse قصارى جهده للعثور على بقيَّة المخطوطة ولكنه لم يُوفَّق في ذلك.

وتتكوَّن المخطوطة من ثماني ورقات (١٦ صفحة)، ويرجع زمن نساختها إلى بداية القرن السَّابع الميلادي من أيام البابا بنيامين (٦٢٢-٦٦٢م) وهو الثَّامن والثَّلاثون من باباوات الكرازة المرقسيَّة، حيث تذكر المخطوطة اسمه مع اسم الأسقف كولوثوس الذي يُظن أنه أحد أساقفة الإيبارشيَّات المحليَّة.

ولقد أثبت العُلماء الذين حقَّقوا المخطوطة أن النَّص نفسه يرجع إلى النِّصف الأوَّل من القرن الرَّابع الميلادي، وهو يعتبر أقدم نص معروف حتى الآن للقدَّاس الباسيلي باللغة القبطيَّة[٤٦].

وفيما يلي نص مخطوطة الدَّير الأبيض بسوهاج[٤٧].

"Patrologia Orientalis".

٤٥- الأب لوفور L.Th. Lefort هو من أعظم الآباء المتخصِّصين في دراسة المخطوطات القبطيَّة. ويعتبر رأيه حجة لدى علماء المخطوطات القبطيَّة. وعمل أستاذاً للغة القبطيَّة في جامعة لوفان (بلجيكا). ورئيساً لتحرير مجلة لوميزيون Le Muséon . وقد توفي سنة ١٩٥٩م.

46- Le Muséon, Vol. 47, 1960.

٤٧- انظر: مجلة مرقس، إبريل سنة ١٩٩٢م، ص ٢٧-٢٩

النص

... بدمه، نزل إلى الجحيم من قبل الصّليب.
وقام من بين الأموات في اليوم الثّالث، وصعد إلى السّموات، وجلس عن يمين الآب.
ورسم يوماً الذي فيه سيدين المسكونة بالعدل، ويعطي كل واحد حسب عمله.
ووضع لنا هذا السّرّ العظيم الذي للتّقوى.
لأنه فيما هو راسم أن يسلم نفسه للموت عن حياة العالم،
أخذ خبزاً، باركه، قدّسه، قسّمه، وأعطاه لتلاميذه القدّيسين ورسله قائلاً: خذوا كلوا منه كلكم.
هذا هو جسدي الذي يُبذل لأجلكم، ولأجل كثيرين لمغفرة الخطايا، اصنعوا هذا لذكري.
وهكذا الكأس أيضاً بعد العشاء مزجها من خمر وماء، باركها، وقدّسها، وشكر عليها، وأعطاها أيضاً لهم قائلاً: خذوا اشربوا منها كلكم.
هذا هو دمي الذي يُسفك من أجلكم ومن أجل كثيرين لمغفرة الخطايا، اصنعوا هذا لذكري.
لأن كل مرّة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس، تبشّرون بموتي إلى أن أجيء.
وإذ نذكر نحن آلامه المقدّسة، وقيامته من الأموات، وصعوده إلى السّموات، وجلوسه عن يمين الآب، ومجيئه إلينا الممجّد والمخوف.
نقدّم أمامك الذي لك من القرابين التي لك، هذا الخبز وهذه الكأس.
ونتضرّع إليك يا إلهنا نحن الخطاة وغير المستحقين والمساكين، ونسجد لك بمسرّة صلاحك.
لكي يأتي روحك القدّوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة لكي يقدّسها ويظهرها قدسات للقدّيسين.
اجعلنا كلنا مستحقين أن نتناول من قدساتك تقديساً لنفوسنا وأجسادنا، لكي نصير جسداً واحداً، وروحاً واحداً، ونجد نصيباً مع جميع القدّيسين الذين أرضوك منذ الدّهر.
اذكر يارب كنيستك الواحدة المقدّسة الجامعة الرسوليّة.
أعطها سلاماً، هذه التي خلّصتها بالدّم الكريم لمسيحك. وجميع الأساقفة الأرثوذكسيّين الذين فيها.
أولاً اذكر عبدك بنيامين رئيس الأساقفة، وشريكه في الخدمة كولوثوس الأسقف القدّيس. والذين يفصلون معهما كلمة الحق، أعطهم أن يرعوا كنائسك المقدّسة، قطيعك الأرثوذكسي بسلام.
والقسوس، وكل الشّمامسة الخادمة، وكل الذين في البتوليّة والطّهارة، وكل شعبك

المؤمنين اذكر يارب أن ترحمهم جميعاً.
اذكر يارب هذا الموضع والسّاكنين فيه في إيمان الله.
وأيضاً اعتدال الهواء، اذكره يارب مع ثمار الأرض.
والذين قدّموا لك هذه القرابين، والذين قدّمت من أجلهم، اذكر يارب أن تمنحهم أجراً سماوياً.
وحيث أن هذا يارب هو أمر ابنك الوحيد أن نشترك في تذكار قدّيسيك، تفضّل يارب أن تذكر آباءنا الذين أرضوك منذ الدّهر.
رؤساء الآباء والأنبياء والرُّسُل والشُّهداء والمعترفين والمبشرين والإنجيليين وكل صدّيق أكمل حياته في الإيمان.
والأكثر القدّيسة المملوءة مجداً، العذراء كل حين، مريم التي ولدت الله، التي بصلواتها ارحمنا جميعاً وخلصنا من أجل اسمك القدّوس الذي دُعي علينا.
والمثل اذكر يارب كل الذين في الكهنوت الذين تنيّحوا، وكل الذين من رتبة العلمانيين، ونيّحهم في حضن إبراهيم وإسحق ويعقوب في موضع خضرة على ماء الرّاحة حيث هرب الحزن والكآبة والتنهّد.
[فليقولوا الأسماء]
أولئك نيحهم عندك. أمّا نحن الغرباء هنا فاحفظنا في إيمانك، واهدنا إلى ملكوتك، وامنحنا سلامك كل حين، بيسوع المسيح والرّوح القدُس. الآب في الابن، والابن في الآب، مع الرّوح القدُس في كنيستك المقدّسة الواحدة الجامعة الرسوليّة.
[صلاة القسمة]
أيها السيّد إله آبائنا ورب الرّحمة، يا حياة الجميع، يا رجاء من ليس رجاء، ومعين من ليس له معين، الذي أظهر هذه الصّلاة.
اجعلنا مستحقين بضمير مقدّس، ومحبّة تليق بالبنين أن نجسر وندعوك صارخين بفم واحد ونقول مع جميع قدّيسيك: أبانا ...
نعم أيها الرّب الإله الذي لم يسمح لنا أن نجرّب أكثر مما نستطيع، بل نعطي لنا مع التجربة أن نحتمل وأن نخرج منها، نجنا ...

(انتهى نص المخطوط)

أمّا التعقيب على النّص فيأتي في سياق دراستنا اللّيتورجيّة على مدى صفحات الكتاب الذي بين يديك[48].

٤٨- هناك ثلاثة مخطوطات أخرى بالنّص القبطي فقط تجدها في الجدول الموجود بالملحق الثالث في نهاية هذا الكتاب.

(ب) مخطوطات الخولاجيّات بالنّص القبطي مع التّرجمة إلى العربيّة

فيما يلي عرضٌ لقائمة مخطوطات الخولاجيّات التي تحوي التّرجمات العربيّة لقدّاسات الكنيسة القبطيّة إلى جانب اللّغة القبطيّة. ويليها دراسة مبسّطة توجز ما تحويه أقدم المخطوطات لقدّاس القدّيس باسيليوس قبطي عربي، والتي تعود لما بين القرنين الثّاني عشر والرّابع عشر للميلاد(٤٩).

وبحصر مخطوطات الخولاجيّات القبطي العربي المنتشرة في مكتبات العالم، يتّضح أنه لا تُعرف ترجمة عربيّة للقدّاس القبطي قبل القرن الثّاني عشر. أما بعد القرن الرّابع عشر فقد تحدّد شكل القدّاس القبطي بصورة نهائيّة كما يظهر من كتاب "التّرتيب الطّقسي" للبابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) وهو البطريرك الـ ٨٨ من بطاركة الكنيسة القبطيّة.

ولعمل حصر بالخولاجيّات القبطي العربي المنتشرة في مكتبات العالم فقد اعتمدتُ على المراجع التّالية:

- الكتاب القيّم للعالم برايتمان F.E. Brightman وهو بعنوان: "اللّيتورجيّات الشّرقيّة والغربيّة"(٥٠).

- الفهارس التي عملها الأب جورج جراف G. Graf في كتابه الشّهير بعنوان: "تاريخ الأدب العربي المسيحي"(٥١).

٤٩- استعنت في هذا الفصل بمحاضرة – لم تُنشر بعد – للأخ وديع الفرنسيسكاني، ألقاها في اجتماع أصدقاء التّراث العربي المسيحي، في ديسمبر سنة ١٩٩٤م. وأتقدّم بوافر الشّكر لمحبته بإعطائي نص المحاضرة مكتوبا بخط اليد.

والأخ وديع الفرنسيسكاني هو راهب فاضل في المركز الفرنسيسكاني للدّراسات المسيحيّة الشّرقيّة بالموسكي بالقاهرة.

50- Brightman, F.E., M.A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. I, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p. LXX.

51- GRAF, G., *Geschichte der christlichen arabischen Literatur* I-III

- وكذلك مقال للعالم ليكلرك H. Leclércq بعنـوان: "ليتورجيَّـة الإسكندريَّة"، وذلك في الموسوعة الفرنسيَّة: "قـاموس الآثـار المسـيحيَّة والليتورجيَّة"(٥٢).

وكان العالم برايتمان F.E. Brightman قد كتب كتابـه المـذكور سابقاً في المرَّة الأولى سنة ١٨٩٤م، أي قبل العالم جراف G. Graf بقرابة نصف قرن. ولا يأتي هذا الأخير بجديد إلاَّ بتصحيحه لرقم مخطوط واحد ورد عند برايتمان F.E. Brightman.

وتشمل قائمة العالم برايتمان F.E. Brightman عدد (٣٣) مخطوطـاً موزَّعة على سبع فئات:

(١) مخطوطات تحوي القدَّاسات الثلاثة الباسيلي والغريغوري والكيرلسي.
(٢) مخطوطات تحوي القدَّاسين الباسيلي والغريغوري.
(٣) مخطوطات تحوي القدَّاسين الباسيلي والكيرلسي.
(٤) مخطوطات تحوي القدَّاس الباسيلي بمفرده.
(٥) مخطوطات تحوي القدَّاسين الغريغوري والكيرلسي.
(٦) مخطوطات تحوي القدَّاس الغريغوري بمفرده.
(٧) مخطوطات تحوي القدَّاس الكيرلسي بمفرده.

ويميل برايتمان F.E. Brightman إلى تحديد تـاريخ قـديم لـبعض المخطوطات. ولكن القائمة التي يـذكرها لا تشـير إلى أي مخطـوط خولاجي في مصر، وعذره في ذلك أنه كتب كتابه في وقت لم تكن فيه فهارس المخطوطات منتشرة كثيراً.

(Studi e Testi 118, 133, 146), Città del Vaticano, 1944, p. 644-646.

52- H. Leclércq, *Alexandrie liturgie*, dans Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie (DACL), I,1 (Paris, 1907), Col. 1197-1198.

ويتبع جراف G. Graf نفس ترتيب برايتمان F.E. Brightman ولكنه يصل بعدد المخطوطات إلى (٤٢) مخطوطاً، ويقدّم تواريخ أصدق وأقرب إلى الواقع، إلاّ أنه يغفل إعطاء تواريخ لمخطوطات المكتبة الأهليّة بباريس. ويذكر جراف G. Graf ثلاثة مخطوطات من القاهرة ولكن أرقامها مضطّربة.

وانطلاقاً من قائمتيّ برايتمان F.E. Brightman وجورج جراف G. Graf أعدَّ الأخ وديع الفرنسيسكاني قائمة بمخطوطات خولاجيّات القدّاس القبطي، والمكتوبة بالقبطيّة والعربيّة على نهرين، وقد بلغت (١٦١) مخطوطاً، وهي تخلو من ذكر أي مخطوطات في مكتبات أديرة السّريان والأنبا بيشوي والبراموس بوادي النّطرون، ومكتبة دير الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا بالصّحراء الشّرقيّة. وكثير من كنائس القاهرة والإسكندريّة، وباقي المدن المصريّة، إذ لا يوجد فهارس لمخطوطات هذه المكتبات حتى الآن. ويُظن أن عدد مخطوطات القدّاس القبطي يمكن أن تصل إلى قرابة ألف مخطوط.

أما القائمة التي أعدَّها الأخ وديع الفرنسيسكاني فكانت على ثلاثة أشكال؛ الأوّل: ترتيب المخطوطات ترتيباً أبجدياً بحسب المدن المحفوظة فيها. والثّاني: بحسب الأنافورات المتضمّنة فيها. والثّالث، مرتّبة ترتيباً تاريخياً، وهو الجدول الموجود في نهاية الجزء الثّاني من هذا الكتاب ضمن الملاحق الختاميّة له.

وبفحص الجدول المذكور يتّضح لنا وجود أعداد المخطوطات الآتي بيانها: (٥٧) في مكتبة الدّير المحرق بأسيوط. و(٥) بمكتبة أكسفورد. و(١) في مكتبة برمنجهام. و(١٨) بالمكتبة الأهليّة بباريس. و(٢) بالجيزة. و(٢٥) بمكتبة الفاتيكان. و(٦٣) بالقاهرة[٥٣]. و(١٧) بمكتبة لندن. و(١)

٥٣- وهي موزعة كالآتي: (٣١) في مكتبة البطريركيّة القبطيّة. و(٤) بالمتحف

في مكتبة لايدن. و(٣) في مكتبة مانشستر، و(١) في مينوسوتا بالولايات المتحدة الأمريكيَّة. و(٢٥) بمكتبة دير أنبا مقار بوادي النَّطرون.

والجزء الأكبر من المخطوطات يحوي القدَّاسات الثَّلاثة الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، والعدد القليل منها يحوي أنافورا غريغوريوس بمفردها، أو أنافورا كيرلس بمفردها.

أما من جهة التَّسلسل التَّاريخي، فلدينا مخطوط وحيد من **القرن الثَّاني عشر** الميلادي وهو محفوظ في المكتبة البريطانيَّة تحت رقم (١٢٣٩ شرقيات)، وهو أقدم ترجمة عربيَّة معروفة حتى الآن لخولاجي قبطي، وهو ما سبق الإشارة إليه من قبل[٥٤].

ومن القرن الثَّالث عشر هناك ستة مخطوطات مع أجزاء مجدَّدة، وهي مخطوطات محفوظة في مكتبة الفاتيكان (قبطيَّات ١٧)، ومكتبة

القبطي. و(١٤) في المركز الفرنسيسكاني. و(٦) في كنيسة أبي سرجه بمصر القديمة. و(٢) كانا في كنيسة العذراء قصرية الريحان بمصر القديمة. و(٦) في كنيسة مارمينا بمصر القديمة.

٥٤- وصفه العالم كرام W.E. Crum سنة ١٩٠٩م في كتابه: "كتالوج المخطوطات القبطيَّة في المتحف البريطاني".

W.E. Crum, *Catalogue of the Coptic Manuscripts in the British Museum*, London, 1909, p. 340, n. 788.

وهذا المخطوط وارد من دير السِّريان بوادي النَّطرون. ويلزم أن تكون ترجمته قد جرت في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّاني عشر لأنه يورد العبارتين اللَّتين أضافهما البابا غبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) ورهبان دير الأنبا مقار على الاعتراف الأخير في القدَّاس الباسيلي. إلاَّ أن كثيراً من كلماته مطموسة، وتصل أحياناً إلى صفحات كاملة، ولاسيَّما بعد صلاة القسمة في القدَّاس الباسيلي. وليس هناك صلاة واحدة كاملة تقريباً في القدَّاس الباسيلي. وقد قام الأخ وديع الفرنسيسكاني بتحقيق النَّص العربي لهذا المخطوط على ميكروفيلم.

ويتبع جراف G. Graf نفس ترتيب برايتمان F.E. Brightman ولكنه يصل بعدد المخطوطات إلى (٤٢) مخطوطاً، ويقدّم تواريخ أصدق وأقرب إلى الواقع، إلاّ أنه يغفل إعطاء تواريخ لمخطوطات المكتبة الأهليَّة بباريس. ويذكر جراف G. Graf ثلاثة مخطوطات من القاهرة ولكن أرقامها مضطّربة.

وانطلاقاً من قائمتي برايتمان F.E. Brightman وجورج جراف G. Graf أعدَّ الأخ وديع الفرنسيسكاني قائمة بمخطوطات خولاجيَّات القدَّاس القبطي، والمكتوبة بالقبطيَّة والعربيَّة على نهرين، وقد بلغت (١٦١) مخطوطاً، وهي تخلو من ذكر أي مخطوطات في مكتبات أديرة السّريان والأنبا بيشوي والبراموس بوادي النّطرون، ومكتبة دير الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا بالصّحراء الشّرقيَّة. وكثير من كنائس القاهرة والإسكندريّة، وباقي المدن المصريَّة، إذ لا يوجد فهارس لمخطوطات هذه المكتبات حتى الآن. ويُظن أن عدد مخطوطات القدّاس القبطي يمكن أن تصل إلى قرابة ألف مخطوط.

أما القائمة التي أعدّها الأخ وديع الفرنسيسكاني فكانت على ثلاثة أشكال؛ الأوّل: ترتيب المخطوطات ترتيباً أبجدياً بحسب المدن المحفوظة فيها. والثّاني: بحسب الأنافورات المتضمّنة فيها. والثّالث، مرتّبة ترتيباً تاريخياً، وهو الجدول الموجود في نهاية الجزء الثّاني من هذا الكتاب ضمن الملاحق الختاميَّة له.

وبفحص الجدول المذكور يتّضح لنا وجود أعداد المخطوطات الآتي بيانها: (٥٧) في مكتبة الدّير المحرق بأسيوط. و(٥) بمكتبة أكسفورد. و(١) في مكتبة برمنجهام. و(١٨) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. و(٢) بالجيزة. و(٢٥) بمكتبة الفاتيكان. و(٦٣) بالقاهرة[٥٣]. و(١٧) بمكتبة لندن. و(١)

٥٣- وهي موزعة كالآتي: (٣١) في مكتبة البطريركيَّة القبطيَّة. و(٤) بالمتحف

في مكتبة لايدن. و(٣) في مكتبة مانشستر، و(١) في مينوسوتا بالولايات المتحدة الأمريكيَّة. و(٢٥) بمكتبة دير أنبا مقار بوادي النَّطرون.

والجزء الأكبر من المخطوطات يحوي القدَّاسات الثَّلاثة الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، والعدد القليل منها يحوي أنافورا غريغوريوس بمفردها، أو أنافورا كيرلس بمفردها.

أما من جهة التَّسلسل التَّاريخي، فلدينا مخطوط وحيد من **القرن الثَّاني عشر** الميلادي وهو محفوظ في المكتبة البريطانيَّة تحت رقم (١٢٣٩ شرقيات)، وهو أقدم ترجمة عربيَّة معروفة حتى الآن لخولاجي قبطي، وهو ما سبق الإشارة إليه من قبل[٥٤].

ومن **القرن الثَّالث عشر** هناك ستة مخطوطات مع أجزاء محدَّدة، وهي مخطوطات محفوظة في مكتبة الفاتيكان (قبطيَّات ١٧)، ومكتبة

القبطي، و(١٤) في المركز الفرنسيسكاني، و(٦) في كنيسة أبي سرجه بمصر القديمة. و(٢) كانا في كنيسة العذراء قصرية الريحان بمصر القديمة، و(٦) في كنيسة مارمينا بمصر القديمة.

٥٤- وصفه العالم كرام W.E. Crum سنة ١٩٠٩م في كتابه: "كتالوج المخطوطات القبطيَّة في المتحف البريطاني".

W.E. Crum, *Catalogue of the Coptic Manuscripts in the British Museum*, London, 1909, p. 340, n. 788.

وهذا المخطوط وارد من دير السِّريان بوادي النَّطرون. ويلزم أن تكون ترجمته قد جرت في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّاني عشر لأنه يورد العبارتين اللَّتين أضافهما البابا غبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) ورهبان دير الأنبا مقار على الاعتراف الأخير في القدَّاس الباسيلي. إلاَّ أن كثيراً من كلماته مطموسة، وتصل أحياناً إلى صفحات كاملة، ولاسيَّما بعد صلاة القسمة في القدَّاس الباسيلي. وليس هناك صلاة واحدة كاملة تقريباً في القدَّاس الباسيلي. وقد قام الأخ وديع الفرنسيسكاني بتحقيق النَّص العربي لهذا المخطوط على ميكروفيلم.

مانشستر (قبطيات ٤٢٦)[٥٥]، ومكتبة أكسفورد (هنت ٣٦٠، ٥٧٢، ٤٠٣)، ومكتبة المركز الفرنسيسكاني بالقاهرة (٤٦١)[٥٦].

ومن القرن **الرّابع عشر** لدينا (١٤) مخطوطاً أكثرها من مكتبة الفاتيكان. ومن القرن **الخامس عشر** لدينا (٣) مخطوطات فقط. ومن القرن **السّادس عشر** لدينا (٧) مخطوطات. ومن القرن **السّابع عشر** لدينا (٩) مخطوطات. وهناك عدد كبير جداً من المخطوطات من القرن **الثّامن عشر والتّاسع عشر** للميلاد.

وهناك عدد غير قليل من المخطوطات بدون تاريخ نساخة، ومن ثمّ فهي مخطوطات تحتاج إلى دراسة وفحص، فلربما كانت تعود إلى تواريخ قديمة[٥٧].

دراسة لبعض المخطوطات القديمة للقدّاس الباسيلي

من بين (٢١) مخطوطاً منسوخة ما بين القرن الثّاني عشر والرّابع عشر، مع أجزاء منسوخة في قرون متأخّرة، هناك (١٧) مخطوط منها تحوي أنافورا القدّيس باسيليوس. ومن بين هذا العدد هناك مخطوط يوناني واحد وهو المحفوظ في مكتبة مينوسوتا بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، وهو ملكيّة السيّد فرانك كسمارسك F. Kacmarcik Codex . وقد أشرتُ إليه في الفصل السّابق.

---

٥٥ - هذا المخطوط مع المخطوط السابق نُسخا سنة ١٢٨٨م.

٥٦- منسوخ في سنوات ١٢٩٤م، و ١٣٠٤م، وتم تجديده سنة ١٧٤٠م.

٥٧- هنا يلزم التّنويه لحصافة صاحب فهرس المخطوطات العربيّة المحفوظة بالمكتبة الأهليّة بباريس، والذي ذكر لكل مخطوط عناوين الصّلوات التي به، وأسماء القدّيسين الذين وردوا به، وتاريخ دخول المخطوط إلى المكتبة، وهو فهرس نموذجي.

أما المخطوطات الـ (١٥) الباقية فلم تُنشر حتى الآن، وبعضها معروف بالكاد من وصف الفهارس لها.

وقد أمكنني بمعاونة الأخ وديع الفرنسيسكاني – وله كل الشُّكر – الحصول على صورة طبق الأصل لمخطوطين من هذه المخطوطات الخمسة عشر، المخطوط الأوَّل هو المحفوظ الآن في مكتبة بودليان Bodleian بأكسفورد بإنجلترا، وهو برقم (Hunt 360)، وهو يعود إلى القرن الثّالث عشر. وهو يُعتبر أقدم مخطوط قبطي عربي بعد مخطوط المكتبة البريطانيَّة رقم (شرقيَّات ١٢٣٩). أما المخطوط الثّاني الذي حصلتُ على صورة طبق الأصل منه أيضاً فهو مخطوط مكتبة الفاتيكان رقم (قبطيَّات ١٧)، ويعود إلى القرن الثّالث عشر أو الرّابع عشر للميلاد. ويأتي ضمن أقدم سبعة مخطوطات خولاجيَّات قبطي عربي في مكتبات العالم. وفيما يلي وصف هذين المخطوطين القديمين.

مخطوط مكتبة بودليان Bodleian بأكسفورد برقم (هنت ٣٦٠)

نشر العالم برايتمان F.E. Brightman القدَّاس الكيرلسي باليونانيَّة مترجماً عن القبطيَّة من هذا المخطوط، كما يشير في كتابه: "اللّيتورجيَّات الشّرقيَّة والغربيَّة" السَّابق الإشارة إليه. ونشر أيضاً التّرجمة الإنجليزيَّة لهذا النّص اليوناني.

وهو مخطوط للثّلاثة قدَّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، ولكنه ليس مكتملاً تماماً كما في مخطوط الفاتيكان رقم (قبطيَّات ١٧)، وبعض الكلمات فيه غير واضحة سواء القبطيَّة أو العربيَّة، تصل أحياناً إلى بضعة سطور في الصَّفحة الواحدة. وهو منسوخ في القرن الثّالث عشر الميلادي.

أما النّاسخ والمهتم به فغير واضحان في المخطوط لرداءة الصّفحات الأخيرة منه. وهو يحوي ٣١٠ ورقة.

وقد رمزتُ له اختصاراً باسم "**مخطوط أكسفورد**".

مخطوط مكتبة الفاتيكان رقم (قبطيّات ١٧)

يرد هذا المخطوط في كل قوائم المخطوطات. وكان ملكاً للرّاهب أندراوس من دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر. وكان قد دخل إلى مكتبة الفاتيكان في وقت مبكّر، حيث أهداه الرّاهب المذكور إلى البابا أوجانيوس حين ذهب إلى روما سنة ١٤٤١م للمشاركة في مجمع فلورنسا الذي أدّى إلى وحدة مؤقّتة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الشّرقيّة.

والمخطوط بحالة جيّدة، وخالي من العيوب التي تشوب مخطوط لندن رقم (١٢٣٩). وخطُّه جيِّد وواضح، والنّص كامل. أما عيبه الوحيد فهو أن الجزء الأوّل من قدّاس القدّيس كيرلس ناقص فيه. وهو يتكوّن من ١٣١ ورقة وحجمه هو ٢٥,٥×١٧,٥ سم. وعدد الأسطر ١٨ سطراً. وهو للثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، قبطي بحيري — عربي. ويرد في هذا المخطوط ما نصه: "هذا الخلاكي ملك الاخ الحبيب الراهب الناسك الشمّاس اندراوس اندراوس".

وفي ورقة ١٣١ ظهر من هذا المخطوط نقرأ ما يلي:

"اهتم بهذه الخولاجي المقدسة الولد المبارك الدين المسيحي الارتدكسي الشماس نفيس ولد الاخ البار القديس الطاهر الناسك القسيس بغام من اهل مدينة اسنا اهتم بها من تعبه خاصة ليتعزا بالقراة فيها فالله ينور عيني قلبه ليقرا ويفهم ويعمل بما يقرا ويعوضه عن اتعابه بما وعد في انجيله المقدس عن الواحد ثلثين وستين ومائة وفي الاخرة حياة

الابد وكان الفراغ منها في شهر امشير سنة الف واربعة للشهداء[٥٨] بخط المسكين الحقير المدعى بنعمة الله خادم كرسي القيس وهو بطرس بالاسم يسال كل واقف عليها ان يدعوا له بالمغفرة ومن قال شي لـه اضعافه وسلام الله الحال على رسله الاطهار يحل عليه امين والسبح لله دائماً ابداً".

وتقع مدينة إسنا جنوب مدينة الأقصر وأرمنت، وشمال مدينة أسوان. أما مدينة القيس فتقع في محافظة المنيا بقرب مدينة بني مزار. أما عن بطرس أسقف القيس الذي نسخ هذا المخطوط، فلدينا من جداول الأساقفة أسقفاً بهذا الاسم هو: الأنبا بطرس أسقف القيس والأهناسة واطفيح الشرقيّة. وقد اشترك في طبخ الميرون المقدَّس في ١٢ إبريل سنة ١٢٩٩م في عهد البابا ثيؤدوسيوس الثاني (١٢٩٤-١٣٠٠م) البطريرك التاسع والسبعون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وهي حالة نادرة أن ينسخ أسقف كتاباً لأحد الشمامسة.

أما المهتم بهذا الخولاجي فلا نعرف عنه شيئاً.

مخطوطات الخولاجيَّات المحفوظة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار

أما مخطوطات الخولاجيَّات المحفوظة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار بوادي النطرون، وهي بالتَّحديد ٢٥ مخطوط خولاجي أرقام (طقس ١٣٣ - طقس ١٥٨). فإن أقدمها يعود إلى القرن السَّابع عشر الميلادي، وهو خولاجي واحد فقط (طقس ١٣٧). وأربعة منها تعود إلى القرن الثَّامن عشر (طقس ١٤٧، طقس ١٥١، طقس ١٥٧، طقس ١٦٠). ومخطوطان يعودان إلى القرن الثَّامن عشر أو التَّاسع عشر (طقس ١٤٣، ١٥٨)، ومخطوط خولاجي واحد يعود إلى القرن العشرين (طقس ١٥٣)، والباقي

٥٨- وهي تقابل سنة ١٢٨٨ ميلاديَّة.

أما النّاسخ والمهتم به فغير واضحان في المخطوط لرداءة الصّفحات الأخيرة منه. وهو يحوي ٣١٠ ورقة.

وقد رمزتُ له اختصاراً باسم "**مخطوط أكسفورد**".

مخطوط مكتبة الفاتيكان رقم (قبطيات ١٧)

يرد هذا المخطوط في كل قوائم المخطوطات. وكان ملكاً للرّاهب أندراوس من دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر. وكان قد دخل إلى مكتبة الفاتيكان في وقت مبكّر، حيث أهداه الرّاهب المذكور إلى البابا أوجانيوس حين ذهب إلى روما سنة ١٤٤١م للمشاركة في مجمع فلورنسا الذي أدّى إلى وحدة مؤقّتة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الشّرقيّة.

والمخطوط بحالة جيِّدة، وخالي من العيوب التي تشوب مخطوط لندن رقم (١٢٣٩). وخطُّه جيِّد وواضح، والنّص كامل. أما عيبه الوحيد فهو أن الجزء الأوّل من قدّاس القدِّيس كيرلس ناقص فيه. وهو يتكوّن من ١٣١ ورقة وحجمه هو ٢٥,٥×١٧,٥ سم. وعدد الأسطر ١٨ سطراً. وهو للثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، قبطي بحيري - عربي. ويرد في هذا المخطوط ما نصه: "هذا الخلاكي ملك الاخ الحبيب الراهب الناسك الشمّاس اندراوس اندراوس".

وفي ورقة ١٣١ ظهر من هذا المخطوط نقرأ ما يلي:

"اهتم بهذه الخولاجي المقدسة الولد المبارك الدين المسيحي الارتدكسي الشماس نفيس ولد الاخ البار القديس الطاهر الناسك القسيس بفام من اهل مدينة اسنا اهتم بها من تعبه خاصة ليتعزا بالقراة فيها فالله ينور عيني قلبه ليقرا ويفهم ويعمل بما يقرا ويعوضه عن اتعابه بما وعد في انجيله المقدس عن الواحد ثلثين وستين ومائة وفي الاخرة حياة

الابد وكان الفراغ منها في شهر امشير سنة الف واربعة للشهداء[٥٨] بخط المسكين الحقير المدعى بنعمة الله خادم كرسي القيس وهو بطرس بالاسم يسال كل واقف عليها ان يدعوا له بالمغفرة ومن قال شي لـــه اضــعافه وسلام الله الحال على رسله الاطهار يحل عليه امين والسبح لله دائماً ابدا".

وتقع مدينة إسنا جنوب مدينة الأقصر وأرمنـــت، وشمـــال مدينـــة أسوان. أما مدينة القيس فتقع في محافظة المنيا بقرب مدينة بني مزار. أما عن بطرس أسقف القيس الذي نسخ هذا المخطوط، فلدينا من جـــداول الأساقفة أسقفاً بهذا الاسم هو: الأنبا بطرس أسقف القيس والأهناســـة وأطفيح الشَّرقيَّة. وقد اشترك في طبخ الميرون المقدَّس في ١٢ إبريل ســـنة ١٢٩٩م في عهد البابا ثيؤدوسيوس الثـــاني (١٢٩٤-١٣٠٠م) البطريـــرك التَّاسع والسَّبعون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وهي حالة نادرة أن ينسخ أسقف كتاباً لأحد الشَّمامسة.

أما المهتم بهذا الخولاجي فلا نعرف عنه شيئاً.

مخطوطات الخولاجيّات المحفوظة في مكتبة دير القدّيس أنبا مقار

أما مخطوطات الخولاجيّات المحفوظة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار بوادي النطرون، وهي بالتَّحديد ٢٥ مخطوط خولاجي أرقام (طقس ١٣٣ - طقس ١٥٨). فإن أقدمها يعود إلى القرن السَّابع عشر الميلادي، وهـــو خولاجي واحد فقط (طقس ١٣٧). وأربعة منها تعود إلى القرن الثَّـــامن عشر (طقس ١٤٧، طقس ١٥١، طقـــس ١٥٧، طقـــس ١٦٠). ومخطوطـــان يعودان إلى القرن الثَّامن عشر أو التَّاسع عشـــر (طقـــس ١٤٣، ١٥٨)، ومخطوط خولاجي واحد يعود إلى القرن العشرين (طقس ١٥٣)، والباقي

٥٨- وهي تقابل سنة ١٢٨٨ ميلاديَّة.

أما النّاسخ والمهتم به فغير واضحان في المخطوط لرداءة الصّفحات الأخيرة منه. وهو يحوي ٣١٠ ورقة.

وقد رمزتُ له اختصاراً باسم "**مخطوط أكسفورد**".

مخطوط مكتبة الفاتيكان رقم (قبطيّات ١٧)

يرد هذا المخطوط في كل قوائم المخطوطات. وكان ملكاً للرّاهب أندراوس من دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر. وكان قد دخل إلى مكتبة الفاتيكان في وقت مبكّر، حيث أهداه الرّاهب المذكور إلى البابا أوجانيوس حين ذهب إلى روما سنة ١٤٤١م للمشاركة في مجمع فلورنسا الذي أدّى إلى وحدة مؤقّتة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الشّرقيّة.

والمخطوط بحالة جيّدة، وخالي من العيوب التي تشوب مخطوط لندن رقم (١٢٣٩). وخطّه جيّد وواضح، والنّص كامل. أما عيبه الوحيد فهو أن الجزء الأوّل من قدّاس القدّيس كيرلس ناقص فيه. وهو يتكوّن من ١٣١ ورقة وحجمه هو ٢٥,٥×١٧,٥ سم. وعدد الأسطر ١٨ سطراً. وهو للثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، قبطي بحيري – عربي. ويرد في هذا المخطوط ما نصه: "هذا الخلاكي ملك الاخ الحبيب الراهب الناسك الشمّاس اندراوس اندراوس".

وفي ورقة ١٣١ ظهر من هذا المخطوط نقرأ ما يلي:

"اهتم بهذه الخولاجي المقدسة الولد المبارك الدين المسيحي الارتدكسي الشماس نفيس ولد الاخ البار القديس الطاهر الناسك القسيس بغام من اهل مدينة اسنا اهتم بها من تعبه خاصة ليتعزا بالقراة فيها فالله ينور عيني قلبه ليقرا ويفهم ويعمل بما يقرا ويعوضه عن اتعابه بما وعد في انجيله المقدس عن الواحد ثلثين وستين وماثة وفي الاخرة حياة

الابد وكان الفراغ منها في شهر امشير سنة الف واربعة للشهداء(٥٨) بخط المسكين الحقير المدعى بنعمة الله خادم كرسي القيس وهو بطرس بالاسم يسال كل واقف عليها ان يدعوا له بالمغفرة ومن قال شي لــه اضــعافه وسلام الله الحال على رسله الاطهار يحل عليه امين والسبح لله دائماً ابداً".

وتقع مدينة إسنا جنوب مدينة الأقصر وأرمنـت، وشمـال مدينـة أسوان. أما مدينة القيس فتقع في محافظة المنيا بقرب مدينة بني مزار. أما عن بطرس أسقف القيس الذي نسخ هذا المخطوط، فلدينا من جـداول الأساقفة أسقفاً بهذا الاسم هو: الأنبا بطرس أسقف القيس والأهناسـة وأطفيح الشَّرقيَّة. وقد اشترك في طبخ الميرون المقدَّس في ١٢ إبريل سـنة ١٢٩٩م في عهد البابا ثيؤدوسيوس الثـاني (١٢٩٤-١٣٠٠م) البطريـرك التَّاسع والسَّبعون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وهي حالة نادرة أن ينسخ أسقف كتاباً لأحد الشَّمامسة.

أما المهتم بهذا الخولاجي فلا نعرف عنه شيئاً.

مخطوطات الخولاجيَّات المحفوظة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار

أما مخطوطات الخولاجيَّات المحفوظة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار بوادي النطرون، وهي بالتَّحديد ٢٥ مخطوط خولاجي أرقام (طقس ١٣٣ - طقس ١٥٨). فإن أقدمها يعود إلى القرن السَّابع عشر الميلادي، وهـو خولاجي واحد فقط (طقس ١٣٧). وأربعة منها تعود إلى القرن الثَّـامن عشر (طقس ١٤٧، طقس ١٥١، طقـس ١٥٧، طقـس ١٦٠). ومخطوطـان يعودان إلى القرن الثَّامن عشر أو التَّاسع عشـر (طقـس ١٤٣، ١٥٨)، ومخطوط خولاجي واحد يعود إلى القرن العشرين (طقس ١٥٣)، والباقي

٥٨- وهي تقابل سنة ١٢٨٨ ميلاديَّة.

يعود إلى القرن التّاسع عشر.

وانتقيتُ من الخولاجيّات المخطوطة السّابق ذكرها أربعة مخطوطات تمثّل تقريباً عائلات المخطوطات الخمسة والعشرين السّابق ذكرها. وهي: (ط ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٧).

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٣)

وهو مخطوط خولاجي للثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي قبطي عربي، مع صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر، ويعود إلى القرن التّاسع عشر. وهو بحالة جيِّدة وخطُّه واضح في النّهرين القبطي والعربي. ومقاسة ٢٣,٥× ١٦,٥ سم.

وفي الصّفحة الأولى منه يرد النّص التّالي: "وقفا موبدا وحبسا مخلدا على بيعت القديس العظيم ابو مقار لا يباع ولا يرهن ولا يخرج من بيعت ابو مقار بوجه من وجوه التلاف وكلمن خالف واخرجه عن وقفيته او نزع هدا الورقه بمكر لاجل السرقة الرب ينزع اسمه من سفر الحياه ويكون محروم من نعمته والدي يقرى فيه ويحفظه يكون محالل مبارك وعلى ابن الطاعه تحل البركه والمخالف حاله تالف ولله الشكر دايما ابديا امين".

أما الصفحة الأخيرة فتورد نصاً مشابهاً لما سبق ذكره، ولكن لا يرد فيه اسم الناسخ أو المهتم به.

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٤)

وهو مخطوط خولاجي قبطي عربي للقداسين الباسيلي والغريغوري، مع صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر، ويعود إلى القرن الثّامن عشر أو التّاسع عشر.

وهو مخطوط كبير مقاسه ٣٠×٢٠ سم. يبتدئ بصلاة الاستعداد لعرش المذبح. وبعد الانتهاء من نسخ القدّاس الباسيلي، ترد العبارة التّالية في نهاية الصّفحة: "تم وكمل قداس القديس باسيليوس بسلام من الرب امين. اذكر يارب عبدك الناسخ المسكين القس غبريال ابن القمص قزمان اذكرهم يارب في ملكوت السموات وربنا يعوض من له تعب".

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٦)

وهو مخطوط خولاجي قبطي عربي لصلوات رفع البخور في عشيّة وباكر، والثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، ويعود إلى القرن التّاسع عشر. مقاسه ١٦,٥×١١,٥ سم. ولا يورد اسم النّاسخ ولا المهتم به.

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٤٧)

وهو مخطوط خولاجي لقدّاس القدّيس باسيليوس، وصلوات رفع البخور في عشيّة وباكر، وطلبات وصلوات قسمة. ويعود إلى القرن الثّامن عشر. مقاسه ١٦,٥×١١,٥ سم. وفي ظهر الصّفحة الأولى منه نعرف أن المهتم به هو القس يوحنا أحد رهبان دير أبو مقار، وقد اشتراه من ماله وصلّب حاله ليتعزّى به ويقرأ فيه مدّة حياته. وبعد وفاته بعد عمر طويل كل من وقع في يده يردّه إلى الدّير ولا أحد يطمع فيه ... وابن الطّاعة تحل عليه البركة.

بعض الاستنتاجات من مقارنة نصوص المخطوطات

فيما يلي بعض الاستنتاجات التي يمكننا أن نخرج بها من دراسة ومقارنة بعض نصوص المخطوطات القديمة، وهي:

يعود إلى القرن التّاسع عشر.

وانتقيتُ من الخولاجيّات المخطوطة السّابق ذكرها أربعة مخطوطات تمثّل تقريباً عائلات المخطوطات الخمسة والعشرين السّابق ذكرها. وهي: (ط ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٧).

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٣)

وهو مخطوط خولاجي للثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي قبطي عربي، مع صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر، ويعود إلى القرن التّاسع عشر. وهو بحالة جيّدة وخطُّه واضح في النّهرين القبطي والعربي. ومقاسة ٢٣,٥× ١٦,٥ سم.

وفي الصّفحة الأولى منه يرد النّص التّالي: "وقفا موبدا وحبسا مخلدا على بيعت القديس العظيم ابو مقار لا يباع ولا يرهن ولا يخرج من بيعت ابو مقار بوجه من وجوه التلاف وكلمن خالف واخرجه عن وقفيته او نزع هدا الورقه بمكر لاجل السرقة الرب يترع اسمه من سفر الحياه ويكون محروم من نعمته والدي يقرى فيه ويحفظه يكون محالل مبارك وعلى ابن الطاعه تحل البركه والمخالف حاله تالف ولله الشكر دايما ابديا امين".

أما الصفحة الأخيرة فتورد نصاً مشابهاً لما سبق ذكره، ولكن لا يرد فيه اسم الناسخ أو المهتم به.

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٤)

وهو مخطوط خولاجي قبطي عربي للقداسين الباسيلي والغريغوري، مع صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر، ويعود إلى القرن الثّامن عشر أو التّاسع عشر.

وهو مخطوط كبير مقاسه ٣٠×٢٠ سم. يبتدئ بصلاة الاستعداد لفرش المذبح. وبعد الانتهاء من نسخ القدّاس الباسيلي، ترد العبارة التّالية في نهاية الصّفحة: "تم وكمل قداس القديس باسيليوس بسلام من الرب امين. اذكر يارب عبدك الناسخ المسكين القس غبريال ابن القمص قزمان اذكرهم يارب في ملكوت السموات وربنا يعوض من له تعب".

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٦)

وهو مخطوط خولاجي قبطي عربي لصلوات رفع البخور في عشيّة وباكر، والثّلاثة قدّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، ويعود إلى القرن التّاسع عشر. مقاسه ١٦,٥×١١,٥ سم. ولا يورد اسم النّاسخ ولا المهتم به.

مخطوط خولاجي رقم (ط ١٤٧)

وهو مخطوط خولاجي لقدّاس القدّيس باسيليوس، وصلوات رفع البخور في عشيّة وباكر، وطلبات وصلوات قسمة. ويعود إلى القرن الثّامن عشر. مقاسه ١٦,٥×١١,٥ سم. وفي ظهر الصّفحة الأولى منه نعرف أن المهتم به هو القس يوحنا أحد رهبان دير أبو مقار، وقد اشتراه من ماله وصُلب حاله ليتعزّى به ويقرأ فيه مدّة حياته. وبعد وفاته بعد عمر طويل كل من وقع في يده يردّه إلى الدّير ولا أحد يطمع فيه ... وابن الطّاعة تحل عليه البركة.

بعض الاستنتاجات من مقارنة نصوص المخطوطات

فيما يلي بعض الاستنتاجات التي يمكننا أن نخرج بها من دراسة ومقارنة بعض نصوص المخطوطات القديمة، وهي:

الاستنتاج الأوّل

تُظهر دراسة المخطوطات القديمة أن جوهر القدّاس القبطي المستعمل اليوم في الكنيسة، بل وبنيته اللّيتورجيّة لا تختلف عن القدّاسات القبطيّة في القرون الماضية. وذلك من حيث الصّلوات ومضمون كل صلاة.

الاستنتاج الثّاني

بعض الصّلوات الحاليّة غائبة في المخطوطات القديمة مثل صلاة دورة الحَمَل ورشومات الحَمَل. وقد أشار أبو البركات ابن كبر[٥٩] إلى دورة الحَمَل دون أن يذكر صلاة "مجداً وإكراماً ...". أما ابن سباع[٦٠] فيتحدّث عن نقل القرابين من هيكل التّقدمة الصّغير إلى الهيكل الرّئيسي. وكذلك أيضاً صلاة البركة الواقعة بعد المجمع والتّرحيم غائبة في المخطوطات القديمة. وقد ناقش الأب ألفونس الفرنسيسكاني هذا الأمر في كتاب "التّرتيب الطّقسي"، وأدلى برأي مؤدّاه أن هذه الصّلاة ليست في مكانها الصّحيح، ويؤيّده في هذا الرّأي المخطوطات القديمة إلى جانب تأييد ابن سباع. فهناك إذاً صلوات غائبة في بعض المخطوطات ولا توجد في غيرها، وأخرى أطول من غيرها مثل صلاة البركة السّابق الإشارة إليها. فهي في مخطوط لندن رقم (شرقيّات ١٢٣٩) تختلف عن مثيلتها في مخطوط الفاتيكان رقم (قبطيّات ١٧).

الاستنتاج الثّالث

بمقارنة نصوص أربعة مخطوطات خولاجيّات قبطيّة إلى جانب مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex الذي نشر ترجمته العربيّة الأب سمير خليل، يظهر لنا أنه ليست لدينا ترجمة عربيّة واحدة للنّص القبطي

٥٩- الجزء الثّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظّلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

٦٠- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٩

والنص اليوناني أيضاً، بل ترجمات عديدة تختلف الواحدة عن الأخرى.

وهنا نتساءل هل جاءت هذه التَّرجمات العربيَّة نتيجة مبادرات شخصيَّة أم من سُلطة كنسيَّة عليا؟ وإن دراسة تاريخ البطاركة لا تمدّنا بأية معلومات حول هذا الأمر. فلا نقرأ في سيرة أي بطريرك من بطاركة الكنيسة القبطيَّة أنه اعتمد ترجمة بعينها. باستثناء سيرة البابا غبريال الثَّاني ابن تُريك (١١٣١_١١٤٥م) حيث نقرأ خبرين طقسيَّين؛ الأوَّل خاص بالزِّيادة التي أدخلها وأضاف عليها رهبان دير الأنبا مقار إضافة توضيحيَّة. ويعلّق المؤرِّخ على ذلك بقوله: "واتفق أكثر النَّاس على القول بها إلاَّ قوم من أهل الصَّعيد فإنهم استمرّوا على عادتهم المألوفة ولم يعارضوا في ذلك ولا أنكر عليهم"[٦١]. والخبر الثَّاني يرد في قوانين نفس هذا البطريرك وهو القانون (٢٦): "انتهى إليّ ضعفي أن قوماً من أعمال الصَّعيد يقدّسون قدَّاسات غير موافقة، خارجا عن الثَّلاثة المعروفة، وهم قدَّاس القدِّيس باسيليوس، وقدَّاس القدِّيس غريغوريوس، وقدَّاس القدِّيس كيرلس. وقد منعت من يعتمد ذلك إلى أن يحضر إلى القلاَّية ويحرِّر قدَّاساته".

وبالعودة إلى السؤال المطروح من قبل، نجد أن اختلاف التَّرجمات يدل على أنها صدرت عن مبادرات فرديَّة. ولم تكن التَّرجمة العربيَّة مستعملة في الصَّلوات حتى حدود القرن الرَّابع عشر. بدليل أن أبو البركات وابن سباع والأنبا غبريال الخامس يذكرون بدايات الصَّلوات بالقبطي وليس بالعربي. ويبدو أن التَّرجمة العربيَّة كانت للاستعمال الشَّخصي ولمساعدة من لا يعرف القبطيَّة لكي يتابع بنص عربي.

الاستنتاج الرَّابع

تميَّز التَّرجمات العربيَّة بالحرفيَّة المتناهية وتعلُّقها بالنَّص القبطي من

٦١- كامل صالح نخلة، ص ١٧-١٨

حيث ترتيب الكلمات ونوع الكّلمة. فإن كانت الكّلمة القبطيّة مؤنّثة تأتي صفاتها في اللّغة العربيّة مؤنّثة. وما زالت هذه العبوديّة في التّرجمة ظاهرة حتى اليوم، دون وضع اعتبار لقواعد ومنطق اللّغة العربيّة.

ولكن برغم حرفيّة التّرجمة فإنها أدق في بعض النّواحي. فمثلاً المخطوطات القديمة تترجم عبارة ⲁⲝⲓⲟⲛ ⲕⲁⲓ ⲇⲓⲕⲉⲟⲛ (أكسيون كي ذيكيؤن) إلى "مستحق ومستوجب"، أو "مستحق ولازم"، أو "مستحق بالحقيقة". ولا تكتب عبارة "مستحق وعادل" وهي التّرجمة التي بدأت تظهر في القرن الخامس عشر. والتّرجمات القديمة هي الأدق لأنها تعني أن الله مستحق الشُّكر ومستوجبه، بينما تعبير "مستحق وعادل" يجعل المعنى يعود إلى الله وليس إلى الشُّكر نفسه. ومن الواضح أن التّعبير في اللّغة اليونانيّة يأتي في صيغة المحايد لا المذكّر. وعلى ذلك فالتّرجمة الدّقيقة هي: "إنه أمر مستحق وعادل (أن نشكر الله)".

الاستنتاج الخامس

نص القدّاس القبطي القديم خلال القرون من الثّاني عشر إلى الرّابع عشر أبسط من ذلك المستعمل اليوم. فليس هناك تكرار كثير للصّلاة الرّبيّة. وليس هناك مبالغة وطغيان لدور الشّمّاس ومقاطعة الشّعب العديدة لصلوات الكاهن. وكذلك نُدرة التّنبيهات الطّقسيّة.

وقد لفت الأب سمير خليل النّظر إلى بساطة القدّاس في القرن العاشر، وذلك في مقال له بعنوان: "ساويرس ابن المقفع والقدّاس في القرن العاشر"[٦٢].

أما بخصوص مردّات الشّمّاس فيشير الأب ألفونس الفرنسيسكاني

٦٢- مجلة رسالة الكنيسة، ١٩٧٠م، ص ٥٥-٥٩

بل إن غيابها وقلّتها في المخطوطات القديمة ليس دليلاً على عدم وجودها بسبب وجود كتب مفردة لها، وهي كتب "خدمة الشمّاس"(٦٣).

ولأنه لا يوجد لدينا مخطوطات لكتاب خدمة الشمّاس من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لذا فإن ما يرد من مردّات للشمّاس والشّعب في مخطوطات الخولاجيّات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، هي المردّات التي كانت مستخدمة بالفعل وليس غيرها.

ولدينا مخطوطان لمردات الشمّاس من القرن الرّابع عشر، ومخطوط ثالث من القرن الخامس عشر وهي محفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما تحت أرقام (قبطيّات ٢٧، ٢٨، ٣٨). وإنه بدراسة هذه المخطوطات الثلاثة ومقارنتها بمخطوطات القدّاس في نفس هذين القرنين، يمكن حسم موضوع مردّات الشمّاس والشّعب في القدّاس القبطي.

الاستنتاج السّادس والأخير

يرتبط هذا الاستنتاج بالاستنتاج الثالث، وهو يخص منهجيّة نشر الترجمات العربيّة القديمة للقدّاس.

فبما أن الترجمات العربيّة للمخطوطات المختلفة هي ترجمات مختلفة بعضها عن بعض، ولا يمكن نشر نصوصها بنفس منهجية نشر النّصوص الأخرى، فهنا يصدق المبدأ الذي كتب عنه الأب زانتي Ugo Zanetti وخلاصته هو أن كل مخطوط من مخطوطات النّصوص الطّقسيّة يجب أن يُنشر على حدة كما هو. لأن كل مخطوط يمثل مرحلة من مراحل التّطوّر الطّقسي. وقد برهنت دراسة المخطوطات القديمة للقدّاس على صلاحيّة بل وضرورة هذا المبدأ.

٦٣- الترتيب الطّقسي، الشرح اللاتيني للكتاب، ص ٧١، حاشية ٥٨

أقدم طبعات لخولاجي القدّاسات القبطيّة

أما أقدم خولاجي يضم الثلاثة قدّاسات معاً في نصها القبطي، فهو الخولاجي الذي طبعه روفائيل الطوخي في روما سنة ١٧٣٦م، بالقبطيّة والعربيّة بعد أن حذف منه أسماء القدّيسين أصحاب الطّبيعة الواحدة monophysite الذين وردوا في المجمع مثل البطريرك القدّيس ديسقوروس الإسكندري، والبطريرك القدّيس ساويرس الأنطاكي، ووضع بدلاً منهم أسماء آخرين يتبعون مجمع خلقيدونية. وكذلك أضاف على قانون الإيمان فيما يختص بالرّوح القُدُس كلمة "والابن" في عبارة "منبثق من الآب"، وهو ما تعلّم به الكنيسة الكاثوليكيّة. بالإضافة إلى حواشي أخرى أضافها بالعربيّة. وقد أعاد السّمعاني J. A. Assemani طباعته باللاتينيّة سنة ١٧٥٤م.

وفي سنة ١٨٨٢م طبع الماركيز يوحنا John marquess of Bute في لندن كتاب "الخدمة الصّباحيّة القبطيّة ليوم الرّب - The Coptic Morning Service for the Lord's day"، وهو منقول مع بعض الإضافات عن خولاجي الطّوخي. ويحتوي أيضاً على خدمة رفع بخور باكر، وملحق عن الخدمة الإلهيّة.

وأوّل مرّة يُطبع فيها الخولاجي القبطي في القاهرة حاوياً القدّاسين الباسيلي والغريغوري، فكان سنة ١٨٨٧م على يد القمص فيلوثاوس كاهن الكنيسة المرقسيّة البطريركيّة بالقاهرة. ثم طبع أيضاً في نفس السّنة كتاب "ما يجب على الشّمامسة من القراءة في الخدمة والتّرتيل"، ويحتوي على مردّات الشّمّاس والألحان الثّابتة والمتغيّرة، وذلك بالقبطيّة والعربيّة مع حواشي بالعربيّة.

وفي سنة ١٩٠٢م طبع القمص عبد المسيح صليب المسعودي (١٨٤٨-١٩٣٥م) كتاب "الخولاجي المقدّس" حاوياً القدّاسات الثلاثة

بالقبطيَّة والعربيَّة، ومتضمّناً حواشي كثيرة نقلها من كتاب "الترتيب الّلقسي"، السَّابق ذكره، بعد أن أضاف عليها بعضاً من عنديَّاته. فصار هذا الخولاجي هو المرجع الرَّئيسي للّيتورجيَّة القبطيَّة حتى هذا اليوم(٦٤).

ولقد وصلني مؤخَّراً صورة طبق الأصل Photocopy من خولاجي سنة ١٩٠٢م، وهي النُسخة الخاصة بالقُمُّص عبد المسيح المسعودي وبها تصويب الأخطاء التي وردت في الخولاجي المذكور، وبخط يده، بالإضافة إلى تدوينه لبعض فقرات من نصوص الصَّلوات التي سقطت سهواً في هذه الطَّبعة الأولى وكان يود طباعتها، إلى جانب بعض ملاحظات ليتورجيَّة هامة دوَّنها في الهامش. وقد ورد معظم هذه التَّصويبات في الطَّبعتين الثانية والثالثة سنة ٢٠٠٢م لهذا الخولاجي، بمجهود مباركٌ لرهبان دير السيِّدة العذراء البراموس.

أما أوَّل دلاَّل لقراءات الكنيسة القبطيَّة طُبع في روما سنة ١٨٣١م، ويحوي قائمة بفصول أناجيل الأعياد والأصوام والسُّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة على مدار السَّنة الّليتورجيَّة، طبقاً لمخطوط عربي بمكتبة الفاتيكان يعود إلى القرن الخامس عشر. أعقبه آخر طُبع في لندن سنة ١٨٧٤م، وذلك ضمن مجموعة "قاموس الآثار المسيحيَّة - Dictionary of Christian Antiq."، يحوي فصول أناجيل الآحاد والأعياد، ويسبق كل فصل إنجيلي آيات مختارة من المزامير لعشيَّة وباكر والقدَّاس. وفي ألمانيا طبع سنة ١٨٧٩م قطمارس لشهور توت - أمشير، أبيب - الشَّهر الصَّغير (تقريبا من نوفمبر - فبراير، يونيو - أغسطس)، وكذلك لقراءات

٦٤- قام رهبان دير السيِّدة العذراء برموس ببرية شيهيت - مشكورين كل الشُكر - بإعادة طبع هذا الخولاجي مرَّة ثانية في سنة ٢٠٠٢م بكل حواشيه في طبعة أنيقة تليق بمكانة هذا الخولاجي المقدَّس، حتى يصبح متاحاً للكل. وأهنئهم تهنئة قلبية على هذا الجهد المبارَك.

الصّوم الكبير وصوم نينوى، وآحاد الخمسين المقدّسة والأعياد الأساسيّة[٦٥].

ملحق حول ليتورجيّات الكنيسة الإثيوبيّة[٦٦]

١- قدّاس الرُّسُل.
٢- قدّاس الرّب.
٣- قدّاس يوحنا بن الرّعد.
٤- قدّاس القدّيسة مريم.
٥- قدّاس الـ ٣١٨ بنيقية.
٦- قدّاس القدّيس أثناسيوس.
٧- قدّاس القدّيس باسيليوس.
٨- قدّاس القدّيس غريغوريوس.
٩- قدّاس القدّيس إبيفانيوس.
١٠- قدّاس القدّيس يوحنا ذهبي الفم.
١١- قدّاس القدّيس كيرلس.
١٢- قدّاس القدّيس يعقوب السُّروجي.
١٣- قدّاس القدّيس ديسقورس.
١٤- قدّاس القدّيس غريغوريوس الثّاني.

فهي أربعة عشر قدّاساً. وبحسب تقليد كنيسة إثيوبيا، فإن القدّيس باسيليوس الكبير أسقف قيصريّة (٣٣٠- ٣٧٩م) هو الذي جمع قدّاس الرُّسُل، وقدّاس الثّلاثمائة والثّمانية عشر بنيقية، وقدّاس القدّيس أثناسيوس.

ولا يتّفق مع هذه القدّاسات في الكنيسة القبطيّة سوى قدّاس القدّيس باسيليوس، باستثناء الملاحظات الآتية:

• عند قول الكاهن: "ووضع لنا هذا السّرّ العظيم الذي للتّقوى" يبخّر بالشّوريّة على المذبح[٦٧]. ويقول الشّمّاس: "أيها الكهنة ارفعوا أيديكم".

• عند قول الكاهن: "وشكر وبارك" يبارك ثلاث مرّات على الخبز، ثم يغرس إصبعه برقّة في خمسة مواضع من الخبز دون أن يفصله.

65- Brightman, *op. cit.*, p. lxix

٦٦- القس مرقس داود، قدّاسات الكنيسة الإثيوبيّة، القاهرة ١٩٥٩م.

٦٧- القس مرقس داود، قدّاسات الكنيسة الإثيوبيّة، ص ٢٠٠.

• لا وجود لمردّات الشمّاس "آمين" لا في مباركة الخبز ولا في مباركة الكأس، ولكن الشّعب هو الذي يؤمّن "آمين نؤمن ..."، وهذا هو الطّقس الإسكندري القديم، في أصوله التّقليديّة الأولى.

• في صلوات الأواشي، كانت تُصلّى أوشيّة الملك بعد أوشيّة ثمرات الأرض: "اذكر يارب ملك هذه البلاد عبدك (هيلاسلاسي الأوّل)".

• عندما يذكر الكاهن اسم والدة الإله القدّيسة مريم في مجمع القدّاس الإلهي، يقول الشّعب ثلاث مرات: "مريم الدّائمة البتوليّة".

• يختلف المجمع قليلاً عن نظيره القبطي، فيرد فيه على سبيل المثال اسم القدّيس أنبا بنوده.

• عند قول الكاهن: "... أن يجعلنا مستحقين لشركة وتناول أسراره الإلهيّة غير المائتة"، يكمّل مباشرة بقوله "الجسد المقدّس، والدّم الكريم اللّذين لمسيحه"، دون ذكر لسجود هنا، وهو الطّقس الإسكندري القديم في أصوله الأولى.

• يردّد الشّعب الصّلاة الرّبيّة "أبانا الذي في السّموات ..." قبل القسمة عقب قول الشمّاس "صلوا"، وبعدها أيضاً.

• هناك صلاتان للقسمة في القدّاس الباسيلي الإتيوبي، الأولى هي صلاة القسمة العاديّة التي تقول: "أيها السيّد الرّب، إلهنا العظيم الأبدي ...". أما الثّانية فبدايتها هي: "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا، حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم كله ...". وهي صلاة القسمة التي تُقال في أعياد السيّدة العذراء والملائكة والسّماويين، بحسب تقليد كنيسة الإسكندريّة.

ولكن يفصل بين القسمتين مرد للشّعب يقول: "جنود ملائكة مخلّص العالم يقفون أمام مخلّص العالم ويحيطون بمخلّص العالم، أي بجسد

ودم مخلّص العالم. فلنقترب إلى وجه مخلّص العالم[٦٨]، بالإيمان الذي هو منه، لنُخضع ذواتنا للمسيح".

فيقول الشمّاس المساعد: "افتحوا أيها الرؤساء أبوابكم".

فيقول الشمّاس: "أيها الوقوف احنوا رؤوسكم".

فيبدأ الكاهن بصلاة القسمة الثانية مباشرة[٦٩].

- مردّات الشّعب تختلف قليلاً عن نظيرها في القدّاس الباسيلي المصري.

أما القدّاسان الآخران الغريغوري والكيرلسي في كنيسة الإسكندريّة، فيختلفان اختلافاً كلياً عن نظيريهما في قدّاسات تلك الكنيسة.

وجرت العادة أن تُقدَّم للكاهن في بداية الخدمة ثلاث قربانات ليختار إحداها للحمل، أما القربانتان الباقيتان فمع أنهما لم يتقدّسا، لكنهما تعتبران كخبز مقدّس، وتوزعان بين الإكليروس في نهاية الخدمة[٧٠].

وفي إثيوبيا ثلاث نغمات يُصلّى بها هي: "جيز – أراراي – أزل". وقد رتّبها لكنيسة إثيوبيا أحد رجال الكنيسة واسمه "يارد" في القرن السّادس الميلادي خلال الفترة من سنة ٥٢٣م – سنة ٥٤٥م[٧١]. أما "الزّماري" فهي التّرانيم التي أعدّها "يارد" في القرن السّادس الميلادي.

٦٨- تعبير "مخلّص العالم"، هو اصطلاح يميّز ليتورجيّة الغال، وصقر شمال إيطاليا، ثم انتقل إلى روما، ولكن أصله يعود إلى ليتورجيّة الغال (فرنسا حالياً).
Cf. Brightman, *op. cit.*, p. 31ff.

٦٩- القس مرقس داود، قدّاسات الكنيسة الإثيوبيّة، ص ٢١٤

٧٠- نفس المرجع، ص ٩٧

٧١- نفس المرجع، ص ٧٧

البَاب الثَّاني

حول سرّ الإفخارستيّا

الفَصل الأوَّل

معنى الإفخارستيَّا

مسمّيات السّر

نالت ليتورجيّا القدّاس الإلهي على مر العصور كثيراً من المسمّيات الطّقسيّة المرتبطة تاريخيّاً بطقوس الكنائس المختلفة. أما تعبير **"كسر الخبز"** فهو الاسم الأقدم لهذا السرّ، وقد ورد ذكره هكذا في سفر أعمال الرُّسُل عندما كان المؤمنون يجتمعون معاً لكسر الخبز والصّلاة بسرور وابتهاج وبساطة قلب.

ويُعد القدّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥- ١٠٧م) الشّهيد هو أوّل من أشار إلى عشاء الرّب السّرّي بكلمة **"إفخارستيّا** - εὐχαριστεία" أي "الشُّكر". موضحاً أن الإفخارستيّا هي المعروفة بـ "كسر الخبز". حيث استخدم لفظة "إفخارستيّا" أربع مرّات في رسائله، وفي كل مرّة يتغيّر مدلول الكلمة حسب سياق النّص.

أما مصطلح **"الذّبيحة"** فهو من أقدم المصطلحات الطّقسيّة الخاصة بالقدّاس الإلهي في كنيسة مصر، كما نجده عند العلاّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م)، والبابا تيموثاوس الأوّل (٣٨٠- ٣٨٥م) الذي يدعو القدّاس الإلهي باسم **"الذّبيحة الرّوحانيّة"**.

ومن أقدم المسمّيات لهذا السّر في الكنيسة القبطيّة هو المصطلح اليوناني προσφορά (**بروسفورا**) والذي انتقل بنصّه ونطقه إلى اللّغة القبطيّة **πpocφopa** ويعني **"تقدمة"**. فنص قدّاس القدّيس سرابيون

أسقف تمويس في القرن الرَّابع عنوانه الرَّئيسي هو Εὐχὴ προσφορᾶς أي: "صلاة البروسفورا" أو "صلاة التَّقدمة". وهي نفس الكلمة "بروسفورا" التي وردت في قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس. ولكن المترجم هذه القوانين إلى اللغة العربيَّة في القرن الحادي عشر الميلادي ترجم كلمة "بروسفورا" القبطيَّة إلى كلمة **"قدَّاس"**[١]، وهو ما استطعنا أن نعرفه من النَّص القبطي للقانون ٤٩، والقانون ٩٣، وهما من بين القوانين القليلة ضمن هذه القوانين التي لازالت محفوظة لدينا بنصها القبطي القديم[٢]. بل إن الاصطلاح اللِّيتورجي "بروسفورا" هو أقدم من ذلك أيضاً، إذ نجده عند العلاَّمة أوريجانوس المصري (١٨٥- ٢٥٤م) في حديثه عن صلوات القدَّاس الإلهي.

وهناك أيضاً مصطلح **"السَّرائر"** أو **"الأسرار"** والذي يُطلق على هذا السِّر في الكنيسة القبطيَّة، وقد ورد في قوانين البابا تيموثاوس (٣٨١-٣٨٨م) البطريرك الـ ٢٣ من بطاركة كنيسة الإسكندريَّة. وأيضاً في قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس الميلادي[٣].

ومن هنا يتَّضح أن كلمة "بروسفورا" أي التَّقدمة هي من المسمَّيات القديمة لهذا السِّر في الكنيسة القبطيَّة، إلى جانب كلمة "السَّرائر" أو "الأسرار" كما سبق أن ذكرتُ للتو.

وفي الكنيسة البيزنطيَّة يُسمى السِّر **"اللِّيتورجيَّا الإلهيَّة"**. أما الأرمن

١- كما في القوانين ١٤:٤، ٢٥:١، ٤٠، ٤٩:١، ٩٣:٢

2- Riedel, W. and Crum, W., *The Canons of Athanasius Patriarch of Alexandria*, London, 1904, p. 92, 112.

٣- انظر القوانين ١٠:٦، ٣٦، ٤١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٧

والسّريان فيدعونه - كما عنـد الأقبـاط - "**الذّبيحـة**" أو "**القربـان** (قربونو)" أو "**التّقدمة** (بروسفورا)". أما الأحباش والآشوريون فيقولون "**التّقديس** (قُدّاسة - قداسة - قدّاشاه)".

إلاّ أن اللّفظ الأكثر تداولاً بين الأقباط الآن فهو "**القدّاس**". أمـا السّريان والموارنة فيشتهر القدّاس عندهم باسم ἡ ἀναφορά (**أنـافورا - Anaphora**)، وهي كلمة يونانيّة تعني في المصطلح اللّيتـورجي "تقـديم القربان أو رفعه - offering". وأُطلقت الكلمة "أنافورا" على الجـزء الرّئيسي من صلاة الإفخارستيّا، وهو الجزء الـذي يحـوي التّقـديس والتّذكار والتّناول. ولأن الكلمة بذلك تغطي معظم صلوات اللّيتورجيّا، فقد أُطلقت عموماً على تقديم ذبيحة الإفخارستيّا بكاملها.

أما المصطلح اليوناني σύναξις (**سيناكسيس**) أي "اجتماع" فهو يعني أيّ اجتماع لعبادة أو صلاة جمهوريّة بما في ذلك الاجتماع من أجل إقامة الإفخارستيّا liturgical synaxis. وهي كلمة تستخدم في الكنيسة الشّرقيّة عموماً، ونجدها في قطمارس الكنيسة القبطيّة. ولكنها في الغرب استخدمت منذ وقت مبكر لتعبّر عن اجتماع غير ليتورجي للشّعب، أي اجتماع لغرض دون إقامة الإفخارستيّا aliturgical synaxis متضمناً تلاوة مزامير وقراءة فصول كتابيّة وصلوات بعيداً عن إقامة خدمة القدّاس، وهو ما نعرفه في الكنيسة القبطيّة بطقس صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر، أو خدمة صلاة المزامير في الأديرة.

وعلى ذلك فهناك نوعان أساسيّان مـن "السّيناكسـيس" همـا: "السّيناكسيس الكبير - ϯⲛⲓϣϯ ⲛ̀ⲥⲩⲛⲁⲝ"، ونعني به خدمـة إقامـة الإفخارستيّا ويحويها كتاب الخولاجي المقدّس. و "السّيناكسيس الصّغير - ϯⲕⲟⲩϫⲓ ⲛ̀ⲥⲩⲛⲁⲝ" ونعني به صلوات رفـع البُخـور والتّسـبحة

وصلوات المزامير في سواعي اليوم.

أما الاصطلاح الطّقسي لخبز الإفخارستيّا في الطُّقوس القبطيَّة والبيزنطيَّة والآشوريَّة فهو: "**الحَمَل** lamb" أو "**حَمَل الله**". ويتردَّد هذا المصطلح بالأكثر أثناء طقس القسمة في الكنيسة البيزنطيَّة، حين يقول الكاهن: "حَمَل الله يُكسر ويوزَّع"، وقد أضيف على هذه العبارة في الوقت الحالي عبارة "الذي يُكسر ويظل غير مقسَّم". أما الصِّيغة المقابلة لهذه التَّسمية في طقس التَّقدمة prothesis في الكنيسة البيزنطيَّة فهي "حَمَل الله يُذبح".

واستخدام هذا الاصطلاح وترتيله أثناء القسمة يمكن شرحه إذا تذكَّرنا حقيقة أن الشَّرق المسيحي يطبِّق الاصطلاح θυσία (ثيسيًّا) أي "ذبيحة" أو الاصطلاح المقابل له θυσία φρικτή (ثيسيًّا فريكتي) أي "الذَّبيحة المخوفة" على تقدمة الإفخارستيّا(٤).

وإن الاصطلاح اللِّيتورجي "الحَمَل" نجده عند البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م)، حيث يدعوه "الحمل السَّمائي"، فيقول:

[علينا أن نستعد لكي نقترب من الحَمَل السَّمائي ونؤهَّل لنلمس الطَّعام السَّمائي(٥)، فلنغسل أيدينا، ونطهِّر الجسم ونحفظ العقل من أي شر حتى إذا كنَّا كلنا أطهاراً نستحق أن تتناول من الكلمة].

4- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 86-87.

٥- كان التَّناول في القرون الأولى يسلَّم في اليد اليُمنى للمتناول، حيث يضع المتناول يده اليُسرى تحت اليُمنى، ثم يتناول الأسرار إلى فمه، وسيرد شرح ذلك في فصل التَّناول في نهاية هذا الكتاب. وقد أُلغيت هذه العادة واستُبدلت بما هو جاري الآن منعاً من العوارض التي قد تصيب الجواهر المقدَّسة.

وقد دخل اصطلاح "حَمَل الله" كاصطلاح ليتورجي إلى قدّاس كنيسة روما بواسطة البابا سرجيوس الأوّل الذي وُلد في سيسيليا Sicily من عائلة جاءت أصلاً من أنطاكية.

ويُسمى القدّاس في اللاتينيَّة missa ومن هذه الكلمة اللاتينيَّة جاءت كلمة mass في الإنجليزيَّة.

إفخارستيًا واحدة مسبوقة بصوم

اللّيتورجيًا هي "اجتماع **الجميع** في مكانٍ **واحد** برئاسة **الأسقف**". هذه هي الكنيسة، وهذا هو مضمون الخدمة اللّيتورجيَّة وقانونيتها.

وتعد رسالة العبرانيين هي المصدر الأوّل الذي يشرح لنا بإلهام روحي فائق كيف أصبحت ذبيحة المسيح له المجد التي قدّمها بنفسه ذبيحة واحدة، قُدِّمت مرّةً واحدة وإلى انقضاء الدُّهور، لتصير عوضاً عن الذّبائح الكثيرة التي ظلّت تُقدَّم في العهد الأوّل، دون أن تستطيع أن تُطهِّر إلى التّمام الذين كانوا يقدِّمونها، أو الذين قُدِّمت عنهم. فلم يكن لهذه الذّبائح الكثيرة التي ظلّت تُقدَّم مراراً وتكراراً سوى القدرة على طهارة الجسد فحسب. ولكن ظلّ الإنسان يحمل في نفسه ضمير خطايا أي ضميراً مُثقّلاً بالخطايا. وهكذا لم تقدر هذه الذّبائح اليوميَّة أن تنزع الخطيئة. وإذ ظلّ رئيس الكهنة في العهد الأوّل محاطاً بالضّعف والموت، لزم أن تتكرّر الذّبيحة مراراً كثيرة، وعلى قدر تعدُّد رؤساء الكهنة تعدّدت الذّبائح، ومن ثمّ فقد لزم أن يتغيَّر النّاموس وتبطل الوصيَّة القديمة، ويتغيَّر الكهنوت اللاوي أو كهنوت هارون الذي عن طريقه أخذ الشّعب هذا النّاموس العتيق.

فجاء المسيح كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق وليس على رتبة هارون، قدوسٌ بلا شر ولا دنس، انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السَّموات. الذي ليس له اضطرار كل يوم - مثل رؤساء الكهنة - أن يقدِّم ذبائح أولاً عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشَّعب. لأنه فعل هذا مرَّةً واحدةً إذ قدَّم نفسه(٦). وبدم نفسه دخل مرَّةً واحدةً إلى الأقداس أي إلى سماء السَّموات حيث العرش الإلهي، فوجد لنا فداءً أبدياً. فأبطل الخطيئة إلى الأبد بذبيحة نفسه(٧) التي قدَّمها مرَّةً واحدة. لأنه بعد أن قدَّم عن الخطايا ذبيحة واحدةً جلس إلى الأبد عن يمين الله، فأكمل إلى الأبد المقدَّسين بقربان واحد(٨).

وقد اتفقت جميع الكنائس شرقاً وغرباً اتفاقاً تاماً على ألاّ يقدَّس في اليوم الواحد إلاّ قداساً واحداً على المذبح الواحد.

وفي ذلك يقول القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥- ١٠٧م) الشَّهيد:

[... من ثمّ احرصوا ألاّ يكون لكم سوى إفخارستيّا واحدة، لأنه يوجد جسد واحد لربّنا يسوع المسيح، وكأس واحدة للاتّحاد به، ومذبح واحد](٩).

فصار الشَّهيد إغناطيوس الأنطاكي هو أوَّل من أكّد بشدَّة على حتميَّة "الإفخارستيَّا الواحدة"، أي التي لا تُكرَّر في يوم تقديمها، سواء بالنِّسبة لمقدِّمها وهو الأسقف أو من ينيبه عنه من الكهنة المساعدين له في

٦- انظر عبرانيين أصحاح ٧
٧- انظر: عبرانيين ٩: ١٢، ٢٦
٨- انظر: عبرانيين ١٠: ١٢، ١٤

9- *philad.* 4

الخدمة، أو بالنّسبة للمتناولين منها. وذلك إشارة إلى وحدة الجسد أي الخبزة الواحدة والكأس الواحدة، والمسيح الواحد الذي يمثله الأسقف، والمذبح الواحد رمز موت المسيح الذي ماته مرّة واحدة.

فهذه الإفخارستيّا الواحدة هي التي تقدر أن تجمع المؤمنين كلهم في وحدة معاً، فهي في غايتها إفخارستيّا واحدة من أجل كنيسة واحدة. ويؤكّد القدّيس كبريانوس الشّهيد (+ ٢٨٥م) على هذا المعنى بقوله:

[عندما دعا الرّب الخبز - الذي هو حصيلة اتحاد كثير من حبّات الحنطة - جسده، أشار إلى شعبنا الذي حمله، إذ صاروا في وحدة. وعندما دعا الخمر - الذي هو حصيلة عصير كثير من الحبّات والعناقيد - دمه، عنى بهذا قطيعه الذي يرتبط معاً بامتزاج الجموع في وحدة معاً].

وهذا المفهوم يرد في أقدم نص ليتورجي معروف، كما ورد في كتاب "الدّيداخي" أي تعليم الرُّسُل، وهو من مدوّنات أواخر القرن الأوّل الميلادي فيقول: "كما كان هذا الخبز المكسور، منثوراً فوق الجبال، ثم جُمع فصار واحداً، هكذا اجمع كنيستك من أقصاء الأرض إلى ملكوتك، لأن لك المجد والقدرة بيسوع المسيح إلى الآباد" (ديداخي ٩:٤).

وهو نفس ما يشرحه كتاب "الدّسقوليّة" أي تعاليم الرُّسُل، وهو من مدوّنات القرن الرّابع الميلادي: فيقول: "بما أنكم أعضاء المسيح، لا تفتحوا باباً للانشقاق عن الكنيسة بعدم اجتماعكم معاً، فيما أن لكم المسيح رأساً، وهو بحسب وعده حاضر بينكم، ومشارك لكم. لا تهملوا أنتم المخلّص، ولا تحرموه أعضاءه، ولا تمزّقوا أو تبعثروا جسده، ولا تفضّلوا اهتمامات حياتكم الزّمنيّة على كلمة الله. ولكن في يوم الرّب اتركوا كل شئ واهرعوا معاً إلى الكنيسة" (٢:٥٩:٢-٣).

فانظروا يا إخوة كيف أن المسيح بدونكم محروم من أعضائه، وكيف أننا بامتناعنا عن حضور الكنيسة نمزِّق جسد المسيح ونبعثره. فهو ينتظرنا في بيته ليكمِّل سر حضوره فينا، فهل نحرمه سكناه في بيته، وبيته نحن.

إن سر حضور الرَّب الدَّائم في سر الإفخارستيَّا هو الـذي حفظ الكنيسة وأبقى عليها حتى اليوم، فإننا نحن الكثيرين خبزة واحدة، جسد واحد، لأننا جميعاً نشترك في الخبزة الواحدة. وهذا ما يوضِّحه البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) بقوله:

[إننا نحن جميعاً إذ نتناول من الرَّب الواحد بعينه نصير جسداً واحداً، إذ يكون لنا في أنفسنا الرَّب الواحد][١٠].

لقد كان ولا يزال الاجتماع الواحد في مكان واحد أمر بالغ الأهميَّة، لأنه دليل على الوحدة. ولم يكن من الممكن الاجتماع في أكثر من مكان في وقت واحد، لأن هذا دليل على الانفصال.

وهذا لا يرفع الأسقف أكثر من ذبيحة واحدة في اليوم الواحد. كما لا يجوز للمؤمنين التَّناول من الأسرار المقدَّسة أكثر من مرَّة في اليوم الواحد. وهو تقليد منتشر بين كافة الطُّقوس الشَّرقيَّة كما ذكرتُ.

ولقد حافظت كنيسة الإسكندريَّة على هذا التَّقليد القديم وحتى اليوم، فليست لدينا أي براهين تاريخيَّة أو شواهد وثائقيَّة يمكن بواسطتها إثبات أن كنيسة الإسكندريَّة سمحت للخادم نفسه أن يقوم بخدمتين في اليوم نفسه وعلى نفس المذبح. ولكن الكنيسة الكاثوليكيَّة - خاصة كنيسة روما - قد سمحت للكاهن أن يقيم أحياناً ثلاث خدمات في اليوم على المذبح الواحد. أما الكنائس الغربيَّة الأخرى مثل كنائس ليون

١٠- ضد الأريوسيين ٣: ٢٢: ٢.

(فرنسا) وأسبانيا والكنائس الأفريقيّة فكانت تجهل هذه العادة في زمن القدّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م). وفي القرن الثالث عشر سنة ١٢٢٢م، سمح أسقف كانتربري للكهنة بإقامة أكثر من ذبيحة واحدة في النّهار الواحد.

ويخبرنا التّاريخ في القرن الخامس الميلادي عن رسالة أرسلها لاون الكبير الحبر الرُّوماني إلى بطريرك الإسكندريّة يقول له فيها إنه ينبغي أن نتّفق على العوائد بأسرها. ولذا نرغب أن تحذو حذونا فيما نذكره، وهو أن تتكرّر في الكنيسة ذبيحة القدّاس دون تردُّد كلما اجتمع فيها جمع غفير في يوم عيد حافل. وأن تكرار القدّاس كلما توافد المؤمنون إلى الكنيسة هو أجدر بالعبادة وأوفق للصّواب. وإلاّ فلو أريد التّمسُّك بنظام القدّاس الواحد، حُرم حضوره من تعذّر عليه المجئ إلى الكنيسة في مطلع النّهار. وبناءً عليه نحث بدالة مودّتك حثاً بليغاً على أن تصرف العناية دون تغاض إلى إتّباع هذه العادة التي تسلسلت إلينا عن تقليد أبوي[١١]. وبالطّبع لم يلتفت بابا الإسكندريّة لهذه الرّسالة، بل ظلّت كنائس الشّرق كلها ولقرون طويلة لا تقيم قدّاسات يوميّة كما طلب لاون الحبر الرُّوماني، بل إن كنيسة روما لم تمارس تعدُّد إقامة القدّاسات على المذبح الواحد في ذلك الوقت.

ففي القرن السّابع مثلاً، كانت تقام في روما ذبيحة إفخارستيّة واحدة على رغم ازدياد عدد المسيحيّين الذي يتطلّب إقامة اجتماعات إفخارستيّة عديدة. وكان الشّمامسة يحملون القرابين المقدّسة إلى الجماعات الأخرى. كانت هذه الممارسة تبرز معنى السّر؛ فهو تجسيد لوحدة الكنيسة ولظفرها على خطيئة تشرذم العالم وانقسامه. ولا يزال

١١- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ١٤٩

حتى اليوم منع الكاهن في الكنيسة الأرثوذكسيَّة من إقامة أكثر من ذبيحة إفخارستيَّة واحدة على المائدة الواحدة، يشهد على هذا المفهوم عينه للقدّاس الإلهي على أنه وقبل كل شئ سر الكنيسة والوحدة[١٢].

فذبيحة المسيح الواحدة والشَّاملة هي التي تحقّق الكنيسة كوحدة إيمان ومحبَّة. وهذا هو عين ما نقرأه في نص ليتورجي منذ أوائل القرن الثالث الميلادي، فنقرأ في كتاب التَّقليد الرسولي (١٢:٤) الذي دوِّن قبل سنة ٢٣٥م ما يلي:

"ونطلب إليك، أن تُرسل روحك القدُّوس على قرابين كنيستك المقدَّسة، **مانحاً الوحدة لجميع الذين يشتركون في قدساتك**، ليمتلئوا بالرُّوح القُدُس، لتثبيت إيمانهم في الحق". وهنا عمق الإدراك القلبي لمعنى شركتنا في القُدسات التي تمنحنا الوحدة بعضنا ببعض في المحبَّة، وتثُبت إيماننا الواحد في الحق.

وهناك في الكنيسة البيزنطيَّة ما يُعرف باسم "القُدسات السَّابق تقديسها"، والتي بموجبها يمكن أن تقام خدمتان على نفس المذبح، الأولى كاملة وقانونيَّة، يُحضر الكاهن أثناءها حَمَلين، يغطس الواحد منهما قليلاً في الدَّم المقدَّس ليستعمله في القدَّاس الثَّاني. أو يمكنه ألاَّ يذوق الكأس في نهاية الخدمة الأولى بل يحفظها للخدمة الثَّانية. وعلى ذلك فتعليم الكنيسة البيزنطيَّة لا يعتبر الخدمة الثَّانية ذبيحة جديدة، إذ أن القُدسات موجودة على المذبح منذ الخدمة الأولى. ولكن الكاهن يعيد فقط الأفاشين (أي الطلبات) والتَّراتيل.

وإن الأصول القديمة للتَّقليد السِّرياني لا تسمح للكاهن بتقدم

١٢- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ١٣٩،١٤٠

الذّبيحة الإلهيّة إلاّ مرّة واحدة في اليوم الواحد. كما لا تسمح أن يقدّم القربان المقدّس على نفس الطبليث والكأس والصينيّة في اليوم الواحد أيضاً. وفي سنة ١٩٧١م سمح مجمع الأساقفة في الكنيسة السّريانيّة أن يقدّس الكاهن على المذبح الواحد صباحاً ومساءً، على اعتبار أن اليوم اللّيتورجي يبدأ مساءً. فإذا قدّسنا صباح الأحد مثلاً، فيكون ذلك عن يوم الأحد، وإذا قدّسنا الأحد مساءً يكون ذلك عن يوم الاثنين. وحدّد الصّوم الذي يسبق التّناول بثلاث ساعات على الأقل قبل تقدم الذّبيحة الإلهيّة. كما أن التّقليد السّرياني يسمح بحفظ بعض أجزاء الجسد المقدّس في المذبح مشيراً بذلك إلى حضور الرّب الدّائم في الكنيسة، وبالتّالي ليتناوله من يحتاجه ما بين قدّاس وآخر، ولاسيّما المرضى. وتحفظه الكنيسة في وعاء خاص وفي مكان محدّد من المذبح يُدعى "بيت القربان". ويبقى الضّوء منيراً دائماً فوق القربان ويُسمى "الضّوء الحارس" أو "الضّياء"(١٣).

وعلى ذلك فإن الطّقس القبطي يراعي ألاّ يتناول الشّمامسة الذين يخدمون المذبح من الدّم الكريم في الكأس إلاّ بعد الانتهاء من تناول آخر واحد من المتناولين من الجسد المقدّس، لكي يكون تناولهم من الأسرار المقدّسة مرّة واحدة حفاظاً على معنى وحدة الإفخارستيّا. ولقد اعتبرت قوانين الكنيسة أن الكاهن الذي يُبقي في الصّينيّة أو في الكأس الشّئ الكثير من القرابين بعد أن ينتهي من توزيع الأسرار المقدّسة على المتناولين أنه يزدري بجسد الرّب ودمه. وأنها تُحسب عليه دينونة عظيمة.

وهو نص ما نقرأه في القرن الخامس الميلادي في قوانين الرُّسُل القبطية: "... والقليل الذي يفضل من القربان، فليحرص القسوس

---

١٣ ـ راجع كتاب "الهدايات" في الشرع الكنسي للعلامة ابن العبري، ١٩٨٦م، ص ٢٥

والشَّمامسة، بألاَّ يبقى منه شيء، وليحرصوا جداً لئلا يتبقى شيء كثير منه، فتكون عليهم دينونة عظيمة، مثل بني هارون وأولاد عالي، هؤلاء الذين أهلكهم الرُّوح القُدُس، لأنهم أهانوا الذَّبيحة التي للرَّب. فكيف بالحري الذين يزدرون بجسد المسيح ودمه، ويظنون أن الذي يتناولونه هو طعام جسداني، وليس روحاني. هذا نأمركم به أيها الأساقفة والقسوس والشَّمامسة عن خدمة الأسرار المقدَّسة" (القانون ١:٥٢:٢١).

والعجيب حقاً أن هذا القانون السَّابق ذكره لم يكن ليوضع سوى لوجود هذا الخطأ الطَّقسي المعيب في هذه القرون المبكِّرة للمسيحيَّة، فجاء نص القانون ليعالج هذا الأمر. إلاَّ أن ما يزيد الأمر غرابة أنه بعد مرور عدة قرون أخرى يعود أحد بطاركة الكنيسة القبطيَّة ليكرِّر نفس التَّنبيه مرَّة أخرى.

ففي القرن الحادي عشر نقرأ في القانون رقم ٢٣ من الكتاب الأوَّل من قوانين البابا غبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١- ١١٤٥م) البطريرك السَّبعون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة، ضمن مجموعة الـ ٣٢ قانوناً ما يلي:

"بلغ إلى ضعفي أن قوماً من الكهنة يتعمَّدون التَّحريف في القرابين والاستكثار فيما يحملونه منها ليُفضل لهم، فيتناولوه على سبيل الشَّرَه، جاهلين قدرها، غير عارفين بها حق المعرفة. وكل من يفعل ذلك فيما بعد ويبقي شيئاً من القربان على حكم الفضلة، ويتناوله على سبيل الطَّعام الجسداني فليس له تصرُّف في كهنوت مطلقاً. وإن فضل شيء من القرابين بغير تعمُّد فليوزِّعه الكهنة فيما بينهم".

والحديث عن وحدة الإفخارستيَّا يقودنا بالتَّبعيَّة إلى معرفة أنه منذ القرن الرَّابع الميلادي تقريباً انتشر تقليدٌ بدأ منذ أيام بولس الرَّسول والرُّسُل القدِّيسين، وهو ضرورة الصَّوم قبل تقديم الإفخارستيَّا تعبيراً عن

وحدها. وهو ما صار مرعيّاً من كل الكنائس شرقاً وغرباً وإن تباينت فترة الصّوم التي تسبق التّقدُّم إليها بين كنيسة وأخرى.

وهذه النُّقطة يشرحها القدّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) فيقول:

[إنه من الأمور الواضحة أن التّلاميذ عندما تناولوا جسد الرَّب ودمه لأوّل مرّة لم يكونوا صائمين. فهل يجيز لنا هذا أن ننتقد الكنيسة الجامعة لأنها لا تجيز في أي مكان أن يتناول هذا السرّ إلاّ من كان صائماً؟ لا على الإطلاق، لأن الرُّوح القُدُس شاء منذ ذلك الحين أن يُحدِّد أنه تكريماً لسر عظيم كهذا، يجب أن يؤخذ جسد الرَّب قبل كل طعام يتناوله المسيحي بفمه. وهكذا شاعت هذه العادة التي أشرنا إليها وصارت مرعيَّة في كل مكان. وإذا كان الرَّب قد وضع هذا السرّ بعد تناول أطعمة أخرى؛ فلا يعني ذلك أن الإخوة يجب أن يجتمعوا معاً لتناول هذا السرّ بعد أن يكونوا قد تغذُّوا أو تعشُّوا. أو أن يتشبهوا بالذين وبخهم الرَّسول ونبَّههم إلى خطأهم، لأنهم لم يميِّزوا بين عشاء الرَّب والطَّعام العادي. بالحقيقة إن المخلص رغبة منه في أن يبرز أعماق هذا السِّر لتلاميذه بصورة أشد نفوذاً، سُرَّ أن يطبعها في قلوبهم وفي أذهانهم بتأجيله تأسيسه إياه ليكون آخر ما يقوم به من أعمال قبل أن يغادرهم إلى آلامه. ولذلك لم يضع لهم النِّظام الذي يجب أن يحفظ هذا السّر تاركاً ذلك للرُّسُل. وقد شاء أن يرتِّب بواسطتهم كل ما يختص بكنيسته. ولو أنه أمر أن هذا السّر يجب أن يُتناول دائماً بعد الطَّعام فأعتقد أنه لم يكن من يخالف أمره هذا. ولكن عندما يقول الرَّسول متحدِّثاً عن هذا السّر «ولذلك يا إخوتي عندما تجتمعون معاً لتأكلوا لينتظر

أحدكم الآخر، وإذا جاع فليأكل في البيت حتى لا يكون اجتماعكم لدينونة». ثم يضيف حالاً «وما بقي سأضع له نظاماً عندما آتي» (١كورنثوس ١٢:٣٣-٣٥). يجب أن نفهم من قوله أنه كان يعسر عليه أن يسهب في رسالته في وصف ما تجب مراعاته في الكنيسة الجامعة في كل أنحاء العالم، ولكنه في زياراته الشَّخصيَّة وضع لهم القواعد الواجب إتباعها. ويدلُّنا على ذلك أننا نجد مراعاتها موحَّدة الشَّكل في كل ما دخل من تنوُّع واختلاف إلى سواها من العادات][١٤].

فيوضِّح لنا كلام القدِّيس أغسطينوس أن العادة التي سادت في الكنيسة الجامعة في أيامه هي الصَّوم قبل التَّناول. ولكن دون تحديد المدَّة الزَّمنيَّة المقرَّرة قبل التَّقدُّم للتَّناول.

وإن عادة الصَّوم قبل التَّناول من الأسرار المقدَّسة كانت مستقرة ومعروفة في أيام آبائنا الرُّسُل الأطهار. ففي سفر الأعمال (٢:١٣) نقرأ: «وبينما هم يخدمون الرَّب ويصومون ...». فكلمة "يصومون" في اليونانيَّة جاءت مصدر في حالة الإضافة في الجمع، وتتبع في الزَّمن ما يسبقها من أفعال. وتكون ترجمتها الحرفيَّة "بينما كانوا صائمين"، لأن الأفعال السَّابقة لها جاءت كلها في الزَّمن الماضي. ويُسمى هذا التَّركيب اللُّغوي عند النَّحويين Absolute participle . وفي التَّرجمة القبطيَّة لهذه الآية

ⲉⲩϣⲉⲙϣⲓ ⲇⲉ ⲙ̀Ⲡ̅ⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲩⲉⲣⲛⲏⲥⲧⲉⲩⲓⲛ ...

أي "وبينما هم يخدمون الرَّب صائمين ...".

فالإفخارستيَّا التي كانت تقيمها الكنيسة الأولى ولازالت تقام كل

١٤- حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، منشورات النور، لبنان، ١٩٧٩م، ص ٢٣٤

يوم هي تذكار للعشاء الأخير الذي أقيم مرّة بين المسيح وتلاميذه. وهي هي التي تقام كل مرّة بين المسيح وشعب كل كنيسة بمشاركة الملائكة والرُّسُل والقدِّيسين. وهي واحدة لأن الذي يقيمها هو المسيح نفسه الواحد الذي هو أمساً واليوم وإلى الأبد.

فحضور الرَّب في كل إفخارستيًّا - ولأن كل إفخارستيًّا هي نفس جسد المسيح ودمه - تنتفي أي ثنائيَّة في شكل الإفخارستيًّا وجوهرها. "وأما نحن المشتركين في الخبز الواحد، الكأس الواحدة، فاجعلنا جميعاً متَّحدين بعضنا ببعض في شركة روح قُدُس واحد ...".

وفي الأصل وحفاظاً على وحدة الإفخارستيًّا كان الأسقف وهو المنوط به وحده إقامتها - أو من يسمح لهم من الكهنة المساعدين له في الخدمة بعد ازدياد أعداد المؤمنين - كان يرسل من الإفخارستيًّا التي أقامها، أجزاء من الجسد المقدَّس بيد الشَّمامسة إلى كل الكهنة التَّابعين له، حيث يضع كل كاهن منهم الجزء من الجسد المقدَّس الذي أرسله الأسقف في وسط القربانة التي سيقدِّس عليها، ثم يضع هذا الجزء نفسه بعد ذلك في الكأس، وبعد انتهاء الصَّلوات يتناوله هو أولاً. ولذلك فقد سُمي هذا الجزء "إسباديقون" أي "الذي للسيِّد"، والمقصود بالسيِّد هنا الأسقف. وقد توقَّفت هذه الممارسة نظراً لانتشار الكنائس على مساحات كبيرة وازدياد عدد المؤمنين، إلاَّ أن هذا الجزء الأوسط من القربانة ظلَّ حتى اليوم يحمل نفس الاسم القديم despotikon (ديسبوتيكون) أي "الذي للسيِّد"، وهو ما عُرِّب إلى كلمة "إسباديقون".

أمَّا عادة أن الأسقف وحده هو الذي يقدِّس القرابين، فنقرأها في كتاب "رئاسة الكهنوت" المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي في شرحه للقدَّاس الإلهي، وهو كتاب يعود إلى القرن الخامس الميلادي، حيث يقول

بأن رئيس الكهنة أو المقدِّم بين القسوس هو وحده الذي يتولى تقريب الإفخارستيَّا، ويقف في وسط المائدة، ويتلو الصَّلوات اللِّيتورجيَّة، ويحف به القسوس والشَّمامسة.

وهو نفس ما يذكره من قبل الكتاب الثَّامن من كتب المراسيم الرَّسوليَّة Apostolic Constitutions في مستهل قدَّاس الإفخارستيَّا فيقول: "ليحضر الشَّمامسة القرابين للأسقف عند المذبح، وليقف القسوس عن يمينه ويساره كتلاميذ قيام حول المعلِّم" (٨:١٢:٣).

إلاَّ أن كنائس الطَّقس اليوناني مع محافظتها على القدَّاس الواحد في اليوم الواحد، وفي المحفل الواحد، قد اصطلحت على أن يشترك قسوس الكنيسة الواحدة معاً في القدَّاس الواحد، حيث يرتدون كلهم الثِّياب الكهنوتيَّة، ويشتركون في تلاوة الصَّلوات اللِّيتورجيَّة سراً بينما يجهر بها المقدِّم فيهم وحده علناً.

كما اصطلح السِّريان الأنطاكيين أيضاً على أن يقف القسوس على المذابح الجانبيَّة، وأمام كل واحد منهم القرابين موضوعة على المذبح، ويقوم الرَّئيس في وسط المذبح الكبير ويتلو الصَّلوات علناً، وهم يتبعونه في تلاوتها سراً.

ولا يُعرف متى دخلت هاتان العادتان السَّابق ذكرهما إلى الكنيسة اليونانيَّة والكنيسة السِّريانيَّة[١٥].

١٥- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ١٣٣، ١٣٤

الإفخارستيّا ذبيحة شكر للآب بواسطة ابنه يسوع المسيح

إن اللّيتورجيّات القديمة التي تفرّعت عنها ليتورجيّات متعدّدة في الكنيسة الجامعة هي في مضمون صلواها تخاطب الله الآب، مقدّمة له الشُّكر بواسطة ابنه يسوع المسيح. وتنهج ليتورجيّة القدّيس مرقس الرّسول في الكنيسة القبطيّة والتي نعرفها باسم "القدّاس الكيرلسي"، هذا النّهج. ومثلها ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّبّ، وهما أقدم ليتورجيّتين في الشّرق المسيحي.

وفي ذلك يقول العلاّمة المصري أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م):

[إن التّقدمة ينبغي أن تكون على وجه العموم باسم الله ضابط الكل بواسطة يسوع المسيح، وذلك على قدر ما أن المسيح هو مساوٍ للآب في الألوهيّة. وبذلك لا تكون هناك تقدمة مزدوجة، بل تقدمة واحدة لله بواسطة الله].

إن القدّاس المرقسي في تقليد الكنيسة القبطيّة يشرح بكل إبداع وجلاء هذه العقيدة السّامية، وهي عقيدة وساطة الرّبّ يسوع في تقديم الذّبيحة. فمثلاً تقول إحدى الصّلوات اللّيتورجيّة لهذا القدّاس:

"قدوسٌ ربّ الصّباؤوت، السّماء والأرض مملوءتان من مجدك المقدّس أيها الرّبّ إلهنا. بالحقيقة السّماء والأرض مملوءتان من مجدك المقدّس من قِبَل ابنك الوحيد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا وملكنا كلّنا يسوع المسيح ...".

هنا يتّضح أن السّماء والأرض مملوءة من مجد الآب من قِبَل ابنه يسوع المسيح.

وفي موضع سابق من نفس اللّيتورجيّة يقول الكاهن:

"أنت هو الذي خلق الإنسان كصورتك وكشبهك. وخلقت كل الأشياء بحكمتك، نورك الحقيقي ابنك الوحيد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا وملكنا كلّنا يسوع المسيح هذا الذي من قبله نشكر ونقرِّب لك معه ... هذه الذّبيحة، وهذه الخدمة غير الدَّمويَّة".

إذاً فالذّبيحة مقدَّمة للآب من قِبَل ابنه الوحيد يسوع المسيح ومعه.

ويعلّق العالم كوكن Coquin بقوله: "إن إفخارستيَّة مار مرقس تصر على تفخيم دور الوساطة التي يقوم بها الرَّب يسوع، مؤكّدة على أنه ينبغي أن يكون موضع إعلان وشهادة ... إننا في الواقع لا نقابل مثل هذا الحذق في أي قدّاس شرقي آخر"[١٦].

وفي موضع لاحق من ليتورجيَّة مار مرقس الرَّسول (القدَّاس الكيرلسي)، يقول: "فالآن يا الله الآب ضابط الكل، فيما نحن نبشّر بموت ابنك الوحيد ... يسوع المسيح ... ونعترف بقيامته المقدَّسة وصعوده ... وجلوسه عن يمينك ... وننتظر ظهوره الثَّاني ... ليدين المسكونة بالعدل ... وضعنا أمام مجدك القدُّوس قرابينك مما لك يا أبانا القدُّوس".

ونجد هذا الاتجاه الفكري في إبراز وساطة الرَّب يسوع في الخليقة والخلاص والذّبيحة أيضاً في قدَّاس القدِّيس باسيليوس القبطي المستخدم في كنيسة الإسكندريَّة والذي يورد النُّصوص التَّالية:

"الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس هدمته بالظُّهور المحيي الذي لابنك الوحيد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح".

"هذا الذي خلقت الكل به ما يُرى وما لا يُرى".

---

١٦ ـ الأب متى المسكين، الإفخارستيَّا والقدَّاس، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٥٨٩.

"في آخر الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظُّلمة وظلال المـوت بابنك الوحيد ربّنا وإلهنا وتخلّصنا بسوع المسيح".

"ففيما نحن أيضاً نصنع ذكر آلامه المقدّسـة ... وقيامتـه ... وصعوده ... وجلوسه عن يمينك أيها الآب، وظهوره الثّاني ... نقـرّب لك قرابينك من الذي لك ...".

هذا الاتجاه العقائدي الذي يبرز أهمّيّة وساطة الابن في الخليقـة وفي تقديم الذّبيحة كما هو واضح في قدّاس مار مرقس الرَّسـول والقـدّاس المصري للقدّيس باسيليوس، هو في الواقع تقليد عتيق للغاية نقـرأ عنـه كثيراً جداً في كتابات الآباء. ومثال لذلك ما يقوله العلاّمة أوريجانوس:

[... وعلى ذلك فنحن نعبد - بكل قوانا - الله الواحـد وابنه الوحيد الكلمة - صـورة الله - وذلـك بالصّلوات والتّضرعات، مقدّمين توسلاتنا لله خالق العالم بواسطة ابنـه الوحيد. نقدّمها أولاً للابن متضرّعين إليـه بصـفته كفـارة لخطايانا، وكاهناً عظيماً كي يقدّم ذبائحنا واشتياقاتنا وصلواتنا إلى الله العلي][١٧].

وقدّاس القدّيس سرابيون أسقف تمويس في القرن الرابـع الميلادي وصديق البابا أثناسيوس الرسولي، يصير فيه استحالة الخبـز والخمـر إلى جسد ودم الابن الكلمة بحلول اللّوغوس نفسه على القرابين. فيقول نص هذا القدّاس المصري الأصيل:

"يا إله الحق، فليأت كلمتك القدّوس على هذا الخبز، لكي يصير الخبز جسد الكلمة. وعلى هذه الكأس، لكي يصير الكأس دم الحق. واجعلـه

١٧ـ نفس المرجع.

دواء الحياة، لكي يتناول منه كل المشتركين شفاءً لكل مرض ...''[١٨].

وإن وساطة الأقنوم الثّاني من الثّالوث في تحويل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه الأقدسين لازلنا نمارسها حتى اليوم في طقس تقديم الحَمَل حين يصلي الكاهن في نهايته صلاة سريّة للابن تُسمى ''صلاة التّقدمة''، وفيها يخاطب الكاهن السيِّد الرَّب يسوع المسيح قائلاً: ''أظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس ... باركهما، قدّسهما، طهّرهما وانقلهما، لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدَّس، والمزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم ...''.

وعقيدة وساطة الرَّب يسوع في تقديم الذّبيحة نجدها أيضاً متأصِّلة في تقليد الكنيسة الأنطاكيَّة. ففي الكتاب الثّامن من المراسيم الرسوليّة (النّصف الثّاني من القرن الرّابع) نقرأ نصاً ليتورجياً في غاية الأهميَّة يصلّيه الأسقف فيقول: ''لنتوسَّل من أجل القربان الذي نقدّمه للرَّب إلهنا، لكي يقبله الله الصّالح بتوسُّط مسيحه على مذبحه السَّماوي رائحة طيبة[١٩]''. (المراسيم الرّسوليّة ٨:١٣:٣)

فحين نقرّب الذّبيحة كل يوم، نعترف كل مرّة أننا نفعل ذلك بواسطة المسيح، وأنه بسبب تقديمه لذاته من أجلنا، ولسكناه فينا، هو الذي يقرّب أبداً الذّبيحة التي قدّمها مرّة وإلى دهر الدّاهرين. نحن نعلم أننا عندما نقدّم حياتنا لله إنما نقرّب المسيح لأنه حياتنا وحياة العالم.

---

١٨ ـ النّص مترجم عن اليونانيّة مباشرة من كتاب العالم برايتمان:
F.E. Brightman, *The Sacramentary of Serapion of Thmuis*, The Journal of Theological Studies, Vol. I, London, 1900, p. 66. 88-113 , 247-277.

١٩ ـ أفسس ٥:٢؛ خروج ٢٩:١٨

وفي الطّقس البيزنطي هناك صلاة تخاطب الابن تقول: "أنت هو المقرِّب والمقرَّب والقابل والموزِّع، أيها المسيح إلهنا ...". فالمسيح هو الذي يقرِّب القربان، وهذا القربان هو ذبيحة نفسه التي قرّبها مرّة والتي ما زال يقرّبها وحده.

وهو نفس ما نقرأه في صلاة الحجاب في النّص اليوناني للقدّاس الغريغوري القبطي، والذي نشره العالم رنودوت E. **Renaudot**، وهي غير موجودة في النّص القبطي الذي بين أيدينا، حيث نقرأ ما يلي: "... لأنك أنت المقدِّس والمقدَّس، المقدِّم والمقدَّم، القابل والمقبول، المعطِي والمُوَزَّع".

Σὺ γὰρ εἶ ἁγιάζων καὶ ἁγιαζόμενος· προσφέρων τε καὶ προσφερόμενος· ὁ δεχόμενος καὶ δεκτός· ὁ διδοὺς καὶ διαδιδόμενος·

فالكاهن لا يقدر على إتمام خدمته اللّيتورجيّة بكهنوته الذّاتي بل بكهنوت المسيح الذي يخدمه. لأنه ليس كهنوتاً آخر غير كهنوت المسيح، هذا هو الكاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. والكاهن في كنيسة العهد الجديد يبرهن بذلك على عدم انفصاله عن الجماعة قط، بل ويؤكّد وحدته معها، لأن المسيح مات من أجل الكنيسة وليس من أجل نفسه.

الفَصل الثّاني

متى تُقام الإفخارستيًّا؟

سؤال: في أي يوم من أيام الأسبوع تُقام الإفخارستيّا؟

إنه سؤال تصعب إجابته إن رغبنا أن تكون الإجابة قاطعة. فالأمر البديهي هو أن إقامة الإفخارستيّا تكون في يوم الأحد، لأنه يوم الرَّب الذي صار بداية الخليقة الجديدة بقيامة ربّنا من بين الأموات. ومن ثمّ صار يوماً متميّزاً بين أيام الأسبوع.

ولكن تاريخ الطّقس يحكي لنا أن يوم السَّبت والذي كان يحمل ظلاً للرّاحة الحقيقيّة في السَّبت الأبدي في ملكوت الله، والذي كان بشأنه وصايا واضحة في العهد القديم، قد ثار حوله جدل واسع في الكنيسة المسيحيّة الشّرقيّة من جهة، والكنيسة المسيحيّة الغربيّة من جهة أخرى، وأحياناً بين آباء من الكنيسة الواحدة وبعضهم البعض.

فالوصيّة الثّالثة من الوصايا العشر «اذكر يوم السَّبت لتقدّسه ... لأنّ في ستّة أيام صنع الرَّب السّماء والأرض والبحر وكل ما فيها. واستراح في اليوم السّابع. لذلك بارك الرَّب يوم السَّبت وقدّسه» (خروج ٢٠: ٨، ١٦). هي إشارة واضحة إلى مباركة الرَّب ليوم السَّبت. ثم تتكرّر الوصيّة مرّة أخرى «احفظ يوم السَّبت لتقدّسه كما أوصاك الرَّب إلهك» (تثنية ٥: ١٢). ولكن بعد قيامة الرَّب من بين الأموات في يوم الأحد، وقد صار هو يوم الرّاحة الحقيقيّة وسبت الله الأبدي، فهل حلّ يوم الأحد محل السَّبت بصفة مطلقة؟ أم احتفظ يوم الأحد بكرامته دون أن يفقد السَّبت أيضاً هذه الكرامة القديمة؟ هذا ما أودُ أن أوضّحه في السُّطور القادمة.

في القرنين الأوّل والثّاني للميلاد

نعرف من الرّسالة الأولى للقدّيس بولس الرّسول إلى أهل كورنثوس(١) أن الاجتماع الإفخارستيّ في أصوله المبكّرة جدًا كان في المساء، بدون أن توضّح الرّسالة في نصّها اليوناني واللاتيني مساء أي يوم تقصد. أمّا النّص السّرياني لها فيسمي مساء هذا اليوم "يوم الرّب"(٢).

ونجد في سفر أعمال الرُّسُل أن الكنيسة الأولى في أورشليم - وقد نشأت في وسط يهودي - بدأت منذ الوهلة الأولى في تكريم وتقديس يوم الأحد كعيد جديد باعتباره يوم القيامة. وصار يُعرف باسم "يوم الرّب(٣)"، أو "أوّل الأسبوع".

ويوضّح سفر أعمال الرُّسُل أن اجتماع المؤمنين في ترواس(٤) لإقامة الإفخارستيّا كان يوم الأحد مساء، والّذي يدعوه السِّفر "أوّل الأسبوع"، وقد حضر الرّسول بولس هذا المحفل وألقى فيه خطاباً امتد إلى نصف اللّيل. فنقرأ: «وفي أوّل الأسبوع(٥) إذ كان التّلاميذ مجتمعين لكسر الخبز، خاطبهم بولس وهو مزمع أن يمضي في الغد، وأطال الكلام إلى نصف اللّيل ...» (أعمال ٢٠:٧). ومن ذلك يتّضح أن الآباء الرُّسُل قد استبدلوا يوم السّبت بيوم الأحد لتقديس يوم الرّب وتقديم الإفخارستيّا.

وعبارة «كسر الخبز» هي الاصطلاح الأقدم للإفخارستيّا في سفر أعمال الرُّسُل، وعند بولس الرّسول أيضاً. فبعد الشّبع من الكلام الإلهي

١- ١كورنثوس ١١:١٧- الخ
٢- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ١٢٨، ١٢٩
٣- رؤيا ١:١٠
٤- هي نفسها مدينة طروادة القديمة.
٥- أوّل الأسبوع هو يوم الأحد، لأن السّبت هو اليوم السّابع أو يوم الرّاحة في نهاية الأسبوع.

الخلو، كَسَرَ الرَّسول الخبز ووزَّع عليهم، وأتوا بالفتى حياً. إنها حادثة قيامة من الموت مع تقديم إفخارستيًّا في أوَّل الأسبوع وهو يوم أحد القيامة.

واضح هنا ارتباط الإفخارستيًّا بيوم الأحد، ثم ارتباط الإفخارستيًّا بالقيامة وروح القيامة. فالإفخارستيًّا هي سر القيامة، ولذلك هي سر يوم الأحد، أحد القيامة.

ولكن التَّحوُّل من السَّبت إلى الأحد لم يكن بصورة كاملة وقاطعة، إذ استمرَّت بعض جماعات من المسيحيِّين من أصل يهودي غير قادرين على الاستغناء كليَّة عن مراعاة تكريم يوم السَّبت، يوم الرَّاحة القديم، متمسِّكين بشريعة السَّبت[٦]، بينما تحرَّر منها كثيرٌ من المسيحيِّين من أصل أممي معتبرين السَّبت رمزاً ليوم الأحد فحسب.

وفي عصر الآباء الرَّسوليِّين يتكرَّر ذكر يوم الأحد كيوم وحيد للاحتفال بالإفخارستيًّا. ففي كتاب الدِّيداخي (تعليم الرُّسُل) والذي دوِّن في أواخر القرن الأول المسيحي نقرأ: "عند اجتماعكم يوم الرَّب، اكسروا الخبز واشكروا بعد أن تكونوا اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة" (ديداخي ١:١٤). وفي رسالة برنابا[٧] نقرأ: "نعيِّد اليوم الثَّامن بفرح، اليوم الذي قام فيه المسيح من بين الأموات وظهر

٦ـ نقرأ في أحد الأناجيل المزوَّرة وهو "إنجيل توما" وهو من مدوَّنات القرن الثاني: "يقول يسوع: من لا يصوم عن العالم لن يجد ملكوت الله. وإن لم تحتفلوا بيوم السَّبت فلن تشاهدوا الآب" (إنجيل توما ٢٧).

٧ـ يُظن أن تاريخ كتابتها هو سنة ١٣٠ ميلاديَّة. ويرى بعض علماء اللِّيتورجيًّا أن كاتب الرِّسالة هو أحد معلِّمي كنيسة الإسكندريَّة، وهو ما يفسِّر الاحترام الذي حظيت به الرِّسالة في التَّقليد الإسكندري، والانتشار الواسع الذي لقيته في مصر، إضافة إلى تأثُّرها بالفكر الإسكندري فلسفيا ولاهوتيا، مما يرجِّح أن تكون الإسكندريَّة هي مكان كتابتها.

وصعد إلى السَّماء" (رسالة برنابا ٩:١٥).

وإن جئنا إلى بداية القرن الثَّاني الميلادي، نجد أن النُّصوص الواردة إلينا منه توضِّح أن إقامة الإفخارستيَّا كانت تجري في يوم الأحد قبل الفجر، أي أن الاجتماع المسائي فيه لتقديس الإفخارستيَّا قد تحوَّل إلى الصَّباح الباكر. ففي إحدى الرَّسائل التي بعثها بليني الصَّغير إلى الإمبراطور تراجان سنة ١١٢م نقرأ فيها وصفاً مسهباً عن اجتماعات المسيحيِّين في ذاك الوقت، جاء فيها:

"... يجتمع هؤلاء المسيحيُّون في يوم معيَّن قبيل الفجر، وينشدون الأناشيد للمسيح إلههم. وفي المساء يتناولون طعاماً وضيعاً غريباً ... إنك لا تجد مدينة أو قرية حقيرة لم يدخلها هذا المذهب، بيد أن كهنة الآلهة يتذمَّرون، والهياكل تقفر، وباعة لحم الذَّبائح كسدت سوقهم"(٨).

وفي موضع آخر يقول بليني الصَّغير في نفس رسالته السَّابقة عمَّا كان يدور في اجتماعات هؤلاء المسيحيِّين:

"اعتادوا أن يجتمعوا في يوم محدَّد قبل الفجر، فينشدون نشيداً للمسيح كونه إلهاً. ويلتزمون بقسم بعضهم لبعض، لا باقتراف إثم ما، بل بألاَّ يأتوا سرقة، ولا فتنة، ولا زناء، وألاَّ يحنثوا بالوعد، وألاَّ ينكروا الوديعة عندما يطالبون بها. وبعد إتمام هذه الأمور كانت لهم عادة أن يفترقوا ثم يجتمعوا من جديد لتناول الطَّعام، ولكنه طعام مألوف بريء. غير أنهم قد عدلوا عن هذه الممارسة بعد مرسومي الذي حرَّمت فيه كل اجتماع سياسي بمقتضى أوامرك".

وهكذا شاع الاحتفال بتقديس يوم الأحد فقط حتى بين الكثير من

8- Baciocchi, J., *L'Eucharistie*, Belgium, Desclée, 1964, p. 26.

المسيحيّين من أصل يهودي الذين لم يتمسّكوا بتكريم يوم السّـبت. وفي ذلك يقول القدّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥- ١٠٧م)[٩]:

[... فإن المحافظين على النُظُم العتيقة قد اعتنقوا الرّجاء الجديد، ولم يعودوا يعيّدون السّبت، ولكنـهم يعيشـون بمقتضى يوم الرّب الذي فيه أشرقت حياتنا بموته].

وهناك أيضاً شهادة من القرن الثّاني الميلادي نسمعها من القـدّيس يوستينوس الشّهيد (١٠٠ – ١٦٥م) في دفاعه الأوّل (٦٧: ٣-٧) بها تفصيلات أكثر من تلك التي أوردها بليني الصّغير.

فيقول الشّهيد يوستينوس:

[في اليوم المدعو يوم الشّمس[١٠] (يوم الأحد) يقام اجتماع في مكان واحد لجميع السّاكنين في المدن والأرياف. وتقرأ من تفاسير الرُسُل وكتب الأنبياء على قدر ما يتّسـع الوقـت. وعندما ينتهي القارئ يلقى المترئس عظة ينبّه ويحث على السّير في ضوء تلك التّعاليم الحسنة. بعد ذلك نقف جميعاً، ونرفـع الصّلوات. ومتى ختمنا صلاتنا، كما أسلفنا، يُقدّم خبز ومـاء، فيرفع المترئس صلوات وتشكُرات على قدر ما يستطيع. ويجيـب الشّعب قائلاً: آمين. ثم توزّع القرابين على المشـتركين واحـداً فواحداً. ويُرسَل منها على يد الشّمامسة إلى الغائبين][١١].

٩- الرّسالة إلى مغنيسيا ٩: ١-٢

١٠- يذكر ميخائيل الكبير البطريرك السّرياني الأنطاكي في تاريخه (ميمر ٧ ف ١) عن سلبسترس الحبر الرّوماني أنه هو الذي استبدل أسماء أيام الأسبوع الوثنيّة، فـدعا يوم الشّمس بيوم الأحد، ويوم القمر بيوم الاثنين ... الخ.

11- Burmester, O.H.E., Khs., *The Canonicl Houres of the Coptic Church*, in Orientalia christiana periodica (OCP), t. 2, 1936 , p. 80, 81.

ثم أن يوستينوس الشّهيد في حواره مع تريفو اليهودي أظهر عدم جدوى الاحتفال بيوم السّبت وحفظه في العهد الجديد مبيّناً عدم جدوى تمييزه عن بقية أيام الأسبوع.

إذاً ففي القرنين الأوّل والثّاني تركّز الاحتفال بالإفخارستيّا تقريباً – ولاسيّما في الشّرق – في يوم الأحد دون سواه من أيام الأسبوع. ولكن لم يكن الأمر بهذه البساطة المطلقة، وبهذا الاتفاق العام، لأنه لم تكن نظرة كل المسيحيين من أصل أممي إلى السّبت كرمز قد عتق وشاخ، بل إننا نلحظ من قول للعلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) أنه في الكنيسة الغربيّة، وكنائس شمال أفريقيا، كانت تقام الصّلوات في بعض الكنائس في يوم السّبت. فيقول العلاّمة ترتليان(١٢):

[فيما يتعلّق بالسُّجود، هناك من يبلبلون الصّلاة بممارسة مختلفة فيمتنعون عن السُّجود في السّبت، وهذا الاختلاف يسبّب مشكلة كُبرى للكنائس].

إلاّ أنه يعود فيمنع الصّوم في السُّبوت باستثناء سبت الفصح.

في القرون الثّالث والرّابع والخامس للميلاد

في هذه القرون الثّلاثة – وربما جانب من القرن السّادس أيضاً – نجد عودة غريبة إلى الاهتمام بالسّبت والاحتفال به بإقامة الإفخارستيّا فيه مثل يوم الأحد.

فيقول العلاّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) بصراحة:

[إن الاحتفال الثّاني المفروض بعد الاحتفال بالذُّبيحة الدّائمة هو ذبيحة السّبت. فعلى كل القدّيسين والأبرار أن

١٢- في الصّلاة ٢٣:١-٢

يراعوا الاحتفال بالسَّبت أيضاً] (عظة على سفر العدد ٢٣: ٤)(١٣).

ولم يعبر العلاّمة أوريجانوس على ذلك الأمر ببساطة، ولكنه تعرَّض فيه للشَّرح والتَّفسير، فيقول:

[واضح من الكُتُب الإلهيَّة أن المن أُعطي على الأرض لأوَّل مرَّة في يوم الرَّب، لأنه إذا كان قد جُمع - كما يقول الكتاب - في ستة أيام متتالية، وانقطع في اليوم السَّابع الذي هو السَّبت، فقد كان بدؤه بغير شك في اليوم الأوَّل الذي هو يوم الرَّب. فإذا ثبت من الكُتُب الإلهيَّة أن الله يمطر المن في يوم الأحد، ولم يمطر في السَّبت، فليفهم اليهود أن يوم الرَّب عندنا هو أفضل من السَّبت اليهودي لأنه تبيَّن أن نعمة الله لم تنزل عليهم من السَّماء في يوم سبتهم ولا أتاهم الخبز السَّماوي الذي هو كلام الله ... أما في يوم الرَّب عندنا، فالرَّب يمطر دوماً المن من السَّماء ...](١٤).

هنا يتَّضح أمامنا أن الموضوع لم يكن بالبساطة التي كنَّا نتوقَّعها في الإجابة على السؤال المطروح في البداية.

أما كتاب "الدّسقوليَّة" أي تعاليم الرُّسُل (٢:٢-٣) - وهو يشرح لنا التَّقليد الأنطاكي - فحين يتحدَّث عن إقامة الإفخارستيَّا في يوم الأحد، لم يغفل الحديث عن إقامتها في يوم السَّبت أيضاً إلى جانب يوم الأحد كعيدين أسبوعيين يقام فيهما الاحتفال الإفخارستيّ. ففي الأوَّل -

---

١٣- سلسلة أقدم النُّصوص المسيحيَّة، السَّبت والأحد في تقليد الكنيسة، تعريب الأخت مارسيل هدايا، الكسليك، ١٩٨٢م، ص ٣٩

١٤- عظة على سفر الخروج ٧: ٥. انظر السَّبت والأحد في تقليد الكنيسة، مرجع سابق، ص ١١٧

أي السَّبت - يكون الاجتماع تذكاراً لتدبير الخليقـــة. وفي الثَّـــاني أي الأحد يكون تذكار تدبير الفداء وتحقيق القيامة.

فعن يوم الأحد تقول الدّسقوليَّة:

"في يوم الرَّب اتركوا كل شيء واهرعوا معاً إلى الكنيسة، لأنـــه أي عذر سيرفع إلى الله من لا يجتمع في مثل ذلك اليوم ليسمع كلمة الخلاص ويغتذي بالقوت الإلهي الباقي إلى الأبد".

وعن يوم السَّبت تقول:

"وأما السَّبت والأحد فعيِّدوا فيهما، لأن الأوَّل منهما هـــو ذكـــر الخليقة والآخر للقيامة" (١٩:٣٦).

وتقول في موضع آخر:

"والواجب عليكم بالأحرى في السَّبت ويوم القيامة الذي هو الأحد أن تحضروا إلى الكنيسة بحرص عظيم كثير، لترسلوا إلى العلو المجد إلى الله الذي خلق كل شيء من قِبَل يسوع المسيح. هذا الذي تكون فيه قراءات الأنبياء وبشارة الإنجيل، وقدّاس الصَّعيدة، وموهبـــة الطَّعـــام المقـــدَّس" (١٠:٥٣-٥٤؛ ٢٧:٢-٣).

إلاَّ أن الدّسقوليَّة عندما تقارن بين السَّبت والأحد، فإنها تكرِّم الأحد على السَّبت، داعية إياه يوم الرَّب، وعيد القيامة. (٩، ٨:٣٧)

أما في مصر، ومن سيرة البابا أثناسيوس الرَّســولي (٣٢٨- ٣٧٣م) نعرف أنه كان يصير تحضير للشَّركة استعداداً لإقامة القــدَّاس الإلهـــي بالسَّهر طوال اللَّيل لقدَّاسي السَّبت والأحد. أي أن إقامة القدَّاس الإلهي في القرن الرَّابع الميلادي وفي زمن البابا أثناسيوس الرَّســولي في كنيســـة الإسكندريَّة كان يتم في يومي السَّبت والأحد.

ونعرف أيضاً من القانون رقم ١٦ لمجمع اللاذقيّة (٣٤٣-٣٨١م) والتّعقيب عليه من علماء القانون الكنسي، أن إقامة القدّاس الإلهي كانت تتم في يوم السّبت كما في يوم الأحد تماماً، باستثناء واحد هو عدم الانقطاع عن العمل في يوم السّبت. فيقول القانون:

"يجب أن تُقرأ الأناجيل يوم السّبت مع غيرها من الكُتُب".

فيشرح نياندر هذا القانون قائلاً: "جرت العادة في عدّة أنحاء من الكنيسة القديمة أن يعتبر كل يوم سبت عيداً، تذكاراً للخليقة. ويُظن أن بعض المسيحيّين من أصل يهودي كانوا لا يقرأون في ذلك اليوم إلاّ من العهد القديم. ولهذا وُضع هذا القانون لكي يُتلى الإنجيل يوم السّبت كما يُتلى في سائر الأيام".

ويقول فان اسبن Van Spin : "كان الشّرقيون يحفظون السّبت كما يحفظون يوم الرّب تماماً ما عدا الانقطاع عن العمل، لأنهم كانوا يشتغلون أيام السُّبوت. ولذلك يطلب المجمع أن يُقرأ الإنجيل يوم السّبت كما يُقرأ يوم الأحد بعد الفصول الأخرى من الكُتُب المقدّسة"(١٥).

وتأكيداً لإقامة الإفخارستيّا في يومي السّبت والأحد فقط، حتى في زمن الصّوم المقدّس الكبير نفسه، يقول القانون رقم (٤٩) من قوانين مجمع اللاذقيّة (٣٤٣-٣٨١م): "لا يجوز تقديم الخبز في أيام الصّوم الكبير فيما عدا السّبت ويوم الرّب(١٦)".

بل إن أعياد القدّيسين التي تقع في أيام الصّوم المقدّس الكبير لا

١٥- حنانيا كسّاب، مجموعة الشّرع الكنسي، منشورات النور، ١٩٧٥م.

١٦- هيفيليه: سن مجمع ترولو قانوناً شبيهاً بهذا وهو القانون رقم (٥٢) لأن أيام الصّوم الكبير هي أيام توبة وحزن فلا يرون من المناسب إقامة القدّاس، لأن تقديس القربان هو عمل مفرح. ويقول برسيفال: يجب أن نضيف إلى أيام السُّبوت والآحاد التي ذكرها هيفيليه عيد بشارة العذراء، فهو عيد عظيم يُحتفل به بإقامة القدّاس.

يُحتفل بها سوى في هذين اليومين فقط، أي السَّبت والأحد. فيقول القانون رقم (٥١) لنفس المجمع المذكور: "لا تجوز إقامة أعياد ميلاد الشُّهداء في الصَّوم الكبير. أما تذكاراتهم فتقام أيام السُّبوت والآحاد[١٧]".

واستمرت الكنيسة الشَّرقيَّة تحفظ هذا التَّقليد على الدَّوام حتى بعد أن صارت القدَّاسات تُقام في أيام الصَّوم الكبير في أزمنة لاحقة. فيقول القس أبو البركات شمس الرِّئاسة (+ ١٣٢٤م) قس كنيسة العذراء المعلَّقة: "لا يجب في الأربعين أن نعيِّد أيام الشُّهداء، بل يكون تذكار الشُّهداء يوم السَّبت والأحد"[١٨]. ولذلك درجت الكنيسة في الشَّرق عموماً على عدم قراءة السِّنكسار في قدَّاسات أيام الصَّوم، مكتفية بقراءته في سبوت وآحاد الصَّوم فقط.

ويقول البابا تيموثاوس (٣٨١-٣٨٨م) البطريرك الـ ٢٣ من بطاركة كنيسة الإسكندريَّة في إجابته على سؤال رقم (١٣): "ويتم التَّناول من الأسرار في يوم السَّبت مثل يوم الأحد تماماً، **وهما اليومان الوحيدان اللَّذان** تقدَّم فيهما الذَّبيحة الرُّوحانيَّة للرَّب في مدينة الإسكندريَّة"[١٩].

ويؤيِّد ذلك كاسيان (٣٦٠-٤٣٥م) فيقول: "في عموم أديرة مصر وكل الوجه القبلي، لا توجد اجتماعات للكنيسة خلاف السَّبت والأحد، وعشيَّة وباكر لجميع الأيام. وفي يوم السَّبت ويوم الأحد

١٧ـ لأن تذكارات الشُّهداء والقدِّيسين يُحتفل بها بإقامة القدَّاس الإلهي، وطبقاً للقانون ٤٩ في هذا المجمع، لا تُقام قداسات في أيام الصَّوم الكبير باستثناء السبوت والآحاد.

١٨ـ الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٨

19- Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP, 2, p. 80, 81.

يجتمعون السّاعة الثّالثة (التّاسعة صباحاً) لإقامة القدّاس".

ويؤيّد قول كاسيان السّابق ذكره ما ذكره بفنوتيوس في كتابه "تاريخ رهبان صحراء مصر"، فيقول: إن شخصاً يُدعى سيليوسيوس Pseleusius علم من راهبين صديقين كانا يعيشان سابقاً في أسوان أنهما اعتادا الذّهاب سوياً في عشيّة وباكر كل يوم إلى الكنيسة لسماع الكُتُب المقدّسة التي كانت تُقرأ وفصولاً من الإنجيل(٢٠).

وفي موضع آخر يقول بفنوتيوس إن نفس الرُّهبان الذين سكنوا واد صغير منسوب إلى سيليوسيوس Pseleusius اعتادوا الصُّعود إلى الجبل (أي الخروج إلى الصّحراء) كي يجتمعوا مع الإخوة في السّبت والأحد(٢١).

وفي قوانين الرُّسُل القبطيّة(٢٢): "ليعمل العبيد خمسة أيام، وليتفرّغوا للكنيسة يومي السّبت والأحد، ليتعلّموا خدمة الله، لأن الله استراح يوم السبت لمّا كمّل كل الخليقة. أما يوم الأحد، فهو يوم الرّب" (٢:٦٥:١).

وتأكيداً على أهميّة يوم السّبت إلى جانب يوم الأحد يقول الكتاب الثّاني من قوانين الرُّسُل القبطيّة: "أي واحد من الإكليروس يصوم الأحد، أو السّبت، ما خلا السّبت الكبير الذي للبصخة، فليُقطع. وإن كان هو علمانياً فليُفرّق". وهو نفسه القانون رقم (٦٤) طبقاً لتقليد الكنيسة البيزنطيّة.

20- Budge, E.A.T.W., *Miscellaneous Coptic Text in the Dialect of Upper Egypt*, London, 1915, p. 437.

21- Budge, E.A.T.W., *op. cit.*, p. 441-442. Cf. Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP, 2, p. 82.

٢٢- وهي قوانين موضوعة في مصر في غضون القرن الخامس الميلادي بحسب رأي العالم المدقق جريجوري دكس Gregory Dix (١٩٠١-١٩٥٢م).

أما القانون ٩٣ من قوانين البابا أثناسيوس بطريـرك الإسـكندريَّة، وهي القوانين المدوَّنة في نهاية القرن الخامس، فيقول: "لا يكسل أحد من الكهنة والمسيحيِّين عن القدَّاسات في السَّبت والأحد ومن بعد ما يسـرِّحوا القدَّاس فليهتم كل واحد بشغل يديه".

وهو ما يتكرَّر ذكره في القانون ٤٩ من نفس هذه القـوانين: "... فإن كانت صنعة تعوق الكاهن وقت القدَّاس وتمنعه أن يأتي إلى الكنيسـة السَّبت والأحد، ويتأخَّر حتى يُقرأ المزمور، فلا يُعطى له خبز من الأنصبة".

مما سبق يتَّضح لنا أن عادة إقامة القدَّاسات في يومي السَّبت والأحد من كل أسبوع في الشَّرق المسيحي قد بدأت تُعرف في القـرن الثَّالـث الميلادي، ثم صارت عادة شائعة في القرن الرَّابع الميلادي، وامتدت حـتى غطَّت القرن الخامس بكامله. وهكذا يبدو أمامنا أن القرن الرَّابع الميلادي قد شهد عودة غريبة إلى تقديس يوم السَّبت إذ بدأت بعض الجماعات المسيحيَّة تحتفل بالإفخارستيَّا يوم السَّبت، بل وتفرض فيه البطالة عن العمل(٢٣).

ولم يكن الأمر بالاحتفال الإفخارستي يومي السَّبت والأحد في هذه الفترة قاصراً على كنائس المدن فحسب، بل قد نهجت الأديرة القبطيَّـة أيضاً نفس النَّهج. فيقرِّر إيفلين وايـت H.G. Evelyn White أن أديـرة الإسقيط كانت تحتفل بالإفخارستيَّا في يومي السَّبت والأحـد(٢٤). وفي دير طبانسين يجتمع الرُّهبان في يومي السَّبت والأحد لإقامة الإفخارستيَّا. إلاَّ أنه يبدو أن بعض الأديرة في صعيد مصر لم تكن تقيم الإفخارسـتيَّا

٢٣- بدليل القانون رقم ١٦ الذي وضعه مجمع اللاذقيَّة والسَّابق ذكره، لكي يبطل هذه العادة التي أخذت في الانتشار.

24- Cf. Ugo Zanetti, *Les lectionaires coptes annuels, basse Egypte*, Louvain, 1985, p. 134.

سوى يوم الأحد فقط، مثل جماعة أنطنوي الذين كانوا يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد للاشتراك في الإفخارستيّا(٢٥).

ولقد أوضح الأب يعقوب مويزر Jacob Muyser في بحث مطوّل له أن السُبوت كانت تكرّم بوجه خاص في الكنيسة القبطيّة، وخصوصاً عندما يُحتفل فيها بإقامة الإفخارستيّا(٢٦).

وقد لاقى تيار الرُجوع إلى تكريم يوم السَّبت مقاومة عنيفة من بعض آباء الكنيسة في تلك الحقبة، سواء في الشَّرق - وإن كان بقدر ضئيل - أو في الغرب على وجه الخصوص.

فالقدّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) يقول:

[لا ترتد إلى اليهوديّة، لأن المسيح قد حرّرك نهائياً، امتنع عن كل ممارسة للسُبوت ...](٢٧).

أما في الغرب فإن يوم السَّبت لا يُراعى إطلاقاً كيوم راحة قديم. فيقول القدّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م):

[إما أن نكون مسيحيين فنحفظ يوم الأحد أو نكون يهوداً فنحفظ السَّبت. فالسَّبت مثل الختان وغيره من العوائد والطُقوس اليهوديّة التي انتهت. قد بطل](٢٨).

بل تمادى الغرب في عدم اعتبار يوم السَّبت كيوم تذكار لراحة الله

25- Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP, 2, p. 78-80.

26- J. Muyser, *Le samedi et dimanche dans l'Eglise et la littérature copte*, dans Togo Mina, Le martyre d'Apa Epima, Le Caire, 1937, 89-111 ; Cf. Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 134.

٢٧ـ أنبا ساويرس أسقف الأشمونين، الدُر الثَّمين في إيضاح الدِّين، إصدار مدارس التربية الكنسيّة بكنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بطوسون - شبرا، ١٩٨٧م، ص ٦٠

٢٨ـ قاموس الآثار المسيحيّة، الجزء الثاني، ص ١٨٢٥

في القديم، فلم يمنع إقامة الإفخارستيّا فيه فحسب، بل وجعله أيضاً يوم صوم في فترة الصَّوم المقدَّس الكبير، تذكاراً لموت المسيح وراحته في القبر[٢٩]. من هذا نفهم لماذا وضع مجمع ترولو سنة ٦٩٢م قانونه رقم (٥٥) الذي يقول: "إذ قد فهمنا أنهم في مدينة روما يصومون في الصَّوم الكبير أيام السُّبوت خلافاً للتَّرتيب الكنسي التَّقليدي، فقد لاح للمجمع أنه يجب أن يراعى هذا القانون في روما، وهو أن كل من وُجد صائما يوم أحد أو يوم سبت - ما عدا السَّبت الواحد الكبير - فليسقط إن كان إكليريكياً وليُقطع إن كان عامياً".

أما البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) فكان يعلِّل إقامة الليتورجيّا في يوم السَّبت بقوله:

[نحن نجتمع يوم السَّبت لا كأننا متأثّرون بالسَّبت اليهودي، بل لكي نعبد يسوع رب السَّبت].

ويشرح البابا أثناسيوس الرَّسولي سبب انتهاء الهدف من السَّبت الذي راعاه اليهود فيقول:

[بعد أن خلق الله الخلق الأوَّل استراح، لذا كان أهل ذلك الجيل يحفظون السَّبت في اليوم السَّابع. أما الخلق الثَّاني فلا نهاية له. لذا ما استراح بعد، بل هو يعمل حتى الآن. وهكذا نحن لا نراعي يوم السَّبت كما في الخلق الأوَّل، ولكننا نرجو السُّبوت الآتية حيث الخلق الجديد لا نهاية له، بل سيعلن ويُحتفل به إلى الأبد. فإنما أعطي السَّبت للشَّعب الأوَّل ليعرف نهاية الخلق الأوَّل وبدء الثَّاني ...][٣٠].

29- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 191.

٣٠- انظر السَّبت والأحد في تقليد الكنيسة، ص ٦٠، ٦١

وهكذا شهدت القرون الثّلاثة – الثّالث والرّابع والخامس للميلاد، وربما جانب من القرن السّادس – إقامة الإفخارستيّا في يومي السّبت والأحد سواء في كنائس المدن أو في كنائس الأديرة.

إلاّ أن السّياق المتسلسل والسّابق شرحه يعترضه قول المؤرّخ الكنسي سقراط (٣٨٠- ٤٥٠م) الّذي يقول: "ورغم أن الكنائس في العالم كله تحتفل بالأسرار المقدّسة في أيام السّبوت من كل أسبوع، إلاّ أن المسيحيِّين في الإسكندريّة وروما وبتقليد قديم لا يفعلون ذلك"[٣١]. وهنا تكتنف إجابة السؤال المطروح منذ البداية صعوبة جمّة. إذ كيف يمكننا أن نوفّق بين ما يقوله سقراط المؤرّخ، وبين ما سبقه من شواهد كثيرة تخالف شهادته؟ ولاسيّما أن قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة في نهاية القرن الخامس لا تتوافق مع شهادة سقراط.

لقد حاول العالم موسنا C.S. Mosna أن يفك طلاسم هذا اللّغز المحيِّر، فيقول[٣٢] إنه كان هناك نظامان للاحتفال بالإفخارستيّا في مصر مختلفين عن بعضهما. وهما نظام مدينة الإسكندريّة، ونظام باقي مدن مصر الأخرى. فالإسكندريّة لم تكن تحتفل بالإفخارستيّا سوى في يوم الأحد فقط، بينما باقي بلاد القطر المصري – باستثناء بعض المناطق المجاورة للإسكندريّة – كانت تحتفل بالإفخارستيّا في يومي السّبت والأحد. وعن هذا النّظام الأخير أشارت قوانين البابا أثناسيوس والتي هي بالتأكيد ذات أصل مصري، وهذا يكفينا، لأنها إن كانت تعود إلى

٣١- تاريخ الكنيسة ٥:٢٢

٣٢- وذلك في كتابه بالإيطاليّة: "تاريخ يوم الأحد من البداية حتى نهاية القرن الخامس الميلادي".

C.S. Mosna, *Storia della Domenica dalle origini fino agli inizi del V secolo*, Rome, 1969.

رئيس الأساقفة العظيم هذا[٣٣]، فقد صار يلزم أن تُفسَّر على أنها قوانين تتكلّم عن كل القطر المصري، لا أن تركّز اهتمامها على تلك المدينة الأسقفيّة فحسب[٣٤].

مما سبق هو شرح واف لعلاقة الذّبيحة المقدّسة بيومي السّبت والأحد. أما عن يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع فقد تباينت الطُّقوس المختلفة بشأنهما. فكان الاجتماع الكنسي في رومية والإسكندريّة في هذين اليومين قاصراً على قراءة فصول الكتاب المقدّس والصّلاة. أما في كنائس أنطاكية وأورشليم وكنائس شمال أفريقيا، فكان يُحتفل فيهما بإقامة الإفخارستيّا.

ويشرح المؤرِّخ سقراط (٣٨٠- ٤٥٠م) الطَّقس القديم ليومي الأربعاء والجمعة في كنيسة الإسكندريّة فيقول: إنه "يمتاز بالتّطويل الكثير في القراءات والتّسبيح والوعظ حتى يغطُّوا مدّة الاجتماع. ولكن بدون إقامة ذبيحة أو تناول. ولكي يملأوا الوقت كانت تُزاد العبادات والأبصلموديّة" (سقراط: ٥:٢٢)

وأما من جهة كنائس شمال أفريقيا، فيذكر العلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) عنها أنها لم تكن تلتزم بيومي السّبت والأحد فقط في إقامة الإفخارستيّا، بل تضيف إليهما إقامة القدّاسات يومي الأربعاء والجمعة أيضاً[٣٥].

ويذكر القدّيس كبريانوس الشّهيد (+ ٢٨٥م) أسقف قرطاجنه في كنيسة شمال أفريقيا، في رسالته رقم (١٠٤) أن الأساقفة في كنائس شمال

٣٣- يقصد البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) البطريرك العشرون.

34- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 135.

٣٥- ترتليان: الدّفاع ٥ ؛ الإكليل ٤ ؛ التوبة ١٢

أفريقيا كانوا يقدِّسون كل يوم ليشدِّدوا عزائم المؤمنين على احتمال العذابات من أجل اسم المسيح فيقول:

[احتهدوا أن تجتمعوا معاً كثيراً وباستمرار لتقديم الإفخارستيَّا وتمجيد الله].

أمَّا إقامة القدَّاسات في يومي الأربعاء والجمعة إلى جانب السُّبوت والآحاد، في كنيسة أنطاكية ومعها كنيسة القسطنطينيَّة، فهو ما يخبرنا به القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م)، والقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م)، والقدِّيس إبيفانيوس أسقف قبرص (٣١٥- ٤٠٣م).

فواضح مما سبق ذكره أن يومي الأربعاء والجمعة كان لهما وضع خاص في الكنيسة منذ القرون الأولى سواء باعتبارهما يومي السِّيناكسيس الصَّغير في كنيسة الإسكندريَّة وروما أو السِّيناكسيس الكبير في كنائس أورشليم وسوريا وشمال أفريقيا.

أما كتاب "الدِّيداخي" أي "تعليم الرُّسُل"، وهو من مدوَّنات أواخر القرن الأوَّل الميلادي فهو أقدم إشارة وثائقيَّة عن صوم يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، فيقول: "لا تقيموا أصوامكم مع المرائين، فإنهم يصومون في اليوم الثّاني والخامس من الأسبوع، أما أنتم فصوموا اليوم الرَّابع ويوم الاستعداد". ومعروف أن يوم الاستعداد هو يوم الجمعة[٣٦].

كما ورد ذكر هذين اليومين أيضاً في كتاب راعي هرماس (رؤيا ٥:٦)، ثم ذكرهما بعد ذلك العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-

---

٣٦- شرحتُ ذلك الموضوع بتفصيل في كتاب "معموديَّة الماء والرُّوح" فارجع إليه إن شئت.

٢١٥م) في كتابه "المتنوعات ١٢:٧"، كما ذكرها كتاب "التّقليد الرّسولي" هيبوليتس الذي دُوِّن قبل سنة ٢٣٥م. وذكرهما أيضاً العلاّمة المصري أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) في عظة له على سفر اللاويين (٢:١٠). وكذلك العلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)[٣٧].

وبرغم الوضع الكنسي الخاص ليومي الأربعاء والجمعة، إلاّ أن كنيسة الإسكندريّة ظلّت تحفظ إقامة الإفخارستيّا في يومي السّبت والأحد فقط. بل قد حفظت هذه العادة القديمة حتى في فترة الصّوم المقدّس الكبير. فتقليد الكنيسة الشّرقيّة القديم يمنع الاحتفال بالإفخارستيّا في أيام الصّوم المقدّس الكبير باستثناء الطّقس الآشوري بين كافة الطُّقوس الشّرقيّة الذي وقف مغايراً لهذا التّقليد القديم[٣٨]. وهو نفس ما اتبعته كنيسة ميلان. أما بقايا هذه الممارسة في الطّقس الأمبروزي (طقس ميلان) فنجدها في رسائل البولس التي تُقرأ في سبوت الصّوم المقدّس، إذ تحمل سمة خاصة تميّزها عن رسائل البولس لباقي أيام الأسبوع[٣٩].

وظلّت عادة إقامة الإفخارستيّا في السّبت والأحد فقط دون بقيّة أيام الأسبوع في الصّوم المقدّس الكبير محفوظة حتى اليوم في الكنيسة السُّريانيّة والكنيسة البيزنطيّة.

وسرعان ما اتّجهت كنيسة روما خصوصاً وكنائس الغرب عموماً بإقامة الإفخارستيّا كل يوم من أيام الأسبوع، كما كانت تفعل كنائس شمال أفريقيا. فيشهد القدّيس جيروم[٤٠] (٣٤٢-٤٢٠م) أن كنائس روما

37- *De junx.* 74.
38- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 192.
39- *Ibid*, p. 192.

٤٠- في رسالته رقم (٢٨) إلى لوقيانوس.

وأسبانيا كانت تقيم ذبيحة القدّاس كل يوم. وصرَّح القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلان قائلاً(٤١):

[إننا نقرِّب القُربان يومياً].

وهكذا يخبرنا القدّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) عن تباين واضح في الممارسة اللّيتورجيّة في الكنائس المختلفة، فيقول:

[كان الاشتراك في جسد الرَّب ودمه يومياً. والبعض الآخر كانوا يتناولونه في أيام ثابتة. وفي جهات معيَّنة لا يمر يوم دون الاحتفال به. وفي أماكن أخرى لا يُحتفل به سوى في السُّبوت والآحاد. وفي أماكن غيرها في الآحاد فقط].

ثم يعقّب القدّيس أغسطينوس على قوله السَّابق بأن الأفضل هو إتّباع عادة المكان الذي يوجد فيه الإنسان، وهي نفس النَّصيحة التي أسداها القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) سابقاً للقدِّيسة مونيكا أم القدِّيس أغسطينوس.

في القرن السَّادس للميلاد وما يليه

لقد أمكننا حتى الآن - وبصعوبة - تتبُّع يوم إقامة الإفخارستيّا في مصر حتى نهاية القرن الخامس الميلادي وربما أوائل السَّادس الميلادي أيضاً، إلاّ أن إبهاماً وغموضاً شديدين يكتنفان مواصلة البحث في هذا الموضوع في القرون التَّالية ولاسيَّما القرن السَّابع وما يليه وهي فترة دخول العرب مصر.

إن المفاجأة الكبرى التي نفاجأ بها هي أننا لا نجد ولو إشارة واحدة

٤١- في تفسيره لرسالة العبرانيين.

لأي احتفال إفخارستي يُقام يوم السَّبت في الكتابات القبطيَّة[٤٢] التي تغطي القرون من السَّادس حتى التَّاسع للميلاد.

أما الكتابات العربيَّة في مصر والتي بدأت تظهر مع القرن العاشر للميلاد، فنجد فيها إشارة للاحتفال بالإفخارستيَّا يوم السَّبت كما في يوم الأحد، وذلك في كتابات أنبا ساويرس أسقف الأشمونين في القرن العاشر. فيخبرنا هذا الأسقف العالم عن عادة إقامة القدَّاسات في يوم السَّبت كما في يوم الأحد في الصوم المقدَّس الكبير، فيقول:

[... لأن السَّبت شبه يوم الأحد في البركة والتَّقديس. والواجب على الإنسان أن يجتهد في تناول القربان فيه كل الأزمان مثل يوم الأحد، ولاسيَّما في الصَّوم الكبير ... ونحن نفطر فيه في الصَّوم الكبير بالأكل والشُّرب، ونفرح فيه ونعيِّد مثل يوم الأحد. لأن الصَّوم حزن والفطر فرح. فيوم السَّبت يوم بركة وتقديس مع الزَّمان. فيلزم جميع المؤمنين، الرِّجال والنِّساء، أن يجتهدوا في تناول القربان فيه، ويحفظوا نفوسهم فيه مثل يوم الأحد][٤٣].

وهناك إشارة أخرى عن إقامة القدَّاس يوم السَّبت تأتينا في زمن البابا كيرلس الثَّاني (١٠٧٨ـ ١٠٩٢م)، حيث نقرأ: "فخرجوا (أي الأساقفة) من عنده (أي من عند الأجل الأفضل ابن أمير الجيوش) مسرورين ونزلوا كلهم إلى بيعة القدِّيس أبو مرقوره المذكورة وقدَّسوا في ذلك اليوم السَّبت

٤٢ـ وأعني بها تحديداً الكتابات القبطيَّة البحتة، وليس الكتابات القبطيَّة المترجمة عن أصول يونانيَّة. ولقد صدر بمعونة الرَّب "فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة، الكتابات القبطيَّة". وهو برقم (١/٧). ضمن السُّلسلة الأولى من الدُّرَّة الطَّقسيَّة. فصار مكملاً لفهرس الكتابات اليونانيَّة الذي صدر برقم (١/٦).

٤٣ـ أنبا ساويرس أسقف الأشمونين، الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٨٠

والأحد غده، وكان لهم يومين عظيمين لم يُسمع بمثلهما ...»(٤٤).

وهذه الإشارات عن إقامة قدّاس يوم السَّبت لا تعني عودة تكريم يوم السَّبت مرَّةً أخرى كما كان الأمر في كنيسة الإسكندريَّة في القرنين الرَّابع والخامس للميلاد، حين كانت الإفخارستيَّا تُقام في هذين اليومين فحسب. لأن إقامة الإفخارستيَّا في يوم السَّبت بعد القرن العاشر الميلادي هي حديث عارض نعرف منه فقط أنه كان يمكن إقامة القدَّاس فيه كأي يوم آخر من أيام الأسبوع، ولكن ليس بصفة إلزاميَّة. وذلك لعدة أسباب أوردها فيما يلي:

السَّبب الأوَّل: هو أن أنبا ساويرس بن المقفع له مقال طويل في "بيان فضل يوم الأحد"(٤٥) يشرح فيه أهميَّة حفظ يوم الأحد، وخطيئة من يتأخَّر عن الكنيسة في هذا اليوم، دون أن يتطرَّق للحديث - ولو بإشارة عابرة في هذا المقال - عن قدَّاس يوم السَّبت.

السَّبب الثَّاني: أنه في هذه الفترة كانت القدَّاسات في مصر تُقام كل يوم من أيام الأسبوع(٤٦)، فلم يكن يوم السَّبت يحتل مكانته القديمة المتميِّزة، بل صار معتبراً كأحد أيام الأسبوع السِّتة الأخرى، باستثناء يوم الأحد الذي صار هو يوم الرَّب، واليوم الأساسي والإلزامي في إقامة الإفخارستيَّا. أما حديث أنبا ساويرس عنه فكان لعلاج مشكلة قائمة في

٤٤- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، مطبوعات جمعية الآثار القبطية: المجلد الثاني، الجزء الثالث، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٥٩م.

٤٥- أنبا ساويرس أسقف الأشمونين، الدر الثمين في إيضاح الدين، مرجع سابق، ص ١٤٣-١٥٧

٤٦- نفس المرجع، ص ١٧٦

زمانه، ليست موضع بحثنا الآن(٤٧).

السَّبب الثَّالث: هو أن البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م) البطريرك الـ ٦٦ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة، والذي وضع عدَّة قوانين تختص بدقائق الأمور الطَّقسيَّة في الكنيسة القبطيَّة في هذه الفترة لم يشر إلى إقامة قدَّاس يوم السَّبت، بل على العكس فهو يذكر في أحد قوانينه ما يلي: "لا يجوز لأحد المؤمنين أن يصوم يوم السَّبت إلاَّ السَّبت الواحد في كل سنة وهو السَّبت الكبير الذي هو آخر الصَّوم" (القانون رقم ٢٠). وهذا القانون ما كان يتم التَّركيز عليه في هذا الوقت لولا ملاحظة هذا البابا البطريرك انتشار عادة صوم يوم السَّبت مما استوجب قانوناً لمنعها. والصَّوم في هذا اليوم لا يوافقه إقامة قدَّاسات فيه، لأنه لو كانت هناك قدَّاسات يوم السَّبت كعادة مستقرَّة في هذه الفترة لما كان هناك من داع لقانون يمنع الصَّوم يوم السَّبت.

ومن جهة أخرى فقد خلت كل كتابات وقوانين بطاركة الكنيسة القبطيَّة في العصور الوسطى من الحديث عن إقامة الإفخارستيَّا يوم السَّبت، مثل البابا غبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١- ١١٤٥م)، وأنبا بطرس الجميل، والبابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥- ١٢٤٣م) وحتى البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م).

وحتى كتاب "الطِّب الرُّوحاني" لميخائيل أسقف مليج لم يورد أي

٤٧- تتلخَّص هذه المشكلة في أن البعض قد علَّموا أن الصَّوم ليس هو الامتناع عن الأكل والشُّرب، بل الامتناع عن معاشرة الزَّوجة. فصاروا يمتنعون عن زوجاتهم في أيام الصَّوم الكبير عدا ليلة السَّبت والأحد ظانين أن السَّبت والأحد لا يُحسبان من الأربعين المقدَّسة. لذلك تحدَّث أنبا ساويرس عن كرامة السَّبت إلى جانب كرامة الأحد أيضاً في الصَّوم المقدَّس الكبير.

إشارة تختص بالاحتفال بالإفخارستيّا في يوم السّبت(٤٨).

بل إننا نجد في القرن الثّالث عشر أن التّركيز قد انصبّ مرّة أخرى على تكريم يوم الأحد فقط بدون الالتفات إلى تكريم يوم السّبت أيضاً. فيوحنا بن السّباع في كتابه "الجوهرة النّفيسة في علوم الكنيسة" يؤكّد على حفظ وصيّة يوم الأحد في عموم الكنائس في مصر والحبشة والنّوبة والخمس مدن الغربيّة، إذ قد شرّف الله يوم الأحد على باقي أيام الأسبوع كما كان السّبت في الشّريعة القديمة(٤٩).

ولكن يتبقي لدينا نصّ أشار إليه الأب يعقوب مويزر Jacob Muyzer قد أثار اعتراضاً، إذ نقرأ في القوانين التي جمعها الصّفي ابن العسّال في منتصف القرن الثّالث عشر، أن الذّبيحة تُرفع كل أسبوع في الأحد والأربعاء والجمعة والسّبت وفي أيام الأعياد.

والإجابة الوحيدة الممكنة هنا – بحسب رأي الأب يعقوب مويزر – هي أن ابن العسّال قد نقل قوانين سابقة على زمانه من هنا وهناك، وهذا وحده هو ما يمكن أن نفسّر به هذا التّفرُّد الذي انفرد به هذا القانون في الإشارة للاحتفال الإفخارستي يوم السّبت إلى جانب يوم الأحد.

وفي الحقيقة فإن الأمر لا يحتاج إلى اجتهاد كبير لتفسير ما أورده ابن العسّال، لأنه في هذه العصور الوسطى قد صارت إقامة القدّاسات في أيام السّبوت أو عدم إقامتها أمراً عادياً كأي يوم آخر من أيام الأسبوع التي شاع فيها إقامة القدّاسات في هذا الوقت. أما مجال بحثنا الذي لازلنا به

48- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 238.

٤٩ – يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، كتاب الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، حققه ونقله إلى اللاتينية الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، مؤلفات المركز الفرنسيسكاني للدّراسات الشّرقيّة المسيحيّة، القاهرة، ١٩٦٦م، الباب ٩٩

فهو لزوم إقامة الإفخارستيّا في يوم السَّبت تماماً كلزوم إقامتها في يوم الأحد كما حدث في القرنين الرَّابع والخامس للميلاد.

وهكذا عاد التَّقليد القبطي رويداً رويداً إلى الاحتفال الإلزامي بيوم الأحد بإقامة الإفخارستيّا فيه دون إهمال السَّبت إهمالاً كلياً، ولكن بدون التَّركيز عليه كيوم تالٍ في الأهميَّة والكرامة ليوم الأحد. فيمكن أن تقام الإفخارستيّا فيه ولكنها في الغالب لا تقام.

والآن أريد أن ألخِّص ما سبق أن ذكرته لكي لا يتوه القارئ العزيز في تفرعّات كثيرة اكتنفت جوانب البحث. والخلاصة هي:

أُقيمت الإفخارستيّا في الثَّلاثة قرون الأولى في الشَّرق عموماً وفي مصر خصوصاً في يوم الأحد فقط في الغالب؛ ثم ظهر في القرن الثَّالث دعوة للاحتفال بالإفخارستيّا في يوم السَّبت لتكريمه إلى جانب يوم الأحد، وانتشرت هذه العادة في القرن الرَّابع الميلادي انتشاراً واسعاً، وامتدت لتغطي القرن الخامس وربما جانباً من السَّادس أيضاً. وبعد ذلك تذبذب الوضع بين الاحتفال بإقامة الإفخارستيّا يوم السَّبت أو عدم الاحتفال بها، واكتُفي بإقامتها إلزامياً في يوم الأحد فقط، طبعاً إلى جانب الاحتفال الإفخارستي بالأعياد السَّيديَّة، إلى جانب أعياد العذراء التي ظهرت في الكنيسة بعد مجمع أفسس المسكوني الثَّالث سنة ٤٣١م، إلى جانب أعياد السَّمائيين والشُّهداء والقدِّيسين.

أما المفاجأة التَّالية - والتي لا يغفلها الدَّارسون - فهي وجود عدد كبير من القطمارسات القبطيَّة والعربيَّة المخطوطة والمحفوظة في مكتبات ومتاحف العالم، والتي يحوي بعضها قراءات للسُّبوت والآحاد جنباً إلى جنب. وكل منها يُسمى "قطمارس السُّبوت والآحاد". حيث نجد قراءات السَّبت سابقة مباشرة على قراءة الأحد الذي يليه. فكيف إذاً

توفّق بين وجود قراءات تختصّ بالسُّبوت بالذّات إلى جوار الآحاد، ولاسيَّما قد أشرتُ للتّو إلى توقف قدّاسات السُّبوت منذ حدود القرن السّابع وما يليه؟.

لقد فحص الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti 246 قطمارس سنوي للكنيسة القبطيَّة فحصاً دقيقاً وهي قطمارسات مخطوطة بالقبطيَّة البحيريَّة واللُّغة العربيَّة منتشرة في أنحاء العالم، إلاَّ أن أقدمها لا يعود لما قبل سنة ١٠٠٠م.

وهناك أربعون أسبوعاً في السَّنة الطّقسيَّة - باستثناء سبوت وآحاد الصَّوم المقدَّس الكبير والخمسين المقدَّسة - توجد فيها قراءات للسُّبوت والآحاد[٥٠]، لأن حدود شهري برمهات وبرمودة، والأسبوعان الأوليان من شهر بشنس تقع كلها في فترة الصَّوم المقدَّس الكبير وفي الخمسين المقدَّسة.

فمثلاً يوجد قطمارس محفوظ الآن بالمتحف القبطي يعود تاريخه إلى سنة ١٢٥٧م[٥١]، يحوي قراءات للسُّبوت والآحاد والأعياد. وقطمارس قبطي آخر في نفس المتحف يعود إلى القرن الحادي عشر[٥٢] يحوي قراءات السُّبوت والآحاد والأعياد. وهو من بين القطمارسات التي نقلها إيفلين وايت H.G. Evelyn White من دير القدّيس أنبا مقار إلى المتحف القبطي. بالإضافة إلى قطمارسات أخرى بنفس المتحف.

أما مكتبة البطريركيَّة بالقاهرة فيوجد بها قطمارس مخطوط يعود إلى

٥٠ـ وهي أربعة حدود لكل من السّتة شهور الأولى (توت - أمشير)، ثم للثلاثة شهور الأخيرة (بؤونة، أبيب، مسرى). ثم حدان لشهر بشنس، وأحد واحد للنسيء. فيكون المجموع ٣٩ أسبوعاً. ثم الأحد الخامس إن وُجد في أي شهر من الشّهور.

٥١ـ وهو برقم Bible 93

٥٢ـ وهو برقم Lit 360

ابن أبو المنصور، وكان قد أكمله في شهر مسرى سنة ٨٩٠ للشُّهداء (١١٧٤م)(٥٣)، وهو لقراءات السُّبوت والآحاد. وقد ورد به العنوان التَّالي: "نبتدئ بمعونة الرَّب وحسن توفيقه بترجمة دلاَّل ما يُقرأ من الفصول التي يجب قراءتها في السُّبوت والحدود للسَّنة جميعها".

وهناك أيضاً دلاَّل عربي لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد محفوظ في مكتبة دير القدِّيس أنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر، ويعود تاريخه إلى سنة ١٢٨٤م(٥٤). إلى جانب دلاَّلات أخرى كثيرة واردة من دير القدِّيس يحنس القصير بالإسقيط، ودير القدِّيس مرقوريوس بشهران قرب القاهرة، وأخرى مجهولة المنشأ.

ويلاحظ القارئ العزيز هنا تعبير "الأيام والسُّبوت والآحاد"، فقراءات السُّبوت محسوبة أنها قراءات مستقلَّة تتبع قراءات الآحاد. مما يعني أن قراءات يوم السَّبت غير محسوبة ضمن قراءات أيام الأسبوع العاديَّة. وهناك عدد من مثل نوعية هذا القطمارس الذي يحوي قراءات "الأيام والسُّبوت والآحاد"، منتشرة في مكتبات لندن وهامبورج وغيرهما.

وظلَّت مثل هذه النَّوعيَّة من القطمارسات تُنسخ حتى القرن الثَّامن عشر الميلادي، مثل قطمارس قبطي عربي لشهر بؤونة يحوي قراءات السُّبوت والآحاد(٥٥). وهو المخطوط الذي نسخه روفائيل الطُّوخي R. Tuki ونشره في روما.

كما أن هناك أيضاً دلاَّلات وقطمارسات أخرى كثيرة لقراءات

٥٣ـ وهو برقم Bible 196

٥٤ـ وهو برقم Canon. Ori. 129

٥٥ـ وهو تحت رقم Borgia Copt. 75

"السُّبوت والآحاد والأعياد"[٥٦].

ويتّضح من دراسة كثير من القطمارسات والدلاّلات أن السّتة شهور الأولى من السّنة تكون غالباً صحيحة وكاملة. وأن القطمارسات التي تحوي قراءات السُّبوت قليلة. وغالبية الدّلاّلات لا تحوي قراءات للمزامير. فضلاً عن أنه من النّادر جداً أن نجد مخطوطين يتّفقان على اختيار فصول القراءات[٥٧].

ومن بين هذا الكم من القطمارسات والدّلاّلات لا يوجد سوى ٧ مخطوطات فقط تحوي قراءات خاصة بالأحد الخامس[٥٨]، وهناك تباين كبير فيما بينها بخصوص فصول القراءات في المخطوطات المختلفة[٥٩]. أما عن السّبت الخامس فهناك مخطوط واحد فقط يحوي قراءات السّبت الخامس، ويعود إلى القرن الثّامن عشر[٦٠]، وهو مجهول المنشأ[٦١].

أمّا القس أبو البركات بن كبر (+ ١٣٢٤م) فقد أورد "دلاّل ما يجب قراءته في أيام السّنة القبطيّة من الأناجيل المقدّسة والفصول المرتّبة في الأعياد والسُّبوت والحدود (وصوم نينوى) والصّوم المقدّس والخمسين وجمعة الآلام الشّريفة"[٦٢]. وفي نهاية فصول أيام كل شهر قبطي يذكر

56- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 139, 289.

57- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 143.

٥٨ ـ ومن بينها مخطوط رقم 1321 Oriental بالمكتبة البريطانيّة يعود إلى سنة ١٣٤٧م، ويحوي قراءات فصول الأحد الخامس إذا وقع في السّتة شهور الأولى، وقراءات أخرى له إذا وقع في السّتة شهور الأخيرة.

59- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 152.

٦٠ ـ محفوظ الآن بمكتبة الفاتيكان تحت رقم Copt. 95

٦١ ـ وهو مخطوط بحالة سيئة، لا يحوي مزامير وأناجيل رفع بخور عشيّة، أما أناجيل باكر فترد فيه بدون تسجيل الشّواهد الكتابيّة. والثلاث رسائل مختصرة إلى ثلاث آيات لكلٍ منها. ولم يبق سليماً من القراءات سوى مزامير وأناجيل القدّاس.

٦٢ ـ الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس. وهو "كتاب

"سبوت وحدود شهر كذا"، حيث يورد خمسة سبوت وخمسة حدود لكل شهر قبطي.

ومما سبق ذكره يتّضح لنا أن النّاسخ القبطي ظلّ ينسخ بغزارة(٦٣) القطمارسات والدّلالات القديمة التي تقع تحت يديه بغض النّظر عن ترتيب فصول قراءاتها، واختلاف فصول القراءات بين دلال وآخر، وبين قطمارس وآخر. ولكنها - وهو ما يعنينا الآن - كانت تفرد قراءات خاصة بالسُّبوت، حتى بعد أن بطل تقليد إقامة القدّاس في السُّبوت إلى جانب القدّاس الإلزامي في الآحاد. بل وحتى بعد أن صارت القدّاسات تقام كل يوم من أيام الأسبوع تقريباً عدا يوم السَّبت غالباً. وهو ما يوضّح قِدَم هذه القطمارسات والدّلالات المخطوطة والتي يلزم بالضّرورة أن تعود إلى ما قبل القرن العاشر الميلادي على أقل تقدير.

وفي النهاية، يلخّص المطران مار ثاؤفيلس جورج صليبا مطران جبل لبنان للسّريان الأرثوذكس الأمر كله بقوله:

"فرضت تعاليم الرُّسُل (الدّسقوليّة) والمجامع الرّسوليّة والتّقاليد الكنسيّة أن تُقدّم الذّبيحة الإلهيّة في قدّاس خاصٍ كل يوم أحد، لأنه يوم الرَّب، وبكر الأعياد ... وصار القدّاس فيه إلزامياً.

ومع انتشار المسيحيّة بدأت الكنائس بترتيب طقوسها بالاحتفال بالذّبيحة الإلهيّة وتقديم القرابين في مناسبات أخرى مضافة إلى الأحد، مثل الأعياد السّيديّة، وأعياد السّيّدة العذراء والقدّيسين والشُّهداء في أي

مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ٢٢

٦٣ - يندهش العالم كيتز Kunze من غزارة القطمارسات والدلالات التي ينسخها الأقباط، فيقول: إن مصر التي هي بلد الأهرامات والحضارة والنّيل، قد حازت دلالات كثيرة على عكس ما في سوريا (Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 61).

يوم وقع في الأسبوع. وأضافت أيام السبت من الصيام الأربعيني المقدّس ليحتفل بها في القدّاس الإلهي إلى جانب الأحد أيضاً. وخصّصت في بعض المناطق يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع لتقدم الذبيحة الإلهيّة أيضاً.

فيما ذهبت الكنائس في الغرب وبحسب التقليد اللاتيني إلى وجوب القدّاس يومياً. وفرضت ذلك على الكهنة خاصة.

أما في التقليد السرياني فقد حافظت كنيستنا على نظام الكنيسة القديم بوجوب القدّاس في الآحاد والأعياد السيديّة وتذكارات وأعياد العذراء والدة الإله والشهداء والقدّيسين مع يومي الأربعاء والجمعة في بعض الإيبارشيّات ..."[٦٤].

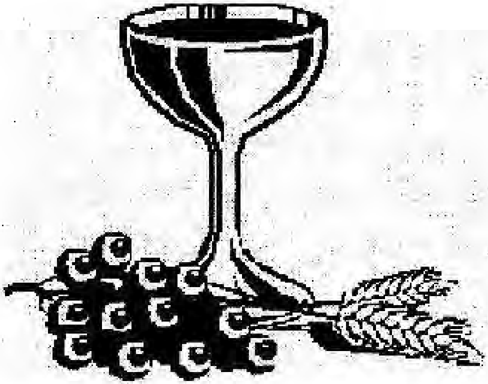

٦٤ـ المجلة البطريركيّة، السنة ٣٢، كانون أول ١٩٩٤م، ص ٥٣١

الفَصل الثّالث

البنية الأوليَّة لقدَّاس الإفخارستيَّا

تمهيد

في هذا الفصل أُشير إلى أمرين هامَّين بخصوص شكل القدَّاس الإلهي وبنيته الأوليَّة أو الأساسيَّة. الأمر الأوَّل هو البحث في الهيكل العام للقدَّاس الإلهي في القرن الأوَّل الميلادي. والأمر الثَّاني هو شكل قدَّاس الإفخارستيًّا قبل مجمع نيقية المسكوني الأوَّل سنة ٣٢٥م.

الهيكل العام لقدَّاس الإفخارستيًّا في القرن الأوَّل الميلادي

لقد كانت خدمة الصَّباح في المجمع اليهودي في السُّبوت من جهة، وكانت الصَّلوات والممارسات الطَّقسيَّة التي تحيط عموماً بأي وليمة يهوديَّة طقسيَّة - وعلى الأخص وليمة الفصح السنويَّة - من جهة أخرى، هما القسمان الرَّئيسيَّان اللَّذان تكوَّن منهما قسمي القدَّاس الإلهي في الكنيسة المسيحيَّة. أي قدَّاس الموعوظين وقدَّاس المؤمنين.

فمن الخدمة الصَّباحيَّة في يوم السَّبت في المجمع اليهودي أخذنا نظام القراءات، والتي أصبحت تشكِّل القسم الأوَّل من القدَّاس، وهو قدَّاس الكلمة. ومن تسابيح الفصح أخذنا صلاة الشُّكر الطَّويلة التي تُصلَّى على الخبز والخمر، والتي أصبحت تشكِّل القسم الثَّاني من القدَّاس وهو قدَّاس المؤمنين. ولكن لم تزل نقطة البداية التي بدأ من عندها القدَّاس الإلهي نموه وتطوُّره هي العشاء الرَّباني الأخير[1].

1- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 43.

أما الصّلوات الإفخارستيّة التي وردت في الدّيداخي فهي ليست إلاّ صيغة بركة يهوديّة على الخبز والخمر، وصلاة شكر بعد الأكل اصطبغت بصبغة مسيحيّة. ولقد كُتب الكثير والكثير جداً في ذلك، ولكن يبدو أنها صلوات وُضعت كإطار لصلوات تُقال على وليمة المحبّة (الأغابي) المسيحيّة، أي في ذلك الاجتماع الذي كان يجمع المسيحيّين في الكنيسة الأولى قبل احتفالهم بإقامة الإفخارستيّا مباشرة. أما صلاة الشُّكر التي كانت تعقب هذه الأغاني المسيحيّة فقد كانت هي المقدّمة للاحتفال السّرائري بالإفخارستيّا. فكانت بذلك هي نقطة البداية التي تطوّرت منها نصوص الأنافورات في الطّقوس والتّقاليد المختلفة(٢).

سنبحث الآن في الشّكل الرُّباعي الأفعال لقدّاس الإفخارستيّا كما كان يُمارس في القرن الأوّل الميلادي. وسأركّز الحديث في المراحل اللّيتورجيّة أو الطّقسيّة لهذا الشّكل الرُّباعي دون الخوض في المعنى اللاهوتي الكامن من ورائها.

فالشّكل الأوّل لقدّاس الإفخارستيّا ينحصر في الأفعال الأربعة الأساسيّة التي تمّمها السيّد الرّب في العشاء الأخير عندما:

- أخذ خبزاً (التّقدمة – Offertory).
- وبارك (التّقديس – Consecration).
- وكسر (القسمة – Fraction).
- وأعطاه (التّناول – Communion).

فكون الإفخارستيّا ملتحمة التحاماً شديداً بالمراحل الطّقسيّة "للعشاء الأخير" الذي أكمله الرّب مع تلاميذه في العليّة في يوم خميس

2- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 46.

العهد، فإن ليتورجيَّة الإفخارستيَّا قد تكوَّنت في هيكلها العام من هـــذه الأفعال الأربعة السَّابق ذكرها.

أمَّا هذه الأفعال الأربعة فقد انتقلت إلينا من العـــادات اليهوديَّـــة، وخصوصاً لما كان يُعرف في اليهوديَّـــة باســـم "عشـــاء الشَّـــابورا - Shabûrah supper" أو "وليمة الشَّابورا - Shabûrah supper".

والآن أشيرُ إلى هذه العناصر الأربعة[٣]:

(١) التَّقدمة: وهي تقديم الخبز والخمر، والذي يمثِّل في شكله الأوَّلي القديم تقدمات الأعضاء كما كانت تُمارس في وليمة الشَّابورا.

(٢) الصَّلاة: والتي تشمل في أساسيَّاتها الحوار الأوَّلي للدَّعوة إلى هذه الوليمة. وهو الحوار المأخوذ أصلاً من البركة Beraka أو الشُّكر الـــذي تُختتم به وليمة الشَّابورا – Shabûrah supper.

(٣) القسمة أو كسر الخبز: وهي مأخوذة من البركة اليهوديَّة الـــتي تسبق جميع الولائم اليهوديَّة.

(٤) التَّناول أو الشَّركة: وهو مأخوذ من توزيع الخبز المكسور منذ البداية، ومن كأس البركة في نهاية عشاء أي شابورا Shabûrah يهوديَّة.

فاللِّيتورجيَّة الإفخارستيَّة قد تكوَّنت ببساطة من هذه الأفعال العاديَّة لأي شابورا يهوديَّة، وبرغم أن هذه الأفعال الأربعة اللِّيتورجيَّة قد أُخذت عن بقايا طقس وليمة الشَّابورا Shabûrah supper إلاَّ أنها قد استقلَّت عنه تماماً لتستمد خلودها وديمومتها الأبديَّة من ممارسة الرَّب لها، فهي أفعال قـــد

3- Gregory Dix, Dom, *The Shape of Liturgy*, London, 1982, p. 103.

أكسبها الرَّب في عشائه الأخير مع تلاميذه معنى جديداً أخروياً سرائرياً.

ومنذ عصر يوستينوس الشَّهيد (١٠٠- ١٦٥م) كانت بعض الكنائس تمارس عناصر أخرى تالية للإفخارستيّا مثل مائدة الأغابي، والتي حوت هي الأخرى هذه الأفعال الأربعة السَّابق ذكرها[٤].

شكل قدّاس الإفخارستيّا قبل مجمع نيقية المسكوني سنة ٣٢٥م

يقع القدّاس قبل النيقاوي في قسمين متميِّزين، هما الاجتماع والشَّركة. وكانا يكونان خدمتين مستقلَّتين وإن تبعت أحدهما الأخرى.

والاجتماع، أي القسم الأوَّل، كان نوعاً من الاستمرار لخدمة المجمع اليهودي في أيام السيِّد المسيح. وقد تكوَّن من فاتحة يقوم بها الرَّئيس، ومن قراءات من العهد القديم، ومن كتابات الرُّسُل والأناجيل والمزامير (التَّرانيم)، وهي عبارة عن تسابيح ترنَّم ثم عظة.

وهكذا كان الاجتماع مباحاً لكل من أراد أن يحضر سواء كان يهودياً أو وثنياً أو أي فضولي. كما أبيح حضور الموعوظين الذين كانوا يستعدُّون لقبول الكنيسة إياهم وتعميدهم وتثبيتهم بالميرون، وذلك لأن واجب الكنيسة بلا شك هو أن تبشِّر بالإنجيل للعالم، وأن تشهد للحق الذي فيه. أما الصَّلاة فهي أمر آخر. ولذلك لم يتيسَّر لمن لم يعتمد بالمسيح ويصير ابناً له أن يحضر الصَّلاة الجماعيَّة.

وهكذا كان محتَّماً على كل من لم يصر بعد مسيحياً أن يخرج بعد العظة. أما الموعوظون الذين قبلوا الإيمان، ولكنهم لم يتَّحدوا بالكنيسة

4- *New Catholic Encyclopedia (N C E)*, vol. 8, p. 910.

بعد بالأسرار، فكانوا ينالون البركة من الأسقف في هدوء. ثم كان الشّمامسة يعلنون: "ليخرج الموعوظون .. لينصرف الموعوظون".

وبعد خروج الموعوظين كان الشّمامسة يعلنون مرّة أخرى "الأبواب، الأبواب"، فيقوم حارسوا الأبواب بغلقها، ويمنعون أي دخول، ولو كان على الباب مؤمناً.

ثم تبدأ صلاة الشُكر أي الإفخارستيّا، حاوية فيها الأفعال الأربعة الأساسيَّة السَّابق الإشارة إليها. والتي إلى جانبها أضافت الكنيسة الأولى التّحيَّة الأوليَّة Preliminary greeting ، والقُبلة، وجُملة ختاميَّة لتسريح الشّعب. وهذا هو كل مضمون الإفخارستيَّا في قدَّاس ما قبل مجمع نيقية.

فيبدأ القدَّاس بالتَّحيَّة اللّيتورجيَّة المتبادلة بين الكاهن والكنيسة وهي: "الرَّب معكم"، ثم يعقبها قُبلة السَّلام. ففي قدَّاس الإفخارستيَّا تكون الكنيسة وحدها مع الله، وغير مختلطة بالعالم الذي يمثله الموعوظون الذين يحضرون قدَّاس الكلمة Synaxis (سيناكسيس) وينصرفون. فيعطي الكاهن السَّلام للكنيسة قائلاً: "سلام لجميعكم"، والتي صارت في سوريا "سلام الله مع جميعكم"، وفي الغرب "سلام الرَّب يكون دائماً معكم"، فتجيب الكنيسة "ومع روحك"(٥).

ثم تكون القُبلة المقدَّسة، وهي القُبلة التي يتبادلها الأسقف مع الإكليروس حول الكرسي الأسقفي في شرقيَّة الهيكل، ويتبادلها أيضاً الشَّعب مع بعضه البعض؛ الرِّجال مع الرِّجال والنِّساء مع النِّساء.

ثم يقوم شمّاس أو أكثر بفرش غطاء أبيض يغطي كل المذبح، وهذا

5- Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 103.

هو الاستعداد بفرش المذبح. وقد ورد ذكر فرش المذبح قبل التّقدمة عند أكثر من كاتب كنسي في العصور المبكّرة(٦).

أمّا الشّرق المسيحي فقد جعل طقس فرش المذبح عند نقطة مبكّرة جداً في اللّيتورجيّا، ولكنه ظلّ في طقس كنيسة روما في مكانه الطّقسي القديم قبل تقديم القرابين مباشرة.

ويجلس الأسقف على الكرسي خلف المذبح أي في الجهة الشّرقيّة منه، وفي مواجهة الشّعب، حيث يكون المذبح بينه وبين الشّعب. ويجلس الكهنة حوله في شكل نصف دائرة. ويحضر كل واحد من الشّعب في مجيئه للكنيسة قليلاً من الخبز، وربما قليلاً من الخمر في قارورة. وأما في روما فكان الأيتام تلاميذ مدرسة الألحان الذين كان البابا يعولهم، فكانوا يقدّمون الماء الذي يُمزج بالخمر في الكأس. وهذه هي التّقدمة.

وحينئذ كان الشّمامسة يحضرون هذه التّقدمات ويرتّبونها فوق المذبح ناحية الشّعب، فينهض الأسقف ويتقدّم قليلاً بضع خطوات إلى المذبح من جهته الشّرقيّة، وعن كل من جانبيه شمّاس، والكهنة محيطون به ومن ورائه. فيقدّم الأسقف هو الآخر قربانه على المذبح من الخبز والخمر أمام كل الشّعب، ولعل الكهنة كانوا يعملون مثله.

وهنا يغسل الأسقف والكهنة أيديهم من إبريق ماء يحمله شمّاس إليهم. إلاّ أن عادة غسل الأيدي في اللّيتورجيّا قد ذُكرت لأوّل مرّة عند القدّيس كيرلس الأورشليمي أسقف أورشليم سنة ٣٤٨م(٧).

6- *E.G.* Optatus of Milevis, *adv. Donatistas*, vi,2 (Africa c. A.D. 360).

٧- من هنا يتّضح لنا أن غسل الأيدي بعد تقديم القرابين وليس قبلها كان هو الأمر الطبيعي التي يقتضيه التسلسل التلقائي للطّقس القديم في تقدمة الخبز والخمر

ولعل غسل الأيدي هو رمز لحالة البر التي يلزم أن يكون عليها من يتقدَّم إلى المذبح، لأنه لو كان الاغتسال من أجل سبب عملي، لغسَل الشَّمامسة أيضاً أيديهم، حيث أنهم هم الذين يلمسون التَّقدمات.

ثم كان الأسقف والقسوس يضعون أيديهم في صمت على القرابين، ثم يصحب ذلك الحوار اللِّيتورجي بين الأسقف والشَّعب، ويتبعه صلاة الإفخارستيَّا التي يصلِّيها الأسقف، والتي تنتهي دائماً بالذُّكصا للآب والابن والرُّوح القُدُس، فيجيب الشَّعب في نهايتها قائلين: "آمين".

ثم يكسر الأسقف بعضاً من الخبز ويتناوله لنفسه، بينما يكسر الشَّمامسة الخبزات الموضوعة على المذبح. والكهنة أيضاً من حول الأسقف يكسرون الخبز الذي يُحمل إليهم في أطباق زجاجيَّة أو في قماش أبيض بواسطة الشَّمامسة، بينما يرتِّل الأسقف صلاة.

ولربما قبل نيقية كان الأسقف يدعو الشَّعب للتَّناول بقوله: "القُدسات للقدِّيسين"، إلاَّ أن هذه العادة قد ذُكرت لأوَّل مرَّة عند القدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م). ولكن ربما كانت الإشارة الأولى إليها بواسطة هيبوليتس الرُّومانى في أوائل القرن الثَّالث الميلادي[٨].

وهنا يبدأ التَّناول أولاً بين الإكليروس وهم واقفون خلف المذبح، ثم يتناول كل الشَّعب أمام المذبح. ولا يسجد أحد أثناء تناول القُدسات[٩]،

والماء، والذي تطوَّر تطوراً كبيراً مع توالي السِّنين، وتغيُّر الظروف. وسوف أعود إلى هذه النقطة مرَّة أخرى بأكثر تفصيل.

٨- وذلك في الفصل الثَّالث من كتابه "البصخة - Pascha"، محذراً فيه أولئك الذين يتقدَّمون بدون قداسة إلى القدسات.

Cf. Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 104, 105.

9- Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 105.

ومع كلمات المناولة التي يقولها الكاهن للمتناول يجيب كل واحد "آمين".

وبعد التَّناول يتم غسل الأواني، ثم ينادي الشمَّاس بتسريح الشَّعب بعبارة موجزة معلناً بها نهاية الاجتماع قائلاً: "امضوا بسلام".

ويأخذ المؤمنون معهم إلى بيوتهم أجزاء من الخبز المقدَّس ليتناولوا منه في بيوتهم في صباح الأيام التي لا يُقام فيها قدَّاس الإفخارستيَّا.

أمَّا الشَّمامسة – بعد القرن الثَّالث الميلادي – فكانوا يحملون أجزاء من الخبز المقدَّس للذين لم يقدروا على حضور قدَّاس الأحد. وشمامسة آخرون – في أزمنة تالية – يحملون أجزاء من الخبز المقدَّس بصلوات الأسقف الإفخارستيَّة ليوضع في الكأس على مذبح كل كنيسة من كنائس إيبارشيَّة الأسقف تذكاراً لشركتهم معه، ومثالاً يشير إلى أن الأسقف هو الكاهن وخادم اللِّيتورجيَّا في كل كنائس إيبارشيَّته، سواء كان حضوره فعلياً في الكنيسة للاحتفال بالإفخارستيَّا مع الشَّعب أم لا.

ولم تتَّخذ اللِّيتورجيَّا شكلاً نهائياً ثابتاً قبل القرن الرَّابع الميلادي(١٠)، إذ حدَّدت المجامع الكنسيَّة في هذا القرن هيكل الشَّكل اللِّيتورجي. ومنذ ذلك التَّاريخ لم يطرأ عليه تغيير جذري برغم ما أُضيف عليه من تفاصيل فرعيَّة فيما بعد. وبرغم تطوُّر تفاصيل اللِّيتورجيَّا المسيحيَّة، فقد حافظت على المرحلتين الأساسيَّتين السَّابق ذكرهما وهما: قدَّاس الموعوظين أي قدَّاس الكلمة، وقدَّاس المؤمنين.

١٠. كما سبق أن شرحتُ ذلك في الفصل الأوَّل من الباب الأوَّل من هذا الكتاب.

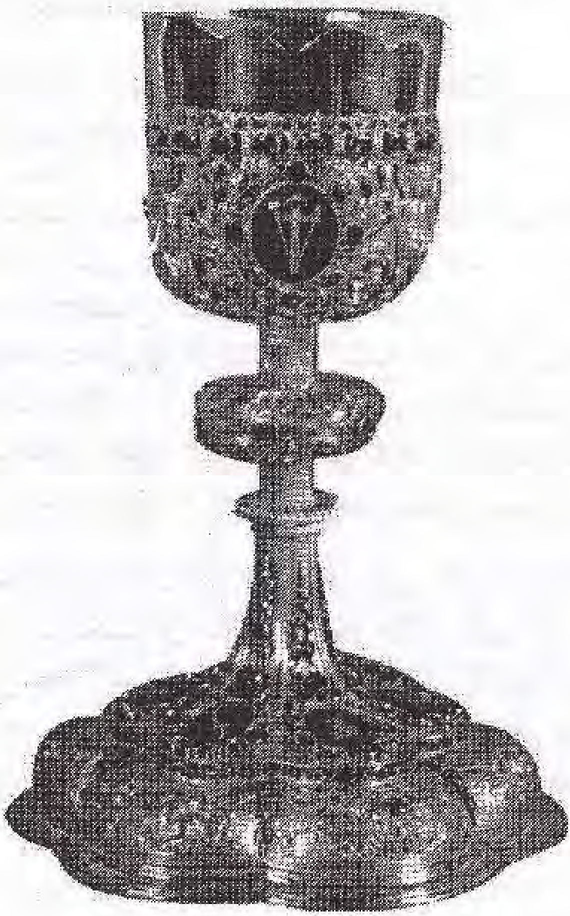

البَاب الثّالث

الاستعداد للقدّاس الإلهي

الفَصل الأوَّل

المراحل التَّمهيديَّة للقدَّاس

تتلخّص المراحل التّمهيديّة للقدّاس في النّقاط السّت التّالية:

(١) خَبْز القُربان وتجهيزه.

(٢) فحص الكاهن لنفسه قبل التّقدُّم لخدمة القدّاس.

(٣) فحص الحَمَل.

(٤) ارتداء الملابس الكهنوتيّة.

(٥) رفع صلوات الاستعداد وفرش المذبح.

(٦) التّسبيح بمزامير السّواعي.

(١) خَبْز القُربان وتجهيزه

يُخبز القُربان في فُرن خاص بالكنيسة يُدعى "بيت القُربان" أو باسمه المشهور به "بيت لحم". وهو مكان ملحق بالكنيسة ومجاور لها. لأنه كما وُلد المسيح في "بيت لحم اليهوديّة" ليحمل عنّا خطايانا، هكذا يتم تجهيز الحَمَل في "بيت لحم الكنيسة" لكي يُقرَّب على المذبح جسداً مقدّساً للمسيح ليعطي الّذين يتناولون منه خلاصاً، وغفراناً للخطايا، وحياة أبديّة.

و"يجب ألاّ يُخبز خُبز القُربان إلاّ في فُرن البيعة، ولا تعجنه امرأة. فمن تعدّى ذلك فهو محروم. وكل كاهن يعلم به ولا يُنهي أمره إلى أسقفه فهو شريكه في الخطيئة"(١). لأن طقس خَبز القُربان هو طقس لا

---

١ ـ قوانين البابا كيرلس الثّاني (١٠٧٨ ـ ١٠٩٢م)، القانون رقم ١٣

يتجزأ من طقس القدّاس الإلهي[٢]. وربما كان الدّافع وراء هذا الحرمان السّابق ذكره هو العودة بالطّقس الأصلي إلى ما كان عليه بسبب قانون أصدره البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م) يقول فيه: "قد أبحنا للمؤمنين أن يعملوا القرابين في منازلهم ويحملوها إلى البيعة على قدر طاقة كل واحد، فيكون له الأجر والثّواب كقدر أمانته. ويكون عملها على ما جرت به العادة أولاً، وذلك رفقاً بالبيعة لئلا تكثر عليها المؤن"[٣].

ولكن في ذات الوقت "لا يجوز للكاهن أن يخرج (من الكنيسة) بسبب خبيز القُربان، ولا يقف في الفرن"[٤]، فهذه ليست وظيفته.

فقد أُنيط عمل القُربان بواحد يُدعى "القَيِّم" أو "القَوَّام" - جمعها "قوَّامون" - هو المتكفّل بالأمر أي متوليه، كقيِّم الوقف ونحوه. وقَيِّم المرأة هو زوجها. أما قيِّم الكنيسة فهو المتكفّل بأمور الكنيسة من جهة تنظيفها، ودق الجرس لإعلان بدء الصّلاة، وعمل القُربان.

ومنذ القرن الثّالث عشر الميلادي نقرأ عن الأعمال المنوطة بالقيِّم: "وأما رتبة القيِّم فإن عليه حفظ أبواب البيعة، وإسراج القناديل، وكنس البيعة خلا الهيكل، وعجن القُربان وتلاوة المزامير لداود حال عجين القُربان، والاهتمام بالغرباء والواردين على البيعة"[٥].

٢- وعند السّريان يُعهد في عجن القُربان وخبزه إلى قسّيس أو راهب أو شمّاس. وقد أباح السّريان عجن القربان وخبزه أحيانا إلى امرأة عجوز طاهرة معروفة بفعل الخير (البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ١٠٥).

٣- قوانين البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م)، القانون ٣٢

٤- قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة، القانون ٣٤

٥- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٥٦

ملاحظة: ننقل النص الوارد بهذا الكتاب بكل دقة مع إضافة الفاصلة والهمزة والنقطة فقط للتسهيل على القارئ. وهنا لا يسعنا إلا تقديم جزيل الشُكر للأب

ولما لم يكن يحق لغير الإكليروس دخول الهيكل، فلم يكن مسموحاً للقيِّم بدخول الهيكل لكنسه، وكذلك لإيقاد قنديل الشَّرقيَّة، وفي ذلك يقول ابن سباع: "... فإن كان الكهنة لا يجوز لهم الطُّلوع إلى قدس الأقداس إلاَّ وهم مكاشيف الرؤوس، مغسولي الأقدام، كيف يجوز لقيِّم الكنيسة إن لم يكن له حظ في الإكليروس الطلوع إلى الهيكل وهو مغطى الرأس وبغير غسل قدميه. والأولى (يكون) إيقاد قنديل الشَّرق للشَّماس"(٦).

إلاَّ أن عمله الأساسي قد انحصر اليوم في عمل القُربان أي عجنه وختمه وبخبشته وخبزه، أي تجهيزه طبقاً لمراحل متتابعة معروفة بالتَّسليم من جيل إلى جيل، ليُقدَّم حملاً في القدَّاس الإلهي. أما فُرن خبيز القُربان فيوقد غالباً بكسر الخشب وفروع الأشجار والكُتب الكنسيَّة المطبوعة القديمة التَّالفة(٧)، وليس في الغالب بوسائل تقنية حديثة. ففُرن القُربان يحتاج إلى بلاطة فخاريَّة بالتَّحديد وليس من نوع آخر كالحديد الزَّهر مثلاً(٨)، وأيضاً قبو الفُرن يلزم أن يكون على شكل طاقيَّة لضمان توزيع جيِّد للحرارة.

ويلزم أن يكون القُربان المقدَّم للذَّبيحة وفق شروط نقرأها كما يلي: "أولاً أن يكون من مال البيعة ووقفها، أو مما يؤتى به إليها من وجه مبرور على الوجه المرضي، إما من صاحب صنعة، أو من يتجر بما يحل. ولا تُقبل قرابين الوثنيين، ولا من يبيع الخمر، ولا من في تعبه شُبهة، ولا

فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي على الدقة المتناهية التي تظهر في كل سطر من سطور هذا الكتاب بعد أن قام بتحقيقه كلمة كلمة، بل حرفاً حرفاً من ١٨ مخطوط.

٦- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٦٢

٧- وليس المخطوطات طبعاً حتى ولو كانت ورقة واحدة من مخطوط.

٨- لقد تغلبت الوسائل التقنية الحديثة في خبيز القُربان وانتشرت انتشاراً واسعاً، ولكن تُبت أديرتنا القبطيَّة العامرة تظل محافظة على التَّقليد القديم في ذلك الأمر.

من هو بين موازين (!)، ولا غير مؤمن، ولا من جحد الإيمان. بل ينبغي الاحتراز من هذا جميعه لعل أن تكون القرابين مقبولة عند الله"[٩].

لأنه بدون مراعاة ما سبق ذكره يعتبر القُربان "قُرباناً مخالفاً"[١٠]. كما أن الكاهن يجعل الشّعب يشكّون في أن القرابين لم تقدّم بطريقة صحيحة[١١]. فلا يستقيم أن تقبل الكنيسة قرابين غير المؤمنين، أو جاحدي الإيمان، أو العائشين في الخطيئة من أي نوع بدون توبة، لأنها كيف يمكن أن تصلّي من أجلهم قائلة: "أعطهم الأجر السّمائي"؟. أو تصلّي قائلة: "لنتوسّل من أجل الذين يقدّمون تقدمات في الكنيسة المقدّسة، ومن أجل الذين يصنعون إحساناً للمحتاجين. ولنتوسّل من أجل الذين يقدّمون القرابين والبكور للرّب إلهنا، لكي يكافئهم الله كلي الصلاح بهباته السّمائيّة، ويعطيهم مائة ضعف في هذا الزّمان، وفي الزّمان الآتي للحياة الأبديّة[١٢]، وليعوّضهم بالأبديّات عوض الزّمنيّات[١٣]، وبالسّمائيّات عوض الأرضيّات[١٤]" (المراسيم الرسوليّة ٨:١٠:١٢).

بل قد ذهبت الكنيسة إلى أبعد من ذلك حين منعت قبول القُربان ممن لا يعمّد ابنه طيلة سنة كاملة سواء كان كاهناً أو علمانياً بدون سبب مقبول. فنقرأ في مختصر قوانين البابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥-١٢٤٣م)[١٥]: "... ومن كان له ولد ابن سنة فصاعداً ولا يعمّده فإن

٩ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع؛ مرجع سابق، ص ١٥٦
١٠ـ للمؤلف، قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة، القانون الأول.
١١ـ انظر: المراسيم الرسوليّة (٨:٤٧:٨)، وأيضا قوانين الرُسل القبطيّة (٢:١١).
١٢ـ مرقس ١٠:٣٠
١٣ـ ٢كورنثوس ٤:١٨
١٤ـ متى ٤:٢٣
١٥ـ تنبع أهميّة هذه القوانين من كونها قوانين قد وضعها المجمع المقدّس للكنيسة القبطيّة في ذلك الوقت بحضور أساقفة علماء وأراخنة قانونيين، يعرفون جيداً قانون

كان كاهناً يُمنع من التّصرُّف[١٦]، وإن كان علمانياً يُمنع من القُربـــان، **ولا يُقبل منه قُربان حتى يعمِّد ولده**، إلاّ إن كانت هناك ضرورة قاطعة لذلك مثل سفر".

وفي أثناء عمل القُربان في "بيت لحم" تُراعى البنود التّالية:

- ترديد المزامير سراً أثناء عمل القُربان، لأنه طقس لا يتجزأ مـــن طقس القدّاس الإلهي.
- الصّمت الكامل أثناء مراحل إعداد القُربان، والتّفاهم بالإشـــارة عند الضّرورة، كما هو حادث تماماً أثناء الخدمة اللّيتورجيّـــة في الهيكل المقدَّس.
- الاستلام الصَّحيح لكل مرحلة من مراحل عمل القُربان، وعـــدم إضافة أو حذف شئ مما سُلِّم في البداية.
- يوضع في طبق الحمل ثلاث أو خمس أو سبع قُربانـــات كاملـــة الاستدارة، واضحة الختم، مختمرة جيداً، متساوية الحجم تمامـــاً، أي من جهة قطر القُربانة وسمكها. والقُربانة القبطيّة تملأ راحـــة اليد بعد بسطها.
- يُنقل القُربان إلى الكنيسة في طبق الحمل سُخناً طريـــاً. ويلـــزم الاحتراس أثناء نقل القُربان من بيت لحم إلى الكنيســـة، لـــئلا يسقط منه شئ على الأرض.
- عدم كشف القُربان بعد وضعه في طبق الحمـــل، إلاّ بواســـطة الكاهن الذي يتأكّد من خلو الحمل المقدَّم من أي عيب قبل بدء

الكنيسة وتقليدها.

[١٦]ـ أي لا يباشر خدمته الكهنوتيّة.

الصَّلاة، ويكون عدد القُربانات الموضوعة عدداً فردياً.

- الذي في قلبه وَحد على أحد، أو غضب، يمتنع عن العمل لئلا يكسب لنفسه دينونة.

وطوبى لمن استحق طلبة الكنيسة التي تُردَّد في كل قدّاس: "اذكر يارب الذين قدَّموا لك هذه القرابين والذين قُدِّمت عنهم والذين قُدِّمت بواسطتهم، أعطهم كلهم الأجر السَّمائي"[١٧].

وقُربانات الحَمَل تكون من الخبز المختمر. والخبز نوعان رئيسيَّان، إما خبز مختمر أو خبز غير مختمر وهذا الأخير يُسمى فطيراً. وكان خبز عيد الفصح اليهودي والأيام السَّبعة التي تعقبه، خالياً من الخمير[١٨] لذلك دُعيت تلك الأيام بأيام الفطير. وكانت كل التَّقدمات التي تُقدَّم للرَّب في العهد القديم يلزم أن تكون خالية من الخمير[١٩].

وينبغي أن تكون القُربانة من قمح، لأن خبز اليهود كان من قمح في عصر مخلصنا حينما سلَّم إلينا سرّ الشُّكر. وهكذا تسلَّمت الكنيسة الأرثوذكسيَّة هذا التَّقليد وسارت عليه حتى اليوم، حيث تستعمل الخبز المصنوع من دقيق القمح في هذا السِّر المقدَّس حتى اليوم[٢٠].

ومعظم الطُّقوس الشَّرقيَّة تستخدم الخبز المختمر وليس الفطير في سر الإفخارستيّا، وذلك لسببين:

السَّبب الأوَّل: أن كلمة "خبز" المستخدمة في عشاء الرَّب سواء

١٧ـ للمؤلف، معجم المصطلحات الكنسية، الجزء الثالث، تحت كلمة "قُيِّم الكنيسة".

١٨- خروج ١٢:٨، لاويين ٢٣:٦

١٩- لاويين ٢:١١، ١٠:١٢

٢٠ـ انظر: إيريناؤس ضد الهرطقات ٣:٥:٢ ؛ مجمع قرطاجنَّة القانون ٤٤

في الأناجيل أو في الرِّسالة إلى أهل كورنثوس، لا تحدِّد نوع الخبز، هل هو مختمر أم غير مختمر، ولكن في المقابل هناك كلمة محدَّدة للخبز غير المختمر وهو "الفطير"، لذلك درجت غالبية الكنائس على استخدام الخبز العادي أي المختمر في ممارسة عشاء الرَّب.

السَّبب الثَّاني: أن الخميرة في الخبز تشير إلى الخطيئة التي حملها المسيح في جسده – وهو وحده الذي بلا خطيئة – لكي يبطلها بموته على الصَّليب. وحيث أن الخبز حين يدخل النَّار يبطل مفعول الخميرة فيه، هكذا تفقد الخطيئة سلطانها فيمن يتناول من هذا الخبز بعد أن يضطلع الرُّوح القُدُس بتحويل الخبز العادي إلى جسد المسيح له المجد.

وخبز الله هو القرابين والذَّبائح التي كانت تُقدَّم للرَّب[٢١]. و"خبز الوجوه" أو "خبز الحضرة" هو الخبز الذي كان يوضع على مائدة خبز الوجوه في حضرة الرَّب دائماً[٢٢]. وكان يُرفع كل سبت ليوضع بدلاً منه خبز آخر جديد، تعبيراً عن أنه خبز غير باق، ولا يدوم، انتظاراً للخبز الحي الذي يبقى معنا وفينا إلى الأبد.

ويخطِّئ القدِّيس إبيفانيوس (٣١٥-٤٠٣م) في كتابه "ضد الهرطقات" شيعة الأبيونيِّين لاستعمالهم الخبز الفطير والماء القَراح في تقريب الإفخارستيَّا.

وانفردت الكنيسة القبطيَّة بعدم إضافة الملح إلى الخبز المقدَّس. والقُربانة عند السِّريان والموارنة تشبه في كثير من الوجوه القُربانة عند الأقباط، إلاّ أن السِّريان يضعون ملحاً وزيتاً في قُربانهم. وتُدعى القُربانة عند العامة من السِّريان "البرشانة".

٢١_ لاويين ٢١:٨

٢٢_ خروج ٢٥:٣٠، ٣٥:١٣

وقد ورد في تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندريَّة أنه قد جرت مناقشة بين البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م) البطريرك السَّادس والسِّتين وبين قوم من الكنيسة السِّريانيَّة حول إضافة الملح والزَّيت إلى قربانهم، مستنكراً هذه العادة. وقد استنكرها أيضاً - كما يذكر بعض المؤرِّخين - يوحنا برشوان بطريرك السِّريان الأنطاكيِّين الذي كان معاصراً للبطريرك خريستوذولوس السَّالف الذِّكر.

وتُسمى القُربانة عند اليونان "بروسفورا"، وهي مستديرة الحجم كبيرة. ويُختم جزؤها الأوسط بعبارة "يسوع المسيح الغالب"، ويُسمى هذا الجزء ἀμνός (أمنوس) أي "حَمَل". وكانت الكنيسة اليونانيَّة تستعمل قديماً قُربانة صغيرة كما كانت عند الأقباط إلى عهد قريب، ولكن بُدء في استخدام القُربانة الكبيرة عندهم في القرن الحادي عشر على الأرجح.

أما الكنيسة الأشوريَّة (النَّسطوريَّة) فتصنع القُربانة من دقيق القمح الذي تلتقطه العذارى، حيث يُطحن في مطحنة يدويَّة، ويُخلط بالخميرة التي يقوم رجال الإكليروس بإعدادها. ثم يُخبز القُربان داخل حدود مبنى الكنيسة. والأشوريون يختمون قُربانهم بختم يشبه الختم الذي يختم به الأقباط قُربانهم، إلاّ أن القُربانة في الكنيسة الأشوريَّة أقل سمكاً منها في الكنائس الأخرى. أما الكنيسة الأرمينيَّة الشَّقيقة فتختم قُربانها بصورة السيِّد المسيح في منتصفها.

وقد حافظت كل الكنائس الشَّرقيَّة على تقديم الخبز والخمر في سرّ الإفخارستيَّا كما رسمه السيِّد المسيح ما عدا الكنيسة الأرمينيَّة التي تقدِّم فطيراً بدلاً من الخبز إقتداء بالكنيسة اللاتينيَّة بعدما أخذ الأرمن بـالـلاتين

في القرن الحادي عشر[٢٣]. ولم يكن الفطير مستعملاً في الكنيسة الرُّومانيَّة حتى القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي[٢٤].

لقد كان مجرَّد الشَّركة في تناول الخبز تعني المصالحة والصَّداقة[٢٥]، وهي إحدى مظاهر المحبَّة الأخويَّة أو الشَّركة الأخويَّة في الكنيسة الأولى[٢٦]. ولقد تُرجمت الكلمة اليونانيَّة ἄρτος (أرتوس) في كتاب العهد الجديد إلى كلمة "خبز"، أما في معجزة إشباع الجموع كما أوردها البشيرون الأربعة فقد تُرجمت نفس الكلمة اليونانيَّة ἄρτος إلى "أرغفة".

ولقد وُصف "المن" الذي أعطاه الرَّب للشَّعب قديماً ليعولهم به في البرية أنه "خبز السَّماء[٢٧]"، و"خبز الملائكة[٢٨]" ليس لأن الملائكة تأكل خبزاً، بل تعبيراً مجازياً عن أنه خبز نازل من السَّماء، وليس من صنع النَّاس.

وفي مقابل هذه الاستخدامات المجازيَّة للخبز جاء الرَّب ليعلن عن نفسه أنه هو هو "خبز الحياة" فقال: «أنا هو خبز الحياة» (يوحنا ٦:٣٥) لينقل أذهاننا من الخبز العادي الذي نأكله حيناً ثم نموت إلى خبز آخر كل من يأكل منه يحيا إلى الأبد. فهو «الخبز النَّازل من السَّماء»، ولم يكن كلام الرَّب في هذه المرَّة مجازياً بل بالحقيقة أعطانا جسده لنأكله لكي نحيا إلى الأبد، «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي ... من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يوحنا ٦:٥١، ٥٦).

٢٣ـ يسى عبد المسيح، رسالة مار مينا الخامسة عشر، ص ١٢٦-١٢٨
٢٤ـ جراسيموس مسرة، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ، ص ١١٣
٢٥ـ تكوين ٣١:٥٤، ١ملوك ١٣:٨
٢٦ـ أعمال ٢:١٦
٢٧ـ نحميا ٩:١٥، مزمور ١٠٥:٤٠، يوحنا ٦:٣١، ٣٢
٢٨ـ مزمور ٧٨:٢٥

فسر الإفخارستيّا الذي يتمّم في القدّاس الإلهي هو جسد المسيح ودمه الأقدسان، جسده الحقيقي، ودمه الحقيقي[٢٩].

فـ"الخبز والخمر قبل أن يُرفعا على المذبح هما خبز وخمر، وإذا ارتفعا على المذبح لا يصيران بعدُ خبزاً وخمراً، بل جسداً محيياً لله، ودماً. والذين ينالون منهما لا يموتون بل يحيون إلى الأبد"[٣٠].

وفي الطّقس القبطي، وفي أثناء التّناول من الأسرار المقدسة يرتّل المتناولون لحن "خبز الحياة الذي نزل من السّماء وهب الحياة للعالم ...".

(٢) فحص الكاهن لنفسه قبل التّقدّم لخدمة القدّاس الإلهي

لن يجد القارئ العزيز في مصنّفات الآباء – مهما قرأ – عمّا يجب أن تكون عليه سيرة الكاهن ليستحق خدمة المذبح المقدّس، أبدع ممّا ورد عنها في قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة.

وبالاختصار تقول هذه القوانين السّابق ذكرها إنه لا يقترب أحد إلى خدمة الهيكل والمذبح المقدّس إلاّ الطّاهرين طهارة الموضع المقدّس نفسه. لأنه ليس أحد من النّاس خدم المذبح المقدّس بنجاسة أو بتوان ومات موتاً صالحاً، بل كل مَنْ ازدرى بالمذبح مات موتاً رديّاً. فالويل لمن يقترب إلى المذبح وهو نجس. أما الذي يخدم المذبح باستحقاق يُنعم الله على وجهه بجمال أكثر من الكُل مثل موسى، ويجعله الله مثالاً للذين يخدمون المذبح بطهارة. فإذا لم تكن لكم قدرة أن تكونوا وديعين،

٢٩ـ انظر للمؤلف: الاستحالة الجوهرية، وبروسفورا، في كتاب "معجم المصطلحات الكنسيّة"، الجزء الأول.

٣٠ـ القانون السادس من قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة.

فابتعدوا لئلاّ تحترقوا، لأن الذي على المذبح نارٌ لا تُطفأ، كما قال الله إن نار المذبح لا تطفأ[٣١].

من أجل هذا خافوا المذبح ومجّدوه لئلا تتقدَّموا إليه بقلّة حشمة، بل بطهارة وخوف. فكل النُفوس التي تتقدّم إليه وهي في نجس تُسأل عن طهارتها. والمذبح المقدَّس نفسه هو طهارتهم[٣٢].

اختير الكهنة ليكونوا أطهاراً أكثر من كل الشّعب، لأنهم يصلُّون عن الشّعب، ويطلبون إلى الرَّب الصَّفح عن خطاياهم. فإن أخطأ الكاهن مثل الشّعب فمن الذي يصلّي عنهم، لأن شعباً كهنته أنجاس ليس لهم صلاة تصعد إلى الله.

وإن كان الرَّب لم يشفق على الكهنة الذين أخطأوا في العهد القديم فماذا يصنع الرَّب بالكهنة الذين يخطئون في موضع قدسه في كنيسة العهد الجديد؟. فويل للكاهن الذي يقترب إلى المذبح وهو نجس. إذ يجب أن يخدم الكهنة المذبح بالطُّهر. وليتطهَّر الكهنة القريبون من الله، لئلا يهلك الرَّب قوماً منهم[٣٣].

ويذكر كتاب عهد الرَّب المكتوب في سوريا (في النِّصف الثّاني من القرن الخامس): "إذا حلم أسقف بالزَّواج، فلا يقرِّب، بل فليقرِّب الكاهن. ولا يتناول من السِّر، لا كأنه تدنّس، بل احتراماً للمذبح. فإذا صام واغتسل بالمياه النقيَّة، فليتقرَّب وليخدم. كذلك الكاهن ..."[٣٤].

٣١ـ للمؤلف، قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة، القاهرة، يناير ٢٠٠٣م، ص ٦١

٣٢ـ نفس المرجع، ص ٥٩

٣٣ـ نفس المرجع، ص ٨٦

٣٤ـ الأبوان جورج نصور ويوحنا ثابت، أقدم النصوص المسيحيَّة، سلسلة النصوص

وفي رسالة الأب صفرونيوس[٣٥] إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)، يحدّثه فيها عن الاستعداد للتّناول من جسد الرّبّ ودمه، فيقول له:

[نظافة الجسد ليست هي طهارة القلب. وحسناً أن نكون أنقياء من الدّاخل، لأن القبر قد يكون بناءً عظيماً، وفي داخله عظام ميتة. ونحن ليس لدينا عادات ولا قانون خاص بنظافة الجسد، لأن هذه الأمور تقع تحت سلطان كل مؤمن بالمسيح، لأننا باغتسال واحد هو مياه المعموديّة قد صرنا أطهاراً، ولا حاجة لنا إلاّ إلى الاغتسال من أعمال الجسد الميتة بالتّوبة، أما مياه الخليقة فهي لا تقرّبنا إلى الله][٣٦].

ويشير ابن سباع (القرن الثّالث عشر) على الكاهن الذي يتقدّم لخدمة القدّاس بأن يراجع نفسه أولاً لتكون "خالية من الوَجْد على أحد، وإلاّ فما تُقبل منه شفاعة. فإن كان حاقداً ويعلم ذلك من نفسه، فلا يتقدّم إلى الخدمة أبداً لئلا يطلع عوضاً أن يأخذ نعمة ورحمة، فيجد عطباً ونقمة"[٣٧].

ويشرح البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في ترتيب قدّاس القدّيس باسيليوس، فيقول: "يلزم الكاهن أولاً أن يستبرئ أفكاره وأحواله داخلاً وخارجاً كما شُرح أولاً في خدمة الصّلاة، أن لا يكون غاضباً ولا واجداً على أحد. ويفتّش ذاته ويفحصها لئلا يكون أحد منقاضاً عليه. فإذا لم يكن الكاهن قلبه وخاطره طيّب على شعبه،

الليتورجيّة، الكسليك، لبنان، ١٩٧٥م، ص ١٣٦

٣٥- من آباء الرّهبنة في أديرة جبل الطير جهة المنيا. ومن المحتمل أنه عاش ما بين القرن السّادس والقرن العاشر للميلاد.

٣٦- مائة مقولة عن التّوبة وعمل الرّوح القُدُس في القلب، رسالة الأب صفرونيوس إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٨

٣٧- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٢، ١٧٣

والشّعب خاطره طيِّب عليه، فلا يتقبَّل الله منه طلبته في شعبه. ولا يتقبَّل الله طلباتهم فيه. وكفانا الله من ذلك"[٣٨].

إن الفصل بين شخص الكاهن، وبين نعمة الكهنوت المعطاة له والمستقلّة عن طبائع الأشخاص، هي عقلانيَّة لاهوتيَّة غربيَّة. لأن تنوُّع الهبات الإلهيَّة والخدم في الكنيسة[٣٩] يدل على أن الموهبة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشّخص الذي تُنزل عليه هذه الهبة. إنه سر الانتخاب والتّأسيس.

فكما أن الكنيسة محقّة في عدم ربط حقيقة الأسرار باستحقاق الكهنة الذين رُسموا لخدمتها - وإلاّ لاستحال إتمام أي منها - فهي أيضاً محقّة في ربط تحقيق ملء حياتها بالقدر الذي يتقبَّل به كل عضو من أعضائها المواهب المنحدرة على كل واحد منهم.

الكاهن دُعي ورُسم في الكنيسة التي هي جسد المسيح، ليكون صورة رأس هذا الجسد، أي ليكون صورة للمسيح. ولكي يكون ذاك الذي بواسطته تستمر الخدمة الشّخصيَّة للمسيح.

إن دعوة الكهنوت تتوجّه إلى صميم الشّخص المدعو ولا يمكن أن تنفصل عنه. فمن الخطأ فصل الكهنوت عن الشّخص، وكأن الكهنوت رسالة أو خدمة مغلقة جامدة قائمة بذاتها، لا علاقة لها لا من قريب أو بعيد بالشّخص الذي سيتمّمها. إن أي تمييز قاطع كهذا هو تمييز خاطئ لأنه يشوّه طبيعة الكهنوت نفسها، كاستمرار لكهنوت المسيح في الكنيسة.

٣٨ـ غبريال الخامس (الأنبا)، الترتيب الطقسي، حققه ونشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدراسات المسيحيَّة الشرقيَّة، سلسلة دراسات شرقيَّة مسيحيَّة، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٦١

٣٩ـ انظر ١ كورنثوس ١٢: ٢٩-٣٠

صحيح أن شخص الكاهن لا يؤثّر على عمل الأسرار وفاعليّتها. ولسنا نربط إتمام الأسرار بمزاياه الشّخصيّة. فالكنيسة لا تنكر حقيقة الأسرار التي تجري على يدي أي كاهن سواء كان صالحاً أو سيئاً. ولكنها في الوقت عينه تعلم حق العلم الدّرجة الكبيرة التي تعتمد فيها الحياة الكنسيّة على استحقاق أو عدم استحقاق من أوكلوا وأودعوا تدبير الأسرار الإلهيّة(٤٠).

وبرغم كل ذلك فتظل الكنيسة قائمة، لأن قداسة الكنيسة ليست نابعة منّا، إنها قداسة المسيح الذي أحب الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها، ولا عيب(٤١).

(٣) فحص الحَمَل

قبل أن يرتدي الكاهن الملابس الكهنوتيّة، يحمل الشمّاس إليه قُربانات الحَمَل وقارورة الخمر إلى المذبح(٤٢)، فيتقدّم الكاهن لينظرها ويفحصها.

وعند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) نقرأ: "... وبعد ذلك يبتدئ الكاهن إذا أراد الخدمة الطّاهرة، فإنه يتقدّم أولاً ينظر القُربان الذي يقدّمه إن كان مختاراً. والخمر أيضاً كما قيل فليكن زكياً لا عيب فيه. وإذا اختاره الكاهن فليضعه على جناح الهيكل (أي المذبح) الأيسر حيث يقف. ثم يتقدّم يلبس آلة الكهنوت والبدلة ..."(٤٣).

٤٠ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٧١-١٧٣

٤١ـ انظر: أفسس ٥:٢٥-٢٧

٤٢ـ قانون الرُّسل: ١:٢١:٤ ؛ وأيضاً قانون الرُّسل ١:٥٢:١٥ ؛ التّقليد الرّسولي ١:٢٣

٤٣ـ البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٦٢

وهذه الفقرة وردت بنصها في كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلمي

وهو نفس ما يشير إليه خولاجي القُمُّص مرقس الأخميمي المنسوخ سنة ١٧٤٦م(٤٤)، حين يقول: "يجب على القس الخدم قبل أن يلبس بدلة الكهنوت أن يسأل على الآنية من الأمنوت وعلى الخمر والقُربان ..."(٤٥).

ولم يورد خولاجي سنة ١٩٠٢م(٤٦)، الذي راجعه القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي قبل الطّبع(٤٧) شيئاً عن ذلك، برغم أنه نقل تقريباً في حواشي هذا الخولاجي كل ما ذكره البابا غبريال الخامس (١٤٠٩ - ١٤٢٧م) في كتابه "التّرتيب الطّقسي".

ويلزم أن يكون القُربان نقياً بلا عيب(٤٨). و"لا يُرفع قُربان في أحد

البيعة في القرون الوسطى. بتعديل بسيط في عبارة: "أولاً ينظر القُربان الذي يقدّمه إن كان مختاراً"، هو: "أولاً ينظر القربان الذي يقدّمه إن كان **مختمراً**". وهذه الكلمة وردت في خمس مخطوطات من هذا الكتاب المذكور.

انظر: كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٦

٤٤ـ هو خولاجي كان حوزة القُمُّص مرقس الأخميمي أحد رهبان دير القدّيس أنبا بولا بالصحراء الشّرقيّة. وبحسب ما ورد في المخطوط، كان المهتم به هو الراهب الحقير ميخائيل أحد رهبان دير أبينا القدّيس العظيم أنبا بولا. وكمل هذا الخولاجي المبارك في يوم الجمعة الرابعة من الصّوم المقدّس ١١ برمهات سنة ١٤٦٢ش (١٧ إبريل سنة ١٧٤٦م).

45- Burmester, O.H.E., Khs., *Festing Prayers and Ceremonies of the Coptic Church*, OCP, Vol. 1, 1935, p. 310.

٤٦ـ كتاب الخولاجي المقدّس أي كتاب الثلاثة القدّاسات التي للقدّيس باسيليوس والقدّيس غريغوريوس والقدّيس كيرلس مع صلوات أخرى مقدّسة. وهو مصحح ومستوفي الترتيب على يد القُمّص عبد المسيح صليب. طُبع في مصر بمطبعة عين شمس سنة ١٦١٨للشهداء (١٩٠٢ أفرنكية).

٤٧ـ لدينا الآن نسختان من هذا الخولاجي، خولاجي سنة ١٩٠٢م، والنسخة المصحّحة منه بيد القُمُّص عبد المسيح البراموسي، وبها كثير من التّصحيحات، وقد ورد معظمها في الطّبعتين الثّانية والثالثة سنة ٢٠٠٢م لهذا الخولاجي.

٤٨ـ البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٦١

الكنائس قد فضل من أمس، ولا شئ مشقوق، بل خبزٌ سـخنٌ طـريٌ صحيحٌ""(٤٩). فالقربان المشقوق أو المكسور لا يجوز تقدمتـه(٥٠). وإذا رفع الكاهن قُرباناً مخالفاً ينال لعنة عوضاً عن البركة(٥١).

أما عن الخمر "وإذا لم تكن الخمر طيِّبة فيردُّوها ولا يدخلوا بها بيت الرب""(٥٢). "وليكن الذي يصعدوه قدَّام الرَّب خمراً زكياً وخبزاً سخناً نقياً. لأنه مكتوب هكذا إنني أعطي نذوري لله، وأيضاً أقدِّم لك صعيدة دسمة ومحرقات مختارة وقرابين طاهرة، الذي هو جسد ودم ربِّنـا يسـوع المسيح، هذا هو الإله بالحقيقة، الذي له المجد إلى أبد الآبدين، آمين(٥٣)".

أما القرابين التي تُقدَّم على المذبح فقد حـدَّدت قـوانين الكنيسـة نوعها، فمنذ القرن الرَّابع تنص القوانين على أنه "لا يُقدَّم شـئ علـى المذبح سوى فريك، وعنب، في زمانهما. وزيت المنارة الطَّاهرة، وبخور في وقت القدَّاس الطَّاهر""(٥٤). وهنا يلزم ملاحظة أن ما يُسمح بتقديمه على المذبح هي الثمار التي تُصنع منها الذَّبيحة الإلهيَّة وليس أي ثمار كيفمـا اتَّفق(٥٥). وهو نفس ما يذكره القانون رقم (٣٧) مـن قـوانين مجمـع قرطاجنَّة سنة ٤١٩م الذي يقول: "لا يقدَّم على المذبح غير الخبز والخمر ممزوجاً بالماء، ولا يجوز أن يقدَّم من أوائل الأثمار غير العنب والقمح.

٤٩ـ قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة، القانون ٦٤

٥٠ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٩

٥١ـ قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة، القانون الأول.

٥٢ـ قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة، القانون ١٠٧:٣

٥٣ـ قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة، ١٠٧:٤

٥٤ـ قوانين الرُّسُل القبطيَّة (٢:٢:٢) وهو يقابل القانون رقم ٣ من قـوانين الرُّسُـل في الكنيسة اليونانيَّة. والمراسيم الرسوليَّة ٣:٤٧:٨

٥٥ـ مثل أن يضع البعض ثمار الزيتون أو بعضاً من فروع شجر الزيتون على المذبح لتبريكها!!. فكل من يقدِّم خضروات على المذبح خلافاً للأمر يُجرَّد من رتبته. (قانون الرُّسُل ٢:٢:١)، (المراسيم الرسوليَّة ٢:٤٧:٨).

(٤) ارتداء الملابس الكهنوتيّة

نقرأ منذ القرن الخامس الميلادي ما يلي: "ثياب الكهنة التي يقدّسون بها تكون بيضاء مغسولة، وتكون موضوعة في الخزائن في الموضع المقدّس إلى الوقت الذي يتقدّمون فيه إلى المذبح، فيجدونها موضوعة في خزانة الموضع المقدّس التي تُحفظ فيها الأواني كما أمر حزقيال النّبي"(٥٦).

وجاء في قوانين القدّيس باسيليوس(٥٧): "... والثّياب التي يُقدَّس فيها تكون بيضاء تليق بالكهنة لا ملوّنة. وسيّدنا لمّا تجلّى كانت ثيابه بيضاء كالنُّور. وهو لون الشّكل الملائكي عندما يظهرون للنّاس في خير. وهو اللّون الذي أمر إله بني إسرائيل أن يأتوا به إليه في يوم المخاطبة". (القانون ٩٦)

والثّياب البيضاء هي حُلّة المعموديّة التي لبسها كل واحد منّا يوم معموديّته وقبل أن يتقدّم للتّناول من الأسرار المقدّسة. إنها حُلّة كل المعمّدين، بل حُلّة الكنيسة نفسها. والكاهن عند ارتدائه ثيابه يعلن وحدة الجماعة كلها فيه، لأنه كونه رئيس الجماعة، فهو يجمع الكُل إليه.

٥٦ـ قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة، القانون ٢٨

٥٧ـ هذه القوانين كما يؤكد علماء الليتورجيّا هي قوانين مصريّة قديمة وُضعت في مصر بواسطة واحد من أساقفتها في غضون القرن السادس الميلادي كما يرى العالم جريجوري دكس G. Dix ، ونسبها مؤلفها إلى القدّيس باسيليوس الكبير لتنال شهرتها على مدى التاريخ.

Cf. Fernand Cabrol (Le premiér dom) & R.P. dom Henri Leclercq, *Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie (DACL)*, Tome 2, Paris, 1925, p. 259.

أما أبدع تفسير لمعنى الثّياب البيضاء فنجده في قوانين هيبوليتس القبطيّة حين تقول: "وفي كل مرّة ينال الأسقف من السّرائر، يجتمع إليه الشّمامسة والقسوس وهم لابسون ثياباً بيضاً أبهى من كل الشّعب، ومضيئون بالأكثر بأفعالهم الحسنة أكثر من (لون) الثّياب" (القانون ٣٧).

ومنذ البداية كانت هناك أحكام كنسيّة تمنع الكاهن من الخدمة بملابسه العاديّة، كما تمنعه من الخروج إلى الشّارع بملابس لا تليق بخدمته الكهنوتيّة.

فالقانون ٢٤ من قوانين البابا غبريال الثّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) يقول: "لا يتقدّم أحد من الإكليروس إلى القرابين ولا إلى خدمة المذبح بالثّياب التي يرتديها بين أهل العالم، بل يلبس بدلة القدّاس المختصّة بذلك، وحينئذ يقدّس. ولا يخرج عن هذا الحكم".

ومن القانون رقم (٢٧) لمجمع ترولو نقرأ: "لا يلبس المنضوون إلى السّلك الإكليريكي ثياباً لا تليق بهم سواء أكانوا مقيمين في المدينة أو كانوا في سفر على الطّريق. بل يجب أن يلبسوا دائماً الثّياب المخصّصة للسّلك الإكليريكي، وكل من خالف هذا القانون فليُقطع لمدّة أسبوع".

ولا يغيب عن بالنا في هذا الصّدد ما يقوله القانون رقم (١٢) لمجمع غنغرا سنة ٣٤٠م: "كل من يلبس ملابس خشنة بدعوى التّقشُّف، ويحتقر الأتقياء الذين يلبسون الثّياب الفاخرة فليكن محروماً".

أما ملابس الخدمة في الكنيسة القبطيّة فتتكوّن من سبع قطع هي:

- "التّونية" ὁ χιτών ـ shirt ـ tunic ـ dalmatic

ربما كانت اللّفظة "تونية" من الكلمة اللاتينيّة tunica (تونيكا). وهي في القبطيّة تأتي في صيغة المذكّر ⲠⲞⲦⲎⲢⲒⲞⲚ (بوتيريون) أو ⲔⲞⲖⲞⲠⲒⲞⲚ (شِنتو). أما الاسم الدّارج عند الأقباط فهو ϢⲈⲚⲦⲰ

(كولوبيون)، ومنها جاءت كلمة "حلاّيَة". والكولوبيون هو تونية ولكن بأكمام قصيرة مثبّته فيها، بينما أن أكمام التُّونية طويلة يمكن تركيبها أو فصلها من التُّونية(٥٨).

ويستخدم السِّريان تونية بيضاء مثل الأقباط واليونانيين، ويطلقون عليها اسم kutina (كوتينة). وهو اسم مشتق من الكلمة اليونانيَّة "خيوتونيون" حسب قول رينودوت Renaudot . والأرمن يطلقون عليها اسم " Shapich " .

وتُعرف التُّونية في الكنيسة اليونانيَّة باسم "إستيخارة" من الكلمة اليونانيَّة στιχάριον (ستيخاريون). وتُعرف في الغرب باسم Alb وهي في اللاتينيَّة L'aube .

والتُّونية رداء أبيض من الكتان أو الحرير يصل من الرَّقبة إلى رسغ القدم، ويرتديها الشمَّاس والكاهن والأسقف. ولكنها للأسقف ذو أكمام يمكن تثبيتها أو رفعها. وفي الغرب لها حزام حول الخاصرة يرتديه الخُدَّام أثناء خدمة القدَّاس الإلهي. وهي بلونها الأبيض تمثل الطَّهارة والنَّقاوة حين يرتديها الخُدَّام سائلين الرَّب قائلين: «قلباً نقياً أخلق فيَّ يا الله».

وقد عرفتها الكنيسة الشَّرقيَّة والغربيَّة على السَّواء كقميص تحتي عادي يرتديه العامة under tunic. وقد استُخدمت في العبادة المسيحيَّة منذ زمن مبكِّر. ولكنها لم تصبح رداءً كنسياً رسمياً إلاَّ في بداية القرن الخامس(٥٩) مثل بقية الملابس الكهنوتية. وتُزيَّن التُّونية بالصُّلبان وعند

58- Butler, A.J., *The Ancient Coptic Churches of Egypt*, Oxford, vol. II, 1884, .p. 109, 110.

59- Davis, J.G., *A Dictionary of Liturgy and Worship*, SCM Press LTD, 1972, p. 367.

الأطراف بحلي وبألوان أخرى لبعض المشغولات، وتُسمى apparels .

• "الكُمَّان" Armlets - sleaves

الكُمَّان هما جزء من الثِّياب الكهنوتيَّة التي يرتديها البطريرك أو الأسقف أو القس، وكانا يُستخدمان أثناء تأدية الخدمة اللِّيتورجيَّة في المناسبات الكنسيَّة الكبرى. ثم اقتصر استخدامها على البابا البطريرك والآباء الأساقفة، ولكن قلَّ استخدامها الآن. ويعرفهما كل الطَّوائف المسيحيَّة، ويُسمَّيان في القبطيَّة ΚΑΜΑCΙΟΝ (كاماسيون)، وهما عند السِّريان zendo أو zenda [٦٠].

والأكمام في الكنيسة الرُّوسيَّة مثل نظيرتها في الكنيسة القبطيَّة ولكنها أضيق منها. ولا زالت الأكمام عند الكنيسة اليونانيَّة عبارة عن قطعتين من القماش مثبَّتتين في أعلى الذِّراع، ويتدليان كمنديلين، ويمكن ربطهما بحبل حريري فيصبحا كمَّين. وهي ترمز في الكنيسة اليونانيَّة إلى الوثاقات التي ربطوا بها يدي المخلِّص حين ساقوه إلى بيلاطس[٦١].

• "البطرشيل" ἐπιτραχήλιον - stole

ورد ذكره للمرَّة الأولى في مجمع اللاذقيَّة (٣٤٣-٣٨١م) باسم "أوراريون"، وهو يُسمى أيضاً "زنَّار"، فكلها مترادفات لشيء واحد.

و"البطرشيل" تعريب للكلمة اليونانيَّة ἐπιτραχήλιον (إبتراشيليون)، أو لكلمة يونانيَّة أخرى هي περιτραχήλιον (بريتراشيليون).

60- Butler, *op. cit.*, p. 168.

٦١ - القس منقريوس عوض الله، منارة الأقداس،

والكلمة اليونانيَّة ἐπιτραχήλιον (إبتراشيليون) هي اشتقاق من الكلمة τράχηλος (تراشيلوس) أي "عنق". فالبطرشيل هو رداء يُعلَّق في العُنُق بفتحة في أعلاه، ويتدلَّى بعرض الصَّدر ومن الأمام حتى إلى القدمين، وينسدل على الظَّهر قليلاً من الخلف، ويزيَّن بالصُّلبان، وهو يُسمى حالياً "الصَّدرة"، أي ما يُلبس على الصَّدر.

وكان البطرشيل أساساً يختص بالشَّمَّاس وحده دون الكاهن، إذ كان ارتداء البطرشيل يميِّز الشمَّاس "الدياكون" أي الشمَّاس الكامل في الكنيسة الشَّرقيَّة[٦٢]. وبعد أن عُرف البطرشيل في الشَّرق أولاً، انتقل منه إلى الغرب في القرن السَّادس الميلادي بدءاً من أسبانيا، ثم في روما في القرن الحادي عشر.

أما بطرشيل الكاهن فقد عُرف في الغرب أولاً قبل أن ينتشر استخدامه في الشَّرق في القرن التَّاسع عشر الميلادي.

وفي الكنيسة الشَّرقيَّة اليوم يرتديه كل من الكهنة والشَّمامسة، ولكن احتفظ بطرشيل الكاهن بشكله القديم الذي كان يرتديه الشمَّاس، ومن ثمَّ تغيَّر شكل بطرشيل الشمَّاس. أما في الكنيسة الآشوريَّة فيرتديه القسوس والشَّمامسة حتى اليوم بنفس الشَّكل الواحد. ويُعد البطرشيل الأرمني أبسط الأنواع بوجه عام.

والكاهن يرتدي البطرشيل في خدمة القدَّاس الإلهي، أو عند ممارسة أحد الأسرار المقدَّسة عموماً، مثل سر الاعتراف، أو سر المعموديَّة أو سر الزِّيجة ... الخ، أو عند مناولة الكأس في نهاية القدَّاس إن كان كاهناً

62- Cross, F.L., & Livingstone, E.A., *The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988. p. 466, 1002, 1312.

شريكاً، وليس خديماً للسرّ المقدّس.

أما بطرشيل الشمّاس الآن فهو وشاح من الحرير، ضيّق وطويل، يُشح به الشمّاس محمولاً على كتفه الأيسر ومتدلياً من الأمام والخلف ماراً تحت ذراعه الأيمن. وطريقة ارتدائه واحدة في الكنيستين اليونانيّة واللاتينيّة حينما يرتديه الدّياكون(٦٣). وهو يشير إلى أجنحة الشّاروبيم، وربما كان الشمّاس يستخدم طرفه كمنديل أو لفافة أثناء تناوله من الأسرار المقدّسة.

وقد منعت قوانين مجمع اللاذقيّة (٣٤٣-٣٨١م)(٦٤) أي رُتبة دون رتبة الشمّاس الكامل (الدّياكون) من ارتداء البطرشيل. ولكن يبدو أن هذا الحظر لم يكن سارياً على كثير من الكنائس، فقد ورد في طقس الرّسامات في كنيسة الإسكندريّة ما يشير إلى ارتداء الإيبودياكون للبطرشيل أثناء الرّسامة(٦٥). ويرتديه أيضاً الإيبودياكون عند السّريان، والأغنسطس عند الموارنة أثناء الرّسامة(٦٦).

وحين يرتديه الإيبودياكون في الكنيسة القبطيّة فهو يشكّل صليباً على الظّهر، ومنطقة حول الوسط من الأمام، أما عند الصّدر فيكون على شكل حرف H في الإنجليزيّة.

وإن كان "البطرشيل" هو الاسم الذي تشتهر به هذه القطعة من الملابس الكهنوتيّة في الكنيسة القبطيّة. إلاّ أن اسمه القديم فيها هو: "بلاريّة". والبلاريّة كما وصفها أبو البركات بن كبر (+ ١٣٢٤م) في

63- A. J. Butler, *The Ancient Copic Churches*, vol.2, p. 136, 142.

٦٤ـ القانونان (٢٢، ٢٣).

65- Denzinger, *Rit. Or.*, tom ii, p. 6.

66- *Ibid*, p. 82, 118.

حاشية له على القانونين (٤٦، ٤٧)[٦٧] من قوانين مجمع اللاذقيّة[٦٨]، أنها: "زنّار في العُنق على شكل حرمله، وهو من ملابس الشمّاس". فكان البطرشيل أو البلاريّة في أصله يختص بالشمّاس فقط كما سبق أن ذكرتُ.

ويُعرف البطرشيل في الكنيسة اليونانيّة باسم ὀράριον (أوراريون- orarion). ويُعرف عند السريان والموارنة باسم "أوروورو - uroro "، في حين يسمّيه الأرمن "هوسورا - ossora "، ويستخدمه أيضاً مسيحيو المالابار في الهند ويطلقون عليه اسم orar _ pour . ويدعوه النّساطرة "هورارا - hurrara ".

وأحياناً يُطلق الزنّار على بطرشيل الشمّاس بالذّات[٦٩].

• "المنطقَة" أو "الزنّار" ἡ ζώνη - girdle

"المِنطقة" هي حزام من الكتّان، وأحياناً من الحرير، يتمنطق بها الأسقف فوق صدره في وقت الخدمة. وهي تُدعى في الكنيسة السّريانيّة بشقيها الغربي والشّرقي "زُنّارا - Zunnâra "، وتُعرف أيضاً في الكنيسة البيزنطيّة باسم ζωνάριον (زوناريون)، ومنها جاءت في القبطيّة ⲍⲟⲩⲛⲁⲣⲓⲟⲛ بنفس نطقها. وتعني حزام. ويطلق عليها الأرمن اسم "كودي - kodi ".

والمِنطقة هي زنّار أو حزام belt أو وشاح مصنوع من القماش sash يُشدّ على الخصر أو الصّدر لتثبيت الرّداء أو الثوب على الجسد. وقد ورد

٦٧_ كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الأول، مرجع سابق، الباب الخامس، ص ١٦٦.

٦٨_ هو المجمع السادس من المجامع المحلية أو المكانية.

69- A. J. Butler, *op. cit.*, p. 138, n. 1.

ذكرها في العهد القديم(٧٠).

وفي كنيسة العهد الجديد يرتديها الأب البطريرك أو الأسقف سواء في الكنيسة الشّرقيّة أو الغربيّة. وهي كيفيّة الملابس الكهنوتيّة يصعب تحديد الزّمن الذي دخلت فيه الكنيسة كأحد ملابس الخدمة. ولكن من رسم فريسكو على أحد الأعمدة في كنيسة السيّدة العذراء المعلّقة بقصر الشّمع بمصر القديمة يعود إلى القرن الثّامن أو قبل ذلك، يتّضح لنا شكلها غير البدائي، وأنها ليست مجرّد شريط عادي، ولكنها حزام مطرّز ذو مشبك clasp لتثبيتها، مما يعني أنها كانت مألوفة في استخدامها في ذاك الوقت كأحد ملابس الخدمة الكنسيّة. ويعني أيضاً أن استخدام المنطقة هو أكثر قدماً من استخدامها في الغرب المسيحي لاسيّما روما.

وأوّل ذكر واضح للمنطقة كأحد الملابس الكهنوتيّة منذ القرن الثّامن الميلادي، كان بواسطة القدّيس جيرمانوس Germanus من القسطنطينيّة. وبعد حوالي قرن من الزّمان ورد ذكرها في الغرب في كتالوج الملابس الكهنوتيّة لمؤلّفه رابانوس موراس Rabanus Moras .

وذُكرت كأحد الملابس الكهنوتيّة للبطريرك في الكنيسة اليونانيّة، وهي مطرّزة بالذّهب والفضة والأحجار الكريمة. ولكنها أحياناً تكون مجرّد شريط بشراشيب مدلاّة من طرفه يُلف حول الصّدر والظّهر محمولة على الكتف كما نستخدمه في هذا الشّكل البسيط في سر المعموديّة وفي سر الزّيجة المقدّس.

وفي الكنيسة الأرمينيّة يلبسها الكهنة (القسوس) فوق البطرشيل كأحد ملابس الخدمة العاديّة. وشكلها في الكنيسة السّريانيّة كما في

٧٠ـ انظر: خروج ٢٨:٨، ٢٧ ؛ ٢٩:٥ ، ٣٩:٥، لاويين ٨:٧ ، إشعياء ٣:٢٤

الكنيسة القبطيَّة. ويعرفها الموارنة أيضاً كأحد ملابس الخدمة[٧١].

ولقد نقلها الغرب عن كنيسة الإسكندريَّة. فيذكر المؤرِّخ ألفريد بتلر A. Butler أن استخدام المنطقة في الكنيسة القبطيَّة أقدم من استخدامها في كنائس الغرب المسيحي.

ولازال أساقفة الكنيسة اللاتينيَّة يلبسوها حتى اليوم ولكنها تكون عندهم أحياناً مجرَّد حبل بشراشيب مدلاة منه. وهي تشير إلى العدالة[٧٢] والقوَّة[٧٣]، واليقظة والاستعداد[٧٤].

• "البرنُس" Chasuble

البرنس في الأصل هو رداء الأنبياء[٧٥] والملوك[٧٦]. وأصبح في الكنيسة المسيحيَّة أحد الحُلل الرَّئيسيَّة التي يرتديها القس والأسقف والبطريرك، وهو يُسمى في القبطيَّة ⲡⲓⲫⲉⲗⲟⲛⲟⲛ (فيلونون) أو ⲡⲓⲕⲟⲩⲕⲗⲓⲟⲛ (كوكليون) أو ⲡⲓⲁⲙⲫⲟⲣⲓⲟⲛ (أمفوريون). كما يُسمى أحياناً phelonion أو phenolion وهو يُدعى في الإنجليزية chasuble. وتسميه الكنيسة اليونانيَّة "مانتيه".

والبُرنُس رداء طويل متَّسع وبلا أكمام، ومفتوح من فوق إلى أسفل، ويكون من الكتان أو الحرير المحلَّى بخيوط الذهب أو الفضَّة.

71- Alfred J. Buller, *The Ancient Coptic Churches*, vol. 2, p. 104, 124 _ 127

٧٢- إشعياء ١١:٥

٧٣- مزمور ٣٩:١٧

٧٤- لوقا ٣٥:١٢

٧٥_ ١ملوك ٢٩:١١، ٢ملوك ١٣:٢

٧٦_ يونان ٦:٣

والبُرنُس ومعه القصلة يخص البطريرك والأساقفة دون القسوس(٧٧). أما القسوس فيرتدون البرنس بدون قصلة.

وكان من عادة الكهنة الرُّهبان في دير القدّيس أنبا مقار أهّم يلبسونه في رفع بخور عشيّة وباكر، وهو ما يذكره مخطوط يعود إلى القرن السّادس عشر (١٥٤٦م) في مكتبة دير القدّيس أنبا أنطونيوس، وكذلك مخطوط رقم (٣٧٥) بالمتحف القبطي بالقاهرة(٧٨). أما اليوم فهم يلبسون الشّملة عند رفع البُخور في عشيّة وباكر.

أما "الشّملة" amice فهي قطعة من القماش الأبيض تغطي رأس الكاهن وتتدلّى على كتفيه. وفي أصلها كانت طويلة يلف بها الكاهن الخدم رأسه، ويتدلّى الباقي منها على كتفيه حتى إلى قدميه من ظهره. وفي كنائس المدن حلّ محلها الطّيلسانة التي يرتديها الكهنة العلمانيون، ولكنها لا زالت مستخدمة عند الكهنة الرُّهبان في الأديرة.

والشّملة شائعة الاستخدام أيضاً في الكنائس البيزنطيّة والسّريانيّة والأرمينيّة، ولكنها عند الأرمن صغيرة وذات ياقة صُلبة. وهي معروفة أيضاً عند الموارنة. واستخدام الشّملة ظهر أولاً في الشّرق ومنه انتقل إلى الغرب.

ويمكن أن يُستعاض عن الشّملة بالطّيلسانة التي يرتديها الكهنة العلمانيون دون الكهنة الرُّهبان. أما الآباء الكهنة المتزوّجون فيلبسون الطّيلسانة وليس الشّملة، وهو ما قرّره المجمع المقدّس للكنيسة القبطية في

77_ *Ibid*, p. 306.

وانظر أيضاً: يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٦

78- Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP 1. p. 305, 306.

يونية سنة ١٩٩٦م[٧٩].

• "البلّين" amice - λόγιον - παλλίον

"بلّين" تعريب للكلمة اليونانيّة παλλίον (بالّيون)، وهو في اللاتينيَّة pallium . ويُسمى أيضاً في اليونانيَّة λόγιον (لوجيون)، ومنها جاءت الكلمة القبطيَّة بنفس النُّطق ⲠⲒⲖⲞⲄⲒⲞⲚ ، وهو يُسمى في القبطيَّة أيضاً pipallin أو piballin . كما أنه يُسمى أيضاً في القبطيَّة ⲠⲒⲈⲪⲞⲨⲦ (إفوت أو إفود) وأيضاً ⲖⲈⲚⲦⲞⲚ (لينتون). أما اسمه في الإنجليزيَّة amice فقد جاء من الكلمة القبطيَّة ⲈⲠⲰⲘⲒⲤ (إيبوميس). وهو يُعرف في الشَّرق باسم ἀμφόριον (أمفوريون). وتُستخدم كلمة "بلّين" بكثرة في الطَّقس البيزنطي ولكنها لا تعني عندهم أمفوريون، بل رداء أو عباءة mantle أو cloak [٨٠].

والبلّين هو غطاء الرأس عند الأب البطريرك أو الأسقف، وهو نفسه الشَّملة عند القسِّيس. فلا تختلف الشَّملة عن البلّين في شئ. وكان كلاهما كبيراً يغطي الرأس والكتفين ويلتف من تحت الإبط ليكون بهيئة صليب على الصَّدر وعلى الظَّهر.

و"البلّين" كغطاء للرأس معروف في كنائس السِّريان والأرمن والموارنة إلى جانب الأقباط[٨١].

وكانت العادة القديمة أن يلبس الأب البطريرك أو الأسقف البلّين

٧٩- القرارات المجمعية في عهد صاحب القداسة والغبطة البابا شنودة الثالث (١١٧)، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٤٥

80- Butler, *op. cit.*, p. 160, n.1.

81- Butler, *op. cit.*, p. 122, 123.

ليغطي به رأسه في مناسبات خاصة مثل يوم الجمعة العظيمة. وفي حين لم يكن الأب البطريرك يلبسه أثناء القدّاس، فإن الأساقفة كانوا يلبسونه عوضاً عن لبسهم القصلة التي للبُرنُس (أي رأس البُرنُس)، وذلك إما في حالة حضور الأب البطريرك أو عند وجودهم في إيبارشيّة غير إيبارشيّتهم.

ويذكر ألفريد بتلر A. Butler أنه كان هناك نوع من الشّملة يُطلق عليه اسم fanon كان يُلبس فوق رأس البابا أثناء القدّاس الإلهي بدلاً من التّاج في يوم خميس العهد، عند قيام البابا بأداء طقس غسل الأرجل.

أما اليوم فقد بطل استخدام البلّين أو الشّملة لدى الأب البطريرك والآباء الأساقفة، واستعيض عنه بعمامة بيضاء.

* * *

ويشرح يوحنا بن زكريا بن سباع في القرن الثّالث عشر أن بدلة الكهنوت تتكوّن من سبع قطع، وهي **التّونية**، و**الطّيلسانة**، و**الزّنّار**، و**الكمّان**، و**البطرشيل**، الذي يعلقه الكاهن في حلقه، و**البُرنُس**. فإن كان هو رئيس الكهنة فيكون البُرنُس بقصلة على رأسه، وإن كان غير رئيس الكهنة فيكون البُرنُس بغير قصلة(٨٢).

ويلخّص القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) ثياب الكهنة في القرن الرّابع عشر في أربع قطع فقط حين يقول عن الكاهن أنه "يلبس ثياب الخدمة وهي **التّونية** و**العَرْضي** الأبيض، وله أن يلبس **الأكمام** حريراً كانت أو غيرها. وبعض قسوس الرّهبان والمصريين(٨٣)

٨٢- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٥، ١٧٦.
٨٣- أي الكهنة من غير الرّهبان الذين يخدمون في كنائس المُدن.

يلبس بُرنُس صوف أبيض بغير قصلة، وتارة حرير. والكهنة بديارة أبو مقار لا يلبسون بُرنُساً في وقت خدمة القدّاس، بل يلبسونه في الصّلاة بمقتضى قانونهم"(٨٤).

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)، فيضيف إلى القطع السّابق ذكرها البطرشيل والزنّار، فيذكر ملابس الخدمة للكاهن كما يلي: "**الجبّة** الحرير (أي التّونية)، **والطّيلسان** الأبيض الحرير، **والبطرشيل، والزنّار، والأكمام، والبُرنُس** الأبيض الحرير"(٨٥).

واليوم ليس هناك قانون محدَّد بخصوص ما يجب على الكاهن الخديم ارتداؤه من ملابس الخدمة، ولا حتّى لون هذه الملابس التي كان يتحتّم أن تكون بيضاء بشهادة تأتينا من مصر منذ القرن السّادس الميلادي، وبالتّحديد في قوانين القدّيس باسيليوس، وامتداداً حتّى إلى القرن الخامس عشر على أقل تقدير. فالبُرنُس القبطي ظلّ لأكثر من ألف سنة بلونه الأبيض، في حين أن البُرنُس في الكنيسة اليونانيّة كان ملوناً، ولاسيّما اللّون القرمزي.

فبعض الكهنة اليوم يلبسون التّونية والشّملة فقط، وهذه الأخيرة حلّ محلها الطّيلسانة. والبعض الآخر يضيفون ارتداء البطرشيل. أما ارتداء الكمّان والزنّار فقد بطلا الآن. وفي الأعياد يضيف بعض الآباء الكهنة ارتداء البُرنُس أيضاً.

وفي خدمة صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر، يرتدي بعض

٨٤- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٧

٨٥- غبريال الخامس (الأنبا)، الترتيب الطقسي، حققه ونشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدّراسات المسيحيّة الشّرقيّة، سلسلة دراسات شرقيّة مسيحيّة، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٦٢

الكهنة البُرنُس، وهو ذو لون أبيض أو قرمزي في أغلب أيام السَّنة. ولكن في المناسبات الجنائزيَّة يكون لونه إما أزرق أو أسود!![٨٦].

وأظنُ أن تلوين البُرنُس من اللّون الأبيض بحسب الطّقس القديم إلى لون آخر قد بدأ أولاً من دير القدّيس أنبا مقار ببريَّة شيهيت في العصور الوسطى أيام أن كان يجرى عمل الميرون فيه من بطريرك إلى آخر بصفة شبه منتظمة في أسبوع البصخة المقدَّسة. حيث تشير المخطوطات إلى ارتداء البابا البطريرك البُرنُس الأسود في هذه المناسبة[٨٧].

بعض قطَع الملابس الكهنوتيَّة في الكنيسة اليونانيَّة

ومن الملابس الكهنوتيَّة في الكنيسة اليونانيَّة:

- "**الحُجر**": وهو قطعة نسيج مربعَّة الزَّوايا، وفي وسطها صليب أو صورة أحد القدِّيسين، يضعها الكاهن على الجانب الأيمن له.

- "**الأفلونيَّة**": وهو رداء عريض مدوَّر ذو فتحة من أعلاه.

- "**الصَّاكوس**": وهو بدل الأفلونيَّة. وهو قميص قصير قليلاً، عريض الكمَّين، ومشقوق الطّرفين من الإبط إلى أسفل، تجمع شقّيه أزرار وجلاجل، يماثل كثيراً قميص رئيس الكهنة في العهد القديم. وهو رداء الأسقف، وبدونه لا يقيم أية خدمة كنسيَّة.

- "**الأنكلبيون**": وهو أيقونة السيِّد المسيح، يعلّقها الأسقف على الصَّدر دلالة على الإيمان القويم من كل القلب.

86- Cf. Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP, 1, p. 309.

٨٧- انظر مثلاً: مخطوط رقم ١٠٠ عربي باريس، ص ١٨ وجه.

• "التّاج": وهو يرمز إلى إكليل الشّوك، وإكليل الغلبة[٨٨].

ويقول الدكتور بورمستر O.H.E. Khs- Burmester في بحث له عن "القدّاس قبل نيقية والتّغيرات المتأخّرة التي طرأت عليه"[٨٩]: "كانت ملابس الكهنة في عصر ما قبل نيقية هي الملابس العاديّة لكبار الشّعب. وهي رداء أبيض يغطي الجسم كله من الرّقبة إلى القدم، وله أكمام ضيّقة، وكان يعلوه قميص هو التّونية بأكمام تصل إلى الرُّكبتين. أما في المناسبات الرّسميّة فكان الرِّجال والنّساء يرتدون حرملة، وهي قطعة فضفاضة من القماش فيها فتحة للرّقبة، وكانت تصل إلى الرُّكبتين. وقد تطوّرت هذه إلى (الفيلونيون) وهي رداء أساسي في الكنيسة الرُّوميّة أثناء القدّاس. وفي أواخر القرن الرّابع استُعمل البطرشيل، وهو تلفيحة للخدمة مشابهة لوشاح الإمبراطور والقناصل، يدل على أن لابسه يشغل مركزاً هاماً. وأما السّبب في أن هذه الملابس صارت خاصة بالكهنة، فهو أن زي ملابس الشّعب نفسه قد تغيّر في القرنين السّادس والسّابع.

أما التّاج فهو مشتق من العمامة الفارسيّة المرصّعة، وصار خاصاً بالأساقفة في القرنين الخامس عشر والسّادس عشر. وكانوا قبل ذلك الوقت عاري الرؤوس فيما عدا بطريرك الإسكندريّة.

أما عن عصا الأسقفيّة فأُخذت من عصا الرُّهبان التي يتكئون عليها أثناء صلواتهم الطّويلة. وقد احتفظ بها الأساقفة لأنهم رهبان، ولكن بعد زخرفتها حتى تتّفق مع مركزهم الجديد.

٨٨- الأرشيمندريت إيلياس، العبادة المسيحيّة، طرابلس، ١٩٦٥م، ص ٤١، ٤٢

٨٩- نقلت هذا الكلام عن مخطوط يد وجدته بمكتبة دير السيّدة العذراء السريان، ولم أدوّن رقمه في المكتبة المذكورة إذ كنت وقتها حدثاً غير مدرك لأهميّة توثيق المعلومة.

وأما البُرنُس المستعمل في الكنائس القبطيَّة والسريانيَّة والحبشيَّة فمأخوذ من رداء الشَّرف في الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة، ويقابله في الكنيسة اليونانيَّة رداء قرمزياً له كنَّار، يلبسه الأساقفة والبطاركة في الكنيسة حين يشتركون في الخدمة دون أن يكونوا قائمين أساساً بها".

طقس ارتداء الملابس الكهنوتيَّة

ظلَّت ممارسة ارتداء الملابس الكهنوتيَّة استعداداً للخدمة في التَّقليد القبطي ممارسة بسيطة غاية البساطة، لا تعدو كونها ارتداء للملابس الكهنوتيَّة فحسب. ولم يرد في المصادر الطَّقسيَّة القبطيَّة القديمة أي إشارة إلى صلوات يقولها الكاهن أو رئيس الكهنة أثناء ذلك. أما في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي فترد به إشارة مبهمة في الفصل الثَّاني عشر من الكتاب الثَّامن من المراسيم الرَّسوليَّة (٨:١٢:٤) وهو عن مقدِّمة الصَّلاة الإفخارستيَّة، حيث نقرأ ما يلي:

"يبدأ رئيس الكهنة أن يصلِّي سراً مع الكهنة، ويرتدي لباساً بهياً".

ولربما كانت هذه الصَّلوات السِّريَّة هي الصَّلوات التي تصاحب ارتداء الملابس الكهنوتيَّة. ولكن على كل حال، لم يرد في كتب الطَّقس القديمة أي ذكر لرشومات تجري على ملابس الخدمة.

أما مصادر طقوس الكنيسة القبطيَّة في العصور الوسطى، فقد أشارت إلى أن لبس ثياب الخدمة يسبقه فقط غسل القدمين - وأحياناً اليدين أيضاً - وكشف الرأس قبل الطُّلوع إلى الهيكل لارتداء الملابس الكهنوتيَّة. أما بخصوص رئيس الكهنة فقط، فيصاحبه لحن مناسب يردِّده الشَّعب في الخارج أثناء ارتدائه ثياب الخدمة الكهنوتيَّة. وسنعود إلى هذه النُّقطة مرَّة أخرى.

ففي القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر نقرأ:

"يلبس الكاهن ثياب الخدمة قبل طلوع الهيكل. وإن كان هو رئيس الكهنة فيكون لباسه لبدلة الكهنوت بعد تقدمة القربان قبل التّحليل ليتميَّز بذلك رؤساء الكهنة من الكهنة بوضع الرِّئاسة"(٩٠).

"ثم أن الكاهن المقدِّس رئيساً كان أو مرؤوساً، ينبغي له قبل لبس البدلة وطلوع الهيكل غسل قدميه فقط لأنه طاهر بالمعموديَّة، ولقول الرَّب في الإنجيل المقدَّس الذي يتطهَّر لا يحتاج إلاّ إلى غسل قدميه فقط لأنه كله نقي. فلا ينبغي أن يطلع أحد إلى قدس الأقداس إلاّ مطهَّراً كله، أولاً بالمعموديَّة وثانياً بغسل قدميه"(٩١).

ويشرح ابن سباع سبب غسل الكاهن لقدميه قبل طلوعه الهيكل أنه مثلما كان يغسل موسى وهارون وكل الكهنة أرجلهم قبل وطئهم قدس الأقداس، فكذلك يكون في الكنيسة التي هي نظير قبة الزَّمان، حيث يوضع في الكنيسة حوض من نحاس فيه ماء لغسل أرجل كل من يطلع إلى هيكل الله(٩٢).

ويقول أيضاً: "... الكهنة لا يجوز لهم الطُّلوع إلى قدس الأقداس إلاّ وهم مكاشيف الرؤوس، مغسولي الأقدام"(٩٣).

ويقول ابن سباع: "بعد غسل قدميه كما قلنا ولباسه البدلة

٩٠ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٦

وسنعود لشرح هذه النقطة الهامة مرَّة أخرى في موضعها، وذلك بعد انتهاء صلاة الشُّكر، وقبل تحليل الخدَّام.

٩١ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٦

٩٢ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٧

٩٣ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٦٢

الكهنوتيّة يتقدّم يسجد أمام هيكل الله تعالى مرّة واحدة إن كان غير يوم الأحد. وإن كان يوم أحد أو عيد سيّدي، فليس يكون سجود إلاّ خضوع انحناء ثلاث مرّات، ثم بعد ذلك السُّجود لشعب الله الذي صار عليهم مقدّماً وشفيعاً حتى لا تكبر نفسه عليهم. وكذلك الشمّاس من بعده.

ثم إن الكاهن إذا طلع الهيكل يطلع برجله اليُمنى قبل اليسار لأنه صار من أهل اليمين، ثم يتكتّف ويقبّل الهيكل ويقول: واحدة سألت الرَّب وأنا لها طالب أن أسكن في بيت الرَّب جميع أيام حياتي لأنظر فرح الرَّب وأتعاهد هيكله المقدّس"(٩٤).

أما القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) فبعد أن يشير إلى قطع ملابس الخدمة التي يرتديها الكاهن يقول: "ثم يصعد الكاهن إلى الهيكل ويردفه الشمّاس ويكسوان المذبح معاً"(٩٥).

أما في القرن الخامس عشر فنقرأ عند البابا غبريال الخامس:

"يبتدئ الكاهن بتنظيف الجسد، وغسل الأيدي والأرجل. إن الله قال للنّبي الشّريف موسى: قل لهارون أخيك أن يعمل في القبّة حوضاً وسطل من نحاس، واملأهما ماء، وكل من أراد الخدمة من بني لاوي فليغسل يديه ورجليه قبل عبوره القبّة. وكل من لا يفعل ذلك فتهلك تلك النّفس من شعبها. فلهذا وضع مخلّصنا له المجد عندما وضع لنا سرّ الخدمة، وأعطانا الخبز والخمر، فتقدّم الآباء الرُّسُل ووضعوا ذلك لنا. وقد

٩٤- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٨

٩٥- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٧

جعلوا لقاناً في البيعة لغسل اليدين والرِّجلين قبل طلوع الهيكل"(٩٦).

وفي كتاب "سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت" لمعلّمي البيعة

وهو كتابٌ من القرون الوُسطى، يقول: "أوّل ما ينبغي للكاهن، أن يخدم القدّاس، فيلزمه قبل كل شئ أن يكون طاهر النَّفس والجسد واللباس. والثّاني أنه في وصايا القبَّة قال الله للنّبي العظيم موسى: قل لهرون أخيك أن يعمل في القبَّة حوضاً وصطلاً من نحاس وليملأهما ماء، وكل من أراد الخدمة من بني لاوي فليغسل يديه ورجليه قبل عبوره إلى القبَّة، وكل من لا يفعل ذلك فتهلك تلك النَّفس من شعبها(٩٧). فلهذا وضع مخلّصنا له المجد عندما وضع لنا سرّ الخدمة وأعطانا الخبز والخمر، فتقدم آباؤنا الرُّسُل ووضعوا ذلك. وقد جعلوا اللّقان في البيعة لغسل اليدين والرِّجلين قبل طلوع الهيكل ..."(٩٨).

٩٦- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٦٢

٩٧- «وكلم الرَّب موسى قائلا: وتصنع مرحضة من نحاس وقاعدتها من نحاس للاغتسال وتجعلها بين خيمة الاجتماع والمذبح، وتجعل فيها ماء. فيغسل هرون وبنوه أيديهم وأرجلهم منها. عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع يغسلون بماء لئلا يموتوا. أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة ليوقدوا وقوداً للرَّب، يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا. ويكون لهم فريضة أبديَّة، له ولنسله في أجيالهم» (خروج ٣٠: ١٧-٢١).

٩٨- كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٣، ٤

وهذا الكلام هو نفسه ما يذكره البابا غبريال الخامس في كتابه "التّرتيب الطقسي" عند بدء كلامه عن ترتيب قدّاس القدّيس باسيليوس. وهو ما ورد في الفقرة السّابقة مباشرة لهذه الفقرة. وقد وضعتُ الفقرتين إلى جوار بعضهما البعض ليرى القارئ العزيز أن ما يذكره كل من كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة وكتاب التّرتيب الطّقسي منقول بنصّه — مع بعض التّعديل — من مصدر سابق عليهما وأقدم منهما. فلم يكن البابا غبريال الخامس إذاً هو واضع كتاب "التّرتيب الطقسي" بأكمله، ولكنه كان جامعاً لكثير من أجزائه من مصادر أقدم منه.

الخلاصة

واضح مما سبق ذكره أن كلاً من ابن سباع وابن كبر والبابا غبريال الخامس ومعلّمي البيعة في القرون الوُسطى، لم يشيروا إلى صلوات محدَّدة تُقال أثناء لبس الملابس الكهنوتيَّة. وهو نفس ما نجده أيضاً في الخولاجي الذي طبعه روفائيل الطّوخي سنة ١٧٣٦م في روما، وأيضاً الخولاجي الذي طُبع في القاهرة سنة ١٨٨٧م تحت عنوان: "خولاجي قدَّاس القدّيس باسيليوس بحسب ترتيب الكنيسة المرقسيَّة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة"، وهو مطبوع لاستخدام الكنائس الكاثوليكيَّة في مصر[٩٩].

وفي كل الخولاجيَّات التي فحصها الدكتور بورمستر O.H.E. Khs-Burmester في مكتبة المتحف البريطاني، لم يجد أي إشارة لصلوات يقولها الكاهن عند ارتدائه للملابس الكهنوتيَّة لتأدية الخدمة اللّيتورجيَّة.

أما الأستاذ يسى عبد المسيح فقد وجد خولاجي مخطوط في مصر، ومدوَّن في النّصف الأوَّل من القرن الثّامن عشر، وفيه حاشية كاملة ودقيقة لاستعداد الكاهن الذي سيقوم بالخدمة مع الملابس الكهنوتيَّة التي يرتديها، والصَّلوات التي يقولها أثناء ارتدائه لها.

فيقول خولاجي القُمُّص مرقس الأخميمي المنسوخ سنة ١٧٤٦م والسَّابق ذكره ما يلي: ... ثم يضعها (أي التُّونية) على ساعده الشّمال ويرشمها بيده اليُمنى ثلاثة صلبان، وهو يقول ϦⲈⲚ ⲪⲢⲀⲚ ⲘⲪⲒⲰⲦ ⲚⲈⲘ ⲠϢⲎⲢⲒ ⲚⲈⲘ ⲠⲒⲠⲚⲈⲨⲘⲀ ⲈⲐⲞⲨⲀⲂ ⲞⲨⲚⲞⲨϮ ⲚⲞⲨⲰⲦ ثم يقول مزمور «أعظّمك يارب ...»، ومزمور «ملك الرَّب واشتمل بنور البهاء ...». ثم بعد لبس التُّونية يتحزّم فوقها بزنّار. وإن كان محزَّماً من داخل فلا بأس في ذلك. ثم يلف الشّملة كالعادة على اليمين. ثم يتقدَّم

99- Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP 1, p. 306,309.

يخضع لله بوجهه أمام المذبح المقدّس. ثم يخضع لجانب إخوته الكهنة ويقول: Ⲥⲙⲟⲩ ⲉⲣⲟⲓ ⲛⲁⲓⲟϯ ⲛⲉⲙ ⲛⲁ̀ⲥⲛⲏⲟⲩ ϫⲱ ⲛⲏⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ (أي باركوا عليَّ يا آبائي وإخوتي واغفروا لي). ثم يسجد لجانب الشّمامسة. ثم يتقدّم يصافح إخوته الكهنة، ويسأهم المساعدة في الطّلب عنه ...(١٠٠).

أما الخولاجي الذي طُبع في القاهرة سنة ١٩٠٢م حاوياً الثّلاثة قدّاسات معاً، والذي راجعه القمّص عبد المسيح صليب المسعودي؛ فيقول: "ثم يلبس الكاهن بدلة الكهنوت وهو يقول المزمور التاسع والعشرين «أعظمك يارب ...»، وبعده المزمور الثّاني والتّسعين «الرّب قد ملك والجمال لبس ...». ثم يصافح إخوته الكهنة ويسأهم مساعدته في الطّلب. ثم يخضع للرّب أمام هيكله المقدّس. ويضرب مطانية لإخوته الكهنة وباقي الإكليروس"(١٠١).

إذاً منذ منتصف القرن الثّامن عشر تقريباً - أو ربما قبله بقليل — بدأ ذكر الصّلوات الّتي تُقال على الثّياب الكهنوتيّة أثناء ارتدائها قبل بدء الخدمة، ولربما كان هذا التّقليد آتياً إلينا من الطّقس الأنطاكي الذي أظن أنه كان يعرف مثل هذه الصّلوات منذ العصور المبكّرة.

واليوم كل كاهن يرشم تونيته لنفسه بإشارة الصّليب قبل ارتدائها، والشمّاس يقدّم تونيته إلى الكاهن وهو يحملها على يديه فيرشمها له. أما إذا كان الأب البطريرك أو الأسقف حاضراً فهو الذي يرشم لهم(١٠٢).

100- Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP 1, p. 311, 312.

١٠١ـ كتاب الخولاجي المقدّس؛ طبعة سنة ١٩٠٢م؛ ص ١٩٥، ١٩٦

102- Burmester, O.H.E., Khs., *op. cit.*, OCP 1, p.307.

ارتداء ملابس الخدمة في الطّقس البيزنطي

أما عن ترتيب لبس الشمّاس لملابس الخدمة في الطّقس البيزنطي فهي كما يلي:

يأخذ الشمّاس حلّته ويدنو من الكاهن ويقول له: بارك يا سيّد هذه الإستيخارة والزّنار. فيباركهما الكاهن راسماً عليهما علامة الصّليب ويقول: "تبارك الله إلهنا كل حين، الآن وكل أوان وإلى دهر الدّاهرين". فيقول الشمّاس: "آمين". ثم يقبّل الشمّاس يمين الكاهن ويذهب إلى محل الشّمامسة ويسجد ثلاثاً قائلاً: "يا الله اغفر لي أنا الخاطئ وارحمني". ثم يقبّل الإستيخارة ويلبسها قائلاً: "تبتهج نفسي بالرّب لأنه ألبسني ثوب الخلاص، وسربلني حلة السُرور، ووضع عليّ تاجاً كالختن، ومثل العروس زيني تزييناً". ثم يلبس الزّنار على كتفه اليُسرى، ويأخذ الكم اليّمين ويقبّله ويلبسه في يمينه قائلاً: "يمينك يارب تمجّدت بالقوّة، يدك اليُمنى يارب سحقت الأعداء، وبكثرة مجدك سحقت المقاومين". وكذلك الكُم اليسار ويقول في لبسه: "يداك صنعتاني وجبلتاني، فهمني فأتعلّم وصاياك". ثم يمضي ويغسل يديه قائلاً: "أغسل يديَّ بالنّقاوة، وأطوف بمذبحك يارب كي أسمع صوت تسبحتك ...". ثم يأتي إلى المذبح ويهيئه.

ثم ينتظر الكاهن الذي يلبس حلّته، وهو يختم كل قطعة منها برسم الصّليب ويقبّلها، ثم يمضي تواً إلى المغسل ويغسل يديه وهو يتلو الصّلاة السّابق ذكرها "أغسل يديَّ بالنّقاوة ..."[١٠٣].

١٠٣ـ القدّاس الإلهي لأبينا الجليل في القدّيسين يوحنا ذهبي الفم، منشورات النور، ١٩٦١م، ص ٩ وما بعدها.

(٥) رفع صلوات الاستعداد وفرش المذبح

بحسب الطّقس القبطي الحالي يبدأ الكاهن في فرش المذبح بعد ارتداء ثياب الخدمة مباشرة، دون غسل لليدين. وأما الطّقس القبطي القديم ففيه حتميَّة غسل الكاهن ليديه ولرجليه قبل طلوع الهيكل لارتداء ملابس الخدمة، استعداداً لفرش المذبح. وهو ما نجده عند البابا غبريال الخامس في كتابه "التّرتيب الطقسي"[١٠٤]، كما نجده أيضاً عند معلّمي البيعة في القرون الوُسطى كما ورد في كتاب "سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت"[١٠٥]. وهو ما سبق أن ذكرته.

وجدير بالذّكر هنا أن الطّقس البيزنطي يجري فيه غسل اليدين قبل البدء بفرش المذبح.

وبحسب الطّقس القبطي فإن الكاهن الخديم هو الذي يقوم بفرش المذبح لنفسه. لأن "كل إيغوماتوس (قمُّص) أو قس يخدم القدّاس فهو الذي يكسو المذبح لنفسه، ولا يكسوه له قس غيره، فإن ذلك جُعل لرؤساء الكهنة خاصة"[١٠٦].

وبحسب قول معلّمي البيعة: "ليكن الهيكل (المذبح) مغشى قبل وضع الخبز عليه"[١٠٧]. وهي إشارة إلى ضرورة فرش المذبح قبل تقديم الحَمَل، وبدء صلاة القدّاس.

---

١٠٤ - البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٦١

١٠٥ - كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٦

١٠٦ - كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٧

١٠٧ - كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٦

ترتيب فرش المذبح عند البابا غبريال الخامس

أما ترتيب فرش المذبح فيشرحه البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) بكل دقّة، وبحسب أصوله القديمة قبل أن تلحقه تطوُّرات لاحقة طرأت عليه، وننقله هنا بحرفه في السُّطور التّالية:

"... يلبس (الكاهن) بدلة الكهنوت، ويصافح إخوته الكهنة، ويسألهم مساعدته في الطلب. ثم يخضع للرب أمام هيكله المقدس، ولإخوته الكهنة وباقي الإكليروس ... ثم إذا طلع إلى فوق المذبح يقبله بفيه. ويكون قنديل الشرق موقدا، وتكون الشمعتان موقدتين. ثم يكشف المائدة من الابرسفارين، ويضع الآنية أمامه محلولة من رباطها. والشماس يصعد ويقف أمامه. ويبتدئ (الكاهن) بصلاة الاستعداد وهي: Πϭ̅ͨ ⲫⲏⲉⲧⲥⲱⲟⲩⲛ ⲛ̀ⲛⲓϩⲏⲧ (أيها الرب العارف قلب كل أحد ...) وهم يرتلون ألليلويا ⲫⲁⲓ ⲡⲉ أو غيرها كل وقت بما يلائمة ... وإذا انتهى الكاهن من قراءة أوشيَّة الاستعداد وهي Πϭ̅ͨ ⲫⲏⲉⲧⲥⲱⲟⲩⲛ ⲛ̀ⲛⲓϩⲏⲧ يقول إلى عند ⲉⲑⲣⲓⲉⲣϩⲏⲧⲥ (لكي أبتدئ ...) ومن هنا يبتدئ الكاهن يمسح الآنية الموضوعة أمامه. ويضع الصينيَّة مكانها، والكأس مكانه بعد تفتيش كرس الكأس. ويضع الملعقة فوق كرسي الكأس، واللفائف يضعها مكانها. كل ذلك وهو يتلو تتمة أوشيَّة الاستعداد. وإذا انتهي من ذلك جميعه، يقول الأوشيَّة التي بعد الاستعداد وهي ⲛ̀ⲑⲟⲕ Πϭ̅ͨ ⲁⲕ̀ⲧⲥⲁⲃⲟⲛ (أنت يارب علّمتنا ...) إلى آخرها. ويقبِّل الهيكل (المذبح)".

تعقيب مطوَّل على طقس فرش المذبح

الفقرة السَّابقة هي طقس فرش المذبح القبطي كما ذكرها البابا غبريال الخامس، وفيما يلي تعقيبات عليها:

لا يبدأ فرش المذبح قبل إيقاد قنديل الشَّرقيَّة وشمعتي المذبح

قبل البدء في فرش المذبح يكون قنديل الشَّرقيَّة موقداً، وتكون الشَّمعتان موقدتين، وذلك بحسب تعبير البابا غبريال الخامس. وهو نفس ما يذكره القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي في كتاب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، فيقول: "يكون قنديل الشَّرق موقداً، وكذلك شمعتان موقدتين على جانبي المذبح على شمعدانين". ثم يضيف في الحاشية بقوله: "وتدوم هذه الثَّلاثة موقدة من أوَّل الصَّلاة إلى آخر القدَّاس وانتهاء التَّناول".

وهنا نلاحظ أن شمعتيَ المذبح توضعان على جانبيه وليس فوقه، وذلك بحسب الطَّقس القديم. أما قنديل الشَّرقيَّة فأصبح يُطفأ بعد انتهاء الصَّلوات، وهي أوَّل مرَّة يرد فيها في كتاب طقسي معتبر ذكر إطفاء قنديل الشَّرقيَّة بعد انتهاء الصَّلوات، لأن قنديل الشَّرقيَّة كان يظل موقداً أبداً، وهو المعروف باسم "القنديل الذي لا ينام".

لا يفرش الكاهن المذبح إلاَّ وهو مرتدياً ثياب الخدمة

لا يفرش الكاهن المذبح إلاَّ وهو مرتدياً ثياب الخدمة الكهنوتيَّة. فيسجد أمام المذبح، ثم يقبِّله، ويبتدئ بفرشه. أما ابن سباع فيتحفنا بتفصيلات بديعة في ذلك الأمر أشرتُ إليها قبلاً، حين يقول: "إن الكاهن لا يسجد في أيام الآحاد أو الأعياد السيديَّة، بل يخضع بانحناءة ثلاث مرَّات. ولكنه يسجد لشعب الله الذي صار عليهم مقدَّماً وشفيعاً حتى لا تكبر نفسه عليهم"[١٠٨]. ثم أنه حين يقبِّل المذبح يقول: "واحدة سألت الرَّب وأنا لها طالب، أن أسكن في بيت الرَّب جميع أيام حياتي،

---

١٠٨ – يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٨

لأنظر فرح الرَّب وأتعاهد هيكله المقدَّس".

وحين يقول البابا غبريال الخامس إن الكاهن يكشف المائدة من الإبروسفارين، فهذا يعني أن الإبروسفارين - وهو الغطاء الثّالث من أغطية المذبح - يغطي كرسي الكأس متدلياً من الجهتين الشّرقيّة والقبليّة للمذبح، في أوقات غير أوقات الصّلاة في الكنيسة. وتحت الإبروسفارين تكون آنية الخدمة مع لفائف المذبح ملفوفة معاً في صُرَّة من القماش، موضوعة قبالة كرسي الكأس من جهته الغربيَّة. وقد عرفنا ذلك من قول البابا غبريال الخامس "ويضع الآنية أمامه محلولة من رباطها".

وما يلزم الإشارة إليه هنا هو أن الرشومات الّتي تجري على آنية المذبح قبل حلّها من رباطها، والرُّشومات الّتي صارت تجري مؤخَّراً على ملابس الخدمة، لا ذكر لها في المصادر الطّقسيَّة القديمة، وغير محسوبة ضمن الرُّشومات الطّقسيَّة المقنّنة في الخدمة اللّيتورجيَّة.

فنحن نعرف منذ القرن الثّاني الميلادي أننا نرشم الصّليب في كل وقت وعلى كل شيء، ولكننا حين نتكلّم عن الطّقس الكنسي، فإننا نشير إلى الرُّشومات الطّقسيَّة المقنّنة. أمّا الرُّشومات الّتي تجري على آنية المذبح قبل فرشه فربما كانت تسليماً شفهياً لم يدوَّن. وهو أن تكون رباطات الأواني في صُرَّتها خمسة رباطات أي خمس عُقَد، اثنان منها من طرفين متقابلين يعلوهما ثلاثة معاً من الطّرفين الآخرَين، حيث يرشم الكاهن ثلاثة رشومات باسم الأقانيم الثّلاثة عند فك عُقد الرِّباط المثلّث ... الخ.

مكان وقوف الشمّاس عند المذبح أثناء فرشه وأثناء القدّاس

الإشارة الّتي أوردها البابا غبريال الخامس وهي أن الشمّاس يصعد

ويقف أمام الكاهن، تفيد أنه حتى ذلك الوقت المتأخِّر، أي حتى القرن الخامس عشر للميلاد، ظلّ مكان وقوف الشمَّاس في الصّلوات اللّيتورجيَّة هو في الجهة الشّرقيَّة من المذبح متَّجهاً إلى الغرب في مواجهة الشّعب، خلافاً لكل الكنائس الأخرى التي يكون وقوف الشمَّاس فيها عن يمين المذبح أي عن يمين الكاهن، أي في الجهة القبليَّة منه.

ويشرح ابن سباع سبب ذلك فيقول[١٠٩]: "إن الشمَّاس (القبطي) يقف قبالة القسِّيس بخلاف جميع الطّوائف، لأن جميع الطّوائف يقف عندهم الشمَّاس عن يمين القسِّيس في القدّاس خلا طائفة الأقباط، وذلك لسبب عَرَض لهم، وهو أنهم كانوا الكل ترتيب واحد، وإنما لما حمل الهراطقة البُغض الشيطاني على أنهم يغيروا هجم كنائس (أي يغيروا هاجمين على كنائس) من يعتقد الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة، ويذبحون كهنتهم وهم واقفون على الهياكل يقدسون القرابين، ويأخذون قربانهم ويدوسونه بأرجلهم. لذلك رتَّب الأقباط أن الشمَّاس يقف قبالة القسِّيس حتى ينظر من يجيء خلفه يتقصَّده بالأذى من المخالفين، يحمل القُربان والكأس ويضعوه في الطاق تحت الهيكل من الشرق. وتمت هذه العادة إلى الآن"[١١٠].

أما ابن كبر (+ ١٣٢٤م) فيرى تفسيراً آخر لمعنى وقوف الشمَّاس في الطّقس القبطي في مواجهة الكاهن والشّعب، فيقول: "ويصعدان (الكاهن والشّماس) إلى الهيكل، فيقف القس تجاه الشّرق، والشّماس تجاهه إلى الغرب. لأن القس يخاطب الإله الذي قال (عنه) النّبي أسمعُ صوته من المشارق. والشّماس يتلقى عنه ويبلغ الشّعب. وقد شهد الإنجيل

١٠٩ـ تم تصحيح الأخطاء اللُّغوية والنّحوية في النّص مع الاحتفاظ بحرفيته.
١١٠ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٢، ١٨٣

المجيد أن مريم المجدليَّة إذ وافت إلى القبر السيِّدي سَحَر القيامة المحيية أبصرت ملاكين جالسين في لباس أبيض، واحداً عند الرأس وآخر عند الرِّجلين حيث كان جسد الرَّب يسوع موضوعاً. وأما بقيَّة الطَّوائف كالسِّريان والفرنجة وغيرهم فإن الشمَّاس خادم القدَّاس عندهم يقف إلى جانب القس عن يمينه ...''[١١١].

ومن قول معلِّمي البيعة في العصور الوُسطى: ''وعند طلوعه (أي الكاهن) الهيكل، يقف الكاهن والخديم[١١٢] مقابله وهو مثال قول الإنجيل: واحد عند الرأس وآخر عند الرِّجلين، حيث كان جسد ربِّنا يسوع المسيح موضوعاً. وأما الكاهن الشَّريك يقف عن يمين الكاهن الخديم، فهو كما كان موسى النَّبي واقفاً على الجبل عند محاربة عماليق، واحد عن يمينه وواحد عن شماله. وأيضاً لأن هرون كان واقفاً عن يمينه ويشوع عن يساره عندما كان يتلو عليهم النَّاموس''[١١٣].

أمَّا الآن فقد انتقل الشمَّاس المقدِّس[١١٤] ليقف عن يسار المذبح

١١١- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٧

١١٢- أي الشمَّاس الخديم.

١١٣- كتاب سرّ الثالوت في خدمة الكهنوت، لمعلِّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٣٠

١١٤- الشمَّاس المقدِّس هو تعبير قبطي قديم، وتعني به الشمَّاس الذي كانت توكل إليه بعض الممارسات الطقسيَّة التي انتقلت إلى الكاهن الآن، ومن بينها مثلاً صب الخمر في الكأس. وهو أيضاً الشمَّاس الذي لا يفارق المذبح أثناء تقسيم الكاهن للجسد المقدَّس في أواخر القدَّاس، خلافاً لباقي الشَّمامسة الذين كانوا ينزلون من المذبح أثناء صلوات القسمة. وهو الآن أكبر الشَّمامسة القائمين بالخدمة في الهيكل. ونقرأ عن ''الشمَّاس المقدِّس'' في قوانين هيبوليتس القبطيَّة التي تعود إلى أوائل القرن السادس الميلادي (القانون ١٩). كما نقرأه عنه أيضاً عند ابن كبر (+ ١٣٢٤م) وغيره. وهو يُعرف في العصور الوُسطى باسم ''الشمَّاس الخديم''.

وليس عن يمينه كباقي الكنائس الأخرى[١١٥]. ولكن يظل مكانه الطقسي القديم هو عن يمين المذبح وليس عن يساره، أي عن يمين الكاهن. ثم يقف باقي الشمامسة حول المذبح يميناً وشمالاً. ويكفي جداً أربعة شمامسة على الأكثر حول المذبح لتأدية الخدمة الليتورجيَّة في الهيكل، ليظل الهيكل محتفظاً بهدوئه وسكينته[١١٦].

وجدير بالذكر أن الشمَّاس في ليتورجيَّات كنيسة الإسكندريَّة وكنيسة أنطاكية، وكنيسة روما أيضاً، يوجِّه الغالبيَّة العظمى من نداءاته إلى الشعب[١١٧]. غير أن الليتورجيَّة اليونانيَّة والليتورجيَّة الأرمينيَّة المتفرِّعة عنها لا تخلوان من بعض التصرُّف في ذلك، فيمكن للشمَّاس أن يوجِّه النداء إلى الأسقف أو إلى الكاهن بقوله مثلاً: "بارك يا سيِّد"، أو "غط يا سيِّد" وذلك بعد وضع القرابين على المذبح وسكب الخمر والماء في الكأس، أو قوله للأسقف: "صلِّ من أجلي يا سيِّد" ... الخ.

لحن "اللِّي القُربان" وارتباطه بفرش المذبح

أثناء فرش المذبح في الهيكل يكون ترتيل لحن "اللِّي القُربان" في الخارج، لأن كل ممارسة طقسيَّة يمارسها الكاهن في داخل الهيكل تغطيها صلوات أو ألحان أو مردَّات من الشعب في الخارج تتناسب وهذه

١١٥ـ لم أعرف السبب في تلك العادة المنتشرة الآن في كل الكنائس القبطيَّة. فلربما بعد أن صار الآباء الكهنة غير حافظين للقدَّاس الإلهي احتاجوا وضع الخولاجي عن يسار المذبح إلى جهته البحرية ليقرأوا منه، ومن ثم انتقل الشمَّاس إلى هذه الناحية من المذبح لمتابعة صفحات الخولاجي.

١١٦ـ هذا شرح من عندي لم أقرأه في مصادر طقسيَّة من أي نوع.

١١٧ـ هناك نداء واحد في الطقس القبطي يوجِّه فيه الشمَّاس النداء إلى القارئين: "القارئون فليقولوا أسماء آبائنا البطاركة الذين رقدوا ..."، ونداء آخر إلى الكاهن يقول فيه: "خلصت حقاً".

الممارسة الطّقسيّة، لأن القدّاس في البداية والنهاية هو خدمة ليتورجيّة، أي خدمة صلوات لا تنفصل قط عن مشاركة شعبيّة.

ويضيف يوحنا ابن سباع بقوله: "يأذن الأرشي دياقن رأس الشّمامسة لأحد المرتّلين أن يرتّل ويقول في ترتيله "الليلويا" بلحن ينبغي لذلك الوقت والحين"(١١٨).

أما البابا غبريال فيذكر ثلاثة مردّات لهذا اللّحن في المناسبات المختلفة:

الأوّل: ⲁ̅ⲗ̅ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ (الليلويا فاي بي)، ويُقال في الإفطار جميعه والحدود والخمسين(١١٩).

الثّاني: ⲁ̅ⲗ̅ ϫⲉ ⲫ̀ⲙⲉⲩⲓ̀ (الليلويا جي إفميفئ)، ويقال في صوم الميلاد وحدود الصّوم الكبير وصوم التّلاميذ وصوم العذراء، وكذلك الأربعاء والجمعة بطول السّنة.

الثّالث: ⲁ̅ⲗ̅ ⲉⲓⲉ̀ⲓ ⲉ̀ϧⲟⲩⲛ (الليلويا أي آإي إيخون)، ويقال في أيام الصّوم الأربعيني المقدّس، وثلاثة أيام يونان.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن ما سبق ذكره من المردّات الخاصة بهذا اللّحن يسبقها كلها لحن طويل بديع، بل من أروع ألحان الكنيسة القبطيّة، ينحصر فقط في كلمة "الليلويا"، ليشغل اللّحن وقت فرش المذبح من بدايته إلى نهايته، ووقت تقديم واختيار الحَمَل أيضاً وغسل الكاهن ليديه، وحتى إلى ما قبل قول الكاهن مباشرة: "مجداً وإكراماً ..."، ثم بعد أن يردّد الكاهن "مجداً وإكراماً ..."، ويدور بالقرابين حول المذبح يصير تكميل اللّحن بواحد من مردّاته السّابق ذكرها، طبقاً للوقت من السّنة.

١١٨- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٣، ١٧٤

١١٩- سنعود لذكر هذا اللّحن أو هذا المرد عقب دورة الحمل في الفصول القادمة.

وهذا ما فات على القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي إذ ظنّ أن بعض المخطوطات تقول بترديد المرد "الليلويا فاي بي"، أو أخويه **بكل كلمات المرد** أثناء فرش المذبح، وليس بعد دورة الحمل حول المذبح. ولذلك أورد حاشية في الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م يقول فيها:

"اعلم أن نسخاً نادرة ذكرت أن الشّعب يقول **ⲁ̅ⲗ̅ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲉϩⲟⲟⲩ** وأختيها هنا في وقت استعداد المذبح، كل واحدة في أيامها. و لم تذكرها عند دورة الحمل. لكن أكثر النُسخ والجاري في كنائسنا الآن أنها تقال في دورة الحمل. فكذلك وضعناها في هذا الكتاب. وأما الخولاجي المطبوع برومية سنة ١٤٥٢ للشُهداء (١٧٣٦م) فجعلها تُقال مرّتين أي هنا وهناك. فكأنه أخذ القولين معاً، وذلك غير موافق"(١٢٠).

فهذا الخلل الذي لحق بشرح هذه الجزئيَّة من الطَّقس لم يكن سببه عدم معرفة القُمُّص عبد المسيح بلحن "ألِلي القُربان" - كما حدث مع روفائيل الطُّوخي الذي طبع الخولاجي القبطي في روما لأوَّل مرَّة سنة ١٧٣٦م والذي كان يجهل هذا اللّحن، فلم يدرك ما تذكره المخطوطات القبطيَّة في ذلك الأمر - ولكن كان بسبب وضع مزامير السّواعي في هذا المكان الطَّقسي من القدَّاس، إذ كيف يمكن التَّوفيق بين لحن "ألِلي القُربان" بمردَّاته والذي يبدأ مع فرش المذبح ويكتمل بكلماته بعد دورة الحَمَل، وبين صلوات المزامير التي تعقب فرش المذبح وتكون قبل دورة الحمل؟. ولذلك حاول القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي تلافي هذا الخلل الذي أربكه من قول البابا غبريال الخامس، فقال في حاشية أخرى من الخولاجي المذكور:

"العادة جارية الآن أن تقديم الحَمَل يكون في أواخر صلاة المزامير. وإذا انتهت الصَّلاة المذكورة يدور الكاهن بالحَمَل. وإن تأخّر بالدّورة،

١٢٠- كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ١٩٧؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ١٣٦

فيقول الشّعب ألِيّ القُربان (أي Ⲁⲗⲗⲏⲗⲟⲩⲓⲁ باللّحن) إلى أن يـــدور، فيقولون Ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲉϩⲟⲟⲩ أو غيرها كما سيأتي"[١٢١].

إننا هنا - وبشهادة القُمّص عبد المســيح صــليب المســعودي البراموسي[١٢٢] - إزاء تطوُّر طقسي لحق بهذه الجزئيّة من الطّقس، ضمن ثلاث مراحل، وهذه المراحل هي:

- **المرحلة الأولى:** وهي تمتد إلى ما بعد القــرن الخــامس عشــر الميلادي. وفيها يغطي لحن "ألِيّ القُربان" الطّويل بمردّه كـــل الفتـــرة المحصورة منذ بداية فرش المذبح وحتى الانتهاء من دورة الحَمَل، حيـــث يفصل بين اللّحن ومردّه قول الكاهن "مجداً وإكراماً ...".

- **المرحلة الثّانية:** وهي التّطوُّر الأوّل الذي طرأ على هذه الجزئيّـــة من الطّقس، حين دخل طقس صلوات المزامير لينتشر انتشـــاراً واســـعاً وشاملاً في كل الكنائس في غضون القرن الثّامن عشر أو ربما قبله بقليل، ليكون سابقاً على طقس تقديم الحَمَل وممهِّداً له، ولاحقاً على طقس فرش المذبح. أي أن طقس صلوات مزامير السّواعي احتل قسماً قائماً بذاته في خدمة اللّيتورجيّا، فصار يسبقه طقس فرش المذبح، ويعقبه طقس اختيار الحَمَل ودورة الحَمَل، ومن ثمّ صار لازماً علاج الصّمت الذي اكتنـــف فترة فرش المذبح، فكان ترتيـــل لحـــن البركـــة Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ (تـــين أوأوشت)، "نسجد للآب النّوراني، وابنه الوحيد، والـــرُّوح المعـــزي، الثّالوث المساوي". ويعقبه برلكس "السّلام لمريم الملكة". وهو عشـــرة أرباع تختص بالسيِّدة العذراء وفيها تصف الكنيسة العذراء بأنها: الملكة، الكريمة، أم الخالق، الحسنة في النِّساء، البرج العالي، العروس النقيَّة، كليّة

١٢١ـ كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٠٣؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ١٤٠

١٢٢ـ من الآن فصاعداً سنكتفي بذكر اسمه "القمّص عبد المسيح صليب البراموسي"

القداسة، الخدر النّقي الذي للمسيح، والدة الإله.

ولكن في هذه المرحلة الثّانية كان تقديم الحَمَل يتم في أواخر صلاة المزامير، ففيما تكون صلوات المزامير قد قاربت على الانتهاء يبدأ الكاهن في اختيار الحَمَل. وإن تأخّر الكاهن في البدء في اختيار الحَمَل، تنتهي المزامير ويسود الكنيسة صمت أثناء طقس اختيار الحَمَل، ولعلاج حالة الصّمت هذه أيضاً، صاروا يرتّلون جزءاً من لحن "أللي القُربان" قبل أن تبدأ دورة الحمل. فانتقل لحن "أللي القُربان" من لحن أساسي ورئيسي في الخدمة اللّيتورجيّة إلى لحن ثانوي يمكن الاستغناء عنه.

- المرحلة الثّالثة: وهي التّطوُّر الثّاني الذي طرأ على هذه الجزئيّة من الطّقس، وذلك في الثُّلث الأوّل من القرن العشرين، حين حلّ ترديد مرد "كيرياليسون" محل لحن "أللي القُربان"، أو في الجزء البسيط الذي يُقال منه - إن قيل أصلاً - أثناء اختيار الحمل. فاندثر لحن "أللي القُربان" على أيدينا. وبدلاً من لحن طويل بديع يعني "سبّحوا الرّب" صرنا نردّد بتواتر "كيرياليسون، يارب ارحم"، فانتقلت بداية القدّاس من إيقاع لحن بديع يشد الكنيسة شداً إلى السّماء بفرحة تسبيح وشُكر وتهليل، إلى توسُّل وطلب رحمة. ولا مانع هنا من تأملات تبرّر ما صار يحدث أمام أعيننا، وترسّخ في آذاننا، بعد أن غاب عنّا طقسنا البديع الذي ظلّ يختنق رويدا رويداً في أيدينا، ولكنه لن يموت.

ولأن تاريخنا الطّقسي قد تشرذم، وتقطّعت أوصاله، فقد ارتأى البعض تفسير ما يرونه بحسب فكرهم الشّخصي وهواهم، وما أكثر الهواة اليوم، لكي يقدّموا لنا تفسيراً يستسيغه العقل يبرّرون به تناقضاً يصطدمون به فيما يقرأونه في كتبنا الطّقسيّة الكنسيّة. فظهرت كتب تعبث بطقسنا القبطي، وذلك في إطار تأملات شخصيّة - ولا أقول

روحيَّة - حتى أن النِّصف الثَّاني فقط من القرن العشرين صار شاهداً على تشويه لحق بشرح طقسنا القبطي تشويهاً لم يحدث من قبل على مدى عشرين قرناً مضت من تاريخ كنيستنا. ولستُ أنكر أهميَّة الشَّرح الرُّوحي لطقس الكنيسة، بل هو لازمة من لوازمه، ولكنه الشَّرح الذي لا يحاول تطويع ما هو ماثل أمام العيون من طقوس بدون إدراك لمراحل قديمة عبرت عليها هذه الطُّقوس حتى وصلت إلينا بشكلها التي هي عليه الآن، فرؤية الحاضر تكون حتماً معتمة إن انفصلت عن الماضي وتغاضت عنه.

ولنأخذ مثالاً واحداً بسيطاً لذلك الأمر.

تقول التَّعليمات الطَّقسيَّة في قدَّاس خميس العهد "يقدِّم الكاهن الصَّعيدة كالعادة، ولا يُقال ⲁⲗ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲉϩⲟⲟⲩ ..."(١٢٣).

فالتَّعليمات الطَّقسيَّة تنبِّه بأنه لا يُقال مرد "الليلويا فاي بي"، أثناء تقديم الصَّعيدة أي تقديم الحمل، فلماذا نقف صامتين ولا نردِّد مرد "كيرياليسون، يارب ارحم"، كالعادة عند تقديم الحمل في هذا اليوم تحديداً؟. وفي حين لا نردِّد هذا المرد "يارب ارحم" أثناء تقديم الحمل، فإننا نردِّده مرَّات عديدة في صلوات هذا اليوم قبل وبعد تقديم الحمل. وهنا تظهر التَّأملات الشَّخصيَّة لكي تعالج جزئيَّة من الطَّقس تبدو الممارسة فيها متعارضة مع ما يسبقها وما يلحقها. فيتَّجه التَّأمُّل في صمتنا أثناء تقديم الحَمَل في هذا اليوم إلى قول إشعياء النَّبي "كشاة تُساق إلى الذَّبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه" (إشعياء ٥٧:٣). ولكنه تعليل لا يبرِّر ما يتكرَّر بعينه مرَّة أخرى في قدَّاس سبت الفرح،

١٢٣ـ كتاب دلال وترتيب جمعة الآلام وعيد الفصح المجيد حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة. طبع بأمر غبطة السيِّد البابا المعظَّم الأنبا كيرلس الخامس ١١٢ من عدد باباوات الكرسي المرقسي الإسكندري. عني بتصحيحه وتنقيحه وضبطه وطبعه القمص فيلوثاؤس المقاري، والقمص برنابا البرموسي، والمعلم ميخائيل جرجس مرتل الكنيسة المرقسيَّة الكبرى. مطبعة الشمس بشارع كلوت بك بأول الدرب الواسع، ١٩٢٠م، ص ١١٥

حين لا نردّد في هذا اليوم أيضاً مرد ⲁ̅ⲗ̅ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲉϩⲟⲟⲩ (الليلويا فاي بي). والأمثلة على ذلك كثيرة.

أمّا الإجابة فهي أن لحن "أللي القُربان" هو لحن ثابت على مدار السَّنة الطَّقسيَّة، وفي كل مناسباتها، أما الذي يتغيَّر فيه فهي كلمات مردّه التي تعقب اللَّحن. وإن بطُل المرد يبطُل معه بالضَّرورة "الأللي" الذي يسبقه. وهذا هو سبب الصَّمت الذي يكتنف ليس لحظات تقديم الحَمَل فحسب، بل وأيضاً منذ بداية فرش المذبح. فقد أرجأت الكنيسة ترتيل هذا اللَّحن بمردّه، تعبيراً طقسياً بديعاً عن مشاركتها للآلام الخلاصيَّة التي يجوزها الرَّب في هذه الأيام، وترقباً ليوم قيامته حين ترتِّل الكنيسة بملء البهجة والفرح "هذا هو اليوم الذي صنعه الرَّب فلنفرح ولنبتهج فيه ...".

وهكذا الحال في كثير من الجزئيَّات الطَّقسيَّة التي يغيب فيها عن أذهاننا مراحل تطوُّرها حتى بلوغها إلينا بشكلها الحالي.

متى يُقال مرد (الليلويا فاي بي)

هناك ملاحظة أودُّ الإشارة إليها بخصوص الوقت الذي يُقال فيه مرد ⲁ̅ⲗ̅ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲉϩⲟⲟⲩ (الليلويا فاي بي). فهذا المرد يُقال - بحسب البابا غبريال الخامس - في أيام الآحاد والأعياد السَّيديَّة، ويضيف أيضاً أنه يقال في أيام الفطر أي الأيام التي ليس فيها صوم. وهو نفس ما تنهجه مخطوطاتنا أيضاً، مثل مخطوط ترتيب البيعة برقم (١١٧ طقوس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة، وتاريخ نساخته هي سنة ١٩١٠م.

ولكننا إن عُدنا إلى كلمات هذا المرد وهي: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرَّب، فلنفرح ولنبتهج فيه، ...". نجد أن كلمة "اليَّوم" بتعريف الألف واللام تعني يوماً محدَّداً بذاته. فاليَّوم الذي صنعه الرَّب للفرح

والبهجة في الكنيسة هو يوم فرح الخلاص من حكم الموت وقبضته بقيامة الرَّب من بين الأموات. لذلك اختارت الكنيسة هذا المزمور ليكون هو مزمور إنجيل قدَّاس عيد القيامة. ثم أن كل الأفعال الخلاصيَّة التي أكملها المسيح له المجد بيننا على الأرض هي أيضاً أيام فرح لأنها أفضت في النهاية إلى فرح الخلاص. أمَّا أن نفرح في يوم بذاته لأنه يوم فطر وليس يوم صوم، فهو ما يحتاج إلى مراجعة. والسَّبب الأساسي لهذا التأويل هو أن القدَّاس كان يُقام في الأصل في يوم الأحد من كل أسبوع. ثم أُضيف إليه يومي الأربعاء والجمعة بعد ذلك، وهما يوما صوم. أما بعد إقامة القدَّاسات في أي يوم من أيام الأسبوع، فقد استوجب الأمر تحرير هذا المرد من أيام الفطر في الأسبوع ليظل يوم الأحد يوماً متميِّزاً بينها، فهو يوم الرَّب. وعلى ذلك فإنه من الأفضل والأوفق أن يُقال هذا المرد في أيام الآحاد والأعياد السَّيديَّة فقط. أما في غير ذلك من أيام الأسبوع فيقال المرد الثَّاني ⲁ̅ⲗ̅ ϫⲉ ⲫ̀ⲙⲉⲩⲓ̀ (الليلويا جي إفميفئ). ويحتفظ المرد الثَّالث ⲁ̅ⲗ̅ ⲉⲓⲉⲓ̀ ⲉ̀ϧⲟⲩⲛ (الليلويا أي آإي إيخون) بالصَّوم الأربعيني المقدَّس وصوم نينوى.

وعند القس سمعان بن كليل (القرن الثاني عشر): "يرد الشَّعب مرتِّلاً في أيام الآحاد النبوَّة الدَّاوديَّة: هذا هو اليوم الذي صنعه الرَّب، أي يوم قيامة الرَّب. فاليوم الجديد الذي أشرق لنا بنور الحياة هو موت ابنه وقيامته"(١٢٤).

نص صلوات الاستعداد لفرش المذبح

وهما صلاتان سريَّتان، الأولى وتُدعى حالياً "صلاة الاستعداد"، أما

١٢٤ـ معاني رشم الصليب، ص ٦١، ٦٢

اسمها القديم فهو "صلاة الاستعداد الأولى"، ويقولها الكاهن قبل البدء في فرش المذبح. والثّانية وتُسمى حالياً "الصّلاة التي بعد الاستعداد"، وهي تسمية غير دقيقة، واسمها القديم هو "صلاة الاستعداد الثّانية"، ويقولها الكاهن بعد الانتهاء من فرش المذبح ووضع آنية الخدمة كل في مكانه.

وهذا هو الطّقس القبطي القديم بكل بساطته كما نقرأه عند يوحنا بن سباع في القرن الثّالث عشر، دون تعقيداتنا التي أقحمناها على الطّقس على مر العصور. فيقول ابن سباع:

"ثم يضع الكاهن أمامه كسوة الهيكل(١٢٥) عليه، ويبسط يديه ويقول صلاة الكسوة الأولى من غير أن يكسي، وعقله مجموع، ويداه مبسوطتان إلى نهاية الصّلاة الأولى. وبعد فراغها يكسي الهيكل بعقل مجموع. وإذا فرغ من كسوة الهيكل ووضع الآنية، كل شئ في مكانه ومحله، يقول الصّلاة الثّانية"(١٢٦).

فصلاة الاستعداد الأولى التي يصلّيها الكاهن سراً والتي بدايتها: "أيها الرّب العارف قلب كل أحد، القدّوس المستريح في قدّيسيه ..." هي من ترتيب القدّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م)(١٢٧). وهي موجهه للآب.

وفيها يقول الكاهن: "أنت يا سيّد تعلم أني غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدّسة التي لك ... امنحني أن أجد نعمة ورحمة في هذه السّاعة، وأرسل لي قوّة من العلاء لكي أبتدئ وأهيئ وأكمل خدمتك المقدّسة كما يرضيك ...".

١٢٥_ الهيكل أي المذبح، حيث تحل أي من الكلمتين محل الأخرى في مخطوطاتنا القبطيّة.

١٢٦_ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٨، ١٧٩

127- Brightman, F.E., M.A., *op. cit.*, p. 144.

وقد وردت هذه العبارة الأخيرة في النّص العربي لمخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex[١٢٨] هكذا: "أرسل لي قوّةً من العلو، لأبتدئ وأستعد، وباستقامة أكمّل هذه الخدمة المقدّسة بعُرف طيب كمسرة إرادتك"[١٢٩].

وعند قوله "لكي أبتدئ وأهيئ ..." يبدأ في فرش المذبح[١٣٠] فيضع الصّينيَّة مكانها، والكأس مكانه في داخل كرسي الكأس، حفظاً له من الانهراق، ولا يعرف كرسي الكأس سوى الكنيسة القبطيَّة وحدها. ويضع الملعقة فوق كرسي الكأس، واللّفائف يضعها مكانها. ولا تشير المصادر الطقسيَّة القديمة إلى عدد هذه اللّفائف، وأي إشارة إلى ذلك تكون إشارة حديثة على سبيل التأمل ليس إلاّ.

كل ذلك يفعله الكاهن وهو يتلو تتمَّة أوشيَّة الاستعداد. وإذا انتهى من ذلك جميعه، يقول الأوشيَّة التي بعد الاستعداد، وهي أيضاً من وضع القدّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥– ٥٣٨م)[١٣١]، وهي موجهة للآب أيضاً. وبدايتها هي: "أنت يارب علّمتنا هذا السِّر العظيم الذي للخلاص. أنت دعوتنا نحن الأذلاء (الخطاة)[١٣٢] غير المستحقين عبيدك،

١٢٨– هو مخطوط منسوب إلى مستر فرانك كسمارسك Mr. Frank Kacmarcik وهو مخطوط يوناني عربي، للقدّاس القبطي الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، ويعود إلى القرن الرّابع عشر الميلادي.

Cf. Le Muséon 88, (1975), p. 391-395.

129- Samir Kh. *Le codex Kacmarcik et sa version arabe de la Liturgie alexandrine*, Citted by OCP 44 (1978), p. 348.

١٣٠– هذه واحدة من التّنبيهات الطّقسيَّة التي أُضيفت في زمن البابا غبريال الخامس، لأن فرش المذبح يبدأ غالباً بعد انتهاء هذه الصلاة الأولى.

131- Brightman, F.E., M.A., *op. cit.*, p. 145.

١٣٢– أضاف مخطوط كسمارسك كلمة "الخطاة"، ولم ترد في الخولاجيَّات المطبوعة التي بين أيدينا.

لنكون خداماً لمذبحك المقدّس ...". وفيها يقول الكاهن: "... أنت يا سيّدنا اجعلنا مستوجبين بقوّة روحك القدّوس أن نكمّل هذه الخدمة لكي بغير وقوع في دينونة أمام مجدك العظيم نقدّم لك صعيدة البركة[١٣٣] مجداً وعظم بهاء في قدسك".

وهذه العبارة الأخيرة جاءت مبهمة بعض الشيء في الخولاجيّات المطبوعة، ولكنها وردت في صيغة أكثر وضوحاً في مخطوط كسمارسك، فيقول مخطوط كسمارسك:

"... لكي بغير دينونة، نقف أمام مجدك المقدّس، ونقدّم لك ذبيحة تسبيح ومجد وبهاء في مقدسك".

وهي نفس العبارة التي وردت عند برايتمان Brightman [١٣٤]:

A Sacrifice of praise, glory and comelines in thy sanctuary.

"ذبيحة تسبيح، ومجد وعظم بهاء في هيكلك".

وفي حين تأتي الذُّكصا الختاميّة هذه الصّلاة في الخولاجيّات المطبوعة غير مدوّنه بالكامل، حيث تختم بعبارة: "بالمسيح يسوع ربّنا هذا الذي الخ"، نجدها في مخطوط كسمارسك كما يلي: "بالمسيح يسوع ربّنا هذا الذي من قِبَله ومعه لك المجد والإكرام والعز مع الكلي قدسه الصّالح صانع الحياة روحك المساوي لك في الجوهر، الآن وكل أوان وإلى آباد الدُّهور. آمين".

ثم يقبّل المذبح.

١٣٣ـ تعبير "صعيدة بركة" وردت في النص القبطي للخولاجي المطبوع ⲟⲩⲥⲓⲁ ⲛ̀ⲥⲙⲟⲩ أي "ذبيحة بركة" أو "ذبيحة تسبيح".

134- Brightman, F.E., M.A., *op. cit.*, p. 144.

والطُّقوس الأخرى تعرف أيضاً هذه الصّلوات السّرِّيَّة الّتي يصلِّيها الكاهن قبل التّقدُّم لخدمة المذبح المقدَّس. فهي تُعرف في الطَّقس السّرياني الأنطاكي باسم "صلاة المدخل"، أمّا الطُّقس البيزنطي فيدعوها باسم "صلاة التّقريب والرّفعة – εὐχὴ της προσκομιδής". وفي الطّقس البيزنطي هناك صلاتان منها، الواحدة في ليتورجيّة القدّيس باسيليوس الكبير، بدايتها: "أيها الرّب الإله ضابط الكل ... Κύριε ὁ Θεὸς παντοκράτωρ"، والثّانية في ليتورجيّة القدّيس يوحنا ذهبي الفم، وبدايتها: "أيها الرّب إلهنا ... Κύριε ὁ Θεὸς ἡμῶν ὁ κτίσας ἡμᾶς".

وجدير بالذّكر أن النّص اللّيتورجي لصلاة الاستعداد في الطّقسين القبطي والبيزنطي مأخوذ من الطّقس السّرياني.

فمن ليتورجيّة القدّيس باسيليوس الكبير في الطُّقس البيزنطي يقول الكاهن سراً (إفشين التّقدمة) عند فرشه للمذبح:

"انظر إليّ أنا عبدك الخاطئ والباطل. وطهّر نفسي وقلبي من الضّمير الرّديء، واجعلني كفؤا بقوّة روحك القدّوس - إذ أنا لابس نعمة الكهنوت - أن أقف لدى مائدتك المقدّسة هذه، وأخدم جسدك المقدّس الطّاهر ودمك الكريم ..."[١٣٥].

المفهوم اللاهوتي لصلوات الكاهن السريّة عن نفسه

خلافاً لكل صلوات القدّاس الإلهي، يتلو الكاهن صلوات سريّة بنفسه عن نفسه، لا باسم الجماعة الكنسيّة التي تشارك في الاجتماع الإفخارستي. وهذا لا يعني أنه وحده يقدّم القربان بمعزل عن مشاركة

١٣٥- هذه الصلاة موجودة أيضاً في قدّاس القدّيس يعقوب أخي الرّب في نصّه اليوناني (انظر: البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٣٦).

الشّعب. فالمسيح هو الّذي قدّس الكنيسة بقُربانه حين قدَّم نفسه ذبيحة عنها، وهو الّذي أعطاها أن تشاطره كهنوته وذبيحته. وهنا تكون مطابقة كهنوت الكنيسة بكهنوت المسيح.

لكن هذه الصَّلاة الّتي يرفعها الكاهن سراً أمام الله قبل أن يقترب إلى خدمة المذبح هي اعتراف منه وإقرار أنه مهما كانت قداسة الإنسان وبرُّه، فهو غير مستحق ولا مستأهَل لهذه الخدمة المقدَّسة الرُّوحانيَّة الّتي قال عنها بولس الرَّسول: «كم تكون خدمة الرُّوح في مجد» (٢كورنثوس ٨:٣)، وذلك عندما قارن بين خدمة الدَّينونة والخوف الّتي كان يمثلها موسى رئيس الأنبياء حين مَثَل أمام الرَّب على الجبل فأضاء وجهه بنور، وارتجَّ الجبل ارتجاجاً، وخاف الشَّعب وسجدوا للرَّب، وبين خدمة العهد الجديد الّذي يمثلها كهنة العهد الجديد. فالفارق هنا شاسع ومهول. فهنا المذبح سمائي عوض الجبل الأرضي هناك، وحضور الرَّب في هيكله الجديد هو حضور بأكثر بهاء، فإلهنا الّذي هو نار آكله، ونور لا يُدنى منه، قد صار لنا نور حياتنا، وضياء نفوسنا لا وجوهنا فحسب، وعلّة خلاصنا أيضاً. والذَّبيحة على المذبح هي جسد ودم المسيح نفسه الّذي كان معروفاً قبلاً، ولكنه أُظهر لنا، ذبيحة واحدة ممتدة حاضرة كل حين. فمن هو كفؤ ليقترب؟.

فإن كان موسى في القديم قال: «أنا مرتعب ومرتعد» (عبرانيين ٢١:١٢)، فماذا يقول كاهن العهد الجديد؟. ألاّ يجب عليه أن يقول: "ليس لي وجه أن أقترب وأفتح فمي أمام مجدك المقدَّس". فحيث المذبح وحضور المسيح، فهذا هو الملكوت عينه، «لذلك ونحن قابلون ملكوتاً لا يتزعزع، ليكن عندنا شُكر به نخدم الله خدمة مرْضيَّة بخشوع وتقوى، لأن إلهنا نار آكلة» (عبرانيين ٢٨:١٢،٢٩).

حين يخدم كاهن العهد الجديد الذّبيحة المقدّسة، فهو يخدم من قبيل نعمة المسيح ورحمته له، وقوّة علويّة سماويّة تؤازره. فأين الافتخار إذاً؟. فالكاهن الذي يخلط بين كرامة الكهنوت الذي قبله من المسيح، وبين كرامته الشّخصيّة الذّاتيّة، أليس يخطئ في حق المسيح نفسه؟. إن فاصلاً دقيقاً رفيعاً يفصل بين الكرامتين، وكل انتقام للكرامة الشّخصيّة تحت دعوى صون كرامة الكهنوت، هو اغتصاب لحق المسيح، لأنه إن كان الكاهن يحمل كهنوت المسيح، فالمسيح يغار على مجده وكهنوته، فمن ذا الذي يدّعي أنه يقدر أن يأخذ للمسيح حقه؟. إن العمّة التي تتوّج رأس الكاهن، ليست هي عمّة كرامته الشّخصيّة، بل إكليل شوك وُضع قبلاً على رأس المسيح، فهل نرضى؟.

فكيف إذاً لا يصلي الكاهن عن نفسه ولا يتلو صلاة شخصيّة إلى المسيح، وكيف لا يعترف بعدم استحقاقه ولا يطلب ويتضرّع ويسأل أن يجعله الرّب كفؤاً بقوّة روحه القدّوس؟. وكيف لا يودع شخصه للمسيح الذي اختاره ليعلن فيه حضرته وكهنوته الأبدي ويحققهما في شخصه؟. وكيف لا يعتريه ذاك الخوف، ولا تنتابه تلك الرّعدة، اللّذان يتملّكان شخصه؟. وكيف له ألاّ يشعر بأن لا حول له ولا قوّة، وألاّ يبلغ أدنى درجات العجز، التي هو فيها أحوج ما يكون إلى قوّة العلي لتنحدر عليه وتظلّله وتنشله من ضعف إلى قوّة، لا لمسؤوليّة تجاه الحقيقة الموضوعية للسّر، بل تجاه فعلها في نفوس المؤمنين وحياتهم. كيف لا تخالجه كل هذه الأحاسيس ولا يستنزل المعونة من لدن الله في أثناء إتمامه السّر الإفخارستي عندما تأتي ساعة ... ساعة يعمل فيها المسيح من خلال يديه هو وصوته هو وكيانه هو؟[١٣٦].

١٣٦- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٧٣، ١٧٤

فرش المذبح في التّقليد البيزنطي

أما في التّقليد البيزنطي فإن الشمّاس هو الذي يهيئ المذبح ويفرشه، كما أنه يقوم بتبخير المذبح والأيقونات مردّداً في أثناء ذلك بعض الصّلوات، لكنه يطلب إلى الكاهن أن يبارك البُخور.

فبعد أن يلبس الشمّاس – في الطّقس البيزنطي – ملابس الخدمة، يغسل يديه ثم يأتي إلى المذبح ليهيئه للخدمة، فيضيء أولاً الشّمعة التي عليه، ثم يفرش عليه السِّتار المعروف بالكاليما، ويضع عليه الصِّينيَّة المقدَّسة، وعن يمينها الكأس المقدَّسة بعد أن يخرج منها الإسفنجة، ويلاحظ جيداً ألاَّ يكون فيها شئ ما. ويلف الإسفنجة بغطاء صغير خاص ويضعها وراء الصِّينيَّة المقدَّسة على محاذاتها، ويسند عليها الملعقة، ويضع الغطاءين، والسِّتر، والنَّجم عن يسار الصِّينيَّة المقدَّسة، ويضع المقدِّمة المعروفة بالقدَّاسة أو القُربانة على صينية خاصة إلى الأمام مقابل الفراغ بين الصِّينيَّة والكأس المقدَّستين، ويضع الحربة المقدَّسة على المقدِّمة. وعن جانب الكأس المقدَّسة إلى جهة اليمين يضع الماء والخمر. وفي أثناء ذلك كله يقول: "استعدي يا بيت لحم فإن عدناً قد فتحت للجميع. تهيئ يا إفراثا، فإن عود الحياة قد أزهر في المغارة نامياً من العذراء ... الخ".

وتبيح التّعليمات الطّقسيَّة في الكنيسة البيزنطيَّة للكاهن أن يقوم بفرش المذبح بدلاً من الشمّاس، وذلك بحسب ترتيب قدّاس القدّيس يوحنا ذهبي الفم الذي يقول: إنه إذا لم يكن شمّاس، فالكاهن يقول ويجري كل ما يقوله ويجريه الشمّاس ما عدا قوله "بارك يا سيِّد"، لأنه النِّداء أو الطِّلبة التي يوجِّهها الشمّاس للكاهن.

(٦) التّسبيح بمزامير السّواعي

نظراً لأهميّة التّسبيح بمزامير السّواعي كتراث عزيز غالٍ انتقل إلينا من خدمة الهيكل اليهودي ليستقر في حياة الكنيسة المسيحيّة منذ نشأتها، فقد أفردتُ لمزامير السّواعي كتاباً خاصاً بها دعوته "الأجبية أي صلوات السّواعي". ولقد تتبعتُ فيه بدقة المراحل التّاريخيّة لصلوات السّواعي حتى وصلت إلينا بشكلها الحالي، وذلك في الكنيسة القبطيّة خصوصاً، وفي الكنائس الشّرقيّة عموماً.

ولكنني في السُّطور التّالية سأتكلمُ عن التّسبيح بمزامير السّواعي كتهيئة تسبق ليتورجيًا القدّاس الإلهي.

فالطّقس السّائد اليوم في عموم الكنائس القبطيّة أنه بعد فرش المذبح تبدأ صلوات مزامير السّواعي. فيقف الكاهن عن يمين باب الهيكل، ويبتدئ بصلاة المزامير، ويشترك معه الشّعب، ويكون ترديد المزامير سراً؛ سواء للكاهن أو للشّعب. أما الإنجيل فيقرأه أحد الشّمامسة أمام باب الهيكل جهاراً، وتليه صلوات القطع التي يردّدها الكاهن ويتخلّلها مرد الشّعب: "ذكصابتري ... كانين".

وهنا نذكر قول البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) إن ترتيل المزامير بالنّغم واللّحن، لا بالتّلاوة المجرّدة لا يمنع مراعاة الصّمت بدقّة، وهو ما يتكلّم عنه كاسيان أيضاً، فبولس وسيلا كانا يصلّيان ويسبّحان الله والمسجونون يسمعونهما[١٣٧]. فالتّرتيل يكون لمن يقود الصّلاة أي الأسقف أو الكاهن في حالة عدم وجود الأسقف.

١٣٧ـ أعمال ١٦:٢٥

ويصف كاسيان في الفصل العاشر من كتابه الثّاني من كتب المبادئ، يصف نظام الصّلاة بالمزامير عند الأقباط، فيقول:

[وحينما يجتمعون معاً لإقامة خدمة الصّلوات، فإنهم يراعون الصّمت بدقّة، حتى أنه بالرّغم من عددهم الكبير، فإنه لا يتبيّن لك أن أحداً موجود قط إلاّ الواقف في الوسط ليسبّح].

فصلوات السّواعي تُصلى في أثناء اللّيتورجيّة القبطيّة قراءة دون تسبيح بنغمة موزونة، ولكنها تُغنى في الكنيسة اليونانيّة، وتردّد في الكنيسة اللاتينيّة بأصوات خشوعيّة(١٣٨).

وقد جرت العادة أن تُصلى مزامير السّاعتين الثّالثة والسّادسة في قدّاسات يوم الأحد، والأعياد السّيديّة باستثناء الثّلاثة أعياد السّيديّة الكبار؛ الميلاد والغطاس والقيامة. أما في أيام الأربعاء والجمعة وأيام الصّوم فتضاف مزامير صلاة السّاعة التّاسعة. وتُزاد مزامير الغروب والنّوم في قدّاسات أيام الصّوم المقدّس الكبير وصوم نينوى(١٣٩)، وفي الأديرة تُزاد أيضاً صلاة السّتار.

هذا هو باختصار، الطّقس الذي نمارسه اليوم، كتمهيد واستعداد لبدء تقديم الحَمَل وتكميل صلوات القدّاس الإلهي. فماذا كان شكل الطّقس في القرون السّابقة؟. وهل كان هو نفس الطّقس كما نراه اليوم؟.

138- Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her sacraments*. Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967, p. 32.

١٣٩- تشير مخطوطاتنا القبطيّة إلى أنه يسبق قدّاسات أيام الصّوم الكبير مزامير ساعتي الغروب والنّوم فقط. (لشرح أوفى، انظر للمؤلف: كتاب "الصّوم المقدّس الكبير، تاريخه الطّقسي وطقوس صلواته").

إن ما لفت انتباهي منذ سنين خلت أنه لا توجد صلوات شعبيّة سريّة في ليتورجيّة القدّاس الإلهي، إلاّ صلوات المزامير فقط. ثم أن صلوات السّاعتين الثّالثة والسّادسة، أي الصّلاتان اللّتان تصلّيان في السّاعة التّاسعة صباحاً والثّانية عشر ظهراً بحسب موقعهما اللّيتورجي، كانتا تُردَّدان في القدّاسات المبكّرة ليوم الأحد، ولم تكن الشّمس أحياناً قد أشرقت بعد. ومن هنا كان الاهتمام بالبحث في تاريخ صلوات السّواعي في القدّاس الإلهي.

إن صلوات السّواعي ومنذ نشأة الكنيسة المسيحيّة كانت طقساً ليتورجياً قائماً بذاته، ولا علاقة له بليتورجيّة القدّاس الإلهي. وكل مخطوطات الخولاجيّات القديمة والحديثة على حد سواء لا ذكر فيها لصلوات مزامير تُقال في ليتورجيّا القدّاس الإلهي. وكل المصادر الطّقسيّة القديمة لا تشير إلى ترديد للمزامير في داخل ليتورجيّا القدّاس الإلهي. ولم يشر إليها يوحنا بن سباع في القرن الثّالث عشر، ولا البابا غبريال الخامس في القرن الخامس عشر. ولازالت قدّاسات بعض الكنائس الشّرقيّة حتى اليوم، ومن بينها الكنيسة الإثيوبيّة، والكنيسة الآشوريّة، خالية من صلوات المزامير في ليتورجيّا القدّاس الإلهي[١٤٠].

وحتى الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م والذي راجعه القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي حين يتحدّث عن مزامير السّواعي في القدّاس الإلهي كعادة أصبحت جارية في أيامه، لا يذكر نفس التّرتيب المعروف لنا اليوم عنها، بل إن موضعها الطّقسي لم يكن حتى ذلك الوقت المتأخّر - أي حتى أوائل القرن العشرين - قد استقر بعد. فحين يقول تنبيهاً للكاهن "... ويبتدئ بصلاة الاستعداد الذي للمذبح ..."

١٤٠- هنري دالميس الدومينكي (الأب)، الطّقوس الشّرقيّة، تعريب الشمّاس كامل وليم، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م، ص ١٥٩

يورد حاشية في الهامش تقول هذه الحاشية: "العادة الجارية الآن أنه أولاً يصلّي الشّعب صلاة مزامير السّاعات. ويكون استعداد المذبح قبلها أو أثنائها"(١٤١).

واضح هنا أن الخولاجيّات الكثيرة المخطوطة التي اعتمد عليها القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي في مراجعة خولاجي سنة ١٩٠٢م لم تشر إلى طقس صلوات المزامير في القدّاس الإلهي، لذلك يذكر القُمُّص المذكور بناء عن مشاهدة شخصيّة ما يجري في عموم الكنائس في أيامه، بعيداً عمّا تذكره المخطوطات. فيقول: إن "**العادة الجارية الآن**" هي أن بعض الكنائس كانت تصلّي المزامير قبل أن يبدأ الكاهن بفرش المذبح، وبعضها الآخر كان يصلّي المزامير في أثناء فرش الكاهن للمذبح. ولكنه لم يذكر أن ترديد المزامير كان يتم في ذلك الوقت بعد انتهاء فرش المذبح كما نمارس اليوم.

ثم أن الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م لم يحدِّد السّواعي التي يجب أن تُقال في كل قدّاس طبقاً للمناسبات المختلفة للسّنة الطّقسيّة. وهذه ليست بأمر هيِّن يتغاضى عنه هذا الخولاجي الدّقيق، في حين أنه يذكر دقائق الأمور الطّقسيّة على مدى القدّاس الإلهي مهما كانت بسيطة.

ومن القراءة الدّقيقة لخولاجي سنة ١٩٠٢م يتّضح لنا أيضاً أنه ربما في ذلك الوقت - أي في أوائل القرن العشرين - لم يكن هذا الطّقس يتعدّى في بعض الكنائس سوى ترديد المزامير سراً، دون ترديد فصل الإنجيل والقطع جهاراً كما نمارس اليوم، أو ربما كان ذلك يتم بشكل مختلف عمّا نعرفه الآن، إذ نقرأ في حاشية أخرى من نفس الخولاجي

١٤١ـ كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ١٩٧؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ١٣٦

المطبوع سنة ١٩٠٢م ما يلي:

"العادة الجارية الآن أن تقديم الحَمَل يكون في أواخر صلاة المزامير. وإذا انتهت الصّلاة المذكورة يدور الكاهن بالحمل ..."(١٤٢).

وهنا يتّضح أن تقديم الحَمَل كان يتم في "**أواخر صلاة المـــزامير**" وليس في آخرها تماماً، وهذا لا يمكن حدوثه إذا كانت صلوات المـــزامير تنتهي بقراءة فصل الإنجيل، ثم ترديد القطع التي يردّدها الكاهن من داخل الهيكل كما نعرف اليوم.

وهذا يؤكّد لنا مجدّداً أنه لا وجود للمرد المتكرِّر "كيرياليســـون" الذي نردّده الآن أثناء تقديم الحمل، وبعد انتهاء صلوات المزامير.

كل هذا حدث لسبب واحد وحيد، هو أنه بانزواء لحـــن "أللـــي القُربان"، بدأت الكنائس تصيغ طقساً يتواءم مع النِّظام الجديـــد، وقـــد استغرقت هذه الصِّياغة وقتاً، حتى استقر الطّقس كما هو عليه اليوم.

إنه من خلال القراءات الكثيرة والمتركّزة في هذه الجزئيّة تحديداً، قد اتضح لي أن صلوات المزامير بسواعيها كانت في البداية المبكّرة طقســـاً ليتورجياً قائماً بذاته يُصلّى في كنائس المدن صباحاً ومساءً، خارجاً عـــن طقس رفع البُخور الصّباحي والمسائي، قبل أن تتبنى الرّهبنة القبطيّة هـــذا الطّقس وتحافظ عليه حتى اليّوم. ومع مرور السِّنين تركّـــزت صـــلوات السّواعي في وقتين فقط هما في الصّباح وفي المساء. فبعد انتهاء صـــلوات رفع بخور باكر، تجري صلوات السّاعتين الثّالثة والسّادسة. وقبـــل بـــدء صلوات رفع بخور عشيّة، تجري صلوات السّواعي التّاسعة والغروب والنّوم.

١٤٢ـ كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٠٣ ؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ١٤٠

ولما صار حضور الشَّعب اليومي لصلوات رفع البُخور في الصَّباح والمساء في كنائس المدن حضوراً ضعيفاً، تقلّصت صلوات السَّواعي هي الأخرى حتى ابتعدت عن أن تكون خدمة صلاة شعبيَّة في كنائس المدن، ولكنها ظلّت طقساً هاماً وأساسياً في الأديرة على مدى أيام الأسبوع كله صباحاً ومساءً عدا صباح يوم الأحد حيث تحل خدمة القدَّاس الإلهي محل خدمة المزامير في هذا الصَّباح. وعلى مدى أيام الأسبوع أُدمجت صلوات باكر والثّالثة والسَّادسة لتقال في اجتماع الرُّهبان الصَّباحي اليومي بعد انتهاء تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر، كما أُدمجت صلوات التَّاسعة والغروب والنَّوم والسّتار في الاجتماع الرَّهباني المسائي اليومي. ومن المعروف أن طقس صلوات رفع البُخور في الصَّباح والمساء كل يوم لم يكن طقساً رهبانياً أي ديرياً، بل هو طقس كاتدرائي فقط، أي طقس يختص بكنائس المدن.

والآن علينا أن نتتبَّع المراحل التي مرَّت عليها خدمة صلاة المزامير حتى باتت بشكلها المعروف لنا اليوم في داخل ليتورجيَّة القدَّاس الإلهي.

فمن نص في غاية الأهميَّة أورده العالم الطّقسي أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، تأكّد لديَّ بما لا يدع مجالاً للشّك أن طقس ترديد المزامير لم تكن له علاقة بليتورجيَّا القدَّاس الإلهي كما ذكرتُ من قبل. كما تأكّد لديَّ أيضاً ما سبق أن ذكرته وهو أن صلوات السَّواعي كانت تعقب صلوات رفع بخور باكر بحسب الطّقس القديم، ولا علاقة لها بطقس تقديم الحمل. أما هذا النَّص الذي يذكره ابن كبر فكان يتحدَّث فيه عن طقس قراءات نبوات الصَّوم الأربعيني المقدَّس، والتي كان يعقبها فصل الإنجيل المقدَّس، فيقول:

"وكان بعض أهل مصر يجلسون وقت قراءة النُّبوات، فأشار

البطريرك أنبا يؤانس[١٤٣] باستمرار الوقوف فيهم بحكم أنهم في وسط الصّلاة. ثم يصلّي صلاة السّواعي كالعادة، ويقدّم القدّاس آخر السّاعة التّاسعة ليكون فراغه آخر السّاعة الحادية عشر، والإفطار قرب غروب الشّمس ..."[١٤٤].

فعبارة "**ثم يصلي صلاة السّواعي كالعادة**" توضّح لنا أن العادة التي استقرت حتى القرون الوسطى في كنيسة مصر هي أن صلوات السّواعي كانت تُصلى بعد انتهاء صلوات رفع بخور باكر في كنائس المدن. وهو ما ظلّ مرعياً في كنائس الأديرة حتى اليوم باستثناء عدم رفع صلوات البُخور كل يوم، فهذه الأخيرة - أي صلوات رفع البُخور يوميا - هي تأثير كاتدرائي انتقل إلى كنائس الأديرة. أي أنها طقس كنائس المدن أصلاً، وليس طقساً ديرياً قديماً. المهم في الأمر أن ترديد مزامير السّواعي ظلّ في باكر النّهار بعيداً عن القدّاس الذي كان يُقام في ساعة متأخّرة من النّهار، حيث يذكر ابن كبر في النّص السّابق ذكره أن قدّاسات الصّوم الكبير كانت تبدأ في غضون السّاعة الثّالثة بعد الظهر لتنتهي قبل الغروب.

ثم نتعرّف على المرحلة التّالية من التّطوُّر الذي لحق بهذه الجزئيّة من الطّقس، حين تزحزحت صلوات السّواعي التي كانت تُصلّى عقب صلوات رفع بخور باكر، لتكون في وضعها الجديد قبل أن يبدأ القدّاس الإلهي ولكن في أيام الصّوم فحسب، وليس في يوم الأحد. وحتى هذا التّطوُّر الجديد لترديد مزامير السّواعي ظلّ بعيداً عن كونه ذا علاقة من

١٤٣ـ هو البابا يؤانس الثامن (١٣٠٠ـ ١٣٢٠م) البطريرك الـ ٨٠ من بطاركة الكنيسة القبطيّة.

١٤٤ـ كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٨

أيّ نوع بليتورجيّا القدّاس الإلهي. فيقول ابن كبر في كتابه "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة"(١٤٥):

"والذي تتداوله البيعة القبطيّة أن لا يكون القدّاس إلاّ تلو صلاة. والأحسن أن تكون الصّلاة التي تتقدّمه برفع بخور، هذا إذا كان فصح. وأما إذا كانت أيام الأربعين والأربعاء والجمعة والأصوام الأخرى فيكون عقب صلاة السّاعة التي تتقدّمه أعني التّاسعة بالأجبية والقطع. والرُّهبان يصلّون قبله صلاتي الغروب والنّوم".

فمما ذكره ابن كبر سابقاً يتّضح لنا أن صلوات مزامير السّواعي لم تكن تُقال في قدّاس يوم الأحد، ولكنها بدأت تُردّد قبل قدّاسات الأصوام فقط، ولكن خارجاً عنها. ولهذا السّبب لا نجد أي ذكر لصلوات السّواعي هذه عند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) والذي تنيّح بعد ابن كبر بحوالي قرن كامل من الزّمان. ذلك لأن البابا غبريال الخامس لم يجد أي علاقة بين هذه الصّلوات وبين ليتورجيّة القدّاس الإلهي التي شرح دقائقها الطّقسيّة. ولذلك أيضاً فإن كتاب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م لم يشر إلى ذلك الأمر، لأن الغالبية العُظمى من التّعليمات الطّقسيّة التي تضمّنها هذا الكتاب الأخير منقولة بنصّها من كتاب "التّرتيب الطّقسي" للبابا غبريال الخامس.

وإن أعدنا قراءة ما سبق ذكره بتأن وروية نستطيع أن نفهم ما يذكره خولاجي سنة ١٩٠٢م في قوله: "العادة الجارية الآن أن تقديم الحَمَل يكون في أواخر صلاة المزامير. وإذا انتهت الصّلاة المذكورة يدور الكاهن بالحمل ..."(١٤٦). وهنا بدأت تظهر المرحلة الأخيرة من تزحزح

١٤٥- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٧

١٤٦- كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٠٣ ؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ١٤٠

صلاة السَّواعي للمرَّة الثّانية من كونها خارج القدّاس الإلهي وسابقة عليه مباشرة، إلى كونها أصبحت تُقال في داخل اللّيتورجيّا بعد الانتهاء من فرش المذبح وقبل تقديم الحَمَل مباشرة.

إذاً لم تنقطع صلوات السَّواعي من الكنيسة أبداً، لأنها طقس ليتورجي عزيز جداً لا يمكن الاستغناء عنه، ولكن ما حدث هو تزحزح هذا الطّقس عن موضعه الطّقسي القديم ليصبح داخل اللّيتورجيّا نفسها. ونقول هذا لكي تتوقّف التّأويلات الكثيرة التي دخلت كتبنا الطّقسيّة لعدم استيعاب تاريخنا الطّقسي. ومن بين هذه التّأويلات ضرورة وجود الحَمَل أثناء ترديد صلوات المزامير، وإن تأخّر حضوره تُعاد صلوات المزامير مرّة أخرى. وكأننا نصلّي المزامير على الحَمَل نفسه، وليس من أجل تهيئة نفوسنا لدخول القدّاس الإلهي. أما عن الحَمَل نفسه فهو معجون بالماء والدّقيق والمزامير. ولكن ما يلزم الإشارة إليه هنا هو أن الكاهن كان عليه أن يتأكّد من صلاحية الحَمَل قبل ارتدائه ثياب الخدمة، ومطابقته لشروط تقديمه كما شرحتُ من قبل.

وهناك تأويل آخر حاول الإجابة على خلو الثّلاثة أعياد السّيديّة الكبرى - الميلاد والغطاس والقيامة - من ترديد للمزامير قبل تقديم الحمل، وما أكثر ما قيل في ذلك، وكلها محاولات تطويع ما هو قائم فعلاً دون إلمام بمراحل التّطوُّر اللّيتورجي التي عبرت عليها هذه الجزئيّة من الطّقس. والآن وبعد كل ما سبق ذكره يتّضح أمامنا أن هذه الأعياد الكبرى قد احتفظت بالطّقس القديم الأصيل الذي كان سائداً في كافة القدّاسات على مدار السّنة الطّقسيّة كلها. ومعروف بين كافة علماء اللّيتورجيّا في العالم شرقاً وغرباً - كقانون ليتورجي عام - أن المناسبات الكنسيّة الأكثر قِدَماً في أي كنيسة هي التي تحتفظ بأقدم الممارسات

الطّقسيَّة أو اللّيتورجيَّة لهذه الكنيسة.

كما أن دخول صلوات المزامير في داخل اللّيتورجيّا قد أنتج بعد انتهائها ترديد الشّعب لقانون الإيمان سراً! مع مقدّمته، مع صلوات أخرى مثل الثّلاثة تقديسات والصّلاة الرّبانيَّة. وهذه كلها تستغرق وقت صمت إلى حين غسل الكاهن ليديه. فأن يصير التأكيد من البعض على أنه قد تم ترديد قانون الإيمان سراً قبل تقديم الحَمَل يصبح تأكيداً غير ذي معنى. وهكذا الحال في تأويلات أخرى كثيرة واستنتاجات وإضافات تثقل كاهل الطّقس، وتبعده عن بساطته الأولى.

ولقد أوجز العالم اللّيتورجي الشّهير أنطون بومشتارك A. Baumstark ذلك كله بقوله: "إن طقس التّقدمة Offertory كان يُصاحَب في الطّقس القبطي القديم باللّحن الطويل الرّائع الليلويا، أما الآن فإن طقس تقدمة الحَمَل يُصاحَب بترتيل المزامير، وهو طقس ذو أصول حديثة متأخِّرة. وطقس روما أيضاً تصاحب فيه المزامير تقديم الحَمَل، وكذلك التّناول من الأسرار المقدَّسة، وهو طقس ذو أصول حديثة أيضاً"(١٤٧).

147- Baumstark, A., *Comparative Liturgy*, English Edition By F. L. Cross, London, 1958, p. 137.

الفَصل الثّاني

التئام الجماعة في الكنيسة شرطٌ لبدء الصَّلاة

من قراءة رسالة القدّيس بولس الرّسول الأولى إلى أهل كورنثوس[1]، وأيضاً من رسالة بلينوس إلى طرايانوس ومن شهادة القدّيس يوستينوس الشّهيد (١٠٠-١٦٥م)، وغيره من الكُتّاب المسيحيّين الأقدمين، نعرف أنه في مستهل الخدمة اللّيتورجيّة كان يجري التّرنيم بالمزامير والأناشيد مناوبة حتى تلتئم الجماعة بتمامها.

ويدل على ذلك القانون السّابع والتّسعون من قوانين القدّيس باسيليوس الكبير – وهي قوانين مصريّة الأصل تعود إلى القرن السّادس الميلادي – حيث يقول: "إذا ابتدأوا أن يصنعوا الأسرار، فلا يكن ذلك بقلق. وليأخذوا بترتيل المزامير إلى أن يجتمع الشّعب".

ويوافق ذلك ما يقوله كتاب "رئاسة الكهنوت" (٣:٢) المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي: "يبتدئ رئيس الكهنة بترتيل المزامير المقدّسة، ثم تُتلى قراءة كتب العتيقة والحديثة".

فليست خدمة الكنيسة خدمة كهنوتيّة يؤدّيها رجال الإكليروس للعلمانيين، وكأنهم جعلوا ليلبوا الحاجات الرُّوحيّة للمؤمنين فحسب. فالكاهن لا يحتفل بإقامة الذّبيحة الإلهيّة نيابة عن العلمانيين، وكأن العلمانيين غير مشاركين في الخدمة الإلهيّة مشاركة حقيقيّة.

١- ١كورنثوس ١٤:١١، ٢٦

وإن ما وصل إلينا من الآثار القديمة المكتوبة، يشهد بالإجماع على أن الاجتماع في الكنيسة كان دوماً المرحلة الأولى والأساسيَّة في إتمام الإفخارستيَّا. فكان اجتماع المؤمنين يسبق دخول رئيس الخدمة. ويقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م) في ذلك الأمر عن الكنيسة(٢):

[إنها بيتنا المشترك، وعليكم أن تسبقونا في دخولها ... حتى إذا ما دخلناها نحييكم بإعطائكم السَّلام](٣).

ويقول ذهبي الفم أيضاً مشيراً إلى الجمع الغفير الذي توافد من ضواحي أنطاكية للاشتراك في عيد أحد الشُّهداء:

[هؤلاء الإخوة قد زادوا العاصمة زينة، والكنيسة رونقاً ... وهم إن كانوا يختلفون عنَّا في اللُّغة، ولكنهم متفقون معنا في الإيمان(٤)](٥).

ومن قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة نعرف أن الكاهن لا يبدأ القدَّاس قبل أن يجتمع الشَّعب. فيقول (القانون ٤٠): "لا يقلق أحد من الكهنة عندما يريد أن يقدِّس قبل أن يجتمع الشَّعب ويسمعوا الليلويا(٦)، لأنه مكتوب أن مجد الملك بين جموع كثيرة، والذي يفرِّق ويبدِّد شعب الله من أجل رضى النَّاس، الله يفرِّقه. من أجل هذا لا تستحي أيها الكاهن من قوم، ولكن طوِّل روحك حتى يجتمع الشَّعب. لأن الإنجيلي متى يقول: لما رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل ليصلِّي.

٢- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٢٣

3- PG 57, 384.

٤- أي أنهم كانوا يجهلون اللُّغة اليونانيَّة التي كان يخطب بها، إذ كانت لغتهم هي السِّريانيَّة.

٥- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثَّاني، مرجع سابق، ص ١٥٢

٦- هو لحن ألليلويا القربان، والذي سبق أن أشرت إليه في الفصل السَّابق.

ومرقس يقول: إن جموع المدينة اجتمعوا إلى باب البيت، ولمّا امتلأ البيت كشفوا سقف الموضع الذي كان فيه يسوع، ودلّوا المريض إلى أسفل حتى أبرأه. فلا يقلق أحدٌ من الكهنة في قداسه حتى يكمّله بهدوء".

ويقول العالم اللّيتورجي جريجوري دكس G. Dix : كل الصّلوات الإفخارستيّة بدون استثناء، تعبّر من حيث تركيبتها الحواريّة عن المشاركة في إتمام الخدمة بين رئيس الخدمة والشّعب. فالجماعة تختم كل صلاة من الصّلوات الإفخارستيّة بعبارة "آمين"، إحدى أهم الكلمات في اللّيتورجيا المسيحيّة، التي تصهر شعب الله ومن يرأسه في بوتقة واحدة[٧].

ويوصي البابا كليمندس الرُّوماني (+ ١٠٢م) أهل كورنثوس في رسالته إليهم (٤٠:٥-٣،٤١:١) قائلاً:

> [لرئيس الكهنة مهام خاصة، وللكهنة مكانهم، وللاويين خدمتهم، وللعلمانيين التزاماتهم. فليحاول كل منا يا إخوة، في رتبته، أن يرضي الله بضمير نقي وبكل كرامة، دون تجاوز اختصاصاته ... والذين يخالفون أمره يعاقبون بالموت][٨].

وحين بدأ الطُّغيان الإكليريكي التّدريجي في الكنيسة منذ القرون المبكّرة، وهو ما تشهد عليه قوانين مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، اتسعت الهوّة التي تفصل بين رجال الإكليروس والعلمانيين. فكان من الطّبيعي والحالة هذه أن يتغيّر جو الكنيسة برمّته. ففي نهاية القرن الرّابع كتب القدّيس يوحنا ذهبي الفم يقول[٩]:

٧- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٢٥

٨- أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص اللاهوتيّة، إقليمندس الروماني، تعريب الأب جورج نصور، الكسليك، ١٩٧٥م، ص ٥٢

٩- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٣٣٨، ٣٣٩

[ثمَّة حالات لا يتميَّز فيها الكاهن بشيء عن الخاضعين له، وكذا الحال عند تناول الأسرار المقدَّسة الرَّهيبة. فنحن جميعاً مستحقُّون بالقدر نفسه. لقد تغيَّرت الحال عمَّا كانت عليه في العهد القديم عندما كان للكهنة طعام وللشَّعب آخر. وعندما لم يكن يُسمح للشَّعب بمشاطرة الكهنة طعامهم. اليوم الحال مختلفة. اليوم الجسد ذاته والكأس ذاتها ممنوحان للجميع ... اليوم كلنا نصافح بعضنا بعضاً ...](١٠).

لم يكن إذاً يحق لأي أحد أن يتغيَّب عن الكنيسة دون عُذر، وإلاَّ يكون كمن قطع نفسه من الشَّركة في جسد المسيح المعلن في القدَّاس الإلهي. ونحن لا يمكننا أن ننمو في القداسة بمعزل عن شركة الكنيسة وحياتها وأعضائها. فالكنيسة المجتمعة حول الإفخارستيَّا - حتىَّ لو اقتصر عدد أعضائها على اثنين أو ثلاثة - هي صورة جسد المسيح وعلامة حضوره(١١).

ونحن نصير مستحقِّين أن نتناول جسد المسيح ودمه الأقدسين لأننا نعلنه باجتماعنا، لأن جسد المسيح على المذبح هو هبة معطاة للكنيسة أي للجماعة كلها، في سر وحدة الإيمان ووحدة الحب.

كل من يحضر الكنيسة بفرديَّة وانعزال عن الجماعة بدعوى تقوى شخصيَّة لم يدرك بعد معنى سر الكنيسة. فليست الإفخارستيَّا هي للتَّقديس الشَّخصي فحسب بمعزل عن باقي الجماعة، فيلجأ إليها أو يمتنع عنها كل منَّا، تبعاً لحاجته الرُّوحيَّة التي يقرِّرها هو بحسب معاييره ومزاجه الخاص، ودرجة استعداده أو عدم استعداده، واضعاً جسد الرَّب ودمه في خانة الأمور التي يمكن الاستغناء عنها ولو إلى حين!. بل هي سر الوحدة،

١٠- العظة رقم ١٨ إلى الكورنثيين (PG 61, 527)

١١- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٣٦

وحدة المؤمنين معاً في النّفس والجسد والرُّوح، لأن الكنيسة هي التّجسيد المستمر هذه الوحدة كما في قول قدّاس القدّيس باسيليوس: "اجعلنا كلنا يا سيّدنا مستحقين أن نتناول من قدساتك طهارة (أي تقديساً) لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا، لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ...". هذه هي غاية الاجتماع الإفخارستي[١٢]. وهنا القداسة الشّخصيّة ليست هي الغاية في ذاتها، بل وسيلة كمال الوحدة بين أعضاء الكنيسة الواحدة، فهبات الله هي للأشخاص من أجل تكميل عمل الكنيسة، وليس من أجل ذواتهم وحدهم بمعزل عن الجماعة.

إن مضمون الإيمان ما عاد ضرورياً للتّديُّن الذي حلّ شيئاً فشيئاً محل الإيمان وذوّبه[١٣]. لقد تدنّت التّقوى إلى مستوى التّديُّن الفردي، فصار مفهوم الإيمان ضبابياً إن لم نقل غائباً كلياً على المستويين اللاهوتي والشّعبي. والدّليل على صحة ما نقول هو عدم اكتراث السّواد الأعظم ممن يدّعون لأنفسهم صفة المتمسّكين بالكنيسة والغيارى على تقليدها وحاملي لواء الدّفاع عنها، بمضمون الإيمان الذي به يؤمنون[١٤].

الجماعة في الكنيسة هي صورة جسد المسيح، والكاهن هو صورة رأسه، فهو الرّئيس. وكما أن قداسة الجماعة ليست قداسة الأشخاص الذين يؤلّفون هذه الجماعة بل هي قداسة المسيح فيهم، فكذلك الأمر أيضاً في الكاهن، فكهنوته ليس كهنوته هو بل كهنوت المسيح الذي مُنح للكنيسة لأنها جسده. والمسيح ليس خارج الكنيسة، وهو لم يفوّض سلطته أو قوّته لأحد، إنه هو نفسه في الكنيسة يملأها بروحه القدُّوس. الكاهن لا يمثل المسيح، وليس هو وكيل المسيح. الكاهن هو المسيح في

---

١٢ ـ انظر: الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٢١١ وما بعدها
١٣ ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٢١٨
١٤ ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٢١٨

السرّ تماماً كما أن الجماعة هي جسد المسيح(١٥). وفي نهاية المطاف كل الكنيسة هي العمل الكهنوتي للمسيح(١٦).

مما لا شك فيه أن نقطة انطلاق الخدمة اللّيتورجيّة كانت مشاركة كل المسيحيّين فيها. إذ تشير خبرة الكنيسة الأولى وممارستها ووحدانها إلى أن الذّبيحة لم تكن تقدَّم باسم الجميع وعن الجميع فحسب، بل وبواسطة الجميع أيضاً. وكان مبدأ تقديم القرابين وشرطه هما في أن يُحضر كل شخص قربانه. فكان كل مسيحي يأتي إلى الاجتماع الإفخارستي في الكنيسة حاملاً معه ما يسمح له قلبه وحاله، بتقديمه لسد حاجات الكنيسة(١٧). أي حاجات رجال الإكليروس والأرامل واليتامى والفقراء الذين كانت الجماعة مسؤولة عن تدبير شؤونهم. لأنه بأعمال المحبّة تصير الكنيسة تجسيداً لمحبّة المسيح، فيهتم الجميع بالجميع، ويخدم الجميع الجميع. وكانت هذه الحقيقة هي من الوضوح والبداهة في الكنيسة الأولى ما كان يحمل الأطفال اليتامى والمعدَمين على المشاركة في هذه التّقدمة بإحضارهم ولو ماء الذّبيحة مساهمة منهم في تقدمة المحبّة هذه.

إذاً حين يُحضر كل مؤمن قربانه الفردي فهو يشارك الجميع في قربان الكنيسة جمعاء.

وقد أنيط بالشّمامسة مسؤوليّة تلقّي القرابين واختيارها وتحضير الأجزاء التي ستكون "مواد" السّر كتعبير عن هذه المحبّة المتبادلة بين

١٥ـ الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٣٨
١٦ـ الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٢٠٦
١٧ـ ٢ كورنثوس ٩:٧

الجميع[١٨]. كانت خدمة القرابين من اختصاص الشَّمامسة وبقيت كذلك حتى القرن الرَّابع عشر حين كانوا يحضرون القرابين المقدَّسة إلى رئيس الخدمة لبدء "التَّقدمة prothesis " أي الإفخارستيَّا تحديداً[١٩].

ومن أقدم الإشارات الآبائيَّة عن تقديم القرابين في القدَّاس الإلهي نقرأها في رسالة البابا كليمندس الرُّومانيّ (+ ١٠٢م) إلى أهل كورنثوس حين يقول لهم:

[... لقد أمرنا (السيِّد) بأن نفي ما علينا من قرابين وعبادة، لا كيفما يكون وبغير نظام، ولكن في مواعيد وأوقات معيَّنة، وحدَّد بنفسه وبملء إرادته أين وبواسطة مَن من الخدَّام يجب أن نفي، لكي يتم كل شئ بقداسة وفقاً لإرادته، فيكون مرضياً له. لذلك فإن الذين يقدِّمون قرابينهم في الأوقات التي حدَّدها يروقون في نظره فيباركهم، لأنهم بإتِّباع تعليمات السيِّد لا يمكنهم أن يخطئوا ... فليس في كل مكان يا إخوة تقدَّم الذَّبيحة الدَّائمة أو ذبيحة النَّذر أو الذَّبيحة من أجل الخطايا والزَّلات، ولكن في القدس فقط. وليس في أي مكان تقدَّم، بل على المذبح في مواجهة الهيكل، وذلك بعد أن يقوم رئيس الكهنة والخدَّام الآخرين الوارد ذكرهم أعلاه بفحص التَّقدمة بكل عناية] (٢:٤٠-٢:٤١)[٢٠].

فلم تكن الصَّلوات الإفخارستيَّة تبدأ قبل أن يحضر المؤمنون إلى الكنيسة حاملين معهم قرابينهم التي يختار منها الشَّمامسة مادة السِّر المقدَّس، ومن ثمَّ، فمنذ البدايات الأولى للكنيسة لم تكن هناك قوانين

١٨- هذا كان في البدايات الأولى للكنيسة قبل صدور قوانين كنسية تُلزم بخبز القربان في فرن الكنيسة.

١٩_ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٥٦، ١٥٧

٢٠_ أقدم النصوص المسيحيَّة، سلسلة النصوص اللاهوتيَّة، إقليمندس الروماني، تعريب الأب جورج نصور، مرجع سابق، ص ٥١، ٥٢

تحض المؤمنين على ضرورة الحضور إلى بيت الرَّب، إذ كان الأمر بديهياً، بل إيجابياً، حيث يحضر المؤمن ليس بيدين خاويتين، بل حاملاً معه قرابينه.

وكان إعداد القرابين في كل الطُّقوس منذ البداية هو عمل الشمَّاس وليس الكاهن. ثم دخلت مع توالي الأيام عن الأقباط والسِّريان واليونان - ومعهم الأرمن - عادة أن يهيئ الكاهن القرابين في بدء اللِّيتورجيَّة أي الخبز والخمر بموازرة الشمَّاس، ويضعها على المائدة بحسب ترتيب كل طقس.

فمن قوانين يوحنا أسقف موزلتا وهو أسقف سرياني أنطاكي، يقول في قانونه الثَّاني مخاطباً الشمَّاس: "إذا أمرك القسِّيس أن تعزل القربانات للقدَّاس وتأتي بها إلى المائدة، فيجب عليك أن تلاحظ عدد الذين يتناولون الجسد ... وإن توفَّرت القربانات التي يقدِّمها المؤمنون فاجعل لكل عشرة من المتناولين قربانة. اسكب الخمر الذي يؤتى به في إناء واحد، ومن ذلك الإناء اسكب للقربان".

أما القانون الخامس لنفس هذا الأسقف فيقول فيه: "ضع الكأس عن شمال القُربانات، واحذر أن تكون الخمر متغيِّرة، واعتنِ كل الاعتناء بمزجها"[٢١].

وهنا يتَّضح أن الطَّقس السِّرياني الأنطاكي القديم كان ينيط بالشمَّاس إعداد القرابين. ثم عبرت مرحلة انتقاليَّة حين أصبح إعداد القرابين من عمل الكاهن، ولكن يجوز للشمَّاس ذلك إذا أراد. ففي كتاب "الهدى" للموارنة، وفي باب القرابين، نقرأ النَّص التَّالي: "إن

٢١- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.

أحبّ الشمّاس أن يرتّب القربان والخمر على المذبح ... ويغطيهما ... كان ذلك جائزاً له"(٢٢).

ومن أبدع ما ورد في قوانين الكنيسة القبطيّة عن تقديم القرابين في القدّاس الإلهي وأهميّتها، هو ما نقرأه في قوانين البابا غبريال الثّاني بن تُريك (١١٣١- ١١٤٥م)، إذ يتّضح لنا حنكة هذا البابا البطريرك ومعرفته العميقة بمفهوم تقديم القرابين ومعناه اللّيتورجي، فيقول(٢٣): "يا أحبائي، أنتم عارفون بما أُمرنا به من حمل القرابين والعشور لبيت الله. ويحذروننا أن نقف قدّام الله وأيدينا فارغة(٢٤). ويؤثر ضعفي من صلاحكم أن يضع كل واحد منكم في نفسه ألاّ يحضر إلى البيعة وهو صفر اليدين **ليتقرّب من صدقة غيره**، بل يقدّم ما تيسّر له تبعاً لظروفه الحاضرة سواء كثير أو قليل. فإن الله يقبل الكثير والقليل إذا كان بنيّة خالصة. ومن شهادة الرّب لصاحبة الفلسين ما يقنع بذلك(٢٥). من له أذنان سامعتان فليسمع"(٢٦).

وتعبير "ليتقرّب من صدقة غيره" يشرح لنا أن الكنيسة لا تطلب تقديم العطايا والنّذور من أجل التّقدمات في حد ذاتها؛ بل لأنها تعبير عملي عن رغبتنا الحقيقيّة في شركة الجماعة، وهي الشّركة التي تسوّغ لنا الاشتراك في جسد الرّب ودمه الأقدسين.

وبعد ازدياد عدد المسيحيّين صار من المستحيل عملياً تطبيق هذا الأمر، فانحصرت المشاركة الحقيقيّة للمؤمنين في حياة الكنيسة اليوم في المساهمة الماليّة بشكل رئيسي، ويكفي أن يخصّص جانب من هذا المال

٢٢- البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٠٢

٢٣- القانون رقم ١٦ من مجموعة قوانين الـ ٣٢ قانوناً للبابا غبريال الثاني.

٢٤- انظر: تثنية ١٦:١٦

٢٥- انظر: مرقس ٤٢:١٢

٢٦- انظر: متى ١٥:١١

لتقديم القرابين. فتغيَّر نوع العطاء، وبالتَّالي نوع المشاركة، فكان من البديهي أن يؤدي هذا التَّغير السَّريع في الدَّور الاجتماعي للكنيسة إلى إفراغ الاجتماع الإفخارستي من معناه الأوَّل بعدما كان هذا العمل هو محور كل حياة الكنيسة. فكان لازماً على الكنيسة الإبقاء على خدمة القرابين من حيث الشَّكل على الرَّغم من عدم قدرتها عملياً على تلبية حاجات الجماعة إلاَّ في وقت آخر بعيداً عن الاجتماع الإفخارستي. فكان أن تحوَّلت الكنيسة إلى منظَّمة معقَّدة يسيرها جهاز إداري ضخم، بغية توفير حاجات المؤمنين بهذا العدد الكبير.

وثمَّة أمر آخر تسبَّب في انعزال العلمانيِّين عن المشاركة الفعليَّة في الخدمة اللِّيتورجيَّة، ربما سبَّبه انعزال الهيكل عن صحن الكنيسة بحجاب ظهر في المعمار الكنسي مؤخَّراً يخفي من ورائه كل شيء، وكأننا نعود إلى الحجاب الذي هدمه المسيح بصليبه وموته، والذي كان يفصل قديماً بين القُدس وقدس الأقداس.

فالهيكل في كنيسة العهد الجديد هو مكان اتحاد السَّماء والأرض والخليقة جمعاء بالمسيح، اتحادٌ هو جوهر وجود الكنيسة وغايتها النهائيَّة(٢٧). كما أن الهيكل مفتوح على صحن الكنيسة وليس محجوب عنه كما حدث في القرون المتأخِّرة بإيقونستات يحجب ما وراءه، لأن انعزال الهيكل عن صحن الكنيسة، واعتبار الهيكل هو المكان الذي لا يحق للعلمانيِّين دخوله قد أنشأ شعوراً بالانعزاليَّة عند العلمانيِّين كونهم مجرَّد مشاهدين لطقوس يجريها العارفون، وهم طغمة الإكليروس. فالإيقونستات لم يوجد لكي يفصل بين العلمانيِّين والإكليروس، أي كحائط يفصل العلمانيِّين عن المكان المقدَّس، ومن ثمَّ لا يجوز عبوره.

٢٧- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٣٠

إنما الإيقونستاسات قد شُيِّد ليحمل أيقونات المسيح والقدّيسين، لتتأكّد الشّركة بين السّمائيِّين والأرضيِّين، ولكي يتّضح للنّاظرين أن الكنيسة بيت الصّلاة هي السّماء على الأرض، ومكان التقاء العالم غير المنظور بالعالم المنظور(٢٨).

فالإيقونستاسات الذي كان في أصوله الأولى صفاً من الأيقونات تستند على دعائم، قد تحوَّل إلى فاصل مزدان بالأيقونات التي تحجب الهيكل من ورائها عن عيون الشّعب. وعلى رأي الأب ألكسندر شيمان: "كانت الأيقونات في حاجة إلى فتحات تظهر منها، فصارت اليوم الفتحات في حاجة إلى أيقونات تسدها، سالخة بذلك العلّة الأساسيّة لوجودها، لتصبح لوحات تزيينيّة قائمة بذاتها"(٢٩).

نحتاج أن نتطلّع إلى المذبح والهيكل عبر أيقونات القدّيسين، لا أن يُحجب الهيكل عن عيوننا بأيقوناتهم. فالكنيسة بهيكلها وصحنها كلها مكان مقدّس، لأنه كما يُدشَّن الهيكل والمذبح بالميرون المقدّس، فصحن الكنيسة أيضاً وجدرانه تدشَّن بالميرون المقدّس.

وتشهد الوثائق القديمة أن "الأبواب الملوكيّة" كانت تُطلق على أبواب الكنيسة نفسها، وليس على أبواب الهيكل. لأن الكنيسة كلها تُعتبر بمثابة السّماء على الأرض(٣٠).

وكان المؤمنون في القرون الفائتة يخلعون أحذيتهم من أرجلهم عند دخول الكنيسة، وليس عند دخول الهيكل فحسب، كما نمارس اليوم.

ويقول القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م):

٢٨ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٣١

٢٩ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٣٢

٣٠ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٣٤

[عندما أتى المسيح وتألم خارج أسوار المدينة طهَّر الأرض بأسرها، جاعلاً كل بقعة من بقاعها مذبحاً ... فهل تريدون أن تعرفوا كيف استحالت الأرض برمَّتها معبداً؟][٣١].

إن مشاركة العلمانيِّين في الإفخارستيَّا تحوَّلت إلى حضور سلبي، فغيرهم يحتفل عنهم بالقدَّاس الإلهي. وفي حين كانت الحدود التي تفصل هذا العالم عن الكنيسة تضم العلمانيِّين فيما مضى، فهي اليوم تقصيهم عنها خارجاً ... إن التَّسمية السَّابقة (للعلمانيِّين هي) Laikos وتعني أفراد شعب الله أي "الشَّعب الذي اقتناه الله" (١بطرس ٢:٩)[٣٢].

إن البُعد الإلهي للإنسان، وطبيعته ورسالته لا يمكن أن يطمسه الابتعاد عن التَّعليم الآبائي الأوَّل للكنيسة. فهذا هو ما كرزت به الكنيسة منذ نشأتها. فشعب الكنيسة بإيمانه الحار، ورفضه القاطع للخطيئة بكل أشكالها، حتى العصريَّة منها، هو الذي حفظ الكنيسة حتى اليوم.

أمَّا أن تعتبر الخطيئة أمراً طبيعياً أتى نتيجة حتميَّة لضعفنا وعدم كمالنا اللَّذين باتا ملازمين طبيعتنا، في حين ننظر إلى قداسة القدِّيسين وكمالهم وكأنهما أمرٌ خارقٌ يفوق قدرة البشر، فهذا هو الجهل في إدراك المصير الإلهي للإنسان والطَّبيعة والكون[٣٣].

وفي الختام يقول الأنبا ساويرس ابن المقفع (تنيَّح بعد سنة ٩٨٧م): "النَّهار والليل أربعة وعشرون ساعة، جُعل للإنسان منها ثلاث دفوع يحضر فيها الكنيسة باكراً وعشية ووقت القدَّاس، وجملة هذه الدفوع ما

٣١- العظة الثانية له على الصليب واللص (PG 49, 409).
٣٢- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٣٤٠
٣٣- انظر: الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠

تبلغ ساعتين، ويبقى له اثنان وعشرون ساعة يعمل فيها معيشة الجسد الفانية ... هذه الثلاثة يا حبيب التي ذكرتها لك بها يثبت الرُّوح القُدُس في المؤمنين، وبه يغلبون الشياطين، أعني المضي إلى الكنيسة بكرة وعشية كل يوم، وملازمة كل قدّاس من أوله إلى آخره، وسماع كتب الله يوم الأحد جميعه، هذه الثلاثة إذا لازمها الإنسان يثبت فيه الرُّوح القُدُس، فيكون أبداً مولوداً من الله ... وقت القدّاس لازم كل يوم مقدار ساعة واحدة في كل أربعة وعشرين ساعة، فليس في ذلك خسارة أيضاً"(٣٤).

٣٤- الأنبا ساويرس ابن المقفع، الدُر الثّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣.

القسم الثّاني

أقسام القدّاس الإلهي

الباب الأوَّل

تقـــديم الحَمَـــل

الفَصل الأوّل

حول طقس تقديم الحَمَل

تمهيد

إلى جانب قدّاس الموعوظين وقدّاس المؤمنين فإن طقس تقديم الحَمَل كان هو الطِّقس الممهِّد لبدء قدّاس المؤمنين، لأن طقس تقديم الحَمَل هو طقس تقديم عناصر الإفخارستيّا من خبز وخمر ممزوج بالماء استعدادا للتّقديس عليها.

والآن علينا أن نبحث عن الموضع اللّيتورجي القديم لطقس تقديم الحَمَل بين القسمين الآخرين من القدّاس أي قدّاس الموعوظين وقدّاس المؤمنين. هذا ما نود أن نشرحه في السُّطور التّالية.

موضع طقس تقديم الحَمَل في القدّاس الإلهي

إن طقس تقديم الحَمَل لم يكن يسبق قدّاس الموعوظين كما هو حادث اليوم، بل كان يعقبه، إذ لم يكن ممكناً للموعوظين الاشتراك في الصّلاة سوى سماع الرّسائل وفصل الإنجيل المقدّس والعظة وبعض الأواشي.

ثم أن طقس تقديم الحَمَل كان طقساً يشترك فيه كل المؤمنين في تقريب تقدماتهم إلى الشّمامسة الذين كانوا بدورهم ينقلونها إلى الأسقف. ومن هذه التّقدمات تُنتقى العناصر اللازمة لتكميل الذّبيحة الإفخارستيّة، وهي الخبز والخمر والماء. فلم يكن أحداً من المؤمنين يدخل الكنيسة للاشتراك في القدّاس الإلهي بيدين فارغتين، بل كان موقناً بكل

يقين داخلي أنه لابد أن يقدِّم تقدمته للكنيسة مهما كانت ضئيلة، لأنها تؤهِّله لشركة فعلية في سرّ الشّركة والشُّكر. لأننا حين نقدِّم تقدماتنا للمسيح، فنحن نعبِّر بذلك عن تقديم حياتنا له. ومهما قدَّمنا من تقدمات، فهي لا تساوي ما سبق أن قدَّمه المسيح لنا لمّا بذل نفسه وحياته من أجلنا. وهذا التّبادل الحي بيننا وبين المسيح، وبين تقديم حياتنا له عرفاناً بحياته التي قدَّمها عنا هو مؤهِّل حتمي لبدء صلاة القدّاس الإلهي وتحقيقها. لأن مشاركة الجميع في تقديم القُدسات هو إيذان ببدء الصّلاة.

وفي شرح ذلك الأمر يقول البابا غبريال الثّاني بن تريك (١١٣١-١١٤٥م) البطريرك السّبعون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة، وفي قانونه رقم (١٦) ما يلي: "يا أحبائي، أنتم عارفون بما أُمرنا به من حمل القرابين والعشور لبيت الله. ويحذِّروننا أن نقف قدَّام الله وأيدينا فارغة[١]. ويؤثر ضعفي من صلاحكم أن يضع كل واحد منكم في نفسه ألاّ يحضر إلى البيعة وهو صفر اليدين ليتقرَّب من صدقة غيره، بل يقدِّم ما تيسَّر له تبعاً لظروفه الحاضرة سواء كثير أو قليل. فإن الله يقبل الكثير والقليل إذا كان بنيَّة خالصة. ومن شهادة الرَّب لصاحبة الفلسين ما يقنع بذلك[٢]. من له أذنان سامعتان فليسمع[٣]".

وبالطّبع لم يكن ممكناً للمؤمنين تقديم القرابين والعطايا والنُّذور في حضور الموعوظين، بل كان هذا الطّقس يجري بعد خروجهم من الكنيسة. ولكن مع مرور السِّنين تعدَّل طقس التَّقدمة prothesis ليوائم التَّطور الجديد الذي حدث بعد ازدياد أعداد المؤمنين بصورة تعذَّر معها الحفاظ على الطّقس القديم. فقد انتقل طقس تقديم الحَمَل أي طقس

١- انظر: تثنية ١٦:١٦

٢- انظر: مرقس ١٢: ٤٢

٣- انظر: متى ١١: ١٥

التّقدمة prothesis إلى ما قبل قدّاس الموعوظين فيما بين القرن السّابع والقرن الثّامن للميلاد، ثم اتخذ تدريجياً شكله الحالي في الكنيسة البيزنطيّة فيما بين القرن الثّاني عشر والرّابع عشر[٤]؛ إلاّ أنه صار كما هو بطقسه القديم في الكنيسة القبطيّة بعد نقله إلى ما قبل قدّاس الموعوظين.

وما يدعّم هذا الأمر، أي ما يثبت أن طقس تقديم الحَمَل كان يعقب قدّاس الموعوظين ولا يسبقه، هو أن مرد الشمّاس ذو الأصل اليوناني الذي يقول فيه: προσφέρειν κατὰ τρόπον (بروسفارين كاتا تروبون)، والذي يأتي الآن في نهاية قدّاس الموعوظين، وبعد القُبلة المقدّسة يعني: "لتقدّموا على الرّسم"، وليس "تقدّموا على الرّسم" [٥]. أي لتقدّموا القرابين بحسب الطّقس أو بحسب التّرتيب المعروف. ففي هذا الوقت عينه كان يتم تقديم القرابين، أي أنه في هذه اللّحظة عينها كان يبدأ طقس تقديم الحَمَل. وهذا المرد في الكنيسة اليونانيّة حتى اليوم هو: "لنقدّم بسلام القربان المقدّس"، فواضح هنا أن نداء الشمّاس يكون لتقديم القرابين بعد انتهاء قدّاس الموعوظين وخروجهم، بل وبعد القُبلة المقدّسة بين المؤمنين[٦]. وسوف نعود لنشرح هذه النُّقطة بتفصيل وافٍ عند حديثنا عن القُبلة المقدّسة في مستهل قدّاس المؤمنين. ونشرح كيف أن كل الكنائس كانت تمارس تقديم الحَمَل أي طقس التّقدمة بعد القُبلة مباشرة. كما أننا قد سبق أن إشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قدّاس ما قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

كما أننا نجد في قوانين الرُّسل القبطيّة أن تقديم القرابين يكون بعد

---

٤ ـ فريد حدّاد، ذبيحة التسبيح، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٤١

٥ ـ لشرح هذه الجزئيّة من وجهة قواعد اللغة اليونانيّة، يُرجى الرجوع إلى كتاب "معجم المصطلحات الكنسيّة (١/٦)، الجزء الأول" تحت كلمة "بروسفارين" للمؤلف.

٦ ـ انظر: خدمة القداس الإلهي لأبينا الجليل في القديسين يوحنا ذهبي الفم، حسب الطقس البيزنطي، القاهرة، إبريل، ١٩٧٠م.
Cf. also, Brightman, *op. cit.*, vol.1, Oxford, 1967, p. 309ff

القُبلة المقدَّسة، وليس قبلها، أي بالضَّرورة بعد انتهاء قدَّاس الموعوظين. يقول القانون (١:٣٤) "وإذا فرغوا من الصَّلاة، يعطون السَّلام لبعضهم بعضاً بأفواههم (أي القُبلة المقدَّسة). وليدخل الشَّمامسة بالقرابين إلى الأسقف (أي تقديم الحَمَل)، وليشكر الأسقف على الخبز والكأس، ليصيرا جسد المسيح ودمه، هذا الذي أُهرق عنَّا كلّنا، نحن الذين آمنَّا به".

وفي نص القانون (١:٥٢:١٣، ١٤) من قوانين الرُّسُل القبطيَّة نتيقَّن أن غسل الكاهن ليديه تمهيداً لتقديم الحَمَل يكون بعد انصراف الموعوظين من الكنيسة، فيقول القانون:

"وليأت إيبودياكون بماء للكهنة ليغسلوا أيديهم مثالاً لطهارة أنفسهم المكرسة لله.

وليصرخ شماس آخر: لا يقف ههنا موعوظ، أو واحد من السَّامعين لا يشترك في الأسرار، ولا أحد من غير المؤمنين، ولا أحد من الهراطقة. أيتها النِّساء امسكن أولادكن، ولا يدع أحد في قلبه وجداً على آخر، ولا يقف أحد ههنا برياء. كونوا مستقيمين إلى الرَّب، ولنقف بخوف ورعدة".

ونفس القانون (١:٥٢) من قوانين الرُّسُل القبطيَّة السَّابق ذكره يوضِّح ذلك الأمر بكل جلاء أيضاً، حين يذكر أنه بعد أن يقول الشمَّاس: "لنقف بخوف ورعدة"، يقول "بروسفارين"[٧]، ثم يقول القانون: "وإذا تم هذا فليأت الشمَّاس بالخبز للأسقف إلى المذبح ...". وواضح هنا تماماً أن تقديم الحَمَل يكون بعد نداء الشمَّاس "بروسفارين"[٨].

٧ـ جاءت في المخطوطات في صيغة "برسفارن" وناسخ أحد هذه المخطوطات يكتب بين السُّطور προσφεριν. ولتفصيلات أوفر انظر للمؤلف: كتاب "قوانين الرُّسُل القبطيَّة".

٨ـ انظر أيضاً الدسقوليَّة، الفصل ٣٨.

وما يؤكّد أن تقديم القرابين كان يعقب قدّاس الموعوظين ولا يسبقه هو أن ليتورجيّة مار يعقوب أخي الرّب اليونانيّة تخلو في بدايتها من ذكر تهيئة الخبز والخمر، وإنما يرد فيها ذكر رفع الكاهن للخبز والخمر إلى المذبح بعد إطلاق الموعوظين أي تسريحهم. كما أن ليتورجيّة مار مرقس اليونانيّة تخلو هي الأخرى من ذكر تهيئة القرابين في بدء اللّيتورجيّا، وقد استبقت طقس الطّواف بالخبز والخمر في موضعهما الطّقسي القديم أي بعد تسريح الموعوظين من الكنيسة[٩].

أما الشّهادة الوثائقيّة الفاصلة في هذا الأمر، والتي عثرتُ عليها مؤخّراً[١٠]، فتأتينا من القرن العاشر الميلادي، وهي شهادة أسقف عالم من أساقفة الكنيسة القبطيّة هو أنبا مقاره أسقف منوف العليا، وسكرتير المجمع المقدّس، وسكرتير البابا قزمان الثّالث (٩٢٠-٩٣٢م) البطريرك الـ ٥٨ من بطاركة الكنيسة القبطيّة.

وكان أنبا مقاره هذا قد كتب رسالة بالغة الأهميّة[١١] يجيب فيها

٩- انظر: البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

١٠- ظللتُ أبحث عن هذه الشهادة الوثائقيّة بالغة الأهميّة بكل صبر ورجاء، وذلك بعدما قرأت إشارات عنها عند الأب لويس فيلكور Louis Villecourt في كتاب له بالفرنسيّة بعنوان: ''رسالة مقارة أسقف منوف عن الليتورجيّة القديمة للميرون والمعموديّة في الإسكندريّة''.

Louis Villecourt, *La lettre de Macaire, évêque de Memphis, sur la liturgie antique du Chrême et du Baptême, à Alexandrie*, t. XXXVI, Louvain, 1923.

وكانت هديّة الرّب لي، صورة كاملة من مخطوط رقم (١٠٠ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس، وصلتني من باريس حتى باب الدير. فللرب كل الشّكر، وللأحباء الذين تعبوا معي في هذا الأمر جزيل الثناء، وليعوضهم الرب أجراً سمائياً.

١١- هذه الرسالة تحتل عشر صفحات ونصف من صفحات مخطوط ١٠٠ عربي بالمكتبة الأهليّة بباريس. ونشرتها كاملة بالعربية في كتاب ''سر الروح القدس والميرون المقدّس'' (٣/٢)، وهو الكتاب الثاني من السّلسلة الثالثة من كتب الدّرّة الطقسيّة.

على سؤال بعض الأراخنة عن سبب عمل الميرون في يوم خميس العهد، وليس في يوم الجمعة العظيمة كما كانت العادة عند الأقباط. وظلّت الرِّسالة حبيسة دار المطرانيَّة حتىّ كشفها أنبا يوساب أسقف نفس الإيبارشيَّة (منوف العليا) في القرن الثّالث عشر وكان معاصراً للبابا أثناسيوس الثّالث بن كليل (١٢٥٠ـ ١٢٦١م) البطريرك الـ ٧٦ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وهي محفوظة باللُّغة العربيَّة في مخطوط رقم (١٠٠ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس[١٢]. وقد نُشرت بالفرنسيَّة لأوَّل مرَّة في لوفان (بلجيكا) سنة ١٩٢٣م. ويُنشر فيما يلي جزء منها باللُّغة العربيَّة لأوَّل مرَّة طبقاً لنص المخطوط.

جانب من رسالة أنبا مقاره أسقف منوف العليا في القرن العاشر

يقول أنبا مقاره[١٣]: "... وفي الجيل الاول ما كانوا يعمدوا اطفال بل من قد كملوا عمرهم يدعون كاتيخومانس وهم الدين يعطوهم المعموديه ويعلموهم دين النصرانيه الى تلث سنين ويعمدون ومن احل هدا صار الرسم في الكنايس هدا الوقت في خروج قدس القدّيسين الى المدبح بعد قرآة الانجيل وهو ان ينادي الشمَّاس ويقول ينصرفوا الموعوظين ويغلقوا الابودياقنيين الابواب لانهم جعلوا لهم قانون ان يبادروا الى البيعه ويقفون في الصلوات وقرآة الميامر ويسمعون قرآة كتب الانبيآ

١٢ـ تم الانتهاء من نساخة هذا المخطوط في سنة ١٠٦٢ للشهداء/ ١٣٤٦م، وهي السَّنة التي تم فيها عمل الميرون للمرة الثانية على يد البابا بطرس الخامس (١٣٤٠ـ ١٣٤٨م) البطريرك الـ ٨٣ في دير أنبا مقار. وكان المهتم به هو أنبا غبريال أسقف كرسي الأهناسية ومدينة بنا الكبرى وما يُضاف إليها من البلاد والقرى. أما ناسخه فهو كاهن يُدعى القس بطرس المصري.

١٣ـ النص منقول من المخطوط ١٠٠ عربي باريس (ص ٩ وجه، و٩ ظهر، ١٠ وجه) بكل دقة.

والرسايل والانجيل المقدّس فيخرجوهم ويغلقوا الابواب لانهم ما عمّدوا ولا يستحقوا ان ينظروا قدس القديسين وهو الحَمَل النقي من الدنس الدي يقدموه على المدبح ويفصّل ليتناوله المومنون لمغفرة خطاياهم. حاشيه كان يخرج القربان من الهيكل الدي هو هيكل التقدمه الى حيث يقرا الانجيل بعضوا الكهنه مبدلين بالشمع والبخور ويقدّم الى المدبح الدي للصعيده عند دلك يخرج الموعوظين وهدا الرسم انقطع من ديار مصر عند القبط. النص ولما كان اخر الازمان قطعوا معموديه الرجال وصيّروها للاطفال اد كانوا مولودين على امانة المسيح ...".

ومن هذه الشهادة الوثائقيّة - التي سنعود إليها مرّة أخرى فيما بعد بشرح أكثر تفصيلاً - يتّضح لنا جلياً أن أنبا مقاره يشرح لنا طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيّة حين كانت طغمة الموعوظين لازالت موجودة في الكنيسة. فيذكر أن تقديم الحَمَل يكون بعد الانتهاء من قراءة فصل الإنجيل المقدّس والذي هو خاتمة القراءات من كتب الأنبياء ورسائل العهد الجديد. وبعد نداء الشمّاس بانصراف الموعوظين، حيث يخرجون، فيغلق مساعدي الشّمامسة أبواب الكنيسة، لأن الموعوظين لا يستحقون أن ينظروا الحَمَل، الذي هو قدس القدّيسين، لأنهم لم يعتمدوا بعد.

وبعد انتهاء رتبة الموعوظين من الكنيسة في غضون القرن السّادس أو ربما السّابع للميلاد، صار قدّاس الموعوظين وحدة واحدة مع قدّاس المؤمنين، فانتقل طقس تقديم الحَمَل ليصبح سابقاً لقدّاس الموعوظين بعد أن كان لاحقاً له. فانحصر قدّاس الموعوظين بين تقديم الحَمَل وقدّاس المؤمنين، وهي الفترة الزّمنيّة من القدّاس الإلهي التي تظل فيها القرابين مغطّاة بالإبروسفارين. ولكنه لازال عند الأرمن في نفس موقعه القديم بعد القراءات وقانون الإيمان، ونفس الأمر أيضاً عند اللاتين.

ولقد انتقل طقس التَّقدمة prothesis في الكنيسة البيزنطيَّة إلى ما قبل قدّاس الموعوظين فيما بين القرن السَّابع والقرن الثَّامن للميلاد، ثم اتخذ شكله اللِّيتورجي الحالي ما بين القرن الثَّاني عشر والرَّابع عشر للميلاد(١٤).

جدل لاهوتيّ حول الغاية من طقس تقديم الحمل

لقد تعرَّض طقس تقديم الحَمَل أو طقس التَّقدمة prothesis – كما في باقي أقسام القدَّاس الإلهي – لجدل لاهوتي نشأ أولاً في الغرب واحتدم فيه إلى حد بعيد، قبل أن يطال الشَّرق المسيحي شيء منه، إذ ظلّ هذا الأخير لا يعبأ بهذا الجدل كثيراً، فسمة اللاهوت الغربي أنه لاهوت مدرسي المنهج يُخضع كل شيء للتقسيم والتَّبويب والفحص والتَّحليل والاستنتاج. فلما طال هذا اللاهوت أسرار الكنيسة وصلواتها اللِّيتورجيَّة تورَّط في شرح السَّمائيَّات بمنهج الأرضيَّات، وأخضع السّر لمنطق العقل، فغاص في متاهات لا قرار لها، لأنه حاد حيناً عن التَّعليم الآبائي الذي لا يفصل بين اللاهوت والعبادة والخلاص، والذي يعطي الإيمان دوره اللائق به في حياة الكنيسة. لا ننكر أنه يمكن للذهن المستنير بالنِّعمة أن يفحص أسرار الكنيسة وعقيدتها ولكن إلى حدود يتعذَّر عليه تخطِّيها، ومن ثمّ وعند هذا الحد لابد أن يفسح مجالاً للإيمان، ليوقن بقلبه الدَّاخلي بما لا يمكن لذهنه أن يستوعبه، وإلا فكيف تظل أسرار الكنيسة وعقائدها أسراراً متى تم إخضاعها للعقل والمنطق والتَّحليل؟.

أما الجدل اللاهوتي السَّرائري الذي نشأ في شرح طقس تقدمة الحَمَل أو طقس التَّقدمة prothesis فمفاده أن عناصر الذَّبيحة بينما لا تزال لم تتقدَّس بعد في صلوات القدَّاس الإلهي، قد أصبحت ذبيحة حقيقيَّة true

١٤ـ فريد حدَّاد، ذبيحة التسبيح، مرجع سابق، ص ١٤١

sacrifice كاملة التّقديس من جرّاء منطوق الصّلوات نفسها، والممارسات اللّيتورجيَّة الّتي تصاحب هذا الطّقس. فالغرب المسيحي يعطي لتقدمة القرابين Offertory ذات الأهمّيَّة الّتي يعطيها للتّقديس Consecration والتّناول Communion [١٥].

وبرغم عدم تركيز الشّرق المسيحي على مثل هذا التّقديس الذي يتم في طقس التّقدمة prothesis ، إلاّ أن نصوص الصّلوات اللّيتورجيَّة في الشّرق المسيحي في هذا القسم من القدّاس والممارسات الطّقسيَّة المصاحبة له ظلّت حتّى اليوم تحفظ هذا الأمر وتشرحه.

ففي طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة على بساطته الشّديدة في حضور كل الشّعب وعلى مشهد منه، برغم أنه تلخيص ملهَم للجزء السّرّي من العشاء الرّباني الأخير، عندما أخذ الرّب خبزاً على يديه في ممارسة سريَّة تكتنفها الرَّهبة والخشوع، مباركاً الله الآب، فصار الخبز في يديه هو جسده الحقيقي الذي يبذله عن كثيرين، بسر لا يعبّر عنه. وهذا هو نفس ما يفعله الكاهن في طقس تقديم الحَمَل حينما يحمل الخبز على يديه ويبارك الآبِ والابن والرُّوح القُدُس قائلاً: "مباركٌ الله الآب ضابط الكل"، "مباركٌ ابنه الوحيد يسوع المسيح ربُّنا"، "مباركٌ الرُّوح القُدُس البارقليط". ثم يعود الكاهن ليكرِّر نفس الصِّيغة في داخل الأنافورا عندما يضع الخبز على يديه، ولكنه هذه المرَّة يقول واصفاً ما تمت ممارسته في طقس تقديم الحَمَل، فيقول بصيغة الماضي: "وشكر، وبارك، وقدّس" ولذلك تُسمى الأنافورا في هذا الجزء من القدّاس "القدّاس الوصفي"، أو "الإفخارستيَّا الوصفيَّة".

15- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 131.

ثم أن الكاهن في نهاية طقس تقدمة الحَمَل يصلي صلاة سريَّة تُدعى "صلاة التَّقدمة للابن"، وهي صلاة استدعاء لأقنوم الابن الكلمة لكي يجعل من الخبز جسده المقدَّس ومن المزيج الذي في الكأسِ دمه الكريم. فيقول الكاهن مخاطباً السيِّد الرَّب يسوع المسيح قائلاً: "... أظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس ... باركهما، قدِّسهما، طهِّرهما **وانقلهما**، لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدَّس، والمزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم. وليكونا لنا جميعاً ارتقاء وشفاء وخلاصاً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا ...".

ونفس الأمر نجده في الطَّقس البيزنطي، فهناك صلاة ليتورجيَّة طويلة في الكنيسة البيزنطيَّة بدايتها "يا الله إلهنا الذي أرسلت ربَّنا يسوع المسيح ليكون الخبز السَّمائي غذاء لكل العالم ..."، فيها يصل النَّص الليتورجي إلى أوج معناه في بداية طقس التَّقدمة prothesis عندما يتم تقسيم الخبز[١٦]. إذ يُعتبر هذا التَّقسيم تقريب حقيقي لحمل الله، حيث يصاحب هذا التَّقسيم صيغة ليتورجيَّة يعلنها الكاهن مرتبطة بتقدمة الذَّبيحة هي:

Θύεται ὁ ἀμνὸς τοῦ Θεοῦ ὁ αἴρων τὴν ἁμαρτίαν τοῦ κόσμου.

"يُذبح حَمَل الله الذي يحمل خطيئة العالم"

حيث تأتي كلمة "يُذبح" متصدِّرة هذه الصِّيغة اللِّيتورجيَّة في نصِّها اليوناني، لتشير إلى أهمِّيتها كمحور هذه الممارسة الطَّقسيَّة.

وهناك أيضاً ممارسة طقسيَّة في الطَّقس البيزنطي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطوُّر طقس التَّقدمة يُسمى "الدُّخول الكبير ἡ μεγάλη εἴσοδος"، حيث يُحضر الخبز والخمر من مائدة جانبيَّة إلى المذبح الرَّئيسي مصحوباً

---

١٦ ـ تقسيم الخبز في الطقس البيزنطي يجري في بداية طقس التَّقدمة prothesis وقبل بداية الأنافورا.

بصيغة ليتورجيَّة جسورة تقول: "نحن الآن نستقبل ملك الكُل محفوفاً برتب ملائكيَّة غير مرئيَّة ..."(١٧).

وهكذا نجد أن العناصر اللّيتورجيَّة التي يحويها طقس تقديم الحَمَل - كما سنشرحها فيما بعد - تشير بكل وضوح إلى أن الكنيسة تمارس تقديساً للقرابين، برشومات على الخبز مع مباركة الآب والابن والرُّوح القُدُس، وصلاة شُكر على الكأس، كما مارسها المسيح تماماً في عشائه الأخير مع تلاميذه طبقاً للتّقليد اليهودي القديم، واستدعاء لأقنوم الكلمة ليجعل من هذه القرابين جسد المسيح ودمه الكريمين، إذ لا يمكننا إقامة القدّاس الإلهي إلاّ لأنه قد سبق أن تمت تقدمة ذبيحة المسيح على المذبح. فكل اللّيتورجيَّات تشهد بذلك، وتؤكّد عليه، ولكن مع ذلك - وعلى حد قول اللاهوتي الأرثوذكسي الأب ألكسندر شيمان(١٨) (+ ١٩٨٣م) - "إن هذه الخدمة المعقّدة بحد ذاتها لا تحل مطلقاً محل القدّاس الإلهي، فهي ليست في نهاية المطاف سوى تحضير له"(١٩).

بعد هذه المقدّمة التي لابد منها ننتقل الآن إلى شرح العناصر اللّيتورجيَّة التي يتكوّن منها طقس تقديم الحَمَل.

17- A. Baumstark, *op. cit*., p. 132.

١٨- هو لاهوتي روسي وعميد وأُستاذ اللاهوت اللّيتورجي في معهد القدّيس فلاديمير اللاهوتي بنيويورك من سنة ١٩٦٢م، حتى نياحته سنة ١٩٨٣م.

١٩- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٥٥

الفَصل الثَّاني

العناصر اللِّيتورجيَّة لطقس تقديم الحَمَل

تمهيد

لم يطرأ على طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة أي تطوُّرات أساسيَّة غيَّرت من شكله اللّيتورجي القديم، بل ظلَّت عناصره الرَّئيسيَّة هي هي حتىَ اليوم مع تطوُّر - أو تداخل أحياناً - لحق ببعض الممارسات الطّقسيَّة فيه بدون أن تحل هذه التَّطوُّرات الطَّفيفة محل عناصره اللّيتورجيَّة القديمة، بل أُضيفت عليها، جنباً إلى جنب كما سنرى فيما بعد. في حين أن طقس التَّقدمة prothesis في معظم الكنائس الأخرى لم يتبق منه سوى عمليَّة وضع القرابين على المذبح. لذلك صار طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة مثار أبحاث ليتورجيَّة مضنية من علماء اللّيتورجيَّا باعتباره من أقدم الآثار اللّيتورجيَّة في الكنيسة الجامعة المحفوظة حتى اليوم في ممارسة طقسيَّة حيَّة.

وبفحص مخطوطات الخولاجيَّات فحصاً متأنياً دقيقاً يتَّضح لنا أن هناك أكثر من ممارسة طقسيَّة واحدة لطقس تقديم الحَمَل، إذ تباينت هذه الممارسات اللّيتورجيَّة بين منطقة وأخرى، وأحياناً بين كنيسة وأخرى. ولكن تظل الأساسيَّات واحدة، مع اختلافات طفيفة في التَّفصيلات، أي في جزئيَّات التَّرتيب الطَّقسي لتقديم الحَمَل.

ومع ظهور الطِّباعة وانتشارها، كان لابد أن تسير كتب الخولاجيَّات المطبوعة وفق واحدة فقط من هذه الممارسات الطَّقسيَّة التي تحويها المخطوطات. ومن ثمَّ فقد توارت الممارسات الطَّقسيَّة الأخرى التي تذكرها المخطوطات التي لم تحظ بالطِّباعة والنَّشر. وبذلك طغت ممارسة طقسيَّة كانت تتم في جهة ما - طالتها الطِّباعة فألقت ضوءاً مبهراً عليها -

على ممارسة أخرى كانت تتم في جهة أخرى لم تحظ بالظُّهور والانتشار لعدم طباعتها وذيوعها. إذاً فليس أمامنا الآن حديث عن صواب وخطأ، بل ممارسة طقسيَّة انتشرت وسادت، وأخرى اندثرت وتوارت.

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب - بعد أن غاص زماناً بين مخطوطات الخولاجيَّات - حين يجد أن بعض الممارسات الطَّقسيَّة منتشرة في عموم الكنائس حتى اليوم برغم أن كتب الخولاجيَّات المطبوعة لم تشر إليها، ومن هنا يتَّضح لنا جلياً قوَّة وتأثير التَّسليم الشَّفاهي والتَّقليد المتوارث في الكنيسة القبطيَّة من جيل إلى جيل، وأنه أقوى أحياناً من التَّنبيهات الطَّقسيَّة التي تحويها كتب الخولاجيَّات المطبوعة، وهو ما سوف أشرحه بالتَّفصيل فيما بعد.

وما يلزم توضيحه هو أن الخولاجيَّات المطبوعة قد اختارت إحدى عائلات مخطوطات الخولاجيَّات وأخرجتها إلى النُّور، بينما ظلَّت العائلات الأخرى لمخطوطات الخولاجيات تُمارس عملياً وحتى اليوم بالتَّسليم من جيل إلى جيل برغم عدم ورودها في كتاب مطبوع.

بل قد وصل الأمر إلى أن بعض الممارسات الطَّقسيَّة القليلة قد حاولت أن تجمع بين أكثر من عائلة طقسيَّة، أي بين أكثر من ممارسة طقسيَّة لنفس الجزئيَّة الواحدة من الطَّقس، فواحدة موروثة بالتَّسليم الشَّفاهي وأخرى مقروءة في كتاب طقسي، فيكون المزج بين الممارستين واضحاً كل الوضوح، وسوف يلمح القارئ ذلك بنفسه على مدى دراستنا لطقس القدَّاس الإلهي في الكنيسة القبطيَّة.

والآن علينا أن نبدأ بشرح التَّرتيب الطَّقسي لتقديم الحَمَل.

وقبل أن أُورد العناصر اللِّيتورجيَّة التي يتكوَّن منها طقس تقديم

الحَمَل أُشير هنا إلى ما ورد عن طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة في القرن العاشر الميلادي.

طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة في القرن العاشر الميلادي

وهو الطَّقس الذي تشرحه رسالة أنبا مقاره أسقف منوف العليا في القرن العاشر، والمدوَّنه في مخطوط رقم (١٠٠ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وقد أوردتُ جانباً من نص هذه الرِّسالة الهامة في الصَّفحات القليلة السَّابقة[١].

ومن هذه الشَّهادة الوثائقيَّة يتَّضح لنا جلياً أن أنبا مقاره يشرح لنا طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة حين كانت طغمة الموعوظين لازالت موجودة في الكنيسة. وفيما يلي التَّعقيب على ما ورد فيها بخصوص طقس تقديم الحمل:

(١) يُدعى الحَمَل "قُدس القدِّيسين"، حيث يكرِّر أنبا مقاره هذا التَّعبير مرَّتين. وفي المرَّة الثَّانية يشرحه حين يقول: "قُدس القدِّيسين هو الحَمَل النَّقي من الدَّنس".

(٢) تقديم الحَمَل يكون بعد نداء الشمَّاس بانصراف الموعوظين، وقد شرحتُ هذه النُّقطة تفصيلاً من قبل.

(٣) يلفت نظرنا جداً تعبيرات أوردها أنبا مقاره وهي: "**خروج** قُدس القدِّيسين إلى المذبح"، "الحمل النَّقي من الدَّنس الذي **يقدِّمونه** على المذبح". وهنا تشرح الحاشية[٢] التي أوردها المخطوط في داخل نص

١- يمكن للقارئ العزيز أن يطلِّع على النَّص الكامل لهذه الرِّسالة التي تُنشر كاملة لأوَّل مرَّة، وذلك في ملاحق كتاب "سرّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس" للمؤلِّف.

٢- دوِّنت هذه الحاشية في مخطوط يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، داخل

الرِّسالة موضوع "خروج وتقديم الحَمَل" وهو أن الحَمَل كان يخرج من هيكل التّقدمة وهو الهيكل البحري في الكنيسة، متّجهاً إلى مذبح الصَّعيدة في الهيكل الرَّئيسي في الكنيسة، وذلك في موكب بالشُّموع والمجامر، ويسير الكهنة في موكب الحَمَل لابسين ثياب الخدمة الكهنوتيَّة.

(٤) تشير الحاشية إلى أن طقس موكب الحَمَل من الهيكل البحري حيث مذبح التَّقدمة إلى مذبح الصَّعيدة في الهيكل الرَّئيسي هو طقس قد انقطع من ديار مصر عند الأقباط. وإن عرفنا أن زمن هذه الحاشية هو القرن الثّالث عشر إن كان كاتبها هو أنبا يوساب أسقف منوف العليا في ذلك الوقت؛ أو القرن الرّابع عشر إن كان كاتبها هو نفسه ناسخ مخطوط باريس (رقم ١٠٠ عربي)، نستطيع أن نؤكّد أن هذا الطّقس لم ينقطع في كل كنائس ديار مصر بين ليلة وضحاها، ولكنه استغرق وقتا امتد لبعض سنوات حتى ساد في كل كنائس مصر. وأما سبب قولنا هذا هو أنه حتى القرن الثّالث عشر الميلادي يذكر ابن سباع نفس هذا التّرتيب القديم في انتقال الحَمَل من هيكل التّقدمة إلى الهيكل الرَّئيسي، على أنه هو الطّقس المعتاد في زمانه. فبعد أن ينتهي ابن سباع من شرح طقس فرش المذبح يقول مباشرة:

"ثم بعد ذلك يمضي (الكاهن) إلى هيكل التّقدمة الصّغير، ويأخذ منه الحمل، وينظر فيه خشية أن يكون مشقوقاً، لأن الشّق عيب. والنّص أن يكون حملاً لا عيب فيه ... فإذا وجد كل ما يحتاج إليه من القربان والخمر والبُخور والفحم وكل آلة القدّاس، إذا وجدها على ما ينبغي جيداً، يأخذ القُربان ويمسحه كما مُسح السيّد له المجد بالماء قبل تسليمه لسمعان الكاهن، ويضعه في الصّينيّة التي هي المذود، ويلفّه

نص مدوّن في القرن العاشر الميلادي.

بالخرق كما فعلت العذراء عند الولادة. فالصّينيّة أولاً بمثال المذود، وأخيراً بمثال القبر ..."[٣].

فممّا سبق ذكره يتّضح لنا أن دورة الحَمَل حول المذبح في الطّقس القبطي الحالي صارت هي البديل لدورة الحَمَل في أصولها القديمة التي كانت تتم فيما بين الهيكل البحري والهيكل الرّئيسي في الكنيسة.

وفي الطّقس البيزنطي حتى اليوم يتم دخول القرابين إلى الهيكل الرّئيسي ضمن طقس يُسمى "الدُّخول الكبير - [1] μεγάλη εἴσοδος". وبعد أن يغطي الكاهن عناصر الذّبيحة بالسّتر الكبير يبخّر التّقدمة بالشُّورية، ويختم بصلاة. وهذه الممارسة كلها تُسمى في اليونانيّة προσκομιδή (proskomide)، كما يُطلق عليها أيضاً اسم πρόθεσις (بروثيسيس) أي "تقدمة".

إذاً فطقس تقديم الحَمَل في الكنيسة القبطيّة قديماً قد كشفته هذه الرّسالة الوثائقيّة، والتي منها سنفهم التّاريخ اللّيتورجي لبعض العناصر اللّيتورجيّة التي يتكوّن منها هذا الطّقس اليوم.

العناصر اللّيتورجيّة لطقس تقديم الحَمَل في القرن الخامس عشر

أما العناصر اللّيتورجيّة لطقس تقديم الحَمَل عند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فهي:

- استبراء الحَمَل ومسح ظهره، ثم استبراء الخمر.
- غسل الكاهن ليديه
- مسح الكاهن لخبز التّقدمة بيديه فوق وأسفل، مع صلاة.

٣- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٩، ١٨٠

- تذكارات الحَمَل.
- دورة الحَمَل حول المذبح.
- رشومات الحَمَل.
- مزج الخمر بالماء في الكأس.
- ترتيل الذُّكصا.
- صلاة الشُّكر "فلنشكر صانع الخيرات والرَّحوم ...".
- أوشيَّة التَّقدمة، أو صلاة الغطاء.
- لحن Cωϕιc Ἀμην (سوتيس آمين) أو بديله لحن Πιcαβεγ "يا كل حكماء إسرائيل".
- صلاة التَّحليل، ومرد "سوتيس آمين".
- أوشيَّة بخور البولس والأواشي الثَّلاث الصِّغار.

هذه هي كل العناصر اللِّيتورجيَّة التي يتكوَّن منها طقس تقديم الحَمَل. وسنشرح كل منها على حدة، متتبِّعين المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها كل عنصر ليتورجي منها.

- **استبراء الحَمَل ومسح ظهره، ثم استبراء الخمر**

قبل أن نتحدَّث عن طقس استبراء الحَمَل، لابد أن أشير هنا إلى أن مخطوطات الخولاجيَّات الموجودة في مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، ومخطوط ترتيب البيعة برقم (١١٨ طقوس) بمكتبة الدَّار البطريركيَّة بالقاهرة (١٩١١م)، ومصادر طقس الكنيسة في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر، وكتاب "التَّرتيب الطقسي" للبابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)، والخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م مراجعة القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي، كلها تذكر أن استبراء الحَمَل يتم أولاً قبل أن يغسل الكاهن يديه.

فطقس استبراء الحَمَل في أصوله القديمة هو طقس بسيط للغاية لا يعدو اختيار الحَمَل ووضعه على يمين المذبح. وبعد أن يغسل الكاهن يديه يكمِّل طقس اختيار الحَمَل كما سأشرح فيما بعد.

فقبل القرن الثّالث عشر الميلادي كان اختيار الحَمَل يتم في هيكل التّقدمة، وهو الهيكل البحري من الكنيسة، وذلك بشهادة أنبا مقاره أسقف منوف العليا في القرن العاشر، وأيضاً بشهادة يوحنا ابن سباع في القرن الثّالث عشر. ولما بطلت دورة الحَمَل من الهيكل البحري إلى الهيكل الرّئيسي، نقرأ عند البابا غبريال الخامس أن اختيار الحَمَل صار يجري عند الهيكل الرّئيسي مباشرة. وما يذكره البابا غبريال في ذلك هو:

"يلتفت (الكاهن) إلى الغرب ليختار الحَمَل الذي هو خبز التّقدمة، ويستبرئ ذلك جيداً ليكون حملاً حولياً لا عيب فيه. ويأخذ الحَمَل بعد استبرائه جيداً، يمسح ظهره بستر نظيف، ويقبِّله ويضعه عن يمين المذبح في لفافة حرير. ويستبرئ حاله في أمر الخمر جيداً بالشّم، أو يدع أحد المفطرين يذوق منه في كفّه. فإن الخمر إذا مال صار خلاً. والقربان إذا لم يجد غيره عن ضرورة ما يخرج عن طبعه الذي هو حال الخبز"(٤).

وهنا طقس بسيط للغاية لا يعدو كونه اختياراً للحَمَل لا تصاحبه أية ممارسات ليتورجيّة أخرى كالرشومات مثلاً. ثم أن اختيار الحَمَل فيما يكون الكاهن متّجهاً للغرب هو على خبز التّقدمة فقط دون ذكر للخمر. أما استبراء الخمر فيكون بعد أن يضع الكاهن الحَمَل على المذبح

٤ــ البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٦٤

وهو نفس ما يشرحه مخطوط ترتيب البيعة برقم (١١٨ طقوس) بمكتبة الدّار البطريركيّة بالقاهرة (١٩١١م) حيث يذكر ما يلي: "وبعد ذلك يلتفت إلى الغرب وينظر القربان ويختار منه الصعيدة، ويضعها على المذبح عن شماله فوق لفافة، ثم يأخذ الخمر ويستبرئه جيداً باحتراز ويشمه مرّة ومرة، ثم يعطيه للشمّاس ويغسل يديه ...".

وهو متَّجه شرقاً.

ومخطوطات الخولاجيَّات بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار تنقسم في هذا الصَّدد إلى قسمين؛ القسم الأوَّل يورد بالنَّص ما ذكره البابا غبريال الخامس في كتابه "التَّرتيب الطَّقسي" وكان مخطوطاً في القرن الخامس عشر قبل أن يُطبع كتاباً في القرن العشرين. أما القسم الثَّاني من هذه المخطوطات فيورد ما نصه (بخطئه):

ثم يحضر اليه الحَمَل ويستبريه ويمسكه بيده ويقول

Oⲩϩⲓⲣⲏⲛⲏ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲕⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲧⲁϫⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲁ̀ⲅⲓⲁ ⲛ̀ⲉⲕⲕ̀ⲗⲏⲥⲓⲁ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲫϯ ⲁ̀ⲙⲏⲛ.

أي (سلاماً وبنياناً وقوَّة لكنيسة الله المقدَّسة آمين)[٥].

وهو ما يمثله مخطوط (ط ١٣٣)[٦]، ومخطوط (ط١٣٤)[٧]. إلاَّ أن المخطوط (ط ١٣٤) يذكر قبل ذلك مباشرة ما نصُّه: "ترتيب الأب الاسقف انبا ميخاييل اسقف سمنود". وهذا الطَّقس الذي رتَّبه أنبا ميخائيل أسقف سمنود لم يسُد وينتشر إذ لم يحظ بطباعته في كتاب كنسي كما حدث مع كتاب "التَّرتيب الطَّقسي" للبابا غبريال الخامس.

كما أن تقديم الحَمَل للكاهن بواسطة الشمَّاس في الطَّقس القديم كان يتم عند المذبح نفسه وليس عند باب الهيكل. وقد عرفنا ذلك من أحد قوانين الرُّسُل القبطيَّة وهي القوانين المدوَّنة في غضون القرن الخامس

٥- ما بين القوسين من عندنا للتوضيح. ولم يرد في المخطوط.

٦- وهو للثلاثة قدَّاسات الباسيلي والغريغوري والكيرلسي ورفع بخور عشيَّة وباكر. ويعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي.

٧- وهو للقداسين الباسيلي والغريغوري ورفع البخور في عشيَّة وباكر. ويعود إلى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر للميلاد.

أو السّادس للميلاد. فيقول القانون "فإذا تم هذا[٨]، فليأت الشمّاس بالخبز للأسقف إلى المذبح، وليقف القسوس عن يمينه وشماله مثل تلاميذ قيام لدى معلّمهم" (١:٥٢:١٥).

ويتأكّد لدينا مرّة أخرى أن الشمّاس كان يدخل إلى داخل الهيكل ليقدّم القرابين للأسقف الواقف عند المذبح، حين نقرأ في نفس قوانين الرُّسُل القبطيّة ما يلي: "وليدخل الشمامسة بالقرابين إلى الأسقف، وليشكر الأسقف على الخبز والكأس، ليصيرا جسد المسيح ودمه، هذا الذي أُهرق عنّا كلّنا، نحن الذين آمنا به" (١:٣٤:٣٢).

إذاً فتقديم القرابين للأسقف كان يجري بواسطة الشمّاس، وهو ما نقرأه أيضاً في قوانين هيبوليتس القبطيّة: "والشمّاس يأتي بالقرابين" (٦:٣). وهنا يتّضح أمامنا أن البابا غبريال الخامس لا يزال يشرح طقس تقديم الحَمَل في وضعه القديم ولكن بعد توقُّف موكب نقل القرابين من الهيكل البحري إلى الهيكل الرّئيسي.

وتماشياً مع التّطوُّر الذي طرأ على طقس اختيار الحَمَل حين صار الحَمَل يُقدَّم عند باب الهيكل في بعض الكنائس دون غيرها قبل أن تنتشر هذه الممارسة الطّقسيَّة في غضون القرن التّاسع عشر، لم يلتزم القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي بما يقوله البابا غبريال الخامس في ذلك الأمر بحرفيّته، ولكنه يذكر في المتن مضمون ما يقوله البابا المذكور، ويعود في الهامش فيذكر ما جرت به العادة في أيامه، فيقول:

"وعند تقديم الحَمَل يقف (الكاهن) في باب الهيكل متّجهاً إلى الغرب، ومعه لفافة، ويقدّمون له الحَمَل والخمر، فيختار الحَمَل الذي هو

٨- أي إذا غسل الكاهن يديه، ونادى الشمّاس بخروج الموعوظين.

خبز التَّقدمة ويستبرئ ذلك جيداً ...".

وتعقيباً على كلمة "الخمر" التي ذكرها في المتن يقول في الحاشية: "ويقف الشمَّاس بجانبه، وبيده اليُمنى لفافة حرير لأخذ قارورة الخمر، وبيده اليُسرى شمعة ينير بها على الحَمَل والخمر حين يستبرئهما الكاهن. وقبل استبرائهما يرشمهما الكاهن ثلاثة رشوم **حسب الجاري الآن** وهو يقول "ⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ... Ϥ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ الخ. ولكن هذه الرُّشوم غير مذكورة في الخولاجيَّات. فلم نرها إلاَّ في خولاجي واحد تاريخه ١٥٦١ للشهداء (١٨٤٥ ميلاديَّة). وليست محسوبة في الثَّمانية عشر رشماً التي للقربان والخمر كما سيأتي بعد قدَّاس باسيليوس هذا. **وهي جارية الآن**"(٩).

هنا وقفة هامة للتَّوضيح. إذ يتَّضح لنا أن مخطوطات الخولاجيَّات التي اطَّلع عليها القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي كانت تتبع عائلة طقسيَّة واحدة، باستثناء خولاجي واحد فقط كان يتبع عائلة طقسيَّة أخرى. فالقارئ المدقِّق يجد أن هذه الرُّشومات التي تجري قبل اختيار الحَمَل كانت هي إحدى الممارسات الطَّقسيَّة في كنائس معيَّنة، في حين كانت الممارسة الطَّقسيَّة الأخرى والتي مارستها بعض الكنائس الأخرى هي إجراء الرُّشومات بعد دورة الحَمَل مباشرة. فالرُّشومات على الحَمَل قبل دورة الحَمَل أشار إليها ابن كبر (+ ١٣٢٤م) مرَّتين، أي أنها كانت طقساً سائداً في الكنيسة الكاتدرائيَّة آنذاك أي في القرن الرَّابع عشر. أما الرُّشومات على الحَمَل بعد دورة الحَمَل فكانت هي الطَّقس السَّائد في الكنيسة الكاتدرائيَّة في القرن الخامس عشر أي في زمن البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م).

هنا يتَّضح جلياً وجود ممارستين لرشم الحمل، ممارسة ترشم الحَمَل

٩- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٠٣ ؛ طبعة ٢٠٠٢م ص ١٤٠.

قبل الدَّورة حول المذبح، وأخرى ترشم الحَمَل بعد الدَّورة حول المذبح، وإن ما نمارسه اليَوم هو جمع هاتين المُمارستين معاً، فنرشم الحَمَل قبل الدَّورة بذات الرُّشومات التي نرشمها به بعد الدَّورة. ومن ثمَّ يلزم أن يغيب من حديثنا كلمتيّ الخطأ والصَّواب، ليحل محلهما سؤال هو: أي الممارسات الطَّقسيَّة نتبع؟.

فيقول ابن كبر عن هذه الممارسة ما نصُّه: "يُحضر الحَمَل ويغسل القس يديه بماء ويمسح القربان بعد تصفحه واختيار ما يصلح منه ... يمسح كل قربانه من وجهها وظهرها ويقول أولاً باركوا ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲥⲟⲛ ثم يقول برشم القربان مجداً وإكراماً للثَّالوث إلى آخرها ويناول القُربان للشمَّاس ... ويدور به حول المذبح ...".

فواضح هنا أن الرُّشومات على الحَمَل كانت قبل الدَّورة حول المذبح. ثم يعود ابن كبر ليكرِّر ذلك مرَّة أخرى وتحت عنوان: "فصل في أوقات رشم الصَّعيدة بالصَّليب"(١٠) ما يلي: "عند مسح القربان بالماء وقبل تقدمته يرشم الكاهن بالصَّليب على كل قربانه ثلاثاً ويقول مجداً وكرامة للثَّالوث المقدَّس ...".

ويتَّفق يوحنا ابن سباع مع ابن كبر في أن رشومات الحَمَل تكون قبل دورة الحَمَل وليس بعدها، وهو ما سنعود لشرحه مرَّة أخرى.

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فيقول برشم الحَمَل بعد دورة الحَمَل حول المذبح وليس قبل ذلك. وهو نفس ما يذكره كتاب "سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت" لواحد من معلّمي البيعة في القرون

١٠ـ الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

الوُسطى، حيث يذكر أن أوَّل رشومات على القرابين تكون بعد دورة الحَمَل حول المذبح. موضحاً أن مجموع الرُّشومات في القدّاس الإلهي هي ثمانية عشر رشماً على القرابين وثمانية عشر رشماً على الخدّام والشّعب[١١].

وإذ نهج القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) نهج البابا غبريال الخامس، ظنَّ أن ما تمارسه الكنائس في أيامه من رشومات للحَمَل قبل بدء الدَّورة هو طقس مستحدث ومغاير للطَّقس القديم، ولم يكن محقاً في ذلك، لأن ما كان يراه منتشراً في أيامه هي إحدى الممارسات الطَّقسيَّة القديمة التي ورد ذكرها عند ابن كبر منذ القرن الرَّابع عشر، وبالتَّأكيد كانت أقدم من ذلك التَّاريخ. ولم يكن طقس البابا غبريال الخامس في هذه الجزئيَّة من الطَّقس سوى واحدة من هذه الممارسات المُختلفة وليست الممارسة الطَّقسيَّة الوحيدة.

ولقد حاول القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) أن يوفق بين ما يذكره البابا غبريال الخامس بخصوص استبراء الحمل، وبين ما يجري في أيامه، فجاءت بعض تنبيهاته الطَّقسيَّة في هذه الجزئيَّة غير قابلة للتَّنفيذ العملي. ذلك لأن استبراء الحَمَل عند البابا غبريال الخامس - أي التَّأكُّد من صلاحيَّته - يكون على الخبز فقط وهو متَّجه للغرب، ثم بعد وضع الحَمَل على المذبح، يستبرئ الخمر أيضاً. أما القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي فحين جعل استبراء الخبز والخمر يجريان عند باب الهيكل، حدث تداخل بين ممارستين إحداهما قديمة والأخرى أكثر حداثة، فيقول:

"... ويأخذ الحَمَل بعد استبرائه ويمسح ظهره بستر نظيف أي

١١- انظر: كتاب سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٢٣

بلفافة، ويقبّله ويضعه على يمين المذبح (أي جهة بحـري)[١٢] في لفافـة حرير. ويستبرئ حال الخمر جيداً بالشّم ...»[١٣].

وهنا تظهر محاولة القُمُّص المذكور للتّوفيق بين ممارستين. إذ كيـف يستبرئ حال الخمر بعد وضع الحَمَل على المذبح، والخمر يحمله شمّـاس واقف عند باب الهيكل؟. ولذلك فإن ما نمارسه اليوم من استبراء الخبـز والخمر عند باب الهيكل هو غير ما يذكره خولاجي سنة ١٩٠٢م.

أما عن مسح ظهر الحَمَل بستر نظيف أي بلفافة، فهـي ممارسـة طقسيَّة ظهرت في بعض الكنائس، وانتشرت في كثير منها، وهي لا تعدو كونها تنظيف ذرّات الدّقيق أو جزئيّات الخبز الدّقيقة التي ربما تكون عالقة بالحَمَل المختار، زيادة في الحرص.

ويلزم الإشارة هنا إلى أن الرُّشومات الطّقسيَّة المقنّنـة لِيتورجيـاً المختصَّة بالخمر لا تجري عليه خلواً من مزجه بالماء. أي أن الرُّشـومات الطّقسيَّة تجري على الخمر الممزوج بالماء. ولمّا كان هذا المزج يجـري في داخل كأس الإفخارستيّا، فإن الرُّشومات على الخمر المَمزوج بالماء تكون دائماً على الكأس، وليس على قارورة الخمر. فالرُّشومات التي تجري الآن أثناء تقديم الحَمَل عند باب الهيكل تكون على الحَمَـل فقـط، وهـي الرُّشومات التي ستتكرّر مرّة أخرى – على الحَمَل فقـط - بعـد دورة الحَمَل حول المذبح، وذلك بعد أن جمع الطّقس في هذه الجزئيَّـة منـه

١٢ـ ما بين القوسين هو خطأ غير مقصود، لأن يمين المذبح هو جهته القبليَّة وليس البحريَّة، أي أن يمين المذبح هو يمين الكاهن حين يقف عند المذبح متَّجهاً شرقاً. وهو ما نقرأه مراراً وتكراراً في طقس تكريس الميرون والغاليلاون، حين يوضع الميرون عن يمين المذبح أي في جهته القبلية، ويوضع الغاليلاون عن يسار المـذبح أي في جهتـه البحرية. وهذا ما تذكره كل المخطوطات بدون استثناء.

١٣ـ كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٠٤ ؛ طبعة ٢٠٠٢م ص ١٤٠

ممارستين طقسيَّتين مركّبتين فوق بعضهما البعض.

ولأننا هنا إزاء طقس يعيد مجدَّداً ما كان يجري في ليلة العشاء الأخير بكل تفصيلاته الدَّقيقة، فإن المباركة تكون على الخبز، والشُّكر يكون على الكأس. وهو ما سنعود إليه بعد قليل.

• **غسل الكاهن ليديه**(١٤)

لقد وضعتُ غسل الكاهن ليديه في هذا المكان، أي بعد اختيار الحَمَل وليس قبله، لأنه هو الطَّقس الذي تذكره كل الخولاجيَّات القبطيَّة المخطوطة أو المطبوعة كما سبق أن أشرتُ. فغسل اليدين في هذا الوقت عينه هو الطَّقس القبطي القديم والوحيد. أما ما يرد عن غسل الكاهن ليديه قبل تقديم الحَمَل فهو عن مصادر طقسيَّة قديمة غير قبطيَّة، سواء كانت سريانيَّة أو بيزنطيَّة.

غسل اليدين بعد تقديم الحَمَل

يشير ابن كبر (+ ١٣٢٤م) إلى أن غسل الكاهن ليديه يكون بعد تقديم الحَمَل وليس قبله، فيقول: "ويحضَر الحَمَل ويغسل القس يديه بماء ويمسح القُربان بعد تصفُّحه واختيار ما يصلح منه كما قلنا آنفاً"(١٥). والنَّص هنا لا يعني أن غسل اليدين كان قبل اختيار الحَمَل كما يبدو للوهلة الأولى، بل بعده، ولاسيَّما من قوله: "ويحضر الحَمَل ويغسل القس يديه بماء ... بعد ... اختيار ما يصلح منه ..."، أي أن غسل اليدين يكون بعد اختيار ما يصلح من قربانات الحَمَل.

١٤ـ سنعود إلى غسل اليدين مرَّة أخرى قبل صلاة الصلح.

١٥ـ الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

وقد ذكر البابا غبريال الخامس في كتابه "الترتيب الطقسي"، نصوص صلوات تُقال أثناء غسل اليدين، فيقول:

"يلتفت إلى الغرب ليختار الحَمَل ... ثم يغسل الكاهن يديه الاثنتين ثلاثة دفوع، وهو يقول في الدُّفعة الأولى: انضح عليَّ زوفك فأطهر، اغسلني فأبيض أكثر من الثلج[١٦]. المرّة الثانية: اسمعني سروراً وفرحاً لتبتهج عظامي المتواضعة[١٧]. المرّة الثالثة يقول: غسلت بالطهر يداي، وطفت مذبحك يارب لأسمع صوت تسبحتك[١٨]. وإن كان يُحسن تلاوة المزمور لآخره يقوله. ثم ينشّف يديه في ستر أبيض كتّان نظيف قليل".

وهو نفس ما يذكره أيضاً القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) في الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م نقلاً عن البابا المذكور.

وتنقسم مخطوطات الخولاجيّات في هذه الجزئيّة من الطقس إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة ممارسات هي:

القسم الأوّل من مخطوطات الخولاجيّات يشير إلى أن غسل الكاهن ليديه لا تصاحبه أية صلوات، وهو الطقس الأكثر قدماً. ويمثّل هذا القسم مخطوط (ط ١٤٧)[١٩]، فيقول ما نصُّه: "يلتفت الكاهن الى الغرب

١٦- يورد كتاب "الترتيب الطقسي" نصوص هذه الصلوات بالقبطيّة أيضاً إلى جانب العربيّة.

١٧- انظرمزمور ٨:٥٠: ٧

١٨- انظر مزمور ٢٥،٧: ٦

١٩- وهو للقدّاس الباسيلي ورفع البخور في عشيّة وباكر. ويعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي.

وأيضاً مخطوط خولاجي رقم (١٥٣ طقس) ويحوي صلوات بخوري عشيّة وباكر مع قدّاس باسيليوس وقدّاس غريغوريوس بالقبطيّة فقط، أمّا الشروحات الطقسيّة فيوردها بالعربيّة بالحبر الأحمر. وهو محفوظ بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار، ويعود إلى سنة ١٩٠٨م، وهو مختوم بخاتم القس ميخائيل المقاري، حيث يذكر: "... ثم ينشف

ويأخذ الحَمَل ويكون حولياً بلا عيب فيه ويمسح ظهره بستر نضيف ويلتفت يضعه على جناح المذبح الايمن على لفافه حرير **ثم يغسل يديه وينشفهما قليل** ثم يأخذ الحَمَل على يده اليسار ...".

القسم الثّاني من مخطوطات الخولاجيّات تتّفق مع يذكره البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)، أي ترديد بعض آيات من المزامير، ويمثل هذا القسم مخطوط (ط ١٣٦)[٢٠]، فيقول ما نصه: "وبعد استبرى الخبز والخمر ووضعه بجانب المذبح يغسل يديه وهو يقول هذا من مزمور الخمسين اول دفعه يقول انضح عليَّ من زوفك فاطهر[٢١] الدفعة الثانية اغسلني فابيض مثل الثلج اسمعني تهليلاً وفرحاً لتهلل العاظم[٢٢] المتواضعه الدفعه الثالثه قلباً طاهراً اخلقه فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده في احشاي الليلويا. ثم ينشف يديه **قليلاً** في ستر نضيف"[٢٣].

القسم الثّالث من مخطوطات الخولاجيّات يشير إلى أن الكاهن يردِّد أثناء غسل يديه لصلوات هي نفس ما يذكره البابا غبريال الخامس، ولكن ذات بدايات مختلفة، ويمثلها المخطوطان (ط ١٣٣)، و(ط ١٣٤)،

يديه ويأخذ الحَمَل على كفه اليسار، ويمسحه بيده اليمنى فوق وأسفل، وهو يقول: أعطي يارب ...".

وأيضاً مخطوط ترتيب البيعة برقم (١١٨ طقوس) بمكتبة الدّار البطريركيّة بالقاهرة (١٩١١م) لا يشير إلى صلوات تُقال أثناء غسل الكاهن ليديه.

٢٠- وهو للقدّاسين الباسيلي والغريغوري ورفع البخور في عشيَّة وباكر. ويعود إلى القرن التاسع عشر للميلاد.

٢١- يورد المخطوط نص المزمور المذكور بالقبطيَّة أيضاً

٢٢- أي العظام

٢٣- يضيف هذا المخطوط ما يلي: "ثم يذكر ها هنا اولا نفسه والشمّاس الشريك له ثانياً ابيه وامه وجماعته واولاده ثالثاً صاحب القربان المتقدم منه وبعده اولاد البيعه جميعاً ومن اراد من المسيحيِّين".

فيذكران ما نصُّه:

"... ثم يغسل يديه ويقول

Ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ ⲙⲁⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛ̀ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛⲥⲱⲙⲁ ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛ̀ϫⲓⲙⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲙⲉⲣⲟⲥ ⲛⲉⲙ ⲛⲏⲉⲑ̅ⲩ̅ ⲉⲧⲁⲩⲣⲁⲛⲁⲕ ⲓⲥϫⲉⲛ ⲡ̀ⲉⲛⲉϩ.

أي "ياربي يسوع المسيح طهِّر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا ليكون لنا نصيباً مع جميع القدِّيسين الذين أرضوك منذ البدء"[٢٤].

ثم يقول **Ⲉⲕⲉ̀ⲛⲟⲩϫⲥ ⲉ̀ϫⲱⲓ** أي "انضح عليّ" (أي قطع المزامير).

ثم يمسح يديه ...".

وهذا التّرتيب السَّابق ذكره مباشرة هو من وضع أنبا ميخائيل أسقف سمنود، كما يذكر مخطوط (ط ١٣٤). فهل كان أنبا ميخائيل هذا سابقاً على البابا غبريال الخامس أم لاحقاً له؟ لستُ أعرف. ولكن ما يهمُّنا هنا هو أن طقسنا القبطي قد استقر حالياً في هذه الجزئيَّة طبقاً لواحدة من الممارسات الطَّقسيَّة التي تعدَّدت بين الكنائس المختلفة، أي طبقاً لواحد من مخطوطات الخولاجيات، أو لبعض منها، بعد نقلها إلى كتاب مطبوع، ومن ثمّ صار هو الطَّقس الشَّائع، نظراً لانتشار الكُتب المطبوعة بسهولة ويسر، وفي زمن ضئيل للغاية.

غسل اليدين قبل تقديم الحَمَل

أنتقل إلى نقطة أخرى، وهي أن بعض المصادر الطَّقسيَّة القديمة – غير القبطيَّة - قد أشارت إلى أن غسل الكاهن ليديه كان يجري قبل اختيار الحَمَل وليس بعده، كما نفعل اليوم في كل كنائسنا القبطيَّة بلا استثناء.

٢٤- ما بين القوسين من عندنا للتوضيح.

فتشير قوانين الرُّسُل القبطيَّة (القرن السَّادس الميلادي) إلى أن غسل اليدين يكون قبل تقديم الحَمَل فنقرأ: "وليأت إيبودياكون بماء للكهنة ليغسلوا أيديهم ... وليصرخ شماس آخر: لا يقف ههنا موعوظ ... فإذا تم هذا، فليأت الشمَّاس بالخبز للأسقف إلى المذبح ..." (١:٥٢:١٣-١٥).

ومن المعروف أن هذا القانون السَّابق ذكره مأخوذ عن الكتاب الثَّامن من المراسيم الرَّسوليَّة والذي دُوِّن في أواخر القرن الرَّابع، والذي يشرح الطَّقس الأنطاكي. فنقرأ: "ليُحضر أحد الإيبودياكونين ماء لغسل أيدي الإكليروس، رمزاً لطهارة النُّفوس المكرَّسة لله ... لا يبقى (ههنا) أحد الموعوظين، أو السَّامعين، أو غير المؤمنين، أو الهراطقة. وأنتم الذين صلَّيتم الصَّلاة السَّابقة، اقتربوا[٢٥]. أيتها الأمهات، امسكن أطفالكن. ولا يكن لأحد شئ على آخر[٢٦]. ولا يكن أحدٌ في رياء. ولنقف مستقيمين قدام الرب بمخافة ورعدة لنقدم (التقدمة). ليحضر الشَّمامسة القرابين للأسقف عند المذبح، وليقف القسوس عن يمينه ويساره كتلاميذ قيام حول المعلِّم" (المراسيم الرسوليَّة ١١:١٢؛ ٢:١٢، ٣).

وهذا النَّص السَّابق ذكره، وإن كان يشير إلى أن غسل اليدين هو قبل اختيار الحَمَل وليس بعده، إنما يعد نصاً هاماً يوضِّح أن غسل اليدين عند تقديم الحَمَل هو طقس قديم عرفته كنائس شرقيَّة أخرى غير الكنيسة القبطيَّة، قبل أن تحتفظ به الكنيسة القبطيَّة مع الكنيسة البيزنطيَّة دون

---

٢٥ - προσέρχομαι هذا الفعل يفيد معنى الإشتراك في الأسرار المقدَّسة. انظر المراسيم الرسولية ٨:١٠:٢ . ونفس النداء الذي تكرر هنا قبل بدء الأنافورا مباشرة تكرر هناك بعد نهاية القراءات، أي بعد نهاية قدَّاس الكلمة.

Cf. S.C. 336, p. 177, n. 12:2

٢٦ - μή τις κατά τηνος والمعنى الحرفي (لا يكن أحد ضد آخر)، ووردت في قوانين الرسل القبطية: (لا يكن في قلب أحد حقد على أحد).

غيرهما. وعلى كل فإن الفارق الزّمني لغسل الكاهن ليديه قبل اختيار الحَمَل أو بعده كان طفيفاً للغاية وذلك طبقاً للطّقس القديم، والذي لم يكن فيه طقس اختيار الحَمَل سوى اختيار بسيط بدون أي ممارسات طقسيَّة أخرى. أما أي ممارسات طقسيَّة لاختيار الحَمَل، كالرُّشومات مثلاً، فكانت تجري دائماً بعد غسل اليدين.

وما دفعني إلى هذا الاستطراد في هذه الجزئيَّة، هو أن الطّقس المطوَّل ذي الممارسات الكثيرة والصّلوات السِّرِّيَّة والذي يرافق اختيار الحَمَل كما نمارسه اليوم عند باب الهيكل، لم يعد يوافق أن يكون غسل اليدين بعد اختيار الحَمَل وليس قبله، كما كان سائداً في الطّقس القبطي القديم. ولذلك انتقل طقس غسل اليدين ليصبح قبل اختيار الحَمَل وليس بعده. ومع ذلك يظل الطّقس القبطي القديم يحمل السّمات الأولى والرَّئيسيَّة لسبب غسل الكاهن ليديه بعد اختيار الحَمَل وليس قبله.

فيُظن أن الأصل التّاريخي لغسل اليدين يعود إلى القوانين التي تنظّم الولائم اليهوديَّة كما نعرفها من كتاب المشنا[٢٧]. فطبقاً لما ورد به، كان يجري غسل اليدين في نهاية الوليمة. وقد انتقلت هذه الممارسة الطّقسيَّة إلى الاجتماعات المسيحيَّة في ولائم المحبَّة (الأغابي)، والتي كانت تسبق الإفخارستيَّا مباشرة في العصور المبكِّرة جداً من تاريخ المسيحيَّة.

ويذكر العلاَّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) في وصفه لطقس الأغابي أن صلاة الإفخارستيَّا الكبرى كانت تبدأ بعد غسل اليدين[٢٨]. أي أن غسل اليدين كان يعقب الأغابي، ويسبق بدء صلاة الإفخارستيَّا[٢٩]. وبانتقال

27- VIII, 2-4
28- *Apolpgeticus* xxxix (PL I, C 477)
29- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 133.

طقس التَّقدمة إلى ما قبل قدّاس الكلمة انتقل معه طقس غسل اليدين أيضاً. ثم حدث لطقس غسل اليدين في طقس التَّقدمة انتقالاً مبكراً أيضاً حيث انتقل إلى ما قبل طقس اختيار الحَمَل، ولكن ظلّت كنيسة مصر حتى عهد قريب تحفظ الطّقس القديم لغسل الكاهن ليديه بعد اختيار الحَمَل كما تذكر كل كتبنا الطّقسيّة حتى اليوم وكل مخطوطاتنا القديمة والحديثة على السَّواء.

إن غسل الأيدي في بدء الصلاة طقس سحيق في القِدَم يقول عنه العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م):

[إنه من الطّبيعي أن نجد في عنصر الماء الذي يقوم بالتّنظيف رمزاً للنّقاوة الدّاخليّة].

وهذا الطّقس قد أورده القدّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) عَرَضاً في شرح رمزي في عظاته لطالبي العماد، فيقول:

[كما ترمز الأيدي إلى العمل، هكذا يشير غسلهما إلى نقاوة الأعمال وبراءتها][٣٠].

ويعلّمنا التّقليد القبطي المتوارث من القديم أننا نغسل أيدينا قبل بدء أي صلاة. ففي قوانين هيبوليتس القبطيّة (القرن السّادس) نقرأ:

"ليصلِّ كل النّصارى حين قيامهم من النّوم باكراً، ومن قبل أن يصنعوا شيئاً، فليغسلوا أيديهم عندما يصلّوا" (القانون ٢٥:٢)[٣١].

"والنّصراني يغسل يديه في كل وقت يصلّي فيه" (القانون ٢٧:٢).

30- *Catechesis* xxiii, 2 ; PG 33, C1110.

٣١_ وهو نفسه قانون الرُّسُل في التقليد القبطي: "كل مؤمن ومؤمنة إذا قاموا بالغداة، من قبل أن يعملوا شيئاً، فليغسلوا أيديهم ويصلّوا لله، ثم يلتفتوا إلى أعمالهم" (١:٤٧:١).

ونقرأ أيضاً في قوانين الرُّسُل القبطيَّة: ''وإذا قمتَ في نصف اللّيـــل، اغسل يديك بماء وصلِّ'' (١:٤٧:١١).

وأيضاً: ''كلٍ مؤمن أو مؤمنة، إذا قاموا باكراً من النّوم، فليغسـلوا أيديهم بالماء ويصلّوا، من قبل أن يعملوا عملاً من الأعمال'' (٦٤:١)

فالتّقليد القديم كان يبدأ أي صلاة بغسل اليدين أولاً، وهـذا هـو السَّبب الّذي لأجله ينفرد الطّقس القبطي بغسل الكاهن ليديه مـرّتين في اللّيتورجيًا، مرّة عند تقديم الحَمَل، باعتباره بداية الخدمة اللّيتورجيَّة، وهي المرَّة الّتي لا تعرفها الطُّقوس الأخرى، ومرّة أخرى عند بـدء صـلوات القدَّاس الإلهي، وهي الّتي تشترك فيها كافة الطُّقوس الأخرى.

- **مسح الكاهن لخبز التّقدمة بيديه فوق وأسفل، مع صلاة**

في الحقيقة إننا في هذه الجزئيَّة من طقس تقديم الحَمَل - أي مسح الحَمَل بيدي الكاهن فوق وأسفل - إزاء ممارستين طقسيَّتين أيضاً. ومن ثمّ فقد انقسمت مخطوطات الخولاجيَّات وكتب الطّقس القديمـة إلى قسمين، كل قسم يشرح واحدة من هاتين الممارستين.

ولعل ما يبعث على الدّهشة والعجب هو أن ما نمارسـه اليـوم في كنائسنا في هذه الجزئيّة من الطّقس هو هاتين الممارستين معاً، بـرغم أن واحدة منهما لم يجر تدوينها في كتب الطّقس المطبوعة الّتي بين أيـدينا، وأقربها كتاب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، بينمـا جـرى تـدوين الممارسة الثّانية في الكُتُب الطّقسيَّة المطبوعة.

وإحدى هاتين الممارستين نقرأها عند القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، أما الثّانية فنجدها عند يوحنا ابن سباع.

فيقول ابن كبر (+ ١٣٢٤م) عن ذلك في كتابه مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة: "يغسل القس يديه بماء، ويمسح القربان بعد تصفُّحه واختيار ما يصلح منه ... يمسح كل قُربانة من وجهها وظهرها ...".

وعند يوحنا بن سباع في كتابه "الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة"(٣٢)، نقرأ ما يلي: "يأخذ (الكاهن) القُربان، ويمسحه كما مُسح السيِّد له المجد بالماء قبل تسليمه لسمعان الكاهن، ثم يدوِّره على يديه كدوران سمعان الكاهن به الهيكل، ثم يتسلّمه الكاهن ويضعه في الصِّينيَّة التي هي المذود، ويلفه بالخرق كما فعلت العذراء عند الولادة. فالصِّينيَّة أولاً بمثال المذود، وأخيراً بمثال القبر"(٣٣).

إن يوحنا بن سباع في قوله السَّابق ذكره يشير ضمناً إلى أن الكاهن قد غسل يديه بالماء قبل أن يمسح الحمل، ولكنه لم يذكر هذا الغسل تصريحاً، وإذ حاول أن يشرح المفهوم اللّيتورجي أو الطَّقسي لهذه الجزئيَّة من الطَّقس فقد أخفق، لأن المراحل السَّابقة لتجهيز الحَمَل في بيت لحم، وختمه بالصَّليب وثقبه بخمسة ثقوب كجراح الرَّب على الخشبة، ودخوله نار الأتون المتَّقد، لتهيئته خبزاً للحياة، كلها مراحل طقسيَّة لا تنفك عن مراحل خدمة القدَّاس الإلهي نفسه. فكيف نعود مرَّة أخرى للإشارة إلى أن مسح الحَمَل بالماء في هذا الوقت من الصَّلاة هو بمثابة إشارة إلى اليوم الثَّامن أو حتى اليوم الأربعين للمولود؟.

ولكن ما يهمنا في العبارة السَّابقة هو قوله: "... ثم يتسلَّمه الكاهن

٣٢- نود الإشارة إلى أن هذا الكتاب المذكور هو في غاية الأهمِّيَّة من وجهة التعرف على الطقس القبطي في القرن الثالث عشر، ولكن مع مراعاة تفادي كثير من الشروحات التي يسوقها بن سباع في شرح الطقس، أو في تعليقه عليه، لأنها ضعيفة، وأحياناً خيالية. وهذه الملاحظة ذكرها كل من درس هذا الكتاب، أو حقَّقه علمياً.

٣٣- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٠

ويضعه في الصِّينيَّة ...". والسؤال هو: ممَّن يتسلَّمه؟ وماذا تعني هذه العبارة؟. وسنعود إلى هذه النُّقطة بعد قليل عند الحديث عن دورة الحَمَل. ولكن من كلام كل من ابن سباع وابن كبر، نعرف أن مسح الحَمَل بيدي الكاهن كان يسبقه مباشرة غسل الكاهن ليديه. أما الفارق الجوهري بينهما فهو أن ابن كبر يقول بأن الكاهن يمسح الحَمَل بيديه فوق وأسفل، أما ابن سباع فيقول بأن الكاهن يمسح الحَمَل بالماء.

وهكذا انقسمت مخطوطات الخولاجيّات بين هاتين الممارستين، فالقسم الأوَّل منها يتحدَّث عن مسح الكاهن للحمل بيديه فوق وأسفل، والقسم الثَّاني يذكر أن هذا المسح يكون بالماء.

ويمثِّل هذه الممارسة الثَّانية، أي مسح الحَمَل بالماء، كل من المخطوطين (ط ١٣٣)، و(ط ١٣٤).

فيذكر المخطوط (ط ١٣٣) ما نصُّه:

ثم يمسح يديه **وياخد قليل ما على اصبعه** ويمسح الخبز فوق واسفل قايلا

ⲙⲏⲓⲥ Ⲡ̅ⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲑⲣⲉⲥϣⲱⲡⲓ

أي: (أعط يارب أن تكون مقبولة ...)[٣٤].

كتبت سابق وايضاً يُقال كما وجد بالنسخه

Ⲟⲩⲑⲩⲥⲓⲁ ⲛ̀ⲥⲙⲟⲩ. ⲟⲩⲑⲩⲥⲓⲁ ⲙ̀ⲡⲭⲱ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲉⲛⲛⲟⲃⲓ. Ⲫ̀ⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ. ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛⲥⲱⲙⲁ ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅. ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉⲛⲟⲩⲱⲣⲡ ⲛⲁⲕ ⲙ̀ⲡⲓⲱ̀ⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲧⲁⲓⲟ.

أي: (ذبيحة بركة. ذبيحة غفران خطايانا. نور نفوسنا وأجسادنا

٣٤ـ ما بين القوسين من عندنا للتوضيح، ولم يرد بالمخطوط.

وأرواحنا. ونرسل إليك المجد والكرامة)[٣٥].

أما المخطوط (ط ١٣٤) فيذكر ما نصُّه:
ثم بعد ذلك يمسح يديه **ويأخذ على اصابعه قليل** ما ويمسح وجه التَّقدمة وهو يقول

ⲙⲏⲥ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲑⲣⲉϥϣⲱⲡⲓ

كُتبت قبل

ثم يقول: وعلى الظهر

Ⲟⲩⲉⲩⲥⲓⲁ̀ ⲛ̀ⲥⲙⲟⲩ ⲟⲩⲑⲩⲥⲓⲁ̀ ⲙ̀ⲡⲭⲱ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲉⲛⲛⲟⲃⲓ. Ⲫⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ. ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛⲥⲱⲙⲁ ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅. ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉⲛⲟⲩⲱⲣⲡ ⲛⲁⲕ ⲙ̀ⲡⲓⲱ̀ⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲧⲁⲓⲟ.

ولا ينبغي أن ننسى أن المخطوط (ط ١٣٤) قد ذكر أن هذا التَّرتيب هو من وضع أنبا ميخائيل أسقف سمنود.

أما الممارسة الأُولى والتي فيها يمسح الكاهن الحَمَل بيديه فوق وأسفل، فهي التي يمثلها المخطوطان (ط ١٣٦)، و(ط ١٤٧).

فيقول المخطوط (ط ١٣٦) ما نصُّه:
ثم ينشف يديه **قليلاً** في ستر نضيف وياخد الحَمَل على كفه اليسار ويمسحه بيده اليمنى ويقول

ⲙⲏⲥ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲉⲑⲣⲉϥϣⲱⲡⲓ

أما المخطوط (ط ١٤٧) فيقول ما نصُّه:
...ثم يغسل يديه وينشفهما **قليل** ثم ياخد الحَمَل على يده اليسار

٣٥ـ ما بين القوسين من عندنا للتوضيح، ولم يرد بالمخطوط.

ويمسحه بيده الأيمن فوق وأسفل وهو يقول

ⲙⲛⲓⲥ Ⲡⲟⲥ ⲉⲑⲣⲉⲥϣⲱⲡⲓ...

وهذان النّصان السّابق ذكرهما يتّفقان مع ما يذكره البابا غبريـال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في كتابه "التّرتيب الطّقسي"، فيقول:

"... ويأخذ خبز التّقدمة ويمسحه بيديه فوق وأسفل، ويقول: امنحنا يارب أن تكون ذبيحتنا مقبولة أمامك عن خطاياي خاصة، وعن جهالات شعبك، لأنها طاهرة كموهبة روح قدسك، بالمسيح يسوع ربّنا.

وإن كان القربان عن حي أو ميت أو ضعيف أو مسافر أو في شدّة، فيذكر اسمه بعد ذلك ...".

يتّضح إذاً - بحسب الطّقس الذي أوردته الخولاجيّات المخطوطة والمطبوعة - أن الكاهن يصلّي وهو متّجه شرقاً، وواقف عند الجانب الأيمن من المذبح، أي في جهته القبليّة، بينما يمسح الحَمَل بيديه فوق وأسفل، سواء كان ذلك بدون استخدام الماء، أو باستخدامه(٣٦).

أما الآن فالكاهن يمارس هاتين الممارستين معاً، واحدة عند باب الهيكل وهو متّجه غرباً، حيث يختار الحَمَل ويمسح الحَمَل بيديه فوق وأسفل، والأخرى عند المذبح بعد أن يبلّل إصبعه بالماء ويمسح به الحَمَل

٣٦- ويزيد القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) توضيحاً لهذه الجزئيّة فيقول: "يأخذ (الكاهن) الحَمَل على راحة كفه اليسرى، ويمسحه بيده اليمنى فوق وأسفل وهو يقول: امنحنا يارب ...". ويضيف القُمُّص المذكور في حاشية قائلاً: "والعادة الجارية الآن أن الكاهن بعد كمال "امنحنا يارب ..." هذه، يقول الثلاث أواشي الصغار، السلامة والآباء والاجتماعات، وبعد ذلك يذكر من يريد". ولربما كانت هذه هي إحدى الممارسات في جهة ما، ولكنها في النهاية لا تمثل طقس اختيار الحَمَل في بساطته الأولى.

(انظر: كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٠٦ ؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ١٤٢).

مرَّة أخرى. وهذه شهادة أخرى على ممارستين طقسيَّتين لنفس الجزئيَّة الواحدة من طقس تقديم الحمل.

وهنا حدث خلط في هذه الجزئيَّة من الطَّقس، فأنتج هذا الخلط تأويلات وشروحات لم تخدم الطَّقس بل زادته غموضاً.

إن سكب الشمَّاس للماء على اليد اليُمنى للكاهن بعد عودته إلى المذبح، وبعد أن اختار الحَمَل، قد أربك شرَّاح الطَّقس، ولاسيَّما أن الكاهن يأخذ من الماء المسكوب على يده اليُمنى ويمسح به الحَمَل فوق وأسفل، والذي يحمله على يده اليُسرى. ولم يجد المفسِّرون في هذه الممارسة سوى أن الكاهن يقوم بتعميد الحَمَل!. وهذا غير صحيح.

ولكن السؤال هو: ماذا يفعل الكاهن الآن، وما دخل الماء في هذه الممارسة، وما علاقة الماء بمسح الحَمَل في هذه الجزئيَّة من الطَّقس؟.

إن من يتتبَّع ما سبق ذكره بتدقيق، سيجد الإجابة بين السُّطور، ولكني هنا سأعيد الكلام للتَّسهيل على القارئ.

فأمامنا الآن ممارستان طقسيَّتان نحصر الحديث عنهما.
الأولى: غسل الكاهن ليديه.
الثانية: مسح الحمل بيدي الكاهن فوق وأسفل.

فعن الممارسة الأولى، وهي غسل اليدين؛ عرفنا من الطَّقس القديم أن الكاهن حين يتَّجه غرباً ويختار الحَمَل، يلتفت إلى المذبح ويغسل يديه في الرُّكن الغربي القبلي منه، وهو ما يعنيه البابا غبريال بعبارة "يمين المذبح"(٣٧). ولكن لما انتقل غسل اليدين وصار قبل اختيار الحَمَل ظلَّ

٣٧- كان الشمَّاس يحمل الإبريق والطاس إلى الكاهن ليغسل يديه عند المذبح، وظلت هذه الممارسة سارية في كثير من كنائسنا حتى إلى ما بعد الستينيات من القرن

الطّقس حافظاً - في ذات الوقت - للممارسة القديمة بعينها حين يصب الشمّاس على يدي الكاهن قليلاً من الماء بعد اختياره الحَمَل وعودته إلى المذبح، أي حين يبلّل الكاهن إصبعه بالماء كما تذكر بعض المخطوطات. فهنا يبلّل الكاهن يديه بالماء في نفس المكان الطّقسي القديم لغسل اليدين، وفي نفس الزّمن الطّقسي القديم أيضاً. وهكذا صار الطّقس يحمل ممارستين لغسل اليدين، الأولى حين يغسل الكاهن يديه قبل اختيار الحَمَل، والثّانية - وهي الأقدم - حين يعيد غسلها بعد اختيار الحَمَل وعودته إلى المذبح، ولكن بصورة رمزيّة حين يبلّل يده اليمنى أو إصبعه فقط بالماء.

أما عن الممارسة الثّانية وهي مسح الحَمَل فوق وأسفل، فيذكر الطّقس القديم - كما سبق أن ذكرتُ - أن الكاهن بعد أن يغسل يديه وينشّفهما **قليلاً**، يأخذ خبز التّقدمة من على يمين المذبح ويمسحه بيديه فوق وأسفل، ويقول "أعط يارب ...". ولكن بعد أن انتقل غسل اليدين إلى ما قبل اختيار الحَمَل، أصبح الكاهن يمارس طلبة "أعط يارب ..." عند باب الهيكل أثناء اختيار الحَمَل وليس عند المذبح. وصار مسح الحَمَل يجري مرّتين، مرّةً بدون استخدام الماء عند باب الهيكل، وأخرى عند المذبح بعد أن يبلّل الكاهن يديه بالماء. وهذا المسح هو في الحقيقة لمرّة واحدة ولكن بممارستين مختلفتين.

وعلى ذلك فلا علاقة البتّة بين سكب الماء على يد الكاهن، وبين مسح الكاهن للحَمَل فوق وأسفل. لأن حرص الأقباط الشّديد على عدم التّخلي عن القديم - مهما أُضيف من جديد - هو الذي جعل الكاهن يكرّر ممارستين قديمتين وهو واقف عن يمين المذبح من جهته الغربيّة القبليّة - برغم التعديل الذي طرأ على الطّقس في هذا الجزء من الصّلاة - وهما:

العشرين. وقد رأيناها في حبريّة المتنيح نيافة أنبا يوانس أسقف الغربيّة السابق.

أولاً: أنه يبلّل يديه بالماء عوضاً عن غسلهما الذي تم بالفعل منذ قليل طبقاً للوضع الجديد.

ثانياً: حين يمسح بيديه الحَمَل فوق وأسفل.

وهما ممارستان مستقلّتان عن بعضهما كل الاستقلال. ولكن لمّا سقط عنصر متوسّط بين هاتين الممارستين المتكرّرتين عند المذبح، وهو أن الكاهن كان ينشّف يديه بالمنشفة قليلاً بعد غسلهما بالماء، بدا للنّاظر أن الطّقس الذي يمارسه الكاهن حالياً هو أنه يبلّل يديه بالماء ويمسح بهذا الماء الحَمَل من فوق ومن أسفل. ومن ثمّ ظهرت محاولات حديثة لتفسير هذه الممارسة بأنها رمز إلى تعميد الحَمَل بالماء، وهو ما تنفيه دراسة تاريخ الطّقس.

ونخلص إلى القول إذاً أن مسح الحَمَل فوق وأسفل بيدي الكاهن لا علاقة له بماء يُصب على يديه، حتى وإن كان صب الماء على يدي الكاهن قد ظهرت بوادره الأولى في القرون الوسطى.

ولقد فصل البابا غبريال الخامس بين غسل اليدين وبين مسح الحَمَل وذلك حين يقول بأن الكاهن بعد أن يغسل يديه وقبل أن يمسح الحَمَل ينشفهما قليلاً.

ولعل الكاهن حين يمسح الحَمَل بيديه من فوق ومن أسفل مردّداً القول: "أعط يارب أن تكون ذبيحتنا مقبولة أمامك عن خطاياي وجهالات شعبك، لأنها طاهرة كموهبة روحك القدُّوس"، أنه يضع يده على الذّبيحة في ذات اللّحظة التي يردّد فيها الصّلاة لتنتقل خطيئته وخطايا الشّعب معه إليها، باعتبار أن الكاهن دُعي ورُسم في الكنيسة جسد المسيح، ليكون صورة رأس هذا الجسد، أي ليكون صورة للمسيح، ولكي يكون هو ذاك الذي بواسطته تستمر الخدمة الشّخصيّة للمسيح.

فالمسيح له المجد هو الكاهن والذّبيحة في آن معاً، والكاهن يتمّم هذا السّرّ العظيم الذي للتّقوى، بتفويض أسقفي متسلسل يعود إلى تلاميذ الرّب، ومن ثمّ إلى الرّب نفسه له كل المجد.

أما طقس اختيار الحَمَل كما نعرفه اليوم فقد حوى ممارسات طقسيّة كثيرة لم تشر إليها مخطوطات الخولاجيّات، ولا الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، كرشومات تجري على قارورة الخمر إلى جانب رشومات قُربانات الحَمَل، وملامسة قارورة الخمر لقربانات الحَمَل برشم آخر، ووضع اليدين متقاطعتين لاختيار الحَمَل، وملامسة قُربانة الحَمَل المختار لباقي القربانات التي تكون مع قربانة الحَمَل بعدد فردي، وتبليل إبهام اليد اليمنى من قارورة الخمر، ورشم قربانه الحَمَل مع باقي القُربانات الأخرى برشومات أخرى مع ترديد الكاهن: "ذبيحة مجد، ذبيحة بركة، ذبيحة إبراهيم، ذبيحة اسحق، ذبيحة يعقوب، ذبيحة ملكيصادق" ... الخ.

• **تذكارات الحَمَل**

هنا يطلب الكاهن سراً طلبات من أجل الأحياء الذين سألوه أن يذكرهم. فيطلب من أجل المرضى والمسافرين والذين في الضّيقات. ثمّ يطلب من أجل الرّاقدين على الإيمان الذين طلب إليه أن يذكرهم. وهكذا يطرح على الحَمَل حمل آلامنا وأوجاعنا واحتياجاتنا وكل خطايانا. كما يذكر الكاهن ضعفه أمام الرّب طالباً غفران خطاياه هو أيضاً.

وقد أورد خولاجي سنة ١٩٠٢م نصوص هذا التّذكارات التي تساعد الكاهن على الصّلاة من أجل كل نوع من هذه الاحتياجات السّابق ذكرها.

وفي هامش (ص ٢١١) من خولاجي سنة ١٩٠٢م يكتب القُمّص

عبد المسيح صليب البراموسي بخط يده يقول: "مع كوني حافظتُ على إيراد الصَّلوات كما هي في كل هذا الخولاجي، إلاَّ إني في هذه التّذكارات التي للحَمَل حسَّنت التَّرتيب بالتَّقديم والتَّأخير وتكميل النَّاقص عن مضمون قول النُّسخ لا من ذاتي. ثمَّ زدتُ في ذكر من لا يكون في مرض من عندي جملة 'وساعده في كل عمل صالح' لأنها تذكارات لا يمنع عمل إصلاحات فيها فزدتُ هذه الجملة، بخلاف الصَّلوات المعتمدة المثبتة في كل الخولاجيَّات فإننا لا نقدر أن نزيد فيها كلمة أو ننقصها إلاَّ عن نسخة". فتحيَّة تقدير وإعزاز للقُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي على دقَّته المتناهية التي أهَّلته بمعونة سماويَّة لإنجاز هذا الخولاجي المقدَّس.

- **دورة الحَمَل حول المذبح**

يلف الكاهن الحَمَل بلفافة حرير، لتبدأ دورة الحَمَل. وعلينا الآن أن نتتبَّع المراحل التي عبرت عليها دورة الحَمَل حتى باتت بشكلها الذي نعرفه اليوم.

كانت دورة الحَمَل في القديم في كل الطُّقوس — بما فيها الطَّقس القبطي - تبدأ من هيكل التَّقدمة، وهو الهيكل البحري من الكنيسة متَّجهة صوب الهيكل الرَّئيسي، وذلك في الفترة التي كانت فيها طغمة الموعوظين لا زالت موجودة في الكنيسة، والتي لم يكن مسموحاً لها بالاشتراك في قدَّاس الإفخارستيَّا الذي كان يبدأ بدورة الحَمَل. ومن ثمَّ فلم يكن ممكناً وضع القرابين على مذبح الهيكل الرَّئيسي في حضورهم.

أمَّا المصدر الذي عرفنا منه الطَّقس القديم لدورة الحَمَل في الكنيسة القبطيَّة فهو رسالة أنبا مقاره أسقف منوف العليا في القرن العاشر والتي أوضحت لنا هذه الممارسة الطَّقسيَّة، ولا مانع من إعادة ذكرها هنا:

يقول أنبا مقاره[٣٨]: "... وفي الجيل الاول ما كانوا يعمدوا اطفالْ بل من قد كملوا عمرهم يدعون كاتيخومانس وهم الدين يعطوهم المعموديه ويعلموهم دين النصرانيه الى تلث سنين ويعمدون ومن اجل هدا صار الرسم في الكنايس هدا الوقت في خروج قدس القدّيسين الى المدبح بعد قرآاة الانجيل وهو ان ينادي الشمَّاس ويقول ينصرفوا الموعوظين ويغلقوا الابودياقنين الابواب لانهم جعلوا لهم قانون ان يبادروا الى البيعه ويقفون في الصلوات وقرآاة الميامر ويسمعون قرآاة كتب الانبيا والرسايل والانجيل المقدس فيخرجوهم ويغلقوا الابواب لانهم ما عمّدوا ولا يستحقوا ان ينظروا قدس القديسين وهو الحَمَل النقي من الدنس الدي يقدموه على المدبح ويفصّل ليتناوله المومنون لمغفرة خطاياهم. **حاشيه** كان يخرج القربان من الهيكل الدي هو هيكل التقدمه الى حيث يقرا الانجيل يعضوا الكهنه مبدئين بالشمع والبخور ويقدّم الى المدبح الدي للصعيده عند دلك يخرج الموعوظين وهدا الرسم انقطع من ديار مصر عند القبط. **النص** ولما كان اخر الازمان قطعوا معموديه الرجال وصيّروها للاطفال اد كانوا مولودين على امانة المسيح ...".

وبانتهاء رتبة الموعوظين في الكنيسة في غضون القرن السَّادس الميلادي تقريباً، استغرق تغيير طقس دورة الحَمَل بوضعها القديم ردحاً غير قليل من الزَّمن كعادة الطَّقس في تطوُّره البطيء والبطيء جداً. فكانت القرون العشرة الأولى شاهدة على هذه المرحلة الأولى من طقس تقديم الحَمَل[٣٩].

٣٨- النص منقول من المخطوط ١٠٠ عربي باريس (ص ٩ وجه، و٩ ظهر، ١٠ وجه) بكل دقة.

٣٩- لازالت الكنيسة البيزنطيَّة تحتفظ بهذا الطَّقس وتسميه "الدخول الكبير – ἡ μεγάλη εἴσοδος"، وفيه ترتل ترتيلة تُسمى "الشاروبيميَّة – χερουβικόν".

ثم تأتينا المرحلة الثَّانية وهي التي نقرأ عنها عند العالم الطَّقسي القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) كاهن كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة، وهي المقر البطريركي في ذلك الوقت، فيقول:

"... ثم يقول (الكاهن) برشم القُربان: مجداً وإكراماً للثَّالوث إلى آخرها Oᴛωoᴛ nem oᴛᴛaio ويناول القُربان للشمَّاس الخادم معه فيتلقاه من يده على خرقة من خرق الهيكل الكرزة، ويغطيه بأطرافها، ويدور به حول المذبح، ثم يسلمه للقس تجاهه عن يساره فيضعه في الصِّينيَّة ..."(٤٠).

وبإعادة قراءة النَّص السَّابق ذكره قراءة متفحِّصة، يتَّضح لنا النِّقاط التَّالية:

(١) ترديد الكاهن "مجداً وإكراماً ..." يقولها وهو واقف عند المذبح ومتَّجه شرقاً.

(٢) الكاهن في ترديده "مجداً وإكراماً ..." يحمل الحَمَل على يديه غير ملفوف في لفافة بل مكشوف على يديه. ولا يتَّضح لنا من النَّص هل يضعه على رأسه أم يحمله فقط على يديه.

(٣) بعد انتهاء الكاهن من ترديده "مجداً وإكراماً ..." يناول الحَمَل للشمَّاس الخادم معه، والواقف عن يمينه، فيتلقاه الشمَّاس من يده على لفافة من لفائف الهيكل، ويغطي الحَمَل بأطرافها، ويدور به حول المذبح. ولم يشر ابن كبر إلى مرد يقوله الشمَّاس في أثناء دورته هذه. ثم يسلِّمه

وقد بطل هذا الطقس عند السِّريان الأنطاكيين في القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي؛ مع بقاء الترتيلة التي كانت تصاحب هذا الطواف القديم وتُسمى "أبيات المدخل"، ويسميها السِّريان المشارقة (الأشوريون) "ترتيلة الأسرار".

(انظر: البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٣٥).

٤٠- الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

للكاهن حين يصل في نهاية دورته حول المذبح ليكون عن يساره، فيضعه الكاهن في الصِّينيَّة.

إن دور الشمَّاس (الدياكون) في الكنيسة كان لا يزال حتى ذلك الوقت دوراً نشطاً حياً في كنيسة الإسكندريَّة، فهو الذي يلف الحَمَل في اللفافة، وهو الذي يدور بالحَمَل حول المذبح، وهو الذي يصب الخمر في الكأس كما سنرى لاحقاً، وهو الذي يناول الشَّعب من الدَّم الكريم في نهاية القدَّاس ... الخ.

وإن دورة الشمَّاس بالقرابين حول المذبح، تعني أنه هو الذي كان منوطاً به تقديم القرابين إلى الأسقف أو إلى الكاهن الذي يقوم بالخدمة الإفخارستيَّة، فظلَّت دورة الشمَّاس بالقرابين حول المذبح حتى القرون الوسطى رمزاً لطقس توارى يوم أن كانت الرُّتب الكنسيَّة واضحة، ومسؤوليَّة كل رتبة منها مسؤوليَّة محدَّدة. أي يوم أن كانت المحبَّة في أوج فعلها بين أعضاء الكنيسة، الكبير والصَّغير على السَّواء.

وواضح هنا أن الدَّورة حول المذبح كانت بالحَمَل فقط، ولذلك ظلَّت تُدعى حتى اليوم "دورة الحَمَل". وصارت دورة الحَمَل حول المذبح هي البديل عن تلك الدَّورة التي كانت تجري قبلاً في موكب من الهيكل البحري إلى الهيكل الرئيسي.

ولم يكن ابن كبر وحده هو الذي ذكر طقس دورة الحَمَل في مرحلته الثَّانية هذه. فيوحنا ابن سباع والذي عاش في نفس الفترة الذي عاش فيها ابن كبر تقريباً يشرح في إهام عمل الشمَّاس في دورة القرابين حول المذبح فيقول:

"... يأخذ (الكاهن) القربان ويمسحه كما مُسح السيِّد له المجد

بالماء قبل تسليمه لسمعان الكاهن، ثم يدوِّره على يديه كدوران سمعان الكاهن به الهيكل، ثم يتسلمه الكاهن ويضعه في الصينيّة ...''[٤١].

وابن سباع في النص السابق لا يشرح طقساً، بقدر ما يفسر ما يعنيه هذا الطّقس، لذلك لم يعبأ بتتبُّع المراحل الطّقسيَّة بدقّة، قدر عنايته بشرح ما يمارسه الكاهن من ممارسات طقسيَّة على الحَمَل ومعناها حسب رأيه. أما ما يهمُّنا في النّص السّابق فهو عبارة ''يتسلّمه الكاهن''، ومنها يتّضح أن الكاهن يتسلّم الحَمَل من الشمّاس قبل أن يضعه في الصّينيَّة، وهذا يؤكّد أن دورة الحَمَل حول المذبح كانت بواسطة الشمّاس وليس الكاهن كما نمارس اليوم.

وفي غضون القرن الرّابع عشر الميلادي، بدأ دور الشمّاس (الدياكون) يتقلّص بصورة واضحة في الكنيسة القبطيَّة، وقد تقلّص بالفعل في الكنائس الشّرقيَّة الأخرى قبل هذا الوقت أو نحوه. لذلك نجد أن البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) قد عبّر بطقس دورة الحَمَل إلى مرحلته الثّالثة، فيقول:

''وإذا تكامل ذلك يلف (الكاهن) الحَمَل في لفافة حرير، ويرفعه على رأسه ويكون أمامه شمّاس حاملاً شمعة، وكذلك الشمّاس يرفع وعاء الخمر على رأسه ملفوفاً في لفافة حرير، وأمامه شمّاس حامل شمعة[٤٢]، ويدورون المَذبح دورة واحدة والكاهن يقول هكذا: مجداً وإكراماً،

٤١- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٠.

٤٢- انظر أيضاً: كتاب سر الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٨

ويفسر الكتاب المذكور ذلك الأمر بقوله: ''... فإن الذين حنطوا الرّب كانوا أربعة، وهم نيقوديموس وغمالائيل، وسمعان القرياني – من **Κϒρινηε** أو قيرينا وليس القيروان التي لم تكن موجودة آنئذ - ويوسف الرامي''.

وإكراماً ومجداً للثّالوث المقدَّس، الآب والابن والرُّوح القُدُس، وسلامة وبنياناً للواحدة المقدَّسة الجامعة الرَّسوليَّة، كنيسة الله آمين. اذكر يارب الذين قدَّموا لك هذه القرابين، والذين قدَّموهم عنهم، والذين قدَّموهم من جهتهم، أعطهم كلّهم الأجر السَّمائي.

اذكر يارب كل الذين أمرونا أن نذكرهم في سؤالنا وطلباتنا. الرَّب يذكرهم في ملكوته السَّمائيَّة"(٤٣).

فأصبح الكاهن هو الذي يدور بالحَمَل وليس الشمَّاس. وأن ترديد "مجداً وإكراماً ..." والذي كان يردِّده الكاهن وهو واقف مكانه أمام المذبح متَّجه شرقاً صار يردِّده وهو يدور بالحَمَل حول المذبح. ومن ثمّ فقد حمل الشمَّاس قارورة الخمر في هذه الدَّورة بعد أن حل الكاهن محلّه في حمل قربانة الحَمَل.

إذاً فلف الحَمَل في لفافة أثناء دورة الحَمَل كان بسبب أن الشمَّاس هو الذي يقوم بهذه الدَّورة وليس الكاهن. ولمّا أنيط بالكاهن تتميم دورة الحَمَل، ظلّ الحَمَل ملفوفاً بلفافة كما كان يحدث مع الشمَّاس من قبل. وعلى كل فما يلزم التَّنويه إليه هو أن الكاهن حين يقوم برشم الحَمَل بعد انتهاء الدَّورة، يحمل قربانة الحَمَل على يديه بدون اللّفافة.

ولم يذكر البابا غبريال الخامس أن الكاهن يلتفت غرباً ناحية الشَّعب وهو يقول: "مجداً وإكراماً ...". كما أن القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) لم يشر إلى ذلك أيضاً في حاشية في الخولاجي الذي طبعه سنة ١٩٠٢م، كعادته في ذكر ما يراه مغايراً في أيامه لما تذكره المخطوطات.

---

٤٣ ـ البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٦٧، ٦٨.

كما لم يشر البابا غبريال الخامس إلى المرد الذي يردِّده الشمَّاس أثناء الدَّوران حول المذبح، لأن الكاهن صار يستهلك وقت الدَّورة بالكامل في ترديده "مجداً وإكراماً ...". ولكن ما يلفت نظرنا هو أن النَّص اللِّيتورجي "مجداً وإكراماً ..." ينتهي عند قول الكاهن: "أعطهم كلهم الأجر السَّمائي"، أما النَّص اللِّيتورجي الذي يبدأ بعبارة "اذكر يارب كل الذين أمرونا ..."، فقد فصله البابا غبريال عن سابقه بدون أي توضيح.

وهنا نجد أن القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي قد أورد في الخولاجي الذي طبعه سنة ١٩٠٢م مرداً للشمَّاس "صلوا من أجل هذه القرابين المقدَّسة الكريمة وضحايانا (وتقدماتنا)[٤٤] والذين قدَّموها".

وأعقبه بقوله: "ويَصل الكاهن هذه بالقول السَّابق قائلاً: اذكر يارب الذين أوصونا أن نَذكرهم ..."[٤٥]. ويعقِّب القُمُّص عبد المسيح البراموسي على هذه الطِّلبة بخط يده في هامش (ص ٢١٥) في هذا الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م بقوله: "هذا الرُّبع مثبوت في نسخ كثيرة ولو أن الكهنة الآن ١٦١٧ش (١٩٠١م) لا يقولونه ولا يوجد في خولاجياتهم. وأما في خولاجي روميه فهو موجود".

ولم يكن من الصَّواب أن يذكر نفس الخولاجي في طبعته الثَّانية سنة ٢٠٠٢م أن الكاهن يصلِّي هذا الجزء سراً[٤٦]، بدون أي إشارة توضِّح أنها إضافة جديدة حديثة لم يشر إليها الخولاجي في طبعته الأولى سنة ١٩٠٢م.

وهكذا سقط هذا النَّص اللِّيتورجي بعد فصله عن سابقه بمرد للشمَّاس. فصار صلاة سريَّة إن قبلت أصلاً في السِّر.

---

٤٤ _ الكلمة Ⲕⲉ ⲑⲩⲥⲓⲱⲛ ⲏ̀ⲙⲱⲛ تعني "تقدماتنا - ذبائحنا - عطايانا".

٤٥ _ كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢١٥

٤٦ _ كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ٢٠٠٢م، ص ١٤٧

أما مخطوطات الخولاجيّات (ط ١٣٣، ١٣٤، ١٤٧) فتؤكّد أن الكـاهن يردّد "مجداً وإكراماً ..." وهو يدور حول المذبح، فتورد ما يلي بنصّه:

"... ثم يلف (الكاهن) الحَمَل في لفافه حرير ويحمله باعلا راسه وكذلك الشمَّاس يحمل وعا الخمر[٤٧]. وقدام كل واحد منهم شمّاس حامل شمعه موقوده ويدوروا الهيكل دوره واحد. والكاهن يقول باعلا صوته

Ⲟⲩⲱⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲧⲁⲓⲟ ...

واذا اكمل الدوره يقف مكانه اولاً ووجهه للشرق والحمل على يده اليسار ويطامن راسه لاخوته الكهنه ويقول ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲕⲟⲛ (بارك)[٤٨].

يطامنوا رووسهم ويقولوا ⲕⲉ ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲕⲟⲛ (بارك يارب).

يلتفت ويرشم الحَمَل ووعا الابركه ثلثة رشوم مثال الصليب قايلاً

Ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲫⲓⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ...

أما مخطوط الخولاجي رقم (ط ١٣٦) فيذكر ما سبق أن ذكرته المخطوطات الأخرى ولكنه يقول بعد دورة الحَمَل: "...ثم يقف (الكاهن) مكانه ووجهه للشرق والشماس مكانه ووجهه للغرب ثم يضع الكاهن القربانه على يده اليسار والشماس ماسك الخمر بلفافه حرير ثم يرشمها الكاهن قليلا بما وهو يقول هكذا ...".

وهنا أيضاً فالكاهن يردّد "مجداً وإكراماً ..." وهو يدور حول المذبح، ولا ذكر لرد الشمّاس: "صلّوا من أجل هذه القرابين المقدّسة ...".

وخلاصة القَول ...

إن الأسقف حين يترأس الخدمة اللّيتورجيّة لا يشـارك بنفسه في

٤٧- يضيف مخطوط رقم (ط ١٣٤) كلمة: "والكروز"، وهو يعني "كوز الماء".

٤٨- ما بين القوسين من عندنا للتوضيح.

طواف القرابين حول المذبح، أو في الكنيسة، وهو نفس ما تمارسه الكنيسة الرُّوسيَّة والكنيسة اليونانيَّة أيضاً[٤٩]. فهذا الطّواف يقوم به الكهنة والشّمامسة الذين يشاركون الخدمة، ذلك لأن الشّمامسة هم الذين كانوا يتمّمون خدمة التّقدمة prothesis في الكنيسة الأولى، ويحضرون القرابين إلى رئيس الخدمة، لأن رسالتهم المحدَّدة في الجماعة الكنسيَّة كانت خدمة المحبَّة، أي خدمة الكنيسة. فكانوا يتقبّلون من المجتمعين الهبات التي بواسطتها يمكن للكنيسة أن تتمّم هذه الخدمة، حيث يوزعوها بعد أن يقتطعوا منها جزءاً من الكُل معداً ليقدَّم في السِّر الإفخارستي. ولذلك فلم تظهر المشاركة الكهنوتيَّة في ذلك إلاّ بعد أن صار دور الخدمة الشّماسيَّة غير ذي أهميَّة. أي بعد أن فقد الشمّاس دوره الإجباري والضّروري، وأحيلت مهامة اللّيتورجيَّة إلى الكاهن. لذلك ظلّ الأسقف لا يطوف بالقرابين كتعبير عن أصل وجوهر التّقدمة prothesis الإفخارستيَّة، والتي كانت تبرز دور كل عضو في الكنيسة كجماعة تحنو على بعضها البعض[٥٠].

ثم يتقبَّل الأسقف القرابين بعد الطّواف بها ليضعها على المذبح، لكي يرفع قرباننا وتقدمتنا إلى الهيكل السّماوي، فتصير ذبيحتنا ذبيحة الكنيسة، وبالتّالي ذبيحة المسيح[٥١].

أما حركة القرابين والطّواف بها فتعني أن القربان الذي قدّمه كل واحد منّا، والموجود في قربان الكُل، قد تحقّق الآن قرباناً تقدّمه

٤٩ـ الممارسة اليونانيَّة هي أنهم يطوفون بالقرابين بين جميع أعضاء الكنيسة. أما الممارسة الروسية فهي خروج القرابين من الباب الشمالي للإيقونستات لتدخل الهيكل الرئيسي مباشرة عبر الباب الملوكي، كما كانت تمارس الكنيسة القبطيَّة من قبل.

٥٠ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٧٨-١٧٩

٥١ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٨١

الكنيسة عن نفسها، وهو بالتّالي قربان المسيح، لأن الكنيسة هي جسده وهو رأسها(٥٢).

☐ وتعقيباً على قول الكاهن في دورة الحَمَل حول المذبح: "مجداً وإكراماً، إكراماً ومجداً للثالوث القدّوس الآب والابن والرُّوح القدُس ..."، فإن الغاية الأولى والعظمى لكلِ قدّاس هيَ تمجيد الله الآب والابن والرُّوح القُدُس. وإن مفهوم المجد روحياً، يختلف عن مفهوم المجد عالمياً، فمجد الله ليس هو شيء يخصُّه هو وحده مثل مجد ملوك الأرض الذي يخصُّهم في ذواتهم. لأن مجد الله هو قدرته الفائقة على الحب اللانهائي والإحسان والبذل والعطاء وعلى إغداق النِّعم لإسعاد الخليقة كلها. هذا هو مجد الله.

ففي القديم ظهر مجد الله في عمليَّة الخلق: «السّموات تحدِّث بمجد الله والفَلَك يخبر بعمل يديه» (مز ١٨ :٢). وفي العهد الجديد تجلّى مجد الله بصورة فائقة لا نهائيَّة بقبوله الصَّليب من أجلنا. «أيها الآب، قد أتت السَّاعة، مجّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً» (يو١٧: ١). فما هي هذه السَّاعة؟ هي ساعة الصَّليب، ساعة البذل، ساعة الحب اللانهائي: «إذ كان قد أحب خاصته، أحبهم إلى المنتهى» (يو١٣: ١). «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحدٌ نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥: ١٣).

والقدّاس الإلهي هو أساساً ذكرى لموت الرَّب كما يقول بولس الرَّسول: «لأنكم كلما أكلتم هذا الخبز ... تخبرون بموت الرَّب إلى أن يجيء» (١كو١١: ٢٦).

وقد أضافت الكنيسة على هذه الذِّكرى، قيامته، وصعوده، وجلوسه عن يمين الآب، وأيضاً مجيئه الثّاني. ولكن الآية الإنجيليَّة أساساً هي:

٥٢ـ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٨١

«تخبرون بموت الرَّب»، لأن الأصل لجميع هذه النِّعم هو بذل الصَّليب.

❑ وما هو معنى قول الكاهن: "... بنياناً للكنيسة".

يقول الشَّهيد فيلكس الذي من قرطاجنة بشمال أفريقيا، والذي عاش في القرن الثَّالث الميلادي:

[إن المسيحيين يقيمون الإفخارستيا، والإفخارستيَّا تقيم المسيحيين، ولا يستطيع أحد أن يعيش بدونها].

أي أن الإفخارستيَّا هي التي تبني الكنيسة وتقيمها وتكوِّن جوهر كيانها. ونحن بالإفخارستيَّا نكون في المسيح، وفيه نندمج. كما يقول القدِّيس بولس: «الذي فيه (أي في المسيح) أنتم أيضاً مبنيُّون معاً مسكناً لله في الرُّوح» (أف٢: ٢٢).

فوجودنا في المسيح، أو وجود المسيح فينا هو الذي يبني الكنيسة. وبدون وجود المسيح وسط الاجتماع الكنسي، لا تكون الكنيسة كنيسةً. لأن وجوده في الإفخارستيَّا هو الذي يشكِّل جوهر كيانها ويبنيها.

ويقول القدِّيس إغناطيوس الشَّهيد تلميذ يوحنا الرَّسول، والذي استشهد سنة ١١٠م، أي بعد عشر سنوات فقط من نياحة يوحنا البشير:

[حيثما يكون المسيح يسوع، هناك تكون الكنيسة الجامعة].

وهذا القدِّيس المحبوب جداً، والحار جداً بالرُّوح، والمحب للإفخارستيَّا، والمحب لوحدة الكنيسة، والشَّغوف بالاستشهاد، هو أوَّل من ذكر تعبير: "الكنيسة الجامعة – καθολοκὴ ἐκκλησία".

فوجود المسيح في وسطنا، إذاً، هو الذي يجعلنا كنيسة، كما أن اجتماع أعضاء الكنيسة حول المسيح في الاجتماع الإفخارستي هو الذي

بنيها ويشكِّل جوهر كيانها. أما تغيُّب المسيحيِّين عن هذا الاجتماع، فكان يُعتبر في مفهوم الكنيسة الأولى تقطيع لأعضاء المسيح، وحرمان جسد المسيح من أعضائه. فتقول الدِّسقوليَّة: "فلا تكونوا خارجاً عن اجتماع الكنيسة، ولا تتفرَّقوا من أنفسكم، لأنكم أنتم أعضاء المسيح؛ لأنه هو رأسنا كوعده الذي وعدنا به وهو كائن معنا ومشاركنا. فلا تتكاسلوا أنتم ولا تقطِّعوا أعضاء مخلِّصنا".

لاحظ هذا التَّعبير الشَّديد! فالمسيحيُّون لم يكونوا يتأخَّرون عن حضور اجتماع الكنيسة أبداً، بل يجتمعون إليها كل حين، لئلا تضعف الكنيسة بقيامهم خارجاً عنها أو بتركهم جسد المسيح تُعوزه أعضاء منهم.

فيا له من مفهوم رهيب حقاً، أن الذي يغيب عن الكنيسة يحرم جسد المسيح من أحد أعضائه. فالذي يغيب عن الكنيسة لا يخطئ في حق نفسه فقط، بل إنه يخطئ في حق المسيح. إنه يقطِّع جسد المسيح ويحرمه من أحد أعضائه، ويخطئ أيضاً إلى الكنيسة ويجعلها تضعف بقيامه خارجاً عنها. فجسد المسيح لا يتكامل إلا بحضور الكُل.

الانفراديَّة الرَّديئة التي تميِّز بها العصر الحديث لم تكن موجودة على الإطلاق في الكنيسة الأولى. فقد كان لدى الجميع إحساس مشترك بأنهم أعضاء في جسد واحد. كلُّهم أعضاء للمسيح، والذي يغيب يخطئ إلى الكنيسة. وعلى الكنيسة أن تسأل عنه لماذا لم يأت؟. وهذا ما نقرأه في أخبار الكنيسة الأولى: "مرَّة جيء إلى الإسقيط بقليل من التِّين فاقتسمه الرُّهبان فيما بينهم. ولأجل أنه شيء ضئيل استحوا أن يرسلوا إلى أنبا أرسانيوس شيئاً قليلاً وذلك لجلالة منزلته. فلما سمع الشَّيخ امتنع عن المجيء إلى الكنيسة وقال: [أفرزتموني من الإخوة ولم تعطوني من البركة التي أرسلها الله كأني لستُ أهلاً لأن آخذ منها، ولوجه آخر نسيتموني

بسبب كبريائي ...]، فانطلق القس وأتاه بنصيب من التِّين ففرح، وجميعهم سبَّحوا الله، وجاء معهم إلى المجمع".

كان على الكاهن أن يمر على المتغيبين لكي يطمئن عليهم. وكان الاجتماع الإفخارستي لا يبدأ إلاَّ حينما يحضر جميع الإخوة، ويطمئنون على مصالحة جميع الإخوة لبعضهم البعض، كما تقول الدِّيداخي، وكما تعلِّم قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة. هذا هو بنيان الكنيسة.

هذه هي الرُّوح الكنسيَّة الكينونيَّة، روح الشَّركة التي كانت موجودة في الكنيسة الأولى، كما يصفها لنا سفر أعمال الرُّسُل في ثلاثة مواضع. «وكان كل شيء بينهم مشتركاً». هذا هو السَّلام والبنيان الذي يقدِّم القدَّاس من أجله: "سلاماً وبنياناً للواحدة الوحيدة ... كنيسة الله".

الإفخارستيَّا هي سر محافظة المسيح على الكنيسة بحسب وعده أنه يبنيها، وأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها. لماذا؟ لأن وجوده مرتبط بوعده: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدَّهر». هذا الوعد لم يكن ممكناً أن يقوله الرَّب لو لم يكن قد سبق وأسَّس وجوده مع المؤمنين به بالإفخارستيَّا.

مرد: هلليلويا فاي بي

قبل رشومات الحَمَل يرتِّل الشَّعب: "هلليلويا هذا هو اليوم الذي صنعه الرَّب، فلنفرح ولنبتهج فيه. يارب خلِّصنا، يارب سهِّل طرقنا، مباركٌ الآتي باسم الرَّب. هلليلويا".

. هذا هو المرد الأساسي، أما المردَّات الأخرى كالتي تقال في الصَّوم فهي مردَّات أحدث. وينبغي أن نعرف أن القدَّاس أساساً يقام في يوم

الأحد في أيام الرُّسُل، في «أوّل الأسبوع». فنحن نقرأ في الإبركسيس عن يوم الأحد: «وكانوا في أوّل الأسبوع مجتمعين لكسر الخبز». فيوم الأحد هو أوّل الأسبوع عند اليهود، وهو يبدأ مع غروب شمس يوم السَّبت.

«هذا هو اليوم. الذي صنعه الرَّب» (مز١٧: ٢٤):

هذا هو مزمور القدَّاس الأساسي الذي يُقال في ليلة عيد القيامة. والآن، ما هو هذا اليَوم الذي صنعه الرَّب؟ والذي صنعه بالقيامة؟.

هذا هو اليَوم الذي لن تغرب شمسه إلى الأبد، إنه يوم القيامة، وشمسه هو «شمس البر والشِّفاء في أجنحتها» (ملا٤: ٢). أشرقت هذه الشَّمس في صبيحة أحد القيامة ولم تغرب بعد، ولن تغرب إلى الأبد. هذا هو اليَوم الذي صنعه الرَّب، اليوم الأبدي. وهو أيضاً يُدعى "اليَوم الثّامن"، وهو اصطلاح يتكرَّر كثيراً. فما هو معنى ذلك؟. معروف أن الأسبوع سبعة أيام، الأحد هو اليَوم الأوَّل من الأسبوع والاثنين هو الثّاني ... والسَّبت هو اليَوم السَّابع. فما هو معنى اليوم الثّامن؟.

هذا شيء جديد، خارج الدَّورة الزَّمنيَّة. إنه اليَوم الجديد الذي صنعه الرَّب، وهو اليوم المعبَّر عنه في سفر الرؤيا بأن المدينة لا تحتاج إلى الشَّمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها (رؤ٢١: ٢٣). فالمسيح في أورشليم السَّمائيَّة هو شمس البر، شمس اليَوم الأبدي الذي صنعه الرَّب.

▪ رشومات الحَمَل

سبق أن تكلمتُ عن رشومات الحَمَل من قبل، وسأوضِّح هنا هذا الأمر مرَّة أخرى طبقاً لواحدة من الممارسات الطَّقسيَّة التي سادت في بعض الكنائس، والتي كان يمارسها البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م).

فحين ندقِّق فيما أورده القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) عن رشومات الحَمَل نجد أنه يشير إلى أن الكاهن يرشم قُربانات الحَمَل بينما يردِّد "مجداً وإكراماً ..." إلى آخرها، ثم يناول الشمَّاس الحَمَل المختار ليدور به حول المذبح، ثم يتسلَّمه منه ليضعه في الصينيَّة. فالرُّشومات عنده كانت قبل دورة الحَمَل وليس بعدها، وكانت أثناء ترديده "مجداً وإكراماً ...".

وقد أوردتُ النَّص اللِّيتورجي الذي يقوله ابن كبر عن ذلك الأمر، وسأعيده هنا لتوضيح جزئيَّة الرُّشومات على الحَمَل. فيقول ابن كبر:
"... ويمسح (الكاهن) كل قُربانة من وجهها وظهرها ويقول أولاً باركوا ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲥⲟⲛ ثم يقول برشم القُربان: مجداً وإكراماً للثَّالوث إلى آخرها Ⲟⲩⲱⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲧⲁⲓⲟ ويناول القُربان للشمَّاس الخادم معه فيتلقاه من يده على خرقة من خرق الهيكل الكرزة، ويغطيه بأطرافها، ويدور به حول المذبح، ثم يسلِّمه للقس تجاهه عن يساره فيضعه في الصِّينيَّة ..."[٥٣].

وإن ما يؤكِّد صحَّة قراءتنا للنَّص المذكور، هو القس أبو البركات نفسه، لأنه في نهاية الباب السَّابع عشر من مؤلَّفه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" أورد عنواناً هو: "فصلٌ في أوقات رشم الصَّعيدة بالصَّليب"، وفيه يذكر: "عند مسح القُربان بالماء قبل تقدمته يرشم الكاهن بالصَّليب على كل قُربانة ثلاثاً ويقول مجداً وكرامة للثَّالوث المقدَّس الآب والابن والرُّوح القُدُس. وعند قوله في صلاة السِّر باركهما قدِّسهما طهِّرهما انقلهما يصلب على القُربان والكأس جملة ثلاثاً ..."[٥٤].

إذاً فالرُّشومات الثَّلاثة التي يذكرها ابن كبر (+ ١٣٢٤م) على

٥٣ـ الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

٥٤ـ الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

قُربانات الحَمَل بعد مسحها مباشرة بالماء وقبل تقدمتها لا يرد فيها مخاطبة أو تبريك لأقانيم الثّالوث كل على حدة. ولا ذكر فيها لكلمة "آمين" على الرُّشومات كجواب للرَّشم.

وما يلفت نظرنا جداً هو أن ابن كبر (+ ١٣٢٤م) يتحدَّث عن **قُربانات** الحَمَل وليس قربانة واحدة. وهو يكرِّر هذا القول غير مرَّة فيقول مثلاً: "... وعند قوله في صلاة السِّر باركهما قدِّسهما طهِّرهما انقلهما، يصلِّب على **القُربان** والكأس ...". وعند حديثه عن قسمة الجسد المقدَّس يقول: "وإذا أراد الكاهن أن يقسم الجسد المقدَّس يضع طرف إصبعه في الدَّم الكريم من غير أن يصلِّب فيه ويرشم الجسد، **كل قربانة** على وجهها وظهرها وجانبها إشارة إلى اتحادهما في التَّقديس ...". وهنا يتأكَّد لدينا أن الحَمَل الذي كان يقدَّم في كنيسة العذراء المعلَّقة كمفر للبابا البطريرك آنئذ كان أكثر من قُربانة واحدة، وهي كلها تُدعى قُربانات الحَمَل.

ولأن رشومات الحَمَل كانت قبل دورة الحَمَل وليس بعده نجد أن التَّعليمات الطَّقسيَّة في هذه المصادر الطَّقسيَّة تقول بأن الكاهن يضع الحَمَل في الصِّينيَّة مباشرة بعد أن يدور به الشَّمَّاس حول المذبح(٥٥). ولم يكن ممكناً أن يوضع الحَمَل في الصِّينيَّة قبل إجراء الرُّشومات عليه، فهي الرُّشومات التي تمَّت بالفعل - بحسب ابن كبر، وبحسب ابن سباع - قبل دورة الحَمَل.

أما عند البابا غبريال الخامس فنقرأ ما يلي: "... وإذا كملت

٥٥- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٠؛ الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

الدَّورة بجميع ما شُرح، يقف (الكاهن) مكانه ووجهه إلى الشَّرق، والشمَّاس واقف مكانه ووجهه إلى الغرب. يضع الكاهن القُربانة على يده اليسرى، ويرشمها مع وعاء الخمر جملة ثلاثة صلبان، والشمَّاس ماسك وعاء الخمر بلفافة حرير كما شُرح. أوَّل ذلك. يقول الكاهن بعد خضوعه للكهنة إخوته وقوله لهم ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲕⲟⲛ يجاوبه الكهنة ⲛ̀ⲑⲟⲕ ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲕⲟⲛ ثم يقول كاملة ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲫⲓⲱⲧ ثم يرشم الرَّشم الأوَّل وهو يقول: مباركٌ الله الآب ضابط الكُل[٥٦]. الرَّشم الثَّاني يقول: مباركٌ الابن الوحيد يسوع المسيح ربُّنا، آمين. يرشم الرَّشم الثَّالث ويقول: مباركٌ الرُّوح القدُس البارقليط، آمين.

ثم يضع القربانة في الصِّينيَّة وتحتها لفافة حرير، وهو يقول كاملة: ⲞⲨⲰⲞⲨ ⲚⲈⲘ ⲞⲨⲦⲀⲒⲞ (أي مجداً وإكراماً)".

إذاً لم تكن كل الكنائس تتَّفق على أن رشومات الحَمَل تكون باسم الأقانيم الثَّلاثة الآب والابن والرُّوح القدُس، ولكنها كانت إحدى الممارسات التي مارسها البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م). ولكن السؤال الصَّعب هو: هل رشومات الحَمَل بعد دورة الحَمَل حول المذبح، وليس قبلها هي من ترتيب البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)؟. نحتاج إلى خولاجيَّات مخطوطة أقدم من القرن الخامس عشر لنتيقَّن من هذا الأمر. لأن مخطوط الفاتيكان رقم (١٧)، والذي يعود إلى القرن الثَّالث عشر الميلادي، وهو أقدم مخطوط خولاجي قبطي عربي متكامل، يبدأ بصلاة الشُّكر، وذلك بعد انتهاء دورة الحَمَل والرُّشومات.

إن هذه النُّقطة في غاية الأهميَّة، لأنه فرق كبير بين ترديد الكاهن أثناء رشمه لقُربانات الحَمَل كلها بقوله: "مجداً وإكراماً ..."، وبين أنه

٥٦- لم يورد النص كلمة "آمين" هنا، وهي بالتأكيد ساقطة من المخطوط.

يردِّد أثناء رشمه لقربانة الحَمَل المختار فحسب قائلاً: "باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس ... مباركٌ الله الآب ضابط الكل آمين ...".

ثم ما يلزم أن نوضحه هنا أيضاً أن البابا غبريال الخامس يذكر أن الشمَّاس يقف قبالة الكاهن أي من الجهة الشَّرقيَّة من المذبح حاملاً وعاء الخمر في يده، وذلك لأنه سيقوم بصب الخمر في الكأس ومزجه بالماء بعد قليل. وهو المكان الذي يدعوه البابا المذكور: "مكان الشمَّاس في القدَّاس"(٥٧).

وهذا هو الطَّقس الذي يشير إليه العالم اللِّيتورجي برايتمان Brightman بقوله: عند اكتمال دورة الحَمَل كما سبق شرحه يقف الكاهن في مكانه عند المذبح ووجهه إلى الشَّرق، ويقف الشمَّاس مكانه عند المذبح ووجهه إلى الغرب(٥٨).

ولكن القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي جعل صب الخمر في الكأس من نصيب الكاهن، وذلك في الخولاجي الذي طبعه سنة ١٩٠٢م، ومن ثمَّ انتقل الشمَّاس ليقف إلى جوار الكاهن ولكن عن يساره، وليس عن يمينه كباقي الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى. فيقول خولاجي سنة ١٩٠٢م في ذلك:

"... ثم أن الكاهن يلتفت إلى القُربانة ويقرِّب إليها وعاء الخمر، ويكون الشمَّاس ممسكاً لها بيده اليُمنى بلفافة حرير(٥٩). ويرشم الكاهن

٥٧ـ البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٥٠

58- Brightman, F.E., M.A., *op. cit.*, p. 146.

٥٩ـ يذكر القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي في حاشية بالخولاجي المذكور: "وتكون بيد الشمَّاس المشار إليه وغيره شموع ينيرون لها على الخبز والخمر إلى انتهاء مزج الكأس بالماء كما سيأتي ذكره بعد قليل".

الاثنين معاً ثلاثة رشوم بمثال الصَّليب كالعادة ...‟[٦٠]. وما دفعه إلى ذلك هو قول البابا غبريال الخامس أن الكاهن يرشم الحَمَل مع وعاء الخمر ثلاثة رشومات.

إن تعبير القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي بأن الكاهن ”يلتفت إلى القُربانة‟ قد أحلَّ بقوله من قبل بأن الكاهن ”يلتفت إلى الشَّرق‟، لأن ما نلاحظه أن الكاهن لا يكون ملتفتاً إلى الشَّرق في أثناء رشومات الحَمَل، بل إلى الجهة البحريَّة الشَّرقيَّة، أما سبب ذلك فهو أن الشمَّاس قد تغير موضعه، وانتقل من الوقوف قِبالة الكاهن شرقي المذبح، ليقف عن يسار الكاهن، بحري المذبح، حاملاً قارورة الخمر، مما دفع الكاهن للالتفات قليلاً إلى اليسار ليرشم قارورة الخمر مع الحَمَل، وهذه الرُّشومات في أصلها هي للحَمَل فقط، كما سبق أن أشرتُ غير مرَّة.

• مزج الخمر بالماء في الكأس

كل المصادر الطَّقسيَّة القديمة السَّابقة على القرن الخامس عشر الميلادي تشير إلى أن صب الخمر في الكأس ومزجه بالماء هو من اختصاص الشمَّاس وليس الكاهن. وظلت بعض هذه المصادر الطَّقسيَّة بعد القرن الخامس عشر الميلادي تذكر أيضاً أن صب الخمر في الكأس هو من نصيب الشمَّاس وليس الكاهن[٦١].

فمن القوانين الكنسيَّة المصريَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس، والتي تعود إلى حوالي القرن السَّادس الميلادي، نعرف أن الشَّمامسة هم الذين

٦٠ـ كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢١٨

٦١ـ أكثر مخطوطات كتاب ”سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت‟ لا يوجد فيها أن الكاهن هو الذي يمزج الخمر بالماء.

انظر: كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاوس عوض، مرجع سابق، ص ٩، حاشية ٣

يسكبون الخمر في الكأس، فيقول القانون رقم (١٠٠) منبهاً الكهنة بقوله: "... ويوعزوا إلى الذين يسكبون الأباركا في الكأس (أي الشمامسة)، ألاّ يملؤها إلى فوق حتى شفتيها، لئلا ينسكب شئ على الأرض".

ومن نفس هذه القوانين نعرف أيضاً أن الشّمامسة هم الذين يمزجون الخمر بنحو ثلثه من الماء. ففي القانون رقم (٩٩) نقرأ: "... والذين يناولون من الكأس (أي الشّمامسة) فليعرفوا أن لا يتركوا فيه ماء كثيراً جداً خارجاً عن الحدود، ولا يزيد عن الثّلث. وإذا كانت هناك حوائج كثيرة في موضع الاستعداد (لا يكفيها الماء) فيكفي العُشر".

ويقول ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في ذلك:
"... ويصب الشمّاس الخمر في الكأس بعد استنشاق رائحته - والتّحرُّز من تغيير يكون قد خالطه - صباً مرتباً بمثال رسم الصّليب بتؤدة. ويمزجه بالماء الحلو مقدار عشره مزجاً لطيفاً ويبتدئ بتوحيد الثّالوث ومزمور مائة وست عشرة أو غيره. ويقرأ الكاهن صلاة الشُّكر ..."[٦٢].

وهنا نلاحظ أن ما ذكره ابن كبر للتّو يتوافق مع ما سبق أن ذكره من قبل، لأن عنصر الخمر وهو العنصر الأساسي الثّاني من عناصر الإفخارستيّا لم يظهر إلاّ هنا فقط عند بدء صبّه في الكأس بواسطة الشمّاس. وهذا يؤكّد لنا مجدّداً أن الرُّشومات التي سبقت ذلك كانت تختص بالحَمَل فقط.

وعند ابن سباع: "يُمزج الخمر بقليل ماء بمقدار معروف". أمّا خولاجي سنة ١٩٠٢م فيذكر أن الخمر في الكأس يُمزج "بقليل من الماء

٦٢- الجزء الثّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

نحو الثُّلث، أو الرُّبع، أو أقل، ولا يزيد عن الثُّلث" (٦٣).

وبوجه عام يلزم ألاّ تقل نسبة الماء المضاف إلى الخمر عن الرُّبع، ولا تزيد عن الثلث (٦٤). ولا تُعمَّر الكأس إلى حافتها لئلا يُهرق منها شئ على الأرض.

ويعطينا يوحنا ابن سباع تفصيلات أخرى عن طقس مزج الخمر بالماء، وذلك تحت عنوان: "في ذكر شرح قدَّاس الشمَّاس"، فيقول بحرفه:
"حينئذ يقول الشمَّاس عن اذن الكاهن والشعب كله ناصطين اسباتير احيوس ايسيوس احيوس ابنوما احيون امين الذي شرحها واحد هو الآب القدوس واحد هو الابن القدوس واحد هو الروح القدس وهو يسكب الخمر في الكاس وبعد الخمر **يسيرا من الماء** حتى يصير ممزوجا كما كانت العذرى مريم تشربه حال حملها.

ثم بعد ذلك يقول الشمَّاس: سبحوا الرب يا جميع الامم باركوه يا جميع الشعوب لأن رحمته سابغة علينا وحق الرب يدوم الى الابد الليلويا ... ثم ان الشمَّاس يقف قبالة القسيس بخلاف جميع الطوايف لأن جميع الطوايف يقف عندهم الشماس عن يمين القسيس في القداس خلا طايفة الاقباط ... ثم ان الشماس ينذر الشعب ويقول بالقبطي بالعربي ابراس اوشطا بتا **προcεγχεcθaτιⲁε** التي شرحها قفوا للصلاة ..." (٦٥).

وهنا يشرح ابن سباع أن الشمَّاس يردِّد مرد: "واحد هو الآب القدُّوس ..."، بينما يصب الخمر في الكأس ويمزجه بالماء، وهو واقف قبالة الكاهن متَّجه غرباً، أي من الجهة الشَّرقيَّة للمذبح. وعندما ينتهي

٦٣- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٢٠
64- Cf. Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church* ..., p. 53.
٦٥- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٠-١٨٣

من مزج الخمر بالماء، يرتّل المزمور المائة والسادس عشر «سبّحوا الرَّب يا جميع الأمم، ولتباركه كافة الشُعوب ... الخ».

□ وقبل أن نسترسل في شرح الطَّقس نتوقَّف عند مرد الشمَّاس، الذي يردِّد فيه المزمور الـ ١١٦ قائلاً: "سبِّحوا الرَّب يا جميع الأمم، ولتباركه كافة الشُعوب **لأن رحمته قد قويت علينا**، وحق الرَّب يدوم إلى الأبد". فرحمة الرَّب قد قويت علينا، أي غلبتنا. فرحمة الرَّب التي ظهرت في الصَّليب هي التي قويت علينا، وغلبت شرورنا وخطايانا. ومن أجل هذا فإن حق الرَّب أو بر الرَّب الذي برَّرنا به المسيح بدمه على الصَّليب سيدوم لنا إلى الأبد.

هذا هو معنى هذه التَّسبحة في هذا الموضع بالذَّات، وفي بداية القدَّاس الذي هو ذكرى أبديَّة لذبيحة الصَّليب، ليس بالكلام ولا بالرَّمز، ولكنها ذكرى عينيَّة باستحضار نفس الذَّبيحة لتكون كائنة أمامنا على المذبح. ومن أجل هذا ينبغي أن نسبِّح الله من أجل ما صنعه معنا، ولتسبحه معنا كل الشُعوب والأمم من أجل رحمته التي قويت علينا. ولهذا يختم الشمَّاس هذا المرد العميق بقوله: "آمين، هلليلويا".

والآن عودة إلى شرح الطَّقس، فما ذكره ابن سباع قبل قليل هو نفس الطَّقس الذي نقرأه عند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فيقول في ذلك:

"ثم يصب الشمَّاس الخمر في الكأس وهو يقول: ⲁⲙⲏⲛ ⲉⲓⲥ ⲡⲁⲧⲏⲣ ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ ⲧⲏⲣⲟⲩ إلى آخره. يمزج الخمر بقليل ماء بمقدار معروف، ويصفا وعاء الأبركة جيداً للنهاية، ويمسح فم القارورة بلفافة بيضاء، ويترفا من المذبح، وبعد قراءة ذكصابتري يقول الكاهن ⲏⲣⲏⲛⲏ ⲡⲁⲥⲓⲛ قبل الشبهموت ... وإذا تكاملت قراءة الشبهموت يرتّلون

Cwɵic باللحن".

وفي قدّاس القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م) طبقاً للطقس البيزنطي، فإن الشمّاس هو الذي يمزج الخمر بالماء في الكأس، ويقول: "بارك يا سيِّد الاتحاد المقدّس"، فيبارك الكاهن الكأس المقدّسة قائلاً: "مباركٌ اتحاد قُدساتك"[٦٦].

وهنا نلاحظ أن الدّور النّشط للشمّاس الدياكون لم يتوقّف في الخدمة اللّيتورجيَّة دفعة واحدة، بل استغرق الأمر زمناً، فلم يعد يدور بالحَمَل حول المذبح، ولكن تُرك له صب الخمر في الكأس ومزجه بالماء. وحتى هذه الأخيرة أُخذت أيضاً منه رويداً رويداً، إذ يطلعنا مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقوس)[٦٧] على ما يلي: "ويصب الشمّاس الخمر كالعادة، ويمزجه بالماء الأب البطريرك". وهكذا ظلّ دور الشمّاس يتقلّص حتى لم يعد يتبق له سوى ترديد بعض المردّات التي لم تكن تستوجب أن يكون شماساً كاملاً (دياكوناً)، أي برتبة كهنوتيَّة، وهكذا صارت خدمة المذبح لرتب شماسيَّة أقل من رتبة دياكون. ورويداً رويداً دخل الهيكل شمامسة صغار السّن، لم يشبوا عن الطّوق أحياناً. فصار دخول الهيكل لغير الرُّتب الكهنوتيَّة، أي لأي رتبة من الرُّتب الكنسيَّة غير الكهنوتيَّة[٦٨].

٦٦ـ القدّاس الإلهي لأبينا الجليل في القدّيسين يوحنا ذهبي الفم، منشورات النور، ١٩٦١م، ص ١٦

٦٧- هو مخطوط محفوظ بالدّار البطريركيَّة بالقاهرة، وتاريخ نساخته ١٩١٠م، ويتفق معه مخطوط ترتيب البيعة بدير البراموس لسنة ١٥١٤م.
انظر: الأنبا صموئيل، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ٢١

٦٨- لقد صار دخول الهيكل مباحاً أحياناً للعلمانيين من الرجال دون النساء!، وصار البعض يتشدّدون ويتعصّبون إذا دخلت واحدة من النساء إلى الهيكل، ولا

ومزج الخمر بالماء في كأس الإفخارستيّا هو طقس سحيق في القدم نقرأ عنه عند العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) حيث يقول:

[كما يمتزج الخمر بالماء هكذا الرُّوح بالإنسان].

ومزج الخمر بالماء هو لتذكير المؤمنين بأن الدَّم والماء قد تفجَّرا من جنب المخلص، وأن مسيحهم حي بلاهوته وإن كان قد ذاق الموت بالجسد.

ويقول القدِّيس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م):

[إن هذا المزيج فيه إشارة إلى اتحاد الكنيسة بالمسيح في كأس واحدة].

وقد كتب الشّهيد كبريانوس (+ ٢٨٥م) أسقف قرطاجنه رسالة مطوَّلة يمنع فيها تقديس سرّ الإفخارستيَّا بالماء وحده، أو الخمر وحدها.

وجميع الكنائس الشّرقيَّة تمزج الخمر بالماء ما عدا الأرمن. أما الطَّقس البيزنطي فإنه يمزج الخمر بماء حار (ساخن)، إشارة إلى أن دم المسيح المنسكب من جنبه مع الماء كانا ساخنين دليل الحياة. وحين يسكب الشّمّاس الماء الحار في الكأس بشكل صليب يقول: "حرارة إيمان مستوعبة الرُّوح القُدُس".

ولقد استوجب امتناع الكنيسة الأرمينيَّة عن مزج الخمر بالماء أن أصدر مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م قانونه الثّاني والثلاثين مفنّداً هذا الموضوع فقال:

يفعلون ذات الشيء مع العلمانيين من الرجال!. ومعروف أن قوانين الكنيسة تمنع الرجال والنساء معاً من دخول الهيكل، ولا تبيح دخوله إلاّ لذوي الرتب الكهنوتيّة. فهل يليق أن نصفي عن البعوضة ونبلع الجمل؟.

"بلغنا أنه في مقاطعة أرمينيا يقدِّمون على المائدة المقدَّسة خمراً صرفاً، ولا يخلطونه بالماء عند تقديم الذَّبيحة غير الدَّمويَّة، مستندين على قول معلِّم الكنيسة القدِّيس يوحنا ذهبي الفم في تفسيره لإنجيل القدِّيس متى، حين قال: [ولماذا لم يشرب ماءً بعد قيامته، بل خمراً؟]. وهو يقصد بذلك استئصال بدعة أخرى شريرة، إذ كان قد وجد قوماً لا يستعملون إلاَّ الماء وحده في هذا السِّر، فأراد أن يبرهن لهم أنه عندما سلَّم الرَّب السِّر أعطى خمراً. ولما وُضعت مائدة عاديَّة بعد القيامة بدون أسرار استعمل الخمر. فقد قيل هناك من ثمر الكرمة، والكرمة تنتج خمراً لا ماءً، فظنُّوا من هذا القول أن المعلِّم يمنع بقوله هذا مزج الخمر بالماء في الأسرار المقدَّسة(٦٩). ولئلا يبقى أحد بعد الآن يجهل الحقيقة، نكشف هنا الغطاء عن مراد هذا الأب القويم الرأي.

فقد انتشرت في عهده بدعة المائيين(٧٠) الخبيثة، وكان أتباعها يستعملون الماء عوض الخمر في ذبيحتهم. فلكي ينقض هذا الأب المتوشِّح بالله تعليم هذه البدعة المخالف للشَّريعة، أورد شهادة الإنجيل المذكور ليدعِّم بها حجَّته.

وفي الكنيسة التي استلم رعايتها أمر باستعمال الخمر ممزوجاً بالماء في الذَّبيحة غير الدَّمويَّة، للدَّلالة على اختلاط الدَّم بالماء وقد خرجا من جنب فادينا يسوع المسيح حياة للعالم، وفداء من الخطايا.

---

٦٩ – متى ٢٦:٢٩

٧٠ـ كان تاتيان هو زعيم بدعة المائيين، وكان قبلاً تلميذاً للقدِّيس يوستينانوس (ثيودوريطس، المبتدعون، ك١: ف٢٠).

وكان الأبيونيون والإنكراتيون يستعملون ماءً بدلاً من الخمر. (إيريناوس، ضد الهرطقات، ٥:١-٣ ؛ وكليمندس الإسكندري، المربي، ٢:٢).

(انظر: الأنوار في الأسرار، لخراسيموس مسرة، مرجع سابق، ص ١١٤).

زد على ذلك أنه في كل كنيسة أشرقت فيها الكواكب الرُّوحيَّة روعي التَّرتيب نفسه. وهكذا نرى أيضاً أن يعقوب أخا ربِّنا يسوع المسيح بالجسد الذي كان أوَّل من أؤتمن على كرسي كنيسة أورشليم، وباسيليوس رئيس أساقفة قيصريَّة الذي ذاعت شهرته في كل المسكونة عندما سلَّم لنا ترتيب الخدمة السِّرِّيَّة كتابة، أعلنا أن الكأس المقدَّسة تُملأ في خدمة القدَّاس الإلهي بالماء والخمر. والآباء القدِّيسون الذين اجتمعوا في قرطاجنة أعلنوا ذلك بالعبارة التَّالية:

إنه في الأسرار المقدَّسة، لا يقدَّم شيء إلاَّ جسد الرَّب ودمه كما سلَّم الرَّب نفسه، أعني الخبز والخمر ممزوجاً بالماء. لذلك فأي أسقف أو كاهن لا يتمِّم هذا العمل المقدَّس كما سلَّمه إلينا الرُّسُل، ولا يقدِّم الذَّبيحة مع الخمر ممزوجاً بالماء فليسقط، لأنه يجعل السرّ غير كامل، ويدخل بدعة في التقاليد المسلَّمة إلينا".

ويعلِّق العالم فان اسبن Van Spin على ذلك القانون بقوله: إن يوستينوس الشَّهيد في مؤلَّفه الدِّفاعي الثَّاني، وأمبروسيوس، أو مؤلِّف الكتاب في الأسرار، وأوغسطينوس، وغيرهم كثيرون، ذكروا هذا الطَّقس. وأشهرهم في ذلك القدِّيس كبريانوس. فقد كتب رسالة مطوَّلة في الموضوع إلى سيسيليوس وهو يقول: إن هذا الطَّقس يشير إلى اتحاد الشَّعب الممثَّل بالماء مع المسيح المرموز له بالخمر.

والقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) في عظته للمستنيرين حديثاً يرى أن هذا الطَّقس يعني شيئاً آخر، فيقول:

[خذوا هذا في الخبز الذي عُلِّق على الصَّليب، وخذوا هذا في الكأس الذي خرج من الجنب أي الدَّم والماء].

ويذكر الكاردينال بونا Bona في كتابه عن الطُّقوس: إن عدَّة

طقوس قديمة تستعمل فيها صلاة كالصَّلاة الواردة في طقوس أمبروسيوس التي يُقال فيها: "وخرج من جنبه - أي جنب المسيح - دم وماء معا باسم الآب ...".

ويقول الكاردينال بونا Bona أيضاً: "إن الكاهن في الطَّقس البيزنطي يمزج الخمر بالماء مرَّتين، الأولى عند بداية تقدمة الذَّبيحة، والثَّانية عندما يصب الماء الحار بعد مباركته في الكأس قبل المناولة".

فلم تكن العجيبة هي خروج دم وماء فقط من جنب المخلِّص، بل خروجهما من جسده في دفء وحياة. فقد كان جنب السيِّد حياً، وينتج حياة لاتحاده مع اللاهوت الواهب الحياة كما يقول سمعان التَّسالونيكي.

ويقول البعض إن المسيح وضع هذا السِّر في العشاء الأخير، وهذا على ما يظهر ما يلمح إليه المجمع في هذا القانون بقوله: "كما سلَّم الرَّب". ويقول اليونانيون إن هذا الطَّقس قد سلَّمه الرُّسُل إلينا بدليل استشهادهم بخدمة قدَّاس القدِّيس يعقوب لاعتقادهم بصحة نسبتها إليه[٧١].

• ترتيل الذُّكصا

حين يبدأ الكاهن صلاته بقوله: "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثَّالوث القدُّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس ..."، يردِّد الشَّمَّاس مردَّه الخاص بتقديس أقانيم الثَّالوث قائلا: "واحد هو الآب القدُّوس، واحد هو الابن القدُّوس، واحد هو الرُّوح القُدُس ... آمين هلليلويا". فيجيبه الشَّعب قائلين: "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس ... آمين هلليلويا". هذه السِّيمفونيَّة البديعة بين الكاهن والشمَّاس والشَّعب هي

٧١- حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٥٦٥-٥٦٨

تسبحة الكنيسة في تمجيد أقانيم الثّالوث القدّوس، وإن الاعتراف بوحدة أقانيمه، هو المؤهّل الذي نبدأ به صلوات القدّاس الإلهي. وليست هذه هي الحالة الفريدة في الكنيسة القبطيَّة، بل إن كلّ صلواتنا في كافة المناسبات الكنسيَّة تبدأ بتمجيد الثّالوث القدّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس.

❑ المجد للآب الذي أحب العالم حتى بذل ابنه الوحيد. والمجد للابن الذي أحبنا حباً لانهائياً، لأنه «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه من أجل أحبائه». والمجد للرُّوح القُدُس، الذي أظهر لنا حب الآب وحب الابن، ونقل حبهما إلى داخل قلوبنا، لأن «محبَّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالرُّوح القُدُس المعطى لنا» (رو٥: ٥). وقد قال الرَّب يسوع عن الرُّوح: «ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. كل ما للآب هو لي، لهذا قلتُ إنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦: ١٤-١٥).

هذه الذُّكصا، هي أقدم صلاة مسيحيَّة بعد صلاة "أبانا الذي"، وهي موجودة في جميع كنائس العالم، سواء كانت شرقيَّة أم غربيَّة. فأقدم تقليد في الصَّلاة من بعد "أبانا الذي"، هو تقديم المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس.

إن تمجيد الرَّب في بيته، وتكريم اسمه القدُّوس المبارك، وإعلان وحدانيَّة أقانيمه، هو مسوغ الدُّخول إلى خدمته. خدمة كنيسته الواحدة المقدَّسة الجامعة الرَّسوليَّة لإيمان واحد بإله واحد.

فالوحدة كلمة إلهيَّة لأنها بحسب خبرة الإيمان المسيحي، متَّصلة أولاً بالله نفسه وبكشف الحياة الإلهيَّة كوحدة، وبكشف الوحدة كمضمون وملء للحياة الإلهيَّة. فالله يكشف نفسه في وحدته المثلَّثة الأقانيم، ويكشف في الوقت ذاته وحدته هذه على أنها حياته أي مصدر كل حياة

ومبدأها. وعلى أي حال لا يمكن فصل الوحدة عن الإيمان، فلا إيمان من دون وحدة، ولا وحدة غير تلك التي يحملها وينشرها الإيمان. فالوحدة هي جوهر الإيمان ومضمونه(٧٢).

وفي ترديد الشّعب بالذُّكصا يعترفون بما نالوه من عطايا، بقولهم "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس ..."، ويرشمون ذواهم دفعة واحدة لا ثلاث دفعات(٧٣).

• **صلاة الشُّكر "فلنشكر صانع الخيرات والرّحوم ..."**

وهي تبدأ بإعطاء الكاهن سلام المسيح للشّعب، بقوله: "السّلام لجميعكم"، فيجيبه الشّعب: "ولروحك أيضاً"(٧٤).

٧٢- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٢٢٤،٢٢٥

٧٣- معاني رشم الصليب، مرجع سابق، ص ٦٢

٧٤- عن هذا المرد يقول المرحوم الدكتور راغب مفتاح رئيس قسم الموسيقى والألحان بمعهد الدراسات القبطيّة سابقاً: لقد كتب العلامة الراهب عبد المسيح المسعودي البرموسي الصغير نبذة بخط يده وتوقيعه، وهي وثيقة يقول فيها: إنه في أول القرن العشرين أدخل المعلم ميخائيل بعض تطويلات في طرائق مردّات القدّاس، وبعض الأواشي عن ذي قبل.

وبعد دراسة هذا الموضوع، وجدتُ أن موسيقى مردّات القدّاس كلها أصيلة وجميلة ومتزنة، ولم يحصل تطويل إلا في النادر منها مثل (كي تو ابنفماتي سو) العاديّة التي لو اختُصرت هزاقا تكون مرتاحة وأجمل. وكذلك (كيرياليسون) التي على وزنها. علما بأنه توجد لبعض المردّات مترادفات كبيرة تُستعمل في الأعياد السيديّة، مثل الميلاد والقيامة.

ويظهر أن بعض القطع المشتركة في الثلاثة قدّاسات مثل المجمع، كانت موسيقاها في القدّاس الغريغوري هي تقريبا مثل نظيرها في القدّاس الباسيلي، ولكن مفخّمة grand ومطوّلة في بعض المواضع، لأنه قدّاس إحتفالي لأعياد الميلاد والغطاس والقيامة.

ويظهر أن القُمُّص عبد المسيح الذي راجع الثلاثة قدّاسات مراجعة علمية، وعلق عليها، وأضاف لها الحواشي، كان غالباً متأثراً بطريقة "الزينيّة بحري" بالقرب من

إن "صلاة الشُّكر" لها وضع مكرَّم جداً في الكنيسة القبطيَّة. فليست هناك أي خدمة طقسيَّة تخلو منها، فهي تقال في القدَّاس، وفي صلوات رفع البُخور، وفي اللّقان، وفي المعموديَّة، وفي الأكاليل، وفي الجنازات، وفي استقبال رئيس الكهنة ... الخ. وهي أوَّل صلاة يتعلّمها الطّفل القبطي بعد صلاة "أبانا الذي".

فمن أين جاءت هذه الأهميَّة الكبرى لصلاة الشُّكر؟.

بدايةً، نلاحظ أن تعبيرات صلاة الشُّكر تخلو تماماً من أي اقتباسات من العهد الجديد بخلاف المقدِّمة والختام اللّذين ورد هما تعبيرات مسيحيَّة مثل "أبو ربِّنا يسوع المسيح" في المقدِّمة، و"لأنك أنت الذي أعطيتنا السُّلطان أن ندوس الحيَّات والعقارب". أما صُلب الصَّلاة كلّه فيخلو تماماً من الاقتباسات من العهد الجديد. وهذا شيء نادر جداً في الخولاجي القبطي الذي نجد فيه أن معظم صلواته فيها اقتباس أو أكثر من أسفار العهد الجديد. وهذا يدلنا على أن صلاة الشُّكر قديمة جداً، بل أقدم من كتابات أسفار العهد الجديد.

ولقد وُجدت مخطوطات قديمة تُسميها: "صلاة الشُّكر التي للقدِّيس مرقس الرَّسول"، أي أنها تسليم من القدِّيس مرقس الرَّسول.

وكذلك وُجدت بعض صلوات لليهود في زمن المسيح فيها تعبيرات مشابهة للتَّعبيرات الموجودة في صلاة الشُّكر، مثل: "لأنك سترتنا وأعنتنا وحفظتنا وقبلتنا إليك ...".

الأقصر، والتي هي بصفة عامة مزيج بين الدمج وموسيقي فن الكنيسة. أو ما كانوا إلى وقت قريب يسمونه في الأديرة بالقدّاس السري، لأنه يقصد اختصار الوقت الذي يستغرقه القدّاس. وفي نبذته شئ من عدم الوضوح وبعض التناقض.

(مجلة الكرازة، السَّنة السادسة، ١٧ يناير ١٩٧٥م، ص ٨).

كما إنه بحسب التّسليم الشّفاهي في الكنيسة القبطيّة، والذي دُوّن فيما بعد، فإن صلاة الشُّكر يقولها الكاهن الخديم، أو رئيس الكهنة، وليس للكاهن الشّريك الحق في أن يقولها بدلاً منهما. هذا يعني أنها موضوعة على نفس مستوى صلاة التّقديس التي تبدأ بالقول: "ووضع لنا هذا السّرّ العظيم الذي للتّقوى"، وأيضاً رشومات التّقديس، واستدعاء الرُّوح القُدُس، وأيضاً مقدّمة القسمة وصلاة القسمة، حتى التّناول.

هذه كلها أدلّة ترجّح أن صلاة الشُّكر مسلّمة من القدّيس مرقس الرّسول للكنيسة، وأنها ذات كرامة كبيرة عنده، وهذا يرجّح بالتّالي أنها مقتبسة من كلمات الرّبّ نفسه لمّا شكر.

وفي أثناء ترديد الكاهن لصلاة الشُّكر "فلنشكر صانع الخيرات ..."، يرد الشّعب مرّتين على مردّين للشمّاس قائلين: "كيرياليسون - يارب ارحم". وهذا المرد سحيق في القدم تسمع عنه في مذكّرات السّائحة الأسبانيّة إيجيريا في معرض حديثها عن صلاة الغروب في كنيسة القيامة، فتقول: "... ثم يرتّلون التّسابيح والأنتيفونات، وبعد أن تتم كلها حسب العادة ينهض الأسقف ويقف أمام السّياج الذي أمام القبر المقدّس، بينما يتلو أحد الشّمامسة التّذكارات لمن يطلبون ذلك حسب العادة. وكلما ذكر الشمّاس اسماً يرد المحيطون حوله بقولهم (كيرياليسون - يارب ارحم) بصوت قوي كأنهم جمع غفير ..."(٧٥).

ويقرّر بلودو Bludau أن "كيرياليسون" كان مرداً شائعاً في كل آسيا الصُّغرى وأورشليم وأنطاكية. وتشير المراسيم الرّسوليّة (٨:٣٥) المدوّنة منذ القرن الرّابع الميلادي إلى هذا المرد.

٧٥ـ مجلة مرقس، فبراير ١٩٩١م، ص ٢٧

أما في الكنيسة الآشوريّة (النّسطوريّة) فإن الشّعب يجيب على نداءات الشمّاس بقوله: "يا ربّنا ارحمنا" وهي بالسّريانيّة (مارن اثر حمعلين)[٧٦]. أما في الكنيسة المارونيّة فإن مرد الشّعب فيها هو: "استجب لنا يارب".

أما مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex[٧٧] الذي أورد صلاة الشُّكر في نصّها اليوناني[٧٨]، فقد أوردها في اختلاف طفيف عمّا نعرفه الآن، ونورد فيما يلي أهم تلك الاختلافات:

- النّص اليوناني لصلاة الشُّكر لم يتخلّله مردّات للشمّاس ولا مردّات للشّعب.

- لم ترد في النّص اليوناني كلمتي "أشفق علينا وعضّدنا".

- عبارة "هو أيضاً فلنسأله ..." طبقاً للنّص القبطي لصلاة الشُّكر ⲛⲑⲟϥ ⲟⲛ ⲙⲁⲣⲉⲛϯϩⲟ ⲉ̀ⲣⲟϥ جاءت في النّص اليوناني هذه الصّلاة "لذلك فلنسأله ... αὐτὸν οὖν παρακαλέσωμεν". أما سبب هذا الاختلاف الطّفيف فقد كان بسبب النّاسخ من اليونانيّة إلى القبطيّة. فالكلمة اليونانيّة οὖν (أون) تعني "لذلك"، أما النّاسخ القبطي فكتبها بالقبطيّة ⲟⲛ (أون) والتي تعني "أيضاً"، ويلاحظ القارئ العزيز أن الكلمتين اليونانيّة والقبطيّة هما نفس الصّوت (أون)، ولكنهما تختلفان في المعنى في كل من اللّغتين، ومن هنا كان الخطأ غير المقصود.

٧٦ـ الأب يوحنا ثابت وآخرون، الفرض الأهلي، مرجع سابق، ص ٢١٠

٧٧ـ هو مخطوط منسوب إلى Mr. Frank Kacmarcik يوناني عربي، للقدّاس القبطي الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، ويعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي.
Le Muséon 88, (1975), p. 391-395.

٧٨ـ وهو ما يؤكد قدم هذه الصلاة التي تنفرد بها الكنيسة القبطيّة، وهي الصلاة التي تبدأ بها الكنيسة كلّ خدماتها الليتورجيّة على مدار السّنة الطقسيّة دون استثناء.

- يضيف النَّص اليوناني في عبارة "... وقبلتنا إليك" بقوله: "وقبلتنا إليك حسناً ἀντελάβου καλῶς".

- يقول النَّص اليوناني: "وأتيت بنا (بسلام) إلى هذه السَّاعة".
Καὶ εἰρηνικῶς διήγαγες ἡμας μέχρι τῆς ὥρας.

- يقول النَّص اليوناني: "امنحنا أن نكمِّل **يومك** المقدَّس هذا"، معتبراً أن اليوم هو يوم الرَّب.

τὴν ἁγιάν σου ἡμέραν ταύτην.

- والعبارة التي تقول فيها: "امنحنا أن نكمِّل هذا اليوم المقدَّس وكل أيام حياتنا بكل سلام مع خوفك"، ذكرها النَّص اليوناني أيضاً مضيفاً إليها ما يلي: "... بكل سلام وفرح وصحَّة وخلاص وعمل صالح وقداسة".

- عند عبارة "أما الصَّالحات والنَّافعات فارزقنا إياها"، أضاف النَّص اليوناني: "أعمال أيدينا باركها. حياتنا دبِّرها"[٧٩].
Τὰ ἔργα τῶν χειρῶν ἡμῶν εὐλογήσον. τὴν ζωὴν ἡμῶν οἰκονόμησον.

هذه هي الاختلافات بين النَّصين اليوناني والقبطي في صلاة الشُّكر.

وفي أواخر صلاة الشُّكر يرشم الكاهن ثلاثة رشومات على نفسه وعلى الشَّعب ثمَّ على الهيكل، وذلك عند قوله: "انزعها عنَّا، وعن سائر شعبك، وعن موضعك المقدَّس هذا" على التَّرتيب.

وعند ابن سباع: "يبتدئ الكاهن بصلاة الشُّكر إلى آخرها. وعند

79- W.F. Macomber, *The Greek Text of the Coptic Mass*, Cited by OCP 43, (1977), p. 315-316.

نهايتها إن كان رئيس الكهنة حاضراً (فهو الذي) يقول باي اداوول هي ضدف[٨٠]. وفي كل الأواشي تتمّمها كذلك"[٨١].

ويعلّل ابن سباع أن يكون ختام الصّلوات لرئيس الكهنــة، بــأن الكنيسة الأرضيّة شبيهة بأورشليم السّمائيّة في تسبيح الثّالوث. ولما كان لكل طغمة من الطّغمات السّمائيّة رئيس يرفع تسبيحها، هكذا فإن رئيس طغمة الكهنة الأرضيين هو الذي يختم صلاة الشُّكر التي تُقدّم لله.

ثم أن ابن سباع جعل "إشليل، إيريني باسي" التي تســبق صــلاة الشُّكر هي من نصيب الكاهن المصلّي وليس رئيس الكهنة إن كان حاضراً.

أما اليوم فحين يصلّي الكاهن صلاة الشُّكر فهو يصلّيها جهاراً حتى إلى عند قوله "... وعلى كل قوّة العدو"، حيث ينتهي اللّحن القبطــي لهذه الصّلاة عند هذه العبارة. أما تكملة الصّلاة وهي الذُّكصا الختاميّــة "بالنّعمة والرأفات ومحبّة البشر اللواتي لابنك الوحيد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، هذا الذي من قبله المجد والكرامة والعزّة والسُّجود تليــق بك معه ومع الرُّوح القُدُس المحيي المساوي لك الآن وكل أوان وإلى دهر الدُّهور آمين" فهي تُقال سراً، وذلك بالتّسليم الشّفاهي من كــاهن إلى آخر عبر هذه السّنين دون أن يشير أي خولاجي مخطوط أو مطبــوع إلى هذا التّقليد القديم الأصيل. تماماً مثل كل صلاة تنتهي بتمجيد الثّــالوث كتحليل الخدّام مثلاً، والذي هو في أصله صلاة سريّة غير جهاريّة، مثــل كل صلوات التّحليل الأخرى. وأيضاً كما في أوشيّة الإنجيــل، حيــث يكون تمجيد الثّالوث في ختامها سراً وليس جهراً، إذ ينتهي لحن الأوشيّة قبل هذه الذُّكصا مباشرة.

٨٠ـ أي ⲫⲁⲓ ⲉⲧⲉ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϩⲓⲧⲟⲧϥ "هذا الذي من قبله ..."

٨١ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٦

ويقول بولس البوشي (القرن الثَّالث عشر) في ذلك: إن الذُكصولوجيَّة تقال سراً من أجل إتاحة فرصة الهدوء والصَّمت في حضرة الثَّالوث حتى لا يكون التَّمجيد من الفم دون القلب، ولكي تتهيأ الفرصة لطلبة القلب الَّتي تخص كل واحد.

- **أوشيَّة التَّقدمة أو صلاة الغطاء**

أوشيَّة التَّقدمة، أو صلاة الغطاء. وهي صلاة استدعاء ، وتُقال سراً، وهي تقدمة الخبز والكأس للابن. وفي نهايتها تجري ثلاثة رشومات على الخبز والكأس معاً: باركهما، قدِّسهما، طهِّرهما وانقلهما. ثم تغطية الحَمَل بلفافة، وتغطية الكأس بلفافة، ثم تغطية المذبح كله بستر كبير يُسمى "الإبروسفارين".

وهذه الأوشيَّة يدعوها ابن كبر باسم "أوشيَّة المائدة". أما البابا غبريال الخامس فيسميها "أوشيَّة التَّقدمة". وهي تُدعى أيضاً "صلاة الغطاء"، لأن الكاهن يغطي عناصر الذَّبيحة المقدَّسة في نهايتها.

وأوشيَّة التَّقدمة تبدأ بعبارة "أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح الشَّريك الذَّاتي ...". ويلزم التَّنويه هنا إلى أن عبارة "الشَّريك الذَّاتي" هي ترجمة للنَّص القبطي **пісүнфнр ⲛⲁⲓⲇⲓⲟⲥ** وهذا النَّص القبطي يقابل النَّص اليوناني ὁ συν αἴδιος حيث نلاحظ أن الكلمة القبطيَّة **ⲁⲓⲇⲓⲟⲥ** (إديوس) مأخوذة بنطقها ونصِّها من الكلمة اليونانيَّة αἴδιος (إديوس). وهذه الكلمة اليونانيَّة تعني "الأزلي"، فتكون العبارة اليونانيَّة السَّابق ذكرها بمعنى "المساوي في الأزليَّة". فالكلمة اليونانيَّة أو القبطيَّة (إديوس) على السَّواء تعني "المساوي" وليس "الشَّريك". أما كلمة "الذَّاتي" الَّتي وردت في التَّرجمة العربيَّة فكانت بسبب كلمة يونانيَّة أخرى قريبة الشَّبه جداً من الكلمة اليونانيَّة αἴδιος (إديوس) الَّتي تعني

"الأزلي"، وهي كلمة ...ἴδιος (إديوس)، والتي تعني "الذاتي".

ولكن النَّص اليوناني لهذه الأوشيَّة يذكر كلمة αἴδιος ويوافقه أيضاً النَّص القبطي الذي أورد كلمة ⲁⲓⲇⲓⲟⲥ وليس كلمة ⲓⲇⲓⲟⲥ (٨٢).

وعلى ذلك، وطبقاً للنَّص اليوناني، تكون بداية هذه الأوشيَّة هي: "أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح المساوي للآب في الأزليَّة ...".

وفي هذه الأوشيَّة يقول الكاهن: "... سبقت أن تجعل ذاتك حملاً بلا عيب عن حياة العالم. نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر. أظهر وجهك(٨٣) على هذا الخبز (يشير بيديه إلى الخبز)، وعلى هذه الكأس (يشير بيديه إلى الكأس). باركهما. قدِّسهما. طهِّرهما. وانقلهما. لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدَّس، وهذا المزيج الذي في هذه الكأس دمك الكريم ...". وعند قوله: "باركهما، قدِّسهما، طهرهما وانقلهما" يرشم على الخبز والكأس معاً ثلاثة صلبان.

والنَّص اليوناني لهذه الأوشيَّة – طبقاً لمخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex – لم ترد فيه كلمة "طهرهما"، بل يذكر: "باركهما، قدِّسهما، انقلهما ..."، وهو يتوافق في ذلك مع الثلاثة رشومات المصاحبة لكل فعل ليتورجي من هذه الأفعال الثلاثة.

εὐλόγησον, ἁγίασον, καὶ μεταποίσον αὐτά ...

وهذه الثلاثة رشومات هي للابن الوحيد ربِّنا يسوع المسيح ... ومع أن الأوشيَّة كلها مقدَّمة للابن، فهو الذي يبارك، وهو الذي يقدِّس،

82- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 316.

٨٣- "أظهر وجهك" تعني "أظهر أقنومك" أو "أظهر شخصك"، فكلمات: وجه، أقنوم، شخص، تأتي كلها بمعنى واحد.

وهو الذي يطهِّر وينقل ما في الصِّينيَّة وما في الكأس، إلاَّ أن الكلام موجَّه سريًا للآب والابن والرُّوح القُدُس. ومن حيث أن رئيس الكهنة هو ربّنا يسوع المسيح ذاته وهو الذي سبق فجعل حياته تُقدَّم كحَمَل عن حياة البشريَّة، فهو الذي يقدِّم كاهناً لدى الآب إلى الأبد. ومن أجل ذلك تُقال هذه الأوشيَّة حتى تدرك الكنيسة أن الذي يخدم هو الابن الوحيد بواسطة خدامه كهنة الكنيسة[٨٤].

إن لغة أوشيَّة الغطاء تكشف عن تاريخها، وأنها موضوعة نحو نهاية القرن الرَّابع الميلادي[٨٥]. وهي تعلن غاية العمل الإفخارستي الذي هو تناول جسد الرَّب ودمه الكريمين نمواً وشفاءً وخلاصاً لأرواحنا ونفوسنا وأجسادنا، أي فعل حياة لحياتنا.

- **لحن Cωθιc ⲁⲙⲏⲛ (سوتيس آمين)**

وهو اللَّحن الذي يبدأ مع بداية صلاة الكاهن لأوشيَّة الغطاء سراً. ويستمر بنغماته الطَّويلة حتى نزول الكاهن من الهيكل مع باقي الخدَّام لقراءة صلاة التَّحليل، والتي بعدها يكمِّل الخوروس باقي كلمات اللّحن وهي: "خلُصتَ حقاً، ومع روحك".

وهذا المرد يُقال حتى اليوم باللُّغة اليونانيَّة، أما نصُّه في اليونانيَّة فهو:

Σωθείς ἀμήν καὶ τῷ πνευματί σου.

ولقد حاول دكتور أزولد بورمستر O.H.E. Khs- Burmester أن يفسِّر لغوياً كلمة Σωθείς ἀμήν (سوتيس آمين)، ولما لم يستطع قال: "هذا

٨٤- معاني رشم الصليب، ص ٦٤، ٦٥

٨٥- القمُّص تادرس يعقوب، المسيح في سرّ الإفخارستيا، جزء ٥، ص ٣٤٣

المرد يصعب فهمه"(٨٦)، إذ كيف يستقيم معنى قولنا "خلصتَ حقاً"، موجّهين هذا القول للكاهن، ثم نخاطبه بعدها بقولنا: "ومع روحك أيضاً"؟. ولقد ظهرت محاولات في بعض مخطوطات الخولاجيّات لتعديل هذا المرد، فجعلته Σωθήσομεν (سوتيسومين) لكي يصبح المعنى "خلصنا، أو نخلص"، وهو تركيب لغوي خاطئ؛ لأن أصل الكلمة Σώζω تصبح Σωθηθόμεθα (سوتيثوميسا) إن أردنا تصريفها لغوياً لكي تعني "خلصنا أو نخلص".

وفيما يلي تفسير لكلمات هذا المرد: فتعبير "خَلُصتَ حقاً"، يأتي في الصّيغة الرّحائيّة "تخلُص، أو لعلك تخلُص"، كصيغة تمنٍ. بمعنى أن الشّعب يرجوا للكاهن أن يخلُص، على أساس أن الكاهن الذي قرأ التّحليل، أعطى الحل للكُل، فمن الذي يعطي الحل للكاهن؟. الشّعب هو الذي يعطيه له بقوله: لعلك تخلُص، أي ليعطك الرّب أنت أيضاً الحل والخلاص والغفران.

إن معنى كلمة **cωθιc** (سوتيس) أي "خلصت" نعرفه من القصّة التّالية في الأدب الرهباني:

"قيل عن الأب يوحنا القصير: كان وهو شابٌ تلميذاً للأنبا بمويه (أموي)، وهذا مكث يخدمُ الشّيخَ إذ كان مريضاً، وقد كان ملازماً مضجعَه، وكان الشّيخ وهو يسعل ينطرح بثقله عليه دائماً، لأنه كان يُغشى عليه، وهكذا تعب معه كثيراً. ورغم ذلك، فإنه لم يسمع من معلمه كلمة: "خلصت". فلما دنت وفاةُ الشّيخ، وقد جلس الشّيوخُ عنده، أمسك بيد تلميذه، وقال له: "تخلص، تخلص، تخلص"، وسلّمه للشّيوخ قائلاً لهم: هذا ملاكٌ وليس إنساناً".

86- Cf. Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church* ..., p. 54.

ويتَّضح من هذه القصَّة أن كلمة تَخلص ⲥⲱⲟⲓⲥ تشبه عبارة "الله يعوِّضك" المتداولة في الأوساط الرَّهبانيَّة في الوقت الحاضر، والتي تعني كلمة شكر. فكلمة "حلصتَ"، أو "تَخلص" كانت كلمة دارجة جدا مثل كلمة "أغابي" التي نردِّدها كثيراً اليَوم، ولكنها اختفت من عاداتنا، بينما استمرت كلمة "أغابي" حتى الآن.

فكلمة ⲥⲱⲟⲓⲥ التي نقولها للكاهن بعد قراءة التَّحليل تعني أننا نشكره، ونقول له: الله يعوِّضك، تَخلص، وليعطك الله الغفران، تَخلص بالحقيقة، وليكن مع روحك هذا الغفران أيضاً.

والآن عودة إلى الطَّقس:

ففي أثناء ترديد اللَّحن "سوتيس" نقرأ عند البابا غبريال الخامس ما يمارسه الكاهن مع الشَّمامسة في أثناء ذلك، فيقول:

"يغطي (الكاهن) القُربانة في الصينية بلفافة، وكذلك الكأس يغطيه بلفافة، وذلك مثال لتكفين جسد المخلص عندما أنزلوه من على الصَّليب، ووضعوه في قبر، ثم بعد ذلك يغطيه بالإبروسفارين، وهو مثال الحجر الذي أقلبوه على القبر المحيي فايض الحياة[٨٧]".

وأما وقوف الكاهن والشماس قدامه، مثال الملاكين اللذين كان أحدهما عند الرأس وآخر عند الرجلين. وكذلك الشمعتان الموقدتان. ثم إذا غطا الكاهن بالإبروسفارين باحتراز يقبِّل المذبح بفيه، ويتوجه إلى

٨٧- وهذا هو ما يذكره كتاب "سرّ الثُالوث في خدمة الكهنوت" حيث يقول: "... ثمَّ يضع (الكاهن) الخُبز ويغطيه، ويغطي الكأس كما حنطوا السيِّد ووضعوه في القبر. والإبروسفارين هو مثال للحجر. ويترلون من على الهيكل هو مثال لغلق القبر وإقامة احرَّاس".

انظر: كتاب سرّ الثُالوث في خدمة الكهنوت، لمعلِّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ٩

جانب المذبح القبلي، ويضرب مطانية للشرق شاكراً الله الذي أهله هذه الخدمة الطاهرة، ثم ينهض ويقبِّل المذبح، ويتوجه إلى جانب المذبح البحري فيضرب له الشماس الخديم المطانية، فيمد الكاهن يده يرفع رأس الشمّاس ويباركه، ويقبِّل كل منهما المذبح، ويترلان من المذبح، كل منهما بوجهه إلى الشرق، وظهره للغرب، ويكون نزولهما برجلهما اليسرى، وطلوعهما برجلهما اليمنى".

ويذكر ابن سباع بعد انتهاء الكاهن من صلاة الشُكر: "... وإن كان غير ريس كهنة فهو يدور الهيكل وان كان شماس ايضا يضرب المطانوة له في ذلك الوقت ... فليزم الكاهن تعويض الشماس بالمطانوة المضربة له من الشماس لان حقايق المذهب مبنية على التواضع"(٨٨).

ويتّفق الكُل على أن الميطانية التي يضربها الشمّاس للكاهن يقابلها ميطانية من الكاهن للشمّاس. أما البابا غبريال الخامس فهو وحده الذي قال: "... ويتوجّه (الكاهن) إلى جانب المذبح البحري فيضرب له الشمّاس الخديم المطانية، فيمد الكاهن يده يرفع رأس الشمّاس ويباركه، ويقبِّل كل منهما المذبح، ويترلان من المذبح".

ولم تذكر مخطوطات الخولاجيّات التي فحصتها في مكتبة دير القدّيس أنبا مقار(٨٩)، أنه بعد انتهاء صلاة الشُكر وصلاة التّقدمة يسجد الشمّاس أمام الكاهن. بل تذكر ما نصه: "... ويعطي (الكاهن) الجميع بالإبروسفارين ثم يقبل المذبح بفاه ويتلفت إلى جانب المذبح القبلي ويسجد لله ويقبل المذبح ثم يدور يترل أمام المذبح ويقرى التحليل على الخدام ...".

٨٨- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٧

٨٩- وهي مخطوطات (ط ١٣٣)، (ط ١٣٤)، (ط ١٣٦)، (ط ١٤٧).

إنها صورة رائعة لجسد الرَّب المحيي، وقد كُفِّن بالأكفان، ووُضع في القبر المقدَّس أي المذبح، ودُحرج عليه حجر عظيم أي الإبروسفارين، ووُضعت عليه الأختام أي اللِّفافة المثلَّثة التي لم تشر إليها المصادر القديمة. ثم يتركه الجميع ويذهبون أي يخرجون من الهيكل.

ويا لعمق المعنى الذي يشرحه الطَّقس حينما تكون القُبلة المقدَّسة هي موعد رفع الحجر عن القبر وإعلان القيامة. فالمحبَّة هي الله، وهي السَّماء، وهي القيامة والحياة. ومع إعلان المحبَّة تُستعلن الكنيسة.

لحن Nicaбeɤ "يا كل حكماء إسرائيل"

أحياناً يقول الشَّعب (أو الخوروس حالياً) لحناً سابقاً للَّحن "سوتيس آمين" السَّابق ذكره، وهو لحن Nicaбeɤ тнроɤ ǹтє пiIcраНλ "يا كل حكماء إسرائيل ...". وقد وضع كتاب خدمة الشَّمَّاس لهذا اللَّحن عنواناً هو: "ما يقوله المرتِّلون بعد صلاة الشُّكر عند تجليسة الأب البطريرك"[٩٠]. وفي الحقيقة فإن هذا العنوان لم يفسِّر لنا سبب ترديد هذا اللَّحن البديع حتى اليوم بدلاً من اللَّحن الطَّويل لـ"سوتيس آمين"، وذلك في الأعياد السَّيديَّة، أو في حضور الأب البطريرك أو الأسقف في الكنيسة ليقوم بنفسه برئاسة خدمة الصَّلاة.

وقبل أن أشرح السَّبب في ترديد هذا اللَّحن أُورد كلماته لنتعرَّف على معناه. فيقول النَّص: "يا كل حكماء إسرائيل صنَّاع خيوط الذهب. اصنعوا ثوباً هارونياً لائقاً بكرامة كهنوت أبينا الأقدس رئيس الكهنة البابا أنبا (...) حبيب المسيح".

٩٠ـ كتاب خدمة الشمَّاس والألحان، جمعية نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، ص ٤٦٦

أما الإجابة فتأتينا من عند يوحنا بن سباع في القرن الثّالث عشر، في موقعين من كتابه "الجوهرة النّفيسة في علوم الكنيسة". فيقول في ذلك: إن رئيس الكهنة يلبس ثياب الخدمة بعد انتهاء صلاة الشُّكر، وليس قبلها كما نرى اليوم. وفيما يلي النّص:

"ولبس البدلة من قبل طلوع الهيكل للكاهن. وإن كان رأس كهنة فيكون لباسه البدلة بعد تقدمة القربان قبل التحليل ليتميَّز بذلك رؤساء الكهنة من الكهنة بوضع الرياسة"(٩١).

ثم يكرِّر ما سبق أن قاله بعد انتهاء الكاهن من صلاة الشُّكر فيقول ما نصُّه:

"ثم ان المقدس ان كان ريس كهنة لبس البدلة ذلك الوقت كمثل هرون والمرتلين يرتلوا بما يليق بلباس بدلة الكهنوت. وإن كان غير ريس كهنة فهو يدور الهيكل ..."(٩٢).

ويؤكّد ابن كبر على ما قاله ابن سباع حين يذكر عن البابا البطريرك أنه "يبدل ببدلة الخدمة المذكورة في بابه ويرتّل له الشّعب بما يليق بذلك".

وتحت عنوان: "خدمة الأب البطريرك القدّاس" يذكر مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقوس) المحفوظ بالدّار البطريركيَّة بالقاهرة، والذي يعود تاريخ نساخته إلى سنة ١٩١٠م ما يلي: "يقول البطريرك صلاة الشُّكر وبعدها يقول الأوشيَّة للتّقدمة، والكهنة ترتِّل في Cwoic (سوتيس) بلحنها المعروف به. ثم بعده Πicaβετ τηρου (بي سافيف

٩١ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٧٦
٩٢ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٧

نيرو) وفي ضمن ذلك يبدل البطريرك بالبرنس الأبيض ..."(٩٣).

وهنا يتّضح لنا جلياً علاقة ترديد هذا اللّحن في هذا الوقت بالذّات بوجود رئيس للكهنة ليقوم بخدمة القدّاس الإلهي، سواء كان هو قداسة البابا البطريرك أو أحد الآباء الأساقفة، بأنه الوقت الذي يرتدي فيه رئيس الكهنة بدلة الكهنوت.

ومن ثمّ فلا معنى لترديد هذا اللّحن في الأعياد السّيديّة قبل لحن "سوتيس آمين"، إن كان البابا البطريرك أو الأب الأسقف غير قائم بخدمة الصّلاة. وفي المقابل فإنه من البديع حقاً ترديد هذا اللّحن أثناء ارتداء البطريرك أو الأسقف ملابس الخدمة في هذه الوقت من القدّاس. وانظر كم كان التّعبير مبدعاً ومتناغماً بين ما يمارسه الكاهن في داخل الهيكل وما يرتله الخوروس مع الشّعب في خارجه، حتى في وقت ارتداء ملابس الخدمة الكهنوتيّة.

وطبقاً لما سبق ذكره فقد عرفنا لماذا يذكر يوحنا ابن سباع أن رئيس الكهنة لا يقول سوى الذّكصا الختاميّة فقط لصلاة الشّكر، وهي التي تُقال سراً، ولا يذكر أنه يقول "إشليل - إيريني باسي" في مقدّمة صلاة الشّكر، أما السّبب في ذلك فلأنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد ارتدى ثياب الخدمة. فيقول ابن سباع:

"... فحينئذ يلتفت الكاهن إلى الغرب بعد توجهه إلى الشرق ويقول للشعب ايريني باسين التي شرحها السلام لجميعكم، فيجاوبه

٩٣- وهو نفس ما يذكره مخطوط ترتيب البيعة بالبطريركيّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م. انظر: الأنبا صموئيل، أسقف شبين القناطر وتوابعها، ترتيب البيعة عن مخطوطات البطريركيّة بمصر والإسكندرية ومخطوطات الأديرة والكنائس، الجزء الأول، توت، بابه، هاتور، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٧

الشعب بعقل يقظان كاطبنوما تيسوا التي شرحها ومع روحك أي هذا السلام الذي اعطيتنا يكون مثله مع روحك فيبتدئ الكاهن بصلاة الشكر إلى اخرها وعند نهايتها ان كان رييس الكهنة حاضرا يقول باي اداوول هي ضدف ...''(٩٤).

فما هو هذا الثوب الهاروني اللائق بكرامة كهنوت أبينا البابا البطريرك، أو الأسقف؟ هذا الثوب بحسب العهد الجديد هو المسيح نفسه: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل٣: ٢٧)، «البسوا الرَّب يسوع المسيح، ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشَّهوات» (رو١٣: ١٤).

إذاً فهذا اللّحن هو دعوة سريَّة لنا لكي نصلّي من أجل أبينا الأسقف، كي يلبس المسيح، والمسيح يستر خطاياه. وعندئذ يتقدَّم أمام الله وهو لابس المسيح ويقدِّم القدَّاس ويقدِّس القرابين. وهكذا نرى حكمة الكنيسة في وضع هذا اللّحن البديع كأحد ملحقات التَّحليل.

- **صلوات التَّحليل، ومرد "سوتيس آمين"**

هناك ثلاث صلوات تحليل تُقال في الكنيسة القبطيَّة، في كل صلاة منها النُّطق بالحل من الخطايا وغفرانها، وهي تُسمى تحليل الابن وتحليل الخدَّام وتحليل الآب.

التَّحليل الأوَّل، ويُسمى "**تحليل الابن**"، أي أنه موجَّه لأقنوم الابن الكلمة. وهو يقال في آخر صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر. ويبدأ بقول الكاهن: "أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب ... الخ". وفيه يقول الكاهن: "... آبائي وإخوتي وضعفي، هؤلاء

٩٤- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٤

المنحين برؤوسهم أمام مجدك المقدَّس، ارزقنا رحمتك واقطع كل رباطات خطايانا ... الخ"(٩٥).

والتَّحليل الثَّاني، ويُسمى "تحليل الخدَّام" ويأتي بعد صلاة الشُّكر الصُّغرى وصلاة الاستدعاء السِّرِّيَّة، وهو يبتدئ بالقول: "عبيدك يارب خدَّام هذا اليوم القُمُّص والقسوس والشَّمامسة والإكليروس والشَّعب كله وضعفي يكونون محاللين من فم الثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس ... الخ". وهو الذي سنتحدَّث عنه الآن،

وأما التَّحليل الثَّالث، ويُسمى "تحليل الآب"، ويُقال قبل التَّناول، وبعد صلاة القسمة وأبانا الذي. وبدايته هي: "أيها السيِّد الرَّب الإله ضابط الكُل، شافي نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا ... الخ". وفيه يقول الكاهن: "فليكن يا سيِّد عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي محاللين من فمي بروحك القدُّوس أيها الصَّالح محب البشر ... الخ".

تحليل الخدَّام

يقول البابا غبريال الخامس بخصوص طقس صلاة التَّحليل:

"... ويجلس الشمَّاس أمام المذبح وباقي الخدَّام، ويقف الكاهن خلفهم ويتلو التَّحليل. وإن كان معه كاهن شريك فيجلس الكاهن الخديم أيضاً ويتلو الشَّريك التَّحليل(٩٦)، وإن كان قدَّاس باسيليوس(٩٧)

٩٥- ويسبق هذا التَّحليل صلاتان أخريان موجَّهتان للابن أيضاً، الأولى تبدأ بقول الكاهن: "نعم يارب يارب الذي أعطانا السُّلطان ... الخ"، والثَّانية تبدأ بقول الكاهن: "أنت يارب الذي طأطأت السَّموات ونزلت ... الخ".

٩٦. العبارة السابقة أوردها القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هكذا: "ثم يجلسون أمام باب المذبح خاضعين. وإن كان الأب البطريرك أو المطران أو الأسقف حاضراً فهو الذي يقرأه. وإن لم يتفق حضور كاهن آخر ولا رئيس كهنة يقف الكاهن الخديم خلف الخدَّام ويقرأ التحليل". (خولاجي ١٩٠٢م، ص ٢٢٩).

فيقولوا تحليل الابن(٩٨): "أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح: الابن الوحيد وكلمة الله ..."(٩٩)، وإن كان قدَّاس غريغوريوس وكيرلس(١٠٠) فيقولوا تحليل الآب(١٠١) وهو: "أيها السيِّد الرَّب الإله ضابط الكل شـــافي" إلى آخر قراءة أوشيَّة التَّحليل.

ثم يقول بعدها(١٠٢) "عبيدك يارب خدام هذا اليَوم ..." إن كـــان جالس قدامه كاهن يقول: "أبي القس" ويرشم على القاعد قدَّامه مثال الصَّليب. وإن كان جالس قدَّامه أكثر مـــن واحـــد يقـــول: "آبـــائي القسوس" ويرشم على الكهنة الجلوس جميعهم رشماً واحداً(١٠٣). ويقول وهو يرشم الشمَّاس الخديم رشماً واحـــداً "والشـــمَّاس"(١٠٤)...(١٠٥) ثم يلتفت يرشم باقي الخدَّام **والوقوف في الخورس** جملة رشم واحد(١٠٦). ثم

٩٧ـ أضاف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "أو كيرلس" (ص ٢٢٩).

٩٨ـ أضاف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "سراً".

٩٩ـ أوردها البابا غبريال الخامس بالقبطيَّة فقط.

١٠٠ـ حذف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي كلمة "وكيرلس".

١٠١ـ أضاف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "سراً".

١٠٢ـ أضاف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "تحليل الخدَّام سـراً وفيـه خمسة رشوم". (ص ٢٣٠).

١٠٣ـ بخصوص رشم الكهنة؛ حذف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي تعبير "أبي"، و "آبائي"؛ فيذكر: "القمص ... القس ... القسوس" مباشرة.

١٠٤ـ بخصوص رشم الشَّمامسة؛ عدَّل القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هذه الفقرة فقال: "يرشم الشَّمامسة **شرقاً** رشماً واحداً. فإذا كان قدامه شمَّـاس واحـد يقول: "والشماس"، وإذا كان أكثر من شمَّاس يقول: "والشمامسة".

١٠٥ـ هذه الثلاث نقاط المذكورة في المتن ورد بدلاً منها عبـارة: "ثم يقـول: والشعب". وهو خطأ من ناسخ المخطوط، وقد حذفناه ليستقيم المعنى.

١٠٦ـ هذه الفقرة ذكرها القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هكذا: يلتفـت ويرشم **بحرياً** باقي الخدَّام الوقوف في الخوروس الداخلي ويقول: والإكليروس.
فلماذا يلتفت الكاهن بحريا بالذات ليرشم باقي الخدَّام، فالشمامسة يقفون بحـري وقبلي الخوروس. فالرشم هنا يكون لهم جميعا. والبابا غبريال في ذلك الأمر أكثر دقة.

يقول: "وكل الشَّعب" يلتفت إلى الغرب ويرشم الشَّعب كلـه رشماً واحداً[١٠٧]. ثم يقول: "وضعفي" يرشم ذاته رشماً واحـداً[١٠٨]. تتمَّة الحملة ها هنا خمسة رشوم ...[١٠٩] ثم يكمل بقية الأوشيَّة إلى آخرها.

يقبِّل رأس الكاهن **الجالس** أمامه. وينهض الجميع قائمين. ويقبِّـل الكاهن الخديم عتبة باب المذبح[١١٠]. ويصعد إلى المذبح ويقبِّله".

أما مخطوط ترتيب البيعة بـرقم (١١٨ طقـوس) بمكتبـة الـدَّار البطريركيَّة بالقاهرة (١٩١١م) فيذكر ما يلي: "... ثمّ يضرب كل منهم مطانوة إلى الشَّرق فوق المذبح، وينزلوا **ويجلسوا** قدام الهيكل. وإن كان ثمّ مع الكاهن قس شريك فهو الذي يقرأ التَّحليل على الكاهن الخـديم والشَّماس. وإن كان ما معه شريك **فيجلس** الشمَّاس والكاهن يقرأ عليه التَّحليل، وإن كان القدَّاس باسيلي فيقول تحليل الابن وإن كان القـدَّاس

ولاسيَّما أن دوران الكاهن إلى الجهة البحرية ومنها إلى الجهة الغربيَّة بعد ذلك ليرشم الشعب، يدور يساراً وليس يميناً. والرشومات على الشعب على مـدى الليتورجيَّـا كلها تكون غرباً بدوران الكاهن يميناً وليس يساراً.

١٠٧ـ هذه هي المرَّة الوحيدة التي يذكر فيها البابا غبريال الخـامس أن الكـاهن يلتفت غرباً ليرشم الشعب.

١٠٨ـ ذكر القمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هذه الفقرة هكذا: "يلتفت إلى الشرق ويرشم ذاته ويقول: وضعفي".

١٠٩ـ بدلاً من النقاط الثلاثة المذكورة في المتن أورد البابا غبريال الخامس العـبارة التالية: "وفي أول الشبهموت رشم واحد. وفي وسط الشبهموت ثلاثة كما شـرح أولاً. فصارت الجملة عليه وعلى الشعب والخدام والمكان ٩ رشوم". وقـد أغفـل القمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هذه الفقرة.

١١٠ـ عبارة "يقبِّل الكاهن الخديم عتبة باب المذبح" أوردها القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هكذا: "ويسجد الكاهن الخديم قدام باب المـذبح إلى الشـرق، ويصعد إلى المذبح ويقبِّله (أو يسجد فوقه برأسه لله)". وهذا السجود الـذي أورده القمُّص المذكور لا مكان له هنا، ولم يذكره البابا غبريال الخامس، لأن تقبيل عتبـة باب المذبح لا يعني السجود.

غريغوري فيقول تحليل الآب، وعندما يقـول ⲁⲣⲓⲧⲉⲛ ⲛ̀ⲣⲉⲙϩⲉ ⲛⲉⲙ ⲡⲉⲕⲗⲁⲟⲥ ⲧⲏⲣϥ ⲛ̀ⲣⲉⲙϩⲉ يلتفت عن يمينه ويرشم صليباً واحـداً، ثمّ يكمل التّحليل (أي يبدأ تحليل الخدّام: عبيدك يارب خدام هذا اليوم ...) ووجهه إلى الشّرق ... الخ".

هذا هو طقس صلاة التّحليل، وهو التّحليل الذي يُدعى "تحليل الخدّام"، كما يذكره البابا غبريال الخامس وكما ينقله عنه القمُّـص عبد المسيح صليب البراموسي بعد التّعديلات الـتي أجراهـا، كمـا ذكرناها في الهامش.

وأشيرُ هنا إلى أن الكاهن قبل أن يصليّ تحليل الخدّام، يصليّ تحليـل الابن (سرّاً)، و"تحليل الابن" هو طقس خاص بكنيسـة مصـر[١١١]. وبحسب مخطوطات الخولاجيّات القديمة، فإن تحليل الابن لم يكن يُقـال سرّاً، بل جهراً كما تذكر كل المخطوطات والكتب الطقسيّة القديمـة، ويعقبه مباشرة تحليل الخدّام، في هذا الوقت من القدّاس[١١٢]. إن صـلاة تحليل الابن هي صلاة عميقة المعنى وقويّة المبنى، لأن نصّـها اللّيتـورجي يشرح لنا بتدقيق كيف ينتقل غفران المسيح من الصّليب ومن آلامه إلينا.

فصلاة التّحليل للابن تصف لنا آلام المسيح على الصّليب بأنها آلامه "المخلّصة المحيية".

وكلمة "المخلّصة" هي نفسها التي تترجم "الشّافية". فهي نفـس الكلمة في القبطي واليوناني. فالكلمات القبطيّة: ⲟⲩϫⲁⲓ (أوجـاي) – ⲥⲱⲧⲏⲣ (سوتير) – ⲛⲟϩⲉⲙ (نوهيم) تعني "يشفي أو يخلّص". وعبارة:

١١١ـ الطقوس الشرقيّة، مرجع سابق، ص ١٠٠

١١٢- انظر: مخطوط الفاتيكان رقم (١٧)، وهو أقدم خولاجي قبطي عـربي متكامـل معروف حتى اليوم.

ⲛⲟⲩϫⲁⲓ ⲛ̀ⲣⲉϥⲧⲁⲛϧⲟ هي التي نترجمها "المخلِّصـــة المحييـــة"، كمـــا نترجمها أيضاً "الشَّافية المحية" كما في قطع السَّاعة السَّادسة في الأجبية.

أما يوحنا ابن سباع فيقول في صلاة تحليل الخدَّام ما نصُّه:

"ثم أن الكاهن بعد نزوله من الهيكل ينحني هو والشمَّاس الخديم له، ويتقدَّم الاغومنس (الإيغومانس) يقرى عليهما التحليل او رييس الكهنة الحاضر ليس انهما كانا مربوطين حتى يحللهم وانما ذلك خضوعا لمن هـــو اكبر منهم لانهما كانا فوق قدس القدس قربا من اله بخلاف من هو اسفل في الكنيسة فارادوا بذلك حتى تسلم نفوسهم من الكبريـــا ان ينحنـــوا بروسهم وغيرهم يقرى عليهم حتى لا يضنوا بنفوسهم انهم شي.

وبعض الكهنة يجلس هو والشمَّاس وذلك غير واجب وانما القصد انحناهم برووسهم وخضوعهم. والخضوع خضوعين احدهما لله تعـــالى والاخر تواضع لمن يقرى عليهم كالمحبة لله اولا والقريب ثانيا.

ثم قاري التحليل يذكر فيه تحليل الابن وبعده طلبة ان يكون هـــذه الخدَّام محللين من فم الثالوث المقدَّس ومن فم البيعة ..."(١١٣).

فبغض النَّظر عن شرح ابن سباع لمفهوم صلاة التَّحليل، أو من المنوط به قراءته، نلاحظ أنه ينتقد عادة جلوس الكاهن والشمَّاس لقراءة التَّحليـــل عليهما، مشيراً إلى الانحناء فقط لقبول صلاة التَّحليل، وليس السُّـــجود الكامل إلى الأرض كما نفعل اليوم. مما يعني أن عادة الجلـــوس لقبـــول التَّحليل هي عادة قديمة كانت معروفة قبل القرن الثَّالث عشر، وهي نفس العادة التي يذكرها البابا غبريال الخامس، وينقلها عنه القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي، ويذكرها أيضاً مخطوط ترتيب البيعـــة رقـــم (١١٧ طقوس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة، والذي يعود تاريخه إلى سنة ١٩١٠م.

١١٣ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٨، ١٨٩

وفي هذا الصَّدد انقسمت المخطوطات إلى قسمين، الكثير منها يقول بالجلوس إلى الأرض لقبول التَّحليل، والقليل منها يقول بإحناء الـرأس فقط، ومن بينها مخطوط الخولاجي رقم (ط ١٣٦) الذي يقول ما نصـه: "ثم يترل يقري تحليل الخدّام والشعب جميعه مطامن الراس ...".

أما ابن كبر (+ ١٣٢٤م) فهو أيضاً يذكر عادة الجلـوس لقبـول التَّحليل، إلاّ أنه يعود فيذكر أنه الرُّكوع، فيقول ما نصُّه:

"... وتقال ⲥⲱⲑⲏⲥ ⲁ̀ⲙⲏⲛ ثم يعمّد الكاهن والشمّاس الى بعضهما بعضاً فيضرب كل واحد منهما المطانوه للاخر ويترلان ويجلسان قـدّام الهيكل محنيه رؤوسهما لقراءة التحليل. فان كان هناك قس آخر يخـدم معهما يقرا التحليل عليهما وان لم يتهيا فيقراه الكاهن المقدّس على نفسه قايماً وعلى الشمّاس وهو راكع. وان كان البطرك حاضراً فهو الدي يقرا التحليل عليهما وكدلك الاسقف في كرسيه"[١١٤].

ومن قول معلّمي البيعة في القرون الوُسطى: "وأما قراءة التَّحليـل على الخدّام فهو معنى أن الذين يخدمون القدّاس ويقرأون الفصول ينبغـي أن يجلسوا قدام الهيكل ليقرأوا عليهم التَّحليل. ومن لم يحضر التَّحليل فلا ينبغي لهم كشف رأسهم ولا ينبغي لهم أن يخدموا ذلك اليوم. فإن الله قال لموسى النَّبي: امسح لي هرون وبنيه وصلِّ عليهم قبل أن يخدموني[١١٥]. وقد كان هرون إذا أراد أن يخدم يصلّي على القوم الذين يخدمون معه في ذلك اليوم قبل عبورهم القبَّة. وكذلك فإن كل نبي أو ملك كـان الـنَّبي أو الكاهن يجلسه ويصلّي عليه ويمسحه بدهن المسحة. فجعل الآباء هذا أن

١١٤ـ الجزء الثّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس. وهو "كتـاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

١١٥- انظر: خروج ٢٨: ٤٠؛ ٢٩: ٤-٨

الذين يخدمون يجلسون قدَّام الكاهن ليصلي عليهم"(١١٦).

ويبدو أنه لم يكن هناك اتفاق واحد في كل الكنائس بخصوص طقس قراءة التَّحليل. ولاسيَّما أن ألفريد بتلر A. Butler الذي زار كنائس مصر في أواخر القرن التَّاسع عشر الميلادي يقول كشاهد عيان: "وأثناء صلاة التَّحليل يركع الكاهن وشمامسة الهيكل في شكل دائرة أمام باب الهيكل مع الانحناء من وقت لآخر"(١١٧).

وهكذا برشم الصَّليب يشترك الكل أعضاء الجسد الواحد في طلب المغفرة من الآب، وبهذا يصير تحليل الكل من جهة الصَّليب، وصحَّة الأمانة الواحدة(١١٨).

لمحة عن طقس تقديم الحَمَل في الكنيسة البيزنطيَّة

وهو يُسمى طقس التَّقدمة. وفيه يتم إعداد القرابين بواسطة الكاهن على انفراد، أي بصورة غير علنيَّة؛ وذلك على المذبح الكائن إلى شمال المائدة المقدَّسة، والذي يمثل عندهم مغارة بيت لحم.

فبعد أن يقبِّل الكاهن الأيقونات السَّيديَّة، ويطلب المعونة من الله، والاستغفار من الشَّعب، يدخل إلى قدس الأقداس، ويرتدي الحلَّة الكهنوتيَّة، ثم يقف أمام المذبح ويهيئ الأواني المقدَّسة، ثم يرفع القربانة ويبارك ويرسم عليها إشارة الصَّليب بالحربة قائلاً: لإكرام وتذكار ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح كل حين الآن وكل أوان وإلى دهر الدَّاهرين

١١٦- كتاب سر الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلِّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٠

١١٧- ألفريد بتلر، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة الأستاذ إبراهيم سلامة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٣م. ص ٢٢٣

١١٨- معاني رشم الصليب، مرجع سابق، ص ٦٦

آمين. ثم يقطع ختم القربان، وهو يمثل "الحمل" الرَّب يسوع، ويضعه في وسط الصِّينيَّة المقدَّسة، ويرتِّب حوله أجزاء تمثِّل العذراء مريم (عن يمينه)، والملائكة والأنبياء والرُّسُل (تسعة أجزاء عن يساره)، والأحياء والأموات (أجزاء صغيرة إلى أسفل تمثِّل من يذكرهم الكاهن من مقدِّمي القرابين وغيرهم). وهكذا تكون الجماعة كلها ممثَّلة حول المسيح.

وتجدر الملاحظة أنه بعد صيرورة الخبز والخمر إلى جسد الرَّب ودمه الكريمين في القسم الثَّالث من القدَّاس (قدَّاس المؤمنين) توضع كل الأجزاء في الدَّم المقدَّس في الكأس وكأن الجماعة كلها تُغمس في الدَّم متَّحدة ومطهَّره فيه.

البَاب الثَّاني

قدَّاس الموعوظين أي قدَّاس الكَّلمة

الباب الثاني

الصّلاة في الشّريعة الإسلاميّة

الفَصل الأوَّل

مقدِّمات حول قدَّاس الكَّلمة

تمهيد

يقع القدّاس قبل النّيقاوي في قسمين متميّزين، هما الاجتماع والشّركة. أمّا القسم من القدّاس الذي يُدعى **"الاجتماع"** مع القسم الآخر الذي يُدعي **"الشّركة"** لم يكونا في وقت من الأوقات قسمين مستقلين بعضهما عن بعض قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، ولم يحدث أنهما انفصلا عن بعضهما أبداً منذ البداية[١].

أما عن الاجتماع، أي القسم الأوّل، فكان نوعاً من الاستمرار لخدمة المجمع اليهودي في أيام السيّد المسيح. وقد تكوّن من فاتحة يقوم بها الرّئيس، ومن قراءات من العهد القديم، ومن كتابات الرُّسُل والأناجيل والمزامير (التّرانيم)، وهي عبارة عن تسابيح تُرنّم ثم عظة.

وهكذا كان الاجتماع مباحاً لكل من أراد أن يحضر سواء كان يهودياً أو وثنياً أو أي فضولي. كما أبيح حضور الموعوظين الذين كانوا يستعدّون لقبولهم أعضاء في الكنيسة بتعميدهم؛ وذلك لأن واجب الكنيسة بلا شك هو أن تبشّر بالإنجيل للعالم، وأن تشهد للحق الذي فيه. أما الصّلاة فهي أمر آخر. ولذلك لم يتيسّر لمن لم يعتمد بالمسيح ويصير ابناً له أن يحضر الصّلاة الجماعيّة.

وهكذا كان محتّماً على كل من لم يصر بعد مسيحياً أن يخرج بعد

١- هذه الجزئيّة سنبحثها باستفاضة بعد قليل، تحت عنوان: "علاقة قدّاس الكلمة بقدّاس الإفخارستيا".

العظة. أما الموعوظون الذين قبلوا الإيمان، ولكنهم لم يتّحدوا بالكنيسة بعد بالأسرار، فكانوا ينالون البركة من الأسقف في هدوء. ثم كان الشّمامسة يعلنون: "ليخرج الموعوظون ... لينصرف الموعوظون".

وبعد خروج الموعوظين كان الشّمامسة يعلنون مرّةً أخرى "الأبواب، الأبواب"، وهذه كانت علامة لزملائهم حارسي الأبواب لكي يغلقوها ويمنعون أي دخول. وحينئذ كان أعضاء الكنيسة المعمّدين يشتركون في الصّلاة الجماعيّة التي يختم بها اجتماع الموعوظين.

ثم تبدأ صلاة الشُكر أو الإفخارستيّا.

قدّاس الكَلمة في العصور المبكّرة

منذ أيام آبائنا الرُسُل القدّيسين، أي في مستهل نشأة الكنيسة المسيحيَّة، كانت القراءات التي تُقرأ في المجمع اليهودي والتي تمثّل جزءاً من اجتماع الصباح أيام السُبوت، تتكوّن من قراءتين؛ واحدة من النّاموس والأخرى من الأنبياء.

ويشهد كتاب العهد الجديد على ذلك؛ حيث نقرأ في سفر الأعمال (١٥:١٣) أن بولس الرّسول تكلّم في المجمع بعد قراءة النّاموس والأنبياء. ونجد إشارة أخرى في سفر الأعمال (٢١:١٥) إلى قراءة النّاموس بواسطة القدّيس يعقوب الرّسول في أورشليم. أما عن قراءة فصل من الأنبياء فيكفي أن نشير إلى الفصل الهام الذي أورده القدّيس لوقا البشير (١٦:٤-٣٠) عن قراءة السيّد المسيح نفسه لفصل من إشعياء النّبي في خدمة يوم السّبت في مجمع النّاصرة.

وفي زمن القدّيس يوستينوس الشّهيد (١٠٠-١٦٥م) نقرأ:

[في يوم الأحد يكون اجتماع ... حيث يُتلى ما كتبه الرُّسُل والأنبياء حسبما يسمح الوقت. وبعد ذلك يحثنا المترئس في حديث (أي عظة) ويدعونا أن نتشبّه بتلك الأمور النّبيلة. ثم نقف جميعاً معاً لنرفع صلوات. ثم يؤتى بخبز وخمر وماء، ويرفع القائد صلوات وتشكّرات بقدر استطاعته، ثم ينال كل واحد من هذه القرابين بعد تقديسها، كما أنها تُرسل للغائبين مع الشّمامسة][2].

وهكذا نجد أن قدّاس الكلمة والمُسمى الآن قدّاس الموعوظين عند القدّيس يوستينوس يشتمل على:

- القراءة من الرّسائل والأناجيل الّتي يسميها يوستينوس الشّهيد "تفاسير الرُّسُل". وكذلك قراءة من العهد القديم الّتي يسميها "كُتُب الأنبياء".
- مدّة القراءة وكميّتها بحسب ما يسمح الوقت.
- العظة تنصب على موضوع القراءات.
- رفع الصّلوات.

وبعد ذلك يكون تقديم القرابين والقدّاس والتّناول.

ويقدّم لنا العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) ملامح قدّاس الكلمة في زمانه، وتنحصر في قراءة الكُتُب الإلهيّة، والنّداء بالاستماع للإنجيل المقدّس، ثم خدمة الوعظ، والّتي يعقبها تقديم الصّعيدة المقدّسة على المذبح.

وهذه صورة لقدّاس من القرن الثّاني، وبالتّدقيق في بنودها نجد أنها هي نفسها ترتيب أجزاء القدّاس الإلهي كما نعرفه اليوم. مع ملاحظة أن تقديم الحَمَل أو تقديم القرابين يكون بعد قدّاس الموعوظين وليس قبله.

2- Cf. *First Apology*, 67.

وقد تعرّض العلاّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) أيضاً بالشّرح لموضوع الخدمة الإلهيّة (اللّيتورجيّا)، وملخّص ما قاله هو:

- ليتورجيّا الموعوظين تسبق ليتورجيّا المؤمنين.
- القراءات تشمل فصولاً من العهد القديم والعهد الجديد يتبعها عرض دراسي مفصّل، ثم عظة على موضوع القراءات.
- يتبع العظة مجموعة صلوات ينهض فيها كلّ الشّعب وقوفاً.

أما الكتاب الثّالث من كُتُب المراسيم الرّسوليّة فيحمل شهادة وثائقيّة تفيد بأن الفصول الّتي كانت تُقرأ في الاجتماعات المسيحيّة كانت من التّوراة والأنبياء، حيث يُقرأ فصل من توراة موسى أولاً، يعقبه فصل من الأنبياء.

ويشير القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في إحدى عظاته في كنيسة أنطاكية إلى قراءة قُرئت في القدّاس من بدء سفر التّكوين. وفي شرحه لرسالة مار بولس الرّسول إلى أهل رومية ورسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يشير إلى قراءة من النّبوات.

أمّا القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في شرحه للمزمور الثّامن والعشرين نعرف منه أن الكنيسة اليونانيّة كانت تقرأ قراءات من النبوّات ثم من رسائل بولس الرّسول، ثم من الإنجيل(٣).

ولقد احتفظ السّريان الأنطاكيّين (الغربيّين)، والسّريان الشّرقيّين حتى اليوم بقراءة فصول من العهدين القديم والجديد. وفي الطّقس الآشوري – أي السّرياني الشّرقي أو النّسطوري – ينادي قارئ القراءة

٣- إغناطيوس أفرآم الثّاني، البطريرك السّرياني الأنطاكي، المباحث الجلية في اللّيترجيات الشّرقيّة والغربيّة، دير الشرفة، ١٩٣٤م، ص ٢١٤، ٢١٥

الأولى من العهد القديم مخاطباً السامعين: "اجلسوا واسكنوا"(٤).

ويقدِّم لنا قانون القراءات الذي وضعه البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) ثلاثة فصول من العهد القديم. الفَصل الأوَّل من التَّوراة (أسفار موسى الخمسة)، وفصلان من الأنبياء (واحد من الكُتُب التَّاريخيَّة والثَّاني من كتب الأنبياء). وهذا التَّقليد في القراءات اللِّيتورجيَّة - بحسب أبحاث العلاَّمة بومشتارك A. Baumstark يعتبر أقدم قانون قراءة في الكنيسة عامة. وقد أخذت عنه فلسطين وسوريا.

فقد راعت كنيسة مصر قراءة فصول من العهد القديم منذ أيام البابا أثناسيوس الرَّسولي الذي كان يضع أسفار العهد القديم موضعاً لا يقل أهميَّة عن أسفار العهد الجديد، فيقول في ذلك:

[إن العهد الجديد يقوم على العهد القديم ويشهد له. فإن كانوا يرفضون القديم فكيف يستطيعون أن يقبلوا الجديد؟ لذلك قال ربُّنا: «فتِّشوا الكُتُب لأنها هي التي تشهد لي» فكيف يستطيعون أن يعترفوا بالرَّب بدون أن يفتِّشوا الكُتُب المكتوبة عنه؟] (الرسالة إلى أساقفة مصر، ٤).

وسرعان ما أُضيفت قراءة من إحدى رسائل القدِّيس بولس الرَّسول، كما أوصى الرَّسول نفسه بذلك في رسائله(٥). أما قراءة فصل الإنجيل المقدَّس فقد أُلحق على هذه القراءات بعد ذلك. وهكذا أصبح لدينا أربعة فصول كتابيَّة pericope (٦) تُقرأ في قدَّاس الكلمة.

٤- البطريرك إغناطيوس أفرام الثَّاني، مرجع سابق، ص ٢١٥
٥- انظر: كولوسي ٤: ١٦؛ ١تسالونيكي ٥: ٢٧
٦- هذه الكلمة الإنجليزيَّة هي ترجمة للكلمة اليونانيَّة περικοπή وتعني "فصل"

أما نظام القراءات عند الأقباط في أيام كاسيان (٣٦٠-٤٣٥م) فكان هو تتميم قراءة كتاب العهد الجديد كلّه على مدار السنة في القدّاس، وفي ذلك يقول كاسيان:

[وبين الأقباط عامة (أي المصريّين) خدمة ليتورجيّة السَّبت، وخدمة ليتورجيّة الأحد متساويتان تماماً في كل شيء، حيث يقرأون في هذين اليومين كل الفصول من العهد الجديد فقط، فصلاً واحداً من الإنجيل، وفصلاً آخر إما من الرَّسائل وإما من سفر الأعمال. أما في باقي أيام الأسبوع، فتنقسم القراءة إلى قسمين: قسم للعهد القديم، وقسم للعهد الجديد].

ويوضِّح العالم جريجوري دكس Gregory Dix (١٩٠١-١٩٥٢م) طريقة أداء القراءات بقوله: "كانت القراءات تُلحَّن بلحن بسيط أكثر من أن تُقرأ، وذلك في الاجتماعات الكبيرة على الأقل إن لم تكن في كل الاجتماعات. وعلّة هذا هو ضمان سماعها جيداً، ولأجل تكريم كلمة الله التي تُقرأ في الكنيسة، ويسمعها العالم خلال الكنيسة".

وهذا النِّظام الرُّباعي للقراءات لا زال مرعياً في الطَّقس القبطي حتى اليوم، حتى عندما تم استبدال قراءات العهد القديم ليحل محلها قراءات من

أو "قسم" أو "جزء مختار". وعلى ذلك فصارت تعني في المصطلح اللِّيتورجي فصل كتابي معين يُقرأ في اجتماعات الكنيسة وخدماتها. وقد استقر استخدام مثل هذه الفصول الكتابيَّة في صلاة الإفخارستيَّا فيما بين القرنين الرابع والخامس للميلاد. أما في العصور المبكِّرة في كلا الشَّرق والغرب، فإن هذه الفصول كانت تُختار بواسطة الإكليروس القائمين على الخدمة.

والآن فإن الكتاب الذي يحوي هذه الفصول pericopes يُسمى Lectionary أي كتاب القراءات، وهو المعروف في الكنيسة القبطيَّة باسم "القطمارس".

Cf. ODCC., (2nd edition), p. 1064.

العهد الجديد، فاستُبدل نظام القراءات الرُّباعي القديم (توراة - أنبياء - رسائل - إنجيل) بنظام رُباعي آخر هو (رسائل البولس - رسائل الكاثوليكون - سفر الأعمال - الإنجيل).

وإن آثار نظام القراءات القديم جداً في الطّقس القبطي لا زال موجوداً في الكنيسة القبطيّة حتى اليوم، وذلك في خدمة صباح يوم سبت الفرح. ففي باكر هذا اليوم هناك قراءة من الأنبياء يعقبها قراءة من رسائل بولس الرَّسول يعقبها قراءة من الإنجيل المقدّس، مسبوقاً بمزمور. أما السّاعات الثّالثة والسّادسة والتّاسعة في نفس هذا اليوم فلكل منها قراءتان، واحدة من الأنبياء، والأخرى من الإنجيل.

ولقد انقطع النّظام الرُّباعي للقراءات في بعض الطُّقوس الشّرقيّة لاسيّما الطّقس البيزنطي وحلّ محلّه قراءتين فقط، واحدة من رسائل القدّيس بولس الرَّسول، والأخرى من الإنجيل المقدّس.

أما عن ترتيل المزامير في الخدمة اللّيتورجيّة المسيحيّة فهو ميراث انتقل إليها من خدمة الصّباح في المجمع اليهودي أيام السُّبوت، حيث كانت تُرتّل المزامير عقب انتهاء القراءات الكتابيّة. ولكن اليهود عادوا فيما بعد وغيّروا نظام الخدمة عندهم كما تغيّر الموضع الطّقسي لترتيل المزامير، ولم يعد كما كان في موضعه الطّقسي القديم. وإنه لمن المبدع أن تحافظ اللّيتورجيّة المسيحيّة على ممارسة يهوديّة قديمة أغفلتها اللّيتورجيّة الحديثة في المجمع اليهودي(٧).

7- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 45.

الخلاصة

(١) كانت القراءات على مدار السَّنة اللِّيتورجيَّة تُختار من العهدين القديم والجديد، وبينما اندثر هذا الطَّقس في الكنيسة القبطيَّة وانحصر فقط في أيام الصَّوم المقدَّس الكبير، وبعيداً عن قدَّاس الموعوظين، نجده لا يزال يُمارس في كنائس شرقيَّة أخرى حتى الآن كما في الكنيسة المارونيَّة مثلاً.

(٢) كانت القراءة في الكنيسة القبطيَّة تتكوَّن من فصلين في السُّبوت والآحاد، وذلك بحسب شهادة كاسيان، واحد من الإنجيل والآخر إما من الرِّسائل أو من سفر الأعمال. وهذا ما نجده حتى الآن في الطَّقس البيزنطي. أما في الكنيسة القبطيَّة دون سواها من الكنائس الشَّرقيَّة فقد زيدت فيها القراءة إلى أربعة فصول، فصل من الإنجيل، وفصل من رسائل بولس الرَّسول، وفصل من رسائل الكاثوليكون، وفصل من سفر الأعمال.

(٣) كانت القراءات تُلحَّن بلحن بسيط أكثر من أن تُقرأ. وهذا نجده قد انحصر في الكنيسة القبطيَّة في قراءة الفصول الكتابيَّة باللُّغة القبطيَّة فقط دون ترجمتها العربيَّة، وذلك بلحن بسيط يميِّز رسائل البولس عن رسائل الكاثوليكون عن فصل سفر الأعمال. وهو طقس بديع آخذ في الزَّوال إن لم يكن قد بات تاريخاً، وأثراً بعد عين، وذلك بعد الإحجام عن قراءة الفصول بالقبطيَّة التي أصبحت لغة غير مفهومة لعامة الشَّعب. أما قراءة الإنجيل فلازالت تجري باللَّحن سواء بالقبطيَّة أو بالعربيَّة.

على أننا نجد في الطَّقس البيزنطي أن قراءة الفصول الكتابيَّة باللُّغة العربيَّة تكون بلحن بسيط، برغم توقف قراءتها باليونانيَّة التي باتت هي الأخرى لغة غير مفهومة لكثير من الشَّعب. فينص الطَّقس البيزنطي على

أن القارئ يقرأ فصل الرّسائل المعيَّن قراءة فصيحة منغَّمة[٨].

(٤) منذ أيام البابا أثناسيوس الرّسولي كانت هناك طغمة من طغمات الكنيسة، وهي طغمة القارئين (الأغنسطسين) هي المنوط بها قراءة الفصول الكتابيَّة في الخدمة اللِّيتورجيَّة. وكان يجري تدريبها على ذلك الأمر تدريباً متقناً، وكان الأغنسطس (القارئ) يفهم جيداً ما يقرأه، بل وقادراً على تفسير ما يقرأه. أما الآن فصارت قراءة الفصول لأي واحد كيفما اتَّفق بعد أن تلاشت طغمة القارئين في الكنيسة، أو على أحسن الظُّروف صارت تُمنح أحياناً لصغار السِّن.

علاقة قدّاس الكلمة بقدّاس الإفخارستيّا

يرى بعض علماء اللِّيتورجيّا أن قدّاس الكلمة كان قسماً منفصلاً عن قدّاس الإفخارستيّا قبل نيقية ثم أُلحق عليه في غضون القرن الرّابع الميلادي. فصارا متَّصلان ببعضهما مباشرة. وإننا نود أن نبحث هنا هذا الأمر بأكثر استفاضة لكي نتيقّن أن قدّاس الكلمة أو قدّاس الموعوظين لم يكن طقساً أُلحق بمقدِّمة خدمة القدّاس الإلهي بعد ظهور طغمة الموعوظين في الكنيسة في أواخر القرن الثّاني الميلادي، ولكنه كان طقساً أساسياً لم ينفصل عن الإفخارستيّا منذ البداية، وحتى قبل أن تُعرف طغمة الموعوظين في الكنيسة. ولكنه القسم من القدّاس الإلهي الذي سُمح فيه لطغمة الموعوظين بعد أن ظهرت في الكنيسة وانتشرت جداً في القرن الرّابع الميلادي بحضوره، وهو الجانب التّعليمي أو خدمة قراءة الكلمة من القدّاس الإلهي. ومن هنا سُمِّي هذا القسم فيما بعد باسم "قدّاس الموعوظين"، ولكنه في الأصل هو "قدّاس الكلمة" والذي لم ينفصل عن

٨. القدّاس الإلهي ليوحنا ذهبي الفم، منشورات النور، سنة ١٩٦١م، ص ٣٩.

"قدّاس الإفخارستيّا". فالتحام الخدمتين معاً ضرورة حتميّة لا يأصّلها أو يهمّشها وجود طغمة للموعوظين أو عدم وجودها.

ومن أجل ذلك نقرأ في القانون رقم (٩) من قوانين الرُّسُل[٩]: "كل المؤمنين الذين يدخلون ويسمعون الكُتُب، ولا يبقون للصّلاة والتّناول المقدَّس، فليُحرَموا، لأنهم يفعلون تشويشاً للكنيسة".

واضح هنا أن المؤمنين كانوا يحضرون قدَّاس الكلمة، ولكن القانون يشير إلى أن البعض منهم كان يخرج من الكنيسة، ولا يبق للصّلاة والتّناول من الأسرار المقدَّسة.

وفي المقابل تماماً، لم يكن يُسمح للموعوظين أن يبقوا في الكنيسة بعد انتهاء قدّاس الكلمة. لأن كل من يبق في الكنيسة بعد ذلك يلزم أن يتناول من الأسرار المقدَّسة. وفي اللّيتورجيّة الإثيوبيّة، ينادي الشمّاس بعد قبلة السّلام قائلاً: "يا أيها الذين لا يتناولون اخرجوا".

أقولُ ذلك بسبب عدم اكتراث البعض منا بحضور الكنيسة مبكراً للاستماع إلى القراءات الكتابيّة. لأنها إن كانت – في نظرهم لا تخص سوى الموعوظين فحسب، فما الضّرورة الملزمة لنا بحضورها ونحن قد صرنا مؤمنين؟. ورويداً رويداً بدأ قدّاس الكلمة يفقد أهميّته ولم يعد الكثيرون يهتمُّون بحضور فصول القراءات والإصغاء إليها، حتى كانت العصور الوسطى حين تركّز التّنبيه على أهميّة حضور قراءة فصل الإنجيل المقدَّس لمن يريد التّناول؛ ومن ثمّ فقد أُهملت باقي القراءات؛ أو على الأقل أخذت جانباً ثانوياً في خدمة القدّاس الإلهي. بل وحتى اليوم في كثير من كنائسنا تتركّز خدمة الوعظ على فصل الإنجيل المقدّس بمعزل

٩- وهو يقابل القانون رقم (٢:٧) من قوانين الرُّسُل القبطيّة.

عن باقي فصول القراءات الكتابيّة المرتبطة به كل الارتباط.

ولكي نبحث علاقة قدّاس الكلمة بقدّاس الإفخارستيّا، نبني كلامنا على دعامتين، الأولى هي التّاريخ الكنسي أو الليتورجي، والثّانية هي تعليم آباء الكنيسة والكتابات الليتورجيّة المبكّرة.

ارتباط القراءات بالإفخارستيّا في التّاريخ الكنسي والليتورجي

نقرأ في سفر أعمال الرُّسُل عن الآلاف الذين قبلوا الإيمان سواء من اليهود أو الأمم، وكيف كانوا يعمّدون في الحال، لينضموا إلى شركة الكنيسة، ويصيروا أعضاء عاملين حارين بالرُّوح فيها.

واستمر الحال على هذا النّسق في العصر الرَّسولي أي في زمن خلفاء الآباء الرُّسُل الأوّلين، وفيه ازداد عدد المقبلين إلى الإيمان المسيحي لاسيّما من الأمم الوثنيّين. وإزاء عنف الاضطهاد الذي تعرضت له الكنيسة قبل منشور التّسامح الدِّيني الذي أصدره الملك قسطنطين سنة ٣١٢م ارتد بعض هؤلاء الذين قبلوا الإيمان، إلى جانب حوادث أخرى كان من شأنها أن تقلّل ثقة الكنيسة في ثباتهم. فدعت الضَّرورة إلى تعيين فترة من الوقت يجري في أثنائها تعليمهم، واختبار سيرتهم، والتّيقن من صدق رغبتهم في قبول الإيمان. ولقد امتدت هذه الفترة إلى ثلاث سنوات. وقد عُرف هؤلاء باسم "**الموعوظين**".

ولما سمحت الكنيسة لهم بدخول القسم الأوّل من القدّاس الإلهي وهو قدّاس الكلمة عُرفوا باسم "**السّامعين**"، أي الذين يحق لهم سماع الكُتُب المقدّسة في الكنيسة.

وإلى جانب هؤلاء كان هناك صنف آخر هم المؤمنين الذين كانوا

يخضعون لتأديب كنسي لإثم اقترفوه، فكانت توقَع عليهم عقوبة كنسيَّة، وهؤلاء عُرفوا باسم "التَّائبين"، وكانوا يحضرون فصول القراءات في قدّاس الكَلمة فقط، ولا يشتركون في قدّاس الإفخارستيّا لفترة من الوقت بحسب نوع العقوبة الموقّعة عليهم ومدَّها.

وإلى جانب هؤلاء كان هناك صنف آخر هم "**الذين بهم الأرواح الشِّريرة**"، وكان يُسمح لهم بحضور قدّاس الكَلمة فقط، ويُمنعون في الغالب من حضور قدّاس الإفخارستيّا صوناً للقربان المقدَّس من أن يلحق به إهانة بسببهم.

أمّا قدّاس الكَلمة فقد كان سابقاً على ظهور كل هذه الفئات التي ظهرت في الكنيسة، والذين سُمح لهم بالاشتراك فيه، ثم خروجهم قبل بدء قدّاس الإفخارستيّا. وتشهد مؤلّفات القدماء[١٠] منذ أواخر القرن الثاني الميلادي، بالإضافة إلى قوانين المجامع[١١]، إلى الموعوظين والسَّامعين والتَّائبين والذين بهم الأرواح الشِّريرة أنه لم يكن يؤذن لهم بحضور القدَّاس الإلهي.

وفي منتصف القرن الخامس تقريباً ظهر بعض التَّراخي على حفظ الأحكام المتعلّقة بالموعوظين، وكان عدد هؤلاء قد قلّ كثيراً بعد أن تحوّلت الإمبراطوريّة الرُّومانيّة إلى الدِّيانة المسيحيّة. وكان من بين الأمور التي أنهت على فئة التَّائبين في الكنيسة القرار الذي أصدره نكتاريوس

١٠- مثل العلاّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) في مقالته de paescriptione ف ٤١ ؛ والقدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في رسالته إلى أمفيلوخيوس ؛ والقدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في شرح إنجيل متى ؛ والقدّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) في رسالته إلى أخته مرفلينه ؛ وغيرهم كثيرون.

١١- مجمع نيقية في القوانين ١١-١٤ ؛ أنقره في القوانين ٤-٩ ؛ أنطاكية في القانون ٢ ؛ اللاذقيَّة في القانون ١٩ .

بطريرك القسطنطينيَّة سنة ٣٩٠م بمنع الاعتراف العلني في الكنيسة[١٢]. ولكن مع ذلك فقد ظلّت هذه الفئات المذكورة سابقًا محفوظة في بعض الجهات في القرن الخامس والسّادس للميلاد، ومن بينها الكنيسة القبطيَّة[١٣] والكنيسة السّريانيَّة الأنطاكيَّة[١٤].

وفي هذه الفترة من تاريخ الكنيسة ظهرت الصّلوات اللّيتورجيَّة في الكنيسة التي تخدم هذه الفئات[١٥]. ومع اندثارها ظلّت الصّلوات اللّيتورجيَّة باقية في الكنائس على ما هي عليه تشهد على فترة أساسيَّة من تاريخ الكنيسة الجامعة.

إذًا نعود ونكرِّر أن قدّاس الكلمة كان أقدم من النُّصوص اللّيتورجيَّة التي لحقت به في فترة من تاريخ الكنيسة، واستمر معظمها كما هي عليه حتى بعد انتهاء هذه الفترة التّاريخيَّة أو اللّيتورجيَّة من الكنيسة. وما يؤكِّد أن حضور المؤمنين كان إلزامياً في قدّاس الكلمة، بل ويحتلُّون الصُّفوف الأولى في الكنيسة، هو ما سبق أن ذكرته من مردَّات للشمّاس في الطقوس المختلفة التي تُلزم غير المستعدين للتّناول بالخروج من الكنيسة، مما يعني أن النِّداء يوجَّه إلى جموع الشّعب الذين من بينهم من يبقون للاشتراك في قدّاس الإفخارستيّا والتّناول من الأسرار المقدّسة. ثم أن

١٢- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٢٥

١٣- كما في القانون رقم (٢٥) من قوانين البابا أثناسيوس، وهي القوانين التي دُونت في أواخر القرن الخامس الميلادي: "إذا دخل واحد بغير حشمة يعزله (القسوس) مع الموعوظين".

١٤- كما في بعض الأجوبة القانونيَّة التي أعطاها بعض الأساقفة السُّريان الأنطاكيين نحو سنة ٥٣٨م لبعض رؤساء الأديرة. وقد ورد فيها ذكر الصّلاة على الموعوظين والصّلاة على التائبين.

انظر: البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٢٦

١٥- كما سأشرحُ في الفصل القادم مباشرة.

الكتاب الثّامن من المراسيم الرّسوليّة الذي دُوّن في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الميلادي يشرح لنا كيفيّة تسريح كل فئة من الفئات المذكورة، ومباركة الأسقف لكل منها قبل مغادرة الكنيسة، وذلك قبل أن يعلن الشمّاس النّداء بغلق الأبواب، ثم يقول مخاطباً المؤمنين: "قبّلوا بعضكم بعضاً ...".

ارتباط القراءات بالإفخارستيّا في تعليم آباء الكنيسة

إن علاقة الأسفار المقدّسة وكلمة الإنجيل بالإفخارستيّا علاقة أساسيّة جداً، إذ يتّضح من تسجيلات القرون المبكّرة أن القراءات والوعظ والتّعليم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذبيحة الإفخارستيّا.

فنقرأ في الدّيداخي أي تعليم الرُّسُل وهي من مدوّنات أواخر القرن الأوّل الميلادي، ما يوضّح الأثر الذي انطبق على الإفخارستيّا من القراءة والتّعليم هكذا: "نشكرك أيها الآب القدّوس، من أجل اسمك القدّوس الذي أسكنته في قلوبنا. ومن أجل المعرفة والإيمان والخلود التي عرّفتنا بها بواسطة يسوع فتاك. لك المجد إلى الآباد" (ديداخي ١٠:٢).

أما الكلام الذي قاله القدّيس يوستينوس الشّهيد (١٠٠-١٦٥م) بخصوص الاحتفال الإفخارستي، فقد أشار فيه بكل وضوح إلى فصول القراءات الكتابيّة من العهد القديم والرّسائل والأناجيل، والعظة التي تعقب ذلك، ثم يقول إنه إذا فرغت القراءة تُقدّم ثلاث طلبات أو صلوات من أجل مقدّمي القرابين الحاضرين والغائبين، ومن أجل الذين استناروا حديثاً، ومن أجل الآخرين في كل مكان. ثم تتبادل الجماعة القُبلة المقدّسة. و لم يأت الشّهيد يوستينوس بأي إشارة تشير إلى رتبة الموعوظين ومن سواهم من الذين ينبغي لهم أن يخرجوا من الكنيسة قبل

بدء صلاة الإفخارستيّا.

وهذه نقطة مهمَّة نعرف منها أنه حتى منتصف القرن الثّاني الميلادي تقريباً كانت خدمة القراءات أو قدّاس الكلمة عنصراً رئيسياً في الاحتفال الإفخارستي قبل ظهور رتبة الموعوظين، كرتبة واضحة المعالم في الكنيسة. ونعرف منها أيضاً أن رتبة المستنيرين أي المعمّدين حديثاً كانت أسبق في الظهور في الكنيسة في رتبة الموعوظين. وهكذا نتيقن أن معرفة تاريخ الطّقس ودراسته أمر يعود بفائدة روحيَّة قبل فائدته العلميَّة أو المعرفيَّة. فالمؤمنون أولى بحضور فصول القراءات والعظة من الموعوظين أنفسهم.

ويقول العلاّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م):

[إن الخبز يتقدَّس بكلمة الله والصَّلاة].

فواضح هنا أن تقديس القرابين يتم بكلمة الله مع الصَّلاة. ولم يأت العلاّمة أوريجانوس بشيء خارجاً عن الإنجيل المقدَّس الذي يقول: «لأن كل خليقة الله جيِّدة ولا يُرفض شيء إذا أُخذ مع الشُّكر، لأنه يقدَّس بكلمة الله والصَّلاة» (١تيموثاوس ٤:٥).

ويقول العلاّمة أوريجانوس أيضاً:

[في قدّاس الموعوظين تُخطب النَّفس للرَّب يسوع، وفي قدّاس المؤمنين تدخل النَّفس في رباط الزِّيجة معه].

ولعل القدّيس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م) قد قدّم لنا في عبارة موجزة أهميَّة القراءات الكتابيَّة لذبيحة الإفخارستيّا، إذ يجعل طقس القراءة والوعظ والتَّعليم قبل تقديم الإفخارستيّا أمراً جوهرياً بالدَّرجة الأولى، فيقول:

[وهكذا إذا قدّمت الكنيسة ذبيحتها **بفكر واحد متّحد**، فإن تقدمتها تُحسب بحق أنها طاهرة أمام الله] (ضد الهراطقة ٤:١٨).

هذا الفكر الواحد المتّحد الذي يعلّم به القدّيس إيريناؤس هو ما تفعله القراءات في سامعيها. فهي في كل مرّة تدور حول فكر واحد اجتمعت الكنيسة كلها كي تصلّي من أجله. ومن هنا يظهر لنا أهمّيّة حضور الشّعب للقراءات الكنسيّة، والإصغاء الواعي إليها، ليس بوعي العقل فقط، بل بانتباهة القلب أيضاً، فهذا هو المدخل الإنجيلي والآبائي للاشتراك في الذّبيحة المقدّسة.

إن هذه العقيدة تأخذ أصولها وأسبابها مباشرة من قول الرّب لتلاميذه قبل التّناول من العشاء السّرّي الأخير: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يوحنا ٣:١٥). فقد قدّم الرّب جسده ودمه الكريمين لتلاميذه بعد أن انتهى لتوّه من تعاليمه وأقواله، تلك التي اعتبرها الرّب كعمليّة تطهير أساسيّة للذّهن والقلب. فهذا هو المفهوم الرُّوحي للتّطهير الدّاخلي أي القلبي والذّهني «تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رومية ٢:١٢). وهذا يكمل الاتحاد بين الله وشعبه، أولاً بكلمته، ثم بجسده ودمه. وهكذا فعل موسى منذ القديم عندما قرأ كتاب العهد على الشّعب ثم رش الشّعب بالدّم.

وهذا هو ما يقوله الأنبا ساويرس ابن المقفع (تنيّح بعد سنة ٩٨٧م)، حيث يقول:

[ثم يُأمر ببطالة المعيشة الدنياوية يوم الأحد إلّا لكي يتفرغ الإنسان لقراءة الكُتُب المقدّسة التي هي المعيشة الرُّوحانيّة، ويجاهد عليها بغير كسل، ويتحايل في طلبها كما يفعل في المعيشة الدنياوية، لأن قراءة كتب الله تطهر النّفس والجسد

وتنقيهما من الخطيئة كما يقول ربنا يسوع المسيح لتلاميذه في الإنجيل المقدّس][١٦].

ويتكلّم البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) عن علاقة قدّاس الكلمة بقدّاس الذّبيحة فيقول:

[نحن نغتذي بكلمات الحق ونشترك في تعاليمه الحيّة حتى نستطيع بعد ذلك أن نتقبّل أفراح السّماء، لأنه كما دعا تلاميذه إلى العليّة، هكذا يدعونا "الكلمة" معهم إلى الوليمة السّمائيّة غير الفاسدة] (مقولة ١٨).

لقد شبّه الرّب النّفس بأرض تُلقى عليها بذار الكلمة. وحين تغتذي تلك الأرض بجسد الرّب وترتوي بدمه متواتراً تنمو البذار وتثمر ثمراً للحياة الأبديّة، نقاوة وروحاً وحياة وميراثاً لملكوت لا يزول.

وكل من يثبت في الكلمة يثبت في الله كقول يوحنا الحبيب: «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذاً فيكم. إن ثبت فيكم ما سمعتموه من البدء فأنتم أيضاً تثبتون في الابن وفي الآب» (١يوحنا ٢:٢٤).

وها الكنيسة تقدّم لنا الكلمة مسموعة كل يوم، وتقدّم لنا المسيح مذبوحاً على المذبح كل يوم، ذبيحة غير دمويّة، وناطقة بسر لا يعبّر عنه.

أما الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين في القرن العاشر فيتكلّم بلهجة شديدة كانت لازمة في زمانه بسبب التّدهور الرّوحي الذي أصاب الكنيسة آنئذ فيقول:

[... كذلك كل من لا يحضر تلاوة الكُتُب والقُربان ينال

١٦- الأنبا ساويرس ابن المقفع، الدُّر الثّمين في إيضاح الدّين، مرجع سابق، ص ١٣١

العقوبة العظيمة، لأن بدلاً من أن يقدِّس المسيح ينجِّسه، لأنه يتناول بنفس نجسه وجسد نجس. ولذلك فإن الكُتُب والقدَّاس جُعلت قبل القُربان لتقدِّس نفس المؤمن وجسده وتطهِّره. وبعد ذلك يستحق القُربان](١٧).

ومن قوانين البابا غبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) نقرأ في القانون الثَّاني له(١٨): "لا يقدَّس قدَّاس إلاَّ بعد أن تُقرأ (فصول الأبسطلس والكاثوليكون والإبركسيس والإنجيل المختصَّة بذلك اليوم إن وُجدت الكُتُب، وإن لم توجد فيُقرأ ما عُيِن من فصول هذه الكُتُب جميعها".

لقد كان حضور القراءات الكنسيَّة ضرورة للسَّماح بتناول القربان المقدَّس في نهاية القدَّاس، حتى أن ابن كبر (+ ١٣٢٤م) يذكر أمراً عجيباً في هذا الخصوص، ولنسمعه يقول:

"وقد يتَّفق أن يحضر إلى الكنيسة بعد توسُّط القدَّاس من كان قد أعاقته ضرورة، أو حضر من مكان بعيد، فيُقرأ له إنجيل ثان آخر القدَّاس، ويقرَّب، ولاسيَّما في الأعياد السَّيديَّة الكبار. أما إذا تأخَّر إلى أن يبتدئوا بالقُربان فلا يقرِّبه الكاهن متى علم به لأنه لم يحضر القدَّاس ولا سمع ما يُتلى من الفصول ولا تأهَّب لتناول السَّرائر حق التأهُّب".

إذاً بحسب طقس الكنيسة، فإن الإصغاء إلى القراءات الكنسيَّة مؤهِّل للتَّناول من الأسرار المقدَّسة. هذا هو الرِّباط بين الكَّلمة والإفخارستيَّا.

وفي الكنيسة اليونانيَّة تعرَّضت أوشيَّة الموعوظين لمحاولة حذفها من الصَّلوات اللِّيتورجيَّة، بعد أن تلاشت طغمة الموعوظين من الكنيسة منذ

---

١٧ ـ الأنبا ساويرس ابن المقفع، الدُّر الثمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١١١، ١٢٩.
١٨- من مجموعة العشر قوانين المختصَّة به، أي من كتابه الثاني في القوانين.

زمنٍ بعيد. فقد كتب أحد الكهنة من الكنيسة البيزنطيَّة حول هذا الموضوع يقول: تتلو الكنيسة إفشيناً (صلاة) وطلبة لأشخاص لم يعودوا أعضاء في الكنيسة، ولا نعلم من عليه مغادرة الجماعة عندما يعلن الشمّاس: يا جميع الموعوظين اخرجوا. فليس هناك موعوظون في الكنيسة. ولهذا السّبب لم تتردّد الكنيسة اليونانيَّة في إسقاط هذه الطلبة. وحتى في روسيا رحّب عدد من كبار رجال الإكليروس في أثناء التّحضير لمجمع الكنيسة في موسكو قبل الثّورة البلشفيَّة سنة ١٩١٧م بإسقاط هذه الطلبة نظراً لأن هذا القسم من القدّاس الإلهي لم يعد يتوجّه إلى أحد في الكنيسة. وكان هذا التّبرير هو ما حَمَل الأب كبريانوس على القول: "أقل ما يقال عن تفكير غالبية المحافظين الذين يدّعون - من باب التّواضع - إلى أن نطبّق على أنفسنا طلبات الموعوظين وكل ما يقال عنهم، وإلى أن نتشبّه بهم، هو أنه تفكير يفتقر إلى المنطق"(١٩).

ويعقب الأب ألكسندر شميمان على ذلك بقوله: لا يُعقل أن تكون الكنيسة قد خصّت الموعوظين من باب الصُّدفة بمكانة هي من الأهميَّة بحيث سمّت كل القسم الأوّل من الاجتماع الإفخارستي باسم "قدّاس الموعوظين". لأن ذلك يشير إلى المرمى العميق لهذا القسم، ويكشف لنا جوهر طابعه، حتى صار من غير المقبول حذفه أو شطبه دون أن يترتّب على ذلك عواقب وخيمة تضر بالغاية الأساسيَّة من القدّاس الإلهي برمّته. فقداس الموعوظين هو قسم جوهري من ترتيب القدّاس الإلهي نفسه.

فالصّلاة من أجل الموعوظين هي قبل كل شئ تعبير ليتورجي عن الرِّسالة الأساسيَّة للكنيسة وأعني بها البشارة. فلا يمكن للمسيحيّين أن يكفوا عن البشارة من دون أن يعني ذلك تنكُّراً لطبيعتهم كمبشرين،

١٩- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ١٢٤

وتنصُلاً من رسالتهم. من الأكيد تاريخياً أن هذه الصَّلوات أُدخلت عندما كانت الكنيسة تضم موعوظين، ولكن أيضاً عندما كانت منعطفة على العالم لهدايته إلى المسيح، وعندما كانت ترى في العالم غاية رسالتها وموضوعها. ثم تغيّرت الظروف وبدا أن العالم اهتدى إلى المسيح. ولكن إذا نظرنا إلى عالمنا اليوم، ألا نرى أننا نعيش في عالم نأى عن المسيحيَّة، بل لم يسمع عن المسيح قط؟. أفلا يعني ذلك بالتّالي أن البشارة باتت مجدَّداً محوراً لرسالة الكنيسة؟، وألا يعني ذلك أن الجماعة تخطئ حين ترفض البشارة كخدمة أساسيَّة للكنيسة في هذا العالم؟.

ومن هنا وبناء على ما تقدَّم، من المهم في زماننا هذا أن نبقي على البنية اللّيتورجيَّة التي تجمع بين البشارة وثمرها، أي بين "قدّاس الموعوظين" و"قدّاس المؤمنين"[٢٠].

تأثير كنيسة الإسكندريَّة على اختيار القراءات في الكنائس الأخرى

لدينا شواهد قديمة عن اختيار لقراءات كتابيَّة معيَّنه في فترات زمنيَّة محدَّدة. ففي العصور المبكّرة للمسيحيَّة كانت تُقرأ فصول من الأنبياء في الفترة ما بين عيدي الإيفانيا، وعيد الفصح في كنيسة روما، وهذه الفترة تُدعى septuagesima وهي كلمة لاتينيَّة تعني "فترة السّبعين يوماً" أي سبعين يوماً قبل عيد الفصح، وهي تبدأ من الأحد الثّالث قبل بدء الصَّوم المقدَّس الكبير أي الأحد التّاسع قبل عيد الفصح. وقد أُلغي هذا النِّظام في كنيسة روما منذ سنة ١٩٦٩م[٢١].

٢٠- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٢٦،١٢٧

21- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 117, 119.

وفي جبل سيناء كانت قراءة كتاب المزامير تُقسَّم إلى ثلاثة أقسام، كل قسم منها تتبعه قراءة طويلة من الرَّسائل الجامعة. ولقد عرفنا أيضاً من أديرة القدِّيس باخوميوس في مصر أنه كان يُقرأ في السَّهَر اللَّيلي اثني عشر مزموراً يتبعها فصل من العهد القديم، وآخر من الأبوسطوليكون Apostolikon (أي من سفر الأعمال والرَّسائل الجامعة وسفر الرؤيا)، باستثناء أيام السبوت والآحاد وخلال الخمسين يوماً المقدَّسة، حيث كانت القراءتان تؤخذان من العهد الجديد فقط. وهذه القراءة المزدوجة بحسب طقس القدِّيس باخوميوس قد انتقلت بعد ذلك إلى طقس أسبانيا عند الغوط الغربيِّين visigothic في الطَّقس الاحتفال اللَّيلي لأيام الآحاد[٢٢]، وفي خدمة اللَّيل في بعض المناسبات الأخرى.

أما طقس الغال (فرنسا) فقد أُضيفت عليه قراءة ثالثة أُخذت من الأناجيل[٢٣]. أما القراءة الواحدة من الرَّسائل في خدمة نصف اللَّيل في الطَّقس الموزارابي فهي شكل مختصر للممارسة القديمة ذات القراءتين. كما أن هناك قراءة لفصل كتابي واحد في نهاية خدمة السَّحَر Matins لنفس هذا الطَّقس الأخير، إما من العهد القديم أو من سفر الرؤيا. أما طقس روما فنجد أن القراءتين المعروفتين في طقس باخوميوس قد اختُصرت إلى قراءة واحدة من العهد القديم عموماً حيث تُقسَّم هذه القراءة إلى ثلاثة أقسام. أما في أيام الخمسين Easter Tide فهناك قراءة من سفر الأعمال وأخرى من سفر الرؤيا.

إذاً نخلص إلى نقطتين أساسيَّتين هما: أن التَّأثير الرَّهباني على اللِّيتورجيَّة في كنيسة الإسكندريَّة كان واضحاً لاسيَّما من جهة القراءات

22- Ordo ad celebrandos Nocturnos of sundays
23- PL. 67, C. 1103.

الكتابيَّة. وأن التأثير اللّيتورجي لكنيسة الإسكندريَّة من جهة القراءات الكنسيَّة قد انتقل منها إلى الشَّرق والغرب في فلسطين وسوريا وأسبانيا وبلاد الغال وروما.

الكُتُب القانونيَّة المسموح بقراءتها في الكنيسة

منذ البداية وضعت الكنيسة قوانين تحدِّد أسماء الكُتُب القانونيَّة المسموح بقراءتها في الخدمة اللّيتورجيَّة دون غيرها من الكُتُب الكثيرة التي شاع استخدامها عند الهراطقة والخارجين عن الكنيسة.

فقد ظهر في القرون المسيحيَّة الأولى عدَّة كتب وضعها المبتدعون ونسبوها زوراً إلى مؤلِّفين مشهودٌ لهم بحسن العبادة والقداسة تضليلاً للبسطاء، ومنها الإنجيل المنسوب إلى الرَّسول توما، وقد وضعه أصحاب بدعة ماني. وأيضاً رؤيا إبراهيم واسحق ويعقوب، ورؤيا والدة الإله، ورؤيا آدم، ورؤيا لامك، وصلاة يوسف الكُلي الحُسن، ورؤيا وعهد موسى، ومزامير لداود وسليمان، ورؤيا صفنيا، وكتاب عزرا الثالث، ورؤيا بولس، والإنجيل السّابع، وإنجيل فيلبس، وإنجيل طفولة المسيح، وأعمال أندراوس وغيرها.

وهناك كتب شوهها المبتدعون بالتَّحريف والتَّزوير، ككتاب المراسيم الرَّسوليَّة كما نقلها أقليمس، ولهذا السَّبب رفضها مجمع ترولو سنة ٦٩٢م في قانونه الثاني[٢٤]. وأيضاً كتب منسوبة إلى إيليا وإرميا وأخنوخ وغيرهم من البطاركة، وقد كانت على ما يبدو خالية من التَّحريف في

٢٤- شرحنا هذا الأمر وملابساته في كتاب "المراسيم الرَّسوليَّة، دراسة موجزة - نص الكتاب الثامن"، ويمكن الرُّجوع إليه لمن يرغب.

عهد الرُّسُل، ولذلك فقد استشهد القدِّيس بولس الرَّسول بقول منسوب في كتاب إيليا: «ولكن كما كُتب ما لم تره عين ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه» (١كورنثوس ٢:٦). وقد أثبت ذلك الأمر بالبُرهان الأرشيدياكون غريغوريوس الذي خدم مع البطريرك طاراسيوس وهو عم (أو خال) البطريرك العلاَّمة فوتيوس. وقد تبعه هذا الأخير في رأيه، لأن هذه الآية لم توجد في كُتب العهد القديم بالحروف التي رواها بها الرَّسول بولس.

ويقول الأرشيدياكون غريغوريوس المذكور سابقاً ويوافقه البطريرك العلاَّمة فوتيوس أن الرَّسول بولس قد استشهد أيضاً بآيات من كتاب إرميا غير القانوني، وذلك في رسالته إلى أفسس قائلاً: «... ولذلك يقول: استيقظ أيها النَّائم وقم من بين الأموات فيضيء لك المسيح» (أفسس ٥:١٤).

واستشهد القدِّيس الرَّسول يهوذا في رسالته الجامعة بنبوَّة أخنوخ، وهي من الكُتب غير القانونيَّة، قائلاً: «... وقد تنبأ عن هؤلاء أيضاً أخنوخ السَّابع من آدم حيث قال: هوذا الرَّب يأتي في ربوات قدِّيسيه ليجري القضاء على جميعهم ويعاقب جميع المنافقين منهم على أعمال نفاقهم التي نافقوا بها، وعلى جميع النِّفاقات التي نطق بها عليه أولئك الخطاة المنافقون» (يهوذا ١٥،١٤)[٢٥].

ومن أجل ذلك وحرصاً من الكنيسة على سلامة تعليمها ونقاوته بعد أن اندسَّ فيها أناس أرادوا أن يشوِّشوا نقاوة الإيمان وأصالته، وُضعت قوانين كنسيَّة تمنع قراءة أي كُتب في الكنيسة من غير الأسفار القانونيَّة للكتاب المقدَّس، والتي أقرَّتها الكنيسة.

٢٥- حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٨٦٣، ٨٦٤

ويورد الفصل الأخير من الكتاب الثّامن من مجموعة كتب المراسيم الرّسوليّة بياناً بالكُتُب القانونيّة التي تُقرأ في الكنيسة، وهذا البيان يقابل ما أورده قانون الرُّسُل بحسب التّقليد القبطي (٥٥:٢). فيقول كتاب المراسيم الرّسوليّة: "لتكن الكُتُب الآتية مكرّمة ومقدّسة عندكم جميعاً أنتم الإكليريكيين والعلمانيّين:

للعهد القديم: لموسى خمسة، ليشوع بن نون واحد، للقضاة واحد، لراعوث واحد، للملوك أربعة، سفرا أخبار الأيام اثنان، لعزرا اثنان[٢٦]، لأستير واحد، ليهوديت واحد، للمكابيين ثلاثة، لأيوب واحد، كتاب المزامير مائة وواحد وخمسون، كتب سليمان خمسة، للأنبياء ستة عشر. عدا هذه نوصيكم أن تعلّموا أحداثكم حكمة سيراخ الواسع الإطلاع.

أما كتبنا، أي كتب العهد الجديد فهي: الأناجيل الأربعة كما سبق أن قلنا، لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا، رسائل بولس أربع عشرة رسالة، ليعقوب واحدة، ليوحنا ثلاث، ليهوذا واحدة، لبطرس اثنتان، لكليمندس اثنان، وأوامري لكم أيها الأساقفة بواسطتي أنا كليمندس في ثمانية كتب. هذه التي لا يوافق إشهارها للجميع لما تحويه من الأسرار. وأعمالنا نحن الرُّسُل" (المراسيم الرّسوليّة ٨:٨٥).

ولقد اعتبر البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) أن أسفار العهد القديم هي ٢٢ سفراً بعدد حروف الهجاء العبريّة وهي أسفار العهد القديم التي بين أيدينا. أمّا غيرها من الأسفار والسّابق ذكرها منذ قليل فيدعوها كتبا تفيد قراءتها.

وإن مجمع قرطاجنه سنة ٤١٩م والمعروفة قوانينه باسم "مجموعة

٢٦- وهما سفرا عزرا ونحميا.

القوانين الأفريقيّة"، يحدّد في قانونه الرّابع والعشرين أنه لا يُسمح بقراءة أيّ كتاب في الكنيسة باسم الكتُب الإلهيّة إلاّ الكتُب القانونيّة للعهدين القديم والجديد. ثم أورد بياناً بأسماء أسفار العهدين، وأضاف إلى أسفار العهد القديم "طوبيت، يهوديت، أستير، وسفرا المكابيين".

وفي أواخر القرن الخامس أو السّادس للميلاد نقرأ في قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريّة ما يلي: "القارئ لا يقرأ شيئاً إلاّ من الكلام الجامع لئلاّ يستهزئ الشّعب بالكلام الذي للكتُب المنسوخة، هذه التي ليست من أنفاس الله بل من العالم" (القانون ١١).

مقارنة بين القراءات الكتابيّة في الطّقوس الشّرقيّة المختلفة

يشير كتاب قوانين الرُّسُل في القرن الرّابع الميلادي إلى أن التّرتيب الثّلاثي (الأنبياء – الرّسائل - الإنجيل) هو التّرتيب المتّبع لدى الكنائس.

أمّا الكتاب الثّامن من المراسيم الرّسوليّة (النّصف الثّاني من القرن الرّابع) فيورد ما تحويه ليتورجيّة الكلمة من قراءات ووعظ كما يلي: "وبعد قراءة النّاموس والأنبياء ورسائلنا والأعمال والأناجيل، فليعط الأسقف المقسوم السّلام لكل الكنيسة قائلاً: نعمة ربّنا يسوع المسيح، ومحبّة الله الآب، وشركة الرُّوح القُدُس، تكون مع جميعكم[٢٧]. فيجيب الكل: ومع روحك. وبعد السّلام يخاطب الشّعب بكلمات عزاء" (٨:٥:١١، ١٢).

ولاحظ هنا تسلسل قراءات أسفار العهد الجديد أنه هو نفسه ما تمارسه الكنيسة القبطيّة حتى اليوم، أي قراءة "الرّسائل – الأعمال –

---

٢٧ – ٢كورنثوس ١٣:١٣

الإنجيل"، وهي تنفرد بذلك الطّقس السّحيق في القدم وإن كانت قراءة أسفار العهد القديم قد سقطت من ليتورجيّتها[٢٨].

أما ترتيب القراءات الكتابيّة في الطُّقوس الشّرقيّة فيأتي على النّحو التّالي:

(١) **الطّقس القبطي:** ويتبعه الإثيوبي، أربعة قراءات؛ (رسائل بولس الرّسول - رسائل الكاثوليكون - أعمال الرُّسُل - الإنجيل).

(٢) **الطّقس السّرياني الغربي (الأنطاكي):** ست قراءات؛ ثلاث من العهد القديم (الشّريعة - الأنبياء - الأمثال)، وثلاث من العهد الجديد (أعمال الرُّسُل - الرّسائل - الإنجيل).

(٣) **الطقس السّرياني الشّرقي (الآشوري أو النّسطوري):** أربع قراءات؛ اثنتان من العهد القديم (الشّريعة - النُّبوات)، واثنتان من العهد الجديد (الرّسائل - الإنجيل).

(٤) **طقس قيصريّة:** ثلاث قراءات (الأنبياء - الرّسائل - الإنجيل).

(٥) **الطّقس البيزنطي:** ثلاث قراءات (الأنبياء - الرّسائل - الإنجيل). ومنذ القرن التّاسع الميلادي حُذفت قراءة الأنبياء في القدّاس الإلهي.

(٦) **الطّقس الأرمني:** ثلاث قراءات (الأنبياء - رسائل بولس الرّسول - الإنجيل).

(٧) **كنيسة أورشليم:** ثلاث قراءات (الأنبياء - الرّسائل - الإنجيل).

(٨) **الطّقس الجيورجي:** ثلاث قراءات (الأنبياء - الرّسائل - الإنجيل).

ومما سبق يتّضح أن الكنيسة القبطيّة هي الكنيسة الوحيدة بين الكنائس الشّرقيّة التي تفرد قراءة مستقلّة للقدّيس بولس الرّسول في كل

٢٨- انظر: البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ٢١٦

قدَّاس عدا رسائل الكاثوليكون وسفر الأعمال. أما الكنيسة المارونيَّة فلا يُتلى في قدَّاسها الآن سوى جزء من رسائل بولس الرَّسول وجزء من الإنجيل المقدَّس.

أما الكنيسة الرُّومانيَّة فكانت تقرأ في القديم فصولاً من العهد القديم، أما اليوم فإنها تقرأ إمَّا رسالة من رسائل بولس الرَّسول، أو رسالة من الكاثوليكون أو رسالة من سفر الأعمال[٢٩].

ويظن بعض علماء اللِّيتورجيَّا مثل العالم كاسبار Caspar René Gregory أن نشأة القراءات اللِّيتورجيَّة في الكنيسة اليونانيَّة كانت على ثلاث مراحل، الآحاد أولاً، ثمَّ السُّبوت ثانياً، ثمَّ بقيَّة أيام الأسبوع[٣٠].

استقلاليَّة قراءات السُّبوت والآحاد عن باقي أيام الأسبوع[٣١]

من المعروف أن القطمارس القبطي الحالي ينقسم إلى قطمارس لقراءات فصول الآحاد، وقطمارس لقراءات فصول الأيام بما فيها السُّبوت. ولكن لم يكن الأمر هكذا في كنيسة الإسكندريَّة منذ الابتداء. فالقدَّاسات في الكنيسة القبطيَّة منذ البداية كانت تُقام كل سبت وأحد من كل أسبوع، والخدمة الكنسيَّة التي كانت تُمارس في هذين اليومين كانت متوافقة. ومن ثمَّ فقد كان هناك قطمارس مختص بقراءات فصول السُّبوت والآحاد معاً، حيث كانت قراءات السُّبوت تسبق مباشرة قراءات

٢٩- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثَّاني، مرجع سابق، ص ٢١٦

30- Ugo Zanetti, *Les lectionnaires coptes annuels, basse Egypte*, Louvain, 1985, p. 235.

٣١- عرضت لجانب من هذا الموضوع في كتاب "صوم نينوى والصَّوم المقدَّس الكبير".

الآحاد وتتبع تماماً نفس نظامها، بل وتكمّل أيضاً مضمونها. وهذا ما تطلعنا عليه المخطوطات القبطيّة الكثيرة المحفوظة في مكتبات ومتاحف العالم.

وبرغم أنه من غير الممكن تقديم حصر شامل بكل الشّواهد الّتي تؤكّد ارتباط قراءات السُّبوت بقراءات الآحاد، فقد فحص الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti عدد ٢٤٦ مخطوطاً لقراءات السُّبوت والآحاد في مختلف مكتبات العالم، بالإضافة إلى ٢٢ مخطوطاً أخرى لم تُفحص بدقّة كسابقتها، لكي يشرح هذا الموضوع[٣٢].

وتنحصر قراءات السُّبوت والآحاد في أربعين أسبوعاً من السّنة اللّيتورجيّة القبطيّة، وهي أربعة وعشرون أسبوعاً للسّتة شهور الأولى – من توت إلى أمشير – ثمّ اثني عشر أسبوعاً للثّلاثة شهور الأخيرة - بؤونه، وأبيب ومسرى - ثم أسبوعان من شهر بشنس، وأسبوع من الشّهر الصّغير – النسيء – فيكون المجموع تسعة وثلاثون أسبوعاً، ثم الأحد الخامس من الشّهر القبطي إن وُجد. فيكون المجموع أربعون أسبوعاً على مدار السّنة اللّيتورجيّة القبطيّة. أمّا باقي أسابيع شهور مسرى وبرمهات وبرمودة والأسبوعان الأوّل والثّاني من شهر بشنس فهي تقع في فترة الصّوم المقدّس الكبير أو في فترة الخمسين المقدّسة.

ولقد أوضح القُمُّص يعقوب مويزر Jacob Muyser أن السُّبوت كانت تُكرّم بوجه خاص في الكنيسة القبطيّة حيث كانت تُقام فيها خدمة الإفخارستيّا[٣٣]. بالإضافة إلى ما ذكره إيفلين وايت Evelyn-Wihte عن احتفال إسقيط مصر بإقامة الإفخارستيّا في السُّبوت

32- Ugo Zanetti, *op. cit.*, p. 235.

33- Hig. J. Muyser, *Les samedi et dimanche dans l'eglise et la literature coptes*, dans Togo Mina, Le martyre d'Apa Epima, Le Caire, 1937, p. 89-111.

والآحاد[٣٤]. وأيضاً الدّراسة التي قام بها موسنا Mosna في هذا الموضوع، ولاسيّما في القرون الأولى للمسيحيّة.

ولأننا نحصر حديثنا الآن عن المخطوطات التي تحوي فصول قراءات للسبوت والآحاد في الوجه البحري في مصر، فسوف لا نبحث الموضوع من أصوله الأولى، لأنه في الحقيقة لا يوجد بين المخطوطات القبطيّة البحيريّة التي قام بدراستها الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti مخطوط يسبق سنة ١٠٠٠م ولكننا في المقابل سنحاول إلقاء بعض الضّوء على الفترة التي اختفى فيها الاحتفال بإقامة الإفخارستيّا في السّبوت في كنيسة مصر[٣٥].

وبادئ ذي بدء يلزم أن نشير إلى أنه منذ نهاية القرن الثّاني الميلادي نجد تبايناً واضحاً في ذكر الأيام من الأسبوع التي تقام فيها القدّاسات في الكنيسة الجامعة. فعلى سبيل المثال فإن القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، والقدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، والقدّيس إبيفانيوس (٣١٥-٤٠٣م) أسقف قبرص لم يكونوا يعرفون احتفالاً بالإفخارستيّا خارجاً عن الأعياد والسّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة.

ويشرح القدّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) أن الاشتراك في جسد الرّب ودمه كانت تمارسه بعض الكنائس يومياً، والبعض الآخر في أيام ثابتة من الأسبوع. فبينما لا يمر يوم بدون الاحتفال به في بعض الجهات، فإن جهات أخرى لا تحتفل به سوى في السّبوت والآحاد، وفي أماكن غيرها في الآحاد فقط. وفي النهاية ينصح القدّيس أغسطينوس بإتباع عادة المكان الذي يتواجد فيه الإنسان، وهي ذات النّصيحة التي أسداها من قبل

34- H.G. Evelyn-Wihte, *The monasteries of the Wadi 'n Natrun*, 3vol., New York, p. 1926-1933.

35- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 134, 135.

القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) للقدِّيسة مونيكا أم القدِّيس أغسطينوس.

وأما عن كنيسة الإسكندريَّة، فينقل الأب أوجو زانيتي Ugo Zanetti قول العالم موسنا Mosna الذي يقول: إنه كان هناك نظامان مختلفان عن بعضهما البعض للاحتفال بالإفخارستيَّا في مصر، وهما نظام مدينة الإسكندريَّة وبعض المناطق المجاورة لها، ونظام باقي كل بلاد مصر. فكانت الإسكندريَّة تحتفل بالإفخارستيَّا في يوم الأحد فقط، بينما باقي بلاد القطر كانت تحتفل بالإفخارستيَّا في يومي السَّبت والأحد(٣٦). ثم يسترسل الأب أوجو زانيتي Ugo Zanetti بقوله: ولعل قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة - التي أشارت إلى الاحتفال بالإفخارستيَّا في يومي السَّبت والأحد - كانت تتكلَّم عن كل بلاد مصر، ولا تركِّز الاهتمام على تلك المدينة الأسقفيَّة التي لم تكن تحتفل بالإفخارستيَّا في أيام السُّبوت(٣٧).

ويدعِّم الأب أوجو زانيتي Ugo Zanetti ما سبق ذكره فيقول: إننا نفاجأ بمفاجأة كبيرة حين لا نجد أي إشارة للاحتفال بإقامة الإفخارستيَّا يوم السَّبت في الكتابات القبطيَّة العربيَّة، حيث لا نجد لها أثراً عند ساويرس أسقف الأشمونين، ولا عند أبو البركات باستثناء الباب الثَّاني والعشرين من مؤلَّفه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" الذي يحوي قراءات فصول القطمارس حاوية فيها يوم السَّبت.

ولستُ أوافق على ما ذكره موسنا Mosna من قبل - ويؤيِّده فيه الأب أوجو زانيتي Ugo Zanetti - لأن الشَّواهد التَّاريخيَّة تؤكِّد غير ذلك. فإن الاحتفال الإفخارستي في مدينة الإسكندريَّة كان يتم في

36- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 135.
37- *Ibid.*

يومي السَّبت والأحد من كل أسبوع، وهو التَّقليد الذي ظلّ سارياً حتى أواخر القرن العاشر الميلادي على الأقل في زمن الأنبا ساويرس ابن المقفع (تنيَّح بعد سنة ٩٨٧م).

ففي زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) كان الاحتفال بإقامة الإفخارستيَّا يتم في يومي السَّبت والأحد، فيقول في ذلك: إننا نجتمع يوم السَّبت لا كأننا متأثرون بالسَّبت اليهودي، ولكن لكي نعبد يسوع رب السَّبت[٣٨]. ونفس الشئ نجده في زمن البابا تيموثاوس الأوَّل (٣٨٠-٣٨٥م) الذي يجيب عن سؤال وُجِّه إليه بقوله: "يتم التَّناول من الأسرار يومي السَّبت والأحد". وتؤكد تلك الحقيقة قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة التي وُضعت في أواخر القرن الخامس الميلادي، والتي تقول: "لا يكسل أحد من المسيحيِّين عن القدَّاسات في السَّبت والأحد"[٣٩].

وجدير بالذِّكر أنه في زمن القدِّيس أبنا مقار الكبير (٣٠٠-٣٩٠م) كانت ذبيحة قدَّاس السَّبت تُقام عند الغروب، ويعقبها سهر بطول اللَّيل، يُختم بإقامة القدَّاس في فجر يوم الأحد. وهو ما عُرف باسم "قانون مقاريوس". وبعد توقف عادة إقامة القدَّاس في غروب يوم السَّبت، ظل هذا اليوم يحتفظ في مسائه بصلاة رفع بخور عشيَّة، في حين لا يُقام في صباح هذا اليوم أي قدَّاسات.

إذاً فقد كانت عادة كنيسة الإسكندريَّة – أي الكنيسة البطريركيَّة – هي إقامة الإفخارستيَّا في السُّبوت والآحاد من كل أسبوع، وذلك على

٣٨- يذكر القانون رقم (٢٩) من قوانين مجمع اللاذقيَّة (٣٤١-٣٨١م): "لا ينقطع المسيحي عن العمل يوم السبت، بل بالحري في يوم الرب إذا استطاع تكريماً ليوم الرب".

٣٩- القانون رقم (٩٣).

عكس ما يقول موسنا Mosna . ولقد ظلّ هذا الأمر مستمراً حتى إلى زمن القدّيس أنبا ساويرس ابن المقفع (تنيّح بعد سنة ٩٨٧م)(٤٠) الذي يطلعنا بكل وضوح على أن إقامة القدّاسات في أيام السُّبوت في أيامه كان أمراً عاديا، ولاسيّما في سبوت الصّوم المقدّس الكبير. فيقول في ذلك:

"السّبت شبه يوم الأحد في البَركة والتّقديس. والواجب على الإنسان أن يجتهد في تناول القُربان فيه كل الأزمان مثل يوم الأحد، ولاسيّما في الصّوم الكبير الذي صامه ربنا عنّا، وذلك أن الله باركه وقدّسه قبل يوم الأحد. ونحن نفطر فيه في الصّوم الكبير على الأكل والشرب، ونفرح فيه، ونعيد مثل يوم الأحد، لأن الصّوم حزن والفطر فرح. فيوم السّبت يوم بركة وتقديس مع الزّمان، فيلزم جميع المؤمنين الرّجال والنساء أن يجتهدوا على تناول القربان فيه، وأن يحفظوا نفوسهم فيه مثل يوم الأحد"(٤١).

بل ويطلعنا الأنبا ساويرس ابن المقفع أن القدّاسات في أيامه تُقام كل يوم فيقول في ذلك: "... كما يلزم ذلك المؤمنين **كل يوم** أن يحضروا القدّاس ... الخ"(٤٢).

وإن كان ابن كبر (+ ١٣٢٤م) قد أورد في الباب الثّاني والعشرين

٤٠- في غضون القرن التّاسع الميلادي كان معظم المتعلّمين من الأقباط يتكلّمون ويكتبون اللّغة العربيّة، وهو ذات الوقت الذي بدأت فيه اللّغة القبطية تنحو نحو الاختفاء على الأقل في المدن.

Cf. Briger & Goehring, The Roots of Egyptian Christianity, p. 83.

وكان الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين هو أوّل من أدرك هذا الأمر، إذ يشكو في مؤلّفه "سيَر البيعة المقدّسة" أو "تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندريّة" أنه لم يعد أحد يفهم القبطيّة، ولذلك كتب كل مؤلّفاته الـ ٢٠ أو ٢٦ بالعربيّة.

٤١- أنبا ساويرس ابن المقفع، الدّر الثّمين في إيضاح الدّين، مدارس التربية الكنسيّة بكنيسة رئيس الملائكة الجليل ميخائيل بطوسون – شبرا، بدون تاريخ، ص ١٨٠

٤٢- نفس المرجع، ص ١٧٦

من كتابه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" قطمارس يحوي قـراءات السُّبوت والآحاد، إلاّ أن ذلك لا يعني أنه في العصور الوُسطى ظلّ إقامة القدّاس يوم السَّبت قائماً إلى جوار قدّاس يوم الأحد، لأنـه لا وجـود لإفخارستيَّة السَّبت عند كتّاب العصور الوُسطى مثل البابا غبريال بـن تريك (١١٣١-١١٤٥م)، والأنبا بطرس الجميل، والبابا كيرلس ابن لقلق (١٢٣٥- ١٢٤٣م)، ويوحنا ابن سباع، والبابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) . وحتى كتاب الطِّب الرُّوحاني لميخائيل الذي من مليج لم يورد أي إشارة خاصة بالاحتفال بالإفخارستيَّا يوم السَّبت(٤٣).

ويبقى مع ذلك نصّ أشار إليه القُمُّص يعقـوب مـويزر (١٨٩٦- ١٩٥٦م) أثار اعتراضاً حقيقياً، لأننا نقرأ في القوانين الـتي جُمعـت في منتصف القرن الثّالث عشر بواسطة الصَّفي ابن العسّال العبارة التّاليـة: "تُرفع الذّبيحة كل أسبوع في الأحد والأربعاء والجمعة والسَّبت وفي أيام الأعياد التي تقع في هذه الأيام".

والإجابة الوحيدة الممكنة في ذلك هي أن ابن العسّال قد نقل قوانين سابقة على زمانه. وهذا هو الحل الوحيد لتوضيح هذا التفرُّد الذي أورده هذا القانون في الاحتفال بالإفخارستيّا يوم السَّبت. وهذا هـو المؤلّـف الوحيد الذي كُتب بالقبطيَّة والعربيَّة، وأشار بوضوح إلى إقامة قدّاسات يوم السَّبت.

شهادة مخطوطات القطمارسات والدّلاّلات

وإذا عُدنا إلى شهادة مخطوطات القطمارسات الموجودة في حوزتـنـا — والكلام هنا للأب أوجو زانتي Ugo Zanetti — نجد أنـه مـن بـين

43- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 138.

المخطوطات التي سيأتي بيانها تفصيلاً، هناك أربعة مخطوطات منها فقط سابقة لسنة ١٤٠٠م أوردت قراءات لأيام السُّبوت.

ففي المتحف القبطي بالقاهرة هناك خمسة قطمارسات تحوي قراءات للأيام والسُّبوت والآحاد والأعياد(٤٤).

أمّا مكتبة البطريركيّة بالقاهرة فيها ثلاثة مخطوطات دلالات لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد(٤٥).

وفي المكتبة الجامعيّة لمدينة هامبورج Mambourg. Bibliothèque

---

٤٤ بيانها كما يلي:

(١) مخطوط قطمارس عربي رقم (Bible 93)، لقراءات السُّبوت والآحاد والأعياد، وهو يبتدئ من قراءات السّبت الثالث من هاتور.

(٢) مخطوط قطمارس قبطي رقم (Lit.360) وهو قطمارس نقله إيفلين وايت Evelyn-Wihte من دير أنبا مقار إلى المتحف القبطي.

(٣) مخطوط قطمارس عربي رقم (Lit.26) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد ويعود إلى القرن الرّابع عشر.

(٤) مخطوط قطمارس قبطي رقم (Lit.60) لقراءات الأيام والآحاد بالإضافة إلى قراءة السّبت الواقع في شهر النسيّ. ويعود إلى سنة ١٧٩٩م.

(٥) مخطوط قطمارس قبطي رقم (Lit.65) لقراءات شهور كيهك، طوبه، أمشير للأيام والسُّبوت — ما عدا سبوت شهر أمشير — والآحاد. ويعود إلى سنة ١٨١٥م.

٤٥- بيانها كما يلي:

الأوّل: تحت رقم (Bible 196) يعود إلى ابن أبو المنصور، وأكمله في مسرى سنة ٨٩٠ شهداء. وتحت قراءات السُّبوت والآحاد ورد العنوان التّالي في الدّلال: "نبتدئ بمعونة الرّب وحسن توفيقه بترجمة دلال ما يُقرأ من الفصول التي يجب قراءتها في السُّبوت والحدود للسنة جميعها".

والثاني: دلال عربي رقم (Arch. Selden. A 68) لقراءات الأيام والسُّبوت والحدود، وهو يعود إلى سنة ١٢٨٦م وهو مجهول المكان. حيث اكتملت نساخته في ٨ مسرى سنة ١٠٠٢ شهداء/ ١٨ جمادى الثاني سنة ٦٨٦ هجرية.

الثالث: دلال عربي رقم (Canon Ori. 129) لقراءات الأيام والسبوت والآحاد وهو من دير القدّيس أنبا أنطونيوس، ويعود إلى سنة ١٢٨٤م.

municipale et universitaire يوجد مخطوط دلاّل قبطي عربي[٤٦] لقراءات السُّبوت والآحاد والأعياد يعود إلى القرن الثّالث عشر أو الرّابع عشر، وهو من دير الأنبا بيشوي.

أمّا في المكتبة الأهليَّة بلندن فيوجد بها أربعة دلاّلات سواء قبطي أو عربي لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد[٤٧].

وفي المكتبة الأهليَّة بباريس خمسة دلاّلات سواء قبطي أو عربي لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد[٤٨].

٤٦- وهو برقم (Lectionary fragment 41).

٤٧- بيانها كما يلي:

(١) دلاّل عربي رقم (Oriental 425) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد، وهو من القاهرة، ويعود إلى سنة ١٣٠٨م.

(٢) دلاّل قبطي + المزامير، وهو برقم (Oriental 1241) لقراءات شهور توت وبابه للسُّبوت والآحاد ويعود إلى القرن الرّابع عشر الميلادي، وكان يُستخدم في إسقيط مقاريوس بوادي النّطرون. وهو يستخدم الأرقام القبطيَّة.

(٣) دلاّل عربي برقم (Arondel Oriental 20) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة. ويعود إلى سنة ١٢٨٠م.

(٤) دلاّل عربي برقم (Oriental 3382) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد، ويعود إلى سنة ١٢٦٥م، وقد نسخه أبو الفرج هبة الله ابن العسّال.

٤٨- بيانها كما يلي:

(١) دلاّل قبطي رقم (Copte 13) لقراءات السُّبوت والآحاد على مدار السَّنة، وهو يعود إلى سنة ١١٧٩م. وقد نسخه أنبا ميخائيل مطران دمياط.

(٢) دلاّل قبطي عربي رقم (Copte 16) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد، يعود تاريخه إلى سنة ١٢٠٤م، ومجهول المكان.

(٣) قطمارس قبطي رقم (Copte 99) لقراءات السُّبوت والآحاد للستة شهور الأولى من توت إلى أمشير. ويعود تاريخه إلى سنة ١٣٠٤م. وهو من دير الأنبا بولا.

(٤) دلاّل عربي رقم (Arabe 51) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد. يعود إلى القرن الرّابع عشر أو الخامس عشر للميلاد. وهو مجهول المكان.

(٥) دلاّل عربي رقم (Arabe 112) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد – باستثناء

وفي مكتبة دير القدّيس أنبا مقار بوادي النّطـرون خمسـة دلاّلات عربي لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد، منها دلاّل للمزامير فقـط، إلى جانب قطمارس قبطي(٤٩).

السّبت المقدّس الكبير – ويعود إلى سنة ١٥٧٠م. وهو مجهول المكان.

٤٩- بيانها كما يلي:

(١) دلاّل عربي تحت رقم (Bible 36) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد. ويعـود إلى سنة ١٢٤٦م. وهو من دير القدّيس يوحنا القصير بالإسقيط.

وهذا المخطوط يحوي فهرساً بأسماء قديسي الأيام Calender مختلـف عـن دلاّل القراءات. وهو ما يدعو للاستغراب خصوصاً أن تذكارات بعض القدّيسين في هـذا المخطوط هي لقديسين ملكانيين، وغالباً من القدّيسين القدامى الذين لا نجد إلاّ النادر منهم في السنكسارات القبطيّة.

وهناك ملاحظتان عامتان بخصوص هذا المخطوط:

الملاحظة الأولى: هذا المخطوط هو الوحيد – مع مخطوط آخر في المكتبة البريطانيّة بلندن تحت رقم (Oriental 425) ويعود إلى سنة ١٣٠٨م من القاهرة. وقد سبق لنا ذكره – الذي يضع رسالة العبرانيين بعد رسالة تسالونيكي الثّانية وليس بعد رسالة فليمون.

الملاحظة الثّانية: أنه يذكر أسماء الشهور السّريانيّة اللبنانيـة إلى جانـب الشـهور القبطيّة. وهي دلالة أخرى تؤكّد أن ناسخه هو راهب ملكاني.

(٢) قطمارس قبطي رقم (Lit. 10) به أسماء قديسي شهور شهري هاتور وكيهك. وقراءات أيام وسبوت وآحاد هذين الشهرين. ويعود إلى سـنة ١٣٤٦م. ونسـخه الرّاهب يعقوب من دير القدّيس مرقوريوس بشهران – والقريب من القاهرة – على نفقة القس بطرس من كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بفم الخليج (جنوب القاهرة).

(٣) دلاّل عربي رقم (Linguist 1) لقراءات السُّبوت والآحاد والأعياد. ويعود إلى القرن الثّامن عشر، وهو مجهول المكان.

(٤) دلاّل عربي رقم (Bible 45) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد. ويعـود إلى القرن الثّالث عشر أو الرّابع عشر. وهو ربما يكون من دير القدّيس يوحنـا القصـير بالإسقيط. وهو يقترب جداً في ترتيبه من المخطوط رقم (Bible 36).

(٥) دلاّل عربي رقم (Bible 47) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد. ويعـود إلى القرن السّابع عشر. وهو مجهول المكان.

(٦) دلاّل للمزامير فقط برقم (Lit. 218) التي تُقال في الستة شهور الأولى – مـن توت إلى أمشير – في السُّبوت والآحاد والأعياد. يعود إلى القرن الثّالـث عشـر أو

وفي المكتبة الأهليّة في فيينا دلاّل قبطي لقراءات أيام وسبوت وآحاد الصّوم الكبير والخمسين المقدّسة وشهور برموده ومسره، وقراءات الآحاد فقط لشهر بؤونه.

وفي مكتبة الفاتيكان ثمانية دلاّلات أو قطمارسات قبطي أو عربي لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد(٥٠).

الرّابع عشر. وهو مجهول المكان.

٥٠- بيانها كما يلي:

(١) دلاّل للمزامير برقم (Copte 35) ويعود إلى سنة ١٢١٨م. وهو من دير القدّيس أنبا مقار. والجزء الأوّل منه يحوي مزامير مختلفة، موزعة طبقاً لنظام كتاب المزامير Selon l'ordre du psautier والجزء الأخير منه دلاّل للمزامير التي ترتّل قبل الأناجيل لكل السّنة مع توضيح الأعياد التي تختص بها. ثم دلاّل للمزامير القبطيّة على مدار السّنة مع بعض مزامير تُقال في السُّبوت والآحاد والأعياد.

(٢) قطمارس قبطي رقم (Copte 95) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد لشهري مسرى والنسيء. ويعود إلى القرن الثّامن عشر. وهو مجهول المكان.

(٣) دلاّل عربي رقم (Arabe 15) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة على مدار السّنة. ويعود إلى سنة ١٣٠٨م. وربما يكون موطنه الإسقيط.

(٤) دلاّل عربي رقم (Arabe 28) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد. ويعود إلى سنة ١٧١٢م. وهو من القاهرة.

(٥) دلاّل عربي رقم (Arabe 452) لقراءات أيام وسبوت وآحاد وأربعاء وجمعة من أوّل توت إلى الرّابع من هاتور. ويعود إلى سنة ١٢١٤م. وهو من دير القدّيس يوحنا القصير بالإسقيط.

(٦) دلاّل عربي رقم (Arabe 610) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة على مدار السّنة. وهو يعود إلى سنة ١٢٩٣م.

(٧) قطمارس قبطي عربي رقم (Borgia copte 75) لشهر بؤونه يحوي قراءات السُّبوت والآحاد. وهو يعود إلى القرن الثّامن عشر. وقد نسخه روفائيل الطوخي (١٧٠٣-١٧٨٧م) في روما.

(٨) دلاّل عربي رقم (Borgia Arabe 243) لقراءات الأيام والسُّبوت والآحاد. وهو يعود إلى سنة ١٢٣٠م.

استنتاجات فحص المخطوطات

وما يلزم إيضاحه هنا هو أنه لا يوجد أي أثر لقطمارسات تحوي قراءات السُّبوت فقط. وليس هناك أي كتب ليتورجيَّة من أي نوع تدور حول طقس السُّبوت فقط في كل مصر(٥١).

ونلاحظ في كثير من القطمارسات والدِّلالات أن السِّتة شهور الأولى من السَّنة القبطيَّة تكون دائماً صحيحة وكاملة. وأن القطمارسات التي تحوي قراءات السُّبوت قليلة. وأن غالبية الدِّلالات لا تحوي قراءات المزامير. فضلاً عن أنه من النَّادر جداً أن نجد مخطوطين يتَّفقان على اختيار الفُصول الكتابيَّة سواء من المزامير أو الرَّسائل أو الأناجيل(٥٢).

وفي كل الدِّلالات والقطمارسات التي فُحصت ليس بينها من يذكر قراءات الأحد الخامس، باستثناء دلاَّل أبو البركات الذي أورد قراءات الأيام والسُّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة والصَّوم الكبير وصوم يونان في مؤلَّفه "مصباح الظُّلمة في إيضاح الخدمة" بالإضافة إلى قراءات الأحد الخامس(٥٣).

أمَّا النِّظام الحالي والذي يجعل قراءات الأحد الخامس في السِّتة شهور الأولى – إن وُجد – هي نفسها فصول الأحد الثَّاني من أمشير، فهو نظام حديث لا وجود له في المخطوطات. وليس هناك سوى سبع مخطوطات فقط تحوي قراءات خاصة بالأحد الخامس الذي يقع في السِّتة شهور

51- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 139.

52- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 143.

٥٣- الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر".
Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 150.

الأولى. وحتى هذه المخطوطات السّبع يوجد بينها تباين واضح في اختيار فصول القراءات(٥٤).

الأحد الخامس للسّتّة شهور الأخيرة

هناك ستّة قطمارسات - بحالة سيئة - تحوي قراءات الأحد الخامس للسّتّة شهور الأخيرة، ولكن بينها اختلافات كبيرة في فصول القراءات(٥٥).

54- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 151, 152.

وهذه المخطوطات هي:

(١) مخطوط محفوظ في المكتبة البريطانيّة برقم (Oriental 1321) يعود إلى سنة ١٣٤٧م وهو من كنيسة الملاك ميخائيل بقم الخليج بالقاهرة، يحوي قراءات لفصول الأحد الخامس إن وقع في الستة شهور الأولى، وقراءات أخرى للأحد الخامس إن وقع في الستة شهور الأخيرة.

(٢) مخطوط بالمكتبة الأهليّة بباريس برقم (Copte 119)، من القرن السّادس عشر أو السّابع عشر، وهو مجهول المكان.

(٣) مخطوط قطمارس عربي محفوظ في مكتبة الفاتيكان تحت رقم (Arabe 59)، وهو مجهول المكان.

(٤) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة الفاتيكان تحت رقم (Copte 29) بتاريخ ١٧١٢م.

(٥) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة الفاتيكان تحت رقم (Copte 32) بتاريخ ١٧٣٩م.

(٦) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار برقم (Lit. 6) ويعود إلى القرن التّاسع عشر.

(٧) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار برقم (Lit. 31) ويعود إلى سنة ١٨٤٥م.

٥٥- وبيانها كما يلي:

(١) قطمارس محفوظ بالمكتبة البريطانيّة برقم (Oriental 1321) ويعود إلى القرن الرّابع عشر، وقد سبق لنا ذكره.

(٢) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة الفاتيكان برقم (Copte 33) بتاريخ ١٧١٩م، وهو مجهول المكان.

(٣) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة الفاتيكان برقم (Copte 95) يعود إلى القرن

أما عن السّبت الخامس

فهناك مخطوط واحد فقط يحوي قراءات للسّبت الخامس من الشّهر القبطي إن وُجد، وهو محفوظ في مكتبة الفاتيكان برقم (Copt 95) ويعود إلى القرن الثّامن عشر. وهو مجهول المكان. وقد سبق الإشارة إليه. وهو بحالة سيئة جداً. وينقص منه تماماً مزامير العشيّة ومزامير باكر. أما أناجيل باكر فهي بدون عنوان acéphale كما أن الثّلاث رسائل مختصرة إلى ثلاث آيات فحسب لكل منها. ولم يتبق سليماً من القراءات غير مزامير أناجيل القدّاس.

التّقيم الختامي

إن المخطوطات التي تحوي فصولاً للأحد الخامس ليست قليلة العدد، وهي غالباً تعود إلى زمن متأخّر باستثناء مخطوط رقم (Oriental 1321) بالمكتبة البريطانيّة بلندن، والذي يعود إلى سنة ١٣٤٧م، وقد سبق الإشارة إليه. وهذه المخطوطات تحوي فصولاً متباينة تبايناً كبيراً فيما بينها.

حول قطمارس أبو البركات

أورد أبو البركات في الباب الثّاني والعشرين من مؤلّفه "مصباح الظّلمة وإيضاح الخدمة" دلاّل قراءات الفصول على مدار السّنة.

الثّامن عشر. وهو مجهول المكان.

(٤) مخطوط قطمارس قبطي بالمكتبة الأهليّة بباريس برقم (Cople 139).

(٥) مخطوط قطمارس قبطي بالمكتبة الأهليّة بباريس برقم (Cople 140).

(٦) مخطوط قطمارس قبطي بمكتبة دير أنبا مقار برقم (Lit. 31) يعود إلى سنة ١٨٤٥م. وهو مجهول المكان، ولا يحوي سوى المزامير والأناجيل.

ومخطوط "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" محفوظ أساساً في مخطوطين أساسيين. الأوَّل في المكتبة الأهليَّة بباريس تحت رقم (Arabe 203) والثَّاني في أوبسالا Upsala تحت رقم (Vet. 12). أمَّا المخطوط الثَّالث وهو ذو قيمة أيضاً فهو موجود في مكتبة برلين تحت رقم (Diez Aqu. 111) ولكنه لا يحوي سوى الثمانية أبواب الأولى فقط من هذا الكتاب.

ومحتوى الفُصول المختارة في مخطوط باريس يختلف عن محتواها في مخطوط أوبسالا. فمخطوط باريس يحوي قطمارس الصَّعيد (ص ٢٣٧-٢٣٩)، ثمَّ فقط عنوان: "البَاب ٢٢ دلاَّل ما يجب قراءته خلالا أيام السَّنة القبطيَّة"، مع دلاَّل لقراءات الوجه البحري (ص ٢٣٩-٢٥٧). وفي النهاية دلاَّل لأعياد القدِّيسين (ص ٢٥٧-٢٥٩).

وعلى العكس ففي مخطوط أوبسالا نجد عنوان البَاب الثَّاني والعشرين مع دلاَّل قراءات الوجه البحري (ص ٢١٨-٢٣٥). ثمَّ دلاَّل قراءات خاص بأهالي الصَّعيد (ص ٢٣٥-٢٣٨). ثمَّ دلاَّل لأعياد القدِّيسين (ص ٢٣٨-٢٤٠)[٥٦].

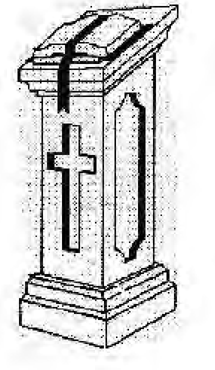

56- Ugo Zanetti, *op. cit.*, P. 221.

الفَصل الثّاني

المراحل الطّقسيّة لقدّاس الكَلمة

تمهيد

تنقسم ليتورجيًا قدّاس الموعوظين إلى الأقسام التّالية:
أولاً: رفع البُخور ودورة البُخور في الكنيسة.
ثانياً: القراءات.
ثالثاً: العظة
رابعاً: الأواشي التي تنتهي بأوشيّة الموعوظين.

أولاً: رفع البُخور ودورة البُخور في الكنيسة

• أوشيّة بخور البولس، والأواشي الثّلاث الصّغار

بعد صلاة تحليل الخدّام يصعد الكاهن والشمّاس كلاهما إلى الهيكل. ويكمّل البابا غبريال الخامس بقوله: "وإن كان معه كاهن شريك يتناول المجمرة ويناولها له. وإن لم يكن معه كاهن شريك يناولها لـه الشمّاس الخديم ويتوجّه إلى الشّرق ويرفع بخور البولس خمسة أيادي كترتيب رفع بخور صلاة عشيّة من غير زيادة ولا نقص. ولكن يقول أوشيّة بخور البولس "يا الله العظيم الأبدي الذي بلا بداية ..." بكمالها، وكذلك عندما يكمل أوشيّة البخور كترتيب صلاه عشيّه يعتمد في نزوله وعطية البُخور للكهنة ولغيرهم ومسح البيعة جميعها بالبُخور الرِّجال والنّسوان

وعودته إلى المذبح على حكم الترتيب المشروح أولاً"[١].

ويضيف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي في حاشية بالخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م قوله: "وإن كان الأب البطريرك أو الأسقف حاضراً، فيقدِّم إليه الكاهن الدُّرج والشمَّاس المجمرة، فيرشم الدُّرج ويضع البُخور في المجمرة، ويناول الكاهن من البُخور (في الرَّشم الثاني) فيضعه في المجمرة"[٢].

أما مخطوط الخولاجي رقم (ط ١٣٦) فيقول ما نصُّه: "... ثم يصعد إلى الهيكل ويمسك درج البخور بيده اليمنى ويطامن براسه نحو الكهنه قايلا ⲈⲨⲖⲞⲄⲒⲤⲞⲚ (بارك)[٣] يجاوبوه قايلين Ⲛ̀ⲐⲞⲔ ⲈⲨⲖⲞⲄⲒⲤⲞⲚ (بارك أنت) ثم يوضع خمسة ايادي بخور في المجمرة وبعده يقول السرّ صلاة بخور البولس ...". وتشترك كل المخطوطات مع ما سبق ذكره للتو، إلاّ أن بعضها يذكر عبارة: "يطامنوا روسهم ويقولوا ⲔⲈ ⲈⲨⲖⲞⲄⲒⲤⲞⲚ (بارك يارب)"، بدلاً من عبارة "يجاوبوه قايلين Ⲛ̀ⲐⲞⲔ ⲈⲨⲖⲞⲄⲒⲤⲞⲚ (بارك أنت)".

أما ابن سباع فيقول ما نصُّه: "ثم ان الكاهن يطلع الى الهيكل ويقدم درج البخور لمن هو اكبر منه وضعا ليبارك على البخور قبل ان يرفع في المجمرة. فان لم يكن هناك اكبر منه يبارك هو ويرشم بالصليب على درج

١ـ البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٧١
وهو ما سبق أن ذكرناه في كتاب "صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر"، حيث رتَّب البابا غبريال الخامس أن يردِّد الكاهن الثلاث أواشي الصغار وهو يدور حول المذبح ومقابله الشمَّاس، ويردِّد الشعب مرد "يارب ارحم". (انظر: البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٤٩، ٥٠).
٢ـ كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٣٤ حاشية ١
٣ـ ما بين القوسين من عندنا للتوضيح، وهكذا في باقي هذه الفقرة.

البخور قبل ان يحمله في المجمرة"[٤].

ولكن ما يلفت نظرنا فيما يذكره ابن سباع أن وضع البُخور في المجمرة هو ستّة أيادي وليس خمسة كما يذكر البابا غبريال الخامس، مما يتّضح معه أنه كانت هناك أكثر من ممارسة بخصوص أيادي البُخور في الشُّورية، وقد سادت الممارسة التي ذكرها البابا غبريال الخامس. وهو ما يوضّح لنا قول البابا المذكور: "ويرفع بخور البولس خمسة ايادي كترتيب رفع بخور صلاة عشيّة **من غير زياده ولا نقص**".

فعبارة "من غير زيادة ولا نقص" تشير إلى ممارسة طقسيّة أخرى أشار البابا غبريال الخامس إليها ضمناً. بل إن ابن كبر يشير إلى ممارسة طقسيّة ثالثة بخصوص وضع أيادي البُخور في الشُّورية حين كان يتكلّم عن أوقات رفع البُخور في القدّاس. فيقول في ذلك: "أولاً في صلاة الأبسطلس، **وعندما ينقص أو يقل في أثناء قراءة الفصول**، ووقت أوشيّة الإنجيل ..."[٥].

ومن قول معلّمي البيعة في العصور الوُسطى: "ثمّ يطلع (الكاهن) يرفع البُخور، وأنه يرفعه خمس أياد، فإن العتيقة ذكرت أن الذي رفعوا البُخور وظهر لهم الملاك ودُفعت لهم البشارة والأوامر هم خمسة: أولهم هابيل والثّاني نوح، والثالث إبراهيم على يد ملشيصادق، والرّابع هرون، والخامس زكريا. وهم ثلاثة قبل النّاموس، واثنان بعد وضع النّاموس على يد موسى ... واليد الثّانية للكاهن الشريك أي أن كاهن الحديثة صار شريكاً لكاهن العتيقة، وهو مثال شركة إبراهيم لملشيصادق الكاهن.

٤ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٨٩.

٥ـ الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

وعندما يقول الشريك: 'مباركٌ هو الابن يسوع المسيح' فلا ينبغي للخديم أن يقولها، ولكنه يقول الثالثة ..."[٦].

وعن رفع ستة أيادي بخور في المجمرة يقول ابن سباع: "وتكون التَّقدمة فيها اولا ثلاثة دفوع على اسم الثالوث المقدَّس الاب والابن والروح القدس وايضا ثلاثة دفوع تقدمة كشبه قربان هابيل وبخور نوح البار وذبيحة اسحق لان هذه الثلاث مثالات تقدم وجودها في العتيقة قبل الحديثة فما حذوا الا على هذا المثال. وكل دفعة تحمل البخور من الدرج في المجمرة يصلّب عليه قبل اخذه وبعد الثلاث دفوع (الأولى)[٧] يقول مجدا وكرامة ومجدا للثالوث المقدَّس الآب والابن والروح القدس"[٨].

وتتّفق كل كتبنا الطقسيَّة قديمها وحديثها على أن أوشيَّة بخور البولس، ومن بعدها الثَّلاث أواشي الصِّغار – السَّلامة والآباء والاجتماعات – والتي تأتي بعد تحليل الخدَّام كان الكاهن يقولها جهراً وليس سرّاً. ولازال الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م يورد في مقدِّمة هذه الأواشي قول الكاهن Ϣⲗⲏⲗ (إشليل)، Ⲓⲣⲏⲛⲏ ⲡⲁⲥⲓ (إيريني باسي)[٩]، وأيضاً مردَّات الشمَّاس المصاحبة لهذه الأواشي. ولكن بواكير ترديدها سراً بدأت منذ أيام البابا غبريال الخامس (١٤٠٩ – ١٤٢٧م).

إلاّ انه كانت هناك ممارستان لترديد هذه الأواشي، الممارسة الأولى هي ترديدها بينما يقف الكاهن مكانه عند المذبح متَّجه شرقاً ومقابله

٦- كتاب سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت، لمعلِّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٠-١٢

٧- ما بين القوسين من عندنا للتوضيح، ولم يرد في الأصل.

٨- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩١

٩- خولاجي سنة ١٩٠٢م ص ٢٣٤

الشمّاس متّجه غرباً، وبعد انتهائها يدور حول المذبح ثلاث دورات. أما الممارسة الثّانية فكانت ترديد هذه الأواشي جهراً بينما يدور الكاهن ومقابله الشمّاس حول المذبح ثلاث دورات. وفي كلا الممارستين يشترك الشّعب بالمرد "يارب ارحم" على إبروسات الشمّاس.

ويكشف لنا ابن سباع عن الطّقس القديم لترديد هذه الأواشي حين يقول: "يقرى الكاهن صلاة القبول لهذا البخور[١٠]. وعند فراغ تلاوتها يقول الشمّاس: صلوا من اجل هذه القرابين والذبايح المقدّمة[١١] فيجيب الشعب قايلين: يارب ارحم[١٢] وينبغي أن يضيف الشعب ليارب ارحم يارب اقبل هذا البخور الصاعد من كاهنك عن خطايانا.

ثم ان الكاهن بعد صلاة البخور يقرى صلاة منحل سلامة البيعة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسوليّة ثم ينادي الشمّاس الشعب بالصلاة عن البيعة الواحدة الجامعة الرسوليّة فيجيب الشعب قايلين يارب ارحم ..."[١٣].

وهكذا في باقي الأواشي، حيث يشترك الشعب بمرد "يارب ارحم" على إبروسات الشمّاس.

١٠- وهو ما تسميه اليوم "سر بخور البولس".

١١- وهو المرد الذي يرد في خولاجي ١٩٠٢م (ص ٢٣٦): "صلوا من اجل ذبيحتنا والذين قدموها".

١٢- هنا يظهر لنا سقوط مرد الشعب من خولاجي سنة ١٩٠٢م. وهو أمر طبيعي أن يعقب إبروسة الشمّاس السابق ذكرها مرداً للشعب، ولكنه سقطت بعد أن صارت أوشيّة بخور البولس تقال سراً، وأصبح اسمها "سر بخور البولس"، ومن ثمّ فلم يعد ممكناً للشمّاس أن يردّد المرد السابق ذكره، فبقي أثراً بعد عين. ولكن ابن سباع يوضّح أنه حتى زمانه أي حتى القرن الثالث عشر كانت هذه الأوشيّة تقال جهراً. وهو ما يعود يؤكده ابن كبر أيضاً في القرن الرابع عشر.

١٣- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩١، ١٩٢

وإن عُدنا إلى مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex في القرن الرَّابع عشر الميلادي نجد تغيير طفيف في كلمة واحدة من نص أوشيَّة بخور البولس، فالنَّص الذي يقول: "... كن معنا نحن أيضاً يا سيِّدنا في هذه السَّاعة، وقف في وسطنا كلّنا ... وامنحنا أن نقدِّم ذبائح ناطقة وصعائد بركة" لنا عليه ملاحظتين طبقاً للمخطوط المذكور.

الملاحظة الأولى: قد وردت عبارة "ذبيحة تسبيح θυσία αἰνέσεως" بدلاً من عبارة "صعائد بركة".

الملاحظة الثَّانية: أن مرد الشمَّاس "صلُّوا من أجل ذبيحتنا والذين قدَّموها" الذي ورد في النَّص القبطي للأوشيَّة لم يرد في النَّص اليوناني لها. ونفس الشَّيء نجده في الثَّلاث أواشي الصِّغار، إذ لا وجود لمرد الشمَّاس فيها طبقاً للمخطوط المذكور(١٤).

وهنا يظهر حرص الأقباط على تدوين النَّص اللِّيتورجي القديم لمرد الشمَّاس دون تعديل حتى بعد أن صارت هذه الأوشيَّة تُقال سراً، ومن ثمَّ لم يعد لمرد الشمَّاس معنى، لأنه يخاطب الشَّعب الذي لم يعد يشترك في هذه الأوشيَّة. ولعل مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex بذلك قد أظهر لنا أن هذه الأوشيَّة صارت تُقال سراً قبل زمن البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م).

وبعد انتهاء الأواشي ومردَّاتها يقول ابن سباع ما نصُّه: "ثم ان الكاهن يبتدي يدور الهيكل بالبخور ثلاث دورات وفي كل دورة عند موضع الخبز والخمر المرفوع يصلب بالمجمرة مثل الصليب في كل دورة

14- Macomber, W.F., *op. cit.*, 318.
Cf. also, Samir K., La version arabe du Basile alexandrine (Codex Kacmarcik), p. 356.

وعندما تنتهي الثلاث دورات ينزل الكاهن برجله اليسرى قبل اليمنى كما طلع برجله اليمنى قبل اليسرى"(١٥).

ويؤكّد ابن كبر (+ ١٣٢٤م) على كلام ابن سباع، فيقول: "... ثم يتناول (الكاهن) التيسيا(١٦) ويرفعه ويرفع معه من يخدم من الكهنة ويبخر المذبح ويدور حوله ويصلي صلاة الأبسطلس. وان كان البطرك حاضراً فهو اول من يرفع ... **وبعد رفع البخور** يقرا المرتلون **Ⲧⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ** (تاي شوري) او **Ⲛ̀ⲑⲟ ⲧⲉ ϯϣⲟⲩⲣⲏ** (إنثو تي تيشوري) ..."(١٧).

ويهمّنا هنا عبارة "ومن بعد رفع البخور يقرأ المرتّلون ...". فهذا يوافق ما يذكره ابن سباع من قبل. أي أن ترتيل **Ⲧⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ** (تاي شوري) أو **Ⲛ̀ⲑⲟ ⲧⲉ ϯϣⲟⲩⲣⲏ** (إنثو تي تيشوري) يأتي بعد انتهاء الثّلاث أواشي الصّغار وليس أثناءها.

ولا ينبغي أن نظن أن البابا غبريال هو الذي عدّل طقس ترديد أوشيّة بخور البولس ومن بعدها الأواشي الثّلاث الصّغار لتقال جهراً بينما يدور الكاهن ومقابله الشمّاس حول المذبح، لأن ابن كبر من قبله بقرن كامل تقريباً قد ذكر أن "صلاة الأبسطلس"، والتي يعني بها أوشيّة بخور البولس، يقولها الكاهن بينما يدور حول المذبح.

١٥- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٣

١٦- ربما تكون الكلمة هي "التيسيا" أي الذبيحة. ولكن سياق العبارة يوضّح أنها تعني "البخور".

١٧- يذكر مخطوط ترتيب البيعة بالدّار البطريركيّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م، أنهم يرتلون لحن العذراء **Ⲧⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ** (تاي شوري)، وإن كان الكهنة كثيرين و لم ينتهي حال الثلاث دورات (حول المذبح) يقولون أيضاً بعد ذلك **Ϯ ϣⲟⲩⲣⲏ** (تي شوري). وهو نفس ما يذكره مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م.
انظر: الأنبا صموئيل، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ١٧، ١٨، ٢١

وكانت المرحلة الأخيرة حين صارت كل هذه الأواشي تُقال سراً، فلم يعد من داع لإبروسات الشمَّاس وبالتَّالي لمردَّات الشَّعب. حيث يبدأ الشَّعب مباشرة بترتيل ألحان العذراء Ϯⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ (تاي شوري) أو Ⲛ̀ⲑⲟ ⲧⲉ ϯϣⲟⲩⲣⲏ (إنثو تي تيشوري)[١٨]، وهما اللَّحنان اللَّذان ذكرهما ابن كبر (+ ١٣٢٤م). ويتَّفق معه في ذلك البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) الذي يقول: "يرتِّلون اما لحن Ⲛ̀ⲑⲟ ⲧⲉ ϯϣⲟⲩⲣⲏ (إنثو تي تيشوري)، واما يقولوا Ϯⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ (تاي شوري) للعذرى ان كان ثم مهل. وبعدها Ϯⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ (تين أوأوشت) والا يقولوا Ϯⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ"[١٩].

ويشير مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقوس) - المحفوظ بمكتبة الدَّار البطريركيَّة بالقاهرة، وتاريخ نساخته سنة ١٩١٠م - إلى لحن Ϯϣⲟⲩⲣⲓ (تي شوري)، وذلك حين يتحدَّث عن طقس القدَّاس الإلهي في حضور الأب البطريرك وخدمته للقدَّاس، فيقول: "... ويقرأ عليهم البطريرك التَّحليل (تحليل الخدَّام) وعند نهايته يبتدئ الكهنة بقراءة Ϯⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ وبعدها Ϯϣⲟⲩⲣⲓ".

وجاء في خولاجي قديم "... أما سبب قولنا (طاي شوري) قبل قراءة البولس فهو ظاهر لأن مواعيد البركة لإبراهيم ولنسله أي الذين وُلدوا روحياً كمثال اسحق هم الذين يسمعون كلمة الكرازة ويعرفون نهاية العتيقة بمجئ ربِّنا وتجسده"[٢٠].

إن التَّطابق المذهل بين ما يمارسه الكاهن في دورة البُخور

١٨- وهي الربع الأول من القطعة السادسة من ثيؤطوكيَّة الأحد
١٩- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٧١
٢٠- معاني رشم الصليب، ص ٦٧

بالشُّورية حول المذبح، وبين ما يردّده الشّعب في الخارج في اللّحظة عينها بالنَّظر والسَّمع والشّم يدفعنا إلى التّسبيح. فانظروا يا إخوة إلى ما وراء الدُّهور، كاهن ومبخرة عند المذبح، وبخور صاعد إلى علو السَّماء، هناك يوم كانت الكنيسة خيمة في بريَّة؛ وهو ذاته البُخور الذي لم ينقطع إصعاده على المذبح وحتى اليوم. واسمعوا شرح الرَّمز ملحَّناً عندما جاء ملء الزّمان وكانت كنيسة العهد الجديد، بالمجمرة الذّهب هي العذراء، وعنبرها هو مخلّصنا، ولدته وغفر لنا خطايانا. واشتّموا رائحة الخلاص الذي صار لنا. إذاً ليس أمام الكنيسة في هذه اللّحظات إلاّ أن تصلّي مؤازرة بأرواح القدّيسين الذين سبقوا إلى المجد من أجل سلامها ورعاتها واجتماعاتها. وهذه هي الأواشي التي تقال عند المذبح. فالمجمرة هي رمز لآلام المسيح الذي رفع ذاته بخوراً طيباً اشتمه أبوه الصّالح على الصّليب. وهذا هو المعنى الأساسي لرفع البُخور.

وبعد لحن العذراء يقول الشّعب Ⲧⲉⲛ ⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀ⲙⲟⲕ (تين أوأوشت إمموك) "نسجد لك أيها المسيح إلهنا مع أبيك الصّالح والرُّوح القُدُس لأنك أتيت وخلّصتنا". والسَّبب في ذلك أنها هي نفسها اللّحظة التي يكون فيها الكاهن يقدّم البُخور شرقاً أمام المذبح، حين يردّد نفس العبارة التي يقولها الشّعب، بعد انتهاء دورة البُخور في الكنيسة.

وما يلزم الإشارة إليه ما يلي:

الأمر الأوّل: أن لحن Ⲛ̀ⲑⲟ ⲧⲉ ϯϣⲟⲩⲣⲏ (إنثو تي تيشوري) يُقال على مدار السَّنة الطّقسيَّة كما تذكر مصادرنا الطّقسيَّة، وليس في أيام الصّوم المقدَّس الكبير فقط – دون سبوته وآحاده - كما

يذكر ذلك خولاجي سنة ١٩٠٢م للمرَّة الأولى[٢١].

الأمر الثَّاني: لم تذكر المخطوطات أو الكتب الطقسيَّة القديمة أن لحن Ϯϣⲟⲩⲣⲓ (تي شوري) "المجمرة الذهب هي العذراء ..."، يُقال في قدَّاسات الأيام عدا السُّبوت والآحاد. أو في قدَّاسات السُّبوت والآحاد في الصَّوم المقدَّس الكبير ليحل محل لحن Ⲛ̀ⲑⲟ ⲧⲉ ϯϣⲟⲩⲣⲏ (إنثو تي تيشوري).

الأمر الثَّالث: إن عادة ترديد أوشيَّة بخور البولس ومن بعدها الأواشي الثَّلاث الصِّغار سراً عُرفت بواكيرها الأولى عند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)، إذ لم يورد مردَّات الشَّعب "يارب ارحم" على إبروسات الشمَّاس، كما أنه الشَّعب يكون مشغولاً بالتَّرتيل أثناء هذه الأواشي[٢٢].

الأمر الرَّابع: أن الهيتنيَّات التي صارت تُقال الآن بعد أحد اللَّحنين السَّابقين الخاصين بالسَّيدة العذراء لم تشر إليها أي من المصادر الطَّقسيَّة للكنيسة. فحتى كتاب "التَّرتيب الطَّقسي" للبابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) والخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م لم يشيرا إليها. أما أوَّل إشارة إلى هذه الهيتنيَّات فنجدها في كتاب خدمة الشمَّاس في طبعته سنة ١٦٥٤ للشهداء/ ١٩٣٨م. وكان الكتاب المذكور قد سبق طبعه أربع مرَّات قبل هذا التَّاريخ، ولم يرد به ذكر هذه الهيتنيَّات. وكان القمُّص عبد المسيح صليب البراموسي قد راجع طبعتين من هذه الطَّبعات الأربع، وهما الطَّبعتان الثَّانية والثَّالثة، وأضاف في كل مرَّة بعض الألحان والمردَّات وذلك في سنتي ١٦٠٣ للشُّهداء/ ١٨٨٧م، وسنة ١٦١٦ للشُّهداء/ ١٩٠٠م،

٢١- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٣٩

٢٢- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٤٠

أمَّا مصدر هذه الهيتنيَّات، أو أصل منشأها فسنرجئه لحين حديثنا عن "الأسباسموس الآدام الذي يرافق نداء الشمَّاس بالقُبلة المقدَّسة"، وذلك في الفصل الذي عنوانه: "صلاة الصُّلح والقُبلة المقدَّسة".

الأمر الخامس: إن دورة البُخور حول المذبح هو طقس سحيق في القدم. نقرأ عنه مثلاً في قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة في نهاية القرن الخامس الميلادي، حيث يقول: "والبُخور الطَّاهر النَّقي الذي يبخّره القسيس حول المذبح، فإنه يصنعه حول نفسه بذاته ببهاء الرُّوح القُدُس كمثل العذارى القدِّيسات. لأن المذبح المنصوب قدام الرَّب في السَّماوات هو روح مقدَّس، ناطق، يتكلَّم، ويعرف الذي يجتهد في خدمته على الأرض ..." (القانون السَّابع).

لمحة مؤثرة من تاريخ الكنيسة

من سيرة البابا شنوده الأوَّل (٨٥٩– ٨٨٠م) البطريرك الـ ٥٥ حين أراد العرب شراً بالشَّعب وبطريركهم، نقرأ ما يلي: "... فتقدَّم إليهم (أي إلى الأساقفة) أن يجمعوا سائر الشَّعب إلى البيعة في يوم الأحد ليناولهم من السَّرائر المقدَّسة ليلاً قبل الصُّبح ويسير معهم إلى أن يوصِّلهم إلى الرِّيف، فقويت نفوسهم. ثمّ قام في نصف اللّيل واجتمع إليه الأساقفة والرُّهبان والشَّعب، وابتدأ بالقدَّاس، **وبينما هو يطوف بالبُخور على الهيكل وعيناه تفيض دموعاً بحرقة** كما قال عوبديا النَّبي: بكى الكهنة الذين كانوا يخدمون حول هيكل الرَّب. **وكان يبكي ويقول كما قال النَّبي أمهل يارب شعبك ولا ترذل ميراثك** هذه الرذيلة ويسود عليه الأمم لئلا يقول الأمم أين إلههم. والآباء الرُّهبان يبكون بحرقة ودموعهم ممتزجة بالأفكار لما يريد أن يناهم من العرب المفسدين. وتناولوا السَّرائر المقدَّسة قبل الصبح. وكان الأب يبكي على خراب البريَّة من الرُّهبان، ثمّ

سرح الشَّعب. وخرج وهو يعزيهم. وكانوا يباركون الله وتعجبوا من قوَّة الأب وجسارته، لأنهم ينظرونه مثل موسى النَّبي أمام بني إسرائيل. فبصلاته وطهارته نجا الله الشَّعب من أيدي العرب ذلك اليَوم"(٢٣).

• دورة البُخور في الكنيسة

يوجز ابن كبر (+ ١٣٢٤م) دورة البخور في الكنيسة بقوله: "يطوف القس بالبخور على الكهنة والشَّمامسة والخورس وسائر الشَّعب الرجال ثم النساء".

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فيقول في ذلك: "يمسح البيعة جميعها بالبخور، للرجال والنساء"(٢٤).

أما ابن سباع فيشرح بالتَّفصيل طقس دورة البُخور في الكنيسة في القرن الثَّالث عشر، فيذكر أن الكاهن يعطي رئيس الكهنة تسع أيادي على ثلاث دفعات، وذلك على عدد رتب الملائكة، وفي آخر كل دفعة من الثَّلاث دفعات يصلِّب بعلامة الصَّليب، فيعطيه الرئيس الصليب ليقبِّله، وبذلك يتميَّز البخور الذي يُرفع لله تعالى أمام رؤساء الكهنة عن البخور الذي يقدَّم للأوثان. ثم يعطي إخوته الكهنة ثلاث أيادي على مثال الثالوث القدُّوس، ويقول للكاهن غير الخديم: أسألك يا أبي أن تساعدني بصلواتك، فيضع الكاهن غير الخديم يديه الاثنتين على المجمرة وهما مفتوحتين. والمعنى في ذلك أنك كما قدمت هذا البخور تقدمة لله

٢٣- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، مطبوعات جمعية الآثار القبطية: المجلد الثاني، الجزء الأول، قام على نشره يسى عبد المسيح، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٣م، ص ٣٨، ٣٩

٢٤- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٥٢

تعالى في خدمتك، هاأنذا أشاركك في تقدمته. ويقول وهو يومئ بيديه الرب يحفظ كهنوتك مثل هرون وزكريا[٢٥]. ثم يبخر الشعب واحداً واحداً على قدر درجاتهم وهو داير في الكنيسة ...[٢٦].

وهنا يتّضح لنا مجدّداً أن إحدى الممارسات الطّقسيّة التي عُرفت في الكنيسة كانت لا تفرّق بين القُمُّص والقس من جهة مشاركتهما في رفع البُخور لله، فلكليهما الاشتراك بثلاث أيادي بخور، وليس بيدي بخور للقُمُّص ويد واحدة للقس كما في طقس البابا غبريال الخامس. أما لرئيس الكهنة فتسع أيادي بخور، وليس ثلاث كما في طقس البابا غبريال الخامس.

كما يتّضح لنا أيضاً أن ابن سباع يربط بين دورة الكاهن بالبُخور في الكنيسة، وبين اعتراف الشّعب بخطاياه لله في ذلك الوقت، فيقول: "وينبغي لكل واحد من شعب الله اذا جاءته المجمرة على يد كاهن الله العلي يقول اخطيت يا سيدي يسوع المسيح وانا عارف بذنبي وخطيتي ثم يقبل يد الكاهن لاجل تواضعه ومشيه الى قبول اعترافه ... يعاود (الكاهن) الطلوع إلى هيكل الله ... ويقول اقبل يارب اعتراف شعبك وخرافك أيها الراعي الصالح. اذكر يارب كل من أمرنا أن نذكره في ملكوتك"[٢٧].

ويؤكّد ابن كبر على ذلك بقوله: "... ويستحب اعتراف الإنسان بخطيئته وطلبه المغفرة عند وقت تبخيره سراً بوجيز من اللفظ. فقد قال بعضهم إن إخراج البخور للشعب يترل مترلة الذبيحة الذي كان يخرج في العتيقة إلى خارج، ويعترف من يقدمه بخطيئته في أذنه ثم

٢٥- في مخطوطات أخرى لنفس كتاب ابن سباع: "... مثل ملشيساداق وهرون وزكريا وسمعان".

٢٦- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٣-١٩٥

٢٧- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٥

يقرِّب عنه"(٢٨).

وهو نفس ما يشير إليه البابا غبريال الخامس في نهاية دورة البُخور في الكنيسة حين يقول: "... ويعطي البخور فوق الهيكل عن اعتراف الشعب جميعه الذي قبله منهم وهو واقف للشرق ويقول الله الذي قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرَّم. اقبل إليك اعتراف شعبك، واغفر لهم خطاياهم من أجل اسمك القدُّوس. ورحمتك ولا خطايانا"(٢٩).

وعند ابن كبر: "وإذا فرغ الكاهن من تبخير الشعب جميعه الرجال والنساء وأماكن الهياكل وأيقونات الشهداء والقدِّيسين يعود إلى الهيكل ويطّلع فوق قدس الأقداس كأنه يرفع خطايا الشعب للإله. ويبخِّر الهيكل ثم البطريرك فقط، وإن لم يكن حاضراً فالأسقف، وإلاّ فمن يكون حاضراً من الكهنة. ويومئ بالمجمرة إلى بقيَّة الشعب"(٣٠). وهو نفس ما يذكره أيضاً ابن سباع(٣١).

ومن قول معلّمي البيعة في العصور الوُسطى: "ثمَّ يطوف (الكاهن) على الشَّعب ليقول كل واحد واحد خطيَّته وأفكاره على يد الكاهن ليرفعها إلى الله تعالى، وذلك مثل ما قال الله لموسى النَّبي: إن كل من عمل خطيَّة يأتي بذبيحة قدّام الكاهن وليقل خطيَّته في أذن الذَّبيحة سراً وليقدِّمها الكاهن. كما أن بطرس الرَّسول ما جحد ندم وخرج وبكى بكاءً مراً سراً، فقبل الله توبته. وقد أبطل آباؤنا الاعتراف من البيعة

٢٨- الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

٢٩- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٥٢، ٥٣

٣٠- الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

٣١- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٦

القبطيّة وقد وضعوا في ذلك كتاباً وامتدوا في ذلك. وعند فراغ تطوافه البيعة يعود إلى الهيكل ويقول ⲫϯ ⲫⲏⲉⲧⲁϥϣⲟⲡ ⲉ̀ⲣⲟϥ ⲛ̀ⲧⲟⲙⲟⲗⲟⲅⲓⲁ ثمّ يدور على الهيكل دورة أخرى لكمال أربع دورات وهي علامة الأربع بشائر المقدسة"[٣٢].

أما القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي فقد أورد في الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م أن الكاهن حين يعطي البُخور للشّعب جميعه يقول في عشيّة: "بركة بخور المساء بركته المقدَّسة تكون معنا آمين"، وفي بخور باكر يقول: "بركة بخور باكر، بركته المقدَّسة تكون معنا آمين". وفي بخور البولس يقول: "بركة بولس رسول يسوع المسيح، بركته المقدَّسة تكون معنا آمين"، وفي بخور الإبركسيس: "بركة سادتي الآباء الرُّسُل ... تكون معنا آمين". وهو ما لم تذكره المصادر الطَّقسيَّة القديمة.

كما يورد القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي حاشية بخط يده في هامش صفحة (٨٢) من الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، تقول "العادة جارية الآن أن الكاهن عندما يصعد إلى الهيكل يضع يد بخور في المجمرة بدون رشم وهو يقول سرّ الرّجعة. ولكن لم يُذكر ذلك في الخولاجيّات. ولذلك فاتنا أن نضعه ولو في الحاشية".

ثانياً: القراءات

ἡ περικοπή - pericope

وتُسمى في الإنجليزيَّة أيضاً Lections ومنها كلمة Lector أي قارئ.

٣٢- كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٢، ١٣

وكذلك كلمة Lectern أي المنجليّة، مكان القراءة. وأيضاً Lectionary أي "القطمارس" وهو الكتاب الذي يحوي القراءات طبقاً لمناسبات السّنة اللّيتورجيّة الكنسيّة.

والقراءات الكنسيّة هي الفصول الكتابيّة المختارة من أسفار الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، والتي تُقرأ في الخدمات الكنسيّة أي في وقت العبادة الكنسيّة، ولاسيّما في الصّلوات اللّيتورجيّة.

إن اختيار فصول معيّنة من الكتاب المقدّس لتُتلى في القدّاسات هو طقس سحيق في القدم يرجع إلى نشأة القدّاسات نفسها. أي أن طقس قراءة فصول كتابيّة قد تزامن مع نشأه اللّيتورجيّا المسيحيّة. إذ تمثل القراءات الكتابيّة واحدة من أهم العناصر اللّيتورجيّة التي اهتمت بها الكنيسة غاية الاهتمام سواء في كنائس المدن أو في كنائس الأديرة في سهرها اللّيلي.

ومثل هذا النّظام كان قائماً في ليتورجيّة المجامع اليهوديّة أيام ربّنا يسوع. فقد كانت قراءات السّبوت منظّمة على مدى ثلاث سنوات، أما الأعياد الكبيرة فكانت تخرج عن هذا النّظام إذ لها قراءاتها الخاصة.

وفي القرن الثّاني كان للعيدين المسيحيّين العظيمين أي الفصح (القيامة) البنديكستي (العنصرة) قراءاتهما الخاصة.

ويقول العالم اللّيتورجي الأب جريجوري دكس G. Dix : "صار لأعياد الشُّهداء أهميّتها في القرن الرّابع، وهذا يثبت بالأكثر القراءات".

ونظراً لأن أسفار العهد الجديد لم تكن قد جُمعت كلها في كتاب واحد قبل أواخر القرن الثّاني أو أوائل الثّالث، فقد كانت كل كنيسة

تقرأ من الأناجيل أو الرّسائل الموجّهة إليها من الرّسول الذي كتبها. ثم بدأت الكنائس تتبادل مع بعضها البعض النُّسخ المحفوظة عند كل منها في زمن بولس الرّسول نفسه الذي قال: «متى قُرئت عندكم هذه الرّسالة فاجعلوها تُقرأ أيضاً في كنيسة اللاودكيّين، والتي من لاودكية تقرأونها أنتم أيضاً» (كولوسي ٤:١٦).

ويقول مار إغناطيوس يعقوب الثّالث بطريرك أنطاكية في كتابه "تاريخ الكنيسة السّريانيّة": كان المؤمنون يتلون الكتاب المقدّس في الكنائس، ولاسيّما المزامير[٣٣] أيام الآحاد كما كان يفعل اليهود في مجامعهم. وكانوا يوقدون الشّموع أثناء ذلك. على أن أسفار العهد الجديد كانت تُقرأ في أوّل الأمر في الجهات التي وُجّهت إليها، وفي البلدان المجاورة فقط. إذ لم يكن حينئذ في حوزة الكنيسة مجموعة كاملة من هذه الأسفار، حتى إذا ما جاء النّصف الأوّل من القرن الثّاني، وأصبحت الكنائس في شركة قريبة من بعضها البعض، سلّمت بعضها بعضاً هذه الأسفار القانونيّة لاستعمالها ضد الهراطقة.

ولذلك يشهد القدّيس يوستينوس الشّهيد (١٠٠ - ١٦٥م) عن هذا التّقليد في الجيل الثّاني قائلاً:

[جرت عادة المسيحيّين سُكّان المدن والأرياف أن يجتمعوا في يوم الأحد للتعبُّد بتلاوة رسائل الرُّسُل وأقوال الأنبياء].

ويقول العلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م):

[إن المسيحيّين يجتمعون لقراءة الكُتُب المقدّسة في يوم الأحد، ويرتّلون المزامير].

٣٣- كولوسي ٤:١٦

ويكشف لنا البابا غريغوريوس الكبير (+ ٦٠٤م) أن كلمة الله تعتبر رسالة موجَّهة إلى العابدين بقوله:

[إن ما يُتلى من أقوال الرُسُل يُسمى رسالة، لا لأنه جزء من رسائل الرُسُل فقط، بل لأن الكنيسة تريد أن تسمع ما يُتلى علينا في هذا المكان (الكنيسة) بإصغاء، ونقبله كرسالة إلينا من الله يعرفنا بها إرادته].

إلاَّ أنه يلزم أن نعرف أن قدَّاس الموعوظين بعد مجمع نيقية المسكوني الأوَّل سنة ٣٢٥م قد استطال كثيراً عمَّا كان من قبل سواء من جهة القراءات الكتابيَّة أو من جهة الصَّلوات اللِّيتورجيَّة.

ولكن النُقطة الرَّئيسيَّة التي طواها التَّاريخ هي أن القراءات الكتابيَّة كانت تحتل مكانها الرَّئيسي والأساسي في صلوات الصَّباح والمساء اليوميَّة في الكنيسة، بالإضافة إلى خدمة السَّهَر اللَّيلي فيها. في حين أن القدَّاس الإلهي في بواكير المسيحيَّة لم يكن يُقام سوى في أيام الآحاد والأعياد السَّيديَّة الكبرى فقط، أو تذكار محلي لكنيسة محليَّة تعتز به وتعيِّد له، تمهيداً لإقامة ذبيحة الإفخارستيَّا في نهاية هذا السَّهَر.

من هنا يتَّضح اهتمام الكنيسة منذ البداية بكلمة الإنجيل والأسفار المقدَّسة، وأنها الغذاء الرُّوحي اليومي للشَّعب. وكان حرص الكنيسة على ذلك يرجع إلى أن غالبية الذين آمنوا بالمسيح في البدايات الأولى كانوا من الطَّبقات البسيطة، وأحياناً الأميَّة، لذلك كان الحضور للكنيسة صباح ومساء كل يوم ضرورة واجبة.

وبرغم أن الاحتفال الإفخارستي لا يخلو من قراءة فصول كتابيَّة، ولكن كانت القراءات الكتابيَّة تحتل مكانها المتَّسع كخدمة أساسيَّة في

اجتماعي الكنيسة الصَّباحي والمسائي.

وتعطينا قوانين هيبوليتس القبطيَّة المدوَّنة من القرن السَّادس الميلادي إطلالة واسعة على هذا التَّقليد في كنيسة مصر، حين توضِّح لنا أن القراءات كانت تجري في الاجتماع الصَّباحي للكنيسة كل يوم، بل إنها في غير قانون من قوانينها تحض الشَّعب على ضرورة الذَّهاب إلى الكنيسة كل يوم للاستماع إلى كلمة الله كوصيَّة الإنجيل.

ففي القانون (٢١): "يجتمع القسوس **كل يوم** في الكنيسة، وأيضاً الشَّمامسة والإيبودياكونون والأغنسطسون وكل الشَّعب عندما يصيح الديك. ويصنعون الصلاة والمزامير **وقراءة الكُتُب** والصَّلوات كوصيَّة الرَّسول القائل: **التفت إلى القراءة إلى أن أحضر**".

وفي القانون (٢٣): "... لأنه قيل لأجل التَّعليم إنه أعظم من البحر وليس له انتهاء. ولأجل هذا نحن نسعى في طلب التَّعليم بكل مثال. فلنقبله إذا وجدناه".

وفي القانون (٢٦) نقرأ ما يلي: "إذا كانت مفاوضة في بيعة لأجل كلام الله، فليسرع كل واحد ويجتمع إليه. وليعلموا أن الأفضل لهم أن يسمعوا كلام الله أكثر من كل افتخار هذا العالم. وليحسبوا أنها خسارة عظيمة لهم إذا عاقتهم ضرورة عن أن يسمعوا كلام الله، بل ليتفرَّغوا للكنيسة مرَّات كثيرة ...".

ومن أبدع ما ورد في هذه القوانين عن أهميَّة قراءة كلام الله ما ورد في مستهل القانون (٢٧) حيث يقول: "... وفي اليوم الذي لا يصلُّون فيه في الكنيسة، فلتأخذ كتاباً وتقرأ فيه، ولتنظر الشَّمس الكتاب على

رجليك في كل الغدوات"(٣٤).

ويؤكّد العالم كويك H. Queck أن وجود قراءات كتابيّة في اللّيتورجيّة المصريّة في العصور المبكّرة كل يوم صباحاً ومساءً هي خاصيّة تتميّز بها كنيسة مصر، مشيراً إلى نص عربي منقّح متأخّر نوعاً يعود إلى القرن التّاسع الميلادي، وهو نص لعظة منسوبة إلى البابا ثاؤفيلس البطريرك الإسكندري حيث يعتمد النّص على أصل يوناني مبكّر هذه العظة، يقول: "إنسان فقير يؤدّي الصّلوات التي ألزم نفسه بها، **يذهب إلى الكنيسة صباحاً ومساءً، ينصت إلى القراءة**، ويتناول جسد المسيح ودمه، ينال السّلام ويحمي نفسه من كل شر"(٣٥).

وإن ما نراه حتى اليوم بصورة واضحة في الكنيسة القبطيّة في طقس صلوات رفع بخور باكر في الصّوم المقدّس الكبير، حيث تتركّز فيه قراءات كتابيّة مطوّلة من العهد القديم تُختم بقراءة فصل من الإنجيل المقدّس، هو طقس قديم حفظته الكنيسة القبطيّة حتى اليوم.

الدّورة السّنويّة لقراءة الفصول الكتابيّة

إن النّموذج الأصلي والأوّلي للقراءات الكتابيّة في دورتها السّنويّة اللّيتورجيّة في الممارسة الدّيريّة كان هو ترتيل كتاب المزامير كله على فترة زمنيّة محدّدة. وقد تباينت هذه الفترة الزّمنيّة بين كنيسة وأخرى،

34- Coquin, R.G., *Les Canons D'Hippolyte*, Patrologia orientalis (P.O.), tome 31, fascicule 2, Paris 1966, p. 126.

35- H. Fleisch, *Une homélie de Théophile d'Alexandrie en l'honneur de St. Pièrre et de St. Paul*. Text arabe publié pour la première fois et traduit par H. Fleisch, Revue de l'orient chrétien 30 (1935), (1946), p. 398.

ولكنها كانت هي النَّواة التي بدأت عندها ما عُرف باسم دورة زمنيَّة لقراءات كتابيَّة.

ولقد كان توزيع فصول القراءات الكتابيَّة في نواته الأوليَّة يمتد ليشمل سنة كاملة. أي أن قراءة الأسفار المقدَّسة كلها كانت توزَّع على مدار السَّنة في أثناء الخدمة الكنسيَّة. أما الأناجيل فكانت مستثناة من هذا التَّوزيع السَّنوي للقراءات، وذلك لأن قراءتها في القدَّاس الإلهي قد وفَّر معرفة كافية بها. ولدينا عدَّة قوانين واضحة لنظام القراءات الكتابيَّة السَّنويَّة أي التي تُقرأ على مدار السَّنة scriptura currens . فنجد أنه في العصور المبكِّرة وطبقاً لنظام نبع من التَّقليد الرُّهباني الشَّرقي أنه كانت تُقرأ الثمانية كُتُب الأولى من العهد القديم Octatcuch [٣٦]، وهي أسفار موسى الخمسة Pentateuch [٣٧] مع أسفار يشوع والقضاة وراعوث. وذلك في فترة السَّبعين يوماً التي تسبق عيد الفصح Septuagesima [٣٨]. ثم يُقرأ سفر الأعمال وسفر الرؤيا في الفترة من عيد القيامة إلى عيد حلول الرُّوح القُدُس Pentecost . أما باقي الكُتُب التَّاريخيَّة الأخرى (الأسفار التَّاريخيَّة) وأسفار الحكمة فتُقرأ في الفترة من عيد حلول الرُّوح القُدُس إلى بداية زمن الميلاد Advent [٣٩]. ويُقرأ سفر إشعياء النَّبي أثناء زمن الميلاد Advent . أما باقي أسفار الأنبياء فتُقرأ من عيد الإبيفانيا إلى بداية الـ Septuagesima .

٣٦- من الكلمة اليونانيَّة οκτα (أوكتا) أي "ثمانية"، و τεῦχος (تيفخوس) أي كتاب. وهو اصطلاح يعرفه علماء الكتاب المقدَّس.

٣٧- من الكلمة اليونانيَّة πεντα (بنتا) أي "خمسة" و τεῦχος (تيفخوس) أي كتاب.

٣٨- الكلمة لاتينيَّة وتعني "سبعون يوماً".

٣٩- زمن الميلاد هو تلك الفترة التي تسبق عيد الميلاد، وهي تبدأ في بعض الكنائس الشَّرقيَّة ومعها روما في أقرب أحد ليوم ٣٠ نوفمبر لتشمل أربعة أسابيع تسبق عيد الميلاد. وهي تقع كلها في فترة صوم الميلاد في الكنيسة القبطيَّة.

وكان الأسبوعان الأخيران قبل الفصح مباشرة (عيد القيامة) يستثنيان من هذا التّقسيم السّابق ذكره، حيث تُختار قراءات من أسفار الأنبياء ترتبط بآلام الرّب الخلاصيّة.

ويتّضح لنا من نظام القراءات السّابق ذكره ثلاث خصائص:

الأولى: أن بداية السّنة الطّقسيّة تبدأ مع فترة السّبعين يوماً السّابقة لعيد القيامة على اعتبار أن قيامة الرّب هي المحور الأساسي الذي تدور حوله كل القراءات الكنسيّة على مدار السّنة.

الثّانية: أن قراءة سفر الأعمال في زمن الفصح هو واحد من أقدم وأعم الممارسات الطّقسيّة التي شهد لها القدّيس يوحنا ذهبي الفم.

الثّالثة: أن إدخال قراءات سفر الرؤيا في هذا النّظام هو خاصيّة غربيّة نبعت من الغرب[٤٠].

المراحل التّاريخيّة التي عبرت عليها القراءات الكنسيّة

إن تتبُّع المراحل التّاريخيّة التي عبرت عليها القراءات الكنسيّة حتى صارت إلى ما هي عليه الآن في الكنائس المختلفة، وكيف تأثّرت ببعضها البعض، ربما يعطينا فكرة عن الأهميّة الكبيرة التي أولتها الكنيسة لقراءة جانب من الأسفار الكتابيّة في عبادتها منذ البداية.

فهناك ثلاثة أنظمة لاختيار القراءات هي:

١ــ الاختيار الحر لنصوص من الأسفار المقدّسة، تناسب مرحلة من مراحل السّنة اللّيتورجيّة، أو لاحتياج بعض الخدمات الكنسيّة الخاصة.

40- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 119, 120.

٢ـ القراءة المتّصلة للأسفار المقدّسة على التّتابع، وبانتظام رتيب lectio continua. فمثلاً في الطّقس المارونيّ، هناك تقليد يرقى إلى القرن الثّالث عشر، تتم فيه قراءة رسالة القدّيس يعقوب كاملة على مدى أسبوعين متتاليين في الصّوم المقدّس الكبير. وفي الطّقس البيزنطي نجد أن قراءات يوم عيد القيامة هي بداية نظام القراءة المتّصلة lectio continua لباقي أيام السّنة.

٣ـ نظام يجمع بين النّظامين السّابقين. وهذا النّظام الثّالث نجده مثلاً في مخطوط سرياني أنطاكي في المتحف البريطاني مؤرّخ بتاريخ سنة ٦٨٧م، حيث ينظّم قراءات متتابعة من سفر الخروج لكافة الخدمات أو الاجتماعات الكنسيّة synaxes على مدى السّنة اللّيتورجيّة كلها.

وفي مخطوط لكتاب قراءات يعود إلى حوالي سنة ١٠٠٠م ألّفه البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الخامس، نجد مثالين لنظام أولي للقراءات، حيث وضع هذا البطريرك نظام قراءات يبدأ دائماً بقراءة من سفر التكوين، ونظام قراءات آخر يبدأ دائماً بقراءة متسلسلة من سفر الخروج، وذلك على نسق المخطوط السّابق ذكره في المتحف البريطاني.

وإن ألقينا نظرة على كل المخطوطات السّريانيّة الأنطاكيّة، سوف نلاحظ في الحال أن التّطوُّر اللّيتورجي لفصول القراءات يتدرّج أساساً من اختيار غزير متنوّع لهذه الفصول في العصور المبكّرة، إلى ميل نحو تجميع هذه الفصول والتّوفيق بينها في وحدات مرتّبة. ولكن ظلّت هذه الوحدات التي تجمع مجموعة من القراءات المختارة في ازدياد مضطّرد. فهو إذاً نظام يجمع بين القراءة المتّصلة؛ وبين الاختيار الحر لكميّة هذه القراءات على مدى السّنة اللّيتورجيّة.

ويندرج تحت هذا النّظام نظام لكتاب قراءات كنسيَّة يحوي فصولاً متعاقبة لسفر أو أكثر من أسفار الكتاب المقدَّس تُقرأ في وقت محدَّد من السَّنة اللّيتورجيَّة وليس على مدى السَّنة اللّيتورجيَّة بكاملها. فهي قراءة متَّصلة بانتظام لبعض الأسفار المقدَّسة في فترة زمنيَّة محدَّدة تعود بعدها القراءات لتخضع لنظام الاختيار الحُر لباقي أيام السَّنة اللّيتورجيَّة(٤١).

وكمثال لهذا النّظام، الأسبوع التّالي مباشرة لعيد القيامة Octave of Easter ، ثم آحاد الخمسين المقدَّسة. حيث تُقرأ فصول متتابعة من سفر أعمال الرُّسُل فقط. وهو ما نجده مثلاً في الطّقس الأمبروزي Ambrosian Rite أو قراءة من سفر الرؤيا إلى جانب سفر الأعمال كما في الطّقس الموزارابي في أسبانيا وفي الطّقس الغالي أيضاً.

وجدير بالذّكر أن الطّقس الآشوري أي الكلداني يقرأ سفر الأعمال فقط في الأربعة أيام الأولى من الأسبوع الأوَّل التّالي لعيد القيامة مباشرة، ثم آحاد الخمسين المقدَّسة(٤٢).

إن نظام القراءات المنتظمة المتابعة لسفر أو أكثر من أسفار الكتاب المقدَّس لم يكن معتبراً دائماً أنه هو النّظام الأقدم، لكنه الأكثر أهميَّة والأوسع انتشاراً. لأنه في أكثر أيام السَّنة اللّيتورجيَّة تقديساً كان استخدام القراءات المختارة الحرَّة والموافقة للعيد أو المناسبة الكنسيَّة أمراً طبيعياً جداً، ولكنه في ذات الوقت لم يكن نظاماً صارماً غير قابل للتغيُّر، فاختيار القراءات الموافقة للعيد أو المناسبة لا يلزم بالضَّرورة أن يتكرَّر هو

٤١- هذا النُّظام من القراءات يُعرف في الألمانية باسم Bahnlesung .

٤٢- نظام القراءات في الطّقس الكلداني يخلو من فصول من الأناجيل. وقد ناقش بومشتارك هذه القضية في مؤلفه الآتي ذكره بالألمانيَّة.

A. Baumstark, *Nichtevangelische Syrische Perikopenordnung*, p. 877.

نفسه في العيد التّالي أو المناسبة التّالية من كل سنة.

وكمثال لنظام القراءات المتتابعة لسفر أو أكثر هي عادة قراءة سفر الأعمال في فترة الخمسين المقدّسة والتي نبعت أصلاً من كنيسة أنطاكية كما يخبرنا بذلك القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م). كما أن طقس كنيسة جورجيا أيضاً يقرأ قراءتين، واحدة من سفر الأعمال، والأخرى من رسائل بولس الرّسول في نفس هذه الفترة من السّنة اللّيتورجيّة بالإضافة إلى الرّسائل الجامعة. ولقد استقر في التّقليد الكنسي أن نفس هذه الممارسة قد روعيت منذ البداية في المدينة المقدّسة أورشليم.

ويشهد القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م) أن سفر التّكوين صار يُقرأ كله في الصّوم المقدّس الكبير[٤٣]. ويذكر القدّيس أمبروسيوس (٣٣٩ - ٣٩٧م) أن نفس هذا النّظام كان متبعاً في طقس كنيسة ميلان[٤٤].

ويشترك الطّقس البيزنطي مع طقس ميلان في قراءة سفري التّكوين والأمثال في فترة الصّوم المقدّس الكبير، ويضيف الطّقس الآشوري على هذين السفرين قراءة سفر يشوع ورسالة القدّيس بولس الرسول إلى أهل رومية.

ونلاحظ أن منهج القراءات الكنسيّة في الطّقس الآشوري في الصّوم الكبير، يأخذ الأسفار الأولى للتّوراة وللأنبياء طبقاً للتّقسيم اليهودي، مما يتّضح معه أن فترة الصّوم المقدّس الكبير صارت هي بداية الدّورة اللّيتورجيّة للقراءات الكنسيّة في هذا الطّقس.

وهناك أيضاً ظاهرة قديمة واسعة الانتشار بين الطّقوس المختلفة،

43- PG 49, cc. 92f.

44- *De Mysteriis*, I (PL XVI, cc. 405ff).

وهي قراءة إنجيل القدِّيس يوحنا في فترة الخمسين المقدَّسة، وهو ما يمارسه الطَّقس القبطي والطَّقس البيزنطي حتى الآن. حيث تبدأ قراءته في يوم أحد القيامة نفسه وتستمر طيلة الخمسين المقدَّسة (زمن الفصح). وفي الطَّقس القديم لمدينة أورشليم - كما نعلم ذلك من نظام كنيسة جورجيا - كانت هذه القراءات من إنجيل القدِّيس يوحنا تبدأ في الأحد الثَّاني للقيامة.

إن قراءة إنجيل القدِّيس يوحنا كانت بكل وضوح جزءاً من دورة قراءات ليتورجيَّة سنويَّة حوت فيها قراءة الأربعة أناجيل أيضاً. ففي الطَّقس البيزنطي الآن، نجد أن دورة قراءة الأربعة أناجيل تكون حسب التَّسلسل: يوحنا - متى - لوقا - مرقس. وهو التَّسلسل الذي يُعرف باسم "مُجمل الأسفار الإلهيَّة - Σύνοψις τῆς θείας γραφῆς" والذي يُنسب للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم(٤٥). وواضح أن كنيسة القسطنطينيَّة كانت قد نقلت هذا النِّظام عن كنيسة أنطاكية السِّريانيَّة.

وهناك ترجمة عربيَّة للأناجيل قبل الإسلام، لازالت موجودة في مخطوطين، الأوَّل في الفاتيكان، والآخر في مكتبة برلين مؤرَّخ بتاريخ سنة ٤٣٨م، وهذه النُّسخة الهامة للأناجيل تحوي هوامش rubrics تشير بوضوح إلى نظام القراءات في الطَّقس القديم في أورشليم. وتُظهر بكل جلاء أن قراءة الأربعة أناجيل كانت حسب التَّرتيب: يوحنا - متى - لوقا - مرقس. وهو نفس التَّرتيب الذي كان معروفاً للعلاَّمة أوريجانوس المصري، كما أثبت ذلك العالم ثيؤدور زان Theodor Zahn ، وهو التَّرتيب الأوَّلي الذي رُتِّبت عليه الأناجيل في مخطوط فريد كهذا.

45- PG, LVI, cc 313 – 386.

ولقد استعارت الكنائس من بعضها البعض نظم القراءات الكتابيَّة حتى إلى حد حدوث تداخلات واضحة في نظام القراءات الكتابيَّة في الكنيسة الواحدة. فسبق أن ذكرتُ منذ قليل أن سفر التَّكوين كانت تبدأ قراءته مع بداية الصَّوم المقدَّس الكبير في كنيسة أنطاكية على اعتبار أن الصَّوم الكبير هو بداية السَّنة اللِّيتورجيَّة. ولكن من جهة أخرى وبحسب كتاب القراءات الذي وضعه البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الخامس سنة ١٠٠٠م نجد أنه جعل الأحد التَّالي مباشرة لعيد القيامة بداية قراءة لأسفار التَّكوين واللاويين والتَّثنية وإرميا. إذاً ففي هذا النِّظام الأخير نجد أن السَّنة اللِّيتورجيَّة تبدأ من عيد القيامة. فعلى الرَّغم من أن هذين النِّظامين قد شُهد لهما بشهادات مبكِّرة، إلاّ أن هاتين الممارستين لا يمكن أن تنشأ من نفس المكان الواحد، وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن نظاماً منهما قد نشأ في نفس المكان، أما النِّظام الآخر فقد وفد من طقس آخر.

وعلى نفس هذا النَّسق نستطيع أن نتبيَّن مقدار التَّداخل في فصول القراءات الكتابيَّة بين كنيسة أورشليم القديمة، وكنيسة الإسكندريَّة، وكنيسة القسطنطينيَّة، ولاسيَّما في فترة الصَّوم المقدَّس الكبير. مما يظهر معه أن كنيسة مدينة إلهنا أورشليم كان لها تأثيرٌ واضحٌ على كنيسة مصر(٤٦).

وعلى نفس هذا النَّسق نستطيع أن نختبر العلاقة بين كنيسة روما والشَّرق المسيحي فيما يختص بفصول القراءات، وكيف تأثَّرت روما إلى حد كبير بنظام القراءات الكتابيَّة من بعض كنائس الشَّرق.

فالقراءات في كنيسة روما في آحاد الخمسين المقدَّسة مأخوذة من الرَّسائل الجامعة Catholic Epistles ، وفصول الأناجيل التي تُقرأ في هذه

٤٦- عرضتُ لذلك الأمر بشرح أوفر في حديثي عن القراءات الكتابيَّة في الصَّوم المقدس الكبير، وذلك في كتاب "صوم نينوى والصَّوم المقدَّس الكبير".

الفترة مأخوذة من إنجيل القدّيس يوحنا. فهل كان في روما منذ عصور بعيدة قراءة متّصلة lectio continua للرّسائل الجامعة ولإنجيل القدّيس يوحنا كما كان في الشّرق؟. فإن كانت الإجابة بنعم، فكيف يمكننا أن نفسّر هذا التّوافق المدهش بين كنيسة روما وكنيسة أورشليم؟. هنا يتّضح لنا تأثير الشّرق على كنيسة روما منذ عصور موغلة في القدم. فليس من شك من أن روما قد استعارت كثيراً من الممارسات اللّيتورجيّة من الشّرق اليوناني، لاسيّما فصول القراءات، ونورد فيما يلي بعض الأمثلة لذلك:

في الأحد الخامس من الصّوم الكبير[٤٧]، يُقرأ فصل من الرّسالة إلى العبرانيّين (٩:١١ - ١٥)، وهو فصل نجده معزولاً تماماً عن الفصول التي تُقرأ من الرّسائل الأخرى في باقي حدود الصّوم. فضلاً عن أنه لا يمكننا تفسير وجود هذا الفصل من الرّسالة إلى العبرانيّين في هذا الأحد الخامس نظراً لعدم وجود رباط بينه وبين عناصر القراءات الأخرى لهذا اليوم. ولكن إن عُدنا إلى الشّرق المسيحي نجد أن هذا الفصل من الرّسالة إلى العبرانيّين موجود بنصّه في هذا اليوم ضمن قراءات متتابعة مختارة اختياراً حراً من الرّسالة إلى العبرانيّين لسبوت وآحاد الصّوم الكبير. وهذه ليست الحالة الوحيدة التي يمكن فيها للشّرق أن يفسّر اختيار القراءات الكتابيّة لكنيسة روما.

٤٧- يُسمى في الغرب "أحد الآلام - Passion Sunday" وهناك ممارسات ليتورجيّة خاصة تبدأ مع هذا اليوم. وتُسمى الفترة ما بين أحد الآلام وسبت الفرح بـ "زمن الآلام - Passion Tide". أما هذه الممارسة اللّيتورجيّة في هذه الفترة فمنها وضع ستور أرجوانيّة تحجب الصّلبان والأيقونات والتّماثيل في الكنيسة باستثناء أيقونة المصلوب في يوم الجمعة العظيمة. وتُحذف الذّكصا "المجد للآب والابن..." من المزامير ... الخ. ولقد تبدّل هذا الوضع منذ سنة ١٩٦٩م، ولم يعد لأحد الآلام ممارسات ليتورجيّة قديمة خاصة به، واقتصرت فترة الآلام على أسبوع الآلام فقط.
Cf. ODCC., (2nd edition), p. 1039, 1040.

أمّا المثال الآخر فنأخذه من الأحدين المسمين Oculi. Reminiscere ففي الأحد الأوّل منهما يأتي فصل من الرّسالة الأولى للقدّيس بولس الرّسول إلى أهل تسالونيكي (١تسالونيكي ٤:١ - ٧)، وفي الأحد الثّاني رسالته إلى أهل أفسس (أفسس ٥:١ - ٩). وهما فصلان يتحدّثان عن خطايا الجسد، ولا ارتباط بينهما وبين فصول الأناجيل التي تُقرأ في هذين الأحدين. ولكن إن عُدنا إلى كتاب القراءات الكنسيّة لكنيسة أنطاكية والذي وضعه البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الخامس سنة ١٠٠٠م، والذي سبق ذكره، نجد أنه في هذين الأحدين، تأتي فصول القراءات من سفر التّكوين (٢٠:١٨ - ٢٣)، (١:١٩ - ١٤) على التّوالي، وهي الفصول التي تعدّد جرائم وخطايا السّدوميّين والعقاب الذي حلّ بهم. فمن البديهي إذاً أن نعرف أن هذه الفصول من العهد القديم كانت تُقرأ في روما في هذا الوقت قبل أن تندثر قراءة العهد القديم من كنيستها. وكان من الطّبيعي أن تأتي فصول رسائل العهد الجديد موافقة لنظيرتها من العهد القديم والتي كانت تُقرأ في نفس هذا اليوم. وهذا يفسر لنا ببساطة سبب وجود هذين الفصلين من رسائل القدّيس بولس الرّسول في هذين الأحدين المذكورين.

بل ويتّضح لنا أيضاً نقاط الالتقاء والتّوافق بين طقس روما وبين هذه الوثيقة الأنطاكية في الآحاد التّالية لهذين الأحدين المذكورين. ذلك لأن كتاب القراءات السّرياني الأنطاكي قد أشار إلى قراءة من سفر التّكوين (١:١٥ - ٢١)، حيث يسرد وعود الله لإبراهيم. وهو الفصل الذي يُفسر تماماً اختيار جزء من الرّسالة إلى غلاطية موافق له (غلاطية ٢٢:٤ - ٣١) والذي يشير هو أيضاً إلى هذه الوعود لإبراهيم، ولكن هذا الفصل من الرّسالة لا وجود لأدنى علاقة بينه وبين فصل الإنجيل الذي يُقرأ في هذا اليوم في طقس روما. وهذا يكفي لتوضيح مقدار العلاقة بين

طقس أنطاكية وطقس روما من جهة فصول القراءات الكتابية الكنسيّة.

ولكن لا تزال هناك علاقة أيضاً بين الطّقس السّرياني وكلا الطّقسين الأسباني والغالي. ففي كتاب قراءات قديم للطّقس الغالي، تشير القراءات في بداية الصّوم المقدّس فيه إلى قراءة من سفر إشعياء (١:٥٨ - ١٤)، وفي يوم الجمعة العظيمة إلى قراءة أخرى من نفس السِّفر (إشعياء ١٣:٥٢ - ١٢:٥٣)، وهما الفصلان اللّذان لازال الطّقس الآشوري يحتفظ بهما في هذين اليومين، بينما رسالة القدّيس بولس الرّسول الأولى إلى أهل كورنثوس (١:١٥ - ١٨) والتي وردت في هذه الوثيقة القديمة تتّفق مع ما أورده البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الخامس في كتاب القراءات الذي وضعه.

ونجمل القول بملاحظة جديرة بالاعتبار تختص بنظام اختيار فصول للقراءة من أسفار العهد القديم، وهي أنه يلزمنا أن نعتبر جيداً لما كان يمارسه المجمع اليهودي من قراءات، لأنه يتعذّر أن يرتّب المجمع اليهودي قراءات لا علاقة لها البتّة بما رتّبته الكنيسة المسيحيّة في عصورها المبكّرة.

لأنه في بداية الصّوم المقدّس الكبير يتّفق التّقليدان السّرياني والغالي مرّة أخرى على اختيار فصل مشترك من سفر إشعياء النّبي (١٤:٥٧ - ١٤:٥٨)، وهو نفس الفصل من القراءة الذي حدّده التّلمود بدقّة، وأمر أن يُقرأ في عيد الكفارة اليهودي. فضلاً عن أن كتاب القراءات السّرياني المنسوب للبطريرك الأنطاكي أثناسيوس الخامس يحوي توافقاً مدهشاً مع طقس المجمع اليهودي الحالي في اختياره فصولاً للقراءة تختص بالفصح، وذلك من سفر اللاويين (١:٢٣ - ١٠)، وسفر التثنية (٧:١٦ - ١٨). وكذلك قوانين فصحية من سفر يشوع (١٠:٥ - ١:٦)، وحديث عن الاحتفال بالفصح في الجلجال من سفر الملوك الثّاني (٢ملوك ٢١:٢٣ -

٢٤) للاحتفال بالفصح بقيادة يشوع.

وحالة أخرى مثل السَّابقة عندما يشير مخطوط أثناسيوس الخامس البطريرك السِّرياني إلى قراءة من سفر اللاويين (٢٣:١٦ - ٣٢) في الأحد الأوَّل من الصَّوم، بينما يقرأ المجمع اليهودي في طقسه الحالي فصلاً من سفر اللاويين، ولنفس الأعداد السَّابق ذكرها مباشرة في يوم الكفَّارة.

ولقد قام العالم اليهودي L. Venetianer بعمل دراسة أوضح فيها العلاقة الوثيقة بين قراءات المجمع اليهودي، وقراءات القدَّاس الحالي في طقس روما، موضحاً أن بعض الفصول المبكِّرة أو القديمة قد عبرت إلى كنيسة روما من طقس قراءات المجمع اليهودي. ولكن من جانب اليهود أنفسهم، فإن فصول القراءات القديمة لديهم قد استُبدلت بأخرى جديدة كي لا تتوافق مع ما تمارسه الكنيسة المسيحيَّة.

وعلى ذلك فإن ما تمارسه كنيسة روما من قراءات في طقسها الحالي قد حفظ النِّظام اليهودي القديم في ترتيب القراءات، وهو النِّظام الأقدم، ولكنه مختلف الآن عما يمارسه المجمع اليهودي، لأن بعض الشَّواهد تؤكد ذلك من كتاب المشنا Mishna وكتاب التَّلمود Talmud [٤٨].

وطبقاً للتَّقليد السَّائد في الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة، فهناك ثلاث قراءات: واحدة من العهد القديم، وواحدة من الرَّسائل أو سفر أعمال الرُّسُل، وواحدة من أحد الأناجيل الأربعة، باستثناء الكنيسة القبطيَّة التي تتميَّز بأربعة قراءات في صلواتها الليتورجيَّة: الأولى من رسائل بولس الرَّسول (البولس)، والثَّانية من الرَّسائل الجامعة (الكاثوليكون)، والثَّالثة

48- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 123 ff.

من سفر أعمال الرُّسُل (الإبركسيس)، والرَّابعة من الإنجيل المقدَّس.

أما قراءات الكنيسة القبطيَّة من أسفار العهد القديم فقد انحصرت في زمن الصَّوم المقدَّس الكبير وأسبوع الفصح في صلوات رفع بخور باكر قبل فصل الإنجيل المقدَّس.

طقس قراءة الفصول الكتابيَّة في القدَّاس القبطي

فيما يلي أُوردُ حديثاً عن طقس قراءات الفصول الأربعة في القدَّاس القبطي طبقاً لما ورد عنه في مصادرنا الطَّقسيَّة القديمة. وقبل ذلك أُوردُ فقرة من قوانين الكنيسة في القرون الوسطى:

فنقرأ في القانون الرَّابع من قوانين البابا كيرلس الثَّاني (١٠٧٨-١٠٩٢م) "يجب على كل أسقف كشف حال كهنته بالدِّيارات والنَّواحي، وبحث أمرهم في طرائقهم وقدَّاساتهم وما يلزموا به أنفسهم من قراءة الخمس قراءات في كل قدَّاس التي هي البولس والكاثوليكون والإبركسيس والزَّبور (المزمور) والإنجيل، وأنه يُقرأ لكل واحد من هذه الكُتُب أوشيَّة، وأنهم لا يؤخِّرون شيئاً منها. فمن أخَّر في قدَّاسه قراءة شيء من هذه الكُتُب الخمسة كان محروماً من الله سُبحانه".

والفصول الأربعة التي تُقرأ من كتاب العهد الجديد في اللِّيتورجيَّة القبطيَّة (البولس، الكاثوليكون، الإبركسيس، الإنجيل) - بالإضافة إلى آيات من المزامير - هي سمة مميِّزة لها[٤٩].

49- Davis, J.G., *op. cit.*, p. 153

(١) فصل البولس وأوشيّته

يورد لنا ابن سباع في القرن الثّالث عشر الميلادي في إبداع طقس قراءة فصل البولس في الكنيسة، فيقول بأن الأرشيدياكون أي رئيس الشمامسة يأذن لأحد الأغنسطسين بقراءة البولس ويفسّر ما يقرأه إن كان يحسن التّفسير جيداً، ويكون قد أتقنه. وإن لم يكن مفسراً في البيعة فليصمت النّاطق باللّسان الغريب كقول الرّسول متى. وعلى الأغنسطس أن يتقن التّفسير في دار للعلم خارجاً عن الكنيسة، فإن الكنيسة بيت للصّلاة وطلب الغفران، وما هي دار علم واستفهام.

ويكمّل قائلاً: وكل قارئ فصل من فصول الكنيسة لأي من الطّغمات السّبع المذكورين يجب عليه بعد قراءة الفصل أن يسجد لله تعالى قدّام باب الهيكل، وبعده السّجود للجماعة في الخورسين. أما السّجود لله تعالى فلأنه أنعم عليه بنعمة الرّوح القدُس بأن يكون من جملة الإكليروس. وأما السّجود للنّاس فكأنه يقول لهم ها الفم الذي وعظكم وعلّمكم ها هو موضوعاً تحت أقدامكم وقد شابه تواضع الابن الأزلي مستحق ميراث أبيه[٥٠].

وقول ابن سباع بأن الأغنسطس يفسّر للشّعب ما قرأه يعني بذلك إعادة ما قرأه للتّو بالقبطيّة ليقوله مرّة أخرى باللّغة العربيّة ليفهم الشّعب.

وكان البابا غبريال الثّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) متشدّداً إلى الغاية في ضرورة أن يكون الشّمامسة متقنين للّغة العربيّة ليمكنهم قراءة فصول القراءات الكتابيّة قراءة صحيحة، ليفهم الشّعب. بل ذهب إلى القول بأن الشمّاس الذي لا يعرف أن يقرأ الإنجيل باللّغة العربيّة جيداً

٥٠- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٧

ليس من حقه دخول الهيكل لخدمة القدَّاس. فيقول في قانونه الثَّاني:

"لا يقدَّس شمَّاس إلاَّ إذا قرأ إنجيل القدَّاس، ما خلا أن يكون أسقف حاضر ويريد أن يكرِّمه. فأمَّا بقية الفصول وإنجيل باكر فيساعده في قراءهَا من حضر من الكهنة. ومن لا يعرف أن يقرأ الإنجيل فليس له قدَّاس. وأما الشَّمامسة الذين لم يقدَّسوا إلى الآن، فلا يقدَّس أحد منهم إلى أن يجوِّد القراءة؛ بل يقرأ القراطيس[٥١] وإنجيل باكر (فحسب)، فإذا حذق القراءة وجوَّد فيما يقرأه[٥٢]، عُمل بذلك ورقة وفيها خطوط[٥٣] القسوس ومقدِّمي الكهنة بأنه قد تمَّهر في قراءة الكُتُب، وسُيِّرت إلى القلاَّية (البطريركيَّة)، ويُوقَّع عليها بالسَّماح له في القدَّاس وأخذ الطَّقس كأمثاله بمقتضى ما أُخذت به خطوط[٥٤] القسوس.

وعند البابا كيرلس الثَّالث بن لقلق (١٢٣٥-١٢٤٣م) نقرأ ما يلي: "... فأما تفسير الكُتُب عربياً[٥٥] فليس هو طقس في البيعة، بل (هو) لكل من يعرف ما يقول **ويفسِّر جيداً**، قساً كان أو شماساً".

وهو نفس ما يكرِّره ابن كبر (+ ١٣٢٤م) قائلاً: "وأما تفسير الكُتُب عربياً فليس هو طقساً في البيعة".

وذلك ليس بمعنى أنه لم يكن هناك طقس لقراءة الفصول الكتابيَّة بالعربيَّة، ولكن بمعنى أن القراءات بلغتها القبطيَّة كانت تخضع لطقس

٥١- أي يقرأ فصلي الرسائل (البولس والكاثوليكون) وفصل أعمال الرُّسُل (الابركسيس) بالقبطيَّة.

٥٢- أي جوَّد القراءة بالعربيَّة.

٥٣- أي توقيعات

٥٤- أي توقيعات

٥٥- أي قراءة رسائل البولس والكاثوليكون وفصل الإبركسيس.

محدَّد دون العربيَّة؛ فيقرأ البولس والإبركسيس بالقبطيَّة ثالث الشَّمامسة، ويقرأ إنجيل باكر ثاني الشَّمامسة، أما فصل الكاثوليكون فهو للأوَّل بين الشَّمامسة الخادمين أو للأرشيدياكون. أما تفسير هذه الفصول بالعربيَّة فلم تكن تخضع لهذا الطَّقس. ونلاحظ أن ابن كبر يقول بأن الكاثوليكون بالإسكندريَّة هو **للمقدِّس** دائماً. والمقصود هنا هو **الشمَّاس المقدِّس**، المنوط به قراءة فصل إنجيل القدَّاس، وخدمة القدَّاس مع الكاهن، وهو الذي يبقى مع الكاهن في الهيكل أثناء تقسيم الجسد المقدَّس. وهو الذي يقرِّب الشَّعب إذا أمر له الأسقف أو القسيس بذلك[٥٦]. وعند البابا غبريال الثَّاني بن تريك (١١٣١-١١٤٥م) نقرأ: "... والشَّماس المقدِّس لا يبرح (الكنيسة) حتى يفرغ (من) تقريب النَّاس ويسرِّحهم"[٥٧].

وإن ما يهمنا هنا هو أن الكنيسة ظلَّت تؤكِّد منذ القدم بأن القارئ يلزم أن يكون عارفاً بما يقرأه متقناً له، مستوعباً لكل معانيه، وإلاَّ كيف يفهم الشَّعب من قارئ لا يفهم جيداً ما يقرأه؟[٥٨].

ويؤكِّد ابن كبر ما سبق ذكره للتو حين يقول ما نصُّه: "ويقرا القراطيس وهي فصل من بولس وفصل من القتاليقون وفصل من الابركسيس ويفسر عربيا ليفهم الشعب معانيها لقول الرسول وإن لم يكن في البيعة من يترجم فليصمت القارئ"[٥٩].

٥٦- انظر القانون ٣١ من قوانين هيبوليتس القبطيَّة.

٥٧- القانون الثاني للبابا غبريال بن تريك من مجموعة الـ ١٠ قوانين التي له.

٥٨- يؤسفني كل الأسف أن كثيرا من القارئين للفصول الكتابيَّة في الكنيسة لا يتقنون اللغة العربيَّة، ومن ثم فالأخطاء اللغويَّة فاضحة، وتشكيل الكلمات ينم عن انهيار واضح للتَّعليم في المدارس، وقد ظهرت آثاره ونتائجه في الكنيسة. وبات الاعتناء بدراسة اللغة العربيَّة أمر حتمي.

٥٩- الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب

إن مقدّمة فصل البولس بالقبطيّة هي مقدّمة مبدعة، تلك التي بات من الواضح أنها آخذة في الاندثار، ناهيك عن لحنها الجميل الذي يهيئ ويمهّد النّفس لقبول كلمة الله. أما هذه المقدّمة فهي: "بولس عبد ربّنا يسوع المسيح المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله".

وكان القارئ يرتّل فصل البولس كله ملحناً، ثم أصبح يتلو ما يلائم من بعض الآيات الأولى منه فقط، ثم يختم بقوله: "النّعمة معكم والسّلام معاً، آمين يكون".

إن المقدّمة مع خاتمتها وما بينهما من بضع آيات من أوّل الرّسالة هي نغمة محبّبة، كم وفّرت فرصة مباركة للجلوس في بيت الرّب لتأمّل كلمته المقدّسة في تمهُّل وتأن.

وكان طبيعياً حين تمّت ترجمة فصل البولس من اللُّغة القبطيّة إلى اللُّغة العربيّة أن يظل محتفظاً بنفس مقدّمته وخاتمته ولحنه المميّز. ولكن حدث أن أورد القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) في حاشية في الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م أن مقدّمة البولس هي: "فصل من رسالة معلمنا بولس الرّسول إلى (...) بركته علينا آمين". وفي ختام البولس يقول: "نعمة الله الآب تحل على أرواحكم يا آبائي[٦٠] وإخوتي آمين". وهي المقدّمة والخاتمة المنتشرة اليوم في عموم الكنائس القبطيّة[٦١].

مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

٦٠- معظم الطّقوس الشرقيّة تعرف تعبيري "يا إخوتي"، و"يا أحبائي". أما تعبير "يا آبائي" فلا تعرفه كافة الطّقوس في أصولها القديمة، ومن بينها الطّقس القبطي أيضاً.

٦١- كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٤٣ حاشية ١

وكم تكون دهشتنا الآن حين نواصل ما تشرحه كتبنا الطقسيَّة عن طقس قراءة فصل البولس كما مارسته الكنيسة منذ القديم، لنعرف كيف ربطت الكنيسة قراءة فصل من الكتاب المقدَّس مقروناً بالصَّلاة، لكي يفتح الرَّب أذهان السَّامعين، فتبلغ كلمة الإنجيل غايتها لتخلِّص القارئ والسَّامع معاً. فيقول ابن سباع — بلغته العربيَّة المعروفة عنه - وذلك بعد أن ينتهي القارئ من قراءة فصل البولس والسُّجود لله وللشَّعب: "ثم بعد ذلك يقف الكاهن قدام الهيكل بعد قراءة البولس والشماس معه عن يمينه ويقول الشماس قفوا للصلاة ثم يقول الكاهن ايرينباسين التي هي السلام لجميعكم يقول الشعب مجاوبا له كاطبناوماتيسوا أي ومع روحك هذا السلام ثم يقول الكاهن الصلاة التي تختص بالبولس والشعب كله ناصتا صاغيا لأن الكاهن اذا نطق في البيعة ما لاحد ان ينطق معه فاذا فرغت الصلاة امن الشعب على فروغها بقولهم من فم واحد يارب ارحم"(٦٢).

أما ابن كبر فيقول بأن هذه الأوشيَّة - مع أوشيَّة الكاثوليكون - يقولها الكاهن قدَّام الحجاب، فيقول ما نصُّه: "وبين هذه الفصول أواشي يقرأها الكاهن قدام الحجاب إحداهما في البولس والأخرى في القتاليقون وهما Ⲡⲟⲥ Ⲡⲉⲛⲛⲟⲩϯ .. Ⲡⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲥⲛⲱⲥⲓⲥ".

ويؤكِّد مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex أن هذه الأوشيَّة تقال بعد قراءة فصل البولس، فعنوانها في المخطوط المذكور هو: "صلاة تقال من بعد الأبسطلس". وهو نفس ما يذكره عن أوشيَّة الكاثوليكون(٦٣).

أعلمُ قارئي العزيز أنك لم تسمع نص أوشيَّة البولس ولو مرَّة واحدة

٦٢- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٨

63- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 319.

في الكنيسة، تلك الأوشيَّة التي كان يصليها الكاهن على مسمع من الشّعب كله بعد إصغائهم لفصل البولس! فإليك نصُّها الليتورجي البديع:

"يارب المعرفة ورازق الحكمة، الذي يكشف الأعماق من الظُّلمة، والمعطي كلمة للمبشِّرين بقوَّة عظيمة. الذي من قِبَل صلاحك دعوتَ بولس هذا الذي كان طارداً زماناً، إناءً مختاراً. وبهذا سُررتَ أن يكون رسولاً مدعوّاً وكارزاً بإنجيل ملكوتك أيها المسيح إلهنا. أنت الآن أيضاً أيها الصَّالح محب البشر، **نسألك أنعم لنا ولشعبك كله بعقل غير منشغل وفهم نقي، لكي نعلم ونفهم ما هي منفعة تعاليمك المقدَّسة التي قُرئت علينا الآن من قِبَله.** وكما تشبَّه بك أنت يا رئيس الحياة، هكذا نحن أيضاً اجعلنا مستحقين أن نكون متشبِّهين به في العمل والإيمان، ممجِّدين اسمك القدُّوس، ومفتخرين بصليبك كل حين. وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد والإكرام والسُّجود مع أبيك الصَّالح والرُّوح القدس المحيي المساوي لك، الآن وكل أوان ...".

وطبعاً أسقطت الخولاجيَّات مرد الشَّعب: "يارب ارحم" بعد أن صارت أوشيَّة البولس صلاة سريَّة يقولها الكاهن الذي ينشغل بكم كبير من الصَّلوات السريَّة، فلا يتوفَّر له الوقت ليصغي إلى القراءات، وفي ذات الوقت يقول: "أنعم لنا ولشعبك كله بعقل غير منشغل وفهم نقي ...".

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فيقول في ذلك: "ويرتِّل أحد الشَّمامسة البولس [illegible] في حال تفسيره عربياً يقول الكاهن الشَّريك Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲛⲱⲥⲓⲥ (يارب المعرفة) وإن كان ما معه كان شريك يقولها الخديم".

ومن قول البابا غبريال الخامس السَّابق ذكره يظهر لنا بكل وضوح

أن أوشيَّة البولس صارت تُقال سراً منذ أن صار فصل البولس يفسَّر باللُّغة العربيَّة. أي أن قراءة فصل البولس باللُّغة العربيَّة هو الذي حوّلها لتكون صلاة سريَّة، لأن فصل البولس صار يُقرأ مرَّتين بكامله، مرَّة بالقبطيَّة وأخرى بالعربيَّة، وهذا كان يستغرق وقتاً طويلاً إذ دأب الأقباط على الإضافة إلى طقسهم دون أي حذف أو تعديل للقديم. أما الموضع الطّقسي لأوشيَّة البولس فلم يتغيَّر إذ أن موضعها الطّقسي القديم كان يأتي بعد انتهاء قراءة فصل البولس بالقبطيَّة. واليوم لما اكتفت بعض الكنائس بقراءة فصل البولس باللُّغة العربيَّة فقط، لتحل اللُّغة العربيَّة محل القبطيَّة، ظلت أوشيَّة البولس تُقال سراً.

وكان البابا غبريال الثّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) هو أوّل من اعتنى بضرورة تعلُّم اللُّغة العربيَّة وإتقانها بدروس صباحيَّة يوميَّة، لتعين على قراءة صحيحة للفصول الكتابيَّة باللُّغة العربيَّة في خدمة الصّلوات اللّيتورجيَّة. ففي القانون العاشر من قوانينه نقرأ: "علّموا أولادكم كتب الكنيسة من صغيرهم إلى كبيرهم ... ويجب أن تبتدئوا أنتم أيضاً بتعليم أولادكم الكهنوت في بداية كل نهار قبل (دروس اللُّغة) العربيَّة، ولا تفرِّطوا في ذلك".

وفي حين ترد أوشيَّة بخور البولس عند ابن كبر في القرن الرّابع عشر، ومن بعده البابا غبريال الخامس في القرن الخامس عشر، إلاَّ أنها لم ترد في مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex الذي أورد النّص اليوناني لقدّاسات الكنيسة القبطيَّة، وهو مخطوط يعود إلى القرن الرّابع عشر الميلادي، بل أورد أوشيَّة أخرى بدلاً منها[٦٤].

64- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 318.

(٢) فصل الكاثوليكون وأوشيَّته

وهو فصل من واحدة من الرَّسائل السَّبعة الجامعة[٦٥].

أما مقدِّمة فصل الكاثوليكون بالقبطيَّة هي: "الكاثوليكون من أبينا ... يا أحبائي". أما خاتمته فهي: "يا إخوتي[٦٦]، لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم. العالم يزول وشهوته، أما الذي يصنع مشيئة الله فهذا يثبت إلى الأبد. آمين".

تأمَّل جمال الكنيسة ورقَّتها في مقدِّمة وخاتمة الرِّسالة عندما تخاطب جموع الشَّعب بفم الشمَّاس قائلة: "يا أحبائي، يا إخوتي". وهو ما سقط استخدامه في المقدِّمة والخاتمة للرِّسالة عند قراءتها بالعربيَّة، إذ يكتفي القارئ بقوله: "الكاثوليكون من رسالة معلِّمنا ... بركته علينا آمين"، ويختم بنفس ختام العبارة السَّابقة بعد حذف كلمة "يا إخوتي". ولستُ أدري سبباً لتغيير مقدِّمة وخاتمة الرِّسالة عند ترجمتها إلى العربيَّة، ولكن هذا هو ما سجَّله كتاب "خدمة الشمَّاس"، وكتاب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م الذي يورد الخاتمة بعبارة وجيزة غير التي أوردها كتاب "خدمة الشمَّاس".

وجدير بالذِّكر هنا أن تعبيري "يا أحبائي"، و"يا إخوتي" هو تعبير تعرفه الطُّقوس السِّريانيَّة والبيزنطيَّة وأيضاً طقس كنيسة روما.

وعند البابا غبريال الخامس: "وبعد قراءة القتاليقون قبطياً، وفي ضمن (أثناء) تفسيره عربياً يقول الكاهن الخديم خاصة سرّ القتاليقون

٦٥- وهي: رسالة القدِّيس يعقوب الرَّسول، ورسالتا القدِّيس بطرس الرَّسول، وثلاث رسائل القدِّيس يوحنا الرسول، ورسالة القدِّيس يهوذا الرَّسول.

٦٦- أسقط كتاب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م كلمة "يا إخوتي" (ص ٢٤٧).

Ⲡⲟ̅ⲥ̅ Ⲡⲉⲛⲛⲟⲩϯ ⲫⲏⲉⲧⲉ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲉⲕⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ (أيها الرَّب إلهنا الذي من قِبَل رسلك القدِّيسين ...)[٦٧]".

وهي أوشيَّة موجَّهة للآب. ونلاحظ أن أوشيَّة البولس السَّابقة لهذه الأوشيَّة كانت موجَّهة للابن.

أما ابن سباع فيقول بتحديد أكثر وبأسلوبه المعهود: "ثم ان ارشي دياقن الكنيسة يامر احد الابودياقنين بقراآة القتاليقون لان القتاليقون اكبر وضع من البولس ... صار للابودياقن قراته كونه اكبر وضع من الاغنسطس ثم يفسر من يحسن التفسير جيدا ثم يقرا الكاهن صلاة بعد القتاليقون بعد انذار الشمَّاس الشعب بالوقوف للصلاة على العادة"[٦٨].

واضح هنا أن ما يدعوه البابا غبريال الخامس "سرّ الكاثوليكون" هو عند ابن سباع صلاة جهاريَّة يشترك فيها الشَّعب بنداء واضح من الشمَّاس، كما مرَّ في فصل البولس، مع مراعاة أن المصدرين يشيران إلى تفسير فصل الكاثوليكون باللُّغة العربيَّة لمن يجيد العربيَّة بعد انتهاء قراءته باللُّغة القبطيَّة كالعادة. وهنا يتَّضح أن قراءة الفصول الكتابيَّة بالعربيَّة بعد قراءتها بالقبطيَّة لم يكن هو السَّبب في تحويل الصَّلوات المصاحبة للقراءات من صلوات جهاريَّة بمشاركة الشَّعب إلى صلوات سريَّة. ولكن ممارسة هذه الصَّلوات في سريَّة هي الممارسة الطَّقسيَّة التي سادت، في حين توارت الممارسة الأقدم والأصح. ولكن ظلَّت كتب الطَّقس أمينة في تدوين النَّص اللِّيتورجي لهذه الصَّلوات كاملاً.

وقد أورد مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex أوشيَّة أخرى

٦٧- ما بين القوسين من عندي للتَّوضيح.

٦٨- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ١٩٨، ١٩٩.

غير هذه بدايتها: "يا الله الحي إلى الأبد، الذي لك إلى الدُّهور ..."(٦٩).

مرد الإبركسيس

لم يشر ابن سباع إلى مرد الإبركسيس الذي يسبق قراءة فصل الإبركسيس. أما ابن كبر فيقول في ذلك: "... وبعد رفع البخور الثاني وقت هذه الأوشية(٧٠) وقبل قراءة بركسيس يرتل الشعب بصورة من ثاوضوكية يوم الاحد او بعض صوره وهي Ⲧⲟⲧⲉ ⲁ̀ⲗⲏⲑⲟⲥ"(٧١).

وهذا المرد الذي يشير إليه ابن كبر هو الرُّبع السَّادس من القطعة السَّادسة من ثيؤطوكيَّة الأحد وهو: "حينئذ بالحقيقة لا أخطئ في شيء إذا دعوتك الجمرة الذَّهب".

أما البابا غبريال الخامس فيورد مرد الإبركسيس السَّنوي فيقول في ذلك: "وعند انتهاء تفسير القتاليقون يرتلون Ϣⲁⲣⲉ Ⲫϯ ⲱⲗⲓ ⲙ̀ⲙⲁⲩ وبعدها Ⲕ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ ⲁ̀ⲗⲓⲑⲟⲥ وإلا يقولوا كسماروت لا غير(٧٢)".

ويذكر مخطوط ترتيب البيعة بمكتبة دير البراموس لسنة ١٥١٤م:

69- W.F. Macomber, *op. cit.*, 319.

٧٠- يقصد أوشيَّة الكاثوليكون.

٧١- الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

٧٢- أضاف القمُّص عبد المسيح البراموسي في خولاجي سنة ١٩٠٢م قائلاً: ففي ربع Ⲕ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ هذا يقولون Ⲁⲕⲓ أي أتيت. أو Ⲁⲩⲙⲁⲥⲕ أي وُلدت. أو Ⲁⲕϭⲓⲱⲙⲥ أي اعتمدت، أو Ⲁⲩⲁϣⲕ أي صلبت، أو Ⲁⲕⲧⲱⲛⲕ أي قمت. وكان الطَّقس القديم – بحسب المصادر الطَّقسيَّة القديمة – لا يعرف سوى "أتيت"، على مدار السَّنة الطَّقسيَّة باستثناء أسبوع الآلام والخمسين المقدَّسة. ثم تعبير "صُلبت" في أسبوع الفصح المقدَّس، وتعبير "قمت" في الآحاد والخمسين المقدَّسة.

"وعند قراءة الكاثوليكون يرتلون Ⲡⲓⲟⲩⲱⲧ Ⲡⲁⲣⲉ" [٧٣].

وهذا المرد الذي يشير إليه البابا غبريال الخامس هو الرُّبع الثَّامن من نفس القطعة السَّادسة من ثيؤطوكيَّة الأحد ونصُّه: "يرفع الله هناك خطايا الشَّعب من قِبَل المحرقات ورائحة البُخور". فهذا هو مرد الإبركسيس على مدار السَّنة اللِّيتورجيَّة، ولكنه اليَوم يقال كمرد إبركسيس لقدَّاسات أيام الصَّوم المقدَّس الكبير دون سبوته وآحاده! وقد كان بالأولى وهو مرد الإبركسيس السَّنوي كما تشهد مخطوطاتنا القبطيَّة أن نحتفظ به كمرد إبركسيس في قدَّاسات السُّبوت والآحاد في الصَّوم المقدَّس الكبير [٧٤].

وهنا نلاحظ أن مردَّات الإبركسيس بحسب التَّقليد القديم لا تخرج في معانيها عن البُخور والمجمرة الذَّهب، أي عن المسيح الذي رُفع عنَّا بخوراً طيباً إلى الآب من قِبَل تجسُّده من العذراء القدِّيسة مريم التي هي المجمرة الحاملة جمر النَّار، والبُخور الصَّاعد منها. ذلك لأن مرد الإبركسيس يترجم ما يمارسه الكاهن في هذه اللَّحظة عينها وهو يرفع البُخور على المذبح قائلاً: "اقبل منا نحن أيضاً يا سيِّدنا محرقة هذا البُخور، وأرسل لنا عوضه رحمتك ذات الغنى ...". وثيؤطوكيَّة الأحد مليئة بأرباع مبدعة تدور حول هذا المعنى، وهو ما كان يعنيه ابن كبر بقوله إن مرد الإبركسيس هو أحد أرباع ثيؤطوكيَّة الأحد.

ولقد أُضيف كمَّاً ضخماً من مردَّات الإبركسيس لكل مناسبة من المناسبات الكنسيَّة المختلفة لم تلتزم في نصوصها اللِّيتورجيَّة بالتَّقليد القديم

٧٣- الأنبا صموئيل، الجزء الأوَّل، مرجع سابق، ص ٢٢

٧٤- لربما كان المفهوم الخاطئ عن عدم جواز استخدام النَّاقوس في قدَّاسات أيام الصَّوم المقدَّس الكبير دون سبوته وآحاده! وراء ذلك الأمر.

السَّابق الإشارة إليه، وكان من بينها مرد الإبركسيس السَّنوي "السَّلام لك يا مريم الحمامة الحسنة، التي ولدت لنا الله الكلمة". ويشير كتاب خدمة الشمَّاس إلى أن القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) هو الذي أضاف في الطَّبعة الثَّالثة للكتاب المذكور والتي تمت سنة ١٦١٦ للشهداء/ ١٩٠٠ميلادية مردَّات الإبركسيس(٧٥).

أما في خولاجي سنة ١٩٠٢م فيذكر القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هذين المردين السَّابق ذكرهما عند ابن كبر وعند البابا غبريال الخامس، وهما من القطعة السَّادسة من ثيؤطوكيَّة الأحد. ثم يضيف بقوله: "أو يقولون أي ربع آخر من مردَّات الإبركسيس كما يوافق اليوم". ويضيف في الحاشية قائلاً: "ومردَّات الإبركسيس موجودة في القسم السَّادس من كتاب الإبروسات (أو خدمة الشمَّاس) الذي صحَّحناه عن بعض كتب وصار طبعُه في مصر بمطبعة الوطن سنة ١٦١٦ للشُّهداء. ثم أخذنا عنه كل الإبروسات ومردَّات الشَّعب التي تجدها في هذا الخولاجي إذ كنَّا قد صحَّحناها قبلاً في ذاك الكتاب كما ذكرنا"(٧٦).

فيتَّضح أن مردَّات الإبركسيس التي نقولها اليوم في المناسبات الكنسيَّة المختلفة قد جُمعت، وصُحِّحت، ودُوِّنت لأوَّل مرَّة في سنة ١٩٠٠م.

(٣) فصل الإبركسيس وأوشيَّته

مقدِّمة الإبركسيس بالقبطيَّة بلحنها الجميل هي: "أعمال آبائنا الرُّسُل، بركتهم المقدَّسة تكون معنا". وبعد أن يتلو القارئ ما يلائم من

٧٥- كتاب خدمة الشمَّاس والألحان، ملتزم طبعه ونشره جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، ص ٦

٧٦- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٥٥ حاشية ٢

الإستيخونات، يختم بقوله: "وكلمة الرَّب تنمو وتكثر وتعتز وتثبت في بيعة الله المقدَّسة آمين".

وكما حدث في الفصلين الكتابيَّين السَّابقين فقد تم تغيير المقدِّمة والخاتمة هنا أيضاً بواسطة القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) لتكون المقدِّمة: "فصل من قصص! آباتنا **الحواريين الأطهار** المشتملين بنعمة الرُّوح القُدُس، بركتهم تكون معنا آمين". وفي آخره يقول: "لم تزل كلمة الرَّب في هذه البيعة وكل بيعة"(٧٧). شئ عجيب حقاً أن نتخلّص هكذا وبسهولة من تقليدنا القديم.

و"الحَوَارِيّ" مرادف لكلمة "القصَّار" الذي يبيِّض الثِّياب. فنقول "حَوَّرَ الثَّوب" أي "بيَّضه". وعلى ذلك فالحَوَارِيّ هو الذي يحوِّر الثِّياب أي يبيِّضها، فيجعلها ناصعة البياض. وجمعها "الحَوَارِيُّون" وهو لقب أُطلق على تلاميذ السيِّد المسيح، وقيل سُمُّوا كذلك لخلوص نيَّتهم، ونقاء سريرتهم.

والاسم المؤنث من الكلمة هو "الحَوَارِيَّة" وجمعها "الحَوارِيَّات". وحين نقول "أحْوَر العينين"، أو "حَوْراء العينين"، أي ما اشتد بياض بياضهما وسواد سوادهما، والصِّفة المذكَّرة "أحْوَر" أو المؤنثة "حَوْراء" جمعها "حُور".

وفي حين لم ترد كلمة "الحواريين" ولا مرَّة واحدة في الكتاب المقدَّس في طبعته العربيَّة، إذ يحل محلّها كلمة "التَّلاميذ" أو "الرُّسُل" أو ما يرادفهما، فقد أوردها القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) في مقدِّمة الإبركسيس بالعربيَّة، كما يذكر كتاب خدمة

٧٧- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٥٦

الشمّاس. ومن الملاحظ - طبقاً لما سبق ذكره - فإن صفة "الأطهار" يمكن أن تحل محل صفة "الحواريّين" وتنوب عنها. ولكن تظل المقدّمة التّقليديّة لفصل الإبركسيس "أعمال آبائنا الرُّسُل، بركتهم المقدّسة تكون معنا" هي الأصل(٧٨).

أما عن أوشيّة بخور الإبركسيس، فأوردُ في المتن ما يذكره البابا غبريال الخامس في كتابه "التّرتيب الطّقسي"، وفي الهامش أُوردُ ما يذكره القُمُّص عبد المسيح في خولاجي سنة ١٩٠٢م توضيحاً أو تعديلاً لما يقوله البابا المذكور.

يقول البابا غبريال الخامس: "ويصعد الكاهن الخديم إلى فوق المذبح(٧٩) ويرفع البخور يداً واحدة(٨٠) ويقول ⲞⲨⲰⲞⲨ ⲚⲈⲘ ⲞⲨⲦⲀⲒⲞ (مجداً وإكراماً ...)(٨١) بكمالها ثم يقول(٨٢) ⲪϮ

٧٨- انظر للمؤلف: معجم المصطلحات الكنسيّة، الجزء الثاني، ص ١٥

٧٩- عند القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "وفي ضمن قراءة الكاثوليكون عربياً يصعد الكاهن الخديم إلى المذبح ...".

٨٠- عند القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "**ويرشم على الدّرج رشماً واحداً** ويرفع البُخور يداً واحدة ..."، ولم يشر البابا غبريال الخامس إلى هذا الرّشم. ويكتب القُمُّص عبد المسيح بخط يده تصحيحاً في هامش (ص ٢٥٠) من هذا الخولاجي المطبوع كما يلي: "الرشم هنا لم نجده إلاّ في خولاجي بالبطركخانه نمرة ٢٧ وفيه القنّاسات والمزامير وطلبات". وهو ما أورده الخولاجي في طبعته الثانية والثالثة ص ١٧٦

٨١- ما بين القوسين في هذه الفقرة من عندي للتّوضيح.

وهنا يقول القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي في حاشية في خولاجي سنة ١٩٠٢م: "وعلى رأي البعض تقال أوشيّة القرابين هنا قبل سرّ الإبركسيس إذا كانت لم تُقل في صلاة بخور باكر". وهو ما لم تذكره المصادر الطّقسيّة القديمة. ولم يحدّد القُمُّص المذكور من هم هؤلاء "البعض" الذين قالوا ذلك.

٨٢- عند القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "ثم يقول أوشيّة بخور الإبركسيس سراً ووجهه إلى الشّرق وهي هذه".

ⲪⲎⲈⲦⲀϤϢⲰⲠ ⲈⲢⲞϤ ⲚⲚⲒϬⲖⲎⲖ ⲚⲦⲈ ⲀⲂⲢⲀⲀⲘ (يا الله الذي قبل إليه محرقة إبراهيم ...). والاعتماد في ترتيب الثلاث دورات كترتيب صلاة عشية، وفي عطية البخور أيضاً، ولكن لا يطوف البيعة بكاملها، لكن الخورس خاصة[٨٣]. وإذا انتهى عطية البخور بالخورس ويعود، لا يطلع المذبح كمثل بخور عشية وبخور البولس، لكن يقف أمام باب المذبح ويعطي البخور ثلاث أيادي وهو يقول[٨٤] Ⲫϯ ⲪⲎⲈⲦⲀϤϢⲰⲠ ⲈⲢⲞϤ ⲚϯⲞⲘⲞⲖⲞⲄⲒⲀ ⲚⲦⲈ ⲠⲒⲤⲞⲚⲒ (يا الله الذي قبل إليه اعتراف اللص ...) كما يقولها في صلاة عشية وصلاة باكر وها هنا أيضاً. وإذا انتهى ذلك يعلق المجمرة ويضرب المطانية للمذبح والكهنة والشمامسة[٨٥]".

وقد أورد مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex هذه الأوشيّة[٨٦].

ففي دورة الكاهن بالبخور أثناء قراءة فصل الإبركسيس لا يخرج إلى الخوروس الثاني كما فعل في دورة بخور البولس، وهو تلميح طقسي بديع إلى أن كرازة الرُّسُل الاثني عشر قد انحصرت في اليهوديَّة وأورشليم

٨٣- يضيف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي قائلاً: "ويقول في بخور الشّعب ⲤⲘⲞⲨ ⲚⲚⲖⲀⲞⲤ ⲚⲒⲞϯ (أي: بركة سادتي الآباء الرُّسُل ... الخ) ولا يذهب إلى الخوروس الخارجي بل يعطي البخور للذين فيه وللنساء إذ يبخّر نحوهم بالمجمرة وهو واقف متّجهاً إلى الغرب عند باب الخوروس الدّاخلي قائلاً: ⲠⲈⲔⲖⲀⲞⲤ ⲆⲈ (أي: وأما شعبك فليكن ...) إلى عند ϦⲈⲚ ⲠⲒϨⲘⲞⲦ ⲘⲀⲢⲈϤϢⲰⲠⲒ (بالنعمة ...) فيتممها وهو ملتفت إلى الشّرق". وهذه إضافات طرأت على الطّقس بعد القرن الخامس عشر على أقل تقدير.

٨٤- أضاف القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي: "وهو يقول سرّ اعتراف الشّعب".

٨٥- عدَّل القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي هذه العبارة بقوله: "ويسجد لله أمام المذبح". ويضيف قائلاً: "ويقف مكانه إلى نهاية قراءة الشّعب ⲀⲄⲒⲞⲤ (أجيوس) كما سيأتي. فهذا ما يخص الكاهن الخديم حين قراءة الإبركسيس".

86- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 319.

فقط بينما امتدت كرازة بولس الرّسول إلى الأمم في كل أرجاء الأرض. فهذا هو بولس الرّسول خادم الإنجيل الذي تعب أكثر من جميع الرُسُل.

ومن قول معلّمي البيعة في العصور الوُسطى: "ثمّ يرفع الكاهن البُخور وقت الإبركسيس دفعتين لا غير، ولا يقول ⲁ̀ϥⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ ولكنه يقول ⲟⲩⲱⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲧⲁⲓⲟ ... ودورانه بالبُخور على الهيكل هو كمال سبع دورات، وهي علامة السبع دورات التي دارها بنو إسرائيل حول إريحا عندما أسقط الله أسوارها على يد يشوع بن نون تلميذ موسى النبي، فوضعها آباؤنا ليهدموا قوّة العدو وهدم سور الخطيّة. ثمّ يدور الكاهن بالبُخور على المرتلين والإكليروس لا غير، ولا يعود يطلع بالبُخور إلى الهيكل، فإنه قد عمل السبع دورات"(٨٧).

(٤) السّنكسار

"سنكسار" تعريب للكلمة اليونانيّة συναξάριον (سنكساريون)، وهو نفس اسمه في القبطيّة ⲥⲩⲛⲁⲍⲁⲣⲓⲟⲛ . وهو كتاب يحوي سيَر مختصرة لشهداء الكنيسة وقدّيسيها، وكذلك أعيادها على مدار السّنة الطّقسيّة. وهو في الكنيسة القبطيّة بمثابة تقويم كنسي يعتمد على التّقويم القبطي الذي يبدأ في الحادي عشر من سبتمبر من كل عام ميلادي.

٨٧- كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٣: ١٤

وفي نسخة أخرى من الكتاب المذكور وجدها القُمُّص أرمانيوس حبشي شتا البرماوي: "ولا يطلع الكاهن في هذا الوقت الهيكل مثل الأوّل، فهنا ليس فيه اعتراف. فقد كملت السبع دورات".

كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٤

وأقدم تذكار معروف لدينا لواحد من قديسي الكنيسة الجامعة كان هو سيرة استشهاد القدّيس بوليكاربوس أسقف كنيسة سميرنا في آسيا الصُّغرى، وذلك في رسالة كتبها مسيحيو كنيسة سميرنا سنة ١٥٦م إلى جارهم كنيسة فيلادلفيا. وقد احتفظ لنا يوسابيوس القيصري (٢٦٠-٣٤٠م) بجانب كبير منها. وتذكر الرِّسالة أنه بعد استشهاد هذا الأسقف القدِّيس جمع المؤمنون عظامه التي هي أغلى في قيمتها من الأحجار الكريمة، ووضعوها في مكان مناسب، حيث اجتمعوا للعبادة احتفالاً بشهادته في نفس يوم شهادته من السَّنة التَّالية (٨٨).

ومنذ شهادة القديس بوليكاربوس في سنة ١٥٥م بدأت الكنيسة تقيم تذكارات أعياد الشُّهداء وتحتفل بهم سنوياً في أيام استشهادهم.

إن تذكارات القدِّيسين في أصولها الأولى في كل مكان كانت تنحصر أساساً في عنصرين رئيسيين. العنصر الأوَّل هو تذكارات الشُّهداء المحليِّين، والعنصر الثَّاني هو تذكارات الأساقفة المحليِّين. وفي كلا الحالتين كان الاحتفال بتذكاراهم ملازماً ومرتبطاً بقبورهم حيث دُفنوا.

فنجد مثلاً أنه في إقليم فرنسا قد عُثر حديثاً بواسطة ماي Mai على بقايا تقويم كنسي (سنكسار) يحوي عدَّة شهداء محليِّين، أي من إقليم الغال فقط. ونجد أن القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) يقصر عظاته التَّذكاريَّة على الآباء الكبادوكيين، كما نجد يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) يقصر عظاته على الأنطاكيين.

88- Otto Menardes, *A Comparative Study on the Sources of the Synaxarium of the Coptic Church*, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 17, Le Caire, 1964, p. III.

وبمرور الوقت واعتباراً من القرنين الرّابع والخامس فصاعداً بـدأت الكنائس في اقتباس سير شهداء غير محلّيين[٨٩]. فنجد القدّيس أغسطينوس (٣٥٤_٤٣٠م) في عظاته يتّسع ليشمل شهداء من أسبانيا مثل الشّـهيد فركتوزيوس، وشهداء من روما مثل القدّيس أجنس، وشهداء من فرنسا مثل الشّهيدين بروتاسيوس وجرماسيوس.

ثم انتقل الاحتفال بتذكاراتهم من النّظام الأوّلي المرتبط بمحل دفنهم إلى اللّيتورجيّا نفسها، حيث أصبح هناك ارتباط بين تذكارات القدّيسين في مكان ما، واللّيتورجيّة التي تقام في هذا المكان نفسه، وهو ما عُـرف باسم "النّظام الثّابت – Stational system". وقد وُجد هذا النّظـام في مصر وسوريا وبلاد الغال وروما أيضاً، وساد فيما بعد في كنيسة ميلان وكنيسة القسطنطينيّة. وفوق هذا كله فقد ساد هذا النّظـام في كنيسـة أورشليم كما تخبرنا الرّاهبة السّائحة الأسبانيّة إيجيريا.

ومع التّذكارات التي للشُهداء والقدّيسين والتي لم تكن تتعـدّى يوم استشهادهم أو يوم نياحتهم، امتـد الاحتفـال بتـذكاراتهم إلى مناسبتين أخريين، هما تذكار نقل الأعضاء καταθέσεις (كاتاثيسيس)، وتذكار تكريس الكنائس على أسمائهم ἔγκαινια (إنكينيا).

وقبل الاسترسال في الحديث أشيرُ هنا إلى مـا أورده الأسـقف هورنر G. Horner أسقف كنيسة سالسبري في كتابه القـيِّم "خدمـة تكريس الكنيسة والمذبح طبقاً للطّقس القبطي" من ملاحظـة جـديرة بالاهتمام، فيذكر أنه لم يلاحظ في أي مخطوط قديم من المخطوطات التي فحصها عن تكريس الكنيسة والمذبح أي ذكر لتكريس مذابح على اسم

89- Otto Menardes, *op. cit.*, p. 112.

واحد من رؤساء الملائكة[٩٠]. فقد كان تكريس الكنائس والمذابح في البداية منصباً على رفات الشُّهداء - أو القدِّيسين فيما بعد - التي توضع في هذه الكنيسة أو تحت مذبحها.

ومن أشهر تذكارات نقل أعضاء القدِّيسين في الأزمنة المبكِّرة نتعرَّف عليها من سيرة بطرس الإيباري Peter the Iberian وهو أحد المدافعين عن عقيدة الطَّبيعة الواحدة في شخص السيِّد المسيح، والذي دُوِّنت سيرته بالسِّريانيَّة. وقد وصل بطرس هذا إلى أورشليم حاملاً معه رفات الأربعين شهيداً شهداء سبسطيَّة، حيث حملهم من موطنهم البعيد في وادي القوقاز إلى مدينة أورشليم حيث دُفنوا في النهاية في كنيسة بُنيت على نفقة ميلانيّه الصُّغرى، وكُرِّست بواسطة القدِّيس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) البابا الإسكندري الرَّابع والعشرين.

ونظراً لحركة السِّياحة التي كانت منتشرة في تلك الأزمان، ولمكانة أورشليم كمقصد هام لهذه السِّياحة، فقد تكرَّرت مثل هذه الأحداث كثيراً حيث نُقل كثير من رفات الشُّهداء والقدِّيسين إليها أكثر من أي مكان آخر.

أما عن الاحتفالات السَّنويَّة بتكريس الكنائس، فقد أصبح من الممكن أن تحتفل أي كنيسة بعيد تكريس أي كنيسة أخرى. فقد احتفلت كنيسة الإسكندريَّة بعيد تكريس أوَّل كنيسة على اسم السيِّدة العذراء في أفسس. أما الاحتفال السَّنوي في كنيسة فلسطين بتذكار

90- Horner, Rev. G., *The Service for The Consecration of a Church and Altar According to the Coptic Rite*, Edited with Translation from A Coptic and Arabic Manuscript of A.D. 1307 for the Bishop of Salisbury, London, 1902, introduction, p. xiv.

تكريس كنيسة في سبسطيّة في السّامرة القديمة حيث كان يُكرَّم في هذا التّذكار كل من يوحنا المعمدان وأليشع النّبي، فقد احتفلت به كل من كنيسة روما والكنيسة اليونانيّة الشّرقيّة في ٢٩ أغسطس كعيد لقطع رأس يوحنا المعمدان.

وبالإضافة إلى أعياد النّياحة، ونقل الرُّفات، وتكريس الكنيسة، فهناك أيضاً في التّقليد السّرياني والتّقليد البيزنطي ما يُسمى بالأعياد التّابعة Concomitant أي الأعياد التي تتبع مباشرة بعض الأعياد الكُبرى، والتي هي بمثابة رجع الصّدى بالنّسبة لها. مثل تذكار العذراء الطّاهرة في ٢٦ ديسمبر[٩١] ثاني يوم عيد الميلاد ٢٥ ديسمبر. وعيد يوحنا السّابق في ٧ يناير ثاني يوم عيد الغطاس الذي يقع يوم ٦ يناير. وتذكار سمعان الشّيخ وحنة النبيّة في ٣ فبراير ثاني يوم عيد دخول السّيد المسيح إلى الهيكل في ٢ فبراير. وتذكار والدي العذراء أم الله في ٩ سبتمبر ثاني يوم عيد ميلاد العذراء في ٨ سبتمبر. وتذكار كل الرُّسل في ٣٠ يونيو ثاني يوم عيد الرّسولَين بطرس وبولس.

وفي الطّقس الآشوري نلاحظ ظاهرة تُعتبر امتداداً لمثل هذه الأعياد التّابعة. فأيام الجُمع الثّمانية الواقعة بين عيد الميلاد وبداية الصّوم المقدّس الكبير هي أيام تذكارات لوالدة المسيح[٩٢]، ويوحنا السّابق، والرّسولَين بطرس وبولس، والأربعة إنجيليين، وآباء الكنيسة اليونانيّة، وآباء الكنيسة السّريانيّة؛ ومن أجل الكنيسة والرّهبنة، وأخيراً من أجل المنتقلين.

٩١- كل التّواريخ المذكورة بحسب التّقويم الجريجوري.

٩٢- الكنيسة الآشورية أو النّسطوريّة هي كنيسة انشقت عن الكنيسة الجامعة سنة ٣٤١م برفضها الاعتراف بأن العذراء القدّيسة مريم هي "والدة الإله"، واكتفت بتلقيبها باسم "أم المسيح"، أو "والدة المسيح" خلافاً لتعليم الكنيسة الجامعة الذي بلوره تعليم القدّيس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م).

وبعد دراسة قام بها العالم الألماني بوركيت F.C. Burkitt قرَّر أنه لم تكن هناك أي تذكارات مريميَّة أي مختصَّة بالعذراء القدِّيسة مريم والدة الإله بين كافة أعياد القدِّيسين، لا في أسبوع الفصح الذي يلي عيد القيامة مباشرة ولا في أيام السَّنة اللّيتورجيَّة كلها. وهذه الحقيقة تؤكد تماماً أن نظام القراءات اللّيتورجيَّة أي الفصول المختارة للقراءات الكنسيَّة كان قد أُعد قبل مجمع أفسس سنة ٤٣١م، ولكن بعد إعلان عقيدة أمومة العذراء للإله، أي عقيدة أن العذراء القدِّيسة مريم هي والدة الإله الدَّائمة البتوليَّة، احتلت أعياد العذراء مكانها بين أعياد الشُّهداء والقدِّيسين(٩٣).

وهناك نظام آخر مماثل نجده في كنيسة ما بين النَّهرين حيث تحتفل هذه الكنيسة بعدَّة تذكارات متتابعة خلال الثَّمانية أيام التَّالية لعيد القيامة. فطبقاً لنظام قراءات سرياني قديم، يُحتفل من يوم الاثنين ثاني أيام الخمسين المقدَّسة إلى يوم الخميس من نفس الأسبوع الأوَّل من الخمسين المقدَّسة بتذكارات يوحنا المعمدان والرَّسولين بطرس وبولس، وكل الرُّسُل، وكل الأساقفة. أما يوم الجمعة فيُحتفل فيه بتذكار جميع الشُّهداء، ويوم السَّبت يُحتفل فيه بتذكار القدِّيس إسطفانوس. مع ملاحظة أن تخصيص يوم الجمعة للاحتفال فيه بجميع الشُّهداء هو طقس شائع في التَّقليد السِّرياني عموماً.

وهناك مثال آخر في الطَّقس السِّرياني الأنطاكي، وهو مجموعة الأعياد التَّابعة لعيد الميلاد حيث ابتداء من ٢٦ ديسمبر فصاعداً، يُحتفل بالتّذكارات التَّالية على التَّوالي: القدِّيس إسطفانوس، ابني زبدي، الرَّسولان بطرس وبولس. ولقد وُجد هذا التَّرتيب وفي نفس هذه الفترة

93- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 180ff.

في عظتين للقدّيس غريغريوس النّيسي(٩٤)، وهما عظتان تحملان لنا شهادة وثائقيّة لجانب من تقليد كنيسة كبادوكيا في القرن الرّابع الميلادي.

وفي كنيسة أورشليم فإن نظام الأعياد السّابق ذكره هذه الثّلاثة أيام ٢٦، ٢٧، ٢٨ ديسمبر كان مرعياً فيها قبل أن يُصبح عيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر عيداً معروفاً في هذه الكنيسة.

ومنذ القديم كان هناك عيد يهودي قديم يُحتفل بـه في حـبرون Hebron في ٢٥ ديسمبر أو ٢٦ ديسمبر، وهو لتذكار أب الآباء يعقوب. والذي حل محلّه في نفس هذا اليوم أيضاً في كنيسة العهد الجديد تـذكار القدّيس يعقوب أخي الرّب. وسرعان ما أُلحق على هذا العيد الاحتفـال بتذكار داود النّبي والقدّيس يوسف النّجار خطيب العذراء. ولا زال هذا العيد مرعياً في كنيسة القسطنطينيّة حتى اليوم، حيث يُحتفل به في يـوم الأحد الذي يقع عقب عيد الميلاد مباشرة، وهو الأحد المحصور في الفترة ما بين ٢٦، ٣١ كانون الأوّل (ديسمبر)، وإلاّ فيُحتفل بـه في يـوم ٢٦ ديسمبر ثاني يوم عيد الميلاد.

أمّا عن أقدم عيدين عرفتهما الكنيسـة ضـمن الأعيـاد التّابعـة Concomitant feasts فهما عيد الرّسولَين بطرس وبولس(٩٥)، وعيد ميلاد يوحنا المعمدان(٩٦). العيد الأوّل منهما انتقل من روما إلى الشّرق، أمـا العيد الثّاني فهو تقليد غربي أيضاً انتقل من الغرب إلى الشّرق. فقد اعتمد يوم الاحتفال به في الغرب على حسابات ترتبط بيوم عيد ميلاد المخلّص،

94- PG 46, 729-789.

٩٥- يقع في ٢٩ يونيو حسب التقويم الجريجوري، وفي ١٢ يوليو حسب التقـويم اليولياني، أي بفارق ١٣ يوما بينهما.

٩٦- ويقع في ٢٤ يونيو بالتّقويم الجريجوري، و ٧ يوليو بالتّقويم اليولياني.

ولكنه عندما انتقل إلى الشّرق أصبح يُحتفل به في ٢٥ يونيه.

تأثير الشّرق المسيحي على الاحتفال بتذكارات القدّيسين

لقد أثّر الشّرق المسيحي على الغرب المسيحي فيما يختص بالاحتفال بتذكارات القدّيسين وأعيادهم. ولعل أعظم دليل شاهد على ذلك هو التّقويم الشّهير لقديسي مدينة نابولي Naples (٩٧). ومن وثيقة تعود إلى زمن الأسقف طيباريوس Tiberius (٨٢١-٨٤٢م) نعلم منها كيف أن الحياة اللّيتورجيّة في جنوب إيطاليا قد أصبحت واقعة تحت تأثير بيزنطي كامل. ويكفي أن نلقي نظرة على السّلسلة الطّويلة لبطاركة القسطنطينيّة الذين كان يُحتفل بتذكاراتهم السّنويّة في نابولي Naples ، وآخرهم هو بولس الثّاني الذي انتقل سنة ٨٢٠م.

وهناك تأثير شرقي أيضاً على أسبانيا القديمة في تذكارات القدّيسين لديهم. وقد عرفنا ذلك من مصادر القوط الغربيين Visigothic . وامتد هذا التّأثير الشّرقي إلى روما. ولازال تذكار البابا بولس الأوّل والذي عاش في النّصف الثّاني من القرن الثّامن الميلادي يُحتفل به في كنيسة القدّيس سلفستر St. Sylvester في روما وهو البطريرك الذي أحصى تواريخ نقل رُفات القدّيسين التي وضعها في هذه الكنيسة. وبرغم أن هؤلاء القدّيسين كلهم من روما، إلاّ أن تذكارات نقل رفاتهم Depositiones سُجّلت ليس طبقاً لتقويم كنيسة روما ولكن طبقاً لتقويم

٩٧- هي ليست "نابلس" الواقعة في المملكة الأردنيّة على الضّفة الغربيّة لنهر الأردن والتي تبعد ٦٥ كيلومتراً عن أورشليم، والتي عُرفت في التوراة باسم "شكيم". وغالبية أهلها حالياً مسلمون. ولكنها "نابولي" التي تقع جنوب إيطاليا، وهي مدينة عريقة تأسّست بها جامعة في القرن الثّالث عشر، وبالتّحديد في سنة ١٢٢٤م.

كنيسة القسطنطينيَّة حسب التَّقليد البيزنطي(٩٨).

وحين انتقلت تذكارات بعض القدِّيسين من الشَّرق إلى الغرب، لم تكن تخلو من بعض التَّداخلات أحياناً. فمثلاً نجد أن عيد القدِّيس يوحنا البشير في ٢٧ ديسمبر في كنيسة روما ما هو إلاَّ اختصار للعيد القديم المعروف في الشَّرق في هذا اليوم نفسه بعيد ابني زبدي يوحنا ويعقوب. ولازال الطَّقس الغالي يحتفظ بإقامة اللِّيتورجيَّا في هذا اليوم تذكاراً ليعقوب ويوحنا ابني زبدي، حيث يُقرأ فصل (٣:٣٥-الخ) من إنجيل القدِّيس مرقس البشير، وهو الفصل المختص بهذين الرَّسولين معاً.

ومن ممارسة كنيسة أورشليم القديمة لتذكارات القدِّيسين انتقلت بعض هذه التَّذكارات والعوائد إلى الطَّقس الأسباني القديم(٩٩).

وفي المقابل فقد انتشر تكريم كثير من قديسي الغرب في الشَّرق المسيحي، إلاَّ أن تاريخ تذكاراتهم بحسب تقويم كنيسة روما لم يؤخذ به في الشَّرق(١٠٠).

أما أوَّل سجل رسمي للكنيسة بأسماء الشُّهداء وتواريخ استشهادهم فيأتينا من أيام أنتيروس Anteros أسقف روما سنة ٢٣٥م. والذي دامت أسقفيَّته على روما شهراً واحداً وعشرة أيام، أُخذ بعدها شهيداً على زمن مكسيمين الإمبراطور. وقد استشهد هذا البابا الغُيور بسبب اهتمامه بجمع سير الشُّهداء. أما في الشَّرق، ففي أيام القدِّيس كبريانوس الشَّهيد (+ ٢٨٥م) وضعت الكنيسة الشَّرقيَّة تقويماً بأسماء شهدائها وتاريخ أعيادهم.

98- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 178.
99- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 185.
100- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 178.

أي أن وضع تقويم بأسماء الشُّهداء قد ظهر في الغرب أولاً بحوالي نصف قرن قبل أن يُعرف في الشَّرق.

وفي تاريخ كنيسة روما، يأتي البابا فابيان بعد البابا أنتيروس مباشرة سنة ٢٣٦م والذي قام بتعيين سبعة مساعدي شمامسة وسبعة مسجِّلين ليجمعوا كافة سير القدِّيسين بصفة عامة.

أما أوَّل تقويم رسمي جامع ظهر في روما فكان سنة ٣٥٤م. وقد قام بإعداده في مدينة روما المدعو بصاحب التَّقويم وهو فيوريوس ديونيسيوس فيلوكالوس الذي صار فيما بعد بابا روما.

حول السِّنكسار في الكنيسة القبطيَّة

أقدم وثيقة معروفة حتى اليوم لكتاب سنكسار قبطي هي وثيقة مسجَّلة على ورق البردي تُعرف باسم "سنكسار أوكسيرينخوس Synaxarion of Oxyrhynchus". وأوكسيرينخوس هي بلدة البهنسا الشَّهيرة في القرون المسيحيَّة الأولى. وهي وثيقة تعود إلى القرن السَّادس الميلادي. وكان الأب "ديليهاي - Delehaye" قد قام بطبعها سنة ١٩٢٤م. وهي تحوي قائمة بجميع الاجتماعات الكنسيَّة Synaxes التي يُحتفل بها في مدينة البهنسا، في الفترة ما بين ٢١ أكتوبر سنة ٥٣٥م إلى ٢٢ مارس سنة ٥٣٦م.

ولقد تطور السِّنكسار القبطي من سرده لتذكارات شهداء محليِّين إلى سنكسار أكثر عموميَّة ليشتمل على شهداء وقدِّيسين وأساقفة من بلاد اليونان وسوريا وأرمينيا وروما وإيران والقسطنطينيَّة وأورشليم. وكانت الكنائس قد بدأت في اقتباس سير لشهداء غير محليِّين منذ

القرنين الرَّابع والخامس للميلاد كما يخبرنا القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠م) بذلك في عظاته.

وكان أوَّل مسجِّل لحوادث الاستشهاد في تاريخ الكنيسة القبطيَّة هو يوليوس الأقفهصي كاتب سِيَر الشُّهداء الذي عاش في زمن اضطهاد دقلديانوس كشاهد عيان وشهيد.

وأُضيف إلى السِّنكسار القبطي تذكارات الأحداث الهامة في حياة السيِّد المسيح. ففي خلال القرنين الرَّابع والخامس كان موجوداً فعلاً شكل عام لمثل هذه التّذكارات. فأحد التّذكارات المبكِّرة في كنيسة الإسكندريَّة هو عيد الظُّهور الإلهي (١١ طوبة) الذي يعود أصله إلى أواخر القرن الثّاني الميلادي. بالإضافة إلى تذكارات تكريس الكنائس مثل تكريس كنيسة القيامة في ١٦ توت والتي ذكرها السَّائحة الأسبانية إيجيريا التي زارت أورشليم سنة ٣٨٥م[١٠١].

واستمر التَّطوُّر في السِّنكسار القبطي حتى يومنا هذا. فقد أُضيف عليه على سبيل المثال تذكار أنبا فريج المعروف بالأنبا رويس (+ ١٤٠٤م)، والأنبا غبريال السَّابع (١٥٢٥-١٥٦٨م)، والأنبا يؤانس السَّادس عشر (١٦٧٦-١٧١٨م)، والأنبا كيرلس الرَّابع (١٨٥٢-١٨٦١م)، وغيرهم. وأيضاً وصول رفات القدِّيس مار مرقس الرَّسول إلى مصر في حبريَّة البابا كيرلس السَّادس (١٩٥٩-١٩٧١م) ... الخ.

أمَّا أوَّل سنكسار عربي منقَّح فهو المنسوب إلى الأنبا بطرس الجميل أسقف مليج (القرن الثّاني عشر أو الثّالث عشر للميلاد). وأعقبه سنكسار آخر بواسطة الأنبا ميخائيل أسقف أتريب ومليج (١٢٤٣ - ١٢٤٧م)،

101- Otto Menardes, *op. cit.*, p. 113, 154.

عن مخطوطات موجودة في الفاتيكان، والمكتبة الأهليَّة بباريس، وغيرهما.

سجل بأقدم السِّنكسارات القبطيَّة

قام العالم أوتو ميناردس Otto Menardus بعمل دارسة مقارنة لمحتويات تسعة مصادر مختلفة أُخذ عنها السِّنكسار القبطي، بالإضافة إلى سجل تذكارات لكل يوم من أيام السَّنة القبطيَّة. وهذه المصادر هي ترجمات لمخطوطات مختلفة، جُمعت موادها ونُشرت. وبيانها كالتَّالي:

(١) **سنكسار العالم ماي** A. Mai . ونشره في روما في القرن التَّاسع عشر، مترجماً إلى اللاتينيَّة. وهي من أقدم اللُّغات الأوربيَّة القديمة التي تُرجم إليها سنكسار الكنيسة القبطيَّة.

Mai, A., *Scriptorum veterum nova collection*. Rome, 1825f.

(٢) **سنكسار السِّمعاني**. ونشره في فلورنسا في القرن الثَّامن عشر، بناء على مخطوطات أخذها من مكتبات مختلفة في الشَّرق.

Assemani, S.E., *Bible. Med. Laurent. Et Polat. Codd. Mss. Orient. Catal.*, Florence. 1742.

(٣) **سنكسار لودولف**. ويحوي تقديم إثيوبي هام يعود إلى القرن الثَّامن عشر يحوي كل شهداء مصر.

Ludolf. H., *Commentarius ad suam historiam Athiopicam*. Frnkfurt. 1691.

(٤) **سنكسار فوستين فيلد**. وقد صدر في ترجمة ألمانيَّة مع ما يقابلها بالعربيَّة. ويُعد من أقدم التَّرجمات إلى اللُّغات الأوربيَّة. وقد بدأ العالم فوستين فيلد ترجمته سنة ١٨٤٥م، في جزئين، يحوي كل جزء ستَّة شهور. وقد نُشر الجزء الأوَّل الذي يحوي السِّتَّة شهور الأولى سنة ١٨٧٩م.

Wüstenfeld, H.F., *Synaxarium das ist Heiligen Kalendar der Coptischen Christen*, Gotha, 1879.

(٥) **سنكسار رينيه باسيه.** وهي التّرجمة الفرنسيّة المشهورة للسّنكسار القبطي، وقد قام بها العالم رينيه باسيه R. Basset بدءاً من سنة ١٩٠٤م وهو عن مخطوط من القرن الرّابع عشر. وهو طبعة منقّحة لمؤلّف كان موجوداً في دير Benhadab يعود إلى القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر للميلاد. وظهرت هذه التّرجمة في الموسوعة الشّهيرة المعروفة باسم: مجموعة الآباء الشرقيّين R. Graffin's *Patrologia Orientalis*.

Basset, R., Ms. B, No 4869-4870 (XIV Cent.), *Le synaxaire arab jacobite*, Patrologia Orientalis, I, III, XI, XVI, XVII. Became known as the Theban recension.

(٦) **سنكسار رينيه باسيه.** وهو عن مخطوط من القرن السّادس عشر. وهو تكميل للعمل السّابق الذي قام به رينيه باسيه R. Basset واكتمل العمل سنة ١٩٢٩م بعد موت محرّره.

Basset, R., Ms. B, No 256 (XVI Cent.), *Le synaxaire arab jacobite*, Patrologia Orientalis, I, III, XI, XVI, XVII.

(٧) **سنكسار العالم مالان Malan**. وهو مترجم من مخطوط عربي ونُشر في لندن في القرن التّاسع عشر.

Malan, S.C., *The Calendar of the Coptic Church*, (Translated from an Arabic ms.), London, D. Nutt, 1873.

(٨) **كتاب الصّادق الأمين.** ونُشر في القاهرة سنة ١٩١٢م.

(٩) **سنكسار الكنيسة القبطيّة.** حيث طُبع السّنكسار في القاهرة طبعة عربيّة فقط ونُشر سنة ١٩٣٥م، بواسطة راهبين مصريّين هما عبد المسيح ميخائيل، وأرمانيوس حبشي شتا البرماوي، واعتمدا فيها على

مخطوطات قبطيَّة عديدة[١٠٢].

وهذان الكتابان الأخيران (بندا ٨، ٩) ذكرهما العالم أوتو ميناردس Otto Meinardus من أجل عمل المقارنة بين هذه المصادر التِّسعة، ولكنهما يعتبران تكراراً للسِّنكسار المنقّح بواسطة الأنبا بطرس الجميل أسقف مليج، والأنبا ميخائيل أسقف مليج وأتريب في القرن الثَّالث عشر، مع بعض الإضافات الحديثة.

الموضع الطَّقسي لقراءة السِّنكسار في اللِّيتورجيَّة القبطيَّة

حين نفحص مصادرنا الطَّقسيَّة القديمة نجد أنها لا تشير إلى قراءة السِّنكسار بعد فصل الإبركسيس كما نمارس اليوم. فبحسب ترتيب القدَّاس في كنيسة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة في القرن الرَّابع عشر، وكانت هي المقر البطريركي آنئذ، نجد أن قراءة السِّنكسار تكون بعد إنجيل رفع بخور باكر وليس قبل إنجيل القدَّاس، فهذا هو موضعه الطَّقسي القديم. فنقرأ عند ابن كبر ما يلي:

"... ويُفسَّر (أي إنجيل باكر) عربياً. ويُقرأ بعد تفسيره باكراً فصل من السِّنكساري، وهو دلاَّل التَّذكارات وتاريخها. ويكمل الصَّلاة بالصَّلوات الثَّلاث وما يتلوها ..."[١٠٣].

وفي موضع آخر يقول ابن كبر:

"وتقال بعد الإبركسيس أجيوس ..."[١٠٤].

102_ Aziz Sorial A. *The Coptic Encyclopedia*, p. 2172

١٠٣- الجزء الثَّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٦

١٠٤- نفس المرجع، الباب ١٧

وهو ما يذكره ابن سباع أيضاً قائلاً ما نصُّه: "ثم يـأذن الارشـي دياقن احد الشمامسة بقراآة الابركسيس ... ويفسر كما تقدم في غيره ثم يقول الشماس المسيح قام ثم أن الكبير الحاضر من الكهنة كاهن كان او ريس كهنة كونه راس الطغمة الملايكية الارضية والبشر السماوية يبدي الثلاثة تقديسات ...".

وهو نفس ما يذكره البابا غبريال الخامس حيث يقول: "وإذا انتهى قراءة الإبركسيس قبطياً وعربياً يقولون أجيوس الثلاثة ..."[١٠٥].

وهو نفس ما يذكره كتاب "سرّ الثالوث في خدمـة الكهنـوت" لأحد علماء الكنيسة القبطيَّة في القرون الوُسطى[١٠٦].

وكل مخطوطات الخولاجيَّات التي لدينا تخلـو مـن ذكـر قـراءة السنكسار في هذا المكان من القدَّاس الإلهي.

ولذلك فإن قراءة السنكسار ما بين قراءة الفصول الكتابيَّة وفصـل الإنجيل المقدَّس في القدَّاس الإلهي هو طقس دخل الكنيسة القبطيَّة مؤخَّراً، وهو ما شاهده بعض المستشرقين الأجانب الذي زاروا الكنائس القبطيَّـة في غضون القرن السَّابع عشر وما بعده. فيقول الكاتب الإنجليزي "مستر ليدر" والذي زار مصر: "قراءة سير القدِّيسين بالعربيَّة تُعتبر من الملامـح العميقة لخدمة القدَّاس القبطي"[١٠٧].

١٠٥- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٧٢

١٠٦- كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٥

١٠٧- قد شرحتُ هذا الموضوع بتفصيل أوفر في كتاب "صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر"، فارجع إليه إن شئت.

إلاّ أننا نلاحظ أن الوقت الواقع بعد قراءة فصل الإبركسيس وقبل أوشيَّة الإنجيل، كان هو الوقت المخصَّص لترديد الألحان والمردَّات الخاصة بمناسبة العيد أو التّذكار الكنسي، ولكن ليس قراءة السّنكسار. وهذا ما يشير إليه كل من ابن سباع وابن كبر بكل وضوح.

فيقول ابن سباع:
"ثم يأذن الارشي دياقن احد الشمامسة بقرآة الابركسيس ... ويفسر كما تقدم في غيره **ثم يقول الشماس المسيح قام** ...".

والتعبير الذي يذكره ابن سباع يوضِّح أن الطّقس الاحتفالي بعيد القيامة والخمسين المقدَّسة كان يعقب فصل الإبركسيس مباشرة كما نمارس اليوم.

أما بن كبر فيقول:
"وتقال بعد الإبركسيس أجيوس. وإذا كان عيداً كبيراً أو يوماً حفلاً نفر المرتّلون قبلها قطعاً قبطيَّة وهي **Ⲫⲛⲁⲩ ⲙ̀ⲡⲓⲥ̀ⲙⲟⲩ ⲡⲉ ⲫⲁⲓ** إلى آخرها أو بعضها، ويصلّي الكاهن صلاة الإنجيل ...".(١٠٨)

---

١٠٨ - هذه القطع القبطيَّة أو هذا اللّحن القبطي قد ورد بنصّه الكامل بالقبطيَّة فقط في كتاب "الترتيب الطّقسي" للبابا غبريال الخامس، في طقس الإكليل، ولاسيَّما أثناء الوصيَّة الختاميَّة للعريس. أما تعريب كلماته فهي: "**هذا وقت البركة، هذا وقت البُخور المختار، هذا وقت تسبيح مخلّصنا، محب البشر الصّالح.** البُخور هو من ولدته مريم. البُخور الذي في أحشائها غفر لنا خطايانا. البُخور هو يسوع. الشاروبيم يسجدون له. قدوسٌ الرَّب في الألوف، ومكرَّم في الرَّبوات. أنت هو البُخور يا مخلّصنا، لأنك أتيت وخلّصتنا. ارحمنا". ولم تورد كتب الطّقس المطبوعة سوى العبارة الأولى منه والمكتوبة بالبنط الثقيل. ويُظن أنه كان لحناً يُقال في صلوات القدّاس الإلهي في الأعياد السّيديَّة، فهذا ما يذكره تصريحاً ابن كبر، وهذا ما تثبته كلمات اللّحن نفسه، وذلك قبل أن ينتقل نهائياً إلى صلوات الإكليل.

حول السّنكسار في الكنائس الشّرقيّة الأخرى

تأتينا تذكارات القدّيسين في كنيسة أورشليم في صورها المبكّرة من كتابات القراءات الأرمني Armenian Lectionary حيث يُذكر لكل يوم تذكار قديس من القدّيسين، بالإضافة إلى تجميعات لتذكاراتهم في كنيسة جورجيا.

وهناك أيضاً التّقويم الملكاني Melkite Calender لمقاطعة خوارزم Chouarizm البعيدة. وهو التّقويم الذي ذكره الكاتب المسلم البيروني Albiruni في مؤلّفه بالعربيّة "تاريخ الأمم القديمة"، والذي يعود إلى الفترة التي كانت فيها المدينة المقدّسة لا تزال تُسمى آليا Aelia . وقد نشر جريفو R. Griveau هذا النّص الهام في الجزء العاشر من مجموعة الآباء الشّرقيّين Patrologia Orientalis (ص ٢٨٩-٣١٢).

وفي أنطاكية لدينا العظات الكاتدرائيّة التي ألقاها القدّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م) في مدينة أنطاكية ما بين سنة ٥١٢م وسنة ٥١٨م. والنّص السُّرياني لهذه العظات والذي وضعه يعقوب أسقف إديسا موجود في مجموعة الآباء الشّرقيّين[١٠٩]. ونضيف إليها أيضاً التّقويم السّرياني الأنطاكي والذي تألّف من مصدرين مختلفين؛ الأوّل هو تقويم دير Qên - Nešrê والثّاني هو تقويم مدينة إديسا[١١٠].

ولقد ظلّ زمن بدء تجميع السّنكسار السّرياني مجهولاً، إلى أن عثر الدكتور رايت W. Wright على بيان مفصّل بذلك في مخطوط هام ضمن مجموعة مخطوطات مسروقة من وادي النّطرون برقم ١٢/ ١٥٠. أما زمن

109- PO, XXIII, CC. 651-653.
110- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 179

كتابتها فيعود إلى سنة ٤١٢م وتحوي من الورقة ٢٥١-٢٥٤ سجلاً بأعياد الشُّهداء يبدأ بالعنوان التّالي: "أسماء أسيادنا الشُّهداء المنتصرين، وتاريخ الأيام التي نالوا فيها أكاليلهم".

أما السّنكسار البيزنطي فهو يدعى في الكنيسة البيزنطيّة باسم "السِّنكسار الكبير" تمييزاً له عن "السِّنكسار الصّغير" الذي يحدِّد أعياد الكنيسة اليوميَّة مع الفصول الكتابيَّة المنتخبة لها. ولكن هذا الأخير اسمه الأصح عندهم هو μηνολόγιον (مينولوجيون)، وكلمة μην (مين) تعني شهر. فهو الكتاب اللِّيتورجي الذي يحوي سير القدِّيسين مرتَّبة على شهور السَّنة الكنسيَّة، والتي تبدأ عندهم أيضاً في شهر سبتمبر[١١١]. ولقد توسَّع السِّنكسار البيزنطي منذ القرن العاشر ليشمل أشهر القدِّيسين في مختلف أقاليم الإمبراطوريَّة، بما فيها سوريا وأرمينيا.

ويبقى سنكسار الكنيسة الآشوريَّة أي النّسطوريَّة، وهو لا يضم أكثر من خمسين اسماً فقط، باستثناء حالات قليلة، وتركُز التّذكارات عندهم في يوم الجمعة تقريباً.

وتضع الكنيسة الأرمينيَّة أعياد القدِّيسين أيام الاثنين والثُّلاثاء والخميس والسّبت. وقد احتفظت بعدد من القدِّيسين السِّريان الأنطاكيين، والكبادوكيِّين، إلى جانب القدِّيسين الأرمن.

وهكذا نجد السّنكسار كتاباً كنسياً هاماً في كل الكنائس الشّرقيَّة، حيث تتم قراءته في خدمة الصّباح الباكر Orthros [١١٢]. وهو نفس ما يذكره العالم الطّقسي ابن كبر (+ ١٣٢٤م).

111_ ODCC., (2nd edition), p. 1331.

١١٢- الطُّقوس الشّرقيّة، مرجع سابق، ص ١٧٩

(٥) تسبحة الثلاثة تقديسات Biblical Trisagion

وهي: "قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الذي لا يموت ...".

وهي تُسمى أيضاً في اللاتينيَّة Tersanctus أي التَّسبيح المثلَّث التَّقديس. وتعتمد هذه الثلاثة تقديسات في أصلها على نص إشعياء النَّبي (٦:٣) الذي يقول: «وهذا نادى ذاك وقال قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ ربُّ الجنود مجدُه ملء كل الأرض».

إن تسبحة الثلاثة تقديسات مقتبسة من الثلاثة تقديسات التي وردت في سفر إشعياء (٦:٣)، كما وردت أيضاً في مزمور (٤١:٣) بحسب التَّرجمة السَّبعينيَّة، وأيضاً في سفر إشعياء (٩:٥) في عبارة «الله القوي»، ثم أخيراً في مزمور (٩٨).

ومن المهم أن نعرف أن التَّقليد اليهودي يعرف صلوات قريبة الشَّبه جداً من ترتيلة الثلاثة تقديسات مثل تفسير التَّرجوم اليهودي لإشعياء (٦:٣) "قدوسٌ في الأعالي ... قدوس على الأرض ... قدوسٌ إلى دهر الدُّهور[١١٣]".

وهذه التَّسبحة موجودة في أقدم ليتورجيَّتين، وهما ليتورجيَّة القدِّيس يعقوب الرَّسول، وليتورجيَّة القدِّيس مرقس الرَّسول. ويقول عنها القدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م):

[إذ نترنَّم بهذه التَّسبحة اللاهوتيَّة التي جاءت إلينا عن السِّيرافيم، نشارك القوَّات العلويَّة تسبيح الحمد].

كما نجدها أيضاً في الكتاب الثَّامن من المراسيم الرَّسوليَّة، في النِّصف

113_ Chevetogne, *La prière des Heures des 'Eglises de rite byzantin*, Chevetogne, 1975.p. 60.

الثّاني من القرن الرّابع.

وتعتقد بعض الكنائس الشّرقيّة، لاسيّما الكنيستين القبطيّة والأنطاكيّة – بحسب تقليد شفاهي قديم لا يُعرف مصدره[١١٤] – أن أصل هذه التّسبحة يرجع إلى حادثة دفن السيِّد المسيح، حين كفّنه نيقوديموس ويوسف الرّامي، وإذ تعجبا في نفسيهما كيف يموت واهب الحياة؟ فسمعا أصوات الملائكة وهم يسبِّحون قائلين: "قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الذي لا يموت ...".

ولقد قبلت جميع الكنائس هذه الثّلاثة تقديسات كصلاة طقسيّة – باستثناء كنيسة الملابار في الهند[١١٥] – وهي تتخلّل معظم الصّلوات اللّيتورجيّة والخدمات الكنسيّة، وتتصدّر صلوات السّواعي في الكنيستين السّريانيّة والبيزنطيّة.

وبرغم أن كنيسة رومية لم تعد تصلّي بهذه التّسبحة، إلاّ أن الموارنة والسّريان الكاثوليك في الشّرق لازالوا يستخدمونها في صلواتهم اللّيتورجيّة.

وهذه التّسبحة تصليها الكنيسة القبطيّة بعد صلوات المزامير في ساعتين من سواعي الصّلاة، وهما باكر والنوم. كما تُصلى أيضاً في رفع بخوري عشيّة وباكر قبل الذّكصولوجيّات، وفي كل قدّاس قبل أوشيّة (صلاة) الإنجيل المقدّس.

لذلك فهي تُعتبر إحدى السّمات التي تميِّز العبادة الأرثوذكسيّة. وهي

١١٤- أقدم مصدر قبطي يورد هذا الاعتقاد هو ما ذكره ابن سباع في كتابه "الجوهرة النّفيسة في علوم الكنيسة" (ص ٢٠٣)، في القرن الثّالث عشر، وعنه نقل اللاحقون.

١١٥- الطقوس الشّرقيّة، مرجع سابق، ص ١٠٤

تُرتَّل بوقار في جميع اللّيتورجيّات الشّرقيّة قبل أو بعد دورة الإنجيل الـتي تسبق قراءة فصل الإنجيل المقدّس باستثناء بعض الأعياد الكبيرة في بعض الطّقوس. فبينما تأتي في الطّقس القبطي بعد فصول القراءات وقبـل قـراءة الإنجيل، ترد في الطّقس البيزنطي قبل القراءات باستثناء الأعياد الكبرى.

وهي تحتل مكاناً واضحاً في يوم الجمعة العظيمة حين تُرتَّل أمام أيقونة الصّلبوت في الطّقس البيزنطي، والطّقس الغالي (فرنسا)، وطقس روما[١١٦]. كما تُقال أيضاً في موكب الدّفنة في هذا اليوم في الكنيسة اليونانيَّة.

وقد أُحصيت هذه التّسبحة ضمن التّرنيمات الكنسـيَّة في القـرن الخامس في عهد الملك ثيؤدوسيوس الصّـغير (٤٠١- ٤٥٠م) والبطريـرك بروكلس Proclus أسقف القسطنطينيَّة (٤٣٤ - ٤٤٦م) وتلميـذ القـدّيس يوحنا ذهبي الفم. ولربما كان هذا التّاريخ هو زمن دخولهـا في الصّـلوات اللّيتورجيّة[١١٧]، أو قبله بقليل.

وتعتقد الكنيسة الآشوريَّة أن هذه التّسبحة هي نشيد علّمه مـلاك الرّب لأحد كهنة القسطنطينيَّة يوم كانت المدينة مهدّدة بالزّوال بسـبب هزات أرضيَّة تعاقبت عليها، فأمره الملاك أن يردِّد الشّعب كلّـه هـذه التّسبحة ثلاث مرّات، واعداً بتوقّف الزّلزال. فكان له ما طلب، وتحقّـق ما وعد به[١١٨].

ولقد تعرّضت هذه التّسبحة لإضافات عليها في الطّقوس المختلفـة،

116_ ODCC., (2nd edition), p. 1395.

117_ O.H.E. Burmester, *The Canonical Hours of the Coptic Church*, in OCP vol. 2, p. 90, 91 ; Cf. also A.D. Karpozilos, *A Coptic Trisagion from Egypt*, cited by OCP vol. 39, 1973, p. 454_ 460.

١١٨- يوحنا ثابت وآخرون، الفرض الإلهي، مرجع سابق، ص ٢١٠

فقد أضافت طقوس أورشليم والقسطنطينيَّة وروما نصاً كتابياً يعـــود إلى رواية الإنجيل عن دخول الرَّب إلى المدينة المقدَّسة، وهـــو: «أوصـــنَّا في الأعالي، مباركٌ الآتي باسم الرَّب، أوصنَّا في الأعالي».

وهذه الإضافة باليونانيَّة هي:

Εὐλογημένος ὁ ἐρχόμενος ἐν ὀνόματι Κυρίου. ὡσαννὰ ἐν τοῖς ὑψίστοις.

أما سبب هذه الإضافة فهو ما روته السَّائحة الأسبانيَّة إجيريا عـــن مراسيم الاحتفال بيوم أحد الشَّعانين في كنيسة أورشليم.

وكانت الصِّيغة الأوليَّة للإضافة التي نشأت في كنيسة روما هـــي: "كل الخليقة مملوءة من مجـــده – πλήρης πᾶσα ἡ κτίσις τῆς δόξης αὐτοῦ". وكان سبب هذه الإضافة هـــو مـــا ورد في الرِّســـالة الأولى للقدِّيس كليمندس الرُّوماني.

أما في الطَّقس الأنطاكي فكانت الإضافة أقل إسهاباً، وهي: "مباركٌ إلى الآباد – Εὐλογητὸς εἰς τοὺς αἰῶνας".

ويلحق السِّريان بكل من التَّقديسات الثَّلاثة ضمير المخاطب، فبدلاً من "قدوسٌ الله"، يقولون: "قدوسٌ أنت يا الله".

وفي سنة ٤٧١م أضاف بطرس فولر Fuller بطريرك أنطاكية علـــى هذه التَّسبحة عبارة "يا من صُلب عنَّا – Ὁ σταυρωθεὶς δι᾽ ἡμᾶς". فالإضافة في أصلها سريانيَّة(١١٩). وقد عُرفت هـــذه العبـــارة في الطَّقـــس

119- O.H.E. Burmester, *The Horologion of the Egyptian Church, Coptic and Arabic text from Mediaeval Manuscript*, Cairo, 1973, p. xi.

السّرياني بصلاة أو تسبحة نيقوديموس، إلاّ أنها لم تأخذ صبغتها العموميّة حتى بداية القرن السّابع.

ويعلّل العالم اللّيتورجي الألماني بومشتارك A. Baumestark سبب هذه الإضافة بأن هذه التّسبحة تُرتّل بتقديس كبير في تكريم الصّليب والمصلوب عليه في يوم الجمعة العظيمة، ومن ثمّ فقد لحقها إضافة عبارة: "يا من صُلب عنّا — ὁ σταυρωθεὶς δι᾽ἡμᾶς". فصارت: "قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الذي لا يموت، يا من صُلب عنّا ارحمنا"(١٢٠).

وكان مجمع ترولو (سنة ٦٩٢م) قد رفض هذه الزّيادة في قانونه رقم (٨١). وهذا يُظهر لنا كيف شغلت هذه الإضافة الكنيسة حتى نهاية القرن السّابع. فلم تتنحى الكنائس الشّرقيّة القديمة وهي الكنائس التي تؤمن بالطّبيعة الواحدة في شخص السيّد المسيح(١٢١) عن هذه الإضافة التي وجدت فيها دفاعاً عن عقيدتها، ضد تعاليم نسطور الهرطوقي بطريرك القسطنطينيّة الذي علّم بأنه لا يجوز أن نقول أن الله صُلب ومات، بل كان المصلوب إنساناً بحتاً!.

فكانت هذه الإضافة تأكيداً على أن المصلوب هو الإله المتجسّد الذي لم ينفصل لاهوته قط عن ناسوته، لا قبل موت الصّليب ولا بعده.

ثم أضاف الأقباط إقتداء بالإضافة السّريانيّة "يا من وُلد من العذراء"، و"يا من قام من بين الأموات وصعد إلى السّموات" فصارت الثّلاثة تقديسات موجّهة إلى أقنوم الابن فقط في أرباعها الأولى(١٢٢)، ضداً

120- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 86.

١٢١ـ كانت الكنائس الشّرقيّة قد انفصلت عن الكنائس البيزنطيّة إثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، ولم تعد ملتزمة بقرارات هذا المجمع ولا المجامع البيزنطيّة التّالية له.

122- O.H.E. Burmester, *The Horologion of the Egyptian Church*, p. XI.

لنسطور المبتدع الذي قال أيضاً: ''إن العذراء لم تلد إلهاً متجسّداً، لكنها ولدت إنساناً بحتاً حلّ عليه الإله عند عماده في الثّلاثين من عمره ...''.

وهكذا صارت هذه التّرنيمة في التّقليد القبطي منسوبة إلى أقنوم الابن فقط، أما الكنيسة البيزنطيّة فتنسبها إلى الثّلاثة أقانيم، فهي تعني لديها: ''قدوسٌ الله (الآب)، قدوسٌ القوي (الابن الذي غلب الموت وخلّص الخليقة من عبوديّة المحال)، قدوسٌ الذي لا يموت (الرُّوح القُدُس ينبوع الحياة) ارحمنا'' (١٢٣). أما الكنيسة الأرمينيّة فتضيف الجملة الموافقة للمناسبة الكنسيّة.

طقس ترتيل تسبحة الثّلاثة تقديسات

كل الطُّقوس تعرف تسبحة الثّلاثة تقديسات. أمّا العادة القديمة التي احتفظت بها كافة الكنائس الشّرقيّة في ترتيل هذه التّسبحة – باستثناء الطّقس البيزنطي – فهي أنه يُترك لكبير الكهنة ترتيلها منفرداً، حيث يكتفي الشّعب برشم علامة الصّليب عند كل كلمة ''قدوسٌ''. أما الطّقس البيزنطي ففيه يشترك كل الشّعب بصوت جهوري في ترديد كلمات هذا النّشيد.

أما في الكنيسة القبطيّة فنقرأ عند ابن سباع الطّقس القديم في ترتيل هذه التّسبحة حيث يقول ما نصُّه: ''ثم ان الكبير الحاضر من الكهنة كاهن كان او ريس كهنة كونه راس الطغمة الملايكية الارضية والبشر السمايية يبدي الثلاثة تقديسات ويقول الاولى وحده ... وبقية طقوس

١٢٣ـ لشرح أكثر استفاضة، ارجع إلى كتاب ''الأجبية، أي صلوات السّواعي''.

البيعة يقولوا التقديستين الاخرين"[١٢٤].

أما ابن كبر فيقول: "وتقال بعد الابركسيس احيوس". بدون أن يشير إلى طقس معيَّن لترديدها. وهو نفس ما يذكره البابا غبريال الخامس بقوله: "واذا انتهى قراة الابركسيس قبطياً وعربياً يقولون احيوس الثلثة". أما القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي فيذكر في خولاجي سنة ١٩٠٢م ما يلي: "يقول الشّعب أجيوس الثّلاثة أي الثّلاثة تقديسات. فالفرقة الأولى تقول الرُّبع الأوّل، والثّانية تقول الثّاني، ثم الأولى الثّالث والثّانية الرَّابع". وهنا تضاد بين قوله ترتيل الشّعب لأجيوس، وبين تقسيم أرباعها على الشّمامسة فحسب على مسمع فقط من الشّعب وليس باشتراك شعبي فعلي في ترتيلها.

وعند القس سمعان بن كليل (القرن الثّاني عشر): "وفي كل مرّة يقولون أجيوس يرشمون الصّليب علامة التّقديس الّذي نالوه من الابن الوحيد، فهو إلهنا القوي والحي الّذي تجسَّد ومات وقام، ولذلك يختمون أجيوس بذُكصولوجيّة الثّالوث شاكرين الآب والابن والرُّوح القُدُس على نعمة الحياة الدَّائمة، وهو ما يؤهِّلهم لسماع كلمة الإنجيل الّذي به يبشّرون"[١٢٥].

(٦) فصل الإنجيل المقدَّس[١٢٦]

ربما يُعد قراءة فصل الإنجيل المقدّس هو ذروة قدّاس الموعوظين، ومن

١٢٤- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٠١

١٢٥- معاني رشم الصّليب، مرجع سابق، ص ٦٧

١٢٦- قد أسهبتُ في الحديث عن طقس قراءة الإنجيل المقدّس في كتاب "صلوات رفع البخور في عشيّة وباكر"، وفيما يلي في المتن خلاصة لهذا الطّقس.

ثمَّ يمهِّد الطّقس القبطي – كنظيره من الطّقوس الأخرى – بمقدِّمات طقسيَّة لقراءة فصل الإنجيل المقدَّس، وذلك بأوشيَّة الإنجيل، ويعقبها دورة الإنجيل حول المذبح، ثم نداء الشمَّاس بالوقوف بخوف الله لسماع الإنجيل المقدَّس، بالإضافة إلى هتاف "هلليلويا" الذي يسبق الإنجيل. ولنتتبَّع معاً تلك المراحل في السُّطور التَّالية:

أوشيَّة الإنجيل

أوشيَّة الإنجيل التي نعرفها الآن والتي تُقال اليوم في كافة كنائس الكرازة المرقسيَّة هي واحدة من ثلاث أواشي ذات نصوص ليتورجيَّة مختلفة كانت تُقال في أنحاء مختلفة من البلاد. ومع ظهور الطّباعة سادت واحدة وتوارت الأخريان. ففي مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex نقرأ عنوان هذه الأوشيَّة هكذا: "أوشيَّة الإنجيل، ترتيب المصريِّين"(١٢٧). كما أن العالم ماكومبر Macomber الذي نشر النّص اليوناني للقدّاسين الباسيلي والغريغوري طبقاً للمخطوط المذكور قد ذكر في حاشية أنه "توجد هناك أوشيَّتان غير هذه". وهذه الثّلاث أواشي وردت كلها عند العالم رينودوت Renaudot بعنوان "حسب ترتيب المصريِّين".

أما كنائس الإسكندريَّة فكانت تصلّي أوشيَّة أخرى للإنجيل جاءت في مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex تحت عنوان: "صلاة الإنجيل على نص الاسكندرانيِّين"(١٢٨). وهي الأوشيَّة التي ذكرها كتاب

127- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 320.

وتعبير "حسب ترتيب المصريين" يعني أن هذه الأوشيَّة كانت تُصلى في كنائس مصر القديمة. فالقاهرة تُنطق عند الأقباط "مصر - Misr" وهو الاسم العربي للكلمة الإنجليزيَّة Egypt .

128- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 319.

الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، تحت عنوان: "أوشيَّة الإنجيل الثانية تُقال عوض الأولى متى أراد الكاهن".

وفي حاشية للقُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي عن هذه الأوشيَّة الثانية يقول: "في الخولاجي الرُّومي (أي اليوناني) الذي للقبط الحاوي قدَّاس باسيليوس وقدَّاس غريغوريوس باللُّغة اليونانيَّة حسب ترتيب القبط. قيل إن أوشيَّة الإنجيل الأولى للمصريِّين، والثانية أي هذه للإسكندريِّين. وذلك الخولاجي بخط القلم، وهو نادر الوجود. وتوجد نسخته في البطركخانة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة بمصر. وفي بعض الأديرة دون البعض. وقد يكون فيها باسيليوس وحده أو الاثنان معاً"(١٢٩).

وما يلفت نظرنا في منطوق الأوشيَّتين هو أن الأوشيَّة الأولى التي للمصريِّين وهي المعروفة لدينا الآن، تصلِّي للرَّب من أجل كل الذين أمرونا "نحن غير المستحقين"(١٣٠) أن نذكرهم في تضرُّعاتنا وطلباتنا. ثم تصلِّي من أجل الذين سبقوا فرقدوا كي ينيِّحهم الرَّب، ومن أجل المرضى ليشفيهم. وهي طلبات لا تتَّصل مباشرة بفصل الإنجيل المزمع قراءته. بينما نجد أن أوشيَّة الإسكندريِّين تنحصر فيما تصلِّي لأجله. ونوردها هنا كاملة حسب نص المخطوط(١٣١).

"أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح (إلهنا) الذي أرسلت تلاميذك القدِّيسين (المكرَّمين) ورسلك (الأطهار) في كل العالم، لينادوا ويعلِّموا

١٢٩- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٩٦ حاشية ١

١٣٠- وردت هكذا في النَّص اليوناني للأوشيَّة في مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex . (Cf. W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 320)

١٣١- النَّص حسب مخطوط كسمارسك Kacmarcik Codex لا يختلف كثيراً عن النَّص المدوَّن في الخولاجي المقدَّس. وما بين الأقواس في المتن هي كلمات وردت في الخولاجي و لم ترد في النَّص اليوناني طبقاً للمخطوط المذكور.

بإنجيل ملكوتك، ويتلمذوا كل الأمم إلى معرفتك (الحقيقيَّة). لأجل هذا نضرع ونسألك أيها الرَّب محب البشر، افتح آذان قلوبنا لسماع أناجيلك المقدَّسة[١٣٢]، وافتح حواس نفوسنا، وأهِّلنا أن نكون ليس سامعين فقط بل وصانعين (أيضاً) أوامرك المقدَّسة بمسرة الله الآب (أبيك الصَّالح) الذي أنت معه مُبارَكٌ وممجَّدٌ والرُّوح القُدُس المحيي المساوي لك في الجوهر. الآن وكل أوان وإلى ...''[١٣٣].

وعلى كل فالأوشيَّتان في طلبتهما الرَّئيسيَّة تسألان الرَّب أن يجعلنا سامعين وعاملين بأوامره المقدَّسة، بطلبات قدِّيسيه في الأوشيَّة الأولى، وبمسرة الله الآب في الأوشيَّة الثَّانية.

وفي الطَّقس السِّرياني يصلي المترئس صلاة قبل الإنجيل جاء فيها: ''قدِّسنا بروحك القدُّوس لنكون سامعين وعاملين بإنجيل مسيحك''. وبعد أن ينبِّه الشمَّاس الشَّعب قائلاً: ''تقدَّموا وأصغوا للإنجيل''، يكمِّل الكاهن بقوله: ''كونوا في السُّكوت لأن الإنجيل المقدَّس يُتلى الآن عليكم''.

أما عن مرد الشمَّاس في أوشيَّة الإنجيل، فالنَّص اليوناني للأوشيَّة لا يورده، كما أن أقدم مخطوطات الخولاجيَّات لا تورده هي الأخرى[١٣٤]، حيث لا يرد في مخطوط الفاتيكان ولا في مخطوط مكتبة بودليان Bodleian بأكسفورد وهو من القرن الرَّابع عشر الميلادي.

١٣٢- هنا يأتي مرد الشمَّاس في الخولاجي ''صلُّوا من أجل الإنجيل المقدَّس''. أما النَّص اليوناني للأوشيَّتين فلم يرد به أي مرد للشمَّاس.

133- Samir K. *La version arab du Basil alexandrin* (Codex Kacmarcik), p. 360.

١٣٤- أقدم ثلاث مخطوطات خولاجي قبطي هي: مخطوط محفوظ في مكتبة الفاتيكان، وقد وصلتني صورة طبق الأصل منه. ومخطوط محفوظ في مكتبة بودليان Bodleian بأكسفورد وصلتني أيضاً صورة طبق الأصل منه، ومخطوط ثالث محفوظ في مكتبة مانشستر.

وفي المقابل نجد أن ابن سباع يتحدَّث بوضوح عن مرد الشمَّاس في أوشيَّة الإنجيل فيقول: "ثم ان الشماس بعد ذلك ينذر الشعب بالوقوف للصلاة ويبتهل الكاهن لله تعالى في استعداد الشعب لسماع الانجيل المقدس والعمل باوامره والوقوف عند نواهيه فيقول الشماس صلوا من اجل الانجيل المقدس فيقول الشعب يارب ارحم ..."(١٣٥).

صلُّوا من أجل أن يثمر الإنجيل في حياتنا، وأن يكون لنا نوراً يهدي سبيلنا، وصلُّوا لكي نفهم ونعي كلمة الإنجيل بقلوبنا وآذاننا الرُّوحيَّة.

ترتيل مزمور الإنجيل بالقبطيَّة

كل الطُّقوس تعرف هتاف "هلليلويا" قبل قراءة فصل الإنجيل المقدَّس مسبوقاً بآية أو بضع آيات من المزامير.

وإن قراءة المزمور بالقبطيَّة وبلحنه الخاص بكل مناسبة هو الجزء الوحيد من القراءات القبطيَّة الذي لا زال مرعياً في كافة كنائس الكرازة المرقسيَّة حتى اليوم، بعد أن بدأت قراءة فصل الإنجيل بالقبطيَّة قبل العربيَّة تأخذ طريقها إلى الزَّوال.

ومن البديع هنا أن نورد ما ذكرته مصادرنا الطَّقسيَّة القديمة عن طقس ترتيل بضعة آيات من المزامير قبل قراءة فصل الإنجيل المقدَّس.

فيقول ابن سباع: "يأمر الارشي دياقن احد المرتلين ان يقروا فصلين من العتيقة وهم من المزامير الداوودية ويكون نصها مطابقاً لذلك الوقت الموجب للاجتماع فيه ان كان عيد سيدي او عيد السيدة مرتمريم او عيد لشهيد أو قديس تكون فصول المزمور مطابقة لمعنى الانجيل المخصوص

١٣٥- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

بذلك الوقت. ثم بعد الترتيل بالالحان اللايقة محزنة كانت او مفرحة او سنوية كيهكية او خمسينية ...."(١٣٦).

وهنا يتّضح أن الذي يرتّل المزمور هو أحد المرتّلين أي واحد من رتبة الإبصالتسين. ولكن بمقارنة ما يذكره ابن سباع بما يذكره ابن كبر نجد أن ترتيل المزمور لواحد من الإبصلتسين كان هو أحد الممارسات الطقسيَّة وليس كلها. وفي ذلك يقول ابن كبر (+ ١٣٢٤م):

"ويصلي الكاهن صلاة الإنجيل، ويُطرح المزمور نثراً ويُرَد عليه بألحانه. وعادة أهل القاهرة ومصر والوجه البحري جارية بأن يطرحه أحد صغار الشمامسة والخورس يردّون عليه. وأهل الصعيد يقرأه شماس من الكبار أو اثنان باللحن ويرد الجماعة عليهم الكلمة الأولى باللحن أيضاً. وأهل الإسكندرية يطرحه الأرشيدياقن. وبدير أبو مقار يقرأه الأبصلمدسين في وسط الكنيسة ولا يرد أحد عليهم"(١٣٧).

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فاكتفي بالقول: "ثم يُطرح مزمور القدّاس، ويُرَد"(١٣٨). وهو نفس ما يذكره خولاجي ١٩٠٢م.

دورة الإنجيل حول المذبح وتقبيله قبل قراءته

كل الطُّقوس – ما عدا الطُّقس الآشوري – تعرف الطّواف بالإنجيل حول المذبح، مع البُخور والشُّموع؛ وما يصاحب هذا الطّواف من ترتيل. ويكون الطّواف عند الأقباط في الهيكل، وعند السِّريان حول مائدة الحياة، وعند اليونان الذين يدعون هذا الطّواف باسم "الدُّخول

١٣٦- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٠٥

١٣٧- الجزء الثاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

١٣٨- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٧٢

الصّغير"، حيث يطوفون خارجين من باب قدس الأقداس الشّمالي ويعودون إلى أمام المائدة.

ومن الأناشيد التي يرتّلها اليونان والسّريان أثناء الطّواف بالإنجيل أو قبله مباشرة النّشيد المشهور: "أيها الابن الوحيد وكلمة الله الذي لا يموت ..."(١٣٩). وقد اتّخذت هذا النّشيد كل من كنيسة أورشليم وكنيسة أنطاكية وأدرجتاه في ليتورجيتهما. ولكن لا أثر له في ليتورجيّة السّريان المشارقة.

أمّا عن الطّقس القبطي فيقول ابن سباع: "ثم يدور الكاهن والشماس بالانجيل المجيد والخدام امامه يحجبوه بالشموع والشماس حامله الى حين يترلوا من الهيكل والشعب يرتل ويقول اسمعني يارب رحمتك في الغدوات فاني عليك توكلت(١٤٠) واما الشماس فانه يقول على انفراد علمني يارب الطريق التي اسلك فيها ... يفتح (الكاهن) الانجيل ويضعه على الهيكل اشارة ان هذا النص صادر عن قول المسيح الموضوع على الهيكل. ثم يستحضر الكهنة الحاضرين لينظروا الكلام المسطور فيه ... يقبلوه وهو مفتوح لتمييز الكهنة في تقبيله مفتوحاً على باقي الشعب لكهنوتهم"(١٤١).

ويقول ابن كبر: "ثم يتناول الشمّاس كتاب الإنجيل ويدور به الهيكل خلف الكاهن، والكاهن وقت المزمور يرفع البخور. فإذا نزل به الشماس من

١٣٩- ينسب اليونان هذا النشيد إلى الملك جستنيان. وينسبه السّريان إلى بطريركهم ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م). وهو يُرتّل في الكنيسة القبطيّة في السّاعة السّادسة من يوم الجمعة العظيمة.

١٤٠- مزمور ١٤٢:٨

١٤١- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٠٦

الهيكل بخره القس وتناوله وقبله وقبلته الكهنة مفتوحاً على مراتبهم"(١٤٢).

هنا يتّضح أمامنا ممارستان لدورة الإنجيل حول المذبح؛ الأولى يدور فيها الكاهن مع الشمَّاس الذي يحمل الإنجيل حول المذبح. أما الثّانية فيدور فيها الشمَّاس بمفرده حول المذبح حاملاً الإنجيل حتى يأتي به إلى الكاهن الواقف متّجهاً غرباً أمام المنجليَّة القبطيَّة يبخّر أثناء ترتيل المزمور.

أما البابا غبريال الخامس فقد ذكر الممارسة الأولى دون الثّانية برغم أن الممارسة الثّانية كانت هي ممارسة الكنيسة البطريركيَّة أي كنيسة العذراء المعلّقة قبل زمانه بقرن واحد تقريباً.

وبحسب ابن كبر يتّضح لنا أن الطّقس القديم في الكنيسة القبطيَّة لدورة الإنجيل لم يكن يتم حتى ذلك الوقت بكتاب البشارة، بل بكتاب الإنجيل نفسه. فعندما ينتهي القارئ من ترتيل المزمور يتناول الشمَّاس كتاب الإنجيل منه، ويدور به الهيكل، ثم يقف به أمام الكاهن فيبخره بالشُّورية ثم يُقبِّله، ويُقبِّله من بعده كل الكهنة مفتوحاً. ثم تبدأ قراءته.

وفي موضع آخر يقول ابن كبر: "وعند تقبيل الإنجيل إذا لم يكن مع القس المقدِّس قس آخر يحمل المجمرة على الهيكل، فيحملها أكبر الشّمامسة الذين يخدمون معه"(١٤٣).

ويضيف البابا غبريال على طقس دورة الإنجيل حول المذبح الكثير الكثير، حيث يلتفت الكاهن إلى ناحية المنجليَّة حاملاً الشُّورية أثناء ترتيل المزمور، وعند الإستيخون الثّالث منه يعطي البُخور للإنجيل، وعند الرّابع

١٤٢- الجزء الثّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

١٤٣- نفس المرجع، الباب ١٧

يصعد إلى المذبح ويُقبّله بفيه، ويرشم درج البُخور مثال الصَّليب، ويضع يداً واحدة في الشُّورية، ثم يدور مع الشمَّاس بالإنجيل حول المذبح، بينما يرتِّل الشَّعب Πος Δικωρ ονϐηκ εωτεμ εροι (أي: يارب إليك صرخت فاستمعني) بكمالها ... وعند باب الهيكل يتقدَّم الكهنة ويخلعون طيالسهم ويُقبِّلون الإنجيل مفتوحاً، وآخرهم يُقبِّله هو أيضاً ويناوله للشَّماس ليقرأه(١٤٤).

ومع كل ما ذكره البابا غبريال من تفصيلات، فهو لم يشر إلى أن الكاهن يقول أثناء دورة الإنجيل حول المذبح صلاة سمعان الكاهن: «الآن يا سيِّد تطلق عبدك بسلام كقولك ...» (لوقا ٢: ٢٩-٣٢). في حين أن خولاجي سنة ١٩٠٢م يذكرها في عشيَّة وباكر والقدَّاس. وفي ذلك تنقسم مخطوطات الخولاجيَّات إلى قسمين، القسم الأوَّل منها لا يورد صلاة سمعان الشيخ(١٤٥)، وهي الخولاجيَّات الأكثر قدماً، والقسم الثاني منها يوردها(١٤٦). ويُظن أنها واحدة من الممارسات التي عُرفت في جهة ما، ثم سادت بعد ذلك بعد انتشار الخولاجيَّات المطبوعة على يد القُمُّص عبد المسيح صليب المسعودي البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م).

وهنا نلاحظ أن الدَّورة بالإنجيل حول المذبح حتى القرن الخامس عشر، وربما بعده أيضاً، كانت بنفس الإنجيل الذي ستجري قراءته من على المنجليَّة وليس بكتاب البشارة كما نمارس اليوم.

١٤٤- قد شرحتُ ذلك تفصيلاً في كتاب "صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر"، فارجع إليه هناك.

١٤٥- وهي مخطوطات مكتبة الفاتيكان رقم (قبطي ١٧)، ومخطوط مكتبة بودليان Bodleian بأكسفورد رقم (Hunt 360)، ومخطوطات أرقام (ط ١٣٣، ط ١٣٤) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار.

١٤٦- مثل مخطوطات أرقام (ط ١٣٦ ، ط ١٤٧) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار.

فالممارسة الفعلية اليوم هي أن الكاهن الخديم يقدِّم البشارة(١٤٧) التي يحملها في يده – والتي تسلَّمها من الشمَّاس أثناء الدَّورة حول المذبح – يقدِّمها إلى كبير الكهنة الحاضرين الذي يتقدَّم ليُقبِّلها نيابة عن جميع الكهنة الحاضرين. ثم يُقبِّلها الكاهن الخديم، ويعطيها للشمَّاس الذي يضعها إلى جوار القطمارس على المنجليَّة حيث يبدأ في قراءة فصل الإنجيل. فصار تقبيل البشارة هو البديل لتقبيل القطمارس الذي يحوي فصل الإنجيل المقدَّس.

إن دورة الكاهن حول المذبح بالإنجيل والصَّليب والبُخور هي إشارة إلى انتشار البشارة بالإنجيل بكرازة الآباء الرُّسُل كارزين بالرِّضى وقبول الصَّليب في كل أرجاء الأرض التي يمثِّل مركزها مذبح كنيسة العهد الجديد.

مرد المزمور القبطي

حين ندقِّق في قراءتنا لمصادرنا الطَّقسيَّة القديمة نتبيَّن طقساً بديعاً لم يتبق منه اليَوم سوى أثر بسيط. فنقرأ عند ابن سباع وعند البابا غبريال الخامس أيضاً أنه بعد انتهاء ترتيل المزمور القبطي سواء في صلوات رفع بخور عشيَّة أو باكر أو في القدَّاس، يشترك الشَّعب كله في ترديد بضع آيات من المزامير تتناسب مع المناسبة الكنسيَّة التي يُقام من أجلها القدَّاس الإلهي. فبينما يذكر ابن سباع آيات من المزمور (١٤٢)، يذكر البابا

١٤٧– البشارة هي غلاف من الفضَّة أو ما أشبه يحوي داخله البشائر الأربع. ويقول مجمع دير الشَّرفة (ص ٤٦)، وهو أحد مجامع الكنيسة السِّريانيَّة: "لنحفظ بكل اهتمام العادة القديمة وهي أن يكون في كل بيعة كتاب الإنجيل حاوياً الفصول التي تُقرأ على مدار السَّنة بحسب طقسنا بالسِّريانيَّة، وفي البلاد التي أهلها يتكلَّمون بالسِّريانيَّة والعربيَّة. وليكن وجه كتاب الإنجيل المذكور مغشى بصفحة من فضة منقوش في وسطها صورة المصلوب. وفي زواياها صور الإنجيليين الأربعة ...".

غبريال الخامس آيات أخرى من المزمور (١٤٠).

ولقد شرح القمص عبد المسيح صليب البراموسي هذا الأمر حيث أورد الخولاجي المقدَّس المطبوع سنة ١٩٠٢م الآيتين اللّتين ذكرهما البابا غبريال الخامس «يارب إليك صرختُ فاستمعني، أنصت إلى صوت تضرُّعي إذا ما صرختُ إليك. لتستقم صلاتي كالبُخور قدَّامك. وليكن رفع يديَّ كذبيحة مسائيَّة. هلليلويا» (مزمور ١٤٠: ١، ٢)، أوردهما تحت عنوان: "... والشَّعب يرتِّلون في عشيَّة قائلين ... وهي تقال دائماً في الأيام السَّنويَّة دون الأعياد في دورة إنجيل عشيَّة، والشَّماس حامل الإنجيل"[١٤٨].

أما في باكر فيرتِّل الشَّعب قائلين من المزمور (١٤٢: ٨)، المزمور (٦٦: ١، ٢) Ⲡⲁⲣⲓⲥⲱⲧⲉⲙ «فلأسمع بالغدوات رحمتك، فإني عليك توكلتُ. عرِّفني يارب الطَّريق التي أسلك فيها، لأني إليك رفعت نفسي أيها الرَّب إلهي. هلليلويا». «ليتراءف الله علينا ويباركنا، وليظهر وجهه علينا ويرحمنا. لتُعرف في الأرض طريقك، وفي جميع الأمم خلاصك. هلليلويا». وهي تقال دائماً في الأيام السَّنويَّة دون الأعياد في دورة إنجيل باكر والشَّماس حامل الإنجيل[١٤٩]. وهي الآيات التي أشار إليها ابن سباع في اختصار.

هذه الآيات المختارة من المزامير والتي يشترك فيها الشَّعب بعد انتهاء ترتيل المزمور القبطي تُسمى "طوافات المزامير"، أي آيات المزامير التي يردِّدها الشَّعب أثناء طواف أو دوران الإنجيل حول المذبح. لأن الكاهن كان يدخل إلى الهيكل ليطوف مع الشمَّاس بالإنجيل حول المذبح بعد انتهاء ترتيل المزمور القبطي، ومن ثمَّ فقد كانت هذه الفترة منذ لحظة

١٤٨- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ١٠٠
١٤٩- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ١٠٢

دخوله إلى الهيكل حتى خروجه ثانية تُستغل في ترتيل هذه الآيات البديعة من المزامير، والتي تتوافق مع أي مناسبة كنسيَّة.

ولقد أورد كتاب خدمة الشمَّاس عدداً من "طوافات المزامير" التي تُقال في المناسبات المختلفة(١٥٠). وظلّ هذا الطّقس المذكور هو الطّقس المعروف في الكنيسة حتى إلى زمن متأخّر. وقد سمعتُ من مرتِّلين قدامى ترديدهم لهذه الطّوافات ولكن بأداء منفرد لا يشترك فيه الشّعب، وذلك بعد انتهاء المرتِّل من ترتيل المزمور القبطي.

وكان ابن سباع محقاً في الآيات التي ذكرها، والتي تقال عقب مزمور إنجيل القدّاس، لأنه كان يتحدَّث عن قدّاس يوم الأحد باكراً(١٥١). ولكن القُمُّص عبد المسيح صليب البراموسي حوَّلها لتكون خاصة بمزمور إنجيل باكر(١٥٢). ثم ألغى طوافات مزامير الإنجيل عقب مزمور إنجيل القدَّاس، فيقول في ذلك: "لا يقول الشَّعب في دورة الإنجيل Пос Ⲡⲁⲣⲓⲥⲱⲧⲉⲙ ولا ⲁⲓⲱϣ ⲟⲩⲃⲏⲕ . بل يقولون Ⲁⲗⲗⲏⲗⲟⲩⲓⲁ فقط أو الدَّورة الموافقة لليوم في بعض الأعياد الفرحيَّة"(١٥٣).

ومن ثمّ فقد أورد القُمُّص المذكور في كتاب خدمة الشمَّاس بعض مزامير الطّوافات التي تُقال فقط بعد مزموري عشيَّة وباكر. أما الطّواف الوحيد الذي ذكره بعد مزمور إنجيل القدَّاس فهو ما يُقال في حضور

١٥٠- كتاب خدمة الشمَّاس، الطبعة الرابعة، ص ٦٠٣-٦١٠.

١٥١- وهو ما يدعِّمه شواهد كثيرة من النص، مثل قوله بعد انتهاء قراءة فصل الإبركسيس: "ثم يقول الشمَّاس: المسيح قام ..." ... الخ.

١٥٢- جعلها خاصة بمزمور إنجيل باكر في خولاجي سنة ١٩٠٢م، وذكر طوافاً غيرها في كتاب خدمة الشمَّاس بدايته: «ليتراءف الله علينا ويباركنا ...» (مزمور ٦٦: ١، ٢).

١٥٣- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٥٩

الأب البطريرك أو المطران أو الأسقف؛ «فليرفعوه في كنيسة شعبه، وليباركوه على منابر الشيوخ، لأنه جعل أبوة مثل الخراف ...» (مزمور ٣٢: ٦، ١٠٦، ٤١، ٤٢).

وهكذا توقّفت طوافات المزامير عقب مزمور إنجيل القدّاس، ولم نعد نسمعها إلاّ في حضور البابا البطريرك فقط أو الأب الأسقف، ولم يكن هذا سوى بقايا طقس بديع حلّ محلّه مردّات أخرى للمزمور القبطي من تأليفنا في المناسبات الكنسيّة، وليس آيات مختارة من المزامير. أمّا في الأيام السّنويّة فصار المرد هو كلمة "هلليلويا" فقط.

قراءة فصل الإنجيل المقدّس

□ تحتل قراءة الإنجيل المقدّس في الطّقس الكنسي مكانة سامية جداً، باعتبارها استعلان حضور الرّب، أي حضوره بكلمته، لأن المسيح هو "كلمة الله". وكلمة الله حيٌ وفعّالٌ (حسب التّرجمة اليونانيّة الدّقيقة). وعندما يستشهد الآباء بهذه الآية فهم يشيرون إلى المسيح الكلمة، لذلك فقراءة كلمة الله هي حضور شخص المسيح.

وقارئ الإنجيل عند الأقباط والسّريان والإثيوبيّين هو الكاهن أو الشمّاس الإنجيلي، وفي المناسبات الكنسيّة يكون هو الأسقف. أمّا قارئه عند اليونان والأرمن واللاتين فهو الشمّاس.

ففي الكتاب الثّاني من كتب المراسيم الرّسوليّة والذي يتبع الطّقس السّرياني، نعرف أن الإنجيل يقرأه الشمّاس أو القسّيس[١٥٤].

١٥٤- المراسيم الرسوليّة ٢:٥٧ . وهو يقابل الدّسقوليّة العربيّة (١٠:٢٠). (انظر:

أمّا عن الطّقس القبطي، فيقول المؤرّخ سوزومين (أوائل القرن الخامس) إن رئيس الشّمامسة في طقس الإسكندريّة كان له الحق وحده أن يقرأ الإنجيل[١٥٥]. وفي كنائس أخرى يقرأه القسوس فقط. وفي أماكن غيرها يقرأه الأساقفة في المواسم الممتازة كما في القسطنطينيّة في اليوم الأوّل من عيد الفصح.

وفي قوانين القدّيس باسيليوس الكبير[١٥٦]: "إن كان القسوس يحسنون القراءة فإنهم الذين يقرأون الإنجيل. وإن كانوا ما يعرفون يقرأون ... فإن الشّمامسة يقرأون الإنجيل. ولا يقرأ الإنسان الإنجيل في الكنيسة الجامعة دون شمّاس أو قسّيس".

والآن نعود نركّز حديثنا عن الطّقس القبطي.

فعند ابن سباع: "إن كان القس يختار ان يقرا الانجيل فهو طقسه بخلاف كل احد ... وان لم يختر الكاهن يقرا الانجيل له ان ياذن للشماس بقراته. ويبقى للشماس وضع ويُسمى شماس انجيلي اي انه يقرا الانجيل ويتميز بذلك على بقية الشّمامسة الذين لم يحسنوا قراته لان قراته ينبغي ان تكون وقفاً على شيخ يدري تصحيح النص ويدري شرح النص معنويا. ثم يقرا الانجيل ويملا اسماع الحاضرين نصا وشرحا.

دكتور وليم سليمان قلادة، كتاب الدّسقوليّة، تعاليم الرُّسُل، مصر، ١٩٧٩م، ص ٢٠١).
وجدير بالذّكر أن الدّسقوليّة العربيّة – التي نشرها د. وليم سليمان قلادة – هي التّرجمة العربيّة للكُتُب السّبعة الأولى من المراسيم الرّسوليّة كما أشرتُ غير مرّة.

155- ODCC, 2nd edition, p.583.

١٥٦- هي قوانين مصريّة بحسب شهادة أشهر العلماء مثل العالم جرجوري دكس (١٩٠١–١٩٥٢م)، وُضعت في غضون القرن السّادس الميلادي، ونسبها مؤلفها إلى القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠–٣٧٩م) لتنال شهرتها على مدى التّاريخ.

ثم تكون قراءة الانجيل فوق الانبل"[١٥٧].

وهذا الشمّاس الإنجيلي الذي يتحدَّث عنه ابن سباع يفرد له البابا غبريال الثّاني بن تُريك (١١٣١ـ ١١٤٥م) قانوناً هاماً يختص به، فيقول: "ولا يقدّس شمّاس إلاّ إذا قرأ إنجيل القدّاس، ما خلا أن يكون أسقف حاضر ويريد أن يكرِّمه. فأمّا بقية الفصول وإنجيل باكر فيساعده في قراءتها من حضر من الكهنة. ومن لا يعرف أن يقرأ الإنجيل فليس له قدّاس. وأما الشّمامسة الذين لم يقدّسوا إلى الآن، فلا يقدّس أحد منهم إلى أن يجوّد القراءة، بل يقرأ القراطيس[١٥٨] وإنجيل باكر (فحسب)، فإذا حذق القراءة وجوَّد فيما يقرأه، عُمل بذلك ورقة وفيها خطوط[١٥٩] القسوس ومقدَّمي الكهنة بأنه قد تمّهر في قراءة الكُتُب، وسُيِّرت إلى القلاّية (البطريركيَّة)، ويُوقّع عليها بالسّماح له في القدّاس وأخذ الطّقس كأمثاله بمقتضى ما أُخذت به خطوط[١٦٠] القسوس"[١٦١].

وعند ابن كبر: "ويُقرأ الإنجيل إمّا على الإنبن وهو الأليق بإجلاله، وإما على المنجليّة. فإن قرأه شمّاس استقبل بوجهه إلى الشّرق، ووقف الكاهن بالمجمرة على جناح الهيكل. وإن قرأه البطرك استقبل بوجهه الغرب قائماً على باب المذبح؛ ويقف الكاهن بالبُخور تحته، وكذلك الأسقف في كرسيه، ويفسّر عربياً، إلاّ في دير أبو مقار فإنهم لا يقرأون

١٥٧ـ يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٠٧، ٢٠٨.
١٥٨ـ أي فصلا الرّسائل (البولس والكاثوليكون) وفصل أعمال الرُّسُل (الإبركسيس).
١٥٩ـ أي توقيعات
١٦٠ـ أي توقيعات
١٦١ـ القانون الثاني من مجموعة العشرة قوانين المختصّة بهذا البطريرك.
وأنا أسألك قارئي العزيز تاركاً الإجابة لضميرك، هل تلحظ مقدار الفرق الشّاسع بين اهتمام الكنيسة بأهميّة جودة القراءات الكنسيّة ودقتها في القرن الثاني عشر الميلادي، وبين اهتمامها بها في القرن الحادي والعشرين؟.

عربياً بتة إلى يومنا هذا"(١٦٢).

واليوم في أثناء قراءة فصل الإنجيل المقدّس يقف الكاهن متّجهاً إلى ناحية الغرب في مواجهة الشّعب حتى تنتهي قراءته. وفي ذلك يقول البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) تأكيداً لما سبق قوله عند ابن سباع وابن كبر: "النّاموس لم يكن يقرأه إلاّ الكاهن أو النّبي، ولهذا جعل آباؤنا أن الإنجيل ما يقرأه إلاّ الكاهن، وكذلك هو الآن عند سائر الطّوائف لا يقرأه إلاّ الكاهن. فما وُضع الآن أن الشمّاس يقرأه، صار الكاهن يقف ووجهه إلى الغرب دون بقيّة الشّعب كلّه"(١٦٣).

وبحسب رواية شاهد عيان زار مصر ودخل كنائسها القديمة أواخر القرن التّاسع عشر وكتب عما شاهده من طقوسها، يقول ألفريد بتلر A. Butler في وصف بديع: "ثم يأتي دور قراءة الكاهن للإنجيل فيتّجه نحو الشّرق ويخرج الشمّاس لدي باب الهيكل ويقول بصوت مرتفع: قفوا بمخافة الله لسماع الإنجيل المقدّس. وهنا يبخّر الكاهن كتاب البشارة المختوم داخل الغلاف الفضي، ويسلّمه إلى كاهن آخر يقبّله، ثم يضعه فوق المنجليّة، ويبدأ في قراءة فصل الإنجيل باللّحن القبطي وهو يتّجه ناحية الشّرق. وأثناء القراءة يقف الكاهن القائم بخدمة القدّاس أمامه في مواجهة الغرب، ويبخّر الإنجيل باستمرار. وقد وقف على كل من جانبيه شماس يمسك بشمعة مضاءة، بينما تتوهّج شمعة أخرى على الشّمعدان الكبير الذي يوجد دائماً بجانب المنجليّة لهذا الغرض. وبعد ذلك يقرأ الإنجيل بالعربيّة على مدخل باب الهيكل بينما يقف الشّمامسة حاملين الشّموع بجانب القارئ الذي يواجه المصلّين في تلك الأثناء. ويظل

١٦٢- الجزء الثّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليّة بباريس، وهو "كتاب مصباح الظّلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" مرجع سابق، الباب ١٧

١٦٣- البابا غبريال الخامس، التّرتيب الطّقسي، مرجع سابق، ص ٧٤

الكاهن يلوِّح بالمجمرة. أما الشَّمامسة وشمامسة الهيكل الـذين يرتـدون الطَّرابيش مثلهم مثل جمهور الحاضرين فإنهم يخلعونها أثناء قراءة الإنجيل. وعند انتهاء قراءة الإنجيل يقبِّل الكـاهن وكافـة رجـال الإكلـيروس الحاضرين البشارة الفضيَّة"(١٦٤).

وبحسب شهادة القدِّيس جيروم (٣٤٢-٤٢٠م)، توقد جميع الأنوار، وتوقد شمعتان أثناء قراءة الإنجيل(١٦٥)، فيقول:

[إن الشُّموع التي توقد حين قراءة الإنجيل كالعادة المألوفة في بلاد الشَّرق وكنائسه ليست كلها لطرد الظَّلام، بل دليـل على الفرح والحبور بالإنجيل. وقد قيل في المزمـور «سـراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي» (مزمور ١١٩:١٠٥). ومكتوب أيضاً: «لأن الوصيَّة مصباح والشَّريعة نور» (أمثال ٦:٢٣)].

وقد شرحتُ طقس قراءة الإنجيل عند البابا غبريال الخامس بالتفصيل في كتاب "صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر"، فارجع إليه هناك.

أمَّا هنا في السُّطور التَّالية فسأوردُ ما يذكره البابا غبريال الخـامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) في كتابه "التَّرتيب الطقسي"(١٦٦)، عمَّا يجـب أن يفعله الشَّعب والكاهن أيضاً أثناء قراءة الإنجيل المقدَّس، وهو نفس الكلام الذي يقوله أحد علماء الكنيسة القبطيَّة في العصور الوُسطى كما جاء في كتاب "سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت"(١٦٧). مما يعني مجدداً أن كـلا من هذين الكتابين المذكورين ينقلان من مصدر أقدم منهما.

١٦٤- ألفريد بتلر A. Butler، مرجع سابق، ص ٢٢٤

165- ODCC, 2nd edition, p. 583.

١٦٦- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٧٤، ٧٥

١٦٧- كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاوس عوض، مرجع سابق، ص ١٥-١٩

تنبيه:

• الكلمات المكتوبة بالبنط الثقيل هي ما يذكره كتاب "سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت" ولم ترد في كتاب "الترتيب الطقسي".

• الكلمات المكتوبة بين قوسين ( ) هي التي لم ترد في كتاب "سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت"، ووردت في كتاب "الترتيب الطقسي".

مع توضيح ما يلزم من فروقات بينهما في الهامش عند الضرورة.

النّص: "... وأما قوله قفوا بخوف من(١٦٨) الله، وأنصتوا (لسماع إنجيل الله). فينبغي على كل واحد أن يقف ولا يمشي ولا يتكلّم ولا يشغل ذهنه بشيء لأجل سماع كلام الله، ويكونوا ناصتين (ساجدين) خاضعين مطرقين برؤوسهم إلى الأرض بخوف ورعدة وهيبة ووقار لتلاوة قول الإنجيل. ولا ينبغي لأحد من الشّعب أن يتكلّم ولا يشغل ذاته بصلاة، ولا يمشي من مكان إلى مكان. وإذا عبر أحد من باب البيعة وسمع قراءة الإنجيل يقف ولا يمشي حتى يفرغ الذي يقرأه. فإن (القارئ) **الكاهن** أمر بالوقوف والسّكوت والسّمع **والطاعة** لما يقال مثالاً لما كان(١٦٩) بنو إسرائيل عندما كان **موسى يقرأ** عليهم **النّاموس**، كانوا مطرقين برؤوسهم لئلا ينظروا (إلى) **البهاء والنّور** (الذي على وجه موسى) **اللذين كانا على وجهه، فإنه كان على وجهه برقع**. فإنه كان عند قراءة النّاموس يكشف البرقع الذي على وجهه. فكانوا يخضعون برؤوسهم حتى لا ينظروا إلى وجهه. فإن (كل) من كان ينظر إلى وجهه يموت، لأجل **مجد** نور الرّب الذي كان حالاً عليه. والنّاموس لم يكن يقرأه إلاّ الكاهن **أو** النّبي. **ولهذا فعل آباؤنا أن الإنجيل ما كان يقرأه إلاّ الكاهن**. وكذلك هو الآن عند سائر الطّوائف، ما يقرأه إلاّ الكاهن. فلما

١٦٨- كلمة "من" لا توجد في معظم مخطوطات كتاب "سرّ الثالوث ...".

١٦٩- "مثالاً لما كان عليه ..." ليستقيم المعنى.

وُضع الآن أن الشمَّاس يقرأه، صار الكاهن يقف ووجهه إلى الغرب دون الشَّعب كله، حتى أن كل واحد يخضع برأسه حتى لا ينظر إلى الكاهن ويخضع للإنجيل. فلذلك ينبغي للكاهن أن يقف ولا يمشي ولا يتكلَّم ولا يخُر ولا يسعى. فإن من تكلَّم ومشى فإنه يصير كمثل داثان وأبيرام لما عاندا موسى وقصدا عمل الكهنوت، وتعرضا لهرون وبنيه وصارا يشغلان أذهان الشَّعب ويغلقان قلوبهم عن سماع قول الله لموسى وهارون. (وكانوا يمشون بين الشَّعب ويغلظان قلوبهم على موسى وهارون). ولم يكونا يستحيان من موسى ولا من الله ولا من النَّاموس الذي كان يقرأه. فأمر الله الأرض ففتحت فاها وابتلعتهما، هما وآباءهما وأبناءهما وماشيتهما، (فكافأهما الله بذلك). فلهذا (السَّبب) أمرنا آباؤنا أن لا يتكلَّم أحد ولا يمشي (وقت القدَّاس، ولا وقت الصَّلاة)، بل نطرق رؤوسنا إلى الأرض وننصت لسماع الإنجيل المقدَّس. وإن (القارئ) الكاهن إذا قال قفوا وأنصتوا، فينبغي (للكاهن) أن لا يتكلَّم ولا يمشي والشَّعب نظيره يفعلون كذلك".

ارتباط طقس رفع البُخور بوقت قراءة الإنجيل المقدَّس

إن ارتباط البُخور بقراءة الإنجيل هو طقس يعرفه العهد الجديد فقط، ولم يكن معروفاً في العهد القديم.

وهو طقس قديم جداً تعرفه كل الكنائس على اختلاف طقوسها. ومن أقدم الشَّهادات على ذلك ما ذكرته السَّائحة الأسبانيَّة إجيريا التي زارت الأراضي المقدَّسة في أورشليم في القرن الرَّابع الميلادي فتقول[١٧٠]:

١٧٠- السَّائحة الأسبانيَّة إجيريا هي صاحبة الكتاب الشَّهير باسم Peregrinatio ad loca sancta أي "زيارة الأراضي المقدَّسة". اكتشفه واحد يُدعى جاموريني Gamurrini في إيطاليا. (انظر: البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ١٦٠).

"يحمل البُخور إلى داخل كنيسة القيامة حتى تعبق الكنيسة كلها برائحته الطيِّبة. وعند ذلك فالأسقف الواقف داخل الدرابزين يتناول الإنجيل، ويأتي إلى الباب (الملوكي)، ويقرأ إنجيل القيامة بنفسه".

وهو ما نجده أيضاً في قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة في القرن الخامس، حيث يشرح طقس رفع البُخور قبل قراءة الإنجيل المقدَّس بواسطة رئيس الشَّمامسة، وأثناء قراءته حتى النهاية، فيقول:

"وكل بخور ترفعونه في الموضع المقدَّس في باكر وعشيَّة، ولا سيَّما في الصَّعيدة التي لله قبل الإنجيل، فليأخذ رئيس الشَّمامسة مجمرة بيده، ويملأها جمراً، ويقف قدَّام المذبح أمام الإنجيل، ويرفعون له فيها البُخور، ويصعده حتى يُقرأ الإنجيل. ثم يمشي بالمجمرة قدَّام الإنجيل إلى داخل الموضع المقدَّس. ليس لأن الرَّب محتاج إلى بخور، بل ليتذكَّر الإنسان البُخور الذي للدُّهور النُّورانيَّة، حيث ليست هناك رائحة كريهة قدَّام الرَّب إله الأحياء بل التَّسبحة هناك" (القانون ١٠٦)[١٧١]. وهذا الطَّقس لازال يُمارس في الكنيسة اليونانيَّة حتى اليوم.

وبعد انتهاء قراءة الإنجيل لا يخرج القس إلى الشَّعب حاملاً المبخرة، ففي القانون رقم (٢٣) للبابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) نقرأ: "لا يخرج قس من الهيكل بمجمرة البُخور في وسط الشَّعب بعد قراءة إنجيل القدَّاس، بل يبخِّر بها حول المذبح إلى الوقت المعلوم".

ومن بين ما كتبته قولها: "إنه في تلك البلاد (أي فلسطين) قوماً يحسنون اليونانيَّة والسِّريانيَّة، وقوماً يحسنون اليونانيَّة فقط، وقوماً السِّريانيَّة فقط".

١٧١- وهو ما نقرأه أيضاً في قوانين الرُّسل القبطيَّة (القانون ٢:٢)، والمراسيم الرَّسوليَّة (٨:٤٧:٢).

الوقوف أثناء قراءة فصل الإنجيل

إن عادة الوقوف أثناء قراءة فصل الإنجيل المقدَّس هي عادة تعرفها كافة الكنائس الشرقيَّة، بل ويسبقها في هذه الكنائس مناداة الشمَّاس لجماعة الحاضرين بأن يقفوا منصتين مصغين لسماع الإنجيل بحكمة وخوف(١٧٢). وهي عادة تمتد بجذورها إلى التَّقليد اليهودي القديم «ووقف عزرا الكاتب على منبر الخشب ... وفتح عزرا السِّفر أمام كل الشَّعب، لأنه كان فوق كل الشَّعب. وعندما فتحه وقف كل الشَّعب، وبارك عزرا الرَّب الإله العظيم. وأجاب جميع الشَّعب: آمين آمين آمين رافعين أيديهم وخرّوا وسجدوا للرَّب على وجوههم إلى الأرض» (نحميا ٨:٤-٦).

ولاحظ مقارنةً بما سبق؛ أن الوقوف لسماع الإنجيل، ومباركة الكاهن للرَّب، ثم مرد الشَّعب، هو بعينه الطَّقس الذي تمارسه الكنيسة اليوم. أما سجود الكنيسة كلها بعد انتهاء قراءة فصل الإنجيل المقدَّس فقد انحصر في قارئ الإنجيل بمفرده حيث يكتفي الشَّعب بإحناء الرأس مع رشم الصَّليب. ولازال الطَّقس القبطي يحتفظ بآثار هذا السُّجود الجماعي للشَّعب كله بعد قراءة فصل الإنجيل المقدَّس، وذلك في أسبوع الفصح المقدَّس (الآلام) حيث يُختتم فصل الإنجيل في كل مرَّة بالأمر التَّالي بالقبطيَّة: "اسجدوا للإنجيل المقدَّس".

وفي الباب العاشر من كتاب الدِّسقوليَّة: "إذا حضرتم لقراءة الإنجيل، فليقف القسوس أجمعين، والشَّمامسة وكل الشَّعب بسكون وهدوء".

١٧٢- لم يبق أثر هذه المناداة بالوقوف لسماع الإنجيل في كنيسة روما. وإنما ورد في بعض مخطوطات الطَّقس اللاتيني أن الشمَّاس كان ينادي قبل الإنجيل: "كفوا عن الكلام والزموا السُّكوت".

فالوقوف للإصغاء للإنجيل المقدَّس هو علامة تكريم لكلمة الرَّب التي نقبلها منه في كنيسته، ونحن منحني الرؤوس دلالة خضوعنا وقبولنا لكلمته، لكي تكمّل فينا فعلها التّقديسي.

كشف الرأس عند قراءة الإنجيل

يقول المؤرِّخ سوزومين (أوائل القرن الخامس): إنه أثناء قراءة الإنجيل لا يقوم الأسقف عن كرسيه بخلاف كلِ عوائد الكنائس الأخرى. وربما كان سوزومين يشرح طقس القرون المبكِّرة عن زمانه، لأن القدِّيس إيسيذوروس البليوزومي (٤٥٠م) يقول إن وقت قراءة الإنجيل يقوم الأسقف عن كرسيه، ويخلع الأمفوريون احتراماً للإنجيل. وهي عادة مرعيَّة في الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى أيضاً. فالأسقف لا يقرأ الإنجيل أو يصغي إليه إلاّ بعد نزعه التَّاج عن رأسه.

ومن قوانين البابا غبريال الثّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م): "لا يتقدَّم أحد من الكهنة إلى قراءة شئ من الكُتُب، ولا يطلع إلى الهيكل بغير إستيخارة[١٧٣]. ولا يتقرَّب أحد منهم على المذبح ورأسه مغطى، ولا يصلّي أحد منهم مع قس أو يقرأ الإنجيل ورأسه مغطى أيضاً".

أما المرأة فتغطي رأسها طيلة الصَّلوات في الكنيسة، ولاسيَّما وقت قراءة الإنجيل المقدَّس. فشعر المرأة هو زينتها الظَّاهرة، وعندما تدخل الكنيسة بيت الملائكة ومسكن الله مع النَّاس، فلا ينبغي أن تتحلّى بزينة خارجيَّة، بل بزينة الرُّوح، وزينة القلب الدَّاخليَّة. وطرحة المرأة على رأسها تذكِّرها دائماً وهي في الكنيسة أنها عروسة المسيح، والمسيح هو عريسها السَّماوي.

١٧٣- إستيخارة من الكلمة اليونانيَّة Στοιχάριον (إستيخاريون)، وهي "التونية".

تقبيل الإنجيل بعد قراءته

تقبيل الإنجيل قبل قراءته يعني شهادة باستعدادنا لسماع كلمة الرَّب والعمل بها. وتقبيله بعد قراءته يعني تصديقنا لكلمته المقدَّسة، وخضوعنا المحب لنير الوصيَّة الهيِّن والخفيف، لأن الرَّب يحملها معنا ولأجلنا.

ويلخِّص البابا غبريال الخامس ذلك بقوله: "وبعد ذلك يقبِّلون الإنجيل لقبولهم قول الله"[١٧٤]. ويصيغ كتاب "سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت" هذه العبارة السَّابقة بدقّة أكثر حين يقول: "وبعد ذلك يقبِّلون الإنجيل كقبولهم قول الله"[١٧٥].

وفي حين يذكر البابا غبريال الخامس أن الشَّعب يقبل الإنجيل بعد قراءته في القدَّاس الإلهي، يذكر في ترتيب رفع البُخور ما يلي: "وعند فراغ الإنجيل، يحضر الشمَّاس القارئ الإنجيل إلى عند الكاهن، فيعطيه البُخور قائلاً: 'مباركٌ الآتي باسم الرب'[١٧٦]، وثمّ من يقول: 'اسجدوا للإنجيل'[١٧٧]، والاثنتان موافقتان. ثم يحمله الكاهن على ذراعيه ويأتي الكهنة إلى عنده ويخضعوا برؤوسهم، ويخلعوا طيالسهم، ويقبلوه كحسب طقوسهم، ثم في آخر الجميع يقبله هو. ويناوله إلى الشمَّاس يضعه على الإنجيليَّة، ثم يُرَد الإنجيل كالعادة"[١٧٨].

ففي حين يقول البابا غبريال الخامس بتقبيل الشَّعب للإنجيل بعد

١٧٤- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٧٥

١٧٥- كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٨

١٧٦- ما بين القوسين ورد بالقبطيَّة فقط في الأصل.

١٧٧- ما بين القوسين ورد بالقبطيَّة فقط في الأصل.

١٧٨- البابا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ٥٧

قراءته في القدّاس الإلهي، نجده قد ألغى تلك الممارسة في شرحه لطقس تقبيل الإنجيل بعد قراءته في صلوات رفع البُخور. ومن ثمّ يتّضح التّدرُّج الذي استوجبته الظُّروف وازدياد أعداد الشّعب. ففي البداية كان الشّعب يتقدَّم واحداً فواحداً لتقبيل الإنجيل بعد قراءته، سواء كان في صلوات رفع البُخور أو في القدَّاس الإلهي. ثم صار الإيبودياكون يذهب بالإنجيل إلى حيث وقوف الشّعب ويمر به عليهم ليُقبّلوه، ثم أُلغي طقس تقبيله بواسطة الشّعب واُكتفي بتقبيله بواسطة رجال الإكليروس فقط. وفي مرحلة تالية اكتفي بتقبيله بواسطة كبير الكهنة الحاضر الصّلاة. وفي ذلك يقول القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموسي: "وإن كان الأب البطريرك أو الأسقف حاضراً، فيقدّم إليه الكاهن الإنجيل فيقبّله وحده دون باقي الكهنة".

وعند ابن سباع: "ثم بعد نزول القارئ للانجيل (من على الإنبل) يأتي ساير الكهنة الحاضرين ويقبلوه تصديقاً وإيمانا لا شهاده كالتقبيل الأول وهو مفتوح لكن إيمانا وتصديقا وتحقيقا حتى يماثلهم الشعب في تقبليه.

ثم بعد ذلك يحمل الابودياقن الانجيل ويغشيه بستر حرير ويدور به على الشعب ليقبلوه مغلوقا للتصديق لما سمعوا واتباعا لتقبيل الكهنة بالتصديق والتحقيق

ودوران الابودياقن به على الشعب اولى من ان الشعب يمشي اليه ... الفايدة من ذلك عدم الازدحام وبلبلة العقل"[١٧٩].

ويقول ابن كبر بعد تفسير الإنجيل عربياً: "ثم يتناوله الكاهن من يد الشمّاس فيُقبّله هو والكهنة الحاضرون ثم يتناوله من الشّمامسة من يخرجه

١٧٩- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٠٩

إلى الشَّعب ليقبِّلوه".

وأوَّل إشارة تصلنا عن زمن توقُّف تقبيل الإنجيل بعد قراءته نقرأها عند ابن كبر (+ ١٣٢٤م) قس كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة في الباب السَّادس عشر من مؤلَّفه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" فيقول في ذلك:

"وكانت العادة في المعلَّقة وغيرها أنه عند فراغ قراءة الإنجيل يقبِّله الشَّعب، الرِّجال ثم النِّساء، فأشار الأب البطريرك(١٨٠) الآن باعتماد عادة الرُّهبان، وهي تأخير تقبيله إلى انتهاء الصَّلاة، فيُقبَّل مع الصَّليب".

وهذه الإشارة مهمَّة من وجهة تاريخ الطَّقس، إذ تُطلعنا على الزَّمن الذي توقَّفت فيه هذه الممارسة الطَّقسيَّة في كنيسة المعلَّقة بالذَّات، وهي الكنيسة البطريركيَّة في ذلك الوقت. ولم يكن انتشار هذه التَّعليمات الطَّقسيَّة الجديدة سريعاً، لأنه بعد ذلك بما يقرب من مائة سنة، أي في القرن الخامس عشر نقرأ عند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩ - ١٤٢٧م) أن طقس تقبيل الإنجيل بعد قراءته مباشرة كان لازال طقساً معمولاً به، إلاَّ أنه قد اقتصر على الإكليروس وحدهم دون بقية الشَّعب. ففي صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر أُرجئ تقبيل الشَّعب للإنجيل، الرِّجال والنِّساء، إلى نهاية صلوات رفع البُخور، أما في القدَّاس الإلهي فقد أُلغي هذا الطَّقس كليَّة.

وإن طقس تقبيل الإنجيل بعد قراءته هو طقس تعرفه الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى. فالكنيسة السِّريانيَّة تقول إن قراءة الإنجيل نعود

١٨٠ - هو البابا يؤانس الثَّامن (١٣٠٠ - ١٣٢٠) البطريرك الـ ٨٠ من باباوات الكرازة المرقسيَّة.

للمترئس الصّلاة. فإذا سلّم الأسقف قراءة الإنجيل إلى كاهن، أو سلّم الكاهن قراءته إلى الشمّاس الإنجيلي، يعود من قرأ الإنجيل إلى المترئس ليعطيه المجال في تقبيل النّص الذي قرئ.

وبانتهاء قراءة فصل الإنجيل المقدّس، يُرد بمرد الإنجيل الذي يلائم المناسبة الكنسيَّة، أو يكون المرد بعد العظة إن وُجدت. وهو نفس ما تمارسه الكنيسة الآشوريَّة أيضاً، أمّا السّريان الأنطاكيون والموارنه فيتلون إحدى الصّلوات[١٨١]. وقد أدخل الملاباريون والأرمن عادة لاتينيَّة وهي تلاوة قانون الإيمان مباشرة بعد الإنجيل، بينما تجعله باقي الكنائس في بداية قدّاس المؤمنين.

لمحة عن الطّقس الحالي للقراءات الكتابيّة في بعض الكنائس الشّرقيَّة

في الطّقس البيزنطي

في الطّقس البيزنطي يسبق القراءات "البروكيمينون - προκείμενον[١٨٢]" وهو يتألّف من آية أو بضعة آيات من المزامير موافقة للعيد أو اليوم الذي تُرتَّل فيه.

وعند بداية القراءة يقف الشمّاس أمام باب الهيكل ويقول: "فلنصغ". فيقول القارئ مقدِّمة الفصل الكتابي، أي الرِّسالة. ثم يقول الشمّاس: "حكمة" فيقول القارئ عنوان الفصل الكتابي أي الرِّسالة.

١٨١- أطّنها المعروفة لدينا اليوم باسم "صلاة الحجاب"، فهي صلوات سريانيَّة الأصل انتقلت إلى الطّقس القبطي، كما سأشرح ذلك في الفصل القادم.

١٨٢- الكلمة اليونانيَّة προκείμενον تعني حرفياً "السّابق وضعه - what is set forth". (انظر للمؤلف: معجم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الأوّل).

فيقول الشمَّاس ثالثة: "فلنصغ"، فيقرأ القارئ الفصل الكتابي المعيَّن قراءة فصحيَّة منغَّمة.

وفي غضون ذلك يأخذ الشمَّاس المبخرة ويطلب إلى الكاهن أن يبارك البُخور، فيباركه الكاهن كالعادة، فيبخر الشمَّاس المائدة المقدَّسة من جهاتها الأربع، والمذبح المقدَّس، وأيقونتي السيِّد المسيح والسيِّدة العذراء، والشَّعب. ثم يضع المبخرة مكانها.

ومتى تمت قراءة فصل الرِّسالة يقول الكاهن: السَّلام لك أيها القارئ، فيرتِّل الخوروس ثلاث مرَّات "هلليلويا".

أما عن طقس قراءة الإنجيل كما تمارسه الكنيسة اليونانيَّة وكل الكنائس البيزنطيَّة، فهو كما يلي:

يتناول الشمَّاس الإنجيلي الإنجيل المقدَّس من يدي الكاهن حانياً رأسه أمامه ويقول: "بارك يا سيِّد المبشِّر(١٨٣) من بشارة الرَّسول (فلان) القدِّيس".

فيباركه الكاهن راسماً على رأسه علامة الصَّليب قائلاً: "يمنحك الله أيها المبشِّر كلمة بقوَّة كثيرة لإتمام بشارة ابنه الحبيب ربِّنا يسوع المسيح، بشفاعة الرَّسول القدِّيس المجيد (فلان) البشير".

فيقول الشمَّاس: "آمين".

فيقبِّل الكاهن الإنجيل. أما الشمَّاس فيقبِّل يدي الكاهن، ثم يخرج من الباب الشَّمالي ويمضي إلى المنبر تتقدَّمه شمعتان مضيئتان ويصعد إليه.

فيقول الكاهن وهو واقف أمام المائدة المقدَّسة سرّاً أوشيَّة سرّ

١٨٣- ويعني نفسه أي الشمَّاس الذي سيقرأ الإنجيل

الإنجيل. وهي هذه: ''أيها السيّد المحب البشر، اطلع في قلوبنا نور معرفتك الإلهيَّة الذي لا يضمحل، وافتح حدقتي ذهننا لإدراك تعاليم إنجيلك، وضع فينا خوف وصاياك الإلهيَّة لكي ندوس كل الشَّهوات الجسديَّة، ونسير سيرة روحيَّة، معتقدين وعاملين كل ما يرضيك، لأنك أنت استنارة نفوسنا وأجسادنا أيها المسيح الإله. ولك نرسل المجد مع أبيك الذي لا بدء له، وروحك الكُلي قدسه، الصَّالح والصَّانع الحياة. الآن وكل أوان وإلى دهر الدَّاهرين''[١٨٤].

بعدها يتَّجه الكاهن إلى الشَّعب قائلاً: حكمة فلنستقم ونسمع الإنجيل المقدَّس. السَّلام لجميعكم.

فيجيب الخوروس: ولروحك أيضاً.

فيقول الشمَّاس: فصل شريف[١٨٥] من بشارة القدِّيس (فلان) الإنجيلي البشير، التِّلميذ الطَّاهر[١٨٦].

يقول الكاهن: فلنصغ.

يقول الخوروس: المجد لك يارب المجد لك[١٨٧].

فيقرأ الشمَّاس الإنجيل.

ومتى تمَّت قراءته يقول الكاهن: ''السَّلام لك أيها المبشِّر''.

فيقول الخوروس: المجد لك يارب، المجد لك.

١٨٤- القدّاس الإلهي لأبينا الجليل في القدّيسين يوحنا الذهبي الفم، مرجع سابق، ص ٤٠

١٨٥- هذه الكلمة انتقلت من الطَّقس البيزنطي إلى الطَّقس القبطي، وهي ليست ذات أصول قبطيَّة.

١٨٦- تعبير ''التِّلميذ الطَّاهر'' تعبير بيزنطي انتقل هو الآخر إلى الطَّقس القبطي.

١٨٧- هذا المرد سحيق في القدم نقرأ عنه عند القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م). وهو لازال يردَّد في الكنيسة القبطيَّة بنفس هذا النَّص في نهاية القدّاس الإلهي وقبل بداية ترتيل المزمور المائة والخمسين.

أما الشمّاس فيأتي إلى الباب الملوكي ويسلّم الإنجيل للكاهن، فيقبّله، ثم يقبّل الشمّاس يد الكاهن، فيضعه الكاهن على المائدة. ثم تبدأ العظة.

في الطّقس السّرياني

في الطّقس السّرياني الشّرقي والغربي تسبق فصول قراءات العهد القديم، وكذلك فصل الرّسالة، ترتيلة تُسمى عند السّريان الأنطاكيين "الزّمار" وجمعها "الزّمارات".

وتعبير **"يا إخوتي"** في افتتاحية قراءة فصل رسالة البولس في الكنيسة السّريانيَّة نجده أيضاً في طقس كنيسة روما وكنيسة القسطنطينيَّة. كما يعرفه الطّقس القبطي في خاتمة فصل الكاثوليكون.

أمّا تعبير **"يا أحبائي"** الذي يفتتح به قارئ سفر الأعمال أو رسائل الكاثوليكون في الطقس السّرياني فصل القراءة، نجده أيضاً في افتتاحيَّة فصل الكاثوليكون في طقس كنيسة الإسكندريَّة.

وفي الطّقس السّرياني وقبل قراءة الإنجيل تُرتّل آية أو بضع آيات من المزامير يسبقها لفظة "هلليلويا" ثلاث مرَّات، وتختم بلفظة "هلليلويا". ويُسمى السّريان تلك التّرتيلة "هُلالا"، وهي تختلف باختلاف المناسبة الكنسيَّة. وبعد انتهاء قراءة الإنجيل المقدّس يختم المترئس بصلاة هي: "للمسيح يسوع التّسابيح والشُّكر والبركات من أجل كلامه الحي لنا، ولأبيه الذي أرسله لخلاصنا، وروحه الحي القدّوس ...".

أمّا العظة التي تعقب الإنجيل فتُسمى عند السّريان "التّرجام"[188].

١٨٨- البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٢٠

وبينما تأتي الثُلاثة تقديسات في الطّقس القبطي بعد القراءات وقبل فصل الإنجيل، فهي في الطُقوس الشّرقيّة الأخرى تأتي قبل القراءات كلها.

ثالثاً: العظـــة

هناك فرق بين الوعظ والتّعليم. فالوعظ هو كرازة بالإيمان المسيحي لغير المسيحيِّين، لكي يقبلوا الإيمان، أي يقبلون المسيح ربــاً ومخلّصــاً، فالوعظ هو مهمة الكنيسة الأساسيّة والتي احتذبت بواسطتها الكـثيرين من غير المؤمنين إلى حظيرة الإيمان. وهو ما نقرأه في كتابات الآباء أيـام أن كانت طغمة الموعوظين منتشرة في الكنيسة، وهي طغمة الـوثنيين أو اليهود الذين يرغبون في قبول المعموديّة لدخول الإيمان المسيحي.

أما التّعليم فهو شرح الإيمان للمؤمنين الذين قبلوا فعــلاً المعموديّــة ومسحوا بالميرون المقدّس، وتناولوا من الجسد المقدّس والـدّم الكـريم. فتعليمهم هو تعريفهم بأسرار هذا الإيمان، سواء الأسرار التي تخـص الله وعلاقته الخلاصيّة بالكنيسة، أو أسرار الكنيسة كمدخل حتمي وضروري للحياة في الله.

وعلى كل فالكتابات الآبائيّة القديمة لا تفرّق مثل هــذا التّفريـق القاطع بين "الوعظ" و"التّعليم"، إذ يمكــن أن يحـل أيهمــا محـل الآخر[١٨٩]. ومصادرنا الطّقسيّة السّحيقة في القدم تجعل من العظــة أو كلمة التّعليم بنداً رئيسياً لا غنى عنه.

---

١٨٩ - انظر مثلاً: القانون رقم (٣٠) من قوانين هيبوليتس القبطيّة.

وبادئ ذي بدء، فالكنيسة هي في الأساس "مكان التَّعليم"[١٩٠]. وكلام التَّعليم هو كلام التَّقوى[١٩١]. ولأن آباءنا الرُّسُل القدِّيسين يُدعَون "معلِّمي تعليم التَّقوى"[١٩٢]، فقد كان من أهم شروط اختيار الأساقفة وهم خلفاء الآباء الرُّسُل أن يكونوا قادرين على التَّعليم. وهو أحد أهم الشُّروط في اختيار الأسقف، فإلى جانب ما يذكره الكتاب المقدَّس عن ذلك، يكتب القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) عن أهمِّيَّة الوعظ بعد الإنجيل في القدَّاس موبخاً الأسقف دراكونيتوس لأنه أراد أن يتخلَّى عن وظيفته الأسقفيَّة، ويعود إلى ديره، فكتب يقول له:

[... والآن وقد صرت أسقفاً، والشَّعب ينتظر أن يتغذى على يديك من تعاليم الكُتُب المقدَّسة وحدها. فأي عذر يكون لك عندما يأتي الرَّب يسوع ويجد خرافه تعاني المجاعة بسبب عدم التَّغذية].

ونقرأ أيضاً عن ضرورة هذا الشَّرط في رسامة الأسقف هكذا: "ويكون قد شارك في كل تعليم حسن، قادراً أن يفسِّر الكُتُب" (قانون الرُّسُل ١٣:١). وأيضاً: "مداوماً الكلام الجيِّد اللائق بالتَّعليم" (القانون السَّادس للبابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة).

ويشير القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م) في دفاعه، إلى العظة التي يلقيها الأسقف والتي تعقب القراءات الكتابيَّة، لحث السَّامعين. كما يشير إليها العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، والعلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) كما سبق أن أشرتُ في الفصل السَّابق.

١٩٠- المراسيم الرسوليَّة ٨: ٣١: ٣
١٩١- المراسيم الرسوليَّة ٨: ٣٢: ١٨؛ ٨: ٣٣: ٢، ١٤: ٤٧: ١٤
١٩٢- المراسيم الرسوليَّة ٨: ٦: ١١

وتشير الدّسقوليّة أي تعاليم الرُسُل إلى أنه في حالة حضور أحد الأساقفة إلى إيبارشيَّة أسقف آخر، فيجب على الأسقف المضيف أن يكرِّم الأسقف الضَّيف، فيطلب إليه أن يقول كلام تعليم للشَّعب "لأن عزاء وتعليم الغرباء ربحٌ عظيم جداً، لأنه قال ليس نبي يُقبل في مدينته"(١٩٣).

وفي القانون (١١) من قوانين مجمع سرديقية الذي عُقد سنة ٣٤٣م نقرأ ما يلي: "إذا دعا أسقف غير مقتدر في الوعظ أسقفاً آخر إلى إيبارشيَّته، فيجب ألاّ يتصرَّف الأسقف الزَّائر بأسلوب يدل على التَّباهي، ويطيل مكوثه ملقياً عظات متواترة، ففي ذلك احتقار للأسقف المضيف، وحطٌ من كرامته. ولا يجب أن يتغيَّب أسقف عن كنيسته مدَّة طويلة مسبِّباً لشعبه الألم والاضطراب دون عذر مقبول".

وكانت الكنيسة السّريانيَّة تقصر العظة على الأساقفة وحدهم، فيشير القدِّيس أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م) إلى ذلك في حديثه عن عيد الصُّعود بقوله: "إن الرَّاعي الأكبر (أي الأسقف) ينظِّم فيه ترجامه (عظته) بمثابة زهور. والقسوس أعمالهم المجيدة. والشمامسة قراءاتهم. والصِّبيان مزاميرهم. والطَّاهرات (الرَّاهبات) مداريشهن"(١٩٤).

أمَّا في مصر فكان للكهنة الحق أيضاً في تعليم الشَّعب بموافقة الأسقف. ولم يكن هذا تقليداً يختص بكنيسة مصر وحدها، فإن كنيسة الإسكندريَّة قد نقلت كثيراً من تقاليد كنيسة أورشليم. فتقول السَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا في وصفها لكنيسة أورشليم: "إن العادة هنا هي أن الذين يشاءون من القسوس الجالسين يقومون ليعظوا الشَّعب، وبعدهم

١٩٣- دكتور وليم سليمان، الدّسقوليّة، مرجع سابق، الباب العاشر، ص ٢٠٨ . وهو يقابل جزء من الكتاب الثاني من كتب المراسيم الرسوليّة Apostolic Constitutions .

١٩٤- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ٢٢١

جميعاً يعظ الأسقف. والقصد من تلك المواعظ في أيام الأحد هو تعريف الجماعة بالكُتُب المقدَّسة وبمحبَّة الله"[١٩٥].

وروى المؤرِّخون سقراط (٣٨٠-٤٥٠م)، وسوزومين (أوائل القرن الخامس) وغيرهما، إنه بعد أن شاعت في الكنيسة بدعة أريوس منع أثناسيوس الكهنة من الوعظ بعد الإنجيل، وصار الوعظ هو مسؤوليَّة الأسقف وحده. وجدير بالذِّكر أنه لم يكن هناك وعظ على الإطلاق في كنيسة روما لا بواسطة أساقفة ولا بواسطة كهنة حتى إلى أيام البابا ليو في أوائل القرن الخامس بحسب شهادة سوزومين نفسه.

ولم يدم منع الكهنة من الوعظ طويلاً في كنيسة الإسكندريَّة إذ سرعان ما عادت إليهم مهمة التَّعليم في الكنيسة بعد أن تلاشت بدعة أريوس قس الإسكندريَّة، وزال خطرها عن الكنيسة الجامعة. ففي نهاية القرن الخامس نعرف أن البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م) كان يكرِّم القسوس الذين قد أُعطي لهم نعمة التَّعليم، والذين يتعبون في بناء النُّفوس. ففي مقدِّمة قوانينه نقرأ: "هذه هي قوانين القسوس الذين يخدمون حيداً، فلتُضاعَف لهم الكرامة وبخاصة أولئك الذين يتعبون في كلام التَّعليم، الذين يُقامون بواسطة الأساقفة لا لشئ آخر غير هذا، لذلك ينبغي أن يكرَّموا بكل كرامة الله".

وقد حرص الآباء الأساقفة منذ القديم على رسامة كهنة قادرين على خدمة التَّعليم، وأقاموهم لهذا الغرض عينه معاونين لهم في تعليم الشَّعب.

ومن أقدم الصَّلوات في رسامة القسيس نقرأ عن الطِّلبة إلى الله لكي يمتلئ القسيس المرسوم حديثاً بموهبة التَّعليم، فيقول الأسقف مخاطباً الله:

١٩٥- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثَّاني، مرجع سابق، ص ٢٢٢

"والآن يارب تفضّل أن تحفظ فينا على الدّوام روح نعمتك، لكي يمتلئ (عبدك هذا) بعمل آيات شفاء، وبكلمة تعليم، مؤدّباً شعبك بوداعة، ويخدمك بإخلاص، بنيّة طاهرة، ونفس راضية، ويكمل بلا لوم خدمات شعبك، بمسيحك، الذي به لك المجد والكرامة والتّبجيل، في الرّوح القُدُس إلى الآباد آمين" (المراسيم الرّسوليّة ٨:١٧:٥).

وكان من عمل الشّمامسة في الكنيسة توفير الهدوء اللازم أثناء كلمة التّعليم ليستفيد كل الشّعب، فنقرأ في قوانين البابا أثناسيوس: "والشّمامسة ينتشرون بين الشّعب طائفين مساعدين لبعضهم البعض، يحرسون هدوء الشّعب في الأبواب من أجل طفل يبكي، أو من أجل قوم يتحدّثون في الشّعب ويرفضون سماع التّعليم" (القانون ٥٧:٢).

ومن أبدع ما قيل في كتابات آبائنا القديمة هو ما ورد في قوانين هيبوليتس القبطيّة (القرن السّادس الميلادي) عن الشّمّاس الذي يكون بسيرته تعليماً صامتاً للآخرين، يخلُص الكثيرون بسببه. ففي طقس رسامته يضع الأسقف يده عليه ويصلّي إلى الله قائلاً: "... وتجعل سيرته أن تكون بلا خطيئة أمام كل النّاس، وتعليماً لكثيرين، ليخلّص خلقاً في الكنيسة المقدّسة بلا عثرة" (القانون الخامس).

ومنذ القديم كان ممنوعاً على العلمانيّين القيام بمهمة التّعليم العام في الكنيسة، أي الوعظ بصفة خاصة في اللّيتورجيّا، لأن هذا من عمل الأساقفة وحدهم أو من ينوب عنهم من الإكليروس[١٩٦].

ومنذ القرن الخامس، وفي قانون الرُسُل بحسب تقليد الكنيسة القبطيّة نقرأ: "وإذا كان ثمّ كلام عظة، فليفضّلوه، ويمضوا يسمعون كلام

١٩٦- انظر القانون ٦٤ لمجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م.

الوعظ الذي هو كلام الله الذي يثبّت النُّفوس. فيسرعون بالذّهاب إلى الكنيسة، الموضع الذي يسكن فيه الرُّوح ويُثمر فيه" (القانون ١:٤٢).

وفي قانون الرُّسُل أيضاً (١:٤٧:٢) بحسب تقليد الكنيسة القبطيّة: "فإذا وعظوا بكلام، فليختر كل واحد لنفسه أن يمضي إلى موضع التّعليم، وليحسب هذا في قلبه، أن الذي يسمعه هو الله السّاكن في الكنيسة، وهو الذي يتكلّم من فم الذي يعلّم ... وليحسب التّقي أنها خسارة عظيمة له إذا لم يمض إلى الموضع الذي فيه التّعليم، لاسيّما وهو قادر أن يقرأ".

وأيضاً في قانون الرُّسُل (١:٤٧:٣): "وإذا حضر المعلّم، فلا يتأخّر أحدكم عن الكنيسة، الموضع الذي فيه التّعليم. حينئذ سيُعطى المتكلّم أن يقول ما هو ربح لكل واحد، وتسمع ما لم تكن تظنه، وتربح بما يعطيه لك الرُّوح القُدُس بواسطة الذي يعلّم. وهكذا يكون إيمانك ثابتاً بما تسمعه. ويقال أيضاً لك في ذلك الموضع ما يجب عليك أن تفعله في بيتك. فلأجل هذا فليسرع كل واحد في الذّهاب إلى الكنيسة، الموضع الذي يشرق فيه الرُّوح"[١٩٧].

كان التّعليم يكاد أن يكون يومياً في الكنيسة. واليوم الذي يخلو من التّعليم يكون الكتاب المقدّس هو الزّاد الرُّوحي لذلك اليوم. ففي كتاب التّقليد الرسولي هيبوليتس والفصل (٣٥) نقرأ: "وإن كان يوماً ليس فيه تعليم، فليأخذ كل واحد كتاباً مقدّساً في بيته، ويقرأ فيه كفاف ما يظن أنه نافع له".

١٩٧- والقانون (١:٤٧) من قوانين الرُّسُل السّابق ذكره مأخوذ من كتاب التّقليد الرّسولي لهيبوليتس الذي دُوّن قبل سنة ٢٣٥م ومن الفصل (٣٥) منه.

وفي الكتاب الثّامن من كتب المراسيم الرّسوليّة (النّصف الثّاني من القرن الرّابع) نقرأ: "بعد نهاية كلمة التّعليم، ليقف الجميع، وليصعد الشمّاس إلى موضع مرتفع، ويعلن: لا يقف ههنا واحد من السّامعين، أو غير مؤمن" (٨:٦:٢).

والقانون (٢٣) من قوانين هيبوليتس القبطيّة (القرن السّادس الميلادي) يقول: "قيل لأجل التّعليم إنه أعظم من البحر وليس له انتهاء. ولأجل هذا نحن نسعى في طلب التّعليم بكل مثال. فلنقبله إذا وجدناه".

ومن قوانين البابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) نعرف أن التّعليم كان عنصراً أساسياً من عناصر القدّاس الإلهي، فيقول في القانون الخامس من قوانينه: "لا يتكلّم أحد ولا يتحدّث في أوقات الصّلوات والقدّاس إلاّ في أمر الدّين والقراءة والتّعليم والتّفاسير فيما يكون فيه خلاص النّفوس. وينصتوا لسماع وصايا الرّب سبحانه إلى أن ينقضي القدّاس".

وكان التّقليد لدى كنيسة الإسكندريّة منذ أيام ما قبل العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، والعلاّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، وحتى البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) وما بعده، أن تُختم العظة بالذُّكصا للثّالوث المقدّس كما يذكر القدّيس باسيليوس. وكان البابا أثناسيوس الرّسولي وكل الأساقفة في مصر يعظون وهم جالسين على كرسي الأسقفيّة، وفي النهاية يقفون للذُّكصا والصّلاة. ويقف معهم الشّعب بأجمعه.

ومن أهم قوانين المجامع المكانيّة التي توضّح لنا موقع العظة الطّقسي في القدّاس الإلهي هو القانون رقم (١٩) من قوانين مجمع اللاذقيّة (٣٤١-٣٨١م)، ونصه هو: "بعد أن يلقي الأسقف عظته يجب أن تُتلى صلاة

الموعوظين[١٩٨] أولاً وحدها. وبعد أن يخرج الموعوظون تُتلى الصلاة لأجل التائبين[١٩٩]. وبعد أن يمر هؤلاء تحت يد الأسقف وينصرفوا تُتلى صلوات المؤمنين الثلاث. أما الأولى فتقال كلها سراً وأما الثانية والثالثة فتعلنان[٢٠٠]. ثم تُعطى القُبلة المقدَّسة. وبعد أن يقبِّل القسوس الأسقف يقبِّل الشعب أحدهم الآخر. ثم تُكمَّل خدمة التقدمة المقدَّسة، ولا يجوز لغير أرباب الدرجات الكهنوتيَّة أن يتناولوا داخل المذبح".

وإنه لمن العجيب حقاً أنه بعد القرن العاشر ينقطع ذكر الوعظ أو التعليم في الكنيسة القبطيَّة، لاسيَّما في وقت القدَّاس الإلهي. فمصادرنا الطقسيَّة منذ العصور الوسطى[٢٠١] وحتى اليوم[٢٠٢] لا ذكر فيها للعظة التي تعقب فصل الإنجيل المقدَّس[٢٠٣]. بل تشير كلها إلى أن صلاة الحجاب التي يصليها الكاهن سراً تعقب مباشرة الأواشي التي تقال بعد قراءة فصل الإنجيل المقدَّس، والتي سنشرحها في السطور التالية.

١٩٨- "صلاة الموعوظين"، أي الأواشي الخاصة بقدَّاس الموعوظين.

١٩٩- هذه الصَّلاة لم تعد تُقال في أيامنا هذه.

٢٠٠_ وهو ما نراه حتى اليوم في قدَّاس القدِّيس يوحنا ذهبي الفم، والقدِّيس باسيليوس الكبير في الكنيسة اليونانيَّة.

٢٠١- لاسيَّما ابن سباع، وابن كبر، والبابا غبريال الخامس.

٢٠٢- أي الخولاجيَّات سواء المخطوط منها أو المطبوع.

٢٠٣- وإن كان هناك ذكر عابر لها فيكون "قراءة موعظة مكتوبة". انظر مثلاً: كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٧٥

رابعاً: أوشيَّة "أيها الطَّويل الأناة" وما يعقبها من أواشي

تمهيد

هذه الأوشيَّة تُعرف في الكتب الطَّقسيَّة القبطيَّة باسم Πιρεϥωοϒǹϩнт أي: "أيها الطَّويل الأناة ...". وهي تُعرف اليوم باسم "أوشيَّة سرّ الإنجيل".

وتتكوَّن هذه الأوشيَّة من مقدِّمة تختص بالإنجيل المقدَّس، ثم من ١٣ أوشيَّة من أجل المرضى، ومن أجل المسافرين، وأهويَّة السَّماء وثمرات الأرض، ومياه النَّهر، والزُّروع والعشب ونبات الحقل، وخلاص النَّاس والبهائم، وأوشيَّة خلاص الموضع، وملك البلاد، والمسبيين، والمتنيِّحين، والقرابين، والمتضيِّقين في الشَّدائد. وفي نهاية هذه الأواشي كلها تأتي أوشيَّة الموعوظين والتي بنهايتها كان الموعوظون يخرجون من الكنيسة بعد مباركة الأسقف لهم.

هذه الأواشي كلها يصليها الآن الكاهن الآن سراً بينما تجري قراءة فصل الإنجيل المقدَّس باللُّغة العربيَّة، وهذه هي التَّعليمات الطَّقسيَّة الحالية، فما هو تاريخها الطَّقسي.

حين نفحص هذه الصَّلاة من وجهة النَّص اللِّيتورجي لها، نجد أنها تنقسم إلى قسمين رئيسين: القسم الأوَّل هو المقدِّمة التي تبدأ بعبارة "أيها الطَّويل الأناة الكثير الرَّحمة ..."، والقسم الثَّاني هو الـ ١٣ أوشيَّة السَّابق الإشارة إليها.

وفي حين أن القسم الثَّاني لا علاقة له بفصل الإنجيل المقدَّس، فإن القسم الأوَّل منها يرتبط ارتباطاً وثيقاً به. ومن أجل ذلك فليس من قبيل

الدِّقة أن نضع عنوان كل هذه الأواشي تحت اسم "أوشيَّة سرّ الإنجيل"، لأن هذا العنوان ينطبق فقط على القسم الأوَّل منها. وفيما يلي نصه:

"أيها الطَّويل الأناة الكثير الرَّحمة الحقيقي، اقبل سؤالاتنا وطلباتنا منَّا، وتوبتنا واعترافنا على مذبحك المقدَّس غير الدَّنس السَّمائي. **فلنستحق سماع أناجيلك المقدَّسة ونحفظ وصاياك وأوامرك ونثمر فيها بمائة وستين وثلاثين**، بالمسيح يسوع ربِّنا ...".

وهنا يلاحظ القارئ أنها أوشيَّة تختص بالإنجيل المقدَّس تنتهي بالذُّكصا "بالمسيح يسوع ربِّنا هذا الذي من قبله المجد والكرامة والعز والسُّجود تليق بك معه ومع الرُّوح القُدُس ... الخ".

ولدينا إشارة طقسيَّة بالغة الأهميَّة عن هذه الأوشيَّة المختصَّة بالإنجيل المقدَّس، والتي تكون بعد العظة، تأتينا من القرن السَّادس الميلادي تقريباً، وهي إشارة وردت في القانون رقم (٩٧) من القوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس، وهي قوانين مصريَّة[٢٠٤]، فيقول القانون المذكور: "... فإذا كان الأسقف حاضراً، فليمسك الإنجيل بيده، ويخاطب الشَّعب في الفصول التي قرئت. وإذا لم يكن الأسقف حاضراً، ويكون (هناك) قسِّيس يعرف يتكلَّم فليتكلَّم. ولكن لا يدع الإنجيل في يده. **وبعد ذلك تقال صلاة تليق بفصل الإنجيل**".

وهذه أقدم إشارة طقسيَّة في الكنيسة القبطيَّة عن هذه الأوشيَّة المختصَّة بالإنجيل المقدَّس والتي تقال بعد العظة.

وربما كان هذا القسم الأوَّل هو أوشيَّة للإنجيل ضمن واحدة من الممارسات الطَّقسيَّة القديمة في بعض الجهات دون غيرها، لأنه سبق أن

٢٠٤- انظر للمؤلف كتاب: قوانين القدِّيس باسيليوس الكبير.

أشرتُ إلى أنه كانت توجد ثلاث أواشي للإنجيل أي ثلاث ممارسات ليتورجيَّة تستخدم كل ممارسة واحدة منها.

أما القسم الثّاني فهو مجموعة الأواشي التي يصليها الكاهن بعد انتهاء فصل الإنجيل المقدَّس ويشترك معه الشمَّاس والشَّعب بمردَّات على كل أوشيَّة منها. وهذه هي الأواشي التي كانت تُقال جهراً بعد الإنجيل والعظة في قدَّاس الموعوظين، حيث تبدأ بأوشيَّة المرضى، وتُختم بأوشيَّة الموعوظين التي تصلّي فيها الكنيسة من أجلهم لكي يؤهّلهم الله لقبول الإيمان كما سبق أن ذكرتُ.

وإنه لمن العجيب حقاً أن نعرف أن هذه الأواشي التي تبدأ بأوشيَّة المرضى هي قديمة جداً، نقرأ عنها في الكتاب الأوَّل من قوانين الرُّسل القبطيَّة (القرن الخامس)، حيث يقول النَّص: "... وهكذا إذا كمَّل الأسقف كل الصَّلوات التي يجب أن يقولها **لأجل المرضى، وبقيَّة الصلوات،** فليقل لهم الشمَّاس: قبِّلوا بعضكم بعضاً بقبلة طاهرة ..." (١:٥٢:١٠)[٢٠٥]. وهنا وضوح ما بعده وضوح لهذه الأواشي الذي تبدأ بأوشيَّة المرضى ويعقبها باقي الصَّلوات أو الأواشي، قبل النداء بالقُبلة المقدَّسة.

ابن سباع يشرح الطّقس القديم لهذه الأواشي

يشرح ابن سباع الطّقس القديم لهذه الصَّلاة قائلاً: "... ثم بعد ذلك يبتدئ الكاهن والشَّماس يقفان قدَّام الهيكل ويقول الشمَّاس منذراً الشَّعب قفوا للصَّلاة. ثم يقول الكاهن السَّلام لجميعكم. فإذا ردَّ الشَّعب عليه السَّلام يقول: الطَّويل الرُّوح الكثير الرَّحمة. اذكر يارب مرض

٢٠٥- انظر: المراسيم الرسوليَّة ٨:١١:٩

شعبك يقول الشمَّاس: صلُّوا من أجل المرضى الذين في الشَّعب. ثم يقول الشَّعب: يارب ارحم. ثم يقول الكاهن: اذكر يارب المسافرين وردَّهم سالمين. يقول الشمَّاس: صلُّوا من أجل المسافرين لكي المسيح إلهنا يردَّهم سالمين. ثم يقول الشَّعب: يارب ارحم. ثم يقول الكاهن ... ثم إذا كملت هذه الطَّلبات والشَّعب يُأمِّن عليها بطلب الرَّحمة، يحني الكاهن رأسه ويقرأ سراً صلاة خارج الحجاب قبل طلوع الهيكل ويكون واقفاً منحني الرأس علامة الخضوع ...''(٢٠٦).

البابا غبريال الخامس يشرح طقس هذه الأواشي

يقول البابا غبريال الخامس بخصوص هذه الصَّلاة: ''في تفسير الإنجيل عربياً يقول الكاهن المقدَّس الذي هو الخادم Πιρεϥⲟⲩⲱⲛϩⲏⲧ (أي: أيها الطَّويل الأناة ...) وإن كان له شريك فهي له إلى آخرها''.

وهنا تطوُّر ليتورجي موثَّق دوَّنه كتابةً البابا غبريال الخامس حين ذكر بصريح العبارة أن صلاة ''أيها الطَّويل الأناة ...'' هي صلاة سريَّة يقولها الكاهن أثناء قراءة فصل الإنجيل عربياً.

من قول معلِّمي البيعة عن هذه الأواشي في القرون الوسطى

يشرح كتاب ''سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت'' لأحد علماء الكنيسة القبطيَّة في القرون الوُسطى - في غضون القرن الخامس عشر الميلادي أو قبله بقليل - تاريخ طقس هذه الأوشيَّة بقوله:

''ثمَّ ينبغي للكاهن عند فراغ قراءة الإنجيل يقول Πιρεϥⲱⲟⲩⲛϩⲏⲧ

٢٠٦- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢١٠-٢١٣

والخديم[٢٠٧] يجاوبه والشَّعب يقول يارب ارحم. وأما في وقتنا هذا صار الكاهن يمشي ويتكلَّم ويبخّر القسوس الواقفين، ويتكلّم ويقول لهم وهم يقولون له جواب البُخور. ولم يقل أحد يارب ارحم. وأكثرهم يقول الأوشيَّة وحده ولم يجاوبه خديم، وهذا لا يجوز. فإن هذه الأوشيَّة طلبة وسؤال، وهو يأمرهم بالوقوف والسكوت. وفي الصَّوم يقولها (الكاهن) والنَّاس يجاوبونه: يارب ارحم"[٢٠٨].

٢٠٧- أي الشمَّاس الخديم.

٢٠٨- كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، ص ١٨، ١٩

وفي مخطوط لنفس كتاب "سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت" وجده القُمُّص أرمانيوس حبشي شتا البرماوي، يحوي نفس مضمون ما ذكر في المتن، نقرأ: "... فلهذا أمر آباؤنا وحذرونا ونهونا عن الحديث مع أحد وعن المشي مع أحد. والكاهن إذا بخر كاهنا مثله يقول: أسألك أن تصلي عليَّ وتذكر حقارتي أيها الأب، فيجاوبه ذلك: الرَّب يحفظ كهنوتك مثل هارون وسمعان وزكريا وتتمته. فحصل الكلام والمخالفة لما أمر في قوله: قفوا وأنصتوا. وينقض هو قوله ووصيته منه وبه. ويمشي ويتكلَّم ويبخر ويعمل ثلاث خطايا ومخالفات لنص العتيقة والحديثة وواضعيها، وإنما يكون القِسِّيس يقف عند قراءة الإنجيل المقدَّس دائماً ووجهه للمغرب حتى تفرغ قراءته، ثم يقبله الكهنة ثم سائر الشَّعب دليل على ذلك على قبول قول الله بالسمع والطاعة بما يُقرأ عليهم، وأن يكونوا متمسكين بما فيه ويمشوا في وصاياه وأوامره التي قرئت عليهم. وأما قول الكاهن الصَّلاة التي هي **Πιρεϥϣωουτιε...** فلا ينبغي له قولها والإنجيل يقرأ، فإنها طلبة وصلوات. فإنه يقول: اذكر يارب عبدك فلان وفلان، فيجاوبه الشمَّاس ويقول: صلوا من أجل كذا وكذا. يقول الشَّعب: يارب ارحم. فإذا قالها والإنجيل يقرأ والناس وقوف وناصتين كأمره لهم، فمن يجاوبه ويصلي؟ أو إن جاوبوه فمن يسمع كلام الإنجيل. فالواجب أن يقولها ويصلي بها على ما يعمل في الصَّوم المقدَّس".

انظر: كتاب سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت، لمعلّمي البيعة، لناشره جرجس فيلوثاؤس عوض، مرجع سابق، حاشية ص ١٩

مخطوطات الخولاجيّات تشرح طقس هذه الأواشي

لم يكن البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) هو أوّل من حوّل هذه الأواشي لتُقال سراً أثناء قراءة الإنجيل، ولكنه هو أوّل من أشار إلى ذلك في تنبيه طقسي مُدوَّن. لأن معظم مخطوطات الخولاجيّات تورد هذه الأواشي تحت عنوان: "صلاة من بعد الإنجيل"[٢٠٩] بدون أي ذكر على أنها صلاة تُقال سراً، ولكنها في ذات الوقت توردها بدون مردَّات الشمَّاس أو الشَّعب فيها. أي توردها في نص ليتورجي متَّصل. بل إن أقدم مخطوط خولاجي قبطي عربي كامل - وهو مخطوط الفاتيكان رقم (١٧) - يوردها على هذا النَّحو[٢١٠].

أمَّا بعض المخطوطات القليلة الأخرى والأكثر حداثة فقد عدَّلت العنوان من "صلاة من بعد الإنجيل" إلى تنبيه طقسي يوضِّح أن هذه الصَّلاة تُقال سراً. فمخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٦) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار يورد ما يلي بنصِّه: "ثم يبتدئ بقرات الانجيل قبطياً وفي تفسيره يقال هذه الصلاه سراً يقوها الكاهن الشريك او الخديم". ثم يورد المخطوط نص الصَّلاة متَّصلاً بدون مردَّات. وهو نفس ما يذكره مخطوط خولاجي رقم (ط ١٤٧) بمكتبة الدَّير المذكور.

٢٠٩- مثل مخطوط خولاجي من مكتبة الفاتيكان رقم (Vat. Copt. 17)، وهو منسوخ سنة ١٢٨٨م، وأيضاً مخطوط خولاجي من مكتبة بودليان Bodleian بأكسفورد رقم (Hunt 360)، ويعود إلى القرن الرَّابع عشر.

٢١٠- وهو بالضبط ما يذكره مخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٣)، ومخطوط خولاجي رقم (ط ١٣٤) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار.

أسباب تحوُّل هذه الأواشي إلى صلوات سريَّة

بحسب شهادة من القرن الثَّالث عشر عن هذه الأواشي، فهي طلبات تعقب قراءة فصل الإنجيل المقدَّس ويشترك فيها الشَّعب كله. وفي نفس هذا الوقت تقريباً تحوَّلت هذه الأواشي في بعض الكنائس إلى أواشي تُقال سراً بدون مشاركة لا من الشمَّاس ولا من الشَّعب. وأظن أن هذا التَّحوُّل الطَّقسي كان لسببين:

السَّبب الأوَّل هو انتهاء طغمة الموعوظين من الكنيسة مع نهاية القرن السَّادس الميلادي تقريباً. ولما كانت هذه الأواشي موضوعة أصلاً كأواشي ختاميَّة لقدَّاس الموعوظين، بدأت العناية بترديدها جهراً تضعف رويداً رويداً مع انتهاء هذه الطَّغمة من الكنيسة. وهذا التَّحوُّل يستغرق في العادة قروناً عديدة، كأحد السِّمات الأساسيَّة في التَّطوُّر الطَّقسي الذي يتَّسم بالبُطء الشَّديد فلا تلمحه عدَّة أجيال بأكملها.

أما **السَّبب الثَّاني** فهو أن هذه الأواشي كانت تُقال جهراً بعد فصل الإنجيل المقدَّس الذي ظلَّ يُقرأ بالقبطيَّة حتى القرن الثَّاني عشر الميلادي أو بعده بقليل. وحين سادت قراءة فصل الإنجيل بالعربيَّة مرَّة أخرى بعد قراءته بالقبطيَّة صار الكاهن يردِّد هذه الأواشي سراً أثناء ترديد الشمَّاس للإنجيل عربياً، لأن الكاهن قد تمَّم ما عليه من طقوس أثناء قراءة الإنجيل قبطياً، وهو ما سبق شرحه، إذ قد أصغى إلى قراءة فصل الإنجيل بالقبطيَّة وهو متَّجه ناحية الغرب ويبخِّر أمام الإنجيل حتى نهاية قراءته، إن لم يكن هو الذي قرأه بنفسه.

وهذه أيضاً مرَّة أخرى تتحوَّل فيها واحدة من الصَّلوات اللِّيتورجيَّة إلى صلاة سريَّة بسبب دخول قراءة أحد الفصول الكتابيَّة عربياً بعد قراءتها بالقبطيَّة، وربما كان عامل الوقت هو السَّبب في ذلك إذ قد

تضاعف وقت الصّلوات على هذا النّحو.

خلاصة ما سبق ذكره

كل المخطوطات تتّفق على أن هذه الصّلاة تُقال بعد انتهاء قراءة فصل الإنجيل قبطياً. وعنوانها في المخطوطات القديمة – كما سبق أن أشرتُ – هو: "صلاة من بعد الإنجيل". وهو العنوان الذي يرد بهذا النّص في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex [٢١١]. إذاً فهي صلاة بعد الإنجيل وليس أثناء قراءته. والكاهن في هذه الحالة - أي في حالة قراءة فصل الإنجيل قبطيا - إمّا أنه هو الذي يقرأ الإنجيل بنفسه، أو أنه يصغي إلى قراءة الإنجيل بينما يبخر أمامه بالمجمرة التي في يده طيلة وقت قراءته. وبعد أن صارت قراءته تُعاد مرّةً أخرى باللغة العربيّة، صار الكاهن يردّد هذه الصّلاة سراً أثناء قراءة الإنجيل بالعربيّة. ولكن حتى بعد أن توقّفت قراءة فصل الإنجيل بالقبطيّة، لم يعد هناك متّسع من الوقت أمام الكاهن ليصغي إلى فصل الإنجيل المقدّس، إذ صار عليه ترديد هذه الصّلاة وقت قراءته بالعربيّة.

وفي حين تتّفق كل مخطوطات الخولاجيّات قديمها وحديثها على إيراد نص هذه الصّلاة بدون مردّات تعترض النّص، فقد وردت في خولاجي سنة ١٩٠٢م يتخلّلها مردّات للشمّاس دون مردّات للشّعب، فلمن إذاً يقول الشمّاس: "صلّوا ...؟". ويورد القمّص عبد المسيح صليب البراموسي ملاحظة في الحاشية عن ذلك الأمر فيقول: "تنبيه: اعلم أننا وجدنا إبروسات سرّ الإنجيل موضوعة وسطه في أماكنها كما

211- W.F. Macomber, *op. cit.*, p. 320.

سبق في ثلاث نُسخ قديمة وهو الأصوب"(٢١٢).

وقد أورد مخطوط رقم (ط ١٣٤) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار قبل هذه الصّلاة مباشرة وبعد قراءة فصل الإنجيل أن الأرشيدياكون يقول: "لنقل جميعنا يارب ارحم".

إن هذه الأوشيَّة بعينها هي التي يصلّيها الكاهن حتى اليوم باشتراك الشمّاس والشّعب في مردّاتها في رفع بخور باكر الصّوم المقدَّس الكبير في موضعها الطّقسي القديم بكل دقّة، أي قبل قراءة الإنجيل باللّغة العربيَّة، لأن قراءته بالقبطيَّة قد بطلت منذ أمد بعيد في صلوات رفع بخور باكر. ولذلك فإن طقس الصّوم الكبير الذي نمارسه حتى اليوم في هذه الجزئيَّة لم يكن طقساً يختص بالصّوم الكبير فحسب، بل كان هو الطّقس السّنوي المعتاد على مدار السّنة الطّقسيَّة كلها، ولكن الصّوم الكبير هو وحده الذي حفظ هذه الممارسة الطقسيَّة القديمة دون بقيَّة المناسبات الكنسيَّة الأخرى.

إن انشغال الكاهن بترديد أوشيَّة سرّ الإنجيل أثناء قراءة الشمّاس لفصل الإنجيل المقدَّس بالعربيَّة بعد توقّف قراءته بالقبطيَّة قد تعارض مع التّنبيه الطّقسي المدوَّن في كتبنا الطّقسيَّة المطبوعة الذي يقول بأن الكاهن بعدما يشيِّع الإنجيل المقدَّس بالبُخور، يقف بجانب باب الهيكل ووجهه إلى الغرب ويحني هامته أمام الإنجيل المقدَّس إلى أن تنتهي قراءته.

المفهوم اللّيتورجي لعبارة "اذكر يارب ..."

في بداية كل أوشيَّة من هذه الأواشي يصلّي الكاهن قائلاً: "اذكر

٢١٢- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٢٦٩ حاشية ٥

يارب ...."، فما هو معنى الذّكرى هنا؟.

أن نحيا يعني أن نبقى في ذاكرة الله، وأن نموت يعني أن نسقط منها. أن يذكرنا الله يعني أن يهبنا الحياة التي يعطينا إياها، لأنها انتصار على العدم. لأن الذّاكرة حياة والنّسيان موت، أو بالأحرى بداية موت. الإنسان وحده من بين سائر المخلوقات أعطي أن يتذكّر الله وأن يحيا به حقيقة. والإنسان وحده هو الذي يحفظ ذكر الله في كيانه. وإن تذكّر الإنسان لله يعني تقبُّل نعمته واستيعاب مستمر لحياته ونموه فيها[٢١٣]. والخلاص هو تجسيد لذاكرة الله. لقد نسي الإنسان الله، ولكن الله لم ينس الإنسان، ولا أشاح بوجهه أو أعرض عنه، بل بادل تنكر الإنسان له بعلامة حب جديدة حوّل بها زمن السُّقوط والموت في هذا العالم إلى تاريخ للخلاص[٢١٤].

حين نكون في فكر الله وفي ذاكرته تكون حياته هي حياتنا، وحياتنا هي حياته. والمسيح هو تجسيد لذاكرة الله التي تفيض بالحب. فأن نؤمن بالمسيح نعني أن نتذكّره دوماً وأن نلهج به ليل نهار. وعين الإيمان حين تنظر ما يُسمى "الماضي" لا ترى في حياة يسوع الإنسان وموته وقيامته إلاّ شخصاً حياً تذكر حضوره. فنحن لا نقيم ذكرى حدث ماضٍ، بل نقيم ذكراه هو الذي هو أمساً واليوم وإلى الأبد.

اللّيتورجيّا هي مدخل الكنيسة إلى الزّمن الجديد للخليقة الجديدة التي استعادتها ذاكرة المسيح، والتي تحوّلت فيه إلى حياة وعطيّة حياة.

٢١٣_ الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ١٨٦

٢١٤_ نفس المرجع، ص ١٩٠

طقس خروج الموعوظين من الكنيسة في الطُّقوس المختلفة

بانتهاء أوشيَّة الموعوظين التي تأتي في نهاية الأواشي السّابق ذكرها يخرج الموعوظون من الكنيسة، إذ بنهايتها ينتهي قدّاس الموعوظين.

ولم يكن هذا هو طقس الكنيسة القبطيَّة فحسب، بل أيضاً الكنائس كلها، ولكن الفرق هو سقوط مرد الشمّاس بخروج الموعوظين من الكنيسة في التّقليد القبطي بينما ظل هذا التّنبيه اللّيتورجي بخروجهم محفوظاً في بعض الكنائس الأخرى.

ففي اللّيتورجيَّة القبطيَّة، وفي "أوشيَّة الموعوظين"(٢١٥)، ينادي الشمّاس حتى اليوم: "صلُّوا من أجل الموعوظين". ولكن سقط من هذه اللّيتورجيَّة النّداء بخروج الموعوظين.

ولا نعدم إشارات ليتورجيَّة قديمة توضِّح لنا أن كنيسة الإسكندريَّة قد حفظت طقساً صريحاً لخروج الموعوظين، امتد أثره في كتب الرِّسامات أيضاً. ففي السؤال رقم (٩) للبابا تيموثاوس الأوَّل (٣٨٠-٣٨٥م) وجوابه عليه نقرأ ما يلي:

٢١٥- هذا هو النّص اللّيتورجي القديم لهذا المرد كما يرد في خولاجي سنة ١٩٠٢م (ص ٢٦٨)، أمَّا النّص الذي يورده كتاب خدمة الشمّاس: "اطلبوا عن موعوظي **شعبنا**، لكي يباركهم المسيح إلهنا ويثبتهم في الإيمان المستقيم إلى النّفس الأخير، ويغفر لنا خطايانا" فيُظن أنه تحوير من أحد النُّساخ، وذلك بسبب ورود كلمة "شعبنا" في المرد، لأنه تعبير غير أصيل. فشعب الكنيسة هو شعب المسيح فحسب. فحين نخاطب الله في الصّلاة نقول له "شعبك"، وليس "شعبنا". وفي ليتورجيَّة المراسيم الرسوليَّة على سبيل المثال نقرأ: "ياربّ خلص **شعبك**، وبارك **ميراثك** الذي اقتنيته بالدَّم الكريم الذي لمسيحك ..." (٨:٤١:٨). وربما كان أصل المرد هو: "اطلبوا عن الموعوظين لكي يباركهم المسيح إلهنا ... الخ".

سؤال:

"هل يجوز للإكليريكي أن يقيم وحده الذبيحة أو يصلّي إذا حضر في المكان أريوسي أو مبتدع"؟.

الجواب:

"عند تقديم الذبيحة يعلن الشمَّاس قبل القُبلة المقدَّسة قائلاً: كل من هم ليسوا من المؤمنين اخرجوا يا جميع الموعوظين اخرجوا".

وهنا نداء صريح في الطَّقس القبطي القديم بخروج الموعوظين أشار إليه البابا تيموثاوس الأوَّل في القرن الرَّابع الميلادي. وقد سقط هذا النِّداء من اللِّيتورجيَّة القبطيَّة بينما ظلّ موجوداً في بعض الطُّقوس الأخرى.

وهناك إشارة طقسيَّة أخرى أوردها العالم الطَّقسي القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، حين يورد وصيَّة تُقال للإيبودياكون بعد رسامته لهذه الرُّتبة قائلاً: "... ويجب عليك أن تحفظ أبواب بيت الله التي هي البيعة، ولا يُحتمل أن يدخل إليها دابة ولا كلب ولا مخالف في وقت الخدمة الطَّاهرة إذا ما صرخ الشمَّاس قائلاً: لا يقف هنا موعوظ ولا أحد ممن لا يتناول السَّرائر المقدَّسة".

إذاً فقد حفظ الطَّقس القبطي القديم نداءً واضحاً وصريحاً بخروج الموعوظين من الكنيسة، سواء كان هذا النِّداء هو: "اخرجوا يا جميع الموعوظين" أو كان "لا يقف هنا موعوظ". وفي الحقيقة لم يحتفظ الطَّقس القبطي الحالي بإشارة طقسيَّة واضحة لتسريح الموعوظين، وهو التَّسريح الذي يعقبه مباشرة غلق الأبواب.

وفي ليتورجيَّة القسطنطينيَّة حتى اليوم نداء: "صلُّوا أيها الموعوظون"، ونداء: "احنوا رؤوسكم أيها الموعوظون" ثم صلاة

الكاهن عليهم. ثم نداء الشمّاس: "اخرجوا أيها الموعوظون". ولم يبق من أثر لصلوات تقال على التّائبين أو الذين بهم الأرواح الشّريرة.

وفي الطّقس الأرمني عند نداء الشمّاس محذراً الموعوظين المشكوك في إيمانهم والتّائبين وغير الأتقياء من التّقرُّب من الأسرار المقدّسة قائلاً: "لا أحد من الموعوظين، لا أحد من المذبذبين في الإيمان، لا أحد من التّائبين، لا أحد من الدّنسين يتقدّم للسرّ الإلهي"، يجاوب الإكليروس بالأنتيفونا التي هي بداية قدّاس المؤمنين قائلين: "جسد الرّب ودم المخلّص سيحضران ههنا، والقوّات السّمائيّة غير المرئيّة تُرتّل بلا انقطاع قائلة: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ الإله رب الصّباؤت"[٢١٦].

وعند السّريان الموارنة ينادي الشمّاس بعد الإنجيل "اذهبوا بسلام أيها السّامعون".

أما الطّقس الآشوري فهو من أوضح الطّقوس في الاحتفاظ بطقس تسريح الموعوظين، حيث يحمل خادم الإنجيل، وخادم آخر الصّليب، ويتقدّمهما شمامسة آخرون، ويقف الخادمان على جانبي باب الهيكل، ويرتّلان على التّوالي: "ليخرج كل من لم يقبل العماد بعد، ليخرج كل من لم يقبل علامة الحياة، ليخرج كل من لم يقبلها. اذهبوا أيها اللاويُّون واحرسوا الأبواب".

ولقد سقط من ليتورجيّة القدّيس يعقوب أخي الرّب السّريانيّة أي نداء يختص بالموعوظين أو غيرهم من الفئات الأخرى. أمّا النّص اليوناني لهذه اللّيتورجيّة فقد استبقى فقط المناداة: "لا أحد من التّائبين، لا أحد

٢١٦- الطّقوس الشّرقيّة، مرجع سابق، ص ٢١٠

من الذين لا يمكنهم أن يصلّوا معنا"(٢١٧).

وتشير الدّسقوليّة إلى أنه لم يكن يُسمح لغير الذين سيشتركون في التّناول من الأسرار المقدّسة أن يحضروا القدّاس الإلهي(٢١٨).

ويشهد البابا غريغوريوس الكبير (+ ٦٠٤م) أن الشمّاس في كنيسة رومية كان ينادي: "من لا يتناول فليخل المكان"(٢١٩). وهو نفس النّداء في الكنيسة الإثيوبيّة أيضاً حتى اليوم.

وعند خروج الموعوظين من الكنيسة كانوا يتقبّلون بركة من الأسقف قبل انصرافهم. ويحتفظ لنا الطّقس السّرياني القديم بشرح كامل لهذه البركة التي تسبق تسريح الموعوظين.

ففي الكتاب الثّامن من كتب المراسيم الرّسوليّة، والذي دُوّن في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الميلادي، نقرأ ما يلي:

"بعد نهاية كلمة التّعليم، ليقف الجميع، وليصعد الشمّاس إلى موضع مرتفع، ويعلن: لا يقف ههنا واحد من السّامعين، أو غير مؤمن.

يقول (الشمّاس): أيها الموعوظون صلُّوا.

وليصلّ كل المؤمنين من أجلهم بحرارة قائلين: يارب ارحم.

وليخدم (الشمّاس) من أجلهم قائلاً: "فلنطلب بحرارة إلى الله من أجل جميع الموعوظين، لكي يسمع (الله) الصّالح محب البشر توسُّلاتهم،

٢١٧- هذا النّص بقي محفوظاً عند السّريان في طقس (رتبة) تقديس الميرون، وتكريس الماء في يوم عيد الإيفانيا (الدنح).

٢١٨- دكتور وليم سليمان، الدّسقوليّة، مرجع سابق، الباب العاشر، ص ٢٠٧ وهو يقابل جزء من الكتاب الثاني من المراسيم الرّسوليّة Apostolic Constitutions .

٢١٩- البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨

وطلباهم، ويقبل تضرُّعاهم، ويعينهم. ويعطيهم سؤل قلوهم لخيرهم، ويعلن لهم إنجيل مسيحه الذي ينيرهم، ويأدِّبهم، ويعلِّمهم بالعلم الإلهي، ويعلّمهم فرائضه وأحكامه، ويغرس فيهم طهره وخلاصه المخوف، وليفتح آذان قلوبهم ليلهجوا في ناموسه نهاراً وليلاً.

ويثبّتهم في التّقوى، ويوحّدهم، ويضمُّهم إلى قطيعه المقدّس، ويجعلهم مستحقين حميم الميلاد الجديد، ولباس عدم الفساد، والحياة الحقيقيَّة. ولينقذهم من كل شر، ولا يترك للمضاد أي موضع فيهم، ويطهِّرهم من كل دنس الجسد والرُّوح، ويسكن في وسطهم، ويمشي بينهم بمسيحه. ويبارك دخولهم وخروجهم. ويدبِّر أمورهم للخير.

ولنتوسَّل لأجلهم أيضاً بأكثر حرارة، كي ينالوا غفران خطاياهم. ولكي بواسطة تعليم أسرار الدُّخول إلى الإيمان يستحقُّون الأسرار المقدَّسة، وشركة القدِّيسين.

قفوا أيها الموعوظون، واطلبوا سلام الله بمسيحه، ليوم سلامي وبلا خطيَّة. وكذلك كل أيام حياتكم، لتُختم بنهاية مسيحيَّة. برحمة ورأفة الله، وغفران آثامكم. كرِّسوا نفوسكم لله الواحد غير المولود بواسطة مسيحه. أحنوا رؤوسكم لتقبلوا البركة.

بعد كل نداء للشمَّاس يجيب الشَّعب، وأولاً الأطفال "يارب ارحم" كما سبق أن قلنا.

وبعد أن يحني الموعوظون رؤوسهم، يباركهم الأسقف المُسام بهذه البركة: يا الله ضابط الكل، غير المولود، وغير المقتَرب إليه، الإله الحقيقي وحده، إله وأب مسيحك الذي هو ابنك الوحيد. يا إله العزاء، ورب

الكل، الذي عيَّن تلاميذه بالمسيح، ليكونوا معلِّمين لتعليم التَّقوى.

اطَّلع الآن على عبيدك القابلين إنجيل مسيحك، وأعطهم قلباً جديداً، وجدد في أحشائهم روحاً مستقيماً، ليعرفوا ويعملـــوا مشـــيئتك بكـــل القلب، وبرضى النَّفس.

أهِّلهم للتَّعليم السِّري المقدَّس للدُّخول إلى الإيمـــان. ووحِّـــدهم في كنيستك المقدَّسة واجعلهم شركاء أسرارك الإلهيَّة بيسوع المسيح رجائنا، الذي مات لأجلهم، الذي به لك المجد والتَّبجيل في الـــرُّوح القـــدُس إلى الآباد آمين.

بعد ذلك يقول الشمَّاس: أيها الموعوظون امضوا بسلام"[٢٢٠].

ولدينا أيضاً إشارة تاريخيَّة قديمة عن صلاة خاصة بالتَّـــائبين بعـــد الصَّلاة على الموعوظين وخروجهم من الكنيسة في القـــانون رقـــم (١٩) لمجمع اللاذقيَّة (٣٤١-٣٨١م)[٢٢١].

إذاً ففي كل الطُّقوس تكون الصَّلاة من أجل الموعوظين هي نهاية قدَّاس الموعوظين، حيث يباركهم الأسقف، وينادي الشمَّاس بخروجهم. وهذا الكلام ينطبق أيضاً على باقي الصَّلوات اللِّيتورجيَّة الأخرى مثـــل قدَّاس الماء في مناسبات عيد الغطاس ويوم خميس العهد في كل الطُّقوس، وعيد الرُّسُل في الطَّقس القبطي. إذ بعد السَّبع أواشي الكبار التي تنتـــهي بأوشيَّة الموعوظين في هذه القدَّاسات كان الموعوظـــون يخرجـــون مـــن الكنيسة، لتكميل الطَّقس في حضور المؤمنين فقط. وبرغم تحويل هـــذه الأواشي أو الطِّلبات التي تنتهي بأوشيَّة الموعوظين إلى صلوات ســـريَّة في

٢٢٠- المراسيم الرَّسوليَّة ٨:٦.

٢٢١- سيأتي نصه في الفصول التَّالية.

القدّاس الإلهي، لم ترد عنها أي إشارة طقسيّة تشير إلى ذلك في كتب الطّقس المطبوعة التي تخدم الصّلوات الأخرى. ومع ذلك ظلّت هذه الأواشي السّبع الكبار تقال سراً في قدّاسات اللّقانات في كثير من الكنائس القبطيّة، بينما تمسّك القليلون بترديدها جهراً.

وبعد خروج الموعوظين كان يجري غلق الأبواب لكي يبدأ قدّاس المؤمنين. ولكن بعد أن انتهت رتبة الموعوظين من الكنيسة في غضون القرن السّادس الميلادي ظلّ طقس غلق أبواب الكنيسة سارياً لفترة طويلة بعد ذلك. فيشهد القدّيس يعقوب الرّهاوي[٢٢٢] (٦٣٣-٧٠٨م) على أن عادة غلق أبواب الكنيسة كانت باقية على عهده في أثناء اللّيتورجيّة، فيقول:

[لابد أن تُغلق أبواب الكنيسة أثناء تقريب الإفخارستيّا اليوم أيضاً حتى بعد انقطاع السّامعين (أي الموعوظين) الذين بسببهم كانت أبواب الكنيسة تُغلق فيما مضى، وذلك لئلا يدخل أصحاب الهجرة الذين يملكون اليوم الكنائس عنوة ويزعجون شعب الرّب ويزدرون بالأسرار المقدّسة][٢٢٣].

٢٢٢- الرّهاوي، نسبة إلى مملكة الرّها القديمة التي تأسست سنة ١٣٢ق.م، وكانت عاصمتها مدينة الرّها، ومعظم ملوكها كانوا يلقّبون باسم "أبجر"، أو باسم "معنو". وقد تضعضعت أركان هذه المملكة في نحو سنة ٢٤٤م، بعد تغلّب الرّومانيين عليها. ومن كنيسة الرّها انتشرت الدّيانة المسيحيّة إلى بلاد ما بين النّهرين، ثم بلاد مملكة الفرس حتى الهند. وكانت لغتها السّريانيّة. واشتهرت مدينة الرّها مع البلاد التي امتدت إليها الكرازة على يديها باستخدام كتاب "الإنجيل الواحد"، وهو الإنجيل الذي جرى تجميعه من البشائر الأربعة قبل نهاية القرن الثّاني، وظل يُستعمل حتى القرن الرّابع. وقد ألغى استعماله رابولا أسقف الرّها. ومن قبله كان ثيودوريت أسقف قورش قد أبطله من بعض قرى إيبارشيّته. (البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٩، ٣٥).

٢٢٣- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٢٩

وفي ليتورجيَّة القدِّيس يعقوب الرَّسول (اليونانيَّة)، وليتورجيَّة القسطنطينيَّة، والليتورجيَّة الأرمينيَّة تُغلق الأبواب عندما يعلن الشمَّاس المصافحة بالقُبلة المقدَّسة فينادي "الأبواب، الأبواب". وعند السِّريان والموارنة نداء "أغلقوا الأبواب"، وقد استبدله السِّريان المشارقة (النَّساطرة) بنداء "ترقَّبوا الأبواب"(٢٢٤).

وبحسب الطَّقس، وبعد غلق الأبواب لا تُفتح مرَّة أخرى إلاّ بعد انتهاء القدَّاس والتَّناول من الأسرار المقدَّسة، وتسريح المؤمنين. وهذا نقرأه في قوانين الرُّسُل بحسب الكنيسة القبطيَّة: "ولتقف الإيبودياكونات عند أبواب النِّساء، ويقف شمامسة على أبواب الرِّجال، لئلا يخرج أحد. ولا يفتحوا الأبواب في وقت القدَّاس الطَّاهر، ولو كان على الباب مؤمن" (قانون الرُّسُل ١:٥٢:١٢). أما الآن فيدخل المسيحيُّون إلى الكنيسة في أي وقت يشاءون، ويخرجون منها حينما يرغبون، ويتقرَّبون من الأسرار المقدَّسة أو لا يتقرَّبون. فهل بات طقس الكنيسة تاريخاً يُحكى أو تراثاً عفت عليه السُّنون؟. فقوانين الكنيسة تعلّمنا أنه إن بقى أحدٌ خارج حدود المذبح، فإنه لا ينال من الخبز الإلهي.

يقول الأب ألكسندر شيمان: "يذكر القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات (٣٢٩- ٣٨٩م) أن الشمَّاس كان يقول: "ليخرج كل من لا يريد أن يتناول القُدسات" (٢٢٥). عندئذ لم يكن يبقى في الاجتماع الإفخارستيّ سوى المؤمنين، أي المعمَّدين في الكنيسة، فهم مدعوون جميعاً الآن بالصَّلاة المشتركة إلى الاستعداد للتَّقدمة الإفخارستيَّة.

٢٢٤- سقط هذا النِّداء من الكنيسة القبطيَّة ومن الكنيسة السُّريانيَّة الأنطاكيَّة وبقي في هذه الأخيرة في رتبة (طقس) تكريس الميرون وتكريس الماء في عيد الإبيفانيا (الدّنح).

225- PG 77, 233.

أما اليوم فتبقى أبواب الكنيسة مفتوحة طوال إقامة الذبيحة الإلهيَّة، فيخرج من يخرج، ويدخل من يدخل في أي وقت. ونسى العلمانيُّون، وحتى الكهنة أيضاً، أن الإفخارستيًّا هي اجتماع مغلق للكنيسة، وأن الجميع في هذا الاجتماع من كبيرهم إلى صغيرهم مكرَّس، وأن الجميع يحتفل كلٌّ في مكانه في العمل اللِّيتورجي الواحد للكنيسة، أي أن الكهنة ليسوا هم وحدهم الذين يخدمون الذبيحة، ولا حتى الكهنة مع العلمانيِّين، بل هي الكنيسة التي يؤلِّفونها كلهم معاً مجتمعين، والتي يعلنون ملأها بحضورهم. إن الكنيسة هي التي تحتفل(٢٢٦).

لقد ربط المسيح إقامة ذكراه بتناول القُدسات. ومنذ بدء الأنافورا – أي منذ مطلع قدَّاس المؤمنين – وحتى نهايتها، لا شئ إطلاقاً يشير إلى نوعين من المؤمنين يشاركان في القدَّاس الإلهي. لا شئ يشير إلى وجود مؤمنين ينوون أن يتناولوا، وآخرين عازفين عن ذلك. بل على العكس، فإن أي قراءة دقيقة بعض الشئ لصلوات الأنافورا، وتلك التي تسبقها والتي تليها، سُرعان ما تُظهر لنا – بعد إخراج الموعوظين – أن الأبواب مغلقة، وأن الإفخارستيًّا تحوي تقدمة الذبيحة غير الدَّمويَّة، وأن كلاهما يُعدَّان المؤمنين لتناول القُدسات(٢٢٧).

إن فصل القُدسات عن المناولة يضعف السرَّ الإفخارستي، إذ لا تعود نرى فيه تحقيقاً للكنيسة وإعلاناً لملكوت الله وللحياة الجديدة. فيصير شيئاً فشيئاً مجرَّد تناول "جوهر مقدَّس"، وكأن بالسرّ تحوَّل إلى نوع من "معجزة تشريحيَّة" تعمل فينا عمل السِّحر، على حد تعبير خومياكوف A. Khomiakov. من هنا كان الحائط المسدود الذي تصطدم به كل

٢٢٦ــ الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ١٢٩
٢٢٧ــ نفس المرجع، ص ٣٤١

محاولات شرح الإفخارستيَّا. ويتابع خومياكوف قائلاً: "كلا الطَّرفين، البروتستانت والكاثوليك، إما ينفيان التَّحوُّل العجائبي لعناصر أرضيَّة، وإما يؤكِّدانه، من دون أن يفهما البتَّة أن العنصر الأساسي لأي سر هو الكنيسة، وأن الأسرار لا تُقام في نهاية المطاف إلاَّ لخدمتها من دون أن تكون لها – أي الأسرار – أي صلة بنواميس المادة على الأرض. فمن يزدري بواجبه في المحبَّة تمحي من ذاكرته قوَّتها، ويفقد معها ذاكرته عن الحقيقة في عالم الإيمان"(٢٢٨).

وبانتهاء الأواشي التي تعقب فصل الإنجيل المقدَّس والعظة ينتهي قدَّاس الموعوظين، حيث تكون آخر صلاة فيه هي صلاة مباركة الموعوظين قبل خروجهم من الكنيسة.

وبعد ذلك تبدأ ثلاث صلوات أخرى ترتبط بقدَّاس المؤمنين، وتمهِّد له قبل بدء الأنافورا هي:

- صلاة الحجاب.
- الأواشي الثَّلاث الكبار (سلام الكنيسة – الآباء – الاجتماعات).
- صلاة الصُّلح (ما قبل الأنافورا).

ويكون ترديد قانون الإيمان في الطَّقس القبطي بعد الأواشي الثَّلاث الكبار، وقبل صلاة الصُّلح. وهو ما سأعرضُ له في الجزء الثَّاني من هذا الكتاب، وذلك ضمن فصول قدَّاس المؤمنين أي قدَّاس الإفخارستيَّا.

ملحوظة: ثبت المراجع تجده في نهاية الجزء الثَّاني من هذا الكتاب.

---

٢٢٨ ـ نفس المرجع، ص ٣٤٤

الدُّرَّة الطَّقسيَّة للكنيسة القبطيَّة

بين الكنائس الشَّرقيَّة

للرَّاهب القس أثناسيوس المقاري
www. Athanase. net

• السِّلسلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
١/١	الدِّيداخي أي تعليم الرُّسل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦م
١/٢	التَّقليد الرَّسولي (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/٣	المراسيم الرَّسوليَّة - دراسة موجزة - نص الكتاب الثَّامن	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات اليونانيَّة	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦م
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/١١	قوانين هيبوليتس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤م

• السِّلسلة الثَّانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٢/١	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الأوَّل: رؤية عامة - كنيسة المشرق الآشوريَّة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٢	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الثَّاني: كنيسة مصر	يناير ٢٠٠٧م
٢/٣	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الثَّالث: الكنائس الشَّرقيَّة القديمة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٤	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الرَّابع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥م
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها (طبعة ثانية)	مايو ٢٠٠٨م
٢/٦	مُعجم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٤م
٢/٧	مُعجم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّاني (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥م
٢/٨	مُعجم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالث (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٨م

• السِّلسلة الثَّالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٣/١	معموديَّة الماء والرُّوح	يناير ٢٠٠٣م
٣/٢	سرّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس	مارس ٢٠٠٧
٣/٣	تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر	نوفمبر ٢٠٠٥م
٣/٤	صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر	يناير ٢٠٠٦م
٣/٥	القدَّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الأوَّل	يناير ٢٠٠٨م

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النّشر
٣/٦	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الثّاني	يناير ٢٠٠٨م
٣/٧	الدُّبلة والإكليل	مارس ٢٠٠٥م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السّواعي	إبريل ٢٠٠٦م
٣/٩	التّاريخ الطّقسي لسرّ التّوبة والاعتراف	أكتوبر ٢٠٠٧م

- **السّلسلة الرّابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة**

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النّشر
٤/١	الزّمن الطّقسي من عيد النّيروز إلى عيد الصّليب	لم يصدر بعد

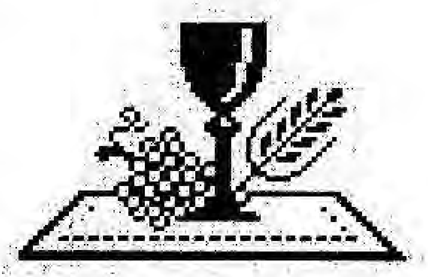

يُطلب من

مكتبة مجلّة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - القاهرة ت/ ٢٥٧٧٠٦١٤

والمكتبات المسيحيّة والكنسيّة

كما يُطلب من

الأستاذ المحاسب **مينا سمير أنطون** ت/ ٠١٠١١١٦٦١٨

E-mail: minasas2001@yahoo.com

القدّاس الإلهي

هو خروج من هذا العالم، وارتقاء إلى السّماء. والمذبح المقدّس هو رمز هذا الارتقاء ووسيلة تحقيقه. فالمسيح صعد إلى سماء الأسرار، وسماء الأسرار هي الكنيسة. وبالقدّاس الإلهي في الكنيسة نبلغ المسيح حياة الكنيسة وخبرها وإيمانها.

وسرُّ الإفخارستيّا هو سرٌّ تحوطه الهيبة والجلال، وتتباين طقوسه البديعة بين كنيسة وأخرى، إلاّ أنه يمارس في كل منها وسط أجواء من القُدسيّة، بأيقونات وشموع وبخور وألحان، وسجود وقيام، وركوع وبسط يدين، وإحناء رأس ورفع عينين إلى السّماء، مصحوبة كلُّها بنصوص ليتورجيّة تتّفق في خطوطها الأساسيّة الأوليّة بغاية الإتقان.

والكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز إن كان يشير أحياناً إلى الجانب اللاهوتي أو الرُّوحي للقدّاس الإلهي، إلاّ أنه يركّز أساساً على الجانب الطّقسي العملي، أي الترتيب الطّقسي للقدّاس الإلهي، كيف كان شكله الأوّلي البسيط؟، وكيف تطوّرت ممارساته الطّقسيّة حتى صارت إلى ما هي عليه الآن؟. وهذا الجزء الأوّل يحدّثك عن طقس تقدمة الحمَل، وطقس قدّاس الموعوظين، أي قدّاس الكلمة، إلى جانب مقدّمات عامة عن القدّاس الإلهي.

Panarion
06001325 20.00
القداس الإلهي سر ملكوت الله - ج1